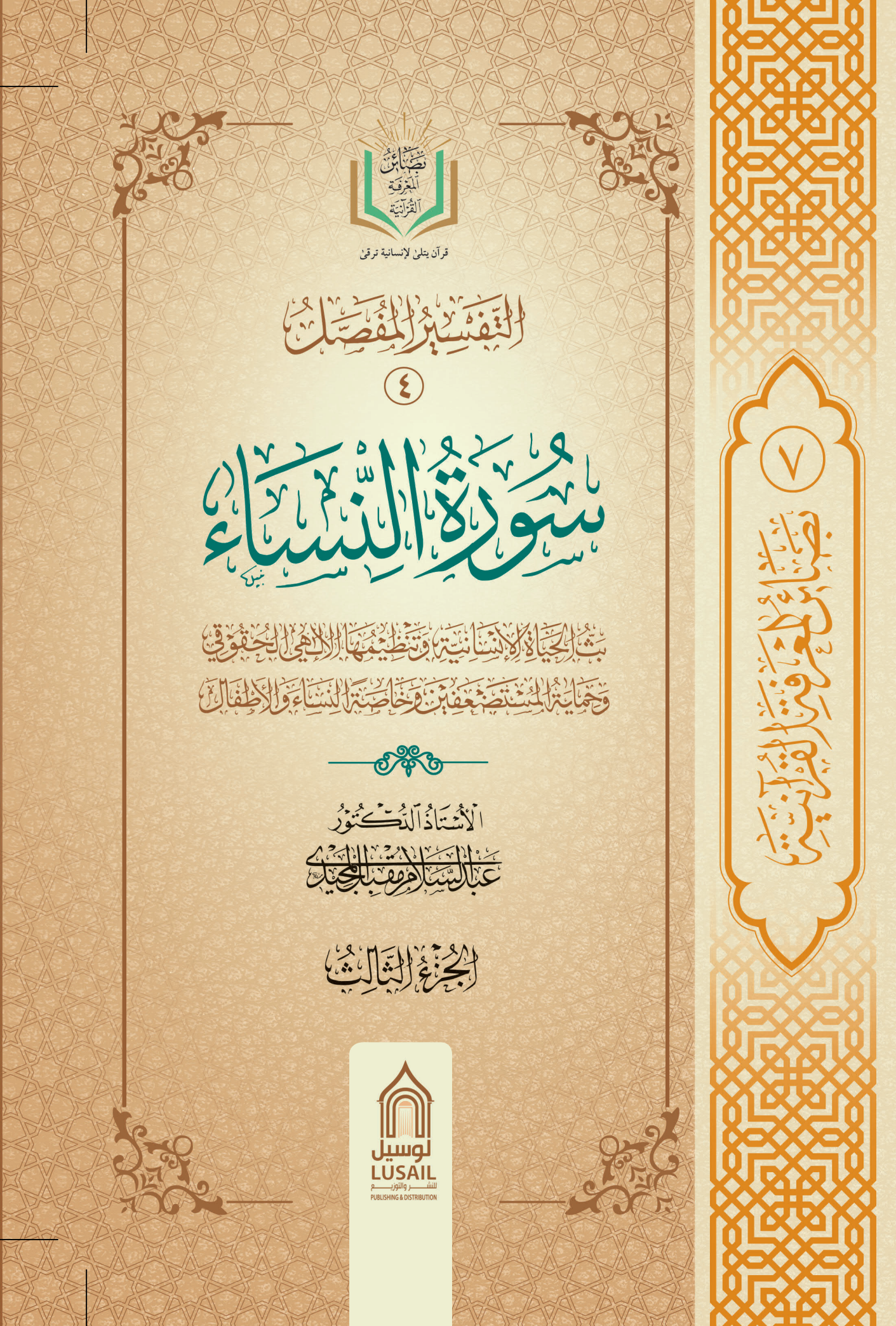
بصائر المعرفة القرآنية
قرآن يتلى لإنسانية ترقى
التفسير المفصل

سورة النساء
بث الحياة الإنسانية وتنظيمها الإلهي الحقوقي
وحماية المستضعفين وخاصة النساء والأطفال
الأستاذ الدكتور
عبد السلام مقبل المجيدي
الجزء الثالث
لوسيل
LUSAIL
للنشر والتوزيع
PUBLISHING & DISTRIBUTION

بصائر المعرفة القرآنية

نصائح المعرفة القرآنية

قرآن يتلى لإنسانية ترقى

سورة النساء

٣

بسم الله الرحمن الرحيم



برعاية

BRIGHTNESS
LIMITED

بصائر المعرفة القرآنية

(٧)

التفسير المفصل في تسوير السور القرآنية

(٤)

سورة النساء

بث الحياة الإنسانية وتنظيمها الإلهي الحقوقي
وحماية المستضعفين وخاصة النساء والأطفال

الأستاذ الدكتور
عبد السلام مقبل المجيدي

الجزء الثالث

لوسيل
LUSAIL
للنشر والتوزيع
PUBLISHING & DISTRIBUTION

الكتاب
التفسير المفصل
4 سورة النساء
بث الحياة الإنسانية
وتنظيمها الإلهي الحقوقي وحماية المستضعفين
خاصة النساء والأطفال
تاليف
أ.د/ عبد السلام بن مقبل المجيدي
أستاذ الدراسات القرآنية في كلية الشريعة ـ جامعة قطر
جميع الحقوق محفوظة
رقم الإيداع بدار الكتب القطرية
2021/540
الرقم الدولي (ISBN)
978 992 715 411 9
الطبعة الأولىٰ: 2021
التحرير والتدقيق
د/ سعيد بن دحباج– د/ حمود ردمان – أ/ أديب المخلافي – دار لوسيل
وقام بتحكيم الكتاب إثنان من الدكاترة المتخصصين
التنفيذ الطباعي
شركة الخليج للنشر والتوزيع
الناشر
دار لوسيل للنشر والتوزيع



+974 44 17 73 11 +974 44 17 73 22 +974 50 80 98 89 Doha,Qatar,64040
@darlusail darlusail@darlusail.com www.darlusail.com



المحور السادس

التنظيم الإلهي للسلطة القضائية لحماية القسط في الحقوق الإنسانية (النساء:١٠٥-١٣٦)



المناسبة والاتصال:

إنه المحور القضائي.. يأتي في موضعه المناسب من السورة.

فبعد أن أنار **المحور الأول** للبشرية الطريق بذكر الحقوق المالية للمستضعفين، وذلك في الآيات (النساء:٢-١٤).

وبنى **المحور الثاني** الحدود الضابطة للبناء الأسري الذي يمثل نواة بث الرجال والنساء في الأرض، وذلك في الآيات (النساء:١٥-٢٥).

وجاء **المحور الثالث** ليبني الإنسانية على حراسة المال والنفس، وحماية الحقوق الأسرية والمجتمعية العامة (النساء:٢٦-٤٣).

وجاء **المحور الرابع** بعده ليحمي الإنسانية فيه على مستوى أعلى، وذلك من خلال تكوين الإدارة الراشدة التي تؤدي الحقوق إلى أصحابها، وهنا لا بد من تحديد الطغاة أهل الضلالة والإضلال الذين يتلاعبون بالحقوق الإنسانية، ويمنعون قيام الإدارة الراشدة (النساء:٤٤-٧٠).

ثم جاء **المحور الخامس** لتتم الحراسة للإنسانية فيه بصورة مختلفة أكبر من السابق، حيث بنى الله فيه المجتمع الحقوقي في المدينة على إرساء السلام في العالم، وقرر أن ذلك لا يتحقق إلا أن يكون مصاحبًا بسياسة (أخذ الحِذْر) من أهل الشر، ونصرة المستضعفين في الأرض، وذلك في الآيات (النساء:٧١-١٠٤).

وبعد بيان الحقوق المناسبة لتكتمل أركان الحماية للإنسانية، وبثها في الأرض في المحاور السابقة جاء **المحور السادس** (النساء:١٠٥-١٣٦) ليذكرنا بشروط القضاء وآدابه، وذلك لأن القضاء ملاذ المظلومين للحصول على حقوقهم باعتباره أعلى سلطة أرضية، فإن النزاع قد يقع بين المذكورين في المحور الأول

وهم الطبقات المستضعفة والفئات التي تقوم على حقوقهم، والنزاع قد يقع بين بعض أطراف المحور الثاني ممن ذكر الله أنهم قد يأتون الفاحشة أو من أقرباء الأسر، والنزاع قد يقع بين أطرافٍ ممن ذكروا في المحور الثالث حول أكل المال أو واجبات طرفي الأسرة، أو حول منع الحقوق للأسرة المركزية والكبيرة.

والنزاع قد يقع بين أطراف الإدارة الراشدة ممن ذكروا في المحور الرابع كما في قوله تعالى جده: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ (النساء: ٥٩)، والنزاع قد يقع بين الأطراف الذين ذكروا في المحور الخامس وخاصة ما يتعلق بفهم قضايا الأمن والخوف، وتفسير الاتفاقيات المتعلقة بالسلم، فجاء المحور القضائي في هذا الموقع من السورة ليكون إليه المرجع في حفظ الحقوق المتعلقة بالإنسانية، وليفصل هذا المحور معنى قول الله جل ذكره فيما سبق: ﴿وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ (النساء: ٥٨).

فتضمن هذا المحور الدفاع عن حقوق المظلومين وبيان حقوقهم في المحاكم وغيرها، وفَصَّل أنظمة السلطة القضائية، وآداب القضاة، والمحامين، والمؤسسات الحقوقية؛ لكي تنتصر لحقوق المظلومين عند التحاكم، مهما أوتي خصومهم من سلطة، ونفوذ إعلامي، وإداري، وقد يسخرون مؤسسات حقوقية لخدمتهم، تنصرهم على المستضعفين، باختلاق حججٍ، أو جماعات ضغطٍ تنصرهم.

وقد فصل الله ذلك في هذا المحور بصورةٍ قانونيةٍ تربويةٍ جاذبةٍ، كما ترى نقطةً اتصاليةً ثانية ها هنا؛ إذ حدد الله جل وعلا في آخر المحور السابق أحد أهم الأعداء الذين ينبغي أن تتعامل معهم الاستراتيجية الأمنية وهم الكفار فقال: ﴿إِنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمۡ عَدُوّٗا مُّبِينٗا﴾ (النساء: ١٠١)، وحتى يتم التوازن في النظر أراد أن يبين أن التعامل معهم يقوم وفق مبدأ الحقوق، والقيام بالحق والحكم بالعدل، فهم ليسوا

معتدين جميعًا، بل قد يُعتدَى عليهم، فيجب نصرتهم عند ذلك، ولذا كانت توجيهات الآيات عامة في الحكم بين الناس بغض النظر عن دينهم ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ (النساء: ١٠٥)، وقد قيل: بأن من أسباب نزول هذه الآيات أن طرفًا يهوديًا في قضية منازعة كان مظلومًا أمام دعوى من ينتسب إلى الإسلام، وبذا يستبين لنا أن وصف المعتدي بالكافر وصفٌ لواقع الذين كانوا يعتدون على المسلمين أيام النبي ﷺ، وإلا فقد يوجد المسالم منهم كما قد يوجد الباغي المحارب المنتسب إلى المسلمين، وأما الحساب على عقيدة الإنسان فليس محله في الدنيا بل في الآخرة، والوصف بالكفر ليس وصفًا يترتب عليه حكمٌ جنائي في الدنيا بل يترتب عليه النتائج الأخروية، وفي هذا المحور الأقسام الآتية:

المحور السادس: التنظيم الإلهي للسلطة القضائية لحماية القسط في الحقوق الإنسانية (النساء: ٥٠١-٦٣١)

القسم الأول	أهم القوانين القضائية التي تضمن حق المظلومين [النساء:١٠٥-١١٣]
القسم الثاني	(بث الحياة الإنسانية) يقتضي إقامة الجهود الفردية والمؤسسية التي تهتم بالمجتمعات، وتعزز وظيفة القضاء في القيام بالقسط، والتحذير من التنظيمات المضادة التي تشاق الحياة القويمة [النساء:١١٤-١١٥]
القسم الثالث	حق العالم في معرفة أخطر الأهداف الشيطانية التي تحرف الإنسانية عن وجود مرجعية دستورية قضائية نقية، وتجعلها عرضة للافتراس الشيطاني [النساء:١١٦-١٢٢]
القسم الرابع	العمل أساس القسط في الحقوق الحيوية، والفصل القضائي، وأسس النجاة من الخطة الشيطانية، والفوز بنعيم الاصطفاء الإلهي [النساء:١٢٣-١٢٦]
القسم الخامس	من أهم أسس القسط في الواقع الإنساني: تطبيق فتاوى الانتصار الحقوقي، والقضائي للنساء والأطفال [النساء:١٢٧]
القسم السادس	النساء بين الاستغلال الشيطاني، والانتصار القضائي: الانتصار الحقوقي للمرأة عند نشوز الزوج، والمحافظة على العلاقات الاجتماعية بعد الفراق [النساء:١٢٨-١٣٠]
القسم السابع	أعمدة الحياة الحقوقية العالمية السعيدة [النساء:١٣١-١٣٦]

شكل (١٠) صورة توضح أقسام المحور السادس

القسم الأول

أهم القوانين القضائية التي تضمن حق المظلومين
(النساء:١٠٥-١١٣)

آيات هذا القسم:

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ١٠٥ وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٠٦ وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا ١٠٧ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ١٠٨ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلٗا ١٠٩ وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١١٠ وَمَن يَكۡسِبۡ إِثۡمٗا فَإِنَّمَا يَكۡسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١١١ وَمَن يَكۡسِبۡ خَطِيٓـَٔةً أَوۡ إِثۡمٗا ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ بَرِيٓـٔٗا فَقَدِ ٱحۡتَمَلَ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ١١٢ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ وَرَحۡمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيۡءٖۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا﴾ (النساء:١٠٥-١١٣).

قصة النزول التاريخي لهذه الآيات تبين طبيعة هذا المحور القضائي:

يروى لنا قتادة بن النعمان [١] قصة نزول هذه الآيات فيقول: كان أهل بيت منا يقال لهم بنو أبيرق بشر وبشير ومبشر، وكان بشير رجلًا منافقًا يقول الشعر يهجو به أصحاب رسول الله ﷺ، ثم يُنحله بعض العرب ثم يقول: قال فلان كذا وكذا قال فلان كذا وكذا. فإذا سمع أصحاب رسول الله ﷺ ذلك الشعر قالوا: والله ما يقول هذا الشعر إلا هذا الخبيث أو كما قال الرجل، وقالوا ابن الأبيرق قالها.

فقال:

أَوَ كُلَّمَا قَالَ الرِّجَالُ قَصِيدَةً أَضِمُوا وَقَالُوا: ابْنُ الأَبَيْرِقِ قَالَهَا!
مُتَخَمِّطِينَ كَأَنَّنِي أَخْشَاهُمُ جَدَعَ الإِلَهُ أُنُوفَهُمْ فَأَبَانَهَا[٢]

قال: وكان أهل بيت حاجةٍ وفاقةٍ في الجاهلية والإسلام، وكان الناس إنما طعامهم بالمدينة التمر والشعير، وكان الرجل إذا كان له يسار فقدمت ضافطة من الشام من الدرمك [٣] ابتاع الرجل منها، فخص بها نفسه، وأما العيال فإنما طعامهم التمر والشعير، فقدمت ضافطة من الشام، فابتاع عمي رِفاعة بن زيد حملًا من الدرمك، فجعله في مشربة له، وفي المشربة سلاح ودرع وسيف، فعدي عليه من

(١) وَفَدَ عَلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ العَزِيزِ ﷺ رَجُلٌ مِنْ ذُرِّيّة قتادة بعد ذلك زمن التابعين فَسَأَلَهُ عُمَرُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَقَالَ:

أَنَا ابْنُ الَّذِي سَالَتْ عَلَى الخَدّ عَيْنُهُ فَرُدّتْ بِكَفّ المُصْطَفَى أَيّمَا رَدّ
فَعَادَتْ كَمَا كَانَتْ لِأَوّلِ أَمْرِهَ فَيَا حُسْنَ مَا عَيْنٍ وَيَا حُسْنَ مَا خَدّ

فَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ العَزِيزِ ﷺ

تِلْكَ المَكَارِمُ لَا قَعْبَانِ مِنْ لَبَنٍ شِيبَا بِمَاءِ فَعَادَا بَعْدُ أَبْوَالَا

(٢) في حاشية شاكر على تفسير الطبري (٩/ ١٧٧): «وقوله: «أضموا» أي: غضبوا عليه وحقدوا. وقوله: «متخمطين»، قد غضبوا وهدروا وثاروا وأجلبوا. رجل متخمط: شديد الغضب له ثورة وجلبة».

(٣) في تحفة الأحوذي (٧ / ٣٥٧): الضَّافِطُ وَالضَّفَّاطُ: مَنْ يَجْلِبُ المِيرَةَ وَالمَتَاعَ إِلَى المُدُنِ، والدرمك هُوَ الدَّقِيقُ الحَوَارِيُّ.

تحت البيت فنقبت المشربة، وأخذ الطعام والسلاح، فلما أصبح أتاني عمي رفاعة، فقال: يا ابن أخي إنه قد عدي علينا في ليلتنا هذه، ونقبت مشربتنا فذهب بطعامنا وسلاحنا، فتحسسنا في الدار. وسألنا، فقيل لنا: قد رأينا بني أبيرق استوقدوا في هذه الليلة، ولا نرى فيما نرى إلا على بعض طعامكم. قال: وكان بنو أبيرق قالوا - ونحن نسأل في الدار- والله ما نرى صاحبكم إلا لبيدَ بن سهلٍ رجلٌ منا له صلاح وإسلام، فلما سمع لبيد اخترط سيفه وقال: أنا أسرق؟ فوالله ليخالطنكم هذا السيف أو لتبينن هذه السرقة. قالوا: إليك عنها أيها الرجل فما أنت بصاحبها (فوالله إنك لبريء من هذه السرقة فقال: كلا وقد زعمتم). فسألنا في الدار حتى لم نشك أنهم أصحابها فقال لي عمي: يا ابن أخي لو أتيت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له. قال قتادة: فأتيت رسول الله ﷺ. فقلت: إن أهل بيت منا أهل جفاء عمدوا إلى عمي رِفاعة بن زيد، فنقبوا مشربة له وأخذوا سلاحه وطعامه فليردوا علينا سلاحنا، فأما الطعام فلا حاجة لنا فيه. فقال النبي ﷺ: سآمر في ذلك فلما سمع بنو أبيرق أتوا رجلًا منهم يقال له: أسير بن عروة فكلموه في ذلك، فاجتمع في ذلك ناس من أهل الدار فقالوا: يا رسول الله إن قتادة بن النعمان وعمه عمدوا إلى أهل بيت منا أهل إسلام وصلاح يرمونهم بالسرقة من غير بينة ولا ثبت. قال قتادة: فأتيت رسول الله ﷺ، فكلمته فقال: عمدت إلى أهل بيت ذكر منهم إسلام وصلاح ترميهم بالسرقة على غير تثبت ولا بينة. قال: فرجعت ولوددت أني خرجت من بعض مالي ولم أكلم رسول الله ﷺ في ذلك، فأتاني عمي رفاعة فقال: يا ابن أخي ما صنعت؟ فأخبرته بما قال لي رسول الله ﷺ فقال: الله المستعان فلم يلبث أن نزل القرآن ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا﴾ بني أبيرق ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ﴾ أي: مما قلت لقتادة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ ﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا﴾ ﴿يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ إلى

قوله ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي: لو استغفروا الله لغفر لهم ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ قولهم للبيد: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ إلى قوله ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ فلما نزل القرآن أتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالسلاح فرده إلى رفاعة فقال قتادة: لما أتيت عمي بالسلاح وكان شيخًا قد عمي أو عشي في الجاهلية وكنت أرى إسلامه مدخولًا فلما أتيته بالسلاح قال: يا ابن أخي هو في سبيل الله فعرفت أن إسلامه كان صحيحًا، فلما نزل القرآن لحق بشير بالمشركين فنزل على سلافة بنت سعد بن سمية فأنزل الله ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ فلما نزل على سلافة (فوقع برسول الله ﷺ وأصحابه يشتمهم فرماه حسان بن ثابت بأبيات فقال:

أيا سارق الدرعين إن كنت ذاكرًا ... بذي كرم بين الرجال أوادعه
فَقَدْ أَنْزَلَتْهُ بِنْتُ سَعْدٍ، فأَصْبَحَتْ ... يُنَازِعُهَا جِلْدَ اسْتِها وَتُنَازِعُهْ
فهلا أسيرًا جئت جارك راغبًا ... إليه ولم تعمد له فتدافعه
ظننتم بأن يخفى الذي قد فعلتم ... وفيكم نبي عنده الوحي واضعه
فلولا رجال منكم تشتمونهم ... بذاك لقد حلت عليه طوالعه
فإن تذكروا كعبًا إلى ما نسبتم ... فهم من أديم ليس فيه أكارعه
وجدتهم يرجونكم قد علمتم ... كما الغيث يرجيه السمين وتابعه

فرماها حسان بن ثابت بأبيات من شعره، فأخذت رحله فوضعته على رأسها، ثم خرجت به فرمت به في الأبطح ثم قالت: أهديت لي شعر حسان؟ ما كنت تأتيني بخير (فلما أخرجته لحق بالطائف فدخل بيتًا ليس فيه أحد فوقع عليه فقتله، فجعلت

قريش تقول: و الله لا يفارق محمدًا أحدٌ من أصحابه بخير)[١].

فقد نصر الوحي المنزل قضية هؤلاء المظلومين، ويسبب هذا إشكالًا عند قائل يقول: في قصة بشر هناك وحي نزل على الرسول ﷺ وقد انقطع الوحي بعده، وكم من المظلومين في المحاكم لا يجدون من ينصفهم.. فكيف السبيل؟

الجواب: عند تطبيق هذه التفصيلات القضائية الدقيقة بدقة وتولية الأكفاء يقام العدل؛ لأن الله سبحانه وتعالى وضع عددًا من الضوابط والقوانين التي نصل من خلالها إلى الحقيقة، وقد ابتلى الله البشرية ليظهر لأبنائها مدى صدقهم في تطبيق التوجيهات الإلهية حتى يتم إنقاذ الإنسانية من هذا الجور المحيط.. فإن لم يكن فلا تحسبن الله غافلًا عما يعمل الظالمون، فلننظر في القوانين التي تهدينا الآيات لها.

القانون الأول: القرآن مصدر الأحكام القضائية.

ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ ، فالقرآن حَقٌّ مِنَ اللَّهِ، يَتَضَمَّنُ الحَقَّ فِي أخباره، وأحكامه، ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَ﴾ (الإسراء:١٠٥)، ويبينه النبي ﷺ بفهمه وتطبيقاته:

هذا يقتضي أن يكون المرتبطون بالقضاء قضاة ومحامين ومدَّعين على درجةٍ عالية من الثقافة الشرعية، فهذا قانونٌ دستوريٌ، والحق هو الأمر الثابت الذي لا يقوم الكون إلا به، وذلك يعني أن تعطى الحقوق إلى أهلها حتى يبقى الأمر الثابت متسقًا في الكون لا يعتريه خلل.

والباء للمصاحبة والاستعانة في وقتٍ واحد أي: أنزلناه مصاحبًا للحق، وأنزلناه إليك لتستعين بالحق الذي فيه في إرجاع الحق لأصحابه عندما تقضي بين

(١) سنن الترمذي بتحقيق شاكر (٥ / ٢٤٤)، وحسنه الألباني، والزيادات بين المعكوفين من المستدرك على الصحيحين للحاكم مع تعليقات الذهبي في التلخيص (٤ / ٤٢٦)، ورواه بالسياق ذاته وأتم الطبري ت شاكر (٩/ ١٧٨).

المتخاصمين، ولعظمة هذه البصيرة قال الله: ﴿إِنَّآ﴾ وهذا ضمير المتكلم للتعظيم، فتكلم عن نفسه -جل مجده- بما يدل على الإجلال والتعظيم، لأن الله تعالى يريد أن يبين أنه أوصل الحقوق لجميع المخلوقين، ولا يوصل الحقوق لجميع المخلوقين إلا الله سبحانه وتعالى.

ووصف القرآن بالكتاب لبيان أنه مكتوبٌ لا يعتمد فيه على الحفظ الصدري فقط إنما يعتمد فيه على الحفظ الصدري والكتابي، والكتابة شأن الدساتير الثابتة.

القانون الثاني: هدف الإنزال للكتاب الحكم بين الناس بما يري الله الرسول ﷺ في الكتاب، ﴿لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾، فهذا المصدر الثاني من المصادر القضائية، وهو السنة. فكلمة: ﴿أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾، تدل على السنة حيث يحكم القاضي بين الناس بما أراه الله في الكتاب، وليس بما رآه في تفكيره، كما تدل على الاجتهاد في استنباط الأحكام من القرآن.

وكلمة ﴿أَرَىٰكَ﴾ تتعدى إلى مفعولين: المفعول الأول ضمير الكاف المخاطب، ولفظ الجلالة الله فاعل، والمفعول الثاني محذوف دل عليه المقام تقديره بما أراكه الله، أي فيه في القرآن، وهذا يقتضي الاجتهاد، وقد تتساءل: ألا يدل قوله ﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ على الوحي فقط؟

الجواب: بل تدل على الوحي والاجتهاد معًا، لأن الوحي إما أن يكون نازلًا ابتداء في خصوص القضية، وإما أن تدل عموماته عليها، فلا بد من الاجتهاد لاستنباط حكمها، فالوحي النازل على النبي ﷺ إما أن يكون توقيفيًا تعليميًا من الله، وإما أن يكون توفيقيًا، أي: أن الله سدد القاضي، فإن لم يوفق النبي ﷺ إلى الأصوب فإن الله سبحانه ينزل عليه ما يسدده لبيان الأصوب كما في سورة عبس وغيرها.

هذا بالنسبة للنبي ﷺ فكيف لغير النبي فهو لا يوحى إليه، فلابد له من الاجتهاد، ولابد من أن يبحث عن الأساليب المختلفة التي يقترب المجتهد بها من الصواب، كالاجتهاد الجماعي، فيتولى القضاء مجموعة، وتتكون المحكمة من هيئة قضائية بدلًا من قاضٍ واحد، وقد ذكر الله جل شأنه الصيغة الجماعية في بعض الأحكام القضائية فقال: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ (المائدة: ٩٥)، فهنا قال الله: ﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾، وهناك قال: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ (المائدة: ٩٥) والجمع بين الآيتين يلهمنا أن بعض القضايا تكون واضحةً جدًا، فلا يحتاج فيها إلا لقاض واحد، وبعض القضايا لابد فيها من اجتهاد جماعي فتتكون هيئة قضائية مكونة من أكثر من قاضٍ، ويتم فيها تداول الرأي، ولذا قد يتأخر صدور الحكم، وقد يستعينون بذوي الخبرة وبمساعدين آخرين حسب القضية، حتى يتحقق أن يكون القاضي مفزع الناس في تأدية الأمانة إلى أهلها، ولا بد أن يبذل جميع الوسائل التي يظن أنه وصل بها إلى الاجتهاد الصواب في هذه القضية.

فيكون معنى قوله جل جلاله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ (النساء: ١٠٥) القرآن والسنة مصدر جميع التشريعات، حيث أنزل الله الكتاب بالحق على رسول الله ليحكم بما أراه الله، والذي أراه الله نجده في الكتاب والسنة مع اجتهاده في الوصول إلى الحق.

وَقَوْلُهُ: ﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ البَاءُ لِلْآلَةِ جَعَلَ مَا أَرَاهُ اللَّهُ إِيَّاهُ بِمَنْزِلَةِ آلَةٍ لِلْحُكْمِ؛ لِأَنَّهُ وَسِيلَةٌ إِلَى مُصَادَفَةِ العَدْلِ وَالحَقِّ وَنَفْيِ الجَوْرِ؛ إِذْ لَا يَحْتَمِلُ عِلْمُ اللَّهِ الخَطَأَ. وَالرُّؤْيَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ عِرْفَانِيَّةٌ، وَحَقِيقَتُهَا الرُّؤْيَةُ البَصَرِيَّةُ، فَأُطْلِقَتْ عَلَى مَا يُدْرَكُ بِوَجْهِ اليَقِينِ لِمُشَابَهَتِهِ الشَّيْءَ المُشَاهَدَ. وَالرُّؤْيَةُ البَصَرِيَّةُ تَنْصِبُ مَفْعُولًا وَاحِدًا فَإِذْ أُدْخِلَتْ عَلَيْهَا هَمْزَةُ التَّعْدِيَةِ نَصَبَتْ مَفْعُولَيْنِ كَمَا هُنَا، وَقَدْ حُذِفَ المَفْعُولُ الثَّانِي لِأَنَّهُ ضَمِيرُ

المَوْصُولِ، فَأَغْنَى عَنْهُ المَوْصُولُ، وَهُوَ حَذْفٌ كَثِيرٌ، وَالتَّقْدِيرُ: بِمَا أَرَاكَهُ اللَّهُ[١].

فما المكان الذي أراه الله إياه ليحكم بمقتضاه بين العباد؟ إنه الكتاب والوحي الإلهي عمومًا، ولكن السياق في الكلام عن الكتاب ويتبعه الوحي الإلهي في السنة، وَقَالَ الإِمَامُ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ القَوِيِّ الطُّوفِيُّ الحَنْبَلِيُّ فِي كِتَابِ الإِشَارَاتِ الإِلَهِيَّةِ إِلَى المَبَاحِثِ الأُصُولِيَّةِ: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾، يُحْتَمَلُ أَنَّ المُرَادَ بِمَا نَصَّهُ لَكَ فِي الكِتَابِ، وَيُحْتَمَلُ أَنَّ المُرَادَ بِمَا أَرَاكَهُ بِوَاسِطَةِ نَظَرِكَ وَاجْتِهَادِكَ فِي أَحْكَامِ الكِتَابِ وَأَدِلَّتِهِ، وَفِيهِ عَلَى هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - كَانَ يَجْتَهِدُ فِيمَا لَا نَصَّ عِنْدَهِ فِيهِ مِنَ الحَوَادِثِ وَهِيَ مَسْأَلَةُ خِلَافٍ فِي أُصُولِ الفِقْهِ[٢].

وبذا يكون ما أراه الله في الكتاب لا يخلو من ثلاث حالات:

إما وحيًا توقيفيًا بنزول آياتٍ واضحةٍ صريحة تتعلق بالمسألة التي يحكم فيها بين العباد، وإما وحيًا توفيقيًا بأن اجتهد النبي ﷺ فأقر على اجتهاده، وإما اجتهادًا نزل الوحي بإخباره عن الأصوب في موضوعه، فعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سَمِعَ جَلَبَةَ خَصْمٍ بِبَابِ حُجْرَتِهِ فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّهُ يَأْتِينِي الخَصْمُ، فَلَعَلَّ بَعْضَهُمْ أَنْ يَكُونَ أَبْلَغَ مِنْ بَعْضٍ، فَأَحْسِبُ أَنَّهُ صَادِقٌ، فَأَقْضِي لَهُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ مُسْلِمٍ فَإِنَّمَا هِيَ قِطْعَةٌ مِنَ النَّارِ فَلْيَحْمِلْهَا أَوْ يَذَرْهَا»[٣]، وعن أم سلمة قالت: جاء رجلان من الأنصار يختصمان إلى رسول الله ﷺ في مواريث بينهما قد درست ليس بينهما بينة فقال رسول الله ﷺ: «إنكم تختصمون إليَّ، وإنما أنا

(١) التحرير والتنوير (٥/ ١٩٢).

(٢) الإشارات الإلهية في القواعد الأصولية٢/ ٤٣، وانظر: تفسير المنار (٥/ ٣٢٣)، فقد استفدت منه هذا النقل قبل الرجوع إليه، وما زلت أعجب من سعة اطلاع صاحب المنار.

(٣) صحيح مسلم (٥ / ١٢٩) رقم ١٧١٣ .

بشر، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته -أو قال- لحجته من بعض؛ فإني أقضي بينكم على نحو ما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئًا، فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار يأتي بها إسطامًا في عنقه يوم القيامة فبكى الرجلان وقال كل واحد منهما: حقي لأخي فقال رسول الله ﷺ أما إذا قلتما فاذهبا فاقتسما ثم توخيا الحق ثم استهما ثم ليحلل كل واحد منكما صاحبه [١]، وعن أم سلمة قالت: أتى رسول الله ﷺ رجلان يختصمان في مواريث لهما لم تكن لهما بينة إلا دعواهما فقال النبي ﷺ فذكر مثله فبكى الرجلان وقال كل واحد منهما: حقي لك فقال لهما النبي ﷺ « أما إذ فعلتما ما فعلتما فاقتسما وتوخيا الحق ثم استهما -أي اقترعا لتعيين الحصتين- ثم تحالا» أي: ليجعل كل واحد منكما صاحبه في حل من قبله بإبراء ذمته، وفي رواية: يختصمان في مواريث وأشياء قد درست فقال: «إني إنما أقضي بينكم برأيي فيما لم ينزل علي فيه» [٢].

أما غير النبي ﷺ فيجتهد فيصيب ويخطئ، ويتواصى مع إخوانه بالحق والصبر، ومن هنا جاء الطلب للاجتهاد الجماعي، وقد نُقل عن عمر بْنِ الخَطَّابِ أَنَّهُ قَالَ: «لَا يَقُولَنَّ أَحَدٌ قَضَيْتُ بِمَا أَرَانِيَ اللَّهُ تَعَالَى؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَجْعَلْ ذَلِك إلّا لنبيّه، وَأَمَّا الوَاحِدُ مِنَّا فَرَأْيُهُ يَكُونُ ظَنًّا وَلَا يَكُونُ عِلْمًا»، ويدخل في الاجتهاد فيما يظهر العَمَلُ بِالقِيَاسِ، فحقيقته عملٌ بالنص بصورةٍ تابعة لا أصلية.

القانون الثالث: يحرم على الجهات القضائية: القاضي والمحامي والمدعي الدفاع عمن يعلمون خيانته في القضية محل النزاع بخلاف الأنظمة الوضعية والمحامين اليوم. ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ (النساء:١٠٥).

(١) أحمد(٦ / ٣٢٠) وقال الأرناؤوط: إسناده حسن.

(٢) سنن أبي داود (٢ / ٣٢٥).

أي: ولا تكن لأجل الخائنين خصيمًا، أي: مخاصمًا عنهم اغترارًا بلحنهم، وقوة مكرهم، وصلابة منطقهم، فتدافع عنهم وهم لا يستحقون ذلك، ويفسر الطبري معنى الآية تفسيرًا جميلًا يبين من خلاله سعة امتداداتها وآفاقها لتشمل المسلم وغير المسلم فيقول: «ولا تكن لمن خان مسلمًا أو معاهدًا في نفسه أو ماله ﴿خَصِيمًا﴾ تخاصم عنه، وتدفع عنه من طالبه بحقِّه الذي خانه فيه» (١).

والمعنى: ولا تكن عن الخائنين خصيمًا، وإنما استخدم اللام بدلًا من (عن) ليجمع معنيين: أي: لا تكن عن الخائنين خصيمًا، ولا تكن لهم مستخدمًا تخدم أهدافهم وأنت لا تشعر، فكأنهم تملكوك وقت دفاعك عنهم وأنت لا تحس بذلك.

والمراد من هذه البصيرة حماية حقوق المستضعفين في المحاكم والمؤسسات أمام أصحاب النفوذ الذين توفرت لهم الإمكانات فقاموا يبغون في الأرض بغير الحق، بل بعضهم يكون مؤسسات حقوقية وإفتائية تقلب الباطل حقًا والحق باطلًا.. إن الله يحذر الجهات القضائية من الدفاع عن الخونة، وكيف لا يحذرون وهم مفزع الناس الأخير ضمن الحدود البشرية لبيان الحق من الباطل:

إذا حامل القرآن مال مداهنا فمن بعده للبغي والظلم قامع

وهذه الآية تتضمن توجيهًا صارمًا للمحامين، لأن حرفة المحاماة ومهنة المحاماة من أعظم المهن درًّا للمال في هذه الأيام، والمحامي بحسب فصاحته وبقدرته على اللحن بحجته يستطيع أن يكسب القضايا، وكلما اشتهر رفع سعره، فيُظْهِرُ المجرم أمام الناس مظلومًا مضطهدًا كما قيل:

فرأوا قبحه جمالا، وعدوا نتنه والعياذ بالله طيبا

فليحذر هؤلاء من أن يدخلوا في هذه الآية.. هم ملاذ الناس لينصروا المظلوم

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ١٧٦).

لا أن يكون همهم الأول أن ينتصروا لمن يأتي إليهم على أي حال سواء أكان مظلومًا أم ظالمًا.

ومن الخلل الكبير بناء المحاكمات على أن ينصر المحامي من لجأ إليه ولو كان ظالمًا، وأن يقف المدعي ضده ولو كان مظلومًا، بل ينبغي أن تجتهد الجهتان في الوصول إلى الحقيقة، ويسددان القاضي أو هيئة القضاء بعد ذلك، هذا يحتاج إلى انقلاب حقوقي حقيقي لتغيير العقلية والثقافة السائدة الآن في المؤسسات الحقوقية سواء كانت مؤسسات أهلية أم حكومية.

القانون الرابع: لا بد أن تستصحب الجهات القضائية وأطراف التقاضي استغفار الله قبل التقاضي وأثناءه وبعده، فلذلك دوره في إظهار الحقيقة، وخوفهم من نصرة الظالم.ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ (النساء: ١٠٦).

ففي التقاضي خمسة أطراف على الأقل: هيئة القضاء والمدعي والمحامي والطرفان المتخاصمان، وهؤلاء جميعا ينبغي أن يستغفروا الله، فالتوجيه للكل لكنه في المقام الأول للحاكم، أي القاضي ويدخل ضمن ذلك المحامي لأنه بمثابة الحاكم، وكذلك المدعي بمثابة حاكم، لأن كلًا منهم يريد أن يظهر الطرف الذي معه بأنه صاحب الحق، ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ﴾ خطاب لجميعهم لخطورة القضاء، واحتمال ألا يصيبوا الحقيقة فيه، لشدة الالتباس وكثرة التزييف للحقائق، والاستغفار قد يردهم حين يبصرون جزءًا من الحقيقة ثم يخفونها خوفًا من أن يُفضحوا من أنهم دافعوا عن ظالم وهو في صورة مظلوم، أو عن مظلوم في صورة ظالم.

ومن أهم آداب القضاء أن يستغفر القاضي ربه خوفًا من الجور في الحكم، فيستغفر عند الحكم للتبعات الكبيرة المترتبة عليه، ثم يتأكد الاستغفار عند الخوف

من أن ينصر الظالم ويخذل المظلوم، وهذا يدل على خطورة القضاء بمجرد قوة الحجة بادي الرأي دون التثبت اللازم لمعرفة الحق، وإذا كان أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ يقول: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: وَاللَّهِ إِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي اليَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً [١]، وفي رواية «إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي اليَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ» [٢]، فذاك بصورةٍ عامة فكيف في مجلس القضاء والحكم بين العباد؟ ولذا قال الله: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾، ونقل الرازي رأيًا غريبًا هنا فقال: «يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ المُرَادُ: وَاسْتَغْفِرِ اللَّه لِأُولَئِكَ الَّذِينَ يَذُبُّونَ عَنْ طُعْمَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ يظهروا براءته عن السرقة» [٣]

ما رأيك بهذا القول الذي ينقله هذا الجهبذ العبقري؟

لن أقول: هذا أقرب إلى تحريف الكلم عن مواضعه؛ ولكنني أؤكد على أن الأصل إجراء الآية على ظاهرها، والخطاب على أنه للنبي ﷺ فهو لكل فردٍ في الأمة جرت عليه تلك الحالة من الوقوف في مجلس القضاء، وسر طلب الاستغفار من النبي ﷺ رفع مقام النبي ﷺ ليكون أكمل الخلق في عبوديته لربه، ولذا قال البقاعي: «وهذا الاستغفار لا عن ذنب؛ إذ هو منزه عن ذلك، معصوم منه، ولكن عن مقام عال تام للارتقاء إلى أعلى منه وأتم» [٤]، إلا إنه يمكن أن نقرر ما هو أليق بالمقام السامي للنبي ﷺ: «وَاسْتَغْفِرِ اللهَ مِمَّا يَعْرِضُ لَكَ مِنْ شُئُونِ البَشَرِ مِنْ نَحْوِ مَيْلٍ إِلَى مَنْ تَرَاهُ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ، أَوِ الرُّكُونُ إِلَى مُسْلِمٍ لِأَجْلِ إِسْلَامِهِ تَحْسِينًا لِلظَّنِّ بِهِ» [٥] فهذه

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٨ / ٨٣).

(٢) صحيح مسلم (٨ / ٧٢) رقم ٢٧٠٢.

(٣) مفاتح الغيب١١/ ٢١٣.

(٤) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٥/ ٣٨٩).

(٥) تفسير المنار (٥/ ٣٢٤).

حكمةٌ ثانية ظاهرة في تربية هذه الأمة على النظر الدقيق لمتطلبات القضاء؛ فإذا كان النبي ﷺ يطلب منه زيادة التحري في أمور القضاء فكيف غيره.

القانون الخامس: مهمة الجهات القضائية، ويدخل فيها: المحامون والمدعون أن يحققوا في المسائل، فينصفوا المظلوم من الظالم لا أن يدافعوا عمن كان ألحن بحجته، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ (النساء:١٠٧).

الجدَلُ: طريقة في المناقشة والاستدلال صوَّرها الفلاسفة بصور مختلفة، وهو عند مَناطقة المسلمين: قياسٌ مؤَلَّف من مشهورات أَو مُسلَّمات، وهو مشتق من جَدَلْتُ الحَبْلَ أَجْدِلُه جَدْلًا إِذا شددت فَتْله وفَتَلْتَه فَتْلًا مُحْكَمًا ؛ ومنه قيل لزمام الناقة الجَدِيل، ومنه جارية مَجْدُولة الخَلْق حَسَنة الجَدْل، والجَدِيل: الزمام المجدول من أَدم؛ ومنه قول امرئ القيس:

وكَشْحٍ لطيفٍ كالجَدِيل مُخَصَّرٍ وسَاقٍ كأُنْبُوب السَّقِيِّ المُذلَّلِ

فالمعنى: لا تناقش مناقشة الذي يُحكِمُ كلامه، ويفتل أقواله فتلًا دقيقًا محكمًا في الدفاع عن الخائنين.. وهذا القانون يقتضي ألا يكون دور أي جهة قضائية تقمص الدفاع عن أحد الخصمين لأنه أقوى في حشد الأدلة، واللعب في الألفاظ، فقال: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: لا تراجع عن طرفٍ في الخصومة مراجعة مدافعٍ عنه دفاع المتيقن صحة دعواه كأنك قد أحكمت القضية ووصلت إلى النتيجة، وأنت لم تحقق في المسألة على جهة الاستقصاء، فالجدل مِنْ بَابِ اسْتِحْكَامِ الشَّيْءِ فِي اسْتِرْسَالٍ يَكُونُ فِيهِ، وَامْتِدَادِ الخُصُومَةِ وَمُرَاجَعَةِ الكَلَامِ[1].

ثم بين أن الألحن بالحجة قد يكون هو الطرف الخائن من خلال كشف الله

(١) مقاييس اللغة (١/ ٤٣٣).

لخيانة هذا الطرف المجرم الذي زعم أنه مظلوم أمام النبي ﷺ فقال: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ فـ﴿يَخْتَانُونَ﴾ بِمَعْنَى يَخُونُونَ، افْتِعَالٌ من خان يدل عَلَى التَّكَلُّفِ وَالرغبة في الخيانة لدرجة بذل المحاولات المتكررة المختلفة لتحقيق ذلك، وأتى بلفظ المضارع لتجدد تلك الخيانة منهم، وتعمدهم لها.

ومقتضى هذه المادة تحريم الدفاع عن الخائنين، وهذه المادة تعطي مفهومًا منسيًا في العالم الحقوقي القائم على الفصاحة المحضة ومحاولة الانتصار حسب القدرة الإعلامية، ولذا كان التهديد في هذه الآية عظيمًا جدًا، وذلك أنه سبحانه وتعالى عاتب خير الخلق عنده وأكرمهم لديه هذه المعاتبة وما فعل إلا الحق في الظاهر، فكيف بمن يعلم إجرام المجرمين ثم يدافع عنهم أمام العالمين مغترًا بقدراته الإعلامية؟

ولكن كيف تراهم يختاتون أنفسهم؟

إذا كان معنى ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ الظاهر المتبادر منها يكون اختيانهم لها بالمعاصي الذاتية أو العدوان على حقوق الآخرين مما يعود بالضرر على أنفسهم وعلى مجتمعهم، وإذا تم ملء المجتمع بالفساد حدث الظلم والخلل، وتضرر الخائن نفسه على المدى البعيد، وهذا في الدنيا وأما في الآخرة فالحساب شديد؛ إذ يكون على مثقال الذر. أما إذا كان معنى ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ إخوانهم كما هو المصطلح القرآني فيكون المراد ولا تجادل عن الذين يعتادون خيانة إخوانهم كما في قوله ﴿تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ﴾ (البَقَرَة: ٨٥)، وَقَوْلِهِ ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ (النُّور: ٦١).

وقد تتساءل: ما الفرق بين هذه الآية والتي قبلها حيث قال تعالى ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾؟

هذا سؤال مثيرٌ للتدبر والتفكير، فهناك قال: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ أي: ولا تكن مخاصمًا عن الخائنين، ولكنه بدلًا أن يقول: عن الخائنين قال ﴿لِّلْخَآئِنِينَ﴾ ليضمنها معنى أنك في جانبهم ومستخدمٌ من قبلهم، وهنا قال: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ فهناك ذكر جل ثناؤه أنك ستكون خصيمًا، أي: مخاصمًا مع الخائنين ضد المظلومين، ولا يقتضي ذلك بالضرورة أن تتكلم، وإنما تظن أن فلانًا ألحن بحجته، فتختار جانبه، دون أن يظهر بالضرورة أنك تدافع عنه وتجادل عنه، أما هنا فقد ذكر الله أن حماستك للدفاع عن الخائنين الذين تعتقد أنهم مظلومون قد بلغ حد الجدل فقال: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ﴾ والجَدْل يقتضي فتل الكلام بعضه على بعضٍ ليتم إحكامه، وهو تصويرٌ لشدة منافحة النبي ﷺ عن متهم لم تثبت إدانته.

فالآية وصفت النبي ﷺ وهو يأخذ بالأصل في بقاء المرء بريئًا حتى تثبت إدانته، وبقاؤه على البراءة الأصلية يقتضي الدفاع عنه، والذب عن عرضه، والمجادلة في نصرته حتى تظهر البينةُ فتثبت غير ذلك.. فهل يُلام جناب المصطفى ﷺ؟ كلا! بل اتبع القوانين الشرعية الأخرى حتى أظهر الله بوحيٍ منه أن هذا المتهم خائن، وأنه لا يستحق الدفاع عنه.

وهذه أوضح في الرد على المحامين الذين ينصرون من جاء إليهم ولو كانوا ظالمين، وفي الرد على جانب (الادعاء) المعاصر الذي يمثله وكيل النيابة حيث تراه يظهر الوقوف ضد المتهم في القضية ولو كان مظلومًا دون البحث الدقيق عن الموضوع، والدفاع عن المتهم إن لم توجد بينة على إدانته.

القانون السادس: يجب إنشاء أجهزة خاصة لمتابعة ما لا يقدر القضاء على تتبعه مما يتعلق بالدفاع عن الضعفاء الذين لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم، ويُبَصِّرُنا بذلك: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾.

وهذا بخلاف المجرمين الذين يقولون: القانون لا يحمي المغفلين.. وذلك يقتضي إنشاء أجهزة خاصة مرادفة للقضاء تحاول تتبع ما تلاعبت فيه بعض الأطراف بالغافلين والسذج من الناس، وعد للآية لتجد الله -عز جاره- يقول فيها: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾، فخاطب النبي ﷺ -وَهُوَ أَعْدَلُ النَّاسِ وَأَكْمَلُهُمْ- فكيف غيره ﷺ، وهذا يُسقط مقولة: لا تشكك في نزاهة القضاء؛ إذ لا بد للقاضي من بلوغ أقصى غايات الاحتياط، ولا مانع من وجود أجهزة مساعدة له تراجع عمله، وتدقق فيه.

وخاطب النبي ﷺ مع عصمته؛ ليكون غيره أشد حذرًا، وأعظم خوفًا، فهذه الآيات تشهد - وحدها- بأن هذا القرآن حق من عند الله، حيث يخاطب الله أعظم قاضٍ في الأرض بهذا الخطاب، فـ«هذه الآيات تحكي قصة لا تعرف لها الأرض نظيرًا، ولا تعرف لها البشرية شبيهًا.. وتشهد- وحدها- بأن هذا القرآن وهذا الدين لا بد أن يكون من عند الله لأن البشر- مهما ارتفع تصورهم، ومهما صفت أرواحهم، ومهما استقامت طبائعهم- لا يمكن أن يرتفعوا- بأنفسهم- إلى هذا المستوى الذي تشير إليه هذه الآيات إلا بوحي من الله»[1]، وذلك لما تجد في الآيات من الاستدراك على الرسول ﷺ.. اسمع إلى الله -جل شأنه- يقول لأعظم قاضٍ في الأرض: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ (النساء:١٠٥- ١٠٧).. هنا تشعر بالصرامة في التعبير، وتفوح رائحة القوة في الحق، والحق في القوة، والغيرة على العدل، وترى الدفاع العظيم عن المظلومين، وقارن هذا بعفن (نظام الفيتو) المعاصر أو التهريج

(١) سنن الترمذي بتحقيق أحمد شاكر (٥ / ٢٤٤)، وحسنه الألباني، والزيادات بين المعكوفين من المستدرك على الصحيحين للحاكم مع تعليقات الذهبي في التلخيص - (٤ / ٤٢٦)، ورواه بالسياق ذاته وأتم الطبري ت شاكر (٩/ ١٧٨).

الذي يصنعه مجرمو المؤسسات الدولية الحقوقية، أو الشركات العسكرية العابرة للقارات التي تقوم بتشريع ما يسمى بحصانة الجنود من القضاء.

القانون السابع: يجب الحذر من الخوان الأثيم في القضاء وسائر مجالات الحياة، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ (النساء:١٠٧).

فأكثر الناس إفسادًا للحياة البشرية الخوان الأثيم؛ والله لا يحب الفساد ولا المفسدين، فيحرم الدفاع عنه في مجالس القضاء؛ فالخوان الأثيم يفسد الحياة البشرية، فكيف يُطالب بالعفو عنه.. أمن أجل أن يزيد الإجرام؟ هنا تعلم أن من الفساد جعل العفو مطلقًا أو إنشاء منظمات خاصة بالعفو المطلق كما أن من الفساد جعل العقوبة مطلقة، والخوان الأثيم كلمتان لهما دلالاتهما في وصف الواقع النفسي والحيوي لمن يرتكبون الجرائم:

فالخوان صيغة مبالغة من خان الأمانة إذا غدر ولم يحفظها، وخان العهد إذا نقضه وباع ولاءه لشيطان هواه أو شيطان إنسي أو جني، والأثيم صفة مشبهة تدل على استقرار صاحبها على الإثم.

وكلا الصفتين يدل على تكرار الخيانة والإثم منه؛ فإن الله لا يعاجل العبد بالعقوبة لمجرد صدور ذنبٍ يتيمٍ عنه، بل يعاقبه بعد تكرر الذنب منه كما قال تعالى ذكره: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ (فاطر: ٣٧).. وبذا تعلم أن هاتين الكلمتين (الخوان الأثيم) يوحيان بأن المرء قد وقع في الخيانة والإثم مرات، فصار دائبًا على الخيانة والإثم في حياته، فلا يستحق عندها الدفاع ولا التعاطف معه، ولذا قال عمر ﷺ: (إذا رأيت من الرجل خصلةً تسوؤك فاعلم أن لها أخوات، وإذا رأيت من الرجل خصلة تسرّك فاعلم أن لها أخوات، واعلم أن الرجل ليس بالرجل الذي

إذا وقع في الأمر تخلص منه، ولكن الرجل الذي يتوقى الأمر حتى لا يقع فيه) [١]، فقوله جل شأنه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ «أَيْ: مَنِ اعْتَادَ الخِيَانَةَ وَأَلِفَ الإِثْمَ فَلَمْ يَعُدْ يَنْفِرُ مِنْهُ، وَلَا يَخَافُ العِقَابَ الإِلَهِيَّ عَلَيْهِ، فَيُرَاقِبُهُ فِيهِ، وَإِنَّمَا يُحِبُّ اللهُ أَهْلَ الأَمَانَةِ وَالِاسْتِقَامَةِ» [٢].

وتلاحظ هنا تكرار كلمة (الخيانة) أكثر من مرة لأن هذه السورة مبنية على الأمانة، وأداء الحقوق إلى أصحابها في الآية المركزية التي قال الله فيها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ (النساء: ٥٨) فذكر الله مقابلها، والخيانة قد تكون لمال مأخوذٍ، وقد تكون لحقوقٍ تتعلق بالآخرين، وقد تكون لمناصب سيادية، وقد تكون خيانة للتعليم، وقد تكون خيانة في الطب، وفي الزراعة، فالخيانة مفهومها شامل كما أن الأمانة مفهومها شامل.

القانون الثامن: لا بد أن تتنبه المؤسسات الحقوقية والقضائية إلى أن طبيعة الخونة أن يَظهروا بمظهر البراءة؛ لأنهم يخفون إجرامهم، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى: ﴿يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾.

قوله: ﴿يَسۡتَخۡفُونَ﴾ أي: يطلبون الخفاء، وهذا يدل على أنهم يتكلفون في حالة تغطية جرائمهم، وهذه الجملة تهديدية لهم، تدل على أن الله سيفضحهم، وتحريضية للقاضي؛ ليتحرى ويحقق، ولا يغتر بالظواهر، ولا بادعاء المظلومية.

القانون التاسع: الخوان الأثيم يبيت المؤامرات، والدسائس الفردية والجماعية؛ لأجل الانتصار في خيانته، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾.

(١) محض الصواب في فضائل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (٢ / ٦٨٨).

(٢) تفسير المنار (٥/ ٣٢٥)..

فكلمة ﴿يُبَيِّتُونَ﴾ تعني جمع الرأي في الليل، فتدل على أن الخونة والأُثماء يميلون إلى الغرف المغلقة والليالي المظلمة للتآمر على الناس، وتبادل الأقوال التي لا يرضاها الله، وهي تدل على أنهم يؤلفون ويزيفون من أجل أن يصلوا إلى ما لا يرضي الله من القول، فعن أبي رزين قال: يؤلِّفون ما لا يرضى من القول [١]، والتأليف يقتضي تغيير أقوال الآخرين وتحريفها وتزيفها، وتكوين قصص وأقوال ينصرون بها خياناتهم وآثامهم، وذهل الزمخشري عن هذا الوصف الدقيق الذي تذكره الآية، فظن أن معنى يبيتون يدبرون ما يقولونه في الصباح تدبيرًا فرديًا حسبما يظهر من عبارته [٢].

ما سبب قوله: ﴿مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾؟ لأنهم في تبييتهم يُرضون بعض الناس، ولكن الوصف القرآني المدهش من أبلغ الأدلة على البيان القرآني العام لما يقع من بني الإنسان، فهو يبين أنهم يلتقون ليلًا ليتآمروا كيف ينصرون خياناتهم، من ذا الذي يقطع بأنهم لم يلتقوا؟ من ذا الذي يجزم بأنهم لم يتبادلوا التآمر فيما بينهم؟ أما يكفي أن يصف القرآن ذلك حتى نلتمس تأويلًا لا حاجة له.

القانون العاشر: من آداب التقاضي أن تعرف جميع الأطراف -المظلوم، والظالم، والقاضي- أن الله محيط بالأثمة الخونة، فلن يفروا من العدالة الإلهية، ولو هربوا منها في الدنيا، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ (النساء:١٠٨-١٠٩).

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ١٩٢).

(٢) جاء في تفسير الزمخشري (١/ ٥٦٣).

فإن قلت: كيف سمى التدبير قولًا، وإنما هو معنى في النفس؟ قلت: لما حدّث بذلك نفسه سمى قولًا على المجاز.

فالإحاطة الإلهية بأعمالهم تقتضي فضحهم في الدنيا، وظهور جرائمهم أمام العالم، كما تعني أنهم لن يستطيعوا أن يخرجوا من ملك الله بتآمرهم ولا بقوتهم ولا بعدتهم، فهو محيط بأعمالهم مهما استكبروا ودبروا، وترى أن الله قال هنا: ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ ولم يقل بما يقولون؛ لأن القول جزء من العمل، فتشمل هذه الكلمة القول والأفعال التكتيكية التي يبعثون من خلالها لتغطي استكبارهم وإجرامهم.

ولا بد للقاضي أن يذكر نفسه والأطراف المختلفة بعواقب الخيانة والإثم في الدنيا و الآخرة ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾، فيبين الله أن المدافعين عنهم في الدنيا الذين يزينون صورة خيانتهم القبيحة بمعرفة أو بغير معرفة لن يستطيعوا تزيين صورتهم بالدفاع عنهم في الآخرة ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ (الانفطار: ١٩)، وَ«﴿أَم﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ مُنْقَطِعَةٌ لِلْإِضْرَابِ الِانْتِقَالِيِّ. وَ ﴿مَّن﴾ اسْتِفْهَامٌ مُسْتَعْمَلٌ فِي الإِنْكَارِ»[1] أي بل من يكون عليهم وكيلًا يوم القيامة.. سيتركون جاههم وفخامتهم وقواتهم الأمنية وحرسهم الخاص وراء ظهورهم ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ (الأنعام: ٩٤).

القانون الحادي عشر: يجب على الأفراد والمؤسسات القضائية والتوجيهية تذكير أنفسهم والمجتمع بأن باب التوبة الصادقة مفتوح مهما كانت الذنوب، وذنوب العباد ترجع إلى حالتين يُبَصِّرُنا بهما قول الله عزَّ جارُه: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (النساء: ١١٠).

(١) التحرير والتنوير (٥/ ١٩٥).

الحالة الأولى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا﴾ أي: يعمل ما يسوءه أن يكشف الناسُ حقيقته، أو ما يسوء الناسَ أن يروه مما حرم الله، ولعل هذا يتعلق بما يذنبه المرء من ذنب ضد الآخرين.

الحالة الثانية: ﴿يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ﴾ أي: يذنب فيما بينه وبين ربه، فينقص من حظوظ نفسه في مكانتها عند الله.

وانظر لهذه البراعة العجيبة في اللفظ القرآني؛ إذ يرجع إلى هاتين الحالتين ستة أنواع من الذنوب:

النوع الأول: من يعمل سوءًا ضد الآخرين:

فالسُّوءُ مَا يَسُوءُ أَيْ مَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ أن يشعر بالحرج والألم أمام الآخرين، ويستجلب بذلك الغَمَّ وَالكَدَر، فيكون الفعل سوءًا في نفسه، وتكون عاقبته سوءًا يجدها بعد ذلك، وكأنه جعل عمل السوء متعديًا لأنه يتعلق برؤية الناس حيث يسوءه أن يظهر بذلك المظهر السيء أمامهم.

والثاني: يعمل سوءًا مجاهرًا أمام الآخرين.

والثالث: من يظلم نفسه مجاهرًا، ولا يظلم الآخرين، فمن حقه أن نحميه من ظلم نفسه.

والرابع: يظلم نفسه بأن يذنب ذنبًا مستخفيًا.

والخامس: أن يعمل سوءًا بأن ينصر الظالم مستفيدًا متاعًا عاجلًا.

والسادس: أن يظلم نفسه بأن ينصر الظالم دون أن يستفيد متاعًا عاجلًا.

ففتح الله جل ذكره باب التوبة للخوان الأثيم، ولغيره من العصاة، وهذا من

أبهى مظاهر الرحمة الإلهية التي يحاول بعض العالمين الابتعاد عنها بحجة الشدة على الكفار، أو البراءة من الظالمين والمبتدعين، أو بحجة الحماس الثوري.. وقول الله أحق.. فأوجب فيما سبق نصرة المستضعفين في المحاكم، والوقوف بحزمٍ أمام الظالمين الذي يتلاعبون بالقضاء بحكم وجود الإمكانات التي تجعلهم يربحون القضايا، وأوجب فيما لحق عرض التوبة على هؤلاء الظالمين، فيذكرهم الآخرون مثل القضاة والأصدقاء والعلماء بأن ذنوبهم مهما كانت إذا أعقبها فاعلها استغفارًا صادقًا فإن الله يقول: ﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، ويستغفر الله يعني يطلب غفرانه بالتذلل القلبي لطلب المغفرة، وبالتذلل اللساني بتكرار ما يدل على ذلك مثل ما ذكره النبي ﷺ في قوله: «من قال: استغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه غفر له وإن كان فر من الزحف» (١).

وزيادة في الترغيب في التوبة قال الله: ﴿يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ فلم يقل: يغفر الله له، بل قال: يجد الله، كأنه عندما فعل فعلته فقد الله عزَّ وجلَّ، وعندما استغفر وجد ربه بعد أن كان هذا المذنب وحيدًا هالكًا لا عون يلحقه من ربه ولا أنس يجده، أو يطمئن إليه، فمَعْنَى ﴿يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾: يجد ربه بعد إذ كان هالكًا موكولًا إلى نفسه، فأعاد ربه له الحياة الحقيقية، وظهرت آثار ذلك في عفو ربه عنه، وعونه له، وكَرَاهَته للذَّنْبِ، وتقززه منه، وإقباله على الأعمال الصالحة بتأييد من الله، وبحثٍّ حثيث عن تكفير لما بدر منه من قبل مِصْدَاقًا لِقَوْلِ ابْنِ عَطَاءِ اللهِ الإِسْكَنْدَرِيِّ: رُبَّ مَعْصِيَةٍ أَوْرَثَتْ ذُلًّا وَانْكِسَارًا، خَيْرٌ مِنْ طَاعَةٍ أَوْرَثَتْ عِزًّا وَاسْتِكْبَارًا، فيذهب شؤم ذلك الذنب من حياته، ويظهر انصباب الخيرات عليه بسبب ما نزل عليه من الله من رحماته.

(١) سنن الترمذي بتحقيق أحمد شاكر (٥ / ٥٦٨) برقم ٣٥٧٧، قال أبو عيسى هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وقال الشيخ الألباني: صحيح.

وهذه الآية من الآيات التي تبين عظمة الأمة الخاتمة، ورحمة الله بخلقه، فعن أبي وائل قال، قال عبد الله: كانت بنو إسرائيل إذا أصابَ أحدهم ذنبًا أصبح قد كُتِب كفارة ذلك الذنب على بابه، وإذا أصاب البولُ شيئًا منه، قَرَضه بالمقراض. فقال رجل: لقد آتى الله بني إسرائيل خيرًا! فقال عبد الله: ما آتاكم الله خيرٌ مما آتاهم، جعل الله الماءَ لكم طهورًا وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾(سورة آل عمران: ١٣٥)، وقال: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [(١)]، وعن حبيب بن أبي ثابت قال: جاءت امرأة إلى عبد الله بن مُغَفّل، فسألته عن امرأة فَجرت فَحبِلت، فلما ولدتْ قتلت ولدها؟ فقال ابن مغفل: ما لها؟ لها النار! فانصرفت وهي تبكي، فدعاها ثم قال: ما أرى أمرَك إلا أحدَ أمرين: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، قال: فَمَسحت عينها ثم مضت [(٢)]، وهذا يوافق ما جاء عَنْ أَبِى ذَرٍّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ مَنْ جَاءَ بِالحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَأَزِيدُ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَجَزَاؤُهُ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا أَوْ أَغْفِرُ وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّى شِبْرًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِى أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً وَمَنْ لَقِيَنِى بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطِيئَةً لاَ يُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَقِيتُهُ بِمِثْلِهَا مَغْفِرَةً» [(٣)]، وعن أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول قال الله يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة [(٤)]، وعن ابن عباس قال: أخبر الله عبادَه بحلمه وعفوه

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ١٩٥).

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ١٩٥).

(٣) صحيح مسلم (٨ / ٦٧). رقم ٢٦٨٧ .

(٤) قال أبو عيسى هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه قال الشيخ الألباني: صحيح.

وكرمه، وسعةِ رحمته ومغفرته، فمن أذنب ذنبًا صغيرًا كان أو كبيرًا، ثم يستغفر الله يجد الله غفورًا رحيمًا، ولو كانت ذنوبه أعظم من السموات والأرض والجبال [١].

القانون الثاني عشر: يجب على القاضي أن يُذَكر الأطراف المختلفة بمفهومين:

خيانةُ الناس خيانة للنفس، والجناية لا تتعدى صاحبها، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (النساء:١١١)، فإذا كسب المرء إثمًا كأن يخون أمانات الناس فإنما يكسبه ليكون مؤخرًا لنفسه مدمرًا لفوزها في الحياة، فالإِثْمُ: الذنْبُ، وأنشد الفرّاء:

فهَلْ يَأْثُمَنِّي اللهُ في أَنْ ذَكَرْتُها وعَلَّلْتُ أَصحابي بها ليلة النفر [٢]

وهو في الأصل التقصير بالبطء وَالتَّأَخُّر، فيُقَالُ: نَاقَةٌ آثِمَةٌ، أَيْ: مُتَأَخِّرَةٌ. قَالَ الأَعْشَى:

قطعتُ، إذا سمعَ السّامعو نَ للجُنْدُبِ الجَوْنِ فيها صَرِيرَا
بناجيةٍ كأتانِ الثّملِ، توفّي السُّرى بعدَ أينٍ عسيرا
جُمَالِيّةٍ تَغْتَلي بِالرِّدَافِ، إذا كَذّبَ الآثِمَاتُ الهَجِيرَا [٣]

وقوله ﴿يَكْسِبْ﴾ يدل على فرح هذا الكاسب بما كسبه؛ إذ يظن نفسه أحرز

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ١٩٦).

(٢) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٥/ ١٨٥٧)، وذكر المحقق أن البيت لنصيب بن رياح الأسود الحبكى مولى بنى الحبيك بن عبد مناة بن كنانة من القصيدة التي فيها:

أما والذى نادى من الطور عبده وعلم آيات الذبائح والنحر
لقد زادني للجفر حبا وأهله ليال أقامتهن ليلى على الجفر
وهل يأثمنى الله في أَنْ ذَكَرْتُها وعَلَّلْتُ أَصحابي بها ليلة النفر
وطيرت ما بي من نعاسٍ ومن كرى وما بالمطايا من كلال ومن فتر

(٣) مقاييس اللغة (١/ ٦٠)، وجمالية تشبه بالفحل في عظم الخلقة، والاغتلاء: الاسراع، وفي العين (٨/ ٢٣): والرِّدافُ: هو موضعُ مَرْكَبِ الرِّدف، وقال: لِيَ التَّصدير فاتبَعْ في الرِّدافِ.

شيئًا يستحق الفرح به.. قل له: أفق! فحقيقة ما كسبت إثمٌ صراح، والإثم يؤخرك -يا للفاجعة- عن تحقيق المكاسب الحقيقية والفوز الصحيح، فحقيقة الإثم (قاصرًا أو متعديًا) تدميرٌ لحياة الآثم العاجلة والآجلة مهما بدا له أنه استفاد بالإثم كسبًا من غيره.

والمعنى الثاني لقوله ﴿يَكْسِبْهُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ أن الإثم لا يتجاوز الفاعل إلى غيره لقرابة أو مصاحبة أي على نفسه لا على غيره؛ فإذا أذنب أحدهم فلا يؤاخذ والداه بكسبه، ولا قرابته، ولا بلده أو عشيرته، فكيف يتجرأ أحدٌ بأن يعمم ذنبًا وقع فيه أحدهم ليشمل غيره من أهله وقرابته، وبعض المجرمين ذوي التمكن الدنيوي يبطش بغريمه -الذي ربما كان صالحًا-، ثم يبطش بأسرته لينزل الرعب في قلوب كل من ينصحه أو من يعارضه، فهذا قانونٌ قضائيٌّ عامٌّ ينبغي أن يُعلَم.

وبذا نعلم أنه ليست هناك خطيئة موروثة أو متعدية في الإسلام بل الخطأ يقترفه صاحبه، والإثم يكون على فاعله لا على غيره بخلاف ما تقرره التحريفات الكنسية أو تقترفه الأنظمة المجرمة التي تجعل أقارب الإنسان أو أصدقاءه وأهله وعشيرته تحت الضغط ليسلم نفسه.

ما سبب قوله ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ ولم يقل لنفسه؟

كلمة ﴿عَلَىٰ﴾ تدل على عدة معانٍ، فبعضهم يجعلها بمعنى ضد، وهي ليست دائمًا مرادفة لضد، فقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ (الفتح: ١) تقرب في معناها من قوله جل ذكره: ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (الأعراف: ٩٦)، وأما قوله تعالى شأنه: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ (البقرة: ٢٨٦)، فاللام يشير إلى صالح الإنسان، وكلمة ﴿عَلَيْهَا﴾ تعني أمرًا يضاد مصلحة الإنسان، وأصل معانيها الاستعلاء فكأن الإثم مستعلٍ عليها، إلا أنك تجد في مواضع أخرى أن اللام قد تأتي بمعنى الضدية، كقوله تعالى شأنه: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ (الإسراء: ٧) أي فعليها فيكون

معنى ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ أي: ضد نفسه، ولكن لماذا استخدم على؟ لأن الإثم استحوذ عليه وتملكه، فكأنه مهيمن عليه.

ثم إنك ترى الله جل ذكره ختم الآية بقوله ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ليذكرك بضرورة الثقة بمصدر التشريع، فينبغي أن تفخروا وتفتخروا بما أمدكم به العليم الحكيم من التشريعات الدقيقة المحكمة التي لا توجد عند غيركم:

زمـزم فينا ولـكـن أيـن من يخبر الدنيا بجدوى زمزم

كما يدل هذا الختام على علم الله الكامل بتصرفاتكم وتطبيقاتكم لتشريعاته وعلى حكمته المطلقة في إنزال الثواب أو العقاب في حياتكم في الوقت المناسب.

القانون الثالث عشر: يجب أن يقوم القاضي، وأجهزة التوعية بالتحذير من اتهام الآخرين؛ إذ يغطي المجرمون جرائمهم باتهام الأبرياء بالإفساد الكبير الذي يحدثونه في الأرض، ليجعلوا جريمتهم مضاعفة، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ (النساء:١١٢).

يلجأ الذين يقترفون الخطايا ويجاهرون بها إلى اتهام غيرهم، والآية تصور النفسية المنحرفة التي يغدو عليها المجرم المصر المسود القلب؛ إذ يتهم المفسد غيره بالإفساد، ويتهم الذي ينشر الرعب والإرعاب غيره بالإرهاب، ويتهم السارق غيره بالسرقة، فانظر إلى الآية: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾، فالآية تبصرنا بضرورة الحذر من الافتراء على الآخرين، وادعاء مسؤوليتهم عن جريمة لم يقترفوها.. والآية تحدثنا عن مذنب ذهب يبحث عن رزقٍ لشهوة جسده في الطعام أو الجنس، أو عن شهوة لعقله في الجاه أو الترؤس، فأصر أن يكون ذلك عبر الكسب الحرام، فاقترف خطيئته ثم لم يكتفِ بذلك حتى ضاعف جريمته، وصعَّد من أفعاله القبيحة، فاتهم الآخرين بما اقترفته يداه من فعل المجرمين.

ولاحظ كلمة ﴿يَكْسِبْ﴾ لها معنى عجيب تدل على أن صاحبها يرتزق من خلال هذه الخطيئة ويرتزق من خلال هذه الخطيئة ومن خلال ادعائه أن مرتكب الخطيئة غيره، فهو يرتزق من الجهتين، فما أكثر هذا على المستويات الدولية.

والفرق بين الخَطِيئَة والإثم أن الخطيئة من الخطأ ضد الصواب، وهي على وزن فعيلة فَهِي الفِعْلَةُ العَرِيقَةُ فِي الخَطَأِ لِظُهُورِهِ فِيهَا ظُهُورًا لَا يُعْذَرُ صَاحِبُهُ بِجَهْلِهِ، إلا أنها قد تكون من غير تعمد[1]، فتصدر الخطيئة منه دون تصوره أثناء فعلها أنها خطيئة مع أنه قد يتذكر، فيتصور أنها كذلك قبل الفعل أو بعده وَلَا يكون الإِثْم إِلَّا تعمدًا ثمَّ كثر ذَلِك حَتَّى سميت الذُّنُوب كلها خَطَايَا كَمَا سميت إسرافًا وأصل الإسراف مُجَاوزَة الحَد فِي الشَّيْء، ويظهر لي أن الخطيئة الإغراق في الذنب، والإثم التأخر والتقصير عن فعل الواجب، وكلاهما ذنب، ولكنهما نوعان، فمن فعل الخطيئة أو الإثم ثم خاف منها أو من تبعاته أو أراد السوء بغيره فقذفها من فوق ظهره إلى بريء فقد احتمل أمرين:

بهتانًا أي: ذنبًا سيئًا فظيعًا يبهت من حوله، أي: يحير من سوئه السامعين، والبهتان الكذب السيء العظيم الذي يبهت صاحبه، أي: يحيره ويدهشه عندما يواجه به.

وإثمًا مبينًا فتصبح الخطيئة إثمًا مبينًا حتى لو كانت الخطيئة في الأصل غير متعمدة فكيف سوء الأمر لو كانت متعمدة؟ ويمكن أن يقال: إن الخطيئة غير المتعمدة تجعلها الغفلة عن معالجتها إثمًا مبينًا، لأنه أدرك أن تلك الفعلة خطيئة فنقلها إلى غيره، وقد صار هذا المجرم يحتمل عبئًا ثقيلًا هو البهتان والإثم المبين معًا.

ومن المفاهيم المنبثقة من هذه الآية: أن المجرم والمحامي المدافع عنه يجب أن يُعَزَّرا على جريمة البهتان إضافة إلى جريمة العدوان، وأنه الثاني: يجب التشهير بالمحامين المدافعين عن المجرمين.

---

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ١٩٧).

وانظر إلى الكلمات التي استخدمت في هذه الآية مثل (يكسب، يرم) تصوِّر المعاني تصويرًا محسوسًا قويًا، وهذا أسلوب قرآني في التربية والتزكية، والتأثير النفسي والعقلي والقلبي، فهو يُصَوِّرُ الأشياء القبيحة أبشع التصاوير مع جمال اللغة المستخدمة، فقوله: ﴿ وَمَن يَكْسِبْ ﴾ أي: يرتزق من خلال كسب الخطيئة، ويكسب الرزق الحرام من خلال رمي هذه الخطيئة على غيره، ﴿ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا ﴾ تصور رامي التهمة كرامي السهام وقاذف الرصاص على غيره، وقوله ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلَ﴾ يصوره يحمل فوق ظهره الأوزار، وينوء جسده بها، كما قال جل ذكره صريحًا ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ (الأنعام: ٣١) يحمل فوق ظهره أوزاره والناس يرونه في الدنيا غنيًا بل ربما رأوه تقيًا يظهر أن المذنب غيره، فيوشك أن تظهر الصورة على حقيقتها يوم القيامة، فهو تصوير مدهش في الآيات، على أن احتمل تدل على حملٍ ينوء به، والكلمة تصور احتماله للإثم المبين يوم القيامة، وتصور احتماله الذي يفوق طاقته فعل هذا الإثم في الدنيا؛ إذ فعله خلاف الطبيعة السليمة، ولذا فكأنه يضاد المنطق والطبيعة.

القانون الرابع عشر: يجب أن يحذر القاضي من أن تحرفه الجهود المضلة التي تريد إشاعة الظلم سواء صدرت عن الأفراد، أم عن مجموعات الضغط المختلفة، وحرفه قد يكون بالرجوع عن مصدر جميع التشريعات، وهو الوحي الإلهي، وقد يكون بالرجوع عن تنفيذ الحكم الإلهي، ويُبَصِّرُنا الله بذلك في قوله -جل مجده-: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ **(النساء:١١٣).**

فترى في الآية تحذيرًا شديدًا من الله تعالى ذكره لعبده القاضي، أي قاضٍ..

تحذيرًا من أن تحرفه وسائل الإعلام، أو (اللوبيات) وهي المجموعة الضاغطة، أو الشفعاء، وتكمن خطورة التحذير في أن الخطاب للنبي ﷺ لتنبيه غيره تنبيهًا موقظًا، فهو إذن مدحٌ للنبي ﷺ في صورة تحذيرٍ بالنسبة لغير النبي ﷺ فاسمع له مجددًا: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ ۚ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ (النساء: ١١٣)، فذكر الله في هذه الآية أنواعًا من التأييد الإلهي للنبي ﷺ عند حكمه بين الناس:

النوع الأول: التأييد بالعصمة من الضلال الفكري والهلاك المعيشي، ويُبَصِّرُنا به قوله تعالى ذكره: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾، والآية تبصرك بخطورة بطانة القاضي وكل من له إدارة على غيره:

وهذا يعني أن طائفة متخصصة في الصد عن سبيل الله تفكر في السبل المناسبة لإضلال القيادة النبوية.. والهم يعبر عن عواطفها المتأججة، فهي تحاول بدأب عظيم، وجهد منظم أن تقوم بعملية الإضلال، والذي صرفها عن ذلك.. الذي منعها لم يكن إلا فضل الله ورحمته، فالفضل هنا الزيادة على إيصال الله الشرع إلى عباده، والزيادة على الحكم به، ومن صور هذه الزيادة: الثبات عليه أي على المصدر التشريعي الإلهي، فالفضل هو الزيادة، والرحمة هي النعم الأصلية والفرعية، ومن فضل الله الذي يعصم من الزلل والضلال أن يقيض الله البطانة الصالحة للنبي أو الحاكم أو العالم، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا بَعَثَ اللَّهُ مِنْ نَبِيٍّ، وَلاَ اسْتَخْلَفَ مِنْ خَلِيفَةٍ إِلاَّ كَانَتْ لَهُ بِطَانَتَانِ بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالمَعْرُوفِ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ وَبِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالشَّرِّ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ فَالمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَ اللَّهُ تَعَالَى»[1].

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٩ / ٩٥) برقم ٧١٩٨.

ويمكن أن يكون الإضلال من الصالحين.. فعلوا ذلك لنسيانٍ أو فهمٍ خاطئ، أو لأنه سمع لتحريض بتعبئة خاطئة قادمة من فرق الضلال، وحتى يتضح الأمر نتذكر كيف وقع بعض الصحابة ﷺ في مثل هذه الحالة، فحاولوا طلب ما لا ينبغي من النبي ﷺ مما فعله ضلال، فعَنْ عَائِشَةَ، ﷺ، أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ المَرْأَةِ المَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ فَقَالوا: وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالُوا: وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلاَّ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ حِبُّ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللهِ، ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ ثُمَّ قَالَ: إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ وَايْمُ اللهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ ابْنَةَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا[١].

وإذا كان الفضل هو الزيادة والرحمة أعم وتشير إلى النعم الأصلية فلماذا قدم الزيادة على الأصل هنا؟

الجواب: بيان عظم لطفه، فهو أعطى الأصل وأعطى فوق ذلك الزيادة، أعد وأمد سبحانه وتعالى، وبينه الله أن الفضل جزءٌ من الرحمة في قوله: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ (الإسراء: ٨٧)، فالرحمة تشمل الأصل والثبات عليه، ثم خص الفضل بمزيد ذكر، ويلفت البقاعي -ﷺ- نظرنا إلى أن من أهم معاني الفضل هنا: «الفهم لجميع مقاصد الكتاب، فتكون أفعالك وأفعال من تابعك فيه على أتم الأحوال، فتظفروا بتحقيق العلم وإتقان العمل»[٢].

وإذا كان النبي ﷺ معصومًا عن أن يَضِل أو يُضَل فيجب أن تقوم الأمة بإنشاء الجامعات والمجامع التي تخرج العلماء ليصلوا إلى حدٍّ من الكثرة تمكنهم من

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٤ / ٢١٣) برقم ٣٤٧٥.

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٥/ ٤٠٠).

الاجتهاد الجماعي الموثوق، فإذا كثروا متمكنين قللوا نسبة الخطأ عندما يقومون بمحاولة الوصول إلى تحديد المراد الإلهي في المسائل المختلفة لئلا تأتي الجموع المنحرفة فتقوم بعلمها في الإضلال.. وإنك -والله- لتتأوه إذ ترى علمانيي بني إسرائيل يمكنون الأحزاب الدينية عندهم من امتيازات ضخمة تحقق لهم أهدافهم الدينية التي يشوبها الانحراف، وترى الأمة التي تنتسب إلى القرآن تجعل أكبر همها محاربة من يُعَظِّم القرآن؟

لماذا قال تعالى شأنه ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾؟

لأن بعض من يذنب قد يقهقه، فبعض الناس يذنبون فيئنون ويبكون ويندمون فيُرجى لهم أن يتوبوا، وبعضهم يذنبون ويقهقهون ويضحكون ويفرحون بل وربما يفتخرون، فربما أثاروا الرعب وقلقلوا الأمن وزلزلوا سلامة الناس وقذفوا بهم في غياهب السجون وتنانير التعذيب، ثم أظهروا للناس أنهم حماة حقوق الناس في الأرض، والساهرون على أمن البلدان.. إن إضلال الصالحين، وإضلال العالمين ليس له إلا حقيقة واحدة: أن يضل المضل نفسه، والإضلال يعني أمرين خطرين يوحي بهما المعنى اللغوي لكلمة (يضل): التيه الفكري والعقلي والعاطفي، والهلاك المادي.

النوع الثاني: التأييد بالمنع من الضرر المادي المستقبلي مهما كانت المؤامرات، ويُبَصِّرُنا به قوله تعالى ذكره: ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ﴾:

فهذه الكلمة تبين تأييد الله لنبيه ﷺ حيث يحميه من أي ضررٍ يتهدده بسبب ثباته على الشرع، وتبصرنا بأخذ الحذر من الاستجابة لإضلالهم حتى لو ظننا أن ذلك سيحدث ضررًا متوقعًا، لأن الله سيحمينا من النتائج المخيفة المتوقعة والنكال بعد أن ثبتنا أمام عملية الإضلال.

فالنتائج الوخيمة للإضلال تعود على أصحابه ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ إذا

ثبت صاحب الحق أمام عملية الإضلال الممنهجة، وربما يخاف صاحب الحق إذا لم يستجب لضغوطات الفرق المضلة من العواقب الدنيوية، فطمأنه الله قائلًا: ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ﴾، فالمقصود به الضرر البدني، والتأييد الإلهي بمنع الضرر لا ينفي أن يتخذ الإنسان الأسباب المادية اللازمة على ألا يساوم على الشرع.

النوع الثالث: التأييد بوجود الدستور العاصم، والمنهج التطبيقي الذي يحمي من الضلال والمآثم، ويُبَصِّرُنا به قوله تعالى ذكره: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ فالكتاب القرآن والحكمة التطبيق العملي قولًا وفعلًا:

فهذا تذكير بما يحمي من عملية الإضلال، وهو الرجوع إلى الكتاب والسنة، وسمى السنة حكمة لأنها هي التي تبين لنا بدقة متناهية تطبيق الكتاب في مواضعه ليعكس الحكمة الحقيقية.. فالسنة تبين لنا متى يكون الرضا ومتى يكون الغضب.. متى يغلب الجانب الإيماني، ومتى يلجأ المرء إلى الجوانب المادية.. متى يكون الكر ومتى يكون الفر، متى يكون التقدم ومتى يكون التأخر، متى يكون الاعتزاز ومتى يكون الإغضاء والصفح.. متى يكون التأديب والتهذيب والتثريب ومتى يكون القول الحسن.. الحكمة تدل على التصرفات المناسبة في تطبيق المعاني الإلهية المجيدة للكتاب العظيم الخاتم، فهي بالتطبيق القولي والعملي تدل على فقه مقاصد الكتاب، وفهم أخباره، وإتقان أسراره.

من جديد يظهر الكلام في هذه السورة عن السنة المباركة حيث يسميها الله الحكمة.. إنها تمثل أحد أهم معايير الأمن الشخصي والقومي، وهذا التأييد الإلهي بإنزال الكتاب والحكمة يقتضي أن ننشئ المؤسسات التي تعلمه، فقوله تعالى ذكره: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ﴾ يعني أن ننشر المؤسسات التي تبث التوعية والتزكية، وقوله: ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ﴾

يعني أن ننشىء المؤسسات التي تعنى بحفظ الأمن الاستراتيجي، فالتأييد الإلهي في منع الضرر يعني بذل الأسباب العملية المادية، بعد استلهام المبادئ الإيمانية، وهذا يقتضي أيضًا إنشاء مؤسسات التربية على الشجاعة والثبات في المواجهة لتمثل وزارات الثقافة والإعلام والشؤون الدولية،

وقوله تعالى جده: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ تدل على ضرورة إنشاء الجامعات والمؤسسات التعليمية التي تعلم الكتاب والحكمة بكثرة، سواء كان للمتخصصين أم غير المتخصصين بنسب يتم التفاوت فيما بينهم حسب تخصصاتهم.

لماذا يصر بعض من ينتسب إلى الإسلام على عدم إعادة العلماء الذين ينشرون الكتاب والحكمة إلى مراكزهم الطبيعية في صنع القرار في الوقت الذي ترى فيه رئيسًا فاسقًا بالمقاييس المسيحية هو دونالد ترامب يعلن في «يوم الصلاة القومي» عن مبادرته التي أسماها مبادرة الإيمان وتبع فيها جورج بوش وهدفها تعزيز العلاقة بين الحكومة الأمريكية والجماعات الدينية الإنجيلية، ليكون لهم تأثيرهم المباشر على مراكز صنع القرار.

النوع الرابع: التأييد بالإعانة على التعلم الدائم الذي يكون بعناية الله ورعايته، ويُبَصِّرُنا به قوله تعالى جده: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾:

وفي معناها يستنبط القَفَّالُ ﷺ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ يَكُونَ المُرَادُ مَا يَتَعَلَّقُ بِالدِّينِ، كَمَا قَالَ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ (الشُّورَى: ٥٢، ٥٣) وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ (القَصَصِ: ٨٦)، وَعَلَى هَذَا الوَجْهِ تَقْدِيرُ الآيَةِ: أَنْزَلَ

اللَّه عَلَيْكَ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَأَطْلَعَكَ عَلَى أَسْرَارِهِمَا وَأَوْقَفَكَ عَلَى حَقَائِقِهِمَا مَعَ أَنَّكَ مَا كُنْتَ قَبْلَ ذَلِكَ عَالِمًا بِشَيْءٍ مِنْهُمَا، فَكَذَلِكَ يُفْعَلُ بِكَ فِي مُسْتَأْنَفِ أَيَّامِكَ لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ مِنَ المُنَافِقِينَ عَلَى إِضْلَالِكَ وَإِزْلَالِكَ.

الوَجْهُ الثَّانِي: أَنْ يَكُونَ المُرَادُ: وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ مِنْ أَخْبَارِ الأَوَّلِينَ والآخرين، فَكَذَلِكَ يُعَلِّمُكَ مِنْ حِيَلِ المُنَافِقِينَ وَوُجُوهِ كَيْدِهِمْ مَا تَقْدِرُ بِهِ عَلَى الِاحْتِرَازِ عَنْ وُجُوهِ كَيْدِهِمْ وَمَكْرِهِمْ [1]. فأضف لهما وجهًا ثالثًا، وهو:

الوجه الثالث: الإعانة على استنباط المعلومات المادية والإنسانية المغيبة من الحواضر المشاهدة سواء أكانت أحداثًا مادية أم تجارب إنسانية، وذلك في حدود المعرفة الإنسانية التي أتاحها الله لعباده، فقوله ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ تبصرنا بأن البحث في الخلق والكون يؤدي إلى اكتشاف المجهولات، وازدياد العلم، سواء تعلق بأَخْبَارِ الأَوَّلِينَ أم حِيَلِ المنَافِقِينَ، أم اكتشاف ما وضعه الله في الكون من القوانين.

ويدخل في قوله ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ تفصيل ما سبق لأهميته لك، وفيه تنبيهك أيها القارئ إلى أن الله علمك لم تكن تعرف قيمته، فقد كنت جاهلًا فعلمناك، والخطاب لأمة النبي ﷺ، فإذا كان خطاب للنبي ﷺ فهو خطاب لأمته، إلا أن يأتي ما يدل على التخصيص.

النوع الخامس: التأييد بالفضل العظيم المحيط بالنفسية النبوية ومن سار على دربها، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ (النساء: ١١٣):

والفضل يشمل كل أمور التأييد الإلهي في الواقع المعيشي، والحياة المادية والعقلية، فقوله: ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ بتأييدك بهذه البصائر التي تحفظ الحياة الحقوقية في العالم، ولم يصل العالم إلا لأطراف منها بعد مئات السنوات.

---

(١) تفسير الرازي (١١/ ٢١٦).

ويدخل في فضل الله العظيم: العلم، «وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الدَّلَائِلِ عَلَى أَنَّ العِلْمَ أَشْرَفُ الفَضَائِلِ وَالمَنَاقِبِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ اللَّه تَعَالَى مَا أَعْطَى الخَلْقَ مِنَ العِلْمِ إِلَّا القَلِيلَ، كَمَا قَالَ: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الإِسْرَاءِ: ٨٥)، وَنَصِيبُ الشَّخْصِ الوَاحِدِ مِنْ عُلُومِ جَمِيعِ الخَلْقِ يَكُونُ قَلِيلًا، ثُمَّ إِنَّهُ سَمَّى ذَلِكَ القَلِيلَ عَظِيمًا حَيْثُ قَالَ: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وَسَمَّى جَمِيعَ الدُّنْيَا قَلِيلًا حَيْثُ قَالَ: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ (النِّسَاءِ: ٧٧) وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى غاية شرف العلم» [١]. وقد قال عبد الملك بن مروان لأبنائه: «تفقهوا قبل أن تسودوا» أي: قبل أن تكونوا سادة، وكان في زمنٍ للعلم مكانته، ولم يخطر على بال ملوك ذلك الزمن أن يكون الجهل أساسًا لتقلد الحكم كما جرى عليه أمر بعض المسلمين في هذه الأزمنة الكالحة، فكأنه عنى: حتى لا يأتي من هو أكثر منكم علمًا فيسود عليكم لأن سيادة العلم أعلى بكثير من سيادة السلطان، وقد رأت بعض أمهات الخلفاء بعض العلماء والناس متوافرون حوله وهو منهم في إجلال عظيم، فقالت: «هذا هو الملك لا ملك فلان الذي هو ولدها».

ولكن هذه الفضائل تشترك فيها الأمة كلٌّ بقدره، مع نفي العصمة عن أفرادها ولكن العصمة ثابتة لمجموعها، والتنبيه على الأمة أولى من تنبيه النبي ﷺ فلماذا وجه الخطاب للنبي ﷺ؟

أما أولًا: « فلأنه هو أول من عرفها وذاقها. وأكبر من عرفها وذاقها. وأعرف من عرفها وذاقها» [٢].

وأما ثانيًا: فإذا نبه النبي ﷺ أن هناك من يحاول إضلاله وإزلاله فالأولى أن ينتبه غيره أن قوى الصد عن سبيل الله، ومجموعات الضغط المضلة تحاول أن تحرف

(١) تفسير الرازي (١١/ ٢١٧).

(٢) في ظلال القرآن (٢/ ٧٥٦).

المسلمين بكل جهدٍ أوتيته عما يريد الله -جل في علاه- فما للمسلمين؟ ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ (محمد: ٢٤).

ومن أعظم الفضل الذي نتفيأ ظلاله أن الله هدانا لمعرفته واتباع دينه، ويذكر الله عبده المنيب محمدًا ﷺ بذلك، ليذكر من خلال هذه القصة أمته بقيمة الهداية، فعنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: سَأَلْتُ اللَّهَ مَسْأَلَةً وَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ سَأَلْتُهُ ذَكَرْتُ رُسُلَ رَبِّي فَقُلْتُ: يَا رَبِّ، سَخَّرْتَ لِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ، وَكَلَّمْتَ مُوسَى فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَلَمْ أَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَيْتُكَ وَضَالًّا فَهَدَيْتُكَ وَعَائِلًا فَأَغْنَيْتُكَ ؟ قَالَ: فَقُلْتُ: نَعَمْ. فَوَدِدْتُ أَنْ لَمْ أَسْأَلْهُ [1].

(١) المستدرك على الصحيحين للحاكم مع تعليقات الذهبي في التلخيص (٢ / ٥٧٣) برقم ٣٩٤٤، وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة (٦ / ٣٧) برقم ٢٥٣٨.

القسم الثاني

(بث الحياة الإنسانية) يقتضي إقامة الجهود الفردية والمؤسسية التي تهتم بالمجتمعات، وتعزز وظيفة القضاء في القيام بالقسط، والتحذير من التنظيمات المضادة التي تشاق الحياة القويمة (النساء:١١٤-١١٥)

آيات هذا القسم:

﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (النساء:١١٤-١١٥).

المناسبة والاتصال:

ذكر الله تعالى جده في القسم السابق أهم القوانين القضائية التي تضمن حق المظلومين، وحذر من الجهود الفردية أو المؤسسية التي تجادل عن الخائنين، وهي الجهات التي قال الله عنها: ﴿لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ﴾ (النساء:١١٣)، وقد يدخل الصالحون في عملية الإضلال دون شعورٍ منهم، وربما تكونت مجموعاتُ ضغطٍ لتأييد الظالمين أمام مؤسسات صنع القرار ضد المظلومين، فبين الله تعالى جده هنا حق العالم في إقامة الفعاليات الفردية والمؤسسية التعاونية التي تخدم الناس، وتعزيز دور الهيئات القضائية في القيام بالقسط، والتحذير من التدمير الفردي والجماعي للمجتمع، ويظهر بذلك أيضًا حق المجتمع في أن يقوم الناس

بنصرة القضايا العادلة فيه، وقد يأخذ ذلك شكلًا منظمًا بإنشاء مؤسسات مدنية وحقوقية ونفع عام لتمارس دورها في تسديد القضاء، والقيام بحماية حقوق الناس، ونفع المجتمع وخاصة الضعفاء من أبنائه، فتضعف دور المجرمين الذين يحاولون أن يمارسوا عمليات التضليل، هذا عندما تجعل السياق الذكري معينًا على فهم الآيات، لكنك لا تغفل في الوقت ذاته عموم النص القرآني لتفيد منه في تعميم الأفكار مع إدخال صورة السياق ضمنها، ولإضعاف قدرة مجموعات الإجرام (لوبيات الضغط) القادرة على إضلال المجتمع حدد الله الأهداف الأصلية الأساسية لوجود الجهود الفردية والجماعية الحقوقية وغيرها حتى لا يصطنع الأفراد والجماعات أهدافًا تضاد هذه الأهداف الأصلية، وبين الله ذلك من خلال القوانين الآتية:

القانون الأول: يحرم وجود جماعات تنظم سريًا المؤامرات التي تضاد العدل والإحسان، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ﴾، فنفي الخيرية عن كثيرٍ من النجوى.

فقوله: ﴿نَّجْوَاهُمْ﴾ النجوى: حديثٌ سريٌّ يكون بين اثنين فصاعدًا، وذلك بداية تكوين جماعة مشتركة؛ إذ إن النَّجْوَى قد تكون مَصْدَرًا أَوِ اسْم مَصْدَرٍ بِمَنْزِلَةِ المُنَاجَاةِ، وهِيَ المُسَارَّةُ فِي الحَدِيثِ كما قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ (المُجَادَلَةِ: ٧) وقد قِيلَ: أَصْلُهُ مِنَ النَّجْوَةِ أو النجو، وَهِيَ المَكَانُ المُسْتَتِرُ الَّذِي ينجي الإنسان من مشاهده أو طالبه بِحَيْثُ يَنْفَرِدُ مَنْ فِيهِ عَمَّنْ دُونَهُ، وَقِيلَ: مِنَ النَّجَاةِ، كَأَنَّهُ نَجَا بِسِرِّهِ مِمَّنْ يَحْذَرُ اطِّلَاعَهُمْ عَلَيْهِ، وأصل النجاء الانفصال من الشيء، ومنه نجا فلان من فلان وأنجيته ونجيته كما قال تعالى: ﴿وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾[1].

(١) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٦/ ٢٥٠٣)، المفردات في غريب القرآن ت كيلاني (ص: ٤٨٣)، تفسير الرازي (١١/ ٢١٧)، تفسير المنار (٥/ ٣٣٠).

ويكون المعنى: لا خير في كثير من نجواهم، لا خير في كثير من أحاديثهم السرية، أو لا خير في كثير من اجتماعاتهم لتبادل الأسرار، إلا في نجوى من أمر بصدقة أي: لا خير في كثير من مسارتهم الحديث إلا مسارةَ من أسر منهم بالأمر بالصدقة أو المعروف أو الإصلاح بين الناس إن جعلنا معنى النجوى السِّرَّ فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ﴿مَنْ أَمَرَ﴾ فِي مَوْضِعِ النَّصْبِ لِأَنَّهُ اسْتِثْنَاءُ الشَّيْءِ عَنْ خِلَافِ جِنْسِهِ فَيَكُونُ نَصْبًا كَقَوْلِهِ ﴿إِلَّآ أَذًى﴾ (آلِ عِمْرَانَ: ١١١) وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ رَفْعًا فِي لُغَةِ مَنْ يَرْفَعُ الْمُسْتَثْنَى مِنْ غَيْرِ الجِنْسِ كَقَوْلِهِ: إِلَّا اليَعَافِيرُ وَإِلَّا العِيسُ

وَقَدْ تَكُونُ النجوى بِمَعْنَى القَوْمِ الَّذِينَ يَتَنَاجَوْنَ كما قَالَ تَعَالَى ذكره: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ (الإِسْرَاءِ: ٤٧) مثل: «الجرحى»، و«المرضى»، فيكون المعنى: لا خير في كثير من المتناجين إلا فيمن أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس، فإن أولئك فيهم الخير، فالنجوى بمعنى جمع المتناجين، خرج مخرج «السكرى» و«الجرحى» و«المرضى»[1]. فهذا التآمر السري يتخذ من الحريات ستارًا للإجرام والإفساد، وهذا النفي للخيرية في الأحاديث السرية؛ للتحذير من أن تتكون جيوب معزولة عن بقية المجتمع، تتآمر عليه، وتثير الحقد والكراهية حوله.

وهذا القانون القضائي يجرم الجماعات والجمعيات عندما يديرون الأحاديث السرية التي تخرج عن الصدقة أو الأمر بالمعروف أو الإصلاح بين الناس، لإنها إن لم ترجع إلى هذه المجالات الثلاثة أصبحت مجالًا للتآمر، فقوله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ﴾ ينبئك أن هناك شرًّا محتَّمًا خارج إطار هذه الأهداف الثلاثة التي هي الأمر بالصدقة والأمر بالمعروف والأمر بالإصلاح بين الناس.

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٢٠٢)، تفسير الرازي (١١/ ٢١٧).

تنبئ الآية بضرورة أن يصدر قانونٌ يمنع المؤامرات في الزوايا المغلقة.. قانون يمنع إشاعة الكراهية الجماعية بغير حق في الأركان المظلمة؛ إذ تكون ميدانًا للفتنة والبلبلة وإشاعة الفساد في الأرض، فهذا القانون داخلٌ ضمن استراتيجية أخذ الحذر التي طال ذكرها في هذه السورة المباركة؛ فهي تضمن أداء الأمانات وإيصال الحقوق إلى أهلها..

ولا يقال: لماذا تمنعون الحريات؛ إذ الحرية تمثل كرامة الإنسان التي أنزل القرآن لتعزيزها؛ لكن الحرية لا تكون لإيذاء حريات الآخرين، فحقيقة الحريات عندما تصل إلى هذا أن تكون ستارًا للإجرام والإفساد، وإلا فلماذا يحتاج فيها إلى التناجي، والتكتم، وإدارة الأحاديث السرية.

فالمُحَاوَرَات والمشاورات يجب أن تكون جهرةً واضحةً ليتم الثقة في المراد منها، وفي أهدافها، ولَا يُصار إِلَى المُنَاجَاةِ إِلَّا فِي أَحْوَالٍ شَاذَّةٍ يُنَاسِبُهَا إِخْفَاءُ الحَدِيثِ، فَمَنْ يُنَاجِي فِي غَيْرِ تِلْكَ الأَحْوَالِ رُمِيَ بِأَنَّ شَأْنَهُ ذَمِيمٌ، وَحَدِيثَهُ فِيمَا يَسْتَحْيِي مِنْ إِظْهَارِهِ، أو أنه يريد أن يبيت أمرًا خطيرًا كما قال تعالى جده: ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾، كَمَا قَالَ صَالِحُ بْنُ عَبْدِ القُدُّوسِ:

السِّتْرُ دُونَ الفَاحِشَاتِ وَلَا يَغْشَاكَ دُونَ الخَيْرِ مِنْ سِتْرِ[1]

ولذا نهى الله عن النجوى؛ إذ إن ذلك كان شأن المنافقين يريدون تدمير الاستقرار في المجتمع المسلم كما قال تعالى ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ (المجادلة: ٨) وَقَالَ: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ (المجادلة: ١٠)، وَقَوْلُهُ: ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ (الإسْرَاء: ٤٧) وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ﴾ (البَقَرَة: ١٤).

(١) التحرير والتنوير (٥/ ١٩٩).

والنَّبيّ ﷺ يبين أن الشك يعصف بالمجتمع عندما يتناجى اثنان دون الثالث في مجلسٍ واحد فيقول: «إِذَا كُنْتُمْ ثَلاَثَةً فَلاَ يَتَنَاجَى رَجُلاَنِ دُونَ الآخَرِ حَتَّى تَخْتَلِطُوا بِالنَّاسِ أَجْلَ أَنْ يُحْزِنَه»[١]، فكيف بمن يتناجى حول قضايا المجتمع العامة ثم يصر على كتمان ذلك، وهي متعلقة بأمنها العقيدي والثقافي وأمنها العام؟

ونفي الخير عن كثيرٍ من نجواهم يعني التحذير من أن تتكون مجموعة جيوبٍ معزولة عن بقية المجتمع تتناجى عليه بالإثم والعدوان، وتتآمر عليه لإشاعة السوء والفاحشة والبهتان، وتثير الحقد والكراهية حوله، وألا تُبَيِّتَ جماعاتٌ ما لا يرضى الله من القول مما يؤدي إلى إشاعة الفساد.

القانون الثاني: الاجتماعات السرية التي تنتفي عنها الخيرية هي التي تتعلق بالشأن العام، أما ما تعلق بالأمور الخاصة بالأفراد، والأمور الأسرية، والتجارية، ونحوها مما لا يحدث ضررًا، فتجوز فيها المناجاة، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ﴾، حيث قيد المنع بكثير من المناجاة، ولم يعمم.

ونستنبط ذلك من قوله -تعالى مجدُه-﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ﴾ فقيدها بقوله: ﴿فِي كَثِيرٍ﴾، وذلك لأَنَّ مِنَ النَّجْوَى مَا يَكُونُ فِي الشؤون الخَاصَّةِ كَالزِّرَاعَةِ وَالتِّجَارَةِ مَثَلًا فَلَا تُوصَفُ بِالشَّرِّ، وَلَا هِيَ مُرَادَةٌ مِنَ الخَيْرِ[٢]، وإنما كانت النجوى مظنة الشر لأن الكاتمين المتناجين لا يكتمون فحواها غالبًا إلا لأنهم يخشون أن يطلع عليها الناس، وقد قال النبي ﷺ: «البِرُّ حُسْنُ الخُلُقِ وَالإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ»[٣].

---

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٨ / ٨٠) رقم ٦٢٩٠.

(٢) تفسير المنار (٥/ ٣٣٠).

(٣) صحيح مسلم (٨ / ٦) رقم ٢٥٥٣ .

القانون الثالث: حصر الله المجالات التي ينبغي أن يوجه المتناجون لها الاهتمام سواء أكانوا مجموعات أم كانوا مؤسسات مدنية أم جماعات حقوقية في ثلاثة، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾.

المجال الأول: الأمر بالصدقات حتى ينتفع العالم بها:

والصدقة من الصدق، وهي كلمةٌ تـدُلُّ عَلَى قُـوَّةٍ فِي الشَّـيْءِ قَـوْلًا وَغَـيْـرَهُ، فالكَذِبَ لَا قُوَّةَ لَهُ، وهُوَ بَاطِلٌ، وَأَصْلُ الصدق مِنْ قَوْلِهِمْ شَيْءٌ صَدْقٌ، أَيْ صُلْبٌ. وَرُمْحٌ صَدْقٌ[1]، فالصدقة هي النشاط الذي يزيد الـمجتمع قوة، وتكاتفًا وتراحمًا، والاستثناء إنما هو من النجوى فلا خير في كثير من المتناجين المتآمرين في سرهم إلا أن يكون تناجيهم في الأمر بالصدقة ففي ذلك خير كثير، فقد حرم التناجي، إلا أن يكون في الأمر بالصدقة، أي: في تنظيمها، فقد يقتضي الأمر إخفاءها، وما يتعلق بها من معلومات... وهنا تندهش لهذا التنظيم المبكر لمؤسسات النفع العام في الشريعة الإسلامية، والتي نشأ على إثرها التراث الوقفي الإسلامي العظيم قبل أن يخربه المخربون ويتآمر عليه الذين يتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول.

فالمناجاة هنا مطلوبة لأن إخفاء الصدقة، وإخفاء ما يتعلق بها من معلومات قد تمس الحاجة إليه إما محافظة على شعور المتصدق عليه، وإما لاقتضاء بعض الظروف والمتغيرات ذلك، ولذا قَالَ - عزَّ وجلَّ -: ﴿إِن تُبْـدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِـمَّا هِىَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَـا ٱلْفُـقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ (البقرة: ٢٧١).

فمن يأمر بإعطاء الصدقة يدون أسماء مستحقيها، ويوصلها إلى أهلها بالتعاون مع الأجهزة التنفيذية الموجودة عنده، ومثل هذا يبقى سرًّا لأن الله سبحانه وتعالى جعل هذا من الخير الذي يتعلق بالنجوى، ومتى يُظهِرُه؟ يظهر في عدد من الأحوال

(١) مقاييس اللغة (٣/ ٣٣٩).

مثل أن يقتضي إظهارَه بعضُ المتغيرات أو بعضُ الظروف الأمنية، فلابد من الإظهار محافظة على الأمن العام، في هذه الحالة لا يطلع على التفاصيل إلا عدد محدود.

وكذلك يظهره إذا قصد أن يُقتدَى به ولا يشعر بأنه كفى المتصدق عليه، فيعلن هناك فقراء في الحي الفلاني كذا وكذا وهم بأمس الحاجة وأنتم في غفلة عنهم، ونحن قد أعطيناهم ولم نستطع الإيفاء بحقهم مثلًا.

المجال الثاني: الأمر بالمعروف:

المعروف مشتق من المَعْرِفَةُ وَالعِرْفَانُ، وسمي معروفًا للسكون إِلَيْهِ، فإن مَنْ أَنْكَرَ شَيْئًا تَوَحَّشَ مِنْهُ وَنَبَا عَنْهُ، وَمِنَ البَابِ العَرْفُ، وَهِيَ الرَّائِحَةُ الطَّيِّبَةُ تَسْكُنُ إِلَيْهَا. قَالَ النَّابِغَةُ:

أَبَــى اللهُ إِلَّا عَــدْلَــهُ وَوَفَــاءَهُ فَلَا النُّكْرُ مَعْرُوفٌ وَلَا العُرْفُ ضَائِعُ[1]

وقيل: يراد بالصدقة الواجب، وبالمعروف ما يتصدق به على سبيل التطوّع[2]، والفرق واضح بين الصدقة والمعروف، فالمعروف أعم إذ يشمل الأقوال والأفعال، ويمتد ليعالج إقامة النشاطات المختلفة لإشاعة المعروف حسنه بين الناس، فالمعروف عامّ في كل جميل تنبسط البشرية إليه، ويشاع في العالم لحسنه كأن الناس على معرفةٍ مسبقة به، ويدخل في المعروف التعاون على حفظ المجتمع، ومن المعروف النصح للحاكم والعالم وسائر الناس، وينبغي أن يكون الأمر بالمعروف بالوسيلة المعروفة لا المنكرة، فالنصح مثلًا ينبغي أن يتلطف في تقديمه كما قال أحمد شوقي ﷺ «النصح ثقيل فلا تجعله جدلًا، ولا ترسله جبلًا، والحقائق مرة فاستعيروا لها خفة البيان».

(١) مقاييس اللغة (٤/ ٢٨١).

(٢) تفسير الزمخشري (١/ ٥٦٤).

المجال الثالث: الأمر بالإصلاح بين الناس أفرادًا وجماعات ودولًا وأممًا.

والإصلاح من أعظم الأعمال التي تستقر من خلالها المجتمعات، وتسمح للأسر والأفراد والحكومات بالقيام بأعمال التنمية بدلًا من النزاع، وتخفف عن القضاء عبء فك الخصومات، ولذا جعل النبي ﷺ الإصلاح أفضل من درجات سائر العبادات، فعَنْ أَبِى الدَّرْدَاءِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلاَةِ وَالصَّدَقَةِ». قَالُوا بَلَى. قَالَ «إِصْلاَحُ ذَاتِ البَيْنِ، وَفَسَادُ ذَاتِ البَيْنِ الحَالِقَةُ» (١).

والإصلاح بين الناس يقتضي إبعاد كل فساد، ولأجل هذا الهدف العظيم الإصلاح بين الناس جاز الكذب بمعنى المعاريض، فعن أُمّ كُلْثُومٍ بِنْت عُقْبَةَ أَنَّهَا سَمِعَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «لَيْسَ الكَذَّابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ فَيَنْمِي خَيْرًا، أَوْ يَقُولُ خَيْرًا» (٢).

وعَن أَنَس رضي الله عنه؛ أَنَّ النَّبِيّ ﷺ قال لأبي أيوب: ألا أدلك على تجارة؟ قال: بلى. قال: «تسعي في صلح بين الناس إذا تفاسدوا، وتقارب بينهم إذا تباعدوا» (٣). فهذه الحالة هي حالة تبيت ما يرضي الله من القول وليس حالة التآمر السيء التي قال عن أصحابها: ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ (النساء: ١٠٨).

والمعروف يشمل كل ما تم التعارف على حسنه، فدخل فيه المجالان الآخران (الصدقة والإصلاح)، وإنما ذكرهما لأهميتها الخاصة في التنمية والإصلاح

(١) أخرجه أبو داود (٤ / ٤٣٢) برقم (٤٩١٩) والترمذي في (٤ / ٢٧٩) برقم (٢٥٠٩).

(٢) أخرجه البخاري (٣ / ١٨٣) برقم (٢٦٩٢) ومسلم برقم (٢٦٠٥)

(٣) مسند البزار (١٣ / ١٨٥)، وذكره الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣ / ٤٥) برقم ٢٨١٨ (حسن لغيره).

المجتمعي.

فالتقديم بالصدقة لأن لها أهميتها العظيمة في إغاثة الإنسانية البائسة التي -للأسف- تزداد حاجتها مع كثرة الأموال المتدفقة على فئة محدودة من أبنائها، والأمر بالصدقة منتشر في القرآن خلافًا لصفات المنافقين المجرمين المتآمرين على الإنسانية ممن قال الله فيهم: ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۘ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾ (التوبة: ٦٧)، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ (الحاقة: ٣٤) فذمه ذمًا شديدًا، والتأخير للإصلاح بين الناس لأن احتياجاته خاصة مقارنة بالاحتياجات التي تتعلق بالصدقة؛ إذ يقتضي الحركة بين أطراف النزاع المختلفة، وهم قد يكونون أفرادًا وقد يكونون دولًا.

وهذه المجالات الثلاثة تتفرع عن البر والتقوى فإليها يرجع النفع العام في المجتمع:

فذكر الله عدم الخيرية في كل اجتماع يتخذ من التناجي أسلوبًا، ويحاط بالسرية إذا كان خارجًا عن هذه الأهداف الثلاثة: الصدقة، والمعروف، والإصلاح بين الناس، «وَذَلِكَ لِأَنَّ عَمَلَ الخَيْرِ إِمَّا أَنْ يَكُونَ بِإِيصَالِ المَنْفَعَةِ أَوْ بِدَفْعِ المَضَرَّةِ، أَمَّا إِيصَالُ الخَيْرِ فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مِنَ الخَيْرَاتِ الجُسْمَانِيَّةِ وَهُوَ إِعْطَاءُ المَالِ، وَإِلَيْهِ الإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ ﴿**إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ**﴾ وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مِنَ الخَيْرَاتِ الرُّوحَانِيَّةِ، وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ تَكْمِيلِ القُوَّةِ النَّظَرِيَّةِ بِالعُلُومِ، أَوْ تَكْمِيلِ القُوَّةِ العَمَلِيَّةِ بِالأَفْعَالِ الحَسَنَةِ، وَمَجْمُوعُهُمَا عِبَارَةٌ عَنِ الأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ، وَإِلَيْهِ الإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ ﴿**أَوْ مَعْرُوفٍ**﴾ وَأَمَّا إِزَالَةُ الضَّرَرِ فَإِلَيْهَا الإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ ﴿**أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ**﴾ فَثَبَتَ أَنَّ مَجَامِعَ الخَيْرَاتِ مَذْكُورَةٌ فِي هَذِهِ الآيَةِ[1]، وقد أمر الله في سورة المجادلة بالتناجي بالبر والتقوى فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا

(١) تفسير الرازي (١١/ ٢١٨).

﴿إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾(المجادلة: ٩)، والبر والتقوى يرجع إليهما: الصدقة، والمعروف، والإصلاح بين الناس.

لماذا ذكر الله جل شأنه صيغة الجمع في قوله: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ...﴾؟

لأن هذه المجالات الثلاثة قد يقوم بها اثنان، وقد يقوم بها ثلاثة، أما في حال توسع الأمة وكثرة أعدادها فقد يقوم بها جماعات متعددة، فهذه الجماعات المتعددة تجتمع في مقرها لتحقيق أهداف واضحة معروفة كالأمر بالمعروف، والصدقة، والإصلاح بين الناس، فاحتاجوا إلى أن ينجزوا أنشطة كثيرة بينهم لنفع مجتمعهم دون أن يطلع عليهم بقية أفراد المجتمع، فهل يجوز ذلك؟

تبين الآية جواز ذلك ما دامت أهداف اللقاءات داخلة ضمن المجالات الثلاثة، فالآية تنظم التشريعات الخاصة بالجمعيات والتجمعات الثقافية والخيرية والسياسية وذات النفع العام، وفي الوقت الذي ترى الآية تنظم ذلك، فإنها من جهة أخرى تحذر من أن توجد تجمعات تؤدي إلى تدمير المجتمع كأن يشاع من خلالها الكراهية أو تغيير الدين ومسخه والعبث به.

والنهي عن التناجي هنا سببه التعود على ضبط اللسان إلا أن يتكلم بالخير الذي تسمعه الآذان، وإلا كف لسانه عن الفتنة والتآمر بالشر، فعن محمد بن يزيد بن خنيس قال: كنا عند سفيان الثوري نعوده فدخل عليه سعيد بن حسان المخزومي وكان قاص جماعتنا وكان يقوم بنا في شهر رمضان فقال له سفيان: كيف الحديث الذي حدثتني عن أم صالح؟ قال: حدثتني أم صالح عن صفية بنت شيبة عن أم حبيبة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «كلام ابن آدم عليه لا له إلا أمر بمعروف أو نهي عن منكر أو ذكر الله». قال محمد بن يزيد: قلت ما أشد هذا! فقال سفيان: وما شدة هذا

الحديث إنما جاءت به امرأة عن امرأة. هَذَا فِي كِتَابِ اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلَ بِهِ نَبِيُّكُمْ ﷺ. أَوَ مَا سَمِعْتَ اللَّهَ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ فَهُوَ هَذَا بِعَيْنِهِ، أَوْ مَا سَمِعْتَ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ (النَّبَأ: ٣٨) فَهُوَ هَذَا بِعَيْنِهِ، أَوَ مَا سَمِعْتَ اللَّهَ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (سُورَةُ العَصْرِ)، فَهُوَ هَذَا بِعَيْنِهِ [1].

القانون الرابع: جزاء المبادرة بالقيام بتنظيم الأنشطة الفعالة في المجالات الثلاثة ابتغاء مرضاة الله الأجر العظيم الذي قد يكون مؤخرًا إلى يوم القيامة، فلا يتعجلن المرء قطف ثمرته، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ١١٤).

فمن قام بتلك الفروض الكفائية من الأفراد والجماعات ابتغاء مرضاة الله وعده الله بأجر عظيم فقال: ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، وانظر كيف تم الوعد بالأجر العظيم.. لقد وَطَّأَ الله له بكلمة ﴿سَوْفَ﴾.. لماذا؟

إنه ينبئك أن الأجر العظيم الحقيقي لا يكون إلا مؤخرًا مدخرًا لك في الجنة، فإن الدنيا كلها لا تساوي الأجر العظيم الذي يعدك به.. لقد أراد الله لك أن تجتاز الامتحان الدنيوي غير ناظر إلى نصرٍ عاجل، أو فتحٍ قريب، أو رزقٍ دانٍ.. وكيف يمكن لك أن تثبت صدق ابتغائك لمرضاة الله إن كنت لا تنظر إلا إلى الدنيا؟

---

(١) سنن الترمذي بتحقيق شاكر (٤ / ٦٠٨)، قال أبو عيسى هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث محمد بن يزيد بن خنيس قال الشيخ الألباني: ضعيف، المستدرك على الصحيحين للحاكم مع تعليقات الذهبي في التلخيص - (٢ / ٥٥٦)، وهذ اللفظ نقله ابن كثير عن ابن مردويه.

وكلمة ﴿أَجْرًا﴾ نكرة موصوفة بالعظم لبيان عظمة ما يكتنزه الأجر المنتظر، ولإظهار أنه لا حدَّ للمدى الذي يصل إليه لعظمته وكلمة ﴿ٱبْتِغَآءَ﴾ من بغى الشيء إذا طلبه، وابتغاه مطاوع بغى، وهو أبلغ من بغى في الدَّلَالَةِ عَلَى الطَّلَبِ، فهو يدل على شدة الجهد والاجتهاد للحصول على المطلوب، وإعمال النفس فيه على الوجه الأكمل.. وهذا القيد ﴿ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ يفتح الباب واسعًا ليجتهد الإنسان في تحصيل مرضاة الله من خلال المجالات الثلاثة حتى لو لم تتحقق نتيجة الجهد في الدنيا، فإن الذي يبتغي وجه الله لا يضيع عمله الحسن في الآخرة، ومن هنا قال الله ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (النساء: ١٠٠)، ويكون مقابل ابتغاء مرضاة الله: الإتيان بتلك الأنشطة رياء أو طلبًا للذكر والسمعة، أو طلبًا لأمجاد شخصية، أو للتلاعب.. فيكون صيادًا للناس بما ينفع الناس، وحقيقة الأمر أنه يصطاد لصالح مجده العاجل، ولذا لا يكون مانعًا عنده لو فنيت البشرية مقابل أنانيته وشخصيته غير السوية.

«وَبِهَذَا القَيْدِ يَكُونُ المُؤْمِنُ أَرْقَى مِنَ الفَيْلَسُوفِ فِي عَمَلِهِ، وَأَبْعَدَ عَنِ الغُرُورِ وَالدَّعْوَى فِيهِ، وَأَرْسَخَ قَدَمًا فِي الإِخْلَاصِ، وَتَحَرِّي نَفْعِ النَّاسِ، وَالثَّبَاتِ عَلَى ذَلِكَ، وَعَدَمِ مُزَاحَمَةِ الأَهْوَاءِ الشَّخْصِيَّةِ لَهُ وَتَرْجِيحِهَا عَلَيْهِ، ذَلِكَ بِأَنَّ الفَلَاسِفَةَ وَأَخُصُّ مِنْهُمْ فَلَاسِفَةَ هَذَا الزَّمَانِ يَقُولُونَ: إِنَّ الخَيْرَ وَالفَضِيلَةَ وَالكَمَالَ فِي الإِنْسَانِيَّةِ هُوَ أَنْ يَفْعَلَ الإِنْسَانُ الخَيْرَ ؛ لِأَنَّهُ خَيْرٌ نَافِعٌ لِلْهَيْئَةِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ الَّتِي هُوَ مِنْهَا، وَالإِيمَانُ يَهْدِينَا إِلَى هَذَا وَإِلَى مَا هُوَ أَعْلَى مِنْهُ وَأَشْرَفُ، وَهُوَ أَنْ نُشْعِرَ أَنْفُسَنَا عِنْدَ عَمَلِهِ أَنَّنَا مَظَاهِرُ لِرَحْمَةِ اللهِ – تَعَالَى – وَرَأْفَتِهِ بِعِبَادِهِ» [1]، وأن نجتهد في نفع الناس حتى لو لم نجد مما نفعل منفعة عاجلة في خاصة أنفسنا.

(١) تفسير المنار (٥/ ٣٣٣).

والأجر العظيم الذي يجده من يجاهد نفسه جاء نكرة موصوفة بالعظم لبيان أنه لا حدَّ للمدى الذي يصل إليه من عظمه الله إلا ما يعلمه هو سبحانه، وفي الآية قراءتان توضحان مشهدين:

المشهد الأول: قراءة الجُمْهُور: ﴿نُؤْتِيهِ﴾ بِنُونِ العَظَمَةِ عَلَى الِالتِفَاتِ مِنَ الغَيْبَةِ ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ إِلَى التَّكَلُّمِ ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ تعظيمًا للفاعل فإذا عظَّمَ الفاعل المعطي عظَّم المقدار المعطى، والأجر الذي ينتظره.

المشهد الثاني: قَرَاءة أَبي عَمْرٍو، وَحَمْزَةُ، وَخَلَفٌ بِالتَّحْتِيَّةِ ﴿يُؤْتِيهِ﴾ عَلَى ظَاهِرِ قَوْلِهِ ﴿ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ دون التفات للفت نظر فاعل العمل الصالح أن الأجر العظيم غيب يلقاه عندما يلقى ربه.

القانون الخامس: يجب الحذر من القيام الفردي والجماعي بمشاقة الرسول ﷺ، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾ (النساء:١١٥).

وتجد جمال المناسبة والاتصال بين الآيتين:

فالآية السابقة تحث على الحركة الفردية وإنشاء المؤسسات الصغيرة والكبيرة، التي يتم من خلالها التناجي حول المجالات الثلاثة البانية للمجتمع وهي الأمر بالصدقة، والمعروف، والإصلاح بين الناس؛ وذلك يعني تكوين جماعات حقوقية، وهنا أراد الله جل جلاله أن يبين لنا الصورة المقابلة، حيث كشف الأهداف الشيطانية للمضلين العالميين أفرادًا، ومؤسسات، الذين أشار إليهم من قبل بقوله: ﴿هَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ﴾ (النساء:١١٣)، وبذلك تتم حماية الحقوق الإنسانية في العالم من التشويه، والتحريف؛ والإفساد والتآمر.

والمُشَاقَّةُ تدل على شدة المعاداة، فصاحبها اتخذ موقفًا واضحًا بشَقّه

لِلْعَصَا، أو بجعل نفسه في شِقٍّ آخر مقابلٍ للشِقِّ الذي فيه الرسول ﷺ، فيتصور ذلك بالطعن في السنة، والصد عنها، ولاحظ أن الآية تمثل تكملة للتأكيد على أن السنة النبوية لها مركزيتها في المحافظة على الأمن القومي، واستراتيجية أخذ الحذر.. إذ يحق لك أن تتساءل: لماذا نصت الآية على مشاقة الرسول ﷺ، ولم تُذكر مشاقة الله؟ لعل سبب ذلك أن الله أراد بيان أساسٍ تكرر ذكره في هذه السورة بأساليب مختلفة: إنه أمر تعظيم السنة وطاعة الرسول المبين بقوله وعمله للقرآن -صلى الله على محمد ﷺ-، فكل المجموعات المنتسبة لأمة الإسلام تظهر طاعة الله وتعظيم القرآن، لكن عددًا لا يستهان به منها يستخف بسنة النبي ﷺ، ويشاقها، ويحاول الغض منها.

ومشاقة الرسول ﷺ سفهٌ في العقل، فحقيقة ذلك أنه رغبة عن ملة إبراهيم كما في قَوْلِهِ - تَعَالَى -: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ (البقرة: ١٣٠) أي: لا يرغب عن ملة إبراهيم إلا من أذل نفسه بالجهالة وخف عقله، وتسبب هو في هذه الخفة العقلية، وتصور هذه الصورة التي يشمئز منها العاقل!

والآية تقتضي ثلاثة أمور:

الأول: أنه يَجِبُ الِاقْتِدَاءُ بِالرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي أَفْعَالِهِ في الجملة؛ إِذْ لَوْ كَانَ فِعْلُ الأُمَّةِ غَيْرَ فِعْلِ الرَّسُولِ لَزِمَ كَوْنُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا فِي شَقٍّ آخَرَ مِنَ العَمَلِ فَتَحْصُلُ المُشَاقَّةُ[1].

الثاني: جعل اتباع السنة وطاعة الرسول ﷺ ضمن أهم الالتزامات الفردية والجماعية، والتربية عليه، فيتهم المرء كل الأهواء الشخصية التي تحاول الطعن في السنة النبوية سواء أكانت فردية أم جماعية.

(١) تفسير الرازي (١١/ ٢١٩).

الثالث: إنشاء المؤسسات الإعلامية والتعليمية لنشر سنة النبي ﷺ وتنقيحها من وضع الوضاعين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين.

ويجب الحذر ممن يشاق الرسول ﷺ في الأمور البينة لأن مراده ليس المعرفة ولا الحقيقة بل التشويش على الهدى البين، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ﴾:

وهو قيدٌ علميٌّ عمليٌّ، وقد تكرر هذا القيد في القرآن لأهميته البالغة في إصدار الحكم، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ (مُحَمَّد: ٣٢).

هذا القيد يقتضي أن يكون قد استبان للمشاق أن هذا المنقول هدي للرسول صلى الله عليه وسلم فأباه، فيدخل في ذلك أَنْ يؤمن بِالرَّسُولِ فَتَكُونُ الآيَةُ وَعِيدًا لِلْمُرْتَدِّ ردةً كلية، وَيدخل فيه أن يستبين له صدق الرسول لكنه يظل مشاقًا معاندًا فتكون الآية وعيدًا للكفار والملحدين.. فما أكثر ما تبين للوثنين العرب، ولليهود في المدينة صدق النبي ﷺ ثم يصرون على المشاقة إيثارًا للرياسة، أو تكبرًا وحسدًا، واستجابة للأهواء الشخصية كما رويَ أن جبلة بن الأيهم أسلم ثم ارتد أنفة أن يقتص منه عامي، وإن كان بعضهم لا يصحح القصة، فالمراد المثال وقع أم لم يقع.

ويدخل فيه أن يعلم أن هذا القول الذي يُعرض عليه للرسول من أمرٍ أو نهيٍ لكنه يصر على عدم اتباعه، وهذا أشبه بالردة الجزئية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ (محمد: ٢٥).

وتبين الهدى يقتضي نشر التعليم الشرعي على أوسع نطاق لتبيين الهدى للعالم، وإقامة الحجة عليهم بإقامة الأدلة، وتحرير النظر، وتعويد الفكر على رؤية الدليل.

القانون السادس: يجب الحذر من اتباع غير سبيل المؤمنين، ويدخل فيه ترك جماعتهم، والتخابر مع أعدائهم، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

فمعنى تَبِعَ مشى خلف غيره فتلاه واقتفاه. يُقَالُ تَبِعْتُ فُلَانًا إِذَا تَلَوْتُهُ، واتَّبَعْتُهُ. وَأَتْبَعْتُهُ إِذَا لَحِقْتَهُ. وَالأَصْلُ وَاحِدٌ، غَيْرَ أَنَّهُمْ فَرَّقُوا بَيْنَ القَفْوِ وَاللُّحُوقِ فَغَيَّرُوا البِنَاءَ أَدْنَى تَغْيِيرٍ. قَالَ اللَّهُ: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ (الكهف: ٨٥)، و﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ (الكهف: ٨٩) فَهَذَا مَعْنَاهُ عَلَى اللُّحُوقُ [١]، والسَبيلُ: الطريق ويطلق على الصلة، فيذكر ويؤنث كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾ فأنث، وقال: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ فذكّر، وقوله تعالى: ﴿يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ أي: سبيًا ووُصْلَةً، وأنشد أبو عبيدة لجَرير:

أَفَبَعْدَ مَقْتِلَكُمْ خَليلَ محمدٍ يرجو القيونُ مع الرسول سَبيلاَ

أي: سببًا ووُصْلَةً [٢].

والسبيل يطلق على الطريق الخاص الواضح التي يسلكها كل قوم في طريقة حياتهم، ومناهجهم، وتفكيرهم، وبذا ندرك أن قوله تعالى: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يدل على أن هؤلاء المجرمين كانوا أتباعًا، فأصروا على أن يمشوا خلف غير سبيل المؤمنين.. فما الذي اختاروه من سبيل يسيرون فيه في حياتهم؟

قال الله جل شأنه: ﴿غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فلم يذكر أي سبيلٍ اختاره لكنه فتح الباب واسعًا في التفكير: فإن خسة هؤلاء بلغت حدًا أن يهتموا بشيء واحد وهو مخالفة سبيل المؤمنين، وبعد ذلك: أن يتابعوا المغضوب عليهم.. أن يتابعوا الضالين.. أن يتابعوا المجرمين.. أن يتابعوا الشياطين.. لا يهمهم! يركزون فقط على

(١) مقاييس اللغة (١/ ٣٦٢).

(٢) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٥/ ١٧٢٤).

سبيل المؤمنين ليخالفوه، ويطعنوا فيه، وتجد هذا من أهم أهدافهم في الحياة، وفي المقابل يجعل من أهم أهداف الجماعة أو المجتمع المسلم: تعزيز الثوابت العليا للأمة الإسلامية، ومنها حماية الجماعة الكبرى والإجماع.

ويدخل في اتباع سبيل المؤمنين أن ترى الذي يتبع السنة يظهر محبته للمسلمين، ويحرص على أخوتهم، ويثبت على السير في طريقتهم، وحماية أمنهم.

وهذا يعني أن من أهم الأهداف التطبيقية للأمر بالمعروف: حماية المجتمع باتباع سبيل المؤمنين في المسائل الدينية، وذلك يعني ضرورة الاهتمام بما أجمع عليه المسلمون حتى لا يخالف، واستنبط منها الشافعي الاستدلال بالإجماع، كما يعني الاهتمام بالمحكمات التي يسير عليها جمهور المؤمنين في قضاياهم، أما المسائل الدنيوية فالمجال مفتوحٌ فيها للاختراع والنظر:

إذ سبيل المؤمنين هو ما ساروا عليه، والذي ساروا عليه إما مسائل أجمعوا عليها، وإما مسائل اختلفوا فيها، فالمجمع عليه هو سبيل المؤمنين الذين صار الإيمان لهم صفة راسخة، فلا بد من الاعتناء به، فيصير حجة لا تجوز مخالفتها، كما لا تجوز مخالفة الكتاب والسنة، لأنّ اللَّه عز وعلا جمع بين اتباع سبيل غير المؤمنين، وبين مشاقة الرسول في الشرط، وجعل جزاءه الوعيد الشديد، فكان اتباعهم واجبًا كموالاة الرسول عليه الصلاة والسلام [١]، «ولما كان المخالف للإجماع لا يكفر إلا بمنابذة المعلوم بالضرورة، عبر بعد التبين بالاتباع فقال: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ﴾ أي: طريق ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي الذين صار الإيمان لهم صفة راسخة، والمراد الطريق المعنوي، ووجه الشبه: الحركة البدنية الموصلة إلى المطلوب في الحسي، والنفسانية في مقدمات الدليل الموصل إلى المطلوب في المعنوي» [٢]، وقد اعترض جمع من أهل العلم

(١) تفسير الزمخشري (١/ ٥٦٥).

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٥/ ٤٠٢).

على الاستدلال بالآية على الإجماع، وقال رشيد رضا: «بَيَّنْتُ عَدَمَ اتِّجَاهِ الِاسْتِدْلَالِ بِالآيَةِ عَلَى حُجِّيَّةِ الإِجْمَاعِ فِي المَنَارِ، وَكَذَلِكَ رَدَّهُ الأُسْتَاذُ الإِمَامُ وَالإِمَامُ الشَّوْكَانِيُّ فِي إِرْشَادِ الفُحُولِ، وَالآيَةُ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى الإِجْمَاعِ الصَّحِيحِ هِيَ قَوْلُهُ - تَعَالَى - فِي هَذِهِ السُّورَةِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾» [1].

وهنا تتساءل: أما يكفي في الوعيد أن يشاق الإنسان الرسول، فيستحق ذلك الوعيد؟

أراد الله زيادة البيان للمسألة حتى لا يأتي من يزعم أنه لا يشاق الرسول في الوقت الذي يتبع فيه غير سبيل المؤمنين كما قال بعض مانعي الزكاة موهمين الناس أنهم لا يشاقون الرسول:

أطعنا رسول الله ما كان وسطنا ... فيا لعباد الله ما لأبي بكر
أيورثنا بكرًا إذا مات بعده ... وتلك لعمر الله قاصمة الظهر
فهلا رددتم وفدنا بزمانه ... وهلا خشيتم حس راعية البكر
وإن التي سألوكمو فمنعتمو ... لكالتمر أو أحلى إلي من التمر

والمراد اتباع غير سبيل المؤمنين في المسائل الدينية لا في المسائل الدنيوية «فَمَنِ اتَّبَعَ سَبِيلَ المُؤْمِنِينَ فِي الإِيمَانِ وَاتَّبَعَ سَبِيلَ غَيْرِهِمْ فِي غَيْرِ الكُفْرِ مِثْلَ اتِّبَاعِ سَبِيلِ يهود خَيبر فِي غِرَاسَةِ النَّخِيلِ، أَوْ بِنَاءِ الحُصُونِ، لَا يَحْسُنُ أَنْ يُقَالَ فِيهِ اتَّبَعَ غَيْرَ سَبِيلِ المُؤْمِنِينَ» [2].

وهذا يقتضي أن يكون للصالحين هيئات، وجماعات نشطة، تدعو إلى الخير، وتقاوم السلوك المدمر للإنسانية.

(١) تفسير المنار (٥/ ٣٤٠).

(٢) التحرير والتنوير (٥/ ٢٠١).

ثم بصرنا الله بالعقوبة الخطيرة التي يستحقها من يحقق هذين الهدفين الخطيرين: مشاقة الرسول واتباع غير سبيل المؤمنين، فقال: ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ (النساء:١١٥):

فهي عقوبة مكونة من جزئين:

فالجزء الأول في العقوبة خطير جدًا؛ إذ يقول الله: ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ يكلهم الله إلى ما اختاروه من المناهج والنظم، فلا ينقذهم من ضلالاتهم، ولا يغيثهم من إجرامهم، ويجعل اطمئنانهم وثقتهم بآلهة الباطل كما يشير له مجاهد[١]، «أَيْ: إِذَا سَلَكَ هَذِهِ الطَّرِيقَ جَازَيْنَاهُ عَلَى ذَلِكَ، بِأَنْ نُحْسِّنَهَا فِي صَدْرِهِ وَنُزَيِّنَهَا لَهُ -اسْتِدْرَاجًا لَهُ -كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (القَلَم: ٤٤)، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ (الصَّفِّ:٥)، وَقَوْلُهُ: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (الأَنْعَام: ١١٠)» [٢] كما قال النبي ﷺ: «وَأَمَّا الآخَرُ فَاسْتَحْيَا فَاسْتَحْيَا اللَّهُ مِنْهُ، وَأَمَّا الآخَرُ فَأَعْرَضَ فَأَعْرَضَ اللَّهُ عَنْهُ» [٣].

والجزء الثاني من العقوبة قال الله عنه: ﴿وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ يَعْنِي نُلْزِمُهُ جَهَنَّمَ يذوق حرارتها وسمومها، وَأَصْلُهُ الصِّلَاءُ وَهُوَ لُزُومُ النَّارِ وَقْتَ الِاسْتِدْفَاءِ [٤].

وهنا قد تتساءل: لماذا لم يذكر الله العقوبة الدنيوية؟

لعل الله ذكر العقوبة الدنيوية في قوله: ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ فإنها تعني أن الله يكلهم

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٢٠٥).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٤١٣).

(٣) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (١ / ٢٦) رقم ٦٦ .

(٤) تفسير الرازي (١١/ ٢١٩).

إلى أصنامهم وطواغيتهم البشرية أو الوثنية، ويكلهم إلى تصوراتهم المنحرفة التي تزيدهم انحرافًا، لكن هذا لا يعد عقوبة بالمعنى المباشر، ويبقى الجواب ظاهرًا في أن العقوبة الدنيوية تقع عليهم حسب مدافعة المؤمنين لانحراف المنحرفين، فكما أن لهؤلاء جماعات ضغط تجرف المجتمع إلى البوار والدمار، فينبغي أن يكون للمسلمين هيئات وجماعات تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتقاوم السلوك المدمر للإنسانية الذي يجرفها بعيدًا عن الفطرة السوية التي خلقت عليها.. على أن ذلك لا يعني ألا تقع قارعة من العقوبات الطبيعية على الذين عصوا ربهم مما تراه لا تخلو منه كثرة من الأمم، ويظهر ذلك في الزلازل والحرائق والكوارث الطبيعية، والهزات الاقتصادية.

وهناك أمر آخر، وهو أن الله تعالى أراد أن يبين أن العقوبة الدنيوية قد لا تقع على هؤلاء المتناجين بالسوء؛ لأن الدنيا دار ابتلاء وليست دار جزاء، إنما الجزاء في الآخرة، فإذا رأى المؤمنون أن العقوبة لم تقع على هؤلاء المجرمين مع كثرة إجرامهم وإفسادهم في الأرض فلا يحزنهم ذلك لأن العقوبة الحقيقة في الآخرة وليس في الدنيا،.

وجه الرابط بين هذه الآية والرابط الكلي للسورة أن هذه السورة تتركز أنوارها على حقوق المجتمع وخاصة المستضعفين، فإذا كانت تتكلم عن حقوق المجتمع فمن أبشع ما يضيع حقوق المجتمع مشاقة الرسول ﷺ لأنها مشاقة للعدل والإحسان، ومن أبشع ما يضيع للمؤمنين حقوقهم اتباع غير سبيل المؤمنين، ومن أعظم ما يضيع على المجتمع حقه التشويش على الهدى.

ملحوظة ختامية على أسلوب الآية هذه في بيان أهداف التناجي السيء:

عند الجمع بين هذه الآية والتي قبلها ترى أن الله ذكر التناجي صراحة في الآية

الأولى، ونفى الخير عن أي تناجٍ إلا أن يكون تناجيًا حول الأمر بالصدقة أو المعروف أو الإصلاح بين الناس، بينما هنا لم يذكر كلمة النجوى بل قال: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ ...﴾ ونحن جعلنا الآية الثانية بيانًا لمجالات التناجي السيء أو لأهداف التناجي السيء.. فكيف ذلك مع اختلاف أسلوب الآية الثانية عن الأولى؟

الجواب: هذه السعة القرآنية في بيان المعاني؛ فإن التركيز في الآية الأولى على نفي الخير في التناجي إلا في المجالات الثلاثة أما التركيز في الآية الثانية فعلى بيان الأهداف السيئة لأشرار العالم سواء أكانت جهودهم فردية أم جماعية، وسواء أكانت سرية (تناجيًا) أم علانية، فناسب تفاوت الأسلوبين.

القسم الثالث

حق العالم في معرفة أخطر الأهداف الشيطانية التي تحرف الإنسانية عن وجود مرجعية دستورية قضائية نقية، وتجعلها عرضة للافتراس الشيطاني (النساء:١١٦-١٢٢)

آيات هذا القسم:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنۡهَا مَحِيصٗا ﴿١٢١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ﴾ (النساء: ١١٦ - ١٢٢).

المناسبة والاتصال:

رد الحقوق إلى أصحابها برز في هذا المحور القضائي، وقد كان ذلك بارزًا في القسم الأول، وكان القسم الثاني حول حق العالم في إقامة الجهود الفردية والمؤسسية التي تعمل على الاهتمام بالمجتمعات، وتعزز وظيفة الهيئات القضائية في القيام بالقسط، ولأن الكلام في القسم الثاني تعلق بالنجوى التي تعني الاجتماع والتآمر بالخير أو بالشر نقلنا الله إلى حق العالم في معرفة أخطر الأهداف الشيطانية

التي تحرف الإنسانية عن وجود مرجعية دستورية قضائية نقية، وتجعلها عرضة للافتراس الشيطاني، وقد أوضح لنا هذه الأهداف الشيطانية في الآتي:

الهدف الأول: اعتقاد الشرك ونشره وتزيينه في العالم، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ (النساء:١١٦).

تلاحظ في هذه السورة أنك كلما سرت معها ومع آياتها تكتشف كنزًا مذهلًا في تنظيم حياة المسلمين، وفي تنظيم الحياة العامة في واقع البشرية، فقد ذكر الله تعالى شأنه في الآيتين السابقتين النجوى وهي الكلام السري البيني أي: التآمر أو الائتمار على الخير أو الشر، والتآمر يطلق عادة على الأمور السيئة، والائتمار يطلق على الأمور الحسنة كما قال تعالى: ﴿وَأۡتَمِرُواْ بَيۡنَكُم بِمَعۡرُوفٖ﴾ (الطلاق: ٦)، فهنا تلمح بانبهار التنقل الأسلوبي القرآني، فالقرآن ليس كتابًا قانونيًا محضًا وإن كان التقنين يمثل جزءًا من هداياته، وليس كتابًا تاريخيًا خالصًا، وإن كان تصحيح القصص التاريخي يمثل جزءًا من بيناته، ولكن القرآن كتاب للتزكية والتعليم والتربية والوعظ والهداية، فهو مثاني تتكرر فيه المقاصد والمعاني على نحوٍ يناسب التربية المناسبة للبشرية، ويتحقق فيه التشريع، وتكثر المعاني من النصوص المتماثلة على نحوٍ مدهشٍ معجز، ولذا تكرر هذا النص الذي يبين خطورة الشرك لهذه الاعتبارات المتعددة جميعًا.. غير أن السياق يجعلنا نبصر في كل موضعٍ معانيَ جديدةً تبدو من خلال السياق التاريخي أو النصي، ألا ترى حرص أكابر المستثمرين على تسويق بضائعهم وتكرير إعلاناتهم؟ هذا مجرد مثلٍ يوضح لك ضرورة تكرير المعاني بأساليب مختلفة لتثبيت المعاني في نفوس السامعين والمشاهدين، ولإدراجها ضمن معانٍ كليةٍ أخرى، ويزيد القرآن على ذلك بما يناسب التربية والتشريع وتكثيف المعاني، و تكثيرها.

فأراد الله هنا أن يبصرك عددًا من المعاني بهذا النص المتكرر، ومنها التعبير عن هدفٍ من أخطر أهداف المتناجين بالشر، وهو الهدف الأكبر للخطة الشيطانية القديمة: إنه إيقاع الناس في الشرك، وبدلًا من أن يصوغه على شكل هدفٍ من أهدافه جاء به على هذه الصياغة التي تأخذ بالألباب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ (النساء: ١١٦) إذا كان الله عز وجل لا يغفر لمن يشرك به فكيف لمن يأمر بأن يُشرك به، كأنه يقول: ومن أهداف المتناجين بالسوء الوصول إلى الهدف الشيطاني الأكبر، وهو نشر الشرك في العالم، فاعلموا أن الله لا يغفر أن يشرك به، وكأنه يقول: ومن أهداف الشر الفردي، والمؤسسي نشر الشرك في العالم، فاعلموا أن الله لا يغفر أن يشرك به، فدمج الهدف وعقوبة المتورطين.

وأما الفرق اللفظي بين هذه الآية والآية المماثلة لها في السورة، وهي ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٤٨).

فإنك ترى أن الأولى ختمت بقوله: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾، وختمت الثانية بقوله: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ وإنما كان الختم مختلفًا؛ لأن السياق حكم مدلول الختام وجمَّله، فالكلام هناك كان عن أهل الكتاب، ومن هم أهل الكتاب؟ هم قوم يعرفون فظاعة الشرك، وظلم الشرك، وقبح الشرك.. يعلمون أن الشرك تعدٍ على الله جل ذكره في أخص خصائصه، وهي خاصية الوحدانية ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، فتلك الآية كلام عن أهداف المحرفين من أهل الكتاب، وهم لا شك يعرفون خطورة الشرك لكنهم يفترون على الله الكذب بالإصرار على تحريف الكلم عن مواضعه، أما الثانية فكلام عن المتناجين بالسوء مطلقًا، فيدخل فيهم أهل الكتاب

ويدخل فيهم المنافقون والوثنيون الذين ورد السياق بسببهم، وذكر الشرك هنا تقديمًا لأهم أهداف الخطة الشيطانية التي تفضحها الآية التالية، فناسب ذلك أن تُختَم الآية ببيان ضلال عقول المشركين، وسفه تفكيرهم، ومآلات الهلاك التي سيصلون إليها.. ناسب أن تختم الآية بإظهار أن شركهم أو ميلهم إلى الشرك أو إشاعتهم له أو سكوتهم عن خطورته ضلال بعيد، والضلال يدل على التيه والعمى، ويدل على الهلكة والفساد، ولخطورة جريمة الشرك، وظهور فساد عقل من يقع فيه فإن كل «حَقٍّ أَوْ خَيْرٍ يُقَارِنُهُ لَا يَقْوَى عَلَى إِضْعَافِ شُرُورِهِ وَمَفَاسِدِهِ»[1].

ووصف الله الضلال بالبعيد لأمرٍ يتعلق بالدنيا وأمرٍ يتعلق بالآخرة، فأما الذي يتعلق بالدنيا فالشرك خبلٌ عقليٌ غير متوقع من إنسانٍ سويٍّ، فكيف يعبد مخلوقًا مثله، ويسوي بينه وبين رب العالمين، كما قال راشد بن عبدربه وكان سادنًا لصنمٍ فجاء ثعلب فبال عليه:

لَقَدْ خَابَ قومٌ أمَّلُوك لِشِدَّةٍ أرادوا نِزَالًا أن تكونَ تُحاربُ
فلا أنت تُغنِي عَنْ أمورٍ تَواترَت ولا أنتَ دفَّاع إذا حَلَّ نائبُ
.أربٌّ يبولُ الثُّعلبان برأسِهِ لقد ذلَّ مَنْ بالتْ عليه الثعالبُ

وأما الذي في الآخرة، فإن المشرك اشترى الحياة الدنيا الفانية بالحياة الأخرى الباقية.. أليس ذلك ضلالًا بعيدًا؟

والشرك يدل على إقرارهم بالله ابتداء لكنهم يشركون معه غيره في عبادته، وذلك بخلاف الكفر فإنه يشمل الشرك، ويشمل الجحود بعدم الاعتراف بوجود الله، ولكنه يدخل في الشرك من جهة أن الملحد الذي ينكر وجود الله كأنه أشرك نفسه مع ربه، واتخذ إلهه هواه، ويظهر الشرك في صورٍ كثيرة منها:

(١) تفسير المنار (٥/ ٣٤٣).

عبادة الأحجار كهبل واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، ومن العجيب أن الذي نشر الشرك بها تآمر المتناجين الجاهلين من العرب مع الوافد الخارجي المجرم، فعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «عرضت علي النار فرأيت فيها عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف يجر قصبه[١] في النار، وكان أول من غير عهد إبراهيم وسيب السوائب، وكان أشبه شيء بأكثم بن أبي الجون الخزاعي» فقال الأكثم: يا رسول الله هل يضرني شبهه؟ فقال: «إنك مسلم وهو كافر»[٢]، وذكر ابن إسحاق أن سبب عبادة عمرو بن لحي الأصنام أنه خرج إلى الشام وبها يومئذ العماليق وهم يعبدون الأصنام فاستوهبهم واحدًا منها، وجاء به إلى مكة فنصبه إلى الكعبة وهو هبل[٣]، وقال الله عن عبادة الأحجار: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ (النجم: ١٩، ٢٠)، وقال عن انحراف بعض بني إسرائيل نحو الشرك بعبادة التماثيل: ﴿يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ (الأعراف: ١٣٨).

ومن صور الشرك عبادة الأشجار: فعن أبي واقد الليثي أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى خيبر مر بشجرة للمشركين يقال لها (ذات أنواط) يعلقون عليها أسلحتهم، فقالوا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنوط كما لهم ذات أنواط فقال النبي ﷺ: «سبحان الله! هذا كما قال قوم موسى ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ (الأعراف: ١٣٨) والذي نفسي بيده لتركبن سنة من كان قبلكم»[٤].

ومن صور الشرك: شرك الأولياء والشفعاء الذين قال الله عنهم: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾

(١) القُصُبُ - بضم القاف - الأمعاء.

(٢) صحيح ابن حبان (١٦ / ٥٣٥).

(٣) فتح الباري لابن حجر (٦ / ٥٤٩).

(٤) سنن الترمذي (٤ / ٤٧٥)، قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح، وصححه الألباني.

(الزمر: ٣) لكنهم يفسدون العقول ويتلاعبون باللغة، فيقولون: هم شفعاؤنا، ثم يدعونهم من دون الله.

ومن صور الشرك: الشرك التشريعي بتحليل ما حرم الله، وتحريم ما أحل الله، وهذا النوع فاشٍ مع التحذير الإلهي الشديد منه في مثل قوله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ (التوبة: ٣١)؛ ولأنه لا يوجد دليل يمكن أن يستند عليه مرتكبو الشرك ولخطورة جرمه فلا يمكن أن يغفره الله: فهو إنكارٌ صارخٌ لله الذي أوجد الإنسان وأعده ثم أمده بكل نفسٍ يتنفسه.

الهدف الثاني: إيقاع الإنسانية في الضلال البعيد الذي يحرمها من الحصول على مغفرة الله إن أصرت على الشرك، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى شأنه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾.

فهذه الآية ترى فيها تحذيرًا كبيرًا من جريمة الشرك، وفي الوقت ذاته تجد فيها بابًا واسعًا يدخل منه المجرمون ليجدوا من رحمة الله ما يبعد عنهم شؤم المعصية، ويلفت إمام من أئمة الهدى نظرنا إلى هذا المعنى.. إنه علي بن أبي طالب ﷺ فيقول: ما في القرآن آية أحب إليَّ من هذه الآية ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾[1]، وسارق الدرع من بني أبيرق لو لم يرتد لربما وجد من رحمة الله ما يكفر عنه خطيئاته لكنه اقترف بعد جريمة السرقة والبهتان نوعًا أسوأ من العدوان.. لقد ارتد وعاد إلى رجس الشرك فحق ألا يغفر له، فالترتيب التاريخي جعل من المناسب مجيئ هذه الآية في هذا الموضع لأن

(١) سنن الترمذي (٥ / ٢٤٧) وقال: حديث حسن غريب.

طعمة بن الأبيرق ارتد فأشرك بعد أن فعل ما فعل، والترتيب المصحفي كان في غاية المناسبة حيث ذكر الله من أهداف المبيتين ما لا يرضى الله من القول والمتناجين بالسوء نشر الشرك في الأرض، ولذا جاء التهديد مباشرًا لبيان مدى الظلم الذي يقترفه المشرك، والعقوبة أخذت منحيين:

الأول: عدم غفران الرحيم الرحمن لجريمة الشرك دلالة على مدى ظلم المشرك.

الثاني: بيان شدة الضلال الفكري، والتيه العقلي، والهلاك الحيوي الذي أوقع المشرك فيه نفسه.

وفي المقابل أشارت الآية إلى مفهوم أمة القبلة، فهي التي لم تشرك بالله شيئًا، ووضح النبي ﷺ ذلك فقال: «مَنْ صَلَّى صَلاَتَنَا، وَاسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا، وَأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا فَذَلِكَ المُسْلِمُ الَّذِي لَهُ ذِمَّةُ اللهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ فَلاَ تُخْفِرُوا اللَّهَ فِي ذِمَّتِهِ»[1].

الهدف الثالث: التلاعب بورقة الإناث في المجتمع، حيث تؤدي هذه الورقة إلى ظلمهن واستغلالهن في طريق لعبادة الشيطان بصورة مباشرة؛ وأظهر صور ذلك المعاصرة أن يتم التضحية بهن في طقوس عبادة الشيطان المعاصرة المباشرة، ولذا جمع الله بين الأمرين في قوله: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾ (النساء:١١٧).

يحكي الله جلَّ مجده الواقع الذي يحدثه مدبرو المؤامرات العالمية المخترِقة للزمان والمكان، فهم يدعون الإناث والشيطان المريد، ويحصر الله دعاءهم في ذلك فيقول: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا﴾ فـ﴿إِن﴾ هاهنا مَعْنَاها النَّفْيُ، والتقدير ما يدعون من دونه إلا إناثًا، مثل قَوْله تَعَالَى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (١ / ١٠٨) برقم ٣٩١.

﴿قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ (النساء: ١٥٩) أي: وما من أهل الكتاب إلا... «فجعلوا أنفسهم للإناث عبادًا وهم يأنفون من أن تكون لهم الإناث أولادًا» (١)، فالنفي مع إلا من أدوات القصر كما قال السيوطي ﷺ في (عقود الجمان في علم المعاني والبيان):

والنفي مع إلا كما محمد إلا رسول ما الحمى إلا اليد

وهنا يأتي السؤال: كيف قصر الله دعاءهم في الإناث مع وجود معبودات مذكرة كهبل وفرعون مثلًا، وكيف جرى القصر في الإناث مع أن الله ذكر على إثر ذلك أنهم يدعون معبودًا مذكرًا هو الشيطان المريد؛ إذ قال: ﴿وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾؟ في سورة النساء من المنطقي أن يتم التطرق إلى لعب قوى الإضلال العالمي بورقة الإناث في المجتمعات، فقوله: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا﴾ ما المقصود بالدعاء هنا هل هو دعاء العبادة؟ أو دعاء المناداة المجردة؟ أو دعاء الاعتزاز؟ أو دعاء الاستغلال والابتزاز؟

كل ذلك محتمل.. فيحتمل أن يكون الدعاء للعبادة كما قال تعالى شأنه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (غافر: ٦٠)، وسياق الآيات يدل على ذلك، فالآية التي قبلها تكلمت عن الشرك فهذا معنى محكم، غير أنه يمثل الصورة الأولى من صورة الدعاء، فإذا قلنا إن الدعاء هنا دعاء العبادة المباشرة فما سبب ذكر الإناث فقط في الآية مع أن المدعو للعبادة قد يسمى باسم أنثى كاللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، وقد يسمى باسم ذكر مثل هبل، وودٍ وسواع ويغوث ويعوق ونسر؟

وبناء على هذا التفكير في المعنى فإن المراد الدعاء المباشر ليمثل صورةً صارخة من صور الشرك، ويحتمل أن تكون الإناث ورقة يتلاعب بها ليتوصل منها إلى عبادة

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٥/ ٤٠٥).

الشيطان، ولذا جمع الله بين الأمرين فقال: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾ (النساء: ١١٧) أو لا ترى أن الواقع العصري أوضح ما يكون في الجمع بين القضيتين:

ترفع المنظمات المشبوهة، وغالبًا يرفع من يصاب بالأزمات الشخصية حقوق النساء، ثم ينبعث بعض السماعين لهم، وهنا ترى التدمير الحقيقي لكل حقوق المرأة باسمها، فباسمها أخرجوها من فطرتها باعتبارها امرأة إلى كل أمرٍ قبيح يخرجها من حيز الأنوثة المكرمة إلى حيز الإهانة أو الأنوثة المستغلة، ولكنهم يجعلون ذلك في قالب: الدعاء ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا﴾ (النساء: ١١٧)، ويتم سلب كل حقوقهن إلا ما يريده أتباع الشهوات، ثم يصرون على إلصاق حقوق العابثين في إتيان الفاحشة، ويزينون ذلك للعالم، ولا يتم الانتصار للنساء المسجونات ولا الفقيرات ولا المضطهدات، فتصبح المرأة ما دامت دون الأربعين لعبة، ولما يرون أن الكتب الإلهية لا تساعدهم على مآربهم القذرة يحبون تقديم العروض الشيطانية باعتبارها تسهل لهم تسهيلًا زائدًا ما يمكنهم من قضاء أهوائهم وشهواتهم، فيصل الأمر بهم إلى أن ينصروا حقوق عباد الشيطان الذي يسميه بعضهم لوسيفر، بينما يُقتل عبدة الرحمن أو يُضطهدون في كل مكان.

فصار عندنا اتجاهان في فهم دعوة الإناث الوارد في قوله: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا﴾ إما الدعاء المباشر بمعنى العبادة، وإما استغلال ورقة الإناث للتوصل بها إلى عبادة الشيطان، والتفسير الثاني ليس تفسيرًا إشاريًا، بل هو تفسيرٌ أقرب إلى التصريح من التلميح، فعندما ننظر إلى تسمية السورة بسورة النساء، وإلى السياق الذي وردت فيه هذه الآية وتلاحظ في الواقع شدة التلاعب بحقوق النساء، ثم ترى أن الله جمع بين دعوة الإناث ودعوة الشيطان المريد، هنا تذكر لماذا ذكر النبي

ﷺ ضرورة القيام على النساء وحفظهن وحماية كرامتهن، وذلك في قوله ﷺ: «المرأة عورة فإذا خرجت استشرفها الشيطان»(١)، وكلمة (عورة) هنا تعني أنها محل للصيانة والمحافظة والإكرام، وفي حال عدم التكريم والصيانة تصبح أداة لإدخال الخلل من خلاله لو خرجت خروج الرجل دون صيانة لائقة بها، وتكريم تختص به، وحفظ لمطالبها وحاجاتها؛ فإن المرأة إذا تُرِكت مهدرة الكرامة محتاجة للمال مضطرة لمصارعة الحياة مثل الرجال استغلها المجرمون، وصيروها فتنة للمتلاعبين العابثين، وتربط بين هذا وبين حديث أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا، وَاتَّقُوا النِّسَاءَ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ». وَفِي حَدِيثِ ابْنِ بَشَّارٍ «لِيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ»(٢)، والدنيا طريق الآخرة، ولم يحرم الله زينتها، فيكون المعنى: فاتقوا الدنيا أن تفسدوا فيها، واتقوا النساء أن تستغلوهن، وتفسدوا من خلالهن.

وما أكثر ما تسلب حقوق النساء باسم النساء، ويبقى لهن فقط ما يريده اتباع الشهوات، ويحذر الله في هذه السورة في موضعٍ مبكر فيها من ذلك فيقول: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ (النساء: ٢٧، ٢٨) وانظر للآية الثانية من هاتين الآيتين، فما معنى قوله: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾؟

قال بعض المفسرين: هو شدة الشهوة والحب للنساء أي: الحب الجنسي، وليس الحب الصادق، فيقوم الناس بالتلاعب بورقة الإناث لشدة الجذب بين النوعيين

(١) سنن الترمذي (٣ / ٤٧٦) برقم ١١٧٣، قال أبو عيسى هذا حديث حسن غريب قال الشيخ الألباني: صحيح.

(٢) صحيح مسلم (٨ / ٨٩) برقم ٧١٢٤.

البشريين، وتغذى النواحي المحرمة على حساب النواحي المشروعة؛ لأن النواحي المشروعة ذات تكلفة، وتنم عن مسؤولية.

وهنا ذكر الله تعالى دعاء الإناث وربط بينها وبين دعاء الشيطان، وذلك لشدة عبث الشيطان بالإنسان عن طريق الإناث، وكم تُفنِي الجماعات والدول والطوائف التي تسمي نفسها ثقافية من طاقات الأمة وثرواتها في عبادة الإناث.. فقط سل عن ذلك قنوات الغناء والعري والسينما.

فعَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ» (١)، وليس المقصود ذم النساء وإنما ذم عبث المجرمين والمجرمات بحقيقة الوجود النسوي في الكون والتلاعب به..

وما ذاك إلا لأن عباد الشهوات يتخذون المرأة سبيلًا لقلب الفطرة بدلًا من أن تكون مركزًا لحماية العالم وسكينته، ثم اتخذوا الإناث معبوداتٍ لهم، وهنا نعلم لماذا ورد عن عائشة تفسيرها الإناث بالأوثان، حيث روى هشام بن عروة، عن أبيه قال: كان في مصحف عائشة: (إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إلا أَوْثَانًا)، وروي عن ابن عباس أنه كان يقرؤها -أي: قراءة تفسيرية عندهما معًا-: (إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إلا أُثُنًا) بمعنى جمع «وثن» فكأنه جمع «وثنًا» «وُثُنًا»، ثم قلب الواو همزة مضمومة، كما قيل: «ما أحسن هذه الأجُوه»، بمعنى الوجوه، وكما قيل: ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾ (سورة المرسلات: ١١)، بمعنى: وُقِّتت(٢)، وواضحٌ أن المراد من قراءة ابن عباس وعائشة التفسير، وليس القراءة الحقيقية، وهنا تجد الضلال البعيد في الشرك.

فإن جعلنا الإناث بمعنى الوثن، فهم يدعون الأحجار والأشجار حتى قال عن

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٧/ ١١) برقم ٥٠٩٦.

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٢١٠).

الحسن البصري: و«الإناث» كل شيء ميت ليس فيه روح: خشبة يابسة أو حجر يابس[١]

وإن أريد بالإناث حقيقة مدلول الكلمة، فالمراد أنهم أشركوا مع الله غيره، ثم جعلوا شريك الله إناثًا مع استضعافهم لهن، حتى قالوا للحديد اللين: أنيث، فدعوا أصنامهم اللَّاتُ، وَالعُزَّى، وَمَنَاةُ، فذكر الرازي أن المعنى في النهاية: «هَلْ إِنْسَانٌ أَجْهَلُ مِمَّنْ أَشْرَكَ خَالِقَ السموات وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا جَمَادًا يُسَمِّيهِ بِالأُنْثَى»[٢]،

فهذان معنيان، وسبق أن ذكرنا الثالث، وذلك بإجراء الآية على ظاهرها في كلمة (إناث) وكلمة (يدعون) فهم ما يدعون من دونه إلا إناثًا جعلوهن بابًا ليجروا عليهن أسوأ أنواع شهواتهم ولعبهم، وليتخذوهن زينة لهم في طريق عبادة الشيطان، وليقوموا من خلال ذلك بالتضحية بالطاهرات منهن فيما يزعمون إرضاء للشيطان المريد، وهذه طقوس شيطانية تجري في زماننا المعاصر دون إنكار، فانظر لهذا الضلال البعيد.

ولنلخص المعاني السابقة:

فالمعنى الأول: أنهم يدعون آلهة من الإناث، وإن وجد مذكر فيهن، لكنهن يمثلن الأغلب في المعبودات المفتراة، مثل: مناة، واللات، والعزى، ونائلة، والشمس، والحية، وكانوا يسمون أصنامهم بأسماء الإناث غالبًا، مثل: اللات، والعُزَّى، ومناة، ونائلة، بل قال الحسن: لم يكن حيّ من العرب إلا ولهم صنم يعبدونه، يسمونه: أنثى بني فلان، ومن ذلك تسميتهم الملائكة: بنات الله.

المعنى الثاني: أنهم يرجعون معبوداتهم إلى أسماء، وأشخاص أنثوية صدرت

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٢٠٨).

(٢) تفسير الرازي (١١/ ٢٢١).

عنها الحياة، ومن ذلك زعم الهندوسية مثلًا أن أصل الآلهة هي: ديفي، وعبادها في الهندوسية يعرفون بـ»الشاكتيزمية»، ويؤمنون بأن «شاكتي» هي القوة الكامنة وراء مبدأ الذكورة في الوجود، وعندهم آلهة من الذكور، أشهرهم: «شيفا»، وقرينته: «بارفاتي»، و»فيشنو» وقرينته: «لاكشمي»، ومن أشهر آلهتهم: «براهما»، وهؤلاء الثلاثة: «شيفا»، و»فيشنو»، و»براهما» ثالوث مقدس عندهم، ومثل ذلك زعم المصريين القدماء أن ثالوثهم المقدس سبب الوجود البشري، والثالوث عندهم يتكون من «أوزوريس»، و»إيزيس»، و»حورس»، فحملت «إيزيس» ولم يمسسها بشر، وأطلق عليها المصريون القدماء اسم: «موت نتر»، أي: الأم المقدسة التي تمنح الحياة، ولعل من هذا الباب قول الله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا﴾ (الزمر: ١٧)، فأعاد الضمير على الطاغوت مؤنثًا.

المعنى الثالث: يتخذون الإناث ستارًا لشهواتهم وتلاعبهم، ويزعمون أنهم يريدون إنصافهن وإقامة حقوقهن، وهم بذلك يضحون بهن وبالبشرية معهن، فالأنثى في الشريعة مركزٌ أساسيٌّ لحماية البشرية، لكن المتلاعبين يريدونها وسيلة للعبث بالأمن الإنساني، وما ذاك إلا لاتخاذ المرأة سبيلًا لقلب الفطرة، بدلًا من أن تكون مركزًا لحماية العالم، وسكينته. وعبادة الإناث أو دعاء الإناث يؤدي إلى دعاء الشيطان المريد، وهو الهدف الكلي الأخير.

الهدف الرابع: تطبيع الحياة مع دعاء الشيطان وعبادته، وهو الإنجاز الأخير للمتناجين بالسوء علموا أم لم يعلموا، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ (النساء: ١١٧ - ١١٩).

المريد من مَرُدَ: يمرُد مُرودًا، فهو مارد ومرِيد صفة مشبهة إذا طغا وعتا، وجاوز حدَّ أمثالِه في العتو، ومن مَرِدَ: يمرَد مَرَدًا ومُرْدَةً ومرودةً، فهو أَمردُ؛ والجمع: مُرْدٌ إذا خلا عن شيء، فمرِد الغلام: طَرَّ شاربُه وبلَغ خروجَ لحيتِه ولم تَبدُ، ومرِد الغُصنُ: خلا من الورق، ورملة مرداء لم تنبت شيئًا، وَفِي المَثَلِ «تَمَرَّدَ مَارِدٌ وَعَزَّ الأَبْلَقُ» اسْمَا حِصْنَيْنِ لِلسَّمَوْأَلِ، والمارد والمريد من شياطين الجن والإنس المتعري من الخيرات، هذا ما قاله الراغب..

دعنا ننظر في هذه المادة (مرد) لنجد ما هو أوسع في بيان المعنى؛ إذ يُقَالُ: حَائِطٌ مُمَرَّدٌ أَيْ مُمَلَّسٌ، وَيُقَالُ شَجَرَةٌ مَرْدَاءُ إِذَا تَنَاثَرَ وَرَقُهَا، وَالَّذِي لَمْ تَنْبُتْ لَهُ لِحْيَةٌ يُقَالُ لَهُ أَمْرَدٌ لِكَوْنِ مَوْضِعِ اللِّحْيَةِ أَمْلَسَ، فَمَنْ كَانَ شَدِيدَ الْبُعْدِ عَنِ الطَّاعَةِ يُقَالُ لَهُ مَرِيدٌ وَمَارِدٌ لِأَنَّهُ مُمَلَّسٌ عَنْ طَاعَةِ اللَّه لَمْ يَلْتَصِقْ بِهِ مِنْ هَذِهِ الطَّاعَةِ شَيْءٌ[1]، أَوْ هُوَ مِنْ مَرَدَ عَلَى الشَّيْءِ إِذَا مُرِّنَ عَلَيْهِ حَتَّى صَارَ يَأْتِيهِ بِغَيْرِ تَكَلُّفٍ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ (التوبة٩: ١٠١). مرد قريب في معناه من مرن: وَهُوَ الذي يتشكل ليكون لَيِّنًا فِي صَلَابَةٍ، وَالجمع بين المعاني السابقة يجعلنا نقرر أن المَرِيد: العاتي المتجاوز حد أمثاله في الطغيان والكيد والمكر مع ملاسة ونعومة في المواقف تذهل المتعاملين معه، ويكون معنى قوله تعالى ذكره: ﴿شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾ أَيْ: شَيْطَانًا مَرَدَ أي مرن عَلَى الإِغْوَاءِ وَالإِضْلَالِ، حتى صار مبالغًا فِي الإرادة المتمردة المحبة للعصيان العاتية في الإقدام عليه والتجرد من أدنى خير مع الملاسة والليونة التي تمكنها من التشكل حتى تصبح على الهيئة التي يريد صاحبها مع ثبات أصلها على مادتها الأولى، ولذا قال الله: ﴿إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ (النمل: ٤٤) فظنته لصفائه لجة ماء، فأخبرها سليمان بأنه ممرد من قوارير أي: مشكل قد تم تحويله

(١) تفسير الرازي (١١/ ٢٢١).

ليتناسب مع هذه الهيئة الموهمة مع بقاء أصل مادة الزجاجية فيه، وكذلك المريد الذي يستطيع التلاؤم مع الحالة المناسبة لخداع الناس وإغوائهم، والذي يدرب نفسه على المعصية بعد المعصية حتى تصبح دأبًا له وعادة كأنه يمرن نفسه عليها، وهذا يعني شدة إصرار هذا العدو، وقوة نفسيته الماضية في تحقيق أهدافه.

إن هذه المادة المدهشة تصور لك كيف انبث الظلم الهائل المحيط بالأرض هذه الأيام في زمنٍ يمتلئ الزور برفع رايات العدل، وهيئة الأمم، ومحكمة العدل الدولية، والمنظمات الدولية المختلفة التي تعيي من يحصرها.. وهي تشكل ستارًا مرنًا لأبشع الظلم والزور وأكل حقوق الآخرين، وتدمير الطفل والمرأة على وجه الخصوص.. لكنها ترفع شعار العدل والشفافية والعفو وحماية الطفل والمرأة... إن الشيطان المريد الجني يلقن الشيطان المريد الإنسي.. بل يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورًا.

فهؤلاء المتناجون بالسوء يدعون إناثًا، ويدعون شيطانًا مريدًا، وظهر دعاء الشيطان في عدة صور:

فالصورة الأولى لدعاء الشيطان المريد أن يختبئ الشيطان خلف الأَوْثَانِ ويَتَرَاءَى لِلسَّدَنَةِ في صورةٍ متشكلة فيُكَلِّمُهُمْ، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: مَا سَمِعْتُ عُمَرَ لِشَيْءٍ قَطُّ يَقُولُ: إِنِّي لأَظُنُّهُ كَذَا إِلاَّ كَانَ كَمَا يَظُنُّ، بَيْنَمَا عُمَرُ جَالِسٌ إِذْ مَرَّ بِهِ رَجُلٌ جَمِيلٌ فَقَالَ: لَقَدْ أَخْطَأَ ظَنِّي، أَوْ إِنَّ هَذَا عَلَى دِينِهِ فِي الجَاهِلِيَّةِ، أَوْ لَقَدْ كَان كَاهِنَهُمْ، عَلَيَّ الرَّجُلَ فَدُعِيَ لَهُ فَقَالَ لَهُ ذَلِكَ فَقَالَ: مَا رَأَيْتُ كَاليَوْمِ اسْتُقْبِلَ بِهِ رَجُلٌ مُسْلِمٌ قَالَ: فَإِنِّي أَعْزِمُ عَلَيْكَ إِلاَّ مَا أَخْبَرْتَنِي قَالَ: كُنْتُ كَاهِنَهُمْ فِي الجَاهِلِيَّةِ قَالَ: فَمَا أَعْجَبُ مَا جَاءَتْكَ بِهِ جِنِّيَّتُكَ قَالَ: بَيْنَمَا أَنَا يَوْمًا فِي السُّوقِ جَاءَتْنِي أَعْرِفُ فِيهَا الفَزَعَ فَقَالَتْ: أَلَمْ تَرَ الجِنَّ وَإِبْلاَسَهَا وَيَأْسَهَا مِنْ بَعْدِ إِنْكَاسِهَا وَلُحُوقَهَا بِالقِلاَصِ وَأَحْلاَسِهَا قَالَ عُمَرُ صَدَقَ بَيْنَمَا

أَنَا عِنْدَ آلِهَتِهِمْ إِذْ جَاءَ رَجُلٌ بِعِجْلٍ فَذَبَحَهُ فَصَرَخَ بِهِ صَارِخٌ لَمْ أَسْمَعْ صَارِخًا قَطُّ أَشَدَّ صَوْتًا مِنْهُ يَقُولُ: يَا جَلِيحُ أَمْرٌ نَجِيحٌ رَجُلٌ فَصِيحٌ يَقُولُ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ فَوَثَبَ القَوْمُ قُلْتُ: لاَ أَبْرَحُ حَتَّى أَعْلَمَ مَا وَرَاءَ هَذَا ثُمَّ نَادَى يَا جَلِيحُ أَمْرٌ نَجِيحٌ رَجُلٌ فَصِيحٌ يَقُولُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ فَقُمْتُ فَمَا نَشِبْنَا أَنْ قِيلَ هَذَا نَبِيٌّ[1]. وذكر الله هذه الصورة فقال: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ (الجن: ٦).

والصورة الثانية لدعاء الشيطان: عبادة الشيطان على الحقيقة مما هو شائع واقع هذه الأيام بل ويجد أتباعه حماية لطقوسهم المجرمة في بعض بلدان العالم، ويؤكد هذا المعنى أن الشيطان المريد المدعو هنا هو إِبْلِيسُ بِدَلِيلِ أَنَّهُ تَعَالَى قَالَ بَعْدَ هَذِهِ الآيَةِ وَقَالَ: ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾، فدعاء الشيطان يعبر عن عبادة تامة، وذكر الله عبادة الشيطان فقال: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (يس: ٦٠)، وبينت الملائكة ذلك فقالوا: ﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ (سَبَأٍ: ٤١).

«وشعور الإنسان بأن الشيطان- عدوه القديم- هو الذي يأمر بهذا الشرك وتوابعه من الشعائر الوثنية، يثير في نفسه- على الأقل- الحذر من الفخ الذي نصبه العدو. وقد جعل الإسلام المعركة الرئيسية بين الإنسان والشيطان. ووجه قوى المؤمن كلها لكفاح الشيطان والشر الذي ينشئه في الأرض والوقوف تحت راية الله وحزبه، في مواجهة الشيطان وحزبه: وهي معركة دائمة لا تضع أوزارها»[2].

والصورة الثالثة لدعاء الشيطان الشرك التشريعي بالتحاكم إلى غير شريعة الله مما ذكره الله في هذه السورة في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٥ / ٦١) رقم ٨٣٦٦ .

(٢) في ظلال القرآن (٢/ ٧٦١).

أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ (النساء: ٦٠).

الهدف الخامس: تحقيق النجاح في تدمير الإنسانية حتى جعل الشيطان ذلك نصيبًا مفروضًا ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ (النساء: ١١٨) فلهذا معنيان: لأتخذن من بعض عبادك نصيبًا مفروضًا صار لي، فأتحكم بهم ليكونوا جندي وحزبي، وإما لأتخذن من جميع عبادك نصيبًا مفروضًا يمثل جانبهم المظلم، فأثيره لأسيطر من خلاله على الجانب المضيء فيهم.. قرر الشيطان ذلك بثقة، مع أنه ليس له سلطانٌ إلا على من اتبعه من الغاوين.

بين الله اعتراف الشيطان المريد بالخطط البعيدة المدى التي يريد إيقاعها في الواقع البشري، ومن خلالها يتضح كيفية الإضلال البعيد بالربط بين دعوة الإناث والشيطان المريد.

فأقسم الشيطان على أداء مهمته التي خطط لها جيدًا، وبين أنه وضع دراسة جدوى لخططه، وأنه سيصل إلى تحقيقها ليحتنك ذرية آدم إلا قليلًا، فقال: ﴿**لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا**﴾ (النساء: ١١٨)، فالإنسانية أمام الشيطان قسمان:

القسم الأول: ليس للشيطان عليهم سلطان، لأنهم يلجأون إلى الله فيستعيذون به ليحميهم من الشيطان.

القسم الثاني: والنصيب المفروض الذي سيتخذه الشيطان من عباد الله، وهؤلاء من يعبدون الشيطان، فهم نصيب مفروض استطاع أن يسيطر عليهم، فكأنه جعلهم قسمًا خاصًا مقسومًا له لشدة ولائهم وطاعتهم له، وهؤلاء يستطيع الشيطان التحكم بهم مع أنهم يزعمون أنهم أحرار في تصرفاتهم، وهؤلاء هم جنود إبليس أجمعون.

وقد يعني بالنصيب المفروض الحظ المقسوم له من جميع الإنسانية، وهو الذي ذكره أَنَس بْن مَالِكٍ ﷺ في حادثة شق الصدر حيث أخبر أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَتَاهُ جِبْرِيلُ عليه السلام وَهُوَ يَلْعَبُ مَعَ الغِلْمَانِ، فَأَخَذَهُ فَصَرَعَهُ فَشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ، فَاسْتَخْرَجَ القَلْبَ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عَلَقَةً، فَقَالَ: هَذَا حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ. ثُمَّ غَسَلَهُ فِي طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ بِمَاءِ زَمْزَمَ ثُمَّ لأَمَهُن ثُمَّ أَعَادَهُ فِي مَكَانِهِ [1].

فيدخل في قوله: ﴿مِنْ عِبَادِكَ﴾ الكافر والمسلم، والعاصي والطائع، أي: من جميع العباد لي نصيب في كل واحد منهم، في كل نفس من نفس بني آدم، ويتفاوت حظ الشيطان في كل منهم، فبعضهم سيستجيب للشيطان عندما يتبع هواه، وبعضهم لن يستجيب له وسيقاومه ويكافحه ويجاهده، فلا يقع، ولكن الشيطان لا ييأس بل يسعى أن يغوي الإنسانية كلها حتى تراه حاول أن يوقع الأنبياء في إغوائه مع أنهم معصومون، وقد نزه الله نبيه محمدًا ﷺ عن حظ الشيطان كما رأيت في حديث أنسٍ ﷺ.

ونعود للآية ليظهر لنا معنى ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ أي: إما أن يكون نصيبًا من مجموع بني آدم بأن يجمع أكبر قدر من الخلق ليكونوا أتباعه يدعونه فيعبدونه، ويصبحون جنوده العسكريين، وحزبه الثقافي، وهذا المعنى يوجب الحذر الشديد من الوقوع ضمن هذا الفخ الشيطاني الخفي، وإما أن يكون نصيبًا من كل نفس حسب قدرته على إثارة الجانب المظلم في كل نفس، بحرفها عن الفطرة السوية إلى الأعمال الغوية [2]، وللهرب من التجنيد الإبليسي الجزئي والكلي لا بد من اتباع سياسية أخذ الحذر منه، واللجوء الدائم إلى الله القائل جل جلاله: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ (الحجر: ٤١، ٤٢).

(١) صحيح مسلم (١ / ١٠١) برقم ٤٣١.

(٢) تفسير المنار (٥/ ٣٤٨).

وهذا النصيب المفروض للشيطان عددًا أو طبيعة أخبرنا الله بأنه سيكثر حيث قال: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (سبأ: ٢٠) ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الإسراء: ٦٢)، وفي الحكاية عن كلام الشيطان ذكر الله لفظة النَّصِيبِ دون غيرها ليبين أن الشيطان جزم بتحقق خطته في أن يكون له من البشر نصيب مخصوص يصبح تحت سيطرته وتأثيره.. إن الآية تعكس حجم الثقة التي سيطرت على إبليس في رغبته الجارفة لإغواء مجموعة من البشر..

وقد تتساءل: ماذا يعني إبليس بقوله: ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾؟

هل يعني أن العدد الذي سيغويه من العباد قد فرض له أن يغويهم، وأنهم ليس لهم اختيار؟

هنا يجب أن نقرر أن عقيدة القضاء والقدر واضحة جدًا عند المسلمين، فهي لا تعني الجبر المحض؛ إذ تثبت المشيئة الإلهية من جهة، وتثبت من جهةٍ أخرى الاختيار الذي يؤدي إلى العمل والاكتساب، وأما كلام الشيطان هنا فهو كلام شيطان مريد يحاول أن يُظهر للعباد أنه خطط وسينفذ، وستتحقق خططه.. فحق لهم إذا سمعوه أن يحذروا، لكنك كما ترى الغفلة العالمية.. الشيطان هو عدو الإنسانية الأول ولكنه في واقعهم أقل عدوٍّ يتم التحذير منه بل يميل كثيرٌ إلى إنكار وجوده.. ويكفي في الجواب عن سؤالك أن تعرف أنه كلام الشيطان «فَلَا يَكُونُ حُجَّةً، وَأَيْضًا أَنَّ كَلَامَ إِبْلِيسَ فِي هَذِهِ المَسْأَلَةِ مُضْطَرِبٌ جِدًّا، فَتَارَةً يَمِيلُ إِلَى القَدَرِ المَحْضِ، وَهُوَ قوله: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ وَأُخْرَى إِلَى الجَبْرِ المَحْضِ وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى ﴾ (الحجر: ٣٩) وَتَارَةً يُظْهِرُ التَّرَدُّدَ فِيهِ حَيْثُ قَالَ: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ﴾ (القَصَصِ: ٦٣) يَعْنِي

أَنَّ قَوْلَ هَؤُلَاءِ الكُفَّارِ: نَحْنُ أَغْوِينَا فَمَنِ الَّذِي أَغْوَانَا عَنِ الدِّينِ؟» (١).

فالنصيب المفروض لا يدل على العدد السابق إنما هو بيانٌ لنتيجةٍ متوقعة، فنحن ننفي المعنى الجبري هنا، والله يبين الاختيار الإنساني لطريقه كما هو واقع ضرورة فيقول: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾ (التكوير: ٢٨)، ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ (النبأ: ٣٩)، ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ (الإنسان: ٢٩).

والشيطان علم أن هناك نصيبًا مفروضًا من استشرافه للمستقبل ودراسته الخطيرة للنفس الإنسانية، ومن إخبار الله تعالى له، ومن شعوره بما حصل بين الله وبين الملائكة عندما قالوا: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ (البقرة: ٣٠)، والدراسة الشيطانية للنفس الإنسانية كانت مبكرة جدًا جعلت الشيطان يضع نتيجة جدوى لخطته: أن هناك نصيبًا مفروضًا لا بد أن يصل إليه، ويبين أَنَسٌ رضي الله عنه هذه الدراسة الشيطانية المبكرة فيروي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لما صَوَّرَ اللَّهُ آدَمَ فِي الجَنَّةِ، تَرَكَهُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَتْرُكَهُ، فَجَعَلَ إِبْلِيسُ يطِيفُ بِهِ، يَنْظُرُ مَا هُوَ، فَلما رَآهُ أَجْوَفَ، عَرَفَ أَنَّهُ خُلِقَ خَلْقًا لاَ يَتَمَالَكُ» (٢).

فانظر لمحاولة تطبيق سنن النصر والظفر: فأول ما فعله المبادرة إلى دراسة ما أمامه، فما تباطأ ولا تثاقل ولا تأخر، ثم درس آدم دراسة ميدانية مباشرة، «فجعل يطيف به»، ويجمع إلى فكره ما يمكنه أن يستنبطه «ينظر ما هو»، وطوافه بآدم يدل على تأملٍ متأنٍ حاذقٍ، وفحصٍ دقيق، وصبرٍ في الدراسة.. فهو يريد أن يدرك نقاط ضعفه، ثم لما رآه أجوف، علم أن له نقاط ضعف تمكنه من الفوز عليه في معركته التي يسعرها منذ وقتٍ مبكر، قبل الوجود البشري الكامل؛ ولذا استشرف نتائج

(١) تفسير الرازي (١١/ ٢٢٢).

(٢) مسلم (٨/ ٣١) رقم ٢٦١١ .

المعركة الدنيوية مع الإنسان قبل أن يخلق، فقال في بعض روايات هذا الحديث: «ظفرت!»[١]، ولذلك ذكر الشيطان النتيجة المبكرة لأفعاله في اجتياح الإنسانية وقابليتهم لذلك فقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (ص: ٨٢، ٨٣).

الهدف السادس: التركيز على الصالحين في إضلالهم بالرغب والرهب، ويُبَصِّرُنا بذلك المعنى الثالث لكلمة: ﴿عِبَادِكَ﴾ في معناها الخالص الخاص في قوله: ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ (النساء:١١٨)؛ لأن غير الصالح تدفعه نزواته لارتكاب الذنوب والجرائم، فاقتضى ذلك أن يتسلط التركيز الشيطاني على عباد الله المخلصين، ولكن الله يحمي من التجأ إليه من عباده.

كما قال: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ (الإسراء: ٦٥)، ولكن الشيطان علم أنه سيضعف عن المخلصين ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (الحجر: ٤)، فقوله: ﴿عِبَادِكَ﴾ يدخل في كلمة (عباد) الطائعون والعاصون، وقوله ﴿عِبَادِكَ﴾ إما أن تكون الإضافة لبيان ملك الله لهم، فالجميع عباده، فتعم الصالحين والعاصين، وإما أن تكون الإضافة للتشريف ويكون المقصود لأتخذن من عبادك الصالحين نصيبًا مفروضًا، والتشريف هنا مثل قوله عز شأنه: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ (الفرقان: ٦٣)، كأنه يقول سأركز على عبادك الصالحين فلا يظنون بأنهم بمعزل عن مكري بهم، وعندما استثنى الشيطان من إغوائه فقال: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (الحجر: ٣٩، ٤٠) فلم يعنِ أنه لن يوسوس لهم، بل أخبر أن المخلصين منهم سينجون من عواقب إغوائه بمجاهدتهم، والله سبحانه وتعالى

(١) مسند أبي يعلى(٦ / ٦٨)، قال حسين سليم أسد: إسناده صحيح.

يحمي من التجأ إليه فيقول تعالى ذكره: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ (يوسف: ٢٤) على قراءة الجمهور بكسر اللام (المخلِصين)، أي: هو أخلص، فصرف الله عنه السوء والفحشاء.

فَلَيْسَ قَوْلُهُ: ﴿مِنۡ عِبَادِكَ﴾ إِنْكَارًا مِنَ الشَّيْطَانِ لِعُبُودِيَّتِهِ لِلَّهِ، ولكنه هدفٌ حقيقيٌ للشيطان بمحاولة اختراق العباد الصالحين، فلا ينجو منهم إلا المخلصون، كما يعكس هذا الخطاب جَلَافَةً ناشئة عَنْ خَبَاثَةِ التَّفْكِيرِ المُتَأَصِّلَةِ فِي جِبِلَّتِهِ، حَتَّى لَا يَسْتَحْضِرَ الفِكْرَ مِنَ المَعَانِي المَدْلُولَةِ إِلَّا مَا لَهُ فِيهِ هَوًى، وَلَا يَتَفَطَّنُ إِلَى مَا يَحُفُّ بِذَلِكَ مِنَ الغِلْظَةِ، وَلَا إِلَى مَا يَفُوتُهُ مِنَ الأَدَبِ وَالمَعَانِي الجَمِيلَةِ، فَكُلُّ حَظٍّ كَانَ لِلشَّيْطَانِ فِي تَصَرُّفَاتِ البَشَرِ مِنْ أَعْمَالِهِمُ المَعْنَوِيَّةِ: كَالعَقَائِدِ وَالتَّفْكِيرَاتِ الشِّرِّيرَةِ، وَمِنْ أَعْمَالِهِمُ المَحْسُوسَةِ: كَالفَسَادِ فِي الأَرْضِ، وَالإِعْلَانِ بِخِدْمَةِ الشَّيْطَانِ: كَعِبَادَةِ الأَصْنَامِ، وَالتَّقْرِيبِ لَهَا، وَإِعْطَاءِ أَمْوَالِهِمْ لِضَلَالِهِمْ، كُلُّ ذَلِكَ مِنَ النَّصِيبِ المَفْرُوضِ[1].

ولذا ينبغي للصالحين أن يكونوا أكثر استعدادًا لمعركتهم الخاصة مع الشيطان بزيادة التعبد الشامل لتعظيم الحق، وإعانة الخلق حتى يدخلوا في قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلٗا﴾ (الإسراء: ٦٥).

الهدف السابع: إيقاعهم في الضلالة، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله جل ذكره: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ﴾ الضلال يعني التيه عن الهدف الصحيح، وذلك يعني التيه الفكري، والهلاك المادي، فيضلهم بأن يجعلهم تائهين، يقطعون صلتهم بربهم، فلا يعظمون الحق، حين يغفلون عن صلواتهم وعباداتهم، ويدمرون الإنسانية حين يلتهمهم الجشع والأنانية.

فاجمع هذا الهدف مع قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يَشۡتَرُونَ

(١) التحرير والتنوير (٥/ ٢٠٤).

﴿ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾ (النساء: ٤٤)، وقوله: ﴿لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ﴾(النساء: ١١٣) لتعلم أن من سبقك ممن أوتوا نصيبا من الكتاب المقدس أداة للشيطان يتلاعب بهم ليضل الإنسانية من خلالهم يجعلهم يفسدون في حين أنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا فتتراكم عليهم المشكلات نظرًا لسوء صنيعهم، وانظر كم زادت معاناة النساء والأطفال في ظل المؤسسات الدولية التي تزعم أنها تعتني بهم.

ولاحظ هنا جمع الشيطان عددا فقال: ﴿لَأَتَّخِذَنَّ﴾ أي: والله لأتخذن من عبادك نصيبًا مفروضًا، ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾ أي: والله لأضلنهم، فالقسم المحذوف واللام ونون التوكيد كلها مؤكدات على أنه ماض في تنفيذ خططه.

الهدف الثامن: ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ الأماني الخاطئة بأن يجعلهم يتمنون حصول المرغوبات والمشتهيات وتحقيق الطموحات الإنسانية الكبرى بالطرق المحرمات، كالرئاسة، وتحقيق كل شهوة، بأن يلجأوا إلى الكذب، والفسوق، والعدوان، ثم لا يصلون إلى حقيقة السعادة معها.

والأمنية هِيَ الصُّورَةُ التي ترغب النفس بحدوثها رغبة جامحة إما بأسبابها المشروعة مع التلاعب بها للكذب على الناس، وإما بطرقها الممنوعة مع محاولة تحصيلها لعبادة الذات، يُقَالُ: تَمَنَّى الشَّيْءَ إِذَا أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَإِنْ لَمْ يَتَّخِذْ لَهُ أَسْبَابَهُ، كَمَا يَتَمَنَّى المُقَامِرُ الثَّرْوَةَ بِالمُقَامَرَةِ وَهِيَ لَيْسَتْ سَبَبًا طَبِيعِيًّا لِلْغِنَى بَلْ لَيْسَتْ مِنَ الكَسْبِ المُعْتَادِ[1].

فصاحب الأماني يشغل عقله وفكره بالخيالات والأكاذيب، فيتمني شيئًا مستقبليًا يصعب حصوله كأن يتمنى أن يعمر في الأرض وما هو بمزحزحه من

(١) تفسير المنار (٥/ ٣٤٩).

العذاب أن يعمر، يتمنى أن يبقى شبابه، ولا يمكن له أن يبقى شبابه، ويتمنى أن يكون أثرى الناس وأكثرهم مالًا، وأجملهم زوجة وولدًا، وأعظمهم جاهًا، وفي سبيل تحقيق ذلك يلجأ إلى الكذب والفسوق والعدوان، ويصوِّر النبي ﷺ فعل الأماني الباطلة في دين المرء تصويرًا مدهشًا فيقول: «ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم أفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه» [1].

واربط هنا بين هذه الآية التي تصف أحد الأهداف الشيطانية في الحياة الإنسانية، وبين ما سبق في قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ۚ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ (النساء: ٣٢).

ومن الأماني المزخرفة العريضة: المرغوبات الباطلة من طول الأعمار، وبلوغ الآمال، وتشهي رحمة اللَّه للمجرمين بغير توبة، وحيازة الجنة من خلال ادعاء نصرة عيسى، أو محمد، أو إسرائيل -عليهم الصلاة والسلام-، مع أن أفعال هؤلاء المدعين تنافي مناهج الأنبياء والمرسلين، وانظر لمن يدعي أنه مسلم، أو يهودي، أو نصراني، ويحتل الأراضي، ويقتل الأطفال.. ثم يفتخر أنه حقق النصوص المقدسة، فهذه الأماني الباطلة تفرض على صاحبها الجرائم الأخلاقية، وَإِذَا طَالَت الأمنيات، امتلأت بالأكاذيب، فَلَا يَكَادُ يُؤَثِّرُ مشهد مؤلم، ولا نصيحة مشفق، وقد قال أَفْنُون، وهو جاهلي:

ولا خَيْرَ فيما كذَّب المرءُ نَفْسَهُ وتَقْوَالِه لِلشيءِ يا لَيْتَ ذا لِيَا

أي: لا خير فيما يحدِّث المرء نفسه من الأماني والآمال الكاذبة.

(١) أحمد(٣/ ٤٥٦) برقم ١٥٨٢٢، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين غير علي بن بحر - وهو ابن بري القطان - فقد روى له البخاري تعليقا وأبو داود والترمذي وهو ثقة.

والأماني الباطلة تفرض على صاحبها الجرائم الأخلاقية لأنه يظل يتمنى ويريد تحقيق أمنيته مهما كلفه الأمر ثم يكون من أمانيه أن يتوب من جرائمه قبل فوات الأوان، والأماني تظل مسيطرة وقوية إلا أن تنار بنور البصيرة القرآنية، ولذا عن أنس ان النبي ﷺ قال: «يهرم بن آدم، وتبقى منه اثنتان: الحرص والأمل» [١]، ويبين الرازي استحواذ الأماني الباطلة على الإنسان بما يؤدي به إلى ارتكاب الجرائم الخاصة والعامة في سبيل تحقيق أمانيه، فيقول: «وَالحِرْصُ يَسْتَلْزِمُ رُكُوبَ أَهْوَالِ الدُّنْيَا وَأَهْوَالِ الدِّينِ، فَإِنَّهُ إِذَا اشْتَدَّ حِرْصُهُ عَلَى الشَّيْءِ فَقَدْ لَا يَقْدِرُ عَلَى تَحْصِيلِهِ إِلَّا بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ وَإِيذَاءِ الخَلْقِ، وَإِذَا طَالَ أَمَلُهُ نَسِيَ الآخِرَةَ وَصَارَ غَرِيقًا فِي الدُّنْيَا فَلَا يَكَادُ يُقْدِمُ عَلَى التَّوْبَةِ، وَلَا يَكَادُ يُؤَثِّرُ فِيهِ الوَعْظُ فَيَصِيرُ قَلْبُهُ كَالحِجَارَةِ أَوْ أَشَدَّ قَسْوَةً» [٢].

ومن الأماني: رفع الشعارات العريضة التي يريد بها أصحابها عكس حقائقها، كحقوق الإنسان، وحقوق النساء، وحقوق الضعفاء؛ لتصبح حقوقًا للمجرمين والمستكبرين، يتلاعبون بواسطتها بالبشرية.. خذ بعض أشهر المؤسسات الدولية أنموذجًا.

الهدف التاسع: إشاعة العادات الثقافية البشعة، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾، والبتك عملية يدخل فيها القبض، ثم الجذب، ويترتب عليها القطع، والشق، ثم يقدمون صاحب الأذن المبتوكة قربانًا لآلهتهم، فيتكون من ذلك عادات ثقافية، تصبح عباداتٍ وثنية، يتفاخرون بها:

وبتك آذان الأنعام علامة ثقافية على جعلها بحيرة يتقربون بها إلى الآلهة، وأصل البتك أن تقبض على الشيء، على شعر أو ريش، أو نحو ذلك، ثم تجذبه إليك فينبتكُ من أصله. أي: ينقطع، وينتتف، وكل طاقة من ذلك في كفك: بِتْكةٌ، قال زهير:

---

(١) أحمد(٣/ ١١٥) وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٢) تفسير الرازي (١١/ ٢٢٣).

(حتى إذا ما هوت كف الغلام لها) طارت وفي كفه من ريشها بِتَكُ [١]

ويقارب في معناه كلمة (البت) لكن البتك يستعمل في قطع الأعضاء والشعر، يقال بتك شعره وأذنه، ومنه سيف باتك: قاطع للأعضاء، وبتكت الشَعْر تناولت قطعة منه، والبتكة القطعة المنجذبة جمعها بتك:

(إِذا طَلَعتْ أُولَى العَدِيِّ فنَفْرَةٌ إِلى سلَّةٍ من صارِم الغَرِّ باتِكِ)

وأما البت فيقال في قطع الحبل والوصل، ويقال طلقت المرأة بتة وبتلة، وبتت الحكم بينهما[٢]

فقد تعهد بأن يأمرهم فيستجيبون.. تعهد أن يأمرهم بقطع أذن بهيمة الأنعام.. لماذا يركز على البتك؟ إنه يضرب مثالًا بارزًا على أنه سيشرع لهم عادات ثقافية تصبح عباداتٍ ذاتية يتفاخرون بها، ومن هذه العادات أن يقطعوا بهيمة الأنعام لتكون علامة على تبحيرها أي: على جعلها بحيرة أي متقربٌ بها إلى الآلهة سخاوة نفس من عند من بحرها، وعلامة هذه الهدية أن تقطع أذنها[٣].. فقطع الأذن في زمن الجاهلية الأولى كان رمزًا للشرك بالله الذي ذكر الله بأنه ضلال بعيد.. والخطورة هنا أن الشيطان لم يتعهد بالوسوسة فحسب بل بالأمر المباشر حتى تصبح العلاقة بينهم وبينه علاقة مباشرة، وهذا هو الحاصل.. فكيف نجمع بين ذلك وبين قول الله جل

(١) العين (٥/ ٣٤٢).

(٢) المفردات في غريب القرآن ت كيلاني (ص: ٣٦)، والسلة الواحدة من سل السيف، والبيت لتأبط شرًا، وروي كما في ديوان الحماسة (١/ ٢٣):

وَيَجْعَلُ عَيْنَيْهِ رَبِيئَةَ قَلْبِهِ إِلى سَلَّةٍ مِنْ حَدِّ أَخْلَقَ صائِكِ

(٣) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٢١٤): «السائبة» أم «البحيرة»، وذلك أن الرجل كان ينذر نذرًا: إذا قدم من سفر بعيد، أو برئ من علة، أو نجاه شيء من مشقة أو حرب فيقول: «ناقتي هذه سائبة»، أي: تسيب فلا ينتفع بظهرها، ولا تحلأ عن ماء، ولا تمنع من كلأ، ولا تركب. وجمع «سائبة» سيب (بضم السين والياء المشددة المفتوحة) مثل «نائم ونوم»، و«نائحة ونوح».

شأنه: ﴿ٱلَّذِى يُوَسۡوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ (الناس: ٥، ٦)، وقول النبي ﷺ: «الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة»[١]؟

هنا يأتيك الجواب مذهلًا، فالآية اختزلت كلام إبليس، وهو يريد أن يقول بأنه سيجتهد في الوسوسة لهم، ثم يحول هذه الوسوسة بسبب استجابتهم لها إلى أوامر، فيصبح كالملك المطاع فيهم.. قل: صدق الله.. قل: صدق الله. لماذا ذكر البتك؟ ربما ذكره لأنه يدل على سخف عقولهم.. ينعم الله عليهم بالشاة والبقرة والناقة، وبدلًا من شكر خالقها يقومون فيشكرون أحجارًا، ويبينون أمام الناس علامة شكرهم لتلك الأحجار بأن يقطعوا آذان الأنعام.. إنها علامة ثقافية سادت مجتمعاتهم وما زالت ترمز لذلك الحد الهابط الذي وصلوا إليه، وقد بلغوا في هذا الهبوط حدًا استغربه عاقلٌ بفطرته مثل زيد بن عمرو بن نفيل حينما كَانَ يَعِيبُ عَلَى قُرَيْشٍ ذَبَائِحَهُمْ وَيَقُولُ: الشَّاةُ خَلَقَهَا اللَّهُ، وَأَنْزَلَ لَهَا مِنَ السَّمَاءِ المَاءَ، وَأَنْبَتَ لَهَا مِنَ الأَرْضِ، ثُمَّ تَذْبَحُونَهَا عَلَى غَيْرِ اسْمِ اللهِ إِنْكَارًا لِذَلِكَ وَإِعْظَامًا لَهُ[٢].

وما زال البتك رمزًا ثقافيًا يقترفه السفهاء في العالم ليدل على مدى هبوط العقل الإنساني حيث يشكر المخلوق بدلًا من الخالق، فها هم اليوم يبتكون أياديهم وأبشارهم ليسطروا عليها أوشامهم. هل تحققت الأهداف الإبليسية؟ قلِّب طرفك، وانظر حال المسلمين فقط في رمضان.. انظر في قنواتهم التي يدعمها المسلمون في جزيرة الإسلام، وقل لي: ألم يحقق إبليس ظنه؟ أما بلغ من عباد الله مآربه؟

الهدف العاشر: تغيير الخلق الإلهي، إما بالتغيير المادي، وإما بالتغيير للفطرة الأصلية التي تمثل الدين الحق، وإما بتغيير الدين الحق الذي يُعدُّ البرنامج الأنسب

(١) أحمد (١ / ٢٣٥)، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٢) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٥ / ٥٠) رقم ٣٨٢٦ .

ليسير وفقه الخلق الجسدي، وهو الروح الحقيقية التي تضمن له السعادة، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾.

انظر لقوة التعبير وواقعيته: ما زال الشيطان المريد يصر على أنه سيبلغ بهم حد الأمر والنهي بوسوسته وتدليته لهم بغرور.. ولاستجابتهم له وعدم مقاومتهم وسوسته يصبح الآمر المطاع ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ﴾.. وكما ترى فإن خطة التغيير المجرمة يدخل فيها ثلاثة أنواع من التغيير:

النوع الأول: تغيير الخلق الجسدي السوي:

إن تغيير خَلْقِ اللَّهِ يعكس ثقافة سخيفة درج عليها المغيرون، وتبين مقدار تلاعب الشيطان بعقول بني الإنسان، واضرب لهم مثالًا لذلك بفَقْء عَيْنِ الحَامِي، وَهُوَ البَعِيرُ الَّذِي حَمَى ظَهْرَهُ مِنَ الرُّكُوبِ لِكَثْرَةِ مَا أَنْسَلَ، وَيُسَيَّبُ لِلطَّوَاغِيتِ.. وهل الوشم زينة أم تعذيب للجسد فقط للظهور بمظهر غريب غير معتاد؟

«وَيُدْخُلُ فِي مَعْنَى تَغْيِيرِ خَلْقِ اللَّهِ وَضْعُ المَخْلُوقَاتِ فِي غَيْرِ مَا خَلَقَهَا اللَّهُ لَهُ، وَذَلِكَ مِنَ الضَّلَالَاتِ الخُرَافِيَّةِ، كَجَعْلِ الكَوَاكِبِ آلِهَةً، وَجَعْلِ الكُسُوفَاتِ وَالخُسُوفَاتِ دَلَائِلَ عَلَى أَحْوَالِ النَّاسِ»[1].

فيدخل في ذلك التغيير الجسدي الخارج عن الفطرة السوية، ومثل الطبري لذلك بخِصَاءِ ما لا يجوز خصاؤه، ووشم ما نهى عن وشمه وَوشْرِه، ودخل فيه ترك كلِّ ما أمر الله به؛ لأن الشيطان لا شك أنه يدعو إلى جميع معاصي الله وينهى عن جميع طاعته، فذلك معنى أمره نصيبَه المفروضَ من عباد الله، بتغيير ما خلق الله من دينه، وحَكَى الزَّجَّاجُ عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّ اللَّه تَعَالَى خَلَقَ الأَنْعَامَ لِيَرْكَبُوهَا وَيَأْكُلُوهَا فَحَرَّمُوهَا

(١) التحرير والتنوير ٥/ ٢٠٥.

عَلَى أَنْفُسِهِمْ كَالبَحَائِرِ وَالسَّوَائِبِ وَالوَصَائِلِ، وَخَلَقَ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَةً لِلنَّاسِ يَنْتَفِعُونَ بِهَا فَعَبَدَهَا المُشْرِكُونَ، فَغَيَّرُوا خَلْقَ اللَّه [١].

وها هو ابن مسعود ﷺ يمثل لذلك بقوله: لَعَنَ اللَّهُ الوَاشِمَاتِ وَالمُوتَشِمَاتِ وَالمُتَنَمِّصَاتِ وَالمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ المُغَيِّرَاتِ خَلْقَ اللهِ فَبَلَغَ ذَلِكَ امْرَأَةً مِنْ بَنِي أَسَدٍ يُقَالُ لَهَا أُمُّ يَعْقُوبَ، فَجَاءَتْ فَقَالَتْ: إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّكَ لَعَنْتَ كَيْتَ وَكَيْتَ فَقَالَ: وَمَا لِي لاَ أَلْعَنُ مَنْ لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَمَنْ هُوَ فِي كِتَابِ اللهِ فَقَالَتْ: لَقَدْ قَرَأْتُ مَا بَيْنَ اللَّوْحَيْنِ فَمَا وَجَدْتُ فِيهِ مَا تَقُولُ قَالَ: لَئِنْ كُنْتِ قَرَأْتِيهِ لَقَدْ وَجَدْتِيهِ أَمَا قَرَأْتِ ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ قَالَتْ: بَلَى قَالَ فَإِنَّهُ قَدْ نَهَى عَنْهُ قَالَتْ: فَإِنِّي أَرَى أَهْلَكَ يَفْعَلُونَهُ قَالَ فَاذْهَبِي فَانْظُرِي فَذَهَبَتْ فَنَظَرَتْ فَلَمْ تَرَ مِنْ حَاجَتِهَا شَيْئًا فَقَالَ: لَوْ كَانَتْ كَذَلِكَ مَا جَامَعَتْنَا.

النوع الثاني: تغيير الفطرة البشرية التي خلق الله العباد عليها:

فإن الله خلق الناس تتجه نفوسهم إلى ربهم يحبون فضائل الأعمال ويكرهون رذائله كارهين للسرقة، مجتنبين للكذب يمقتونه.. وما زال الشيطان بهم حتى علمهم الكذب، وأيقظ الجانب المظلم (الفجور) الذي كان خاملًا في الواقع الإنساني؛ إذ كان بنو آدم لا يرون من أبيهم وأمهم عليهما السلام إلا الهدى المقتدى به كما قال الله تعالى جده في الحديث القدسي: «وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا»[٢].

(١) تفسير الرازي (١١/ ٢٢٣).

(٢) صحيح مسلم (٨ / ١٥٨) برقم ٧٣٨٦.

النوع الثالث: تغيير الدين الحق، وهو البرنامج الذي يسير وفقه الخلق الجسدي، وهو الروح الحقيقية التي تضمن له السعادة.

قد يعبر عن الدين الحق بأنه الفطرة، فإقامة الدين إقامة للبرنامج الذي يناسب الخلق، فإذا غيرت الدين فكأنك غيرت الخلق، ويبين هذا المعنى مجاهد فيقول: ﴿فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ قال: الفطرة، الدين، ثم استدل على أن تغيير الخلق يراد به تغيير الدين بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ (سورة الروم: ٣٠) (١)، وذلك لأن الدين الحق يمثل الروح الحقيقية للإنسانية، فإن تم هنا التغيير تم هناك التدمير.. إن تم التغيير لخلق الله تم التدمير للإنسانية، ولذا قرن الله بين الخلق الجسدي المادي، وبين الدين الذي يمثل الفطرة الإنسانية السوية وجعلهما بمعنى واحد فقال: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾(سورة الروم: ٣٠).

ومن أبشع التغيير تغيير الجنس، فهو تمرد واضحٌ على حكمة الخلق، وقد عبث الشيطان المريد بالناس في هذا الموضوع حتى جعل عددًا كبيرًا من البشر ومنهم بعض أهل الكتاب يدافعون عن مرتكبي هذا الجرم الذي يؤدي إلى تدمير الإنسانية.

والتغيير المذموم هو ما كان فيه تشويه للخلق، أما ما كان يوافق الفطرة السوية فلا يعد تغييرًا مذمومًا مثل: خِتَان الذكور، وَالخِضَاب، وَتَقْلِيم الأَظَافِرِ، وحلق الشعر.

وترى الترتيب في ذكر الأهداف الشيطانية جاء محكمًا، فقال أولًا: ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ فبدأ بالهدف الذي يريد الوصول إليه، ثم حدد الأهداف العملية التي تمثل وسائل تحقيق الهدف الأصلي، فقال ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ (النساء: ١١٩).

---

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٢١٩).

الهدف الحادي عشر: إيقاع البشرية في الخسارة المبينة، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله عز شأنه ﴿.. وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا ١١٩ يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ (النساء:١١٩-١٢٠).

ولذا يجب الاهتمام بذكر النتائج المرتقبة للأنشطة الشيطانية الخبيثة، لتكون معارج نور لمقاومة الإرادة الشيطانية، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنۡهَا مَحِيصٗا ١٢١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾ (النساء:١٢١-١٢٢):

فالنتيجة الأولى: الفشل العظيم والخسارة الماحقة المبينة لمن استجاب لهذه الأنشطة الشيطانية؛ إذ الاستجابة لها تعني أن المستجيب اتخذ الشيطان وليًا يلي أمره، ويتقرب منه، ويطلب منه النصرة، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا ١١٩ يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ (النساء: ١١٩-١٢٠):

لأنها خسارة لسعادة النفس وخسارة للأهل، وخسارة للحياة الحقيقية الدائمة، وليست مجرد خسارة مالية عابرة، فجعله الله خسرانًا مبينًا.

وصف الخسارة بالإبانة، وهذه الصفة ليست صفة إيضاحية بل صفة تأسيسية، لأن الخسارة قد تقع في الأمور المالية، فتظل خسارةً محدودةً غير مبينة لأنها ربما تنقلب بعد ذلك ربحًا، ويتم التعويض عنها، وقد تقع الخسارة في الأمور الجسدية والأسرية بخسارة الإنسان سعادته، وخسارته سعادة أهله وأولاده، فهذا هو الخسران المبين حقًا كما قال جل ذكره: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ (الزمر: ١٥).

وقوله: ﴿يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ (النساء: ١٢٠) يُبَصِّرُنا

بأن من نتائج تحقيق أهداف الشيطان الوقوع في فخ خديعته، فهو يعدهم ويمنيهم.

والوعد هو الإخبار عن تحقق شيء يسر، أو الإخبار بشيء مستقبلي يضر بغية المحافظة على الحاضر كما في قوله جل مجده: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾ (البقرة: ٢٦٨)، فيظل الشيطان يُظهِرُ لهم الوعود الكاذبة، فمن الوعود ما يتحقق من الوهلة الأولى ولكنه لا يتحقق بصورة كاملة، فعندما قال سبحانه: ﴿يَعِدُهُمْ﴾ لبيان أنه سيتحقق جزءٌ من الوعد، والجزء الثاني مجرد أمنياتٍ باطلةٍ كاذبة، كالأمنية التي قالها ذاك المتكبر عندما رأى غناه، وماله، فقال: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ (الكهف: ٣٦).

وقوله: ﴿وَيُمَنِّيهِمْ﴾ جزء من الوعد قد يتحقق، والجزء الأكبر لا يتحقق، ووصفه الله بالأمنية، والأمنية هنا تعني الخيال الزائل، فلذلك كررها، فهي غرور أي خداع يظن الإنسان نفعها في وقتٍ تشتمل فيه على أسوأ المخاطر، والغُرُور عِبَارَةٌ عَنِ الحَالَةِ الَّتِي تَحْصُلُ لِلْإِنْسَانِ عِنْدَ وِجْدَانِ مَا يُسْتَحْسَنُ ظَاهِرُهُ إِلَّا أَنَّهُ يَعْظُمُ تَأَذِّيهِ عِنْدَ انْكِشَافِ الحَالِ فِيهِ في الحاضر والمستقبل [1]، فيزين لهم ثقافة شُرْبِ الخَمْرِ وَالقِمَارِ وَالزِّنَا وطلب السلطة والجاه والترؤس، ولزيادة التنفير من الوقوع في الخداع الشيطاني ترى أن الله قال: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ ولم يقل: وما يعدهم إلا غرورًا، فأظهر في موضع الإضمار زيادة في التنفير من الوقوع في ذلك الفخ، وسيأتي يوم يقدم الشيطان تقريره الكامل لهم زيادة في السخرية بهم، والاستهزاء بأوضاعهم، حيث يحدثنا الله عن ذلك المرتقب بين الشيطان ومن خدعهم من الخلق ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ

(١) تفسير الرازي (١١/ ٢٢٤).

بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ (إِبْرَاهِيمَ: ٢٢).

فمن وعوده الخادعة: وعده للناس بأنهم سيقعون في الفقر إن تراحموا وتقاسموا الحياة المعيشية من خلال إنفاق الموسر على المعسر، وأزالوا لذلك عقبات التواصل بينهم حيث يقول الله: ﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗا ﴾ (البقرة: ٢٦٨).. فانظر إلى آثار الوعود الشيطانية في واقع العالم:

ألم تكن وعود الفقر وأوامر الفحشاء الشيطانية سببًا في تقديس الحدود بين الأمة الواحدة؟ أليست سببًا في إشاعة الشح الهالع الذي جعل الأمة شيعًا وقبائل متحاربة متنافرة، وأخرج بعضها في شر صورة لأنهم استجابوا للوعود الشيطانية فأخرجوا شر ما في أنفسهم، وقد النبي ﷺ قال: «شر ما في رجل: شح هالع، وجبن خالع» [١].

النتيجة الثانية: جهنم ستكون مأواهم، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنۡهَا مَحِيصٗا ﴾ (النساء:١٢١)، والمأوى هو المكان الذي يؤون إليه، أي: فيه يجتمعون، وينضم بعضهم إلى بعض فيه، فتصبح مصيرًا نهائيًا للمتناجين بالشر، والمحققين للأهداف الشيطانية.

فأوى تدل على التَّجَمُّعُ، والانضمام والإِشْفَاقُ، يُقَالُ: تَأَوَّتِ الطَّيْرُ: إِذَا انْضَمَّ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، وَهُنَّ أُوِيٌّ وَمُتَأَوِّيَاتٌ [٢]، أي: جهنم مكانهم الذي يتجمعون فيه ليجدوا فيه الشفقة من موقف القيامة، وهل في النار من شفقة ﴿وَلَا يَجِدُونَ عَنۡهَا مَحِيصٗا ﴾، أي: لا يجدون عنها مراغًا، أو مهربًا أو ملجًا يفرون إليه، من حاص عن الشيء إذا راغ، ونفر منه، وعدل عنه، ومنه ما جاء في حديث أصحاب هرقل لما سمعوا من هرقل ما ظنوه اتباعًا للإسلام: «فَحَاصُوا حَيْصَةَ حُمُرِ الوَحْشِ إِلَى الأَبْوَابِ فَوَجَدُوهَا قَدْ غُلِّقَتْ»[٣]،

(١) أحمد (٢ / ٣٠٢)، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الصحيح.

(٢) مقاييس اللغة (١/ ١٥١).

(٣) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (١ / ٨) رقم ٧ .

فالتعبير بقوله: ﴿وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ يدل على أنهم مهما حالوا لا يستطيعون أن يجدوا ملجأ آخر يفرون إليه منها، وَقَالَ جَعْفَرُ بْنُ عُلْبَةَ الحَارِثِيُّ:

وَلَمْ نَدْرِ إِنْ حِصْنَا مِنَ المَوْتِ حَيْصَةً كَمِ العُمْرُ بَاقٍ وَالمَدَى مُتَطَاوِلُ [١].

النتيجة الثالثة: الفوز العظيم لمن يتقي الوقوع في الأنشطة الشيطانية، ويجمع بين القوة النظرية الفكرية: (الإيمان)، والقوة العملية: (عمل الصالحات)، ويُبَصِّرُنا بذلك قول الله: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ (النساء:١٢٢)، فهذا هو الصنف الناجي من الخطة الشيطانية المريدة، التي تورث أصحابها الخسارة المبينة:

والجنات هي الحدائق المجتنة التي غطتها الخضرة، وبسقت أشجارها وتكاثفت حتى أجنتها فغطتها، تجري من تحتها الأنهار، ولا يخاف فيها من الانقطاع؛ إذ سيكون فيها خالدًا، والخلود يدل على الإقامة الطويلة جدًا، ولكنها لا تدل بالضرورة على الديمومة، فأكد على ذلك بقوله ﴿أَبَدًا﴾.

وفي نهاية الآية السابقة ذكر مأوى أتباع الخطط الشيطانية فأفرده، فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ بالإفراد، وهنا ذكر مأوى المؤمنين فجمعه، فقال: ﴿جَنَّٰتٍ﴾ بالجمع، وناسب ذلك كمال النعيم؛ إذ أراد جل مجده أن يصف ما للذين آمنوا وعملوا الصالحات من نعيم، وكل مؤمن يتنعم بمملكة مستقلة، كما قال جل ثناؤه: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ (الإنسان: ٢٠) أي: أن كل واحدٍ منهم سيكون له ملك عظيم، فلما قال: ﴿جَنَّٰتٍ﴾ دل هذا على أن كلًّا منهم له جناته، وعلى أن لهم جنات منوعات، فكلمة جنات تدل على الأمرين معا على أنها جنات متعددة متنوعة، وليست جنة واحدة، أما ﴿جَهَنَّمُ﴾ فإنها تضيق عليهم فهم محشورون فيها كما قال -عزَّ جارُه-: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟

(١) التحرير والتنوير ٥/ ٢٠٧.

﴿مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ (الفرقان: ١٣).

وتبصرنا الآية باستحضار المقارنة بين وعود الشيطان المخادعة ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ (النساء: ١٢٠) ووعد الله الصادق، ولذا أكده بخبر تأكيد ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا﴾ واستفهام تقريري ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾، فالخبر التأكيدي ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا﴾ أي: يعدكم الله وعدًا ﴿حَقًّا﴾ يقينًا صادقًا ثابتًا أحققه حقًا، أي: أثبته فلا يتخلف، لا كعدة الشيطان الكاذبة التي هي غرور مَنْ وُعِدها من أوليائه، ولكنها عدة ممن لا يكذب ولا يكون منه الكذب، ولا يخلف وعده، فوصف جل ثناؤه الوعدَين والوَاعِدَيْن، وأخبر بحكم أهل كل وعد منهما، تنبيهًا منه جل ثناؤه خلقَه على ما فيه مصلحتهم وخلاصهم من الهلكة والمعطبة [١].

لماذا وعده وعد حق؟ لأن المخلوق قد يخلف وعده بسبب عدم قدرته على الوفاء، وقد يخلف وعده بسبب ضعفٍ طرأ، أو فقرٍ حدث، أو نكبة نزلت، أو عدو اجتاح، أو عاطفة تغيرت.. وكل ذلك منزه عنه ربك فهو المالك لكل شيء، الملك على كل شيء، العليم بكل شيء، القادر على كل شيء.. سبحانه ذو الجلال والإكرام.

والاستفهام تقريري ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ أي: لا يوجد أصدق من الله قولًا كما قال النبي ﷺ: «إن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدى هدى محمد، وشر الأمور محدثاتها» [٢]، فانظر التقابل، واختبر الثقة والإيمان: هيهات بين وعد الرحمن، وغرور الشيطان.



(١) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٢٢٧).

(٢) سنن النسائي - بأحكام الألباني (٣ / ١٨٨).

القسم الرابع

العمل أساس القسط في الحقوق الحيوية، والفصل القضائي، وأسس النجاة من الخطة الشيطانية، والفوز بنعيم الاصطفاء الإلهي (النساء:١٢٣-١٢٦)

آيات هذا القسم:

﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا﴾ (النساء:١٢٣-١٢٦).

المناسبة والاتصال:

فصل الله لك في القسم الثالث حق العالم في معرفة أخطر الأهداف الشيطانية التي تحرف الإنسانية عن وجود مرجعية دستورية قضائية نقية، وتجعلها عرضة للافتراس الشيطاني، ولأن السورة تتعلق بالحقوق الإنسانية، ولأن هذا المحور يغلب عليه الكلام عن الجانب القضائي جاء هذا القسم ليفصل لنا أسس القسط في الحقوق الحيوية، والفصل القضائي، وهي أسس النجاة من الخطة الشيطانية، والفوز بنعيم الاصطفاء الإلهي، فقد حكى الله تعالى جده عن الشيطان ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ

﴿فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ (النساء: ١١٨ - ١٢٠)، وبعد أن تسمع هذه الخطة الشيطانية المحكمة الواثقة في خطوها هنا يخطر في بالك: كيف السبيل إلى النجاة من كيد الشيطان؟ كيف يمكن للمرء الفوز على هذا العدو المريد الذي رسم هذه الخطط الخبيثة؟ كيف الفوز في المعركة التي خطط لها عدونا جيدًا ووضع لها الأهداف التي أكد أنه سيحققها فأخبر بأن له نصيبًا محددًا من عباد الله؟

كما أنك ترى أنه يدخل في قَوْله -تعالى مجدُه-: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ﴾ الأَمَانِيُّ الَّتِي يتمناها المسلمون، وأهل الكتاب، اغترارًا بالجنسية الدينية.. ذكر الله سبيلًا عامًا للنجاة في الآية السابقة وهي ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ (النساء: ١٢٢)، فذكرنا بأن الإيمان هو القوة النظرية والعمل الصالح هو القوة العملية.

وقد ذكر الله الأساس الأول ليمثل المعيار القضائي الدنيوي والأخروي، ثم أتبعه بالمعايير الخاصة بالتفضيل الإلهي، فهلم بنا إلى هذه الأسس التي تمثل قمة العدالة التي لا تعرفها (وحوش نظام الفيتو الرهيب):

الأساس الأول:

الأصل في النجاة والسعادة والتقدم في الحياة ونيل الحقوق والفوز بالثواب: العمل والاكتساب، وليس الأماني الشيطانية، والجنسية الدينية والانتساب، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالىٰ: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ (النساء:١٢٣، ١٢٤).

فالوعد الحق بالجنات الذي ذكره الله في الآية السابقة (١٢٢) ليس بالأماني بل بالأعمال: فـ﴿ لَّيْسَ ﴾ فِعْلٌ، ولا بد له من اسم، فيكون التقدير الشامل لمعنى الآية:

لَيْسَ الوعد الحق، ولا النجاة من الخسارة المبينة، وليس الفوز والخلاص من خطة الشيطان المريد، ولا التقدم في الحياة، ولا الفوز بالجنات القادمة والنعيم المستقبلي، وليس نيل الحقوق القضائية.. كل ذلك ليس مستحقًا بِأَمَانِيِّكُمْ -أيها المسلمون-، وَلَا يكون مستحقًا بأَمَانِيِّ أَهْلِ الكِتَابِ.. ليس بدعواكم أنكم خير أمة، ولا بدعوى أهل الكتاب أنهم أبناء الله وأحباؤه، بل بالعمل، وليس بالافتخار بالجنسية الدينية.

فإن أهل الكتاب جعلوا دخول الجنة أماني لا أعمال، وحكى الله عنهم فقال: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (البقرة: ١١١)، وقال بعضهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ٨٠)، ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ﴾ (المائدة: ١٨).

بل إن الكفار جعلوا حصولهم على النعيم الأخروي لو كان موجودًا أمرًا مستحقًا بمجرد قوتهم وثرائهم الدنيوي، وحكى الله عن أمنياتهم فقال: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ (الكهف: ٣٦) ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾ (مريم: ٧٧، ٧٨)، وزعموا أن الوليد بن المغيرة كان يقول: إن كان محمد صادقًا، فما خُلقتِ الجنةُ إلا لي، فقال الله تعالى ذكره ردًّا عليه وتكذيبًا له: ﴿أَ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴾

(المدثر: ١١ - ١٦)؛ أي: لست أزيده، فلم يزل يرى النقصان في ماله وولده حتى هلك.

ها هو البيان الإلهي يصم آذانهم: الوعد الحق بالفوز الأخروي ليس بالأماني، وكذلك الوعد الحق بالنصر الدنيوي لا يكون بالأماني.

فهذا معنى، ومعنى آخر تجده في الآية، وهو: لَيْسَ وَضْعُ الدِّينِ والأحكام والتشريعات حسب أَمَانِيِّكُمْ، ولَيْسَ الجزاء من الثَّوَاب وَالعِقَاب يرجع إلى أَمَانِيِّكُمْ ومشتهياتكم، والبَاءُ فِي قَوْلِهِ: بِأَمانِيِّكُمْ لِلْمُلَابَسَةِ، أَيْ لَيْسَ الجَزَاءُ حَاصِلًا حُصُولًا عَلَى حَسَبِ أَمَانِيِّكُمْ [1] بل من يعمل سوءًا يلقَ جزاءه، ومن يعمل صالحًا يجد ثوابه.

وهذا المبدأ كذلك يدل على أن العبرة في مجلس القضاء ليس بالجنسية الدينية ولا الترابية ولا بالنسب، بل العبرة بالعمل والاكتساب وليس بالأماني والادعاء والانتساب، ومن هنا تشعر برابط هذا القسم ضمن المحور القضائي.

التفاضل بين الناس يكون بالعمل والقيام بالأسباب المناسبة للأعمال المحققة للنتائج، وفصل الله هذا المبدأ في سورة البقرة فقال جل ثناؤه: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (البقرة: ٣) إلى أن قال تقدست أسماؤه: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (البقرة: ١٤١).

لقد جعل الله من المبادئ الكلية التي يقررها القرآن المجيد أن الثواب بالاكتساب لا بالانتساب، ومن أبرز الآيات التي قررت ذلك بصورةٍ كلية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة: ٦٢).

فإذا أردتم الخلوص من الخطة الشيطانية المريدة فليس بالأماني، لا تقولوا لأنا مسلمون فقد نجونا، ولا يقل أهل الكتاب: لأنا يهود أو لأنا نصارى فقد نجونا، فالله

(١) تفسير الرازي (١١/ ٢٢٥)، التحرير والتنوير (٥/ ٢٠٨).

سبحانه وتعالى يقول: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ فالتقدم الدنيوي والآخروي، والنجاة والسعادة والثواب، ونيل الحقوق.. كل ذلك لا يتحصل بالادعاء والأماني والانتساب، وإنما تتحصل بالعمل والاكتساب. وهنا يبين الله خطأ اللعب بالشعارات وعدم التركيز على حقائق الأمور.

ولهذه الآية قصة ماتعة توضح لك عظمة الإسلام، فلنسمع إلى أئمتنا يقصونها علينا، فها هو كبير مفسري التابعين مُجَاهِد بن جبر يقول: قَالَتِ العَرَبُ: لَنْ نبْعث وَلَنْ نُعذَّب. وَقَالَتِ اليَهُودُ وَالنَّصَارَى: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ (البَقَرَةِ: ١١١)، وَقَالُوا ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ (البَقَرَةِ: ٨٠)[1].. إنه الافتخار بالجنسية الدينية، فينزل قول الله: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ليصحح الفكر التائه الحائر، وينير الأبصار والبصائر.. فمن البصائر العظيمة التي تكرمنا بها هاتان الآيتان ضرورة الخروج من خدعة اللعب بالشعارات.. تعال لنختبر ذلك في واقع الأمم:

بعض الناس يلقب نفسه الطائفة المنصورة، وبعضهم الفرقة الناجية، وبعضهم يلقب نفسه أهل الحق، وبعضهم يلقبون أنفسهم بشيعة آل البيت، وبعضهم يلقب نفسه بأهل السنة، واليهود يرون أنهم الشعب المختار، والنصارى يرى عددٌ من قياداتهم السياسية والدينية أنهم بمجرد خدمة الشعب المختار يكونون جزءًا من غصن الزيتون.. حيث تولى بولس - فيما ينسب إليه من رسائل - إثم هذا التقعيد الخطير في رسالته إلى أهل رومية، حيث قال:

١١: ١٧ فإن كان قد قطع بعض الأغصان، وأنت زيتونة برية، طعمت فيها، فصرت شريكًا في أصل الزيتونة، ودسمها.

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٤١٧).

١١ : ١٨ فلا تفتخر على الأغصان، وإن افتخرت، فأنت لست تحمل الأصل، بل الأصل إياك يحمل.

ورتب المغترون من أهل الكتاب على هذه الأماني أفكارًا باطلة منها: أَنَّ اليهود شَعْبُ اللهِ المختار، ثم يجتمعون مع الضالين من النصارى ليقولوا: إِنَّهُمْ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ، وَأَنَّهُ لَنْ تَمَسَّهُمُ النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً، وَأَنَّهُ لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى، وكذلك المسلمون لا ينجون من هذه الأماني، فيظن بعضهم أن اسم الإسلام كافٍ لأن يقترف كبائر الذنوب، وبعضهم يعتمد على أنه من أمة سيد الشفعاء ﷺ، وبعضهم يظن أن رفعه لشعار آل البيت أو لشعار السنة كافٍ في نجاته.. وذلك كما ظن اليهود أن النسب الإسرائيلي كافٍ، وكما يظن سدنة المسيحية الصهيونية أن خدمة بني إسرائيل تكفي للنجاة، ويبين لنا أبو عائشة مسروق بن الأجدع الوادعي (ت ٦٢ هـ) هذا اللعب الشيطاني بالجنسية الدينية كما بينه مجاهد، ويزيد ذلك بأن يبين كيف ربى الله العالم من خلال هاتين الآيتين فيقول: تفاخر النصارى وأهلُ الإسلام، فقال هؤلاء: نحن أفضل منكم! وقال هؤلاء: نحن أفضل منكم! قال: فأنزل الله: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾[١]، ثم يزيد مسروق الأمر بيانًا، فيقول: لما نزلت: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾، قال أهل الكتاب: نحن وأنتم سواء! فنزلت هذه الآية: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾[٢]، وكان لهذه الآية أثرها في مسروق، فهو الذي كان يمشي بين الفريقين المتقاتلين في صفين يعظهم لئلا يقاتل مسلم مسلمًا[٣]، ومن عبارات النور الصادرة عن الاستلهام القرآني لمحمد رشيد رضا: «إِنَّ الأَدْيَانَ مَا شُرِعَتْ لِلتَّفَاخُرِ وَالتَّبَاهِي،

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٢٢٨).

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٢٢٨).

(٣)تفسير الطبري ت شاكر (١٠/ ٢٨١).

وَلَا تَحْصُلُ فَائِدَتُهَا بِمُجَرَّدِ الِانْتِمَاءِ إِلَيْهَا وَالتَّمَدُّحِ بِهَا بِلَوْكِ الأَلْسِنَةِ وَالتَّشَدُّقِ فِي الكَلَامِ، بَلْ شُرِعَتْ لِلْعَمَلِ»[١].

وبما أن النجاة والفوز، والإعمار والتقدم، والفلاح والظفر.. بما أن القرب من الله، والمنزلة عنده.. بما أن النصر على الأعداء، والسعادة في الحياة، والقوة في البناء.. كلها لا تتحقق بالأماني.. جاء السؤال فبأي شيء تتحقق.. فيأتي الجواب.. حيث:

قسَّم الله البشرية إلى صنفين حسب أعمالهم:

الصنف الأول: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾ (النساء:١٢٣). ﴿مَن﴾ الشرطية دالة على العموم كما قال السيوطي ﷺ:

كُلٌّ وأيٌّ والَّذِي الَّتِي وَمَا ونَحْوُهَا مَتَى وأيْنَ حَيْثُمَا
حَقِيْقَةٌ فِيْهِ وقِيْلَ فِي الخُصُوصْ وقِيلَ فِيْهِمَا وبِالوَقْفِ نُصُوصْ[٢]

فيكون المعنى: كل من يعمل سوءًا مهما كانت جنسيته الدينية أو انتماؤه النسبي أو الترابي، يجد جزاءه المناسب لعمله السيء، ولن يجد له وليًا يعينه على دفع الجزاء السيء، والولي المقرب الذي يقرب منه قربًا شديدًا حتى كأنه يليه في المكان، ولن يجد له نصيرًا سواء أكان بعيدًا أم قريبًا، وذكر هذين الصنفين لأن من وقع في مصيبة استجار بوليه المقرب منه ليعينه ويدفع عنه، أو بنصيره ولو لم يكن مقربًا، فقد يجيء الناصر لنصرته لأنه يعادي عدوه الأخطر مثلًا.. فمن ذا يستطيع أن ينصره أمام حكم الله العدل.

الصنف الثاني: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا﴾ (النساء:١٢٤):

(١) تفسير المنار (٥/ ٣٥٣).

(٢)الكوكب الساطع نظم جمع الجوامع (ص: ٤٠).

ويكون المعنى: كل من يعمل الأعمال الصالحات وهو مؤمن فإن الله يدخله الجنة رحمة منه وفضلًا، ولا يظلمه أدنى شيء في عمله الصالح، ولو كان عمله يساوي النقير، وهو النقرة التي في ظهر النواة.

ولاحظ أن الله جل ثناؤه قال: ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فأتى بـ﴿ مِن ﴾ ليبين أن المرء ليس قادرًا على القيام بجميع الصالحات، فإن عمل من الصالحات كفى ليعامله الله بفضله، ويضاعف له حسناته، والصالحات تشمل كل عملٍ صالح يؤدي إلى صلاح الفرد والمجتمع، وأول الصالحات أن تكف عن إيذاء الصالحين، وأن تمتنع عن إفساد ما حولك، ويبين أبو ذر رضي الله عنه سعة الأعمال الصالحات التي تعني تعظيم الحق، وإعانة الخلق، وذلك في الحوار الذي دار بينه وبين النبي ﷺ قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «الإِيمَانُ بِاللَّهِ وَالجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ». قُلْتُ: أَيُّ الرِّقَابِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «أَنْفَسُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا وَأَكْثَرُهَا ثَمَنًا». قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ أَفْعَلْ؟ قَالَ: «تُعِينُ صَانِعًا أَوْ تَصْنَعُ لأَخْرَقَ». قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ إِنْ ضَعُفْتُ عَنْ بَعْضِ العَمَلِ؟ قَالَ: «تَكُفُّ شَرَّكَ عَنِ النَّاسِ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ مِنْكَ عَلَى نَفْسِكَ» (١)، وقَالَ أَبُو ذَرٍّ: عَلَى كُلِّ نَفْسٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ طَلَعَتْ فِيهِ الشَّمْسُ صَدَقَةٌ مِنْهُ عَلَى نَفْسِهِ. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مِنْ أَيْنَ أَتَصَدَّقُ وَلَيْسَ لَنَا أَمْوَالٌ؟ قَالَ: «لأَنَّ مِنْ أَبْوَابِ الصَّدَقَةِ التَّكْبِيرَ، وَسُبْحَانَ اللهِ، وَالحَمْدُ لِلَّهِ، وَلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، وَتَأْمُرُ بِالمَعْرُوفِ، وَتَنْهَى عَنِ المُنْكَرِ، وَتَعْزِلُ الشَّوْكَةَ عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ وَالعَظْمَ وَالحَجَرَ، وَتَهْدِي الأَعْمَى، وَتُسْمِعُ الأَصَمَّ وَالأَبْكَمَ حَتَّى يَفْقَهَ، وَتُدِلُّ المُسْتَدِلَّ عَلَى حَاجَةٍ لَهُ قَدْ عَلِمْتَ مَكَانَهَا، وَتَسْعَى بِشِدَّةِ سَاقَيْكَ إِلَى اللَّهْفَانِ المُسْتَغِيثِ، وَتَرْفَعُ بِشِدَّةِ ذِرَاعَيْكَ مَعَ الضَّعِيفِ، كُلُّ

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٣/ ١٨٨) برقم ٢٥١٨، والأخرق: الجاهل بما يجب أن يعمله ولم يكن فى يديه صنعة يكتسب بها.

ذَلِكَ مِنْ أَبْوَابِ الصَّدَقَةِ مِنْكَ عَلَى نَفْسِكَ، وَلَكَ فِي جِمَاعِكَ زَوْجَتَكَ أَجْرٌ». قَالَ أَبُو ذَرٍّ: كَيْفَ يَكُونُ لِي أَجْرٌ فِي شَهْوَتِي؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ وَلَدٌ فَأَدْرَكَ وَرَجَوْتَ خَيْرَهُ فَمَاتَ، أَكُنْتَ تَحْتَسِبُ بِهِ»؟ قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: «فَأَنْتَ خَلَقْتَهُ»؟ قَالَ: «بَلِ اللَّهُ خَلَقَهُ». قَالَ: «فَأَنْتَ هَدَيْتَهُ؟» قَالَ: بَلِ اللَّهُ هَدَاهُ. قَالَ: «فَأَنْتَ تَرْزُقُهُ؟» قَالَ: بَلِ اللَّهُ كَانَ يَرْزُقُهُ. قَالَ: «كَذَلِكَ فَضَعْهُ فِي حَلاَلِهِ وَجَنِّبْهُ حَرَامَهُ، فَإِنْ شَاءَ اللَّهُ أَحْيَاهُ، وَإِنْ شَاءَ أَمَاتَهُ، وَلَكَ أَجْرٌ» (١).

وتعال بنا إلى هذا القيد ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ لتجده يُبَصِّرُنا بالعامل الذي يستحق الجنة.. إنه العامل المؤمن، لأن الذي يعمل الصالحات قد يكون مؤمنًا يريد بعمله وجه الله، وقد يكون غير مؤمن، وإنما أراد نفع الإنسانية ليحقق لنفسه المتعة في ذلك، فالذي يكافئه الله في الآخرة هو الذي يعمل الصالحات إن كان مؤمنًا لأنه هو الذي أراد الله بعمله، أما الذي يعمل الصالحات من غير المؤمنين يجد جزاءه ممن قصده بالعمل، فهو يقصد الشهرة الإنسانية، وقد وجدها، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ مُؤْمِنًا حَسَنَةً يُعْطَى بِهَا فِي الدُّنْيَا وَيُجْزَى بِهَا فِي الآخِرَةِ، وَأَمَّا الكَافِرُ فَيُطْعَمُ بِحَسَنَاتِ مَا عَمِلَ بِهَا لِلَّهِ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا أَفْضَى إِلَى الآخِرَةِ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ يُجْزَى بِهَا» (٢).

هل رأيت في الآيتين كلامًا عن الجنسية الدينية؟ هل رأيت ثناء على الإنسان لمجرد الانتساب.. إنه العمل، ولا سواه: من يعمل.. ومن يعمل.. ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ (النساء: ١٢٣، ١٢٤).

(١) أحمد(٥ / ١٦٨) برقم ٢١٥٢٢، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الصحيح.

(٢) صحيح مسلم (٨ / ١٣٥) برقم ٧٢٦٧.

وحتى نفهم ما ورد عن سلفنا في ظلال هذه الآية ينبغي أن نستحضر المعنى الجازم القاطع الوارد في قوله: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ فهو الموافق لبقية الآيات المماثلة مثل قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ (البقرة: ١٣٤) ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ (البقرة: ٢٢٥) ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢٨١) ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ (البقرة: ٢٨٦) ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (آل عمران: ٢٥) ﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ﴾ (الأنعام: ٧٠) ﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ (إبراهيم: ٥١).

فمن يعمل سوءًا -سواء أكان مسلمًا، أم كافرًا كتابيًا، أم وثنيًا- يجد جزاءه وفاقًا، ولن ينصره نسبه، ولا جنسيته، فلا يجد له من دون الله في سننه وليًّا حبيبًا يدفع عنه، ولا نصيرًا بعيدًا، ولا قريبًا ينصره؛ ولذا حذر النبي ﷺ من جعل الجنسية الدينية، أو النسبية، وسيلة للافتخار، فعن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهل بيتي هؤلاء يرون أنهم أولى الناس بي، وإن أولى الناس بي المتقون، من كانوا، وحيث كانوا، اللهم إني لا أحل لهم فساد ما أصلحت، وايم الله، ليكفؤون أمتي عن دينها، كما يكفأ الإناء في البطحاء»[1].

الأساس الثاني:

الشعور بأن العقوبة الدنيوية فرصة لتصحيح المسيرة الفكرية والعملية التي احتوشتها الأخطاء، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالىٰ ذكره: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ

(١) صحيح ابن حبان بتحقيق الأرناؤوط (٢ / ٤١٤)، قال شعيب الأرناؤوط: إسناده قوي.

﴿أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ (النساء:١٢٣، ١٢٤).

ويبين ذلك التفسير النبوي للآية، فعَنْ أَبِى سَعِيدٍ وَأَبِى هُرَيْرَةَ أَنَّهُمَا سَمِعَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ «مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ وَصَبٍ وَلاَ نَصَبٍ وَلاَ سَقَمٍ وَلاَ حَزَنٍ حَتَّى الْهَمّ يُهَمُّهُ إِلاَّ كُفِّرَ بِهِ مِنْ سَيِّئَاتِهِ»(١).

هذه البصيرة نستمدها من التفسير النبوي لتدل على واقعٍ إيجابي بالنظر إلى شدة العقوبة في الآخرة، فمن رحمة الله بعباده أن يجعل الجزاء على بعض السوء دنيويًا ضمن الأقدار المؤلمة التي تصيب الإنسان، ولذا قالت عَائِشَةُ رضي الله عنها: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ شَوْكَةٍ فَمَا فَوْقَهَا إِلاَّ رَفَعَهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَةً أَوْ حَطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةً» (٢)، وهذا الجانب الإيجابي يظهر إذا كان الذي يصاب من الإنسان ما يتعلق بالجوانب الفردية.

فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رجل لرسول الله ﷺ: أرأيت هذه الأمراض التي تصيبنا ما لنا بها؟ قال: «كفاراتٌ، قال أُبَيّ بن كعب: وإن قلَّت؟ قال: «وإن شوكةً فما فوقها» فدعا أبيٌّ على نفسه أن لا يفارقه الوعك حتى يموت في أن لا يشغله عن حج ولا عمرة ولا جهاد في سبيل الله ولا صلاة مكتوبة في جماعة، فما مسه إنسان إلا وجد حره حتى مات (٣)، وعن الربيع بن زياد قال: قلت لأبي بن كعب: قول الله تبارك وتعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾، والله إن كان كل ما عملنا جُزينا به هلكنا! قال: والله إن كنتُ لأراك أفقهَ مما أرى! لا يصيب رجلا خدشٌ ولا عثرةٌ

(١) صحيح مسلم (٨ / ١٦).

(٢) صحيح مسلم (٨ / ١٥).

(٣) أحمد(٣ / ٢٣)، وقال الأرناؤوط: إسناده حسن.

إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر، حتى اللَّدغة والنَّفْحة [١].

فالجزاء على الأخطاء والخطيئات قد يكون دنيويًا، فتحصل الهزائم أو النكسات أو المصائب وقد تكون كفارة لقوم، ولكنها تكون عقوبة لآخرين، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنهما أَنَّهُمَا سَمِعَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا يُصِيبُ المؤْمِنَ مِنْ وَصَبٍ، وَلاَ نَصَبٍ، وَلاَ سَقَمٍ، وَلاَ حَزَنٍ، حَتَّى الهَمّ يُهَمُّهُ، إِلاَّ كُفِّرَ بِهِ مِنْ سَيِّئَاتِهِ»[٢]، فهذا الجانب الإيجابي للمصيبة، ولكن الجانب السلبي يظهر على المستوى الجماعي، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ (آل عمران:١٦٥).

وقد قابل الصحابة رضي الله عنهم هذه الآية بشعورٍ مرهفٍ ينبئ عن إخباتهم الرائع، وعاطفتهم الصادقة، وإعظامهم للقرآن، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ بَلَغَتْ مِنَ المُسْلِمِينَ مَبْلَغًا شَدِيدًا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «قَارِبُوا وَسَدِّدُوا فَفِي كُلِّ مَا يُصَابُ بِهِ المُسْلِمُ كَفَّارَةٌ حَتَّى النَّكْبَةِ يُنْكَبُهَا أَوِ الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا» [٣].

ولاستشعار الصحابة المعنى الواضح الذي تبصرنا الآية به جعلوها أشد آية في القرآن، فعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي لأَعْلَمُ أَشَدَّ آيَةٍ فِي القُرْآنِ قَالَ: «أَيَّةُ آيَةٍ يَا عَائِشَةُ». قَالَتْ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ قَالَ: «أَمَا عَلِمْتِ يَا عَائِشَةُ أَنَّ المُؤْمِنَ تُصِيبُهُ النَّكْبَةُ أَوِ الشَّوْكَةُ، فَيُكَافَأُ بِأَسْوَء عَمَلِهِ، وَمَنْ حُوسِبَ عُذِّبَ». قَالَتْ: أَلَيْسَ اللَّهُ يَقُولُ: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ قَالَ: «ذَاكُمُ

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٢٣٦).

(٢) مسلم (٨ / ١٦) رقم ٢٥٧٣.

(٣) صحيح مسلم (٨ / ١٦) رقم ٢٥٧٤ .

العَرْضُ يَا عَائِشَةُ مَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ عُذِّبَ» [١].

هذا فهم عائشة الموفقة، وأما أبوها الصديق فبإخباته قال: قلت يا رسول الله: كيف الصلاح بعد هذه الآية: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ فكل سوء عملناه جزينا به قال: «غفر الله لك يا أبا بكر قاله ثلاثًا يا أبا بكر، ألست تمرض؟ ألست تحزن؟ ألست تنصب؟ ألست تصيبك اللأواء؟» قلت: نعم قال: «فهو ما تجزون به في الدنيا»[٢]، وفي رواية عنه قال: كنت عند رسول الله ﷺ فأنزلت عليه هذه الآية ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ فقال رسول الله ﷺ: يا أبا بكر ألا أقرئك آية أنزلت علي؟ قلت: بلى يا رسول الله. قال: فأقرأنيها فلا أعلم إلا أني قد كنت وجدت انقصامًا في ظهري فتمطأت لها فقال رسول الله ﷺ: ما شأنك يا أبا بكر؟ قلت: يا رسول الله بأبي أنت وأمي وأينا لم يعمل سوءًا وإنا لمجزون بما عملنا؟ فقال رسول الله ﷺ: «أما أنت يا أبا بكر والمؤمنون فتجزون بذلك في الدنيا حتى تلقوا الله، وليس لكم ذنوب، وأما الآخرون فيجمع ذلك لهم حتى يجزوا به يوم القيامة» [٣].

المكافأة في الدنيا تتم على العمل، لا على الأماني، ولكنها لا تتم في الآخرة إلا إذا كان العمل صالحًا، وفاعله مؤمنًا، بغض النظر عن نسبه، وجنسيته، وانتمائه،

---

(١) أبو داود (٣/ ١٥١).

(٢) أحمد(١ / ١١)، وصححه الأرناؤوط بشواهده، وكذا جاء في تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٢٤١)، المستدرك على الصحيحين للحاكم مع تعليقات الذهبي في التلخيص - (٣/ ٧٨)، وصححه ووافقه الذهبي.

(٣) سنن الترمذي (٥ / ٢٤٨)، قال أبو عيسى هذا حديث غريب وفي إسناده مقال موسى بن عبيدة يضعف في الحديث ضعفه يحيى بن سعيد و أحمد بن حنبل ومولى ابن سباع مجهول وقد روي هذا الحديث من غير هذا الوجه عن أبي بكر وليس له إسناد صحيح أيضا وفي الباب عن عائشة ، و قال أبو عيسى هذا حديث حسن غريب ، وقال الشيخ الألباني: ضعيف الإسناد.

فالمؤمن العامل للصالحات، لا يخاف من أن يظلم نقيرًا، والنَّقِير: النَّقْرَةُ الَّتِي فِي ظَهْرِ نَوَاةِ التَّمْرَةِ، وبجواره: الفَتِيل، وَهُوَ الخَيْطُ الَّذِي فِي شِقِّ النَّوَاةِ، ومعهما: القِطْمِيرُ، وَهُوَ اللِّفَافَةُ الَّتِي عَلَى نَوَاةِ التَّمْرَةِ، وبنى الفعل: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ﴾ لما لم يسم فاعله؛ ليبين أن الظلم غير واقعٍ عليهم، لا من ربهم، ولا من الملائكة الذين يقومون بالمهام التنفيذية لعملية وزن الأعمال، وجر الخاسرين إلى جهنم، ووفادة المتقين إلى جنات ونهر.

فهذا معنى متواتر.. إنه من المبادئ القرآنية الأساسية.

لا بد أن تفكر جيدًا -بعد ذلك- في كل ما ورد من أقوال بعض السلف مما يوهم أن المؤمن ينجو من ذلك فالمراد به أنه ينجو مع التوبة أو مع غلبة الحسنات الأخرى، وذلك مثل ما ورد عن الحسن أنه كان يقول: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾، و ﴿وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ (سورة سبأ: ١٧) يعني بذلك الكفار، لا يعني بذلك أهلَ الصلاة [١]، وقال: والله ما جازى الله عبدًا بالخير والشر إلا عذَّبه. قال: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ (سورة النجم: ٣١). قال: أما والله لقد كانت لهم ذنوب، ولكنه غفرها لهم ولم يجازهم بها، إن الله لا يجازي عبده المؤمن بذنب، إذًا توبقه ذنوبه [٢].

وهذا الفهم يتوافق مع القطعيات الشرعية، فكل من عمل سوءًا صغيرًا أو كبيرًا من مؤمن أو كافر، جوزي به إلا أن يعفو ربي ويغفر كما قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ (الشورى: ٣٠)، وهذا الفهم يتوافق مع ما ورد عنه في قوله: «إِنَّ قَوْمًا أَلْهَتْهُمْ أَمَانِيُّ المَغْفِرَةِ حَتَّى خَرَجُوا مِنَ الدُّنْيَا وَلَيْسَتْ لَهُمْ حَسَنَةٌ، يَقُولُ: إِنِّي أُحْسِنُ الظَّنَّ بِرَبِّي، وكَذَبَ، وَلَوْ أَحْسَنَ الظَّنَّ بِرَبِّهِ

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٢٣٨).

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٢٣٨).

لأَحْسَنَ العَمَلَ» (١).

وقد جزم شيخ الدنيا الطبري بعموم الآية في كلّ عامل سوء، من غير أن يُخَصَّ أو يُستثنَى منهم أحدٌ، فهي على عمومها، إذ لم يكن في الآية دلالة على خصوصها، ولا قامت حجة بذلك من خبر عن الرسول ﷺ (٢).

وهنا نسمع أثر التربية القرآنية المستلهمة من هاتين الآيتين على محمد رشيد رضا حيث يقول: «هَذَا وَإِنَّ فِي هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ مِنَ العِبْرَةِ وَالمَوْعِظَةِ مَا يَدُكُّ صُرُوحَ الأَمَانِيِّ وَمَعَاقِلَ الغُرُورِ الَّتِي يَأْوِي إِلَيْهَا وَيَتَحَصَّنُ فِيهَا الكُسَالَى وَالجُهَّالُ وَالفُسَّاقُ مِنَ المُسْلِمِينَ الَّذِينَ جَعَلُوا الدِّينَ كَالجِنْسِيَّةِ السِّيَاسِيَّةِ، وَظَنُّوا أَنَّ اللهَ العَزِيزَ الحَكِيمَ يُحَابِي مَنْ يُسَمِّي نَفْسَهُ مُسْلِمًا، وَيُفَضِّلُهُ عَلَى مَنْ يُسَمِّيهَا يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا بِمُجَرَّدِ اللَّقَبِ» (٣).

وقد تتساءل لماذا ذكر في الآية أمانيكم وأماني أهل الكتاب ولم يذكر غيرهم من أهل المعبودات الأخرى؟

الجواب: لأن الله سبحانه وتعالى أنزل عليهم كتبًا جميعًا، فأنزل على هؤلاء التوراة، وعلى هؤلاء الإنجيل، وعلى هؤلاء القرآن، فهم أحرى بأن يدعوا ذلك من الوثنيين، لأن الوثنيين لا يعبدون رب العالمين، بينما هؤلاء يزعمون أنهم يعبدون الله رب العالمين، فهم أحرى بمجرد أنهم ينتمون للأمة الإسلامية أو الانتساب إلى اليهودية أو النصرانية فهم قد نجوا وتخلصوا من خطة الشيطان المريد.

فالجزاء على السوء واقع وقد يكون دنيويًا أو أخرويًا، إلا أن يعفو الله جل في علاه، وقد يعجله للمؤمن لدفع عذاب الآخرة، فعن مُجَاهِدٍ قَالَ: قَالَ لِي عَبْدُ اللهِ بْنُ

(١) رواه ابن أبي الدنيا في الوجل والتوثق بالعمل برقم٢.

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٢٣٩).

(٣) تفسير المنار (٥/ ٣٥٦).

عُمَرَ: انْظُرْ إِلَى المَكَانِ الَّذِي بِهِ ابْنُ الزُّبَيْرِ، قَالَ: فَمَرَّ عَلَيْهِ، قَالَ: فَسَهَا الغُلاَمُ، قَالَ: فَإِذَا ابْنُ عُمَرَ يَنْظُرُ إِلَى ابْنِ الزُّبَيْرِ مَصْلُوبًا، فَقَالَ: يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ ثَلاَثًا، وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُكَ إِلاَّ كُنْتَ صَوَّامًا قَوَّامًا، وَصُولًا لِلرَّحِمِ، أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لاَ أَرْجُو مَعَ مَسَاوِي مَا أَصْبَتَ أَلاَ يُعَذِّبُكَ اللَّهُ بَعْدَهَا أَبَدًا، ثُمَّ التَفَتَ إِلَيَّ فَقَالَ: سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ ﷺ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ فِي الدُّنْيَا[1].

فقال الله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ فكلمة ﴿مَن﴾ من صيغ العموم تدل على كل من عمل صالحًا بغض النظر عن أصله سواء أكان أبيض أم أسود، وسواء أكان عربيًا أم أعجميًا، وسواء أكان أصله يهوديًا أم نصرانيًا أم وثنيًا، ولأن كثيرًا من الخلق ينظر نحو الإناث نظرة نقص أفردها الله بالذكر فقال: ﴿مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ ثم قيد الأفعال الصالحات بأن يكون فاعلها مؤمنًا ليستحق دخول الجنة، وليس الاستحقاق للثواب الدنيوي ﴿فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾.

ولاحظ في الآية السابقة قول ربنا تعالى ذكره: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ هل قال: وهو كافر؟ بل يدخل في الآية المؤمن والكافر، أما في هذه الآية فقال: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ وكذلك قال: ﴿يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ أي في الآخرة، إذًا فالإيمان شرط لجعل العمل الصالح موجبًا للجزاء الأخروي، أما الدنيوي فيستوي المؤمنون والكفار بحسب العمل. والعامل ينبغي أن يعلم أن الله لا يظلمه أدنى شيء يمكن أن يتصوره مما عمله، فهو في ميدان العدل الإلهي الكامل فلا يخاف من أن يظلم نقيرًا.

والمكافأة الأخروية إنما تتم على الصدق في العمل، وإلا فأعظم الأعمال الصالحة للبشر لا يمكن أن يستحقوا بها الجنة، ونستنبط هذه البصيرة من دخول كلمة: «مِن» في قوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾؛ إذ لم يقل: (ومن يعمل

(١) الحاكم٣/ ٦٣٧ برقم٦٣٤٠.

الصالحات)، فالصالحات التي يعملها من الناس صنفان: صنف صادق، وصنف كاذب، فالصالحات أي الصالحات التي تستحق أن يثاب عليها.

والله قد علم أن عبادَه المؤمنين لن يُطيقوا أن يعملوا جميع الأعمال الصالحات، فأوجب وَعده لمن عمل ما أطاق منها، ولم يحرمه من فضله بسبب ما عجزتْ عن عمله منها قوّتُه، فأوجب الله وعدَه لمن اجتنب الكبائر وأدَّى الفرائض، وإن قصر في بعض الواجب له عليه، تفضلًا منه على عباده المؤمنين؛ إذ كان الفضل به أولى، والصفح عن أهل الإيمان به أحرَى [1].

وفي الآية قراءتان توضحان مشهدين:

أما القراءة الأولى: فقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو بَكْرٍ عَنْ عَاصِمٍ ﴿يُدْخَلُونَ الجَنَّةَ﴾ بِضَمِّ اليَاءِ وَفَتْحِ الخَاءِ عَلَى مَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ، لأننا سنشهد مدخل أولئك الموفقين وهم يدخلون الجنة، فالذي يدخلهم الله بأمره وتكريمه، والملائكة التي تزفهم تدخلهم مرافقة لهم، والملائكة التي تستقبلهم، والنبي ﷺ الذي يفتح لهم، وكذلك أعمالهم الصالحة المجسدة فهي تدخلهم الجنة، لتقدم لنا هذه القراءة مشهد هؤلاء الموفقين وهناك من يدخلهم الجنة.

فتحتمل القراءة أن الذي يدخلهم الجنة: أعمالهم الصالحة المجسدة، ويحتمل أن الذي يزفهم إلى الجنة الملائكة، ويحتمل أن الذي يدخلهم الجنة الله بإعلان فوزهم في امتحان الدنيا، وأما بقية القراء العشرة فقرأوا بِفَتْحِ اليَاءِ وَضَمِّ الخَاءِ عَلَى أَنَّ الدُّخُولَ مُضَافٌ إِلَيْهِمْ لتبين مشهدهم، وهم يدخلون بأنفسهم مفتخرين بذلك الدخول مقبلين عليه بعد أن سمعوا الله يقول لهم: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ﴾ (الزُّخْرُفِ: ٧٠) وَيقول لهم ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾ (الحجر: ٤٦) (ق: ٣٤).

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٢٤٩).

وترانا وقفنا كثيرًا أمام هاتين الآيتين لنبين أن لقانون السببية أثرًا عظيمًا في الحياة الإنسانية في الدنيا والآخرة، فيقوم الإنسان بالعمل الصالح ولا يتكل على جنسيته الدينية فضلًا أن يتكل على جنسيته الترابية، أو جنسيته القومية، فالجاهليون يفتخرون بالأعمال الصالحة، فقد ذُكِرَ بأن الخرنق أخت طرفة بن العبد قالت:

لا يَبعَدَن قَومي الَّذينَ هُمُ ... سُمُّ العُداةِ وَآفَةُ الجُزرِ
النازِلونَ بِكُلِّ مُعتَرَكٍ ... وَالطَيِّبونَ مَعاقِدَ الأُزُرِ
وَالخالِطون لُجَينَهُم بِنُضارِهِم ... وَذَوي الغِنى مِنهُم بِذي الفَقرِ
إِن يَشرَبوا يَهَبوا، وَإِن يَذَروا ... يَتَواعَظوا عَن مَنطِقِ الهُجرِ
قَومٌ إِذا رَكِبوا سَمِعتَ لَهُم ... لَغَطًا مِنَ التَأييهِ وَالزَجرِ
هَذا ثَنائي ما بَقيتُ لَهُم ... فَإِذا هَلَكتُ أَجَنَّني قَبري[1]

فهذه تثني على قومها بعملهم للأعمال الصالحة وقد ماتوا، فهل يركن المسلمون إلى أنسابهم أو جنسيتهم الدينية نابذين الأعمال وراء ظهورهم؟

ويوضح لنا أبو هُرَيْرَةَ هذا المعنى القرآني الجليل فيقول: قَالَ قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ قَالَ: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا - اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ لاَ أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ لاَ أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا. يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ المُطَّلِبِ لاَ أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا، وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللهِ لاَ أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي لاَ أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا»[2].

قال عبد الواحد بن زيد: دخلنا على عطاء السليمي وهو في الموت فنظر إلي

(١) من بحر الكامل، وهي للخرنق بنت بدر بن هفان في ديوانها ص ٤٣، وانظر: أشعار النساء (ص: ١٠٦)

(٢) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٦ / ١٤٠) برقم ٤٧٧١.

أتنفس أي أبكي فقال: مالك؟، فقلت: من أجلك، فقال: والله وددت أن نفسي بقيت بين لهاتي وحنجرتي تتردد إلى يوم القيامة مخافة أن تخرج إلى النار، أي: أنا لا أتكل على عملي، وقد قال عطاء ﷺ: «بلغنا أن الشهوة والهوى يغلبان العلم والعقل والبيان، قالوا: كانوا إذا قالوا لعطاء: ادع لنا قال: اللهم لا تمقتنا فإن كنت مقتنا فاغفر لنا، ومرة رجعوا من جنازة قال عبد الرحمن بن مهدي وحماد بن زيد فدخلنا على عطاء السليمي فلما رآنا خاف أن يداخله شيء من الغرور لكثرتنا فقال: اللهم لا تمقتني، ومرة مرَّ عطاء بن السليمي فجلس فأثنوا عليه خيرًا، فلما جاوزهم قال: اللهم إن كان هؤلاء لا يعرفوني فأنت تعرفني، أي: لا تؤاخذني بكثرة ثنائهم ومدحهم.

الأساس الثالث:

أن يستسلم العبد استسلامًا كاملًا للنظام الذي وضعه الخالق، فينمي بذلك الإخلاص ويوثق مودة العبد بربه، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ ﴾.

وانظر لجمال العبارة، وظهور الاستسلام الكامل من العبد لربه ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ ﴾، كأنه يقول: أيها المسلمون تتباهون بأنكم على الدين الأحسن، وأنتم أيها اليهود تقولون: نحن على الدين الأمثل، وأنتم أيها النصارى تزعمون بأنكم على الدين الأقوم.. الأمر ليس بأهوائكم ولا تفاخركم بل الأحسن دينًا هو الذي يسلم وجهه لله، لا للنبي ولا للولي ولا للعالم ولا للقسيس ولا للراباي.. إسلام الوجه لله يقتضي التوجه إلى الله مباشرة، فلا تجعل بينك وبين الله وسائط أو حُجَّابًا يحولون بينك وبين ربك.. وهو عندما يُسلِم وجهه لربه إنما يستسلم لمن أوجده من العدم، ورباه بالنعم. تُسلِم وجهَك لله، فتنقاد له ولو كان بخلاف شهواتك، وأهوائك ورغباتك، فتقول: أسلمت وجهي، ومالك ألا تستسلم، وأنت

عندما تستسلم فإنما تستسلم لمن خلقك، وصورك وشق سمعك وبصرك، وحباك بكل نفَس تتنفسه؟

وقد تتساءل عن سبب التعبير عن الوجه.. لماذا لم يقل (أسلم نفسه) خاصة أن الحديث قد ورد بذلك فقال النبي ﷺ: «يَا فُلَانُ إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَقُلِ: اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ»[1].. فلماذا عبر عن ذلك بإسلام الوجه؟

هنا ترى البلاغة القرآنية ترتقي ذرا البيان، وهناك تجد التفصيل النبوي في نضارته الزاهية، فالله جل ذكره جمع بين كلمة ﴿أَسْلَمَ﴾ وكلمة الوجه، والنبي ﷺ فصَّل الأمرين، فجعل الإسلام للنفس، والتوجه للوجه، وهو ما تستفيده موجزًا من كلام الله، وتغتبط به مفصلًا من دعاء النبي ﷺ.

وقد ترجع السؤال مرة أخرى فتقول: ولماذا خص الوجه بالذكر؟

السبب أن العرب تعبر بذكر عضو محدد ليناسب المعنى الذي تقصده، فإذا أراد أحدهم أن يعبر عن شدة السيطرة المرعبة على آخر ذكر الناصية كما قال جل مجده: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ (العلق: ١٥)، وكذلك إذا أراد أن يبين أنه تمكن منه حتى تحكم بحركته البدنية تحته يقول: أخذت بساقه، وهنا عبر بالوجه لأن إسلام الوجه يدل على الانقياد الكامل، والاستسلام التام والتوجه الخالص، فالوجه أشرف أعضاء الإنسان، والوجه يواجه ما أمامه، وإسلام الوجه يدل على استسلام النفس لله وتحرك الوجه والبدن معه وفق نظامه وشرعه وأوامره، فيجعل العبد كل أفعاله ومرغوباته ومشتهياته وأهوائه لربه، فلو اكتفى بأن قال: وجهت إليك لكان ذلك دالا على حركة البدن دون بيان لإسلام النفس هل هو قائمٌ أم لا، ولكنه يدل على الحركة الاختيارية البدنية، ولذا ناسب ذلك أن يفتخر به سيدنا إبراهيم عليه السلام وهو يحاج قومه

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٩ / ١٧٤) برقم ٧٤٨٨.

في رب العالمين، فقال لهم: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام: ٧٩) كأنه يقول: عندما خُيِّرت بين أن أعبد الكواكب، أو أعبد الأصنام، أو أعبد رب السموات والأرض، اخترت أن أعبد رب السموات والأرض، وأن أجعل جسدي منقادًا له، لكن الله هنا يريد أن يبين الأمر الأجمع الأوضح في بيان انقياد العقل والقلب (النفس) وانقياد البدن الذي عبر عنه بالوجه فقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾.

فإسلام الوجه لله اقتضى المعنى الذي ذكرناه: استسلام النفس، وتوجه البدن إلى الله، غير أن هناك معنى ثانيًا، إذ إن إسلام الوجه لله يقتضي الإخلاص، فتنفي رغبتك ونظرك لغير ربك سبحانه وتعالى، وإسلام الوجه لله تنبيهٌ عَلَى أَنَّ كَمَالَ الإِيمَانِ لَا يَحْصُلُ إِلَّا عِنْدَ تَفْوِيضِ جَمِيعِ الأُمُورِ صغيرها وكبيرها إِلَى الخَالِقِ وَإِظْهَارِ التَّبَرِّي مِنَ الحَوْلِ وَالقُوَّةِ، وَأَيْضًا فَفِيهِ تَنْبِيهٌ عَلَى فَسَادِ طَرِيقَةِ مَنِ اسْتَعَانَ بِغَيْرِ اللَّه، فَإِنَّ المُشْرِكِينَ كَانُوا يَسْتَعِينُونَ بِالأَصْنَامِ وَيَقُولُونَ: هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّه، وَالدَّهْرِيَّةُ وَالطَّبِيعِيُّونَ يَسْتَعِينُونَ بِالأَفْلَاكِ وَالكَوَاكِبِ وَالطَّبَائِعِ وَغَيْرِهَا، وَاليَهُودُ كَانُوا يَقُولُونَ فِي دَفْعِ عِقَابِ الآخِرَةِ عَنْهُمْ: أَنَّهُمْ مِنْ أَوْلَادِ الأَنْبِيَاءِ، وَالنَّصَارَى كَانُوا يَقُولُونَ: ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ، فَجَمِيعُ الفِرَقِ قَدِ اسْتَعَانُوا بِغَيْرِ اللَّه[1]..

فإسلام الوجه لله الانقياد والإذعان من جهة، والإخلاص من جهة أخرى، بترك الاستعانة بالأوثان والطاغوت، وترك الاستعانة بالجنسية الدينية، إسلام الوجه لله يعني ألا تجعل بينك وبين الله وسائط ترائي من أجلهم، ولا تجعل بينك وبينه وسائط تدعوهم ليكونوا لك شفعاء.

وإسلام الوجه لله ينفي نوعي الشرك معًا شرك العبادة وشرك الرياء، فَمَنْ فقد

(١) انظر: تفسير الرازي (١١/ ٢٢٨).

الإخلاص كان مرائيًا منافقًا، والإخلاص ينافي انتظار النتيجة، بل المراد إيقاع الفعل، بغض النظر عن النتيجة.

الأساس الرابع:

الإحسان في إسلام الوجه لله، وذلك يعني إتقان العمل بمتابعة النبي ﷺ والاقتداء به، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾.

فالإحسان يقتضي أن يتقن أعماله، ويعبد الله كأنه يراه، والإحسان فوق العدل، فالعدل هو أن يعطي المرء ما عليه، والإحسان أن يعطي أكثر مما عليه، ليكون أحسن الخلق دينًا، أي: نظامًا ومنهجًا وطريقة، وأكثرهم اتقانًا للأعمال التي أسلم وجهه لله فيها، وحتى يكون محسنًا على الحقيقة فلا بد أن يتابع النبي ﷺ في حياته، ليصل إلى الإحسان الحقيقي، وإلا فقد يعمل خلاف فعل النبي ﷺ فيكون مسيئًا لا محسنًا.

فانظر لهذه الشروط الأربعة: إسلام الوجه لله الذي يعني: الصلة المباشرة دون وساطة، والانقياد البدني، وإسلام الوجه لله الذي يعني الإخلاص القلبي، والرابع الإحسان، فمن فقد التوجه المباشر ربما وقع في الشرك، ومن فقد الانقياد كان فاسقًا، ومَنْ فقد الإخلاص كان منافقًا مرائيًا، وَمَنْ فَقَدَ المُتَابَعَةَ كَانَ ضَالًّا جَاهِلًا مبتدعًا.

الأساس الخامس:

اتباع ملة أبي الأنبياء إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ (النساء:١٢٥).

ويذكر الله هذا القيد ﴿حَنِيفًا﴾ لإقامة الحجة على الوثنيين العرب، وعلى المفسدين المحرفين من العنصريين من اليهود والنصارى والمسلمين، فكلهم يزعم أنه يرجع إلى إبراهيم -عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام-:

فقَوْلُهُ ﴿حَنِيفًا﴾ إما أن يكون حَالًا لِلْمَتْبُوعِ، أي: اتبع أيها المخاطب ملة إبراهيم حال كون إبراهيم كان حنيفًا، وإما أَنْ يَكُونَ حَالًا لِلتَّابِعِ، أي: اتبع أيها المخاطب ملة إبراهيم حال كونك حنيفًا في اتباعك إياها، كَمَا إِذَا قُلْتَ: رَأَيْتُ رَاكِبًا، فَإِنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الرَّاكِبُ حَالًا لِلْمَرْئِيِّ وَالرَّائِي.. فما معنى هذه الصفة التي يثني عليها الله، ويثني على التابع والمتبوع إن كانت فيهما؟

والحنَف أَن تُقْبِلَ إِبْهامُ الرجْلِ اليُمْنَى على أُخْتِهَا من اليُسْرَى وأَنْ تُقْبِلَ الأُخْرَى إِلَيْها إِقْبَالًا شَدِيدا، وَأنْشد لِدَايَةِ الأَحْنفِ وَكَانَت ترقصُه وَهُوَ طِفْل:

وَالله لَــولاَ حَــنَــفٌ بــرِجْــلِــهِ مَا كَانَ فِي فِتْيَانِكُمْ مِنْ مِثْلِه[1]

هذا يعنى أن الحنف عيب خلقي في الرجلين بميلهما إلى الداخل وعدم استقامتهما، فهو اعْوِجَاجٌ فِي الرِّجْلِ إِلَى دَاخِلٍ، وَذَلِكَ يَكُونُ بِأَنْ تَتَدَانَى صُدُورُ قَدَمَيْهِ وَيَتَبَاعَدَ عَقِبَاهُ[2].

وعلى هذا المعنى درج كثير من اللغويين، وليوافقوا المدح للحنيفية ذكروا أن كلمة ﴿حَنِيفًا﴾ هنا تعني الميل عن الشر إلى الخير، وعن الضلال إلى الاستقامة، بينما الجنَفُ ميل عن الاستقامة إلى الضلال، ولعله يعضدهم أن الناس تأصل فيهم الضلال زمن إبراهيم عليه السلام، وكان هو الذي أوتي رشده، ولم يذكر أنه آمن معه إلا لوط عليه السلام، فصح أنه مال عن واقعهم الطاغي إلى النور الذي قذفه الله في قلبه.

ولعله يمكن القول بأن الحنف هو الاستقامة، فقد ذكر أبو منصور محمد بن أحمد الهروي (المتوفى: ٣٧٠هـ) في تهذيب اللغة رواية عن بعض أهل اللغة أَنه قَالَ الحنيف المُسْتَقيم، وَأنْشد:

---

(١) تهذيب اللغة (٥/ ٧١).

(٢) مقاييس اللغة (٢/ ١١٠).

تعلَّمْ أَن سيَهْدِيكُم إِلَيْنَا طريقٌ لَا يَجُورُ بِكم حَنِيفُ [١]

وهذا الذي أميل إليه أن الحنيف معناه المستقيم فلعلهم دعوا من في رجليه ميل بالأحنف تفاؤلًا كما أطلقوا على اللديغ السليم، وعلى المتاهة المفازة.

وهذه الآية ترد على من يكتفي بملة إبراهيم عليه السلام دون اتباع بقية الأنبياء، فالله بدأها بقوله: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ (النساء: ١٢٥) فلابد أن يسلم وجهه لله أولًا، ولا بد أن يحسن ثانيًا، ويتبع ملة إبراهيم عليه السلام ثالثًا، ومقتضى اتباع ملة إبراهيم أن يتبع سائر الأنبياء، ومنهم النبي الأمين صلى الله عليه وسلم كما قال جل ذكره في هذه السورة: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ (النساء: ١٦٣).

وهذا الأساس يبين فَضِيلَة الإِسْلَام؛ إذ إنَّ مُحَمَّدًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِنَّمَا دَعَا الخَلْقَ إِلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَلَقَدِ اشْتُهِرَ عِنْدَ كُلِّ الخَلْقِ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَّا إِلَى اللَّه تَعَالَى كما قال: ﴿وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (الأَنْعَام: ١٩) وَمَا كَانَ يَدْعُو إِلَى عِبَادَةِ فَلَكٍ وَلَا طَاعَةِ كَوْكَبٍ وَلَا سَجْدَةِ صَنَمٍ وَلَا اسْتِعَانَةٍ بِطَبِيعَةٍ، بَلْ كَانَ دِينُهُ الدَّعْوَةَ إِلَى اللَّه وَالإِعْرَاضَ عَنْ كُلِّ مَا سِوَى اللَّه، وَدَعْوَةُ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَدْ كَانَ قَرِيبًا مِنْ شَرْعِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام فِي الخِتَانِ وَفِي الأَعْمَالِ المُتَعَلِّقَةِ بِالكَعْبَةِ: مِثْلُ الصَّلَاةِ إِلَيْهَا، وَالطَّوَافِ بِهَا، وَالسَّعْيِ، وَالرَّمْيِ، وَالوُقُوفِ، وَالحَلْقِ، وَالكَلِمَاتِ العَشْرِ المَذْكُورَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ﴾ (البَقَرَة: ١٢٤) وَلَمَّا ثَبَتَ أَنَّ شَرْعَ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانَ قَرِيبًا مِنْ شَرْعِ إِبْرَاهِيمَ ثُمَّ إِنَّ

(١) تهذيب اللغة (٥/ ٧١).

شَرْعَ إِبْرَاهِيمَ مَقْبُولٌ عِنْدَ الكُلِّ، وَذَلِكَ لِأَنَّ العَرَبَ لَا يَفْتَخِرُونَ بِشَيْءٍ كَافْتِخَارِهِمْ بِالِانْتِسَابِ إِلَى إِبْرَاهِيمَ، وَأَمَّا اليَهُودُ وَالنَّصَارَى فَلَا شَكَّ فِي كَوْنِهِمْ مُفْتَخِرِينَ بِهِ، وَإِذَا ثَبَتَ هَذَا لَزِمَ أَنْ يَكُونَ شَرْعُ مُحَمَّدٍ مَقْبُولًا عِنْدَ الكُلِّ [١].

وذكر إبراهيم عليه الصلاة والسلام من أعظم الحجج على اليهود والنصارى والمسلمين ووثنيي العرب؛ إذ هم جميعًا ينتسبون إليه، وقد بين المنزلة السامقة التي وصل إليها إبراهيم في حنيفيته، فقال: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾، ويُبَصِّرُنا ذلك بأنه لا بد من إظهار الثناء التام على إبراهيم عليه السلام، فقد أثنى الله تعالى عليه هنا بأزكى ثناء يمكن أن يقال في مخلوق.

فالخليل مشتق من أَخَلَّ بك فلان، إذا أدخلَ عليك الضَّرورة، والخليلُ: الفقير الذي أصابته ضرورة في ماله، وغير ذلك، قال زهير:

وإن أتاه خليلٌ يومَ مسألةٍ يقولُ: لا غائب مالي ولا حَرَمُ

والخليلُ في هذا البيت: الذي أصابتهُ ضرورة (فهو) مفعولٌ رد إلى فَعيل، واخْتُلِلْتُ: افْتَقَرْتُ، واخْتَلَلْتُ إلى رؤيتك. أي: اشْتَقْتُ [٢] كأنك افتقرت إلى رؤيته، كما يسمى الحبيب خليلًا وَهُوَ مِنَ الخُلَّةِ - بِالضَّمِّ - إذا تخلل الود نفسه وخالطه فأكمله بأن سد خلله وخلته بتخلله له، لذا تراه يدخل في أسراره، وتبرأ نفسه عندما يخبره عن أخباره، ويتخلل اللقاء به نفسه فيمازجها، ويخالط خِلَالِ أَجْزَاءِ قَلْبِهِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ ذَلِكَ هُوَ الغَايَةُ فِي المَحَبَّةِ كقوله:

قدتخللت مسلك الروح مني وبه سمي الخليل خليلا

(١) انظر: تفسير الرازي (١١/ ٢٢٨).

(٢) العين (٤/ ١٤١).

وقال مصطفى صبري:

ولما التقينا قرب الشوق جهده شجيين فاضا لوعة وعتابا
كأن صديقًا في خلال صديقه تسرب أثناء العناق وغابا

ولهذا يقال تمازج روحانا، والمحبة البلوغ بالود إلى حبة القلب من قولهم: حببته إذا أصبت حبة قلبه [١]، أو يسمى الخليل خليلاً لشدة ملازمته أو مِنَ الخُلَّةِ، إذا تخلل الود نفسه، وخالطه، ولازمه، فأكمل ما يتخلله؛ لذا تراه يدخل في أسراره، وتبرأ نفسه عندما يخبره عن أخباره، فيتخلل أصغر مسائله، كما في قوله: ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ (النُّور:٤٣)، فالخُلَّةُ: الصُّحْبَة الخَالِصَة، التي لا يتخللها ما يضادها، بل يعرف ما يتخلله من أصغر المسائل كما في قوله: ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾ (الكَهْف: ٣٣)، والخُلَّةُ- بِضَمِّ الخَاءِ- الصُّحْبَةِ الخَالِصَةِ التي لا يتخللها ما يضادها، ويصفها الله في قوله تعالى: ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ (البَقَرَة: ٢٥٤)، وَجَمْعُهَا خِلَالٌ ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾ (إِبْرَاهِيم: ٣١).

فبوأ الله إبراهيم هذه المنزلة العليا باصطفائه خليلًا تكريمًا له، وإلا فهو غني عن الخلق جل في علاه، وذلك بعد أن أتم الكلمات التي ابتلاه الله بها، وهي مواضع اختبار حيوية خرج منها مرتقيًا ذروة النجاح، منها: أنه حارب أعظم ظلمٍ في الأرض وهو عِبَادَة الأَوْثَانِ، ثُمَّ سَلَّمَ نَفْسَهُ لِلنِّيرَانِ وَوَلَدَهُ لِلْقُرْبَانِ وَمَالَهُ لِلضِّيفَانِ جَعَلَهُ اللَّه إِمَامًا لِلْخَلْقِ وَرَسُولًا إِلَيْهِمْ [٢]، وذكروا من قصصه أنه أصابَ أهلَ ناحيته جدْبٌ، فارتحل إلى خليلٍ له من أهل الموصل، وقال بعضهم: من أهل مصر في امتيار طعام لأهله من قِبله، فلم يصب عنده حاجته. فلما قَرُب من أهله مرَّ بمفازة ذات رمل، فقال:

(١) انظر: المفردات في غريب القرآن ت كيلاني (ص: ١٥٣)، تفسير الرازي (١١/ ٢٣٠).
(٢) تفسير الرازي (١١/ ٢٣٠).

لو ملأت غرائري من هذا الرمل لئلا أغُمَّ أهلي برجوعي إليهم بغير مِيرَة، وليظنوا أنّي قد أتيتهم بما يحبون! ففعل ذلك، فتحوَّل ما في غرائره من الرمل دقيقًا، فلما صار إلى منزله نام. وقام أهله، ففتحوا الغرائر، فوجدوا دقيقًا، فعجنوا منه وخبزوا. فاستيقظ، فسألهم عن الدقيق الذي منه خبزوا، فقالوا: من الدقيق الذي جئت به من عند خليلك! فعلم، فقال: نعم! هو من خليلي الله! قالوا: فسماه الله بذلك ﴿خَلِيلًا﴾ (١).

وفي وصف إبراهيم عليه الصلاة والسلام بذلك حثٌّ لمن يزعم أنه على ملته من الفرق الأربع ليكون مستسلمًا لربه كما استسلم إبراهيم عليه السلام له في كل أحواله ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (البقرة: ١٣١) فالله تعالى جده اتخذه خليلًا للإشراق النفسي، والنور القلبي، والضياء العقلي الذي اتسم به إبراهيم فتخللت محبة الله جميع قواه، فاستسلم لربه جل في علاه حتى في ذبح ابنه ثم أعفاه من ذلك.. وما يزال يتقرب إلى الله كما قال الله تعالى في الحديث القدسي: «وما تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطُشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ» (٢).

ولله هذه المنزلة السامية، وهذه المحلة الرفيعة، وقد شعر بها بعض عوام المؤمنين المتدبرين، فعَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ أَنَّ مُعَاذًا رضي الله عنه، لَمَّا قَدِمَ اليَمَنَ صَلَّى بِهِمِ الصُّبْحَ فَقَرَأَ ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ: لَقَدْ قَرَّتْ عَيْنُ أُمِّ إِبْرَاهِيمَ (٣).

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٢٥١).

(٢) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٨ / ١٣١) رقم ٦٥٠٢ .

(٣) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٥ / ٢٠٦) رقم ٤٣٤٨ .

وزعم وَهْب بن منبه أن إبراهيم أخذه الحياء والإخبات عندما علم أن الله اتخذه خليلًا، فقَالَ: لَمَّا اتَّخَذَ اللهُ عزَّ وجلَّ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا كَانَ يُسْمَعُ خَفَقَانُ قَلْبِهِ مِنْ بُعْدٍ، خَوْفًا لِلَّهِ عزَّ وجلَّ [١]

وقد اتخذ الله محمدًا ﷺ خليلًا كما اتخذ إبراهيم خليلًا فعن جُنْدَب رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيّ ﷺ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ وَهُوَ يَقُولُ: «إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لاَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، أَلاَ وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ أَلاَ فَلاَ تَتَّخِذُوا القُبُورَ مَسَاجِدَ إِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ» [٢].

الأساس السادس:

اليقين بملك الله الكامل للكون، وإحاطته التامة العامة علمًا، وقدرة به، ليحاسب ويحكم، وليستبين أن اتخاذ الله إبراهيم خليلًا للتكريم لا للحاجة، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطًا﴾ (النساء:١٢٦).

وجاءت هذه الآية في موضعها المناسب:

أما أولًا: فلأن الله جل وعلا ذكر أنه اتخذ إبراهيم خليلًا، لطاعته ربَّه، وإخلاصه العبادة له، والمسارعةِ إلى رضاه ومحبته، لا من حاجةٍ به إليه وإلى خُلَّته، وكيف يحتاج إليه وإلى خلَّته، وله ما في السموات وما في الأرض من قليل وكثير، كما قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ (مريم: ٩٣) ﴿لَّن يَسۡتَنكِفَ

(١) المجالسة وجواهر العلم (١ / ٣٣١).

(٢) صحيح مسلم (٢ / ٦٧) رقم ٥٣٢.

﴿ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ (النِّسَاءِ: ١٧٢)، فاتِّخَاذَ اللَّه إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَلِيلًا لا يُخْرِجُهُ عَنْ عُبُودِيَّةِ اللَّه، فكأنه يقول: فكذلك فسارعوا إلى رضايَ ومحبتي لأتخذكم لي أولياء [١]، فيبين الله لك أنه اتخذ إبراهيم خليلاً ليس لحاجته جل وعلا بل كان ذلك تعظيمًا له، وبيانًا لمكانته في البشرية.

وأما ثانيًا[٢]: أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا ذَكَرَ الوَعْدَ وَالوَعِيدَ وَلاَ يُمْكِنُ الوَفَاءُ بِهِمَا إِلاَّ عِنْدَ حُصُولِ **ثلاثة أمور**:

أَحَدُهُمَا: الملك التام ودلَّ عليه بقول: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾

وَالثَّانِي: القُدْرَةُ التَّامَّةُ العظيمة ليحاسب الخلق على كل التفاصيل الحيوية.

والثالث: العِلْمُ التَّامُّ المُتَعَلِّقُ بِجَمِيعِ الجُزْئِيَّاتِ وَالكُلِّيَّاتِ حَتَّى لَا يُشْتَبَهَ عَلَيْهِ المُطِيعُ وَالعَاصِي وَالمُحْسِنُ وَالمُسِيءُ، ودل على القدرة التامة والعلم التام بِقَوْلِهِ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾، والإِحَاطَةُ قد تكون بالعِلْمِ، وقد تكون بِالقُدْرَةِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ (الفَتْحِ: ٢١).. وبذا يتساقط ركام الفلسفات المنحطة التي بعضها ينفي وجود الله، وبعضها يقر بوجوده لكن يثبت له الخلق لا الملك، وبعضها يثبت له الملك لا الحكم، وبعضها يثبت له الحكم لا إحاطة العلم والقدرة.

لاحظ قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فلم يقل: ولله ملك السماوات.. ما سبب ذلك؟ لأن هذه العبارة تدل على الملك التام والإحاطة الكاملة علمًا وقدرة وحكمًا للسموات والأرض ومن فيهن، فيحكم ويحاسب، وهذا العلم

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٢٥٢).

(٢) انظر: تفسير الرازي (١١/ ٢٣٢).

يورث الافتقار إلى الله، ويحرك كوامن الإنسان للسعي في مرضاته، وذلك عند شعور المرء بتوحيد الله من خلال الملك والهيمنة والفعل والتأثير والبناء والخلق والإحاطة والتغيير.. كل ذلك لله، كما قال الطحاوي: واحد لا شريك له، ولا شيء مثله، ولا شيء يعجزه ولا إله غيره، قديم بلا ابتداء، دائم بلا انتهاء، لا يفنى ولا يبيد، ولا يكون إلا ما يريد، لا تبلغه الأوهام، ولا تدركه الأفهام ولا يشبه الأنام، حي لا يموت قيوم لا ينام، خالق بلا حاجة، رازق بلا مؤنة، مميت بلا مخافة باعث بلا مشقة.

ولما كان يوم أحد وانكفأ المشركون قال رسول الله ﷺ: «اسْتَوُوا حَتَّى أُثْنِيَ عَلَى رَبِّي»، فَصَارُوا خَلْفَهُ صُفُوفًا، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ كُلُّهُ، اللَّهُمَّ لاَ قَابِضَ لِمَا بَسَطْتَ، وَلاَ بَاسِطَ لِمَا قَبَضْتَ، وَلاَ هَادِيَ لِمَا أَضْلَلْتَ، وَلاَ مُضِلَّ لِمَنْ هَدَيْتَ، وَلاَ مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلاَ مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلاَ مُقَرِّبَ لِمَا بَاعَدْتَ، وَلاَ مُبَاعِدَ لِمَا قَرَّبْتَ، اللَّهُمَّ ابْسُطْ عَلَيْنَا مِنْ بَرَكَاتِكَ وَرَحْمَتِكَ وَفَضْلِكَ وَرِزْقِكَ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ النَّعِيمَ المُقِيمَ الَّذِي لاَ يَحُولُ وَلاَ يَزُولُ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ النَّعِيمَ يَوْمَ العَيْلَةِ وَالأَمْنَ يَوْمَ الخَوْفِ، اللَّهُمَّ إِنِّي عَائِذٌ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا أَعْطَيْتَنَا وَشَرِّ مَا مَنَعْتَ، اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الإِيمَانَ وَزَيِّنْهُ فِي قُلُوبِنَا، وَكَرِّهْ إِلَيْنَا الكُفْرَ، وَالفُسُوقَ، وَالعِصْيَانَ، وَاجْعَلْنَا مِنَ الرَّاشِدِينَ، اللَّهُمَّ تَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ، وَأَحْيِنَا مُسْلِمِينَ، وَأَلْحِقْنَا بِالصَّالِحِينَ غَيْرَ خَزَايَا وَلاَ مَفْتُونِينَ، اللَّهُمَّ قَاتِلِ الكَفَرَةَ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ رُسُلَكَ، وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِكَ، وَاجْعَلْ عَلَيْهِمْ رِجْزَكَ وَعَذَابَكَ، اللَّهُمَّ قَاتِلِ الكَفَرَةَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ إِلَهَ الحَقِّ»[1].

وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أنه أتى النبي ﷺ فقال: بينما أنا أصلي إذ سمعت

(١) أحمد(٣ / ٤٢٤) برقم ١٥٥٣١،وقال الأرناؤوط: رجاله ثقات عبيد الله بن عبد الله الزرقي إنما هو عبيد بن رفاعة وهم في اسمه هنا مروان بن معاوية الفزاري وقد جاء عنه على الجادة من طرق أخرى.. ولد في حياة النبي ﷺ وروى عنه جمع ووثقه العجلي والذهبي وذكره ابن حبان في الثقات، وصححه الألباني في تعليقه على الأدب المفرد.

متكلمًا يقول: «اللهم لك الحمد كله، ولك الملك كله، بيدك الخير كله، إليك يرجع الأمر كله علانيته وسره، فأهل أن تحمد، إنك على كل شيء قدير. اللهم اغفر لي جميع ما مضى من ذنبي، واعصمني فيما بقى من عمري، وارزقني عملًا زاكيًا ترضى به عنى» فقال النبي ﷺ: «ذاك ملك أتاك يعلمك تحميد ربك» (١).

وذكر الله هذه الصفات له؛ لتكون من أسس إتقان الأعمال؛ للنجاة من خطة الشيطان المريد، وليعلم أن الله اتخذ إبراهيم خليلًا لتكريمه، لا لأنه سبحانه يحتاج إليه، فله ما في السماوات وما في الأرض من قليل وكثير؛ وبذا يتساقط ركام الفلسفات المنحطة، التي بعضها ينفي وجود الله، وبعضها يقر بوجوده، لكن يثبت له الخلق لا الملك، وبعضها يثبت له الملك لا الحكم، وبعضها يثبت له الحكم لا إحاطة العلم والقدرة.



(١) أحمد(٥ / ٣٩٥) برقم ٢٣٤٠٣، وقال الأرناؤوط: إسناده ضعيف لإبهام الراوي عن حذيفة.

القسم الخامس

من أهم أسس القسط في الواقع الإنساني: تطبيق فتاوى الانتصار الحقوقي، والقضائي للنساء والأطفال (النساء:١٢٧)

آية هذا القسم:

﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴾ (النساء:١٢٧).

المناسبة والاتصال:

ذكر الله القوانين الأساسية للقضاء التي تنصف المظلومين، وتفضح الظالمين في القسم الأول، وأما في القسم الثاني ففصل القوانين المنظمة لإنشاء المؤسسات وإقامة جهود التناجي التي تساعد على نشر القسط في المجتمع، وكشف مؤسسات التناجي المتآمرة بالسوء وحذر في المقابل في القسم الثالث من الأهداف الشيطانية التي تساعد الجهود الجماعية الشيطان على تحقيقها؛ إذ تؤدي إلى الظلم الجماعي، وأوضح لنا في القسم الرابع أساس القسط في الحقوق الحيوية، والفصل القضائي، وأسس النجاة من الخطة الشيطانية، والفوز بنعيم الاصطفاء الإلهي، وبعد هذا التطواف المتنوع الذي تثبت قوانينه القسط في العالم، كان لا بد من اختصاص الفئات المستضعفة في المجتمعات بمزيد عناية، فها هو -تعالى مجدُه- يبين بصورةٍ مفصلة

ضرورة الانتصار الحقوقي للفئات المستضعفة، وتحصين الأسرة من استغلال الرجال والأقوياء فذكر حقوق النساء والأطفال، لئلا يكونوا عرضة للاستغلال من قبل الأقوياء والرجال، ولئلا يكونوا منطقة رخوة، ينفذ من خلالها المفسدون في الأرض ممن يحقق أهداف الخطة الشيطانية المريدة، ولئلا يستطيع الرجال غلبتهم والتلاعب بحقوقهم القضائية، فأفتى العالم بالفتاوى الآتية التي توجه العدالة إلى مسارها الصحيح:

الفتوى الأولى: التشريعات الإلهية تنظم الحياة لتكون قوية فتية، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ﴾ أي: يطلبون فتواك، والفتوى طلب القوة والشدة التي تكون في الفتيِّ من الإبل، فتزيل الإشكال، وتواكب الأحداث بما يناسبها من التشريعات والأقوال.

يطلبون فتواك في مسائلهم الحيوية؛ لماذا سماها فتوى ولم يسمها سؤالًا كما في آيات الأسئلة؟

لأن الشرع يحرك تفكيرهم لمعرفة الفتاوى الإلهية في الحياة، فالسؤال يكون عن شيءٍ ابتدائيٍّ، أما الفتوى فهي طلب القوة والشدة التي تكون في الفتيِّ من الإبل والفتى من الشباب، فكأن هناك أمرًا أشكل فأريد إزالة إشكاله، وكأن العلاقة بين الفتى الذي بمعنى الطري من الشباب والفتوى التجدد والحيوية ومواكبة أحداث الحياة على نحوٍّ غضٍّ نضر، فَالفَتَاءُ: الشَّبَابُ، يُقَالُ فَتًى بَيِّنُ الفَتَاءِ، قَالَ الشاعر:

إِذَا عَاشَ الفَتَى مِائَتَيْنِ عَامًا فَقَدْ ذَهَبَ البَشَاشَةُ وَالفَتَاء [1]

وترى في هذه الآية التجدد في الأسلوب القرآني في عرض القضايا:

(١) مقاييس اللغة (٤/ ٤٧٤).

إذ يتسم عرض القضايا في الكتاب الكريم بالتنوع والتجدد، فيعرض القضايا على أحسن وجهٍ، وأجمل نظام ليكون التأثير التربوي أقوى، ولتتكاثر المعاني التي تهطل من جهةٍ واحدة، ويتألق الرازي ﷺ في ملاحظة ذلك فيبين أن الله يَذْكُرُ شَيْئًا مِنَ الأَحْكَامِ، ثُمَّ يَذْكُرُ عَقِيبَهُ آيَاتٍ كثيرة في الوعد والوعيد وَالتَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ، وَيَخْلِطُ بِهَا آيَاتٍ دَالَّةً عَلَى كِبْرِيَاءِ اللَّه وَجَلَالِ قُدْرَتِهِ وَعَظَمَةِ إِلَهِيَّتِهِ، ثُمَّ يَعُودُ مَرَّةً أُخْرَى إِلَى بَيَانِ الأَحْكَامِ، فقوله: ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ ﴾ هنا عُطِفَ تَشْرِيعٌ عَلَى إِيمَانٍ وَحِكْمَةٍ وَعِظَةٍ، وَهَذَا أَحْسَنُ أَنْوَاعِ التَّرْتِيبِ وَأَقْرَبُهَا إِلَى التَّأْثِيرِ فِي القلوب، لِأَنَّ التَّكْلِيفَ بِالأَعْمَالِ الشَّاقَّةِ لَا يَقَعُ فِي مَوْقِعِ القَبُولِ إِلَّا إِذَا كَانَ مَقْرُونًا بِالوَعْدِ وَالوَعِيدِ، وَالوَعْدُ وَالوَعِيدُ لَا يُؤَثِّرُ فِي القَلْبِ إِلَّا عِنْدَ القَطْعِ بِغَايَةِ كَمَالِ مَنْ صَدَرَ عَنْهُ الوَعْدُ وَالوَعِيدُ، فَظَهَرَ أَنَّ هَذَا التَّرْتِيبَ أَحْسَنُ التَّرْتِيبَاتِ اللَّائِقَةِ بِالدَّعْوَةِ إِلَى الدِّينِ الحَقِّ[1].

الفتوى الثانية: يجب أن يكون المجتمع حيًّا ناميًا، من خلال الإكثار من الاستفتاء حول كيفية أرشد التشريعات التي يدير الدين بها الحياة، وخاصة في إنصاف الفئات التي تتلاعب بها القوانين الجاهلية، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ ﴾ (النساء:١٢٧).

فالفعل المضارع يُبَصِّرُنا بأن مجتمع الصحابة كان نابضًا بالحياة يكثر الاستفتاء ليستطيع قيادة الحياة وفق المنهاج التشريعي الإلهي، ومنح النساء الدور القوي الذي يبنين من خلاله الحياة.

ولعل كلمة (فتوى) جاءت من ذلك؛ إذ سبق أنها تدل على الحيوية والفتوة، والفعل المضارع يدل على مدى عبقرية مجتمع الصحابة وحيويته، ويدل على رغبتهم في مطابقة أحوالهم للأحكام التي ينتظرونها بلهفة في القرآن الكريم أو في

(١) تفسير الرازي (١١/ ٢٣٢).

السنة النبوية، فكانوا يستفتون؛ للتطبيق لا للتزود العلمي الثقافي، والِاسْتِفْتَاءُ: طَلَبُ الفَتْوَى، وهي: إِظْهَارُ المشْكِلِ، مِنَ الفَتَى، وَهُوَ الشَّابُّ القوي الكامل، فكأن المعْنَى المبين للمشكلات يقوي السائل والمجتمع عند ظهوره، كما قَالَ تَعَالَى ذكره: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا﴾ (يُوسُفَ:٤٦)، وهذه اليقظة وهذه الرغبة في مطابقة أحوالهم لأحكام الإسلام، هي «العنصر البارز في هذه الفترة- على الرغم من بقاء بعض رواسب الجاهلية في حياتهم- فالمهم هو رغبتهم الحقيقية القوية في مطابقة أحوالهم لأحكام الإسلام والاستفسار عن بعض الأحكام بهذه الروح، لا لمجرد الاستفتاء ولا لمجرد العلم والمعرفة والثقافة!.

لقد كانت بالقوم حاجة إلى معرفة أحكام دينهم، لأنها هي التي تكوّن نظام حياتهم الجديد وكانت بهم حرارة لهذه المعرفة؛ لأن الغرض منها هو إيجاد التطابق بين واقع حياتهم وأحكام دينهم» [(١)].

والآية تبصرك أن الله افتتح الآية بقاعدةٍ عامة، وختمها بقاعدة عامة، وفي الوسط ذكر حقوق أربعة أصناف من الذين تقوم القوى المستكبرة بالتلاعب بحقوقهم: الصنف الأول: النساء، والصنف الثاني: يتامى النساء خصوصًا، والصنف الثالث: الأطفال وسماهم المستضعفين من الولدان ليحرك العاطفة نحوهم أكثر، والرابع: اليتامى عمومًا، فَيكون المعنى: وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي أَحْكَامِ النِّسَاءِ؛ إِذْ قَدْ عُلِمَ أَنَّ الِاسْتِفْتَاءَ لا يَتَعَلَّقُ بالذَّوَاتِ، فَهُوَ مِثْلُ قَوْلِهِ:﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ (النِّسَاء: ٢٣)[(٢)]، وأهم الأحكام المتعلقة بالنساء: ما تعلق بحقوقهن الخاصة، والمعاملة لهن، ومعاشرتهن، والقيام على احتياجاتهن.

(١) في ظلال القرآن (٢/ ٧٦٥).

(٢) التحرير والتنوير (٥/ ٢١٢).

وكان الجاهليون قبل الإسلام ينظرون إلى المرأة نظرة دونية سواء أكانوا من الفرس أم من الروم أم من العرب، فلما جاء الإسلام ونهض بهم وارتقى بعقولهم، صاروا يبحثون عن أحكام النساء حتى لا يقعوا أسرى للتصرف الجاهلي.

الفتوى الثالثة: تحديد الطبيعة الوجودية للنساء يعود إلى الله الخالق، وليس إلى الاجتهادات البشرية، والتجارب الإنسانية المتخبطة التي تخطئ وتصيب، وتنجح وتخيب، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ﴾ (النساء:١٢٧).

حتى لا يصبحن ورقة للعبث، والتلاعب، وتضييع حقوقهن، ويظهر من ذلك استمرار الرعاية الإلهية للمصالح البشرية، وبذا يجب على البشرية الاهتمام بإجلال البيان الإلهي، والبحث عن معاني كلماته؛ لتطبيقه:

فوعد بإجابتهم عما يحتارون، أو يتخبطون في التعامل معه، وتدل الآية على مقدار تحري المجتمع الموفق لمواقع العدل في التعامل بين فئاته، فلم يبق الصحابة في سجن القوانين، والأعراف الجاهلية الظالمة.

فالله سبحانه هو الذي تولى هذا الموضوع في الفتيا لتزيدوا تعظيم ما يتعلق بذلك، ولعل من أسباب ذلك أن الكلام هنا هو عن العلاقات الزوجية، من حيث خوف المرأة من زوجها ونشوزه، فماذا تفعل؟ عند ذلك سيذكر الله لها ماذا تصنع؟ ولأن الرجل هو الأقوى جسديًا وفيزيائيًا في الغالب والعرف المجتمعي ربما خافت المرأة منه أن يفرط عليها أو أن يطغى، فأراد الله سبحانه وتعالى أن يؤكد على أنه جل ثناؤه هو ضبط العلاقات بين الجنسين، لذا قال الله تعالى اسمه: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ﴾ ولم يقل: أفتهم يا رسول الله وقل لهم كذا وكذا، فهذا وَعْدٌ بِاسْتِيفَاءِ الإِجَابَةِ عَنِ الِاسْتِفْتَاءِ، وَهُوَ ضَرْبٌ مِنْ تَبْشِيرِ السَّائِلِ الْمُتَحَيِّرِ بِأَنَّهُ قَدْ وَجَدَ طِلْبَتَهُ،

وَذَلِكَ مِثْلُ قَوْلِهِمْ: عَلَى الخَبِيرِ سَقَطْتَ [١]، وذكر أن الله هو الذي يفتي البشرية في النساء يدل على أن موضوع تحديد الطبيعة الوجودية للنساء حقوقًا وواجباتٍ يعود إلى الله تعالى وليس إلى الاجتهادات البشرية، والتجارب الإنسانية التي تخطئ وتصيب، وتنجح وتخيب، فهذا أمر عام يشمل جميع ما شرع الله أمرًا ونهيًا في حق النساء، الزوجات وغيرهن، الصغار والكبار، كما أن ذلك يتضمن لفتة لها قيمتها التي لا تقدر، في عطف الله سبحانه، وتكريمه للجماعة المسلمة وهو يخاطبها بذاته ويرعاها بعينه ويفتيها فيما تستفتي، وفيما تحتاج إليه حياتها الجديدة[٢].

فقد كانت الهزة التي أحدثتها النقلة من الجاهلية إلى الإسلام في نفوسهم هزة عميقة، بحيث أصبحوا يشكون ويشفقون من كل أمر كانوا يأتونه في الجاهلية، مخافة أن يكون الإسلام قد نسخه، أو عدله، ويتطلبون أن يعرفوا حكم الإسلام في كل ما يعرض لهم في حياتهم اليومية من الشؤون، وهذه اليقظة وهذه الرغبة في مطابقة أحوالهم لأحكام الإسلام، هي العنصر البارز في هذه الفترة- على الرغم من بقاء بعض رواسب الجاهلية في حياتهم- فالمهم هو رغبتهم الحقيقية القوية في مطابقة أحوالهم لأحكام الإسلام، وهنا نجد جزاء تطلعهم لله، وجزاء حرارتهم، وصدق عزيمتهم على الاتباع.. نجد جزاء هذا كله عناية من الله ورعاية.. بأنه سبحانه- بذاته العلية- يتولى إفتاءهم فيما يستفتون فيه[٣].

ففصل الله ما يتعلق بالتعامل معهن في مسائل الإرث، والزواج، والمعاشرة، والحقوق الزوجية، والقضايا الحيوية، فعن ابن عباس قال: كان أهل الجاهلية لا

(١) التحرير والتنوير (٥/ ٢١٢).

(٢) في ظلال القرآن (٢/ ٧٦٦).

(٣) في ظلال القرآن (٢/ ٧٦٥).

يورِّثون المولود حتى يكبر، ولا يورِّثون المرأة، فلما كان الإسلام، قال: ﴿ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم في الكتاب﴾ في أول السورة، في الفرائض اللاتي لا تؤتونهن ما كتب الله لهن [١].

الفتوى الرابعة: يجب رعاية يتامى النساء خصوصًا، وإقامة المؤسسات التي ترعى حقوقهن، والتماس التفصيل الإلهي حولهن في الكتاب، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ (النساء:١٢٧).

وهذه الآية معجزة تشريعية، فانظر كم عدد يتيمات الحروب، والتهجير، والعبث الاجتماعي في الأرض، في عصر الشقاء العالمي الذي نعيش فيه:

فقَوْلُهُ: ﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾، عُطِفَ عَلَى اسْمِ الجَلَالَةِ؛ ليتم تعظيم الكتاب، بجعله كتاب تشريع للحياة البشرية، أَيْ: يفتيكم الله، وَيُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي القرآن؛ ويمكن أن يكون المعنى: قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ بِمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الكِتَابِ، كقولك: أعجبني زيد وكرمه، أي: ستجدون زوال الإشكال الذي طرأ عندكم فيما يخبركم الله به من فتوى عندما تجمعونه إلى ما سبق لكم مما يتلى عليكم، ولعمر الحق إن هذا التقنين في البحث عن حكم القوي المتين جل جلاله من أعظم ما يزيل الخلاف في كثيرٍ من المسائل، ويُقَزِّم دعوى الغالين في النسخ الأصولي المتأخر، فما يبرحون يجدون آية لا يطيلون التأمل فيها حتى يحكموا بالنسخ عليها كأنها لم تنزل لتحكم الحياة على امتدادات الأزمنة..

ويجوز أن يكون ﴿مَا يُتْلى عَلَيْكُمْ﴾ مبتدأ و﴿فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ خبره على أنها جملة معترضة، والمراد بالكتاب اللوح المحفوظ تعظيمًا للمتلو عليهم، وتعظيمًا للعدل

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٢٥٣).

والنصفة في حقوق اليتامى من عظائم الأمور المرفوعة الدرجات عند اللَّه التي تجب مراعاتها والمحافظة عليها، والمخل بها ظالم متهاون بما عظمه اللَّه. ونحوه في تعظيم القرآن: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ (الزُّخْرُفِ: ٤)، وليس بسديد عند الزَّجَّاج والزمخشري أن يعطف على المجرور في:﴿فِيهِنَّ﴾، لاختلاله من حيث اللفظ والمعنى[١]، وما استبعداه الإمامان الجليلان غير بعيد فقد جعله الطبري أحد الوجوه المعتبرة، ومعنى الآية: قل الله يفتيكم، أيها الناس، في النساء، وفيما يتلى عليكم في الكتاب، وفي المستضعفين من الولدان، وفي أن تقوموا لليتامى بالقسط[٢]، ويكون المعنى يفتيكم فيهن وفيما يتلى عليكم في الكتاب، أي: يفصله لكم ويبينه بيانًا لا تحتاجون معه بعد ذلك إلى الاستفتاء.

وقوله: ﴿ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ تبصرنا بوجوب الإقساط ليتامى النساء في كل الحالات؛ إذ قد يتعرضن لأنواعٍ من الظلم منها:

الأول: بخس الوصي عليها حقها وظلمها بأكل مالها الذي لها أو بعضه.

الثاني: منعها من التزوج لينتفع بمالها، خوفًا من استخراجه من يده إنْ زوَّجها.

الثالث: يأخذ من مهرها الذي تتزوج به بشرط أو غيره، هذا إذا كان راغبًا عنها.

الرابع: يرغب فيها وهي ذات جمال ومال ولا يقسط في مهرها، بل يعطيها دون ما تستحق.

فكل هذا ظلم يدخل تحت هذا النص، ولهذا قال: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ أي: ترغبون عن نكاحهن لدمامتهن، أو ترغبون في نكاحهن لجمالهن ومالهن، وقد

(١) تفسير الزمخشري (١/ ٥٧٠)، تفسير الرازي (١١/ ٢٣٣).

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٢٥٩).

ترغبون في نكاح بعضهن وترك بعضهن، أو لهما معًا، أو ترغبون في جعلهن تجارة لتحقيق أهدافكم الشخصية، فاحذروا من ذلك كله، فحذف حرف الجر ليحتمل الكلام كل ذلك، فَإِنَّ فِعْلَ رَغِبَ يَتَعَدَّى بِحَرْفِ (عَنْ) لِلشَّيْءِ الَّذِي لَا يُحَبُّ وَبِحَرْفِ (فِي) لِلشَّيْءِ المَحْبُوبِ [١]، على أن كلمة ﴿تَنكِحُوهُنَّ﴾ لا تقتضي بالضرورة أن يكون المخاطب هو الطالب للنكاح، بل يتعدى الأمر إلى أن يكون وسيطًا في النكاح؛ إذ الكلمة تحتمل ذلك، وبذا يمكن أن تشعر:

بنوعٍ خامسٍ من الظلم، وهو: أن تستغلوهن ليكن سلعة في أيديكم تتاجرون بنكاحهن على الناس لرغبتهم فيهن إما لمالهن أو لجمالهن أو لهما معًا.

فانظر كيف جمعت هذه الكلمات كل هذا الثراء في المعاني، وتلك البلاغة رابضة في عروشها العالية حيث لا يصل إليها إلا كلام العزيز المتعالي.

وتحدثنا عائشة ﵂ عن صورة من أهم الصور الداخلة في هذه الجملة فتقول: هذا في اليتيمة تكون عند الرجل، لعلها أن تكون شريكتَه في ماله، وهو أولى بها من غيره، فيرغب عنها أن ينكحها ويعضُلها لمالها، ولا يُنكحها غيره كراهيةَ أن يشركه أحد في مالها [٢].

وتبين عائشة ﵂ في تفسيرها للآية شمول الآية لمعنى القسط لليتيمة سواء أكانت مرغوبة أم نفر عنها الناس في الزواج، فعن عُرْوَة بْن الزُّبَيْرِ أنه سَأَلَ عَائِشَةَ، ﵂، ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ قَالَتْ: هِيَ اليَتِيمَةُ فِي حَجْرِ وَلِيِّهَا فَيَرْغَبُ فِي جَمَالِهَا وَمَالِهَا، وَيُرِيدُ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا بِأَدْنَى مِنْ سُنَّةِ نِسَائِهَا، فَنُهُوا عَنْ نِكَاحِهِنَّ إِلاَّ أَنْ يُقْسِطُوا لَهُنَّ فِي إِكْمَالِ الصَّدَاقِ، وَأُمِرُوا بِنِكَاحِ مَنْ سِوَاهُنَّ

(١) التحرير والتنوير (٥/ ٢١٣).

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٢٥٤).

مِنَ النِّسَاءِ، وفي رواية قالت عَائِشَةَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾ قَالَتْ: أُنْزِلَتْ فِي الرَّجُلِ تَكُونُ لَهُ اليَتِيمَةُ وَهُوَ وَلِيُّهَا وَوَارِثُهَا، وَلَهَا مَالٌ وَلَيْسَ لَهَا أَحَدٌ يُخَاصِمُ دُونَهَا، فَلاَ يُنْكِحُهَا لِمَالِهَا، فَيَضُرُّ بِهَا وَيُسِيءُ صُحْبَتَهَا فَقَالَ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ يَقُولُ: مَا أَحْلَلْتُ لَكُمْ وَدَعْ هَذِهِ الَّتِي تَضُرُّ بِهَا[١].

قَالَتْ عَائِشَةُ: ثُمَّ اسْتَفْتَى النَّاسُ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعْدُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ قَالَتْ: فَبَيَّنَ اللَّهُ فِي هَذِهِ أَنَّ اليَتِيمَةَ إِذَا كَانَتْ ذَاتَ جَمَالٍ وَمَالٍ رَغِبُوا فِي نِكَاحِهَا وَلَمْ يُلْحِقُوهَا بِسُنَّتِهَا بِإِكْمَالِ الصَّدَاقِ، فَإِذَا كَانَتْ مَرْغُوبَةً عَنْهَا فِي قِلَّةِ المَالِ وَالجَمَالِ تَرَكُوهَا وَالتَمَسُوا غَيْرَهَا مِنَ النِّسَاءِ قَالَ: فَكَمَا يَتْرُكُونَهَا حِينَ يَرْغَبُونَ عَنْهَا فَلَيْسَ لَهُمْ أَنْ يَنْكِحُوهَا إِذَا رَغِبُوا فِيهَا إِلاَّ أَنْ يُقْسِطُوا لَهَا الأَوْفَى مِنَ الصَّدَاقِ وَيُعْطُوهَا حَقَّهَا[٢].

وفي لفظ: فَأَنْزَلَ اللَّهُ لَهُمْ أَنَّ اليَتِيمَةَ إِذَا كَانَتْ ذَاتَ جَمَالٍ وَمَالٍ رَغِبُوا فِي نِكَاحِهَا وَنَسَبِهَا فِي إِكْمَالِ الصَّدَاقِ، وَإِذَا كَانَتْ مَرْغُوبَةً عَنْهَا فِي قِلَّةِ المَالِ وَالجَمَالِ تَرَكُوهَا وَأَخَذُوا غَيْرَهَا مِنَ النِّسَاءِ قَالَتْ فَكَمَا يَتْرُكُونَهَا حِينَ يَرْغَبُونَ عَنْهَا فَلَيْسَ لَهُمْ أَنْ يَنْكِحُوهَا إِذَا رَغِبُوا فِيهَا إِلاَّ أَنْ يُقْسِطُوا لَهَا وَيُعْطُوهَا حَقَّهَا الأَوْفَى فِي الصَّدَاقِ[٣].

وفي رواية قالت: فِي قَوْلِهِ ﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ قَالَتْ: أُنْزِلَتْ فِي اليَتِيمَةِ تَكُونُ عِنْدَ الرَّجُلِ فَتَشْرَكُهُ فِي مَالِهِ فَيَرْغَبُ عَنْهَا أَنْ يَتَزَوَّجَهَا وَيَكْرَهُ أَنْ يُزَوِّجَهَا غَيْرَهُ فَيَشْرَكُهُ فِي مَالِهِ فَيَعْضِلُهَا فَلاَ يَتَزَوَّجُهَا وَلاَ يُزَوِّجُهَا غَيْرَهُ[٤].

---

(١) مسلم (٨ / ٢٤٠) رقم ٣٠١٨ .

(٢) البخاري – ترقيم فتح الباري (٤ / ١١) رقم ٢٧٦٣ .

(٣) البخاري – ترقيم فتح الباري (٧ / ١٠)، رقم ٥٠٩٢ .

(٤) مسلم (٨ / ٢٤٠) رقم ٣٠١٨ .

وجاء رجل إلى علي بن أبي طالب ﷺ فقال: يا أمير المؤمنين، ما أمري وما أمرُ يتيمتي؟ قال: في أيّ بالكما؟ قال: ثم قال علي: أمتزوّجها أنت غنيةً جميلةً؟ قال: نعم، والإله! قال: فتزوّجها دميمة لا مال لها! ثم قال علي: خِرْ لها فإن كان غيرك خيرًا لها فألحقها بالخير [١].

فانظر كيف جاءت الشريعة القرآنية بإنصاف المرأة، وإعزازها أمام التقاليد والتشريعات الجاهلية القديمة والمعاصرة عندما يتعدى الولي عليها لتصاب منه بطمعه في مالها، وغبنه لها في مهرها- إن هو تزوجها-، وحبسها عن الزواج إن كره الزواج منها حبًا لمالها.

الفتوى الخامسة: يجب رعاية حقوق الأطفال؛ إذ هم مستضعفون لا يستطيعون أن يقاوموا عواصف الحياة منفردين، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ﴾.

فالواو معطوفةٌ على أي شيء؟ يمكن القول بأن المعنى: وأوصيكم بالمستضعفين من الولدان أو ﴿ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ وفي المستضعفين من الولدان، وكثير من المفسرين يميلون إلى أنها معطوفة على قوله: ﴿يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ وفي المستضعفين من الولدان، فهذا هو الصنف الثالث من الأصناف التي أراد الله سبحانه وتعالى بيان حقوقها، لئلا تضطهد أو تظلم أو تغبن في حقوقها، فتبصرنا بوجوب القيام على رعاية الأطفال؛ إذ هم مستضعفون لا يستطيعون أن يقاوموا عواصف الحياة منفردين، فالمعنى: أيها الآباء والمسؤولون والمجتمع المدني يفتيكم الله في المستضعفين من الولدان الصغار، أن تقوموا بالواجب نحوهم بأن توفروا لهم حقوقهم التي يقيمون بها حياتهم: مثل أن تنشئوهم خير نشأة، وتوفروا لهم وسائل التربية السليمة وآلات

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٢٦٦).

التعلم الصحيح، والحياة الغذائية السليمة، وأن تعطوهم حقهم من الميراث، وأن لا تستولوا على أموالهم على وجه الظلم والاستبداد، وأن تحموهم من أن يُستغلوا في العمالة والجهالة والسخرة والرق، والولدان يشمل الذكور والإناث.

الفتوى السادسة: يجب الرعاية المقسطة للأيتام، والقيام عليهم في المصالح الدينية، والدنيوية سواء كانوا ذكورًا أو إناثًا، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ﴾.

والإعادة هنا مناسبة للمحور القضائي، كما تناسب تعميم القيام بعد أن كانت في أول السورة خاصة بالوصية المالية في الأوضاع العادية:

والمخاطب في الآية المسؤولون، والمجتمع المدني جميعًا في جميع الأحوال. نلاحظ أنه ذكر يتامى النساء خصوصًا ثم ذكر اليتامى عمومًا، وذكرهم بهذا التفصيل والتأكيد من المعجزات الإلهية عند التأمل، ألا ترى الآن أن استغلال الأطفال والنساء يتم على أبشع نطاق؟ فتستغل الفتاة في مواخير الرق الأبيض المعاصر إلى أن يصير عمرها في حدود الأربعين حيث ترمى، والحضارة المتوحشة المعاصرة تستخدم النساء في الصور والإعلانات ولا تبحث عن ما ينصفهن، ويرفع عنهن هذا الاستغلال البشع، فذكر الله بما يتعلق بالنساء أولًا وبما يتعلق بيتامى النساء ثانيًا، ثم ذكر بما يتعلق بالمستضعفين من الولدان عمومًا سواء كانوا يتامى أو غير يتامى، ثم عاد فذكر اليتامى خصوصًا ليدخل الذكور هاهنا، والقيام عليهم في المصالح الدينية والدنيوية يجب أن يكون بما يخلص حقوقهم، وهذا يدخل فيما سبق لكنه خصص الأيتام لمزيد العناية بهم، والمخاطب هنا المسؤولون، والمجتمع المدني جميعًا.

ويشمل القيام عليهم في مصالحهم الدينية أن يتم إلزامهم بما أمر الله وما أوجبه على عباده، فيكون الأولياء مكلفين بذلك، يلزمونهم بما أوجبه الله، ويشمل القيام

عليهم في مصالحهم الدنيوية تنمية أموالهم وطلب الأحظ لهم فيها، وأن لا يقربوها إلا بالتي هي أحسن، وكذلك لا يحابون فيهم صديقًا ولا غيره، في تزوجٍ وغيره، على وجه الهضم لحقوقهم، وهذا من رحمته تعالى بعباده، حيث حثّ غاية الحث على القيام بمصالح من لا يقوم بمصلحة نفسه لضعفه وفقد أبيه [١].

تعلن الإحصاءات الرسمية أنه في أوروبا ضمن موجات الهجرة اختفى ما يزيد عن عشرة آلاف من الأطفال أثناء الهجرة.. اختفوا من الوجود الرسمي لا يُعلم أين هم، ومعنى ذلك أنهم خضعوا لعصابات تتاجر بهم، والمتاجرة بالأطفال صارت الآن تتخذ مناحي متعددة ورهيبة وفي غاية البشاعة، إما في تجارة الأعضاء وإما في العمالة وإما في البغاء ولا حول ولا قوة إلا بالله.

والعجيب أن الأمم التي ترعى السلام العالمي عبر منظمة الأمم المتحدة لا تعتبر ذلك حربًا ضد الإنسانية، ولا جرائم إرهابية، ولا تعقد له حتى اجتماعًا منافقًا يتيمًا.

الفتوى السابعة: استحضار الرقابة الإلهية الدائمة، التي تحصي كل خيرٍ مهما صغر شأنه، وخفي فاعله، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا﴾.

وهذا يفتح الباب واسعًا للابتكار في فعل الخير الفردي والجماعي نحو هؤلاء الأصناف الأربعة:

فهذا قانون كلي أي: ما تفعلوا من خير لهذه الأصناف أو لغيرهم فإن الله قد أحاط علمه بعمل العاملين للخير، قلة وكثرة فإن الله كان به عليمًا فاطمئنوا لن تضيع منكم بركته ولا أجره في الدنيا والآخرة حتى لو لم تجدوا شكرًا من غيركم.

---

(١) تفسير الزمخشري (١/ ٥٧٠).

وهذه الآية تبين أن الشريعة جاءت لتنصر المصالح التي تتعلق بهذه الفئات الأربع، وتقسم تصرفات الناس معهم إلى ثلاث مراتب:

أُولَاهَا: استغلالهم، وهَضْمُ شَيْءٍ مِنْ حُقُوقِهِمْ وَهِيَ المُحَرَّمَةُ السُّفْلَى.

وَالثَّانِيَةُ: القِيَامُ لَهُمْ بِالقِسْطِ وَالعَدْلِ بِأَلَّا يَظْلِمُوا مِنْ حُقُوقِهِمْ شَيْئًا وَهِيَ الوَاجِبَةُ الوُسْطَى.

وَالثَّالِثَةُ: الزِّيَادَةُ فِي رِزْقِهِمْ وَإِكْرَامِهِمْ بِمَا لَيْسَ لَهُمْ مِنْ مَالٍ، وَمَا لَا يَجِبُ لَهُمْ مِنْ عَمَلٍ، وَهِيَ المَنْدُوبَةُ الفُضْلَى [1].

فانظر كيف تحافظ الشريعة على حقوق المجتمعات المختلفة.

والآية تبصرنا بأن الرؤية القرآنية جاهدت كثيراً، وقاومت طويلاً طويلًا لطمس أفكار الجاهلية الأولى في النفوس والأوضاع، ولتثبيت معاني العدل والحق في النفوس والطباع.. جاهدت الرؤية القرآنية لاقتلاع الظلم الذي تقترفه القوانين الجاهلية ضد الفئات المستضعفة في المجتمع، وتتعجب من هذا السبق الإسلامي للكلام عن هذه الفئات الأربع التي ترى القوى المستكبرة تستغلها أبشع استغلال في عالم اليوم، كما كان في الجاهلية الأولى.



(١) تفسير المنار (٥/ ٣٦٣).

القسم السادس

النساء بين الاستغلال الشيطاني، والانتصار القضائي: الانتصار الحقوقي للمرأة عند نشوز الزوج، والمحافظة على العلاقات الاجتماعية بعد الفراق (النساء:١٢٨-١٣٠)

آيات هذا القسم:

﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ وَإِن تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغۡنِ ٱللَّهُ كُلّٗا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمٗا﴾ (النساء:١٢٨-١٣٠).

المناسبة والاتصال:

ذكر الله تعالى جده في القسم السابق ضرورة الانتصار الحقوقي للنساء والأطفال وليتامى النساء ويتامى الأطفال لئلا يكونوا عرضة للاستغلال من قبل الأقوياء والرجال، فأفتى العالم بالفتاوى التي توجه العدالة إلى مسارها الصحيح، وفي هذا القسم يؤكد الله على القوانين التي تحمي المرأة من نشوز الزوج، وتحميها في الوقت ذاته من استغلال أتباع الشهوات الآخرين، وناسب جدًا أن يذكر ما يتعلق بنشوز الزوج في المحور القضائي لجعل الهيئة القضائية التي تعد أقوى سلطة في المجتمع نصيرة لقضايا الزوجات، بخلاف قضية نشوز الزوجة، فقد ذكرها الله في

الآية (٣٤) ضمن محور البناء الأسري للدور الكبير الذي ينبغي أن يضطلع به الرجل في الحفاظ على التماسك الأسري، وللقوة الطبيعية التي يحظى بها الرجل، أما المرأة فإنها إن خافت نشوز الرجل أعانتها بقية قوى المجتمع، وخاصة القوة القضائية، وهنا تدرك سر هذا التباعد الموضوعي بين نشوز المرأة الذي جاء ضمن المحور الثاني في السورة، وفي الآية (٣٤)، وبين نشوز الرجل الذي كان ترتيبه ضمن المحور الخامس في السورة، وقد ذكر الله في هذه الآيات ثلاث حالات لطرفي الأسرة، وفصل الفتاوى المتعلقة بها:

الحالة الأولى: حَالِ نفور الزوج من الزوجة، وفي هذه الحالة الفتاوى القانونية الآتية:

الفتوى الأولى: يرجع نفور الزوج من الزوجة إلى مظهرين يُبَصِّرُنا بهما قوله: ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضًا﴾ (النساء:١٢٨)، وكلا المظهرين لا يدلان على عيبٍ في الرجل ولا في المرأة بالضرورة، بل قد يكون ذلك بسبب الطبيعة الإنسانية.

فقوله: ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضًا﴾ عطف بالواو ليكمل ما يتعلق باستفتائهم حول النساء، وذلك أنه لما ذكر حقوق الزوج فيما سبق باعتباره قَوَّامًا على الأسرة، وبين وسائله للتعامل مع نشوز الزوجة بين هنا الكيفية المناسبة لتعامل المرأة مع نشوز الزوج ليؤكد على أن حقوقه في تعامله مع الزوجة لا تمنحه صلاحية مطلقة ليتعسف في استعمالها، أو أن يستغلها في غير موضعها، وفصل الله هنا قوانين ينصف فيها المرأة في الحياة الزوجية إن تلاعب الزوج وتعسف في استعمال حقوقه، وبذلك تُحفَظ حقوق المرأة، ويُضمَنُ أمنها، وتصان كرامتها، وتبقى الأسرة في حالة استقرار، والله يذكر هذه الأحوال الأسرية لأنه أعلم بخلقه، فهو يقدم دينًا يتعامل

بواقعية مع الإنسان لأنه إنسان، فالزوج قد يحدث منه تجاه زوجته نفورٌ يرجع إلى هذين المظهرين:

فأما المظهر الأول: فهو النشوز: وهو تعالي الزوج عن قيامه بمسؤولياته الأسرية، كأن يرتفع عن القيام بأفعال العشرة الزوجية الحسنة من سكن نفسي وجسدي، ونفقة وتربية، وهذه الكلمة المبتكرة من نَشَزَ إذا ارتفع وعلا، وَالنَّشَزُ: المَكَانُ العَالِي المُرْتَفِعُ، فقوله تعالى ذكره: ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ﴾ (المجادلة: ١١) أي: ارتفعوا، وَالنَّشْزُ وَالنُّشُوزُ: الِارْتِفَاعُ، ونَشَزَتِ المَرْأَةُ: اسْتَصْعَبَتْ عَلَى بَعْلِهَا، واسْتَعصتْ، وارْتفعَتْ عَلَيْهِ وأَبْغَضَتْه، وفَرِكَتْه، وَكَذَلِكَ نَشَزَ بَعْلُهَا[1]، وارتفاع الزوج عن القيام بمسؤولياته إما لبغْضٍ أُلقي في قلبه لها، وإما لكراهةٍ منه لها لدَمامتها، أو لسنها وكبرها، أو لشيء في خَلق أو خُلق، أو غير ذلك من أمورها بأن منعها نفسه ونفقته والمودة والرحمة التي تكون بين الرجل والمرأة.

وأما المظهر الثاني: فالإعراض: بأن ينصرف عنها بوجهه وإقباله ومحبته، وإن أبقى منافعه المادية التي كانت لها منه، وأن يقل محادثتها ومؤانستها لا لانشغاله بواجبات الحياة وأعبائها؛ ولا بواجباته الدينية والاجتماعية؛ إذ ينبغي أن تعينه على ذلك؛ فقد لا ينشز على زوجته، ولكنه يعرض عنها، ويظن أن علاج ذلك ليس في يده.

والتفريق بين النوعين ضروري لبيان أن الإنسان قد لا ينشز على زوجته ولكنه يعرض عنها، ويظن أن علاج ذلك ليس في يده.

الفتوى الثانية: عند نشوز الزوج، أو إعراضه يجوز أن يتصالح الطرفان لبقاء الحياة الزوجية، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾.

فيجوز أن تتفق مع زوجها على صلحٍ مشتركٍ بين الاثنين كأن تتنازل عن بعض

(١) مقاييس اللغة (٥/ ٤٣٠)، تاج العروس (١٥/ ٣٥٤).

حقها مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ كُسْوَةٍ، أَوْ مَبِيتٍ مقابل بقاء الحياة الزوجية، أو أن تصالحه بشيء من مالٍ تستميل به قلبه إليها مقابل تنازل الرجل عن طلاقها، وربما كان الصلح على المخالعة:

هذه الصِيغَةُ ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾ تدل على الإباحة، ولكنها إباحة مشعرةٌ بمنعٍ سابق، والمراد لا حرج ولا إثم، وسبب استعمال هذه الصيغة أن كلًّا من الطرفين قد يتحرجان، فيظنان أن تقديم التنازل أو قبوله فيه إخلالٌ بالدين الذي نظم العلاقة الزوجية، فالصلح المذكور هنا يقتضي تنازل المرأة عن بعض حقوقها مقابل تنازل الرجل عن طلاقها، وذلك حتى لا يتوهم الطرفان أن هذا التنازل ممنوع، وأن المرأة إما أن تأخذ حقوقها كاملة أو تفارق، ولا يتوهم الرجل الأمر ذاته؛ وحقيقة الأمر أن البيت لا بد أن يبنى على التزامٍ صارمٍ من كلا الطرفين للآخر؛ ولكن ذلك يمكن أن يُخفف حال تغير نفسية كل من الزوجين بعد محاولات الإصلاح، وحينها يمكن أن يصطلح الطرفان على بقاء الرابطة الزوجية والأسرية، فذلك هدفٌ عظيمٌ، ولو تم فيه التنازل من الطرفين، خاصة مع وجود الأولاد، وربما كان الصلح على المخالعة، وذلك بأن تقدم المرأة عوضًا ماليًا للزوج، فأذن الله في ذلك، بدلًا من بقاء الطرفين في حياة يملؤها الغم، وبذا تكون هذه الآية أعم مما ورد في قَوْلِهِ تَعَالَى جده: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ (البَقَرَة: ٢٢٩)، فَسَمَّاهُ هُنَاكَ افْتِدَاءً، وَسَمَّاهُ هُنَا صُلْحًا.

فهذه عَائِشَةَ تبين حدوث مثل ذلك لأم المؤمنين سودة ﵂، فقد كانت سودة ذات عقلٍ كبيرٍ، ونظرت في أمرها وقدرت، وفكرت فيما تقدم وما تأخر، فخشيت من بعلها ﷺ إعراضًا عنها، ورأته ذلك أمرًا فطريًا إنسانيًا، ولم تستبعده، وتحكي عائشة عن عقل

سودة ﵂، فتقول: مَا رَأَيْتُ امْرَأَةً أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ أَكُونَ فِي مِسْلاَخِهَا مِنْ سَوْدَةَ بِنْتِ زَمْعَةَ مِنِ امْرَأَةٍ فِيهَا حِدَّةٌ. قَالَتْ: فَلَمَّا كَبِرَتْ جَعَلَتْ يَوْمَهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِعَائِشَةَ. قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ جَعَلْتُ يَوْمِي مِنْكَ لِعَائِشَةَ، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْسِمُ لِعَائِشَةَ يَوْمَيْنِ يَوْمَهَا وَيَوْمَ سَوْدَةَ[١]. وبينت عائشة سبب ذلك فقَالَتْ: يَا ابْنَ أُخْتِي كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لاَ يُفَضِّلُ بَعْضَنَا عَلَى بَعْضٍ فِي القَسْمِ مِنْ مُكْثِهِ عِنْدَنَا وَكَانَ قَلَّ يَوْمٌ إِلاَّ وَهُوَ يَطُوفُ عَلَيْنَا جَمِيعًا فَيَدْنُو مِنْ كُلِّ امْرَأَةٍ مِنْ غَيْرِ مَسِيسٍ حَتَّى يَبْلُغَ إِلَى الَّتِي هُوَ يَوْمُهَا فَيَبِيتُ عِنْدَهَا وَلَقَدْ قَالَتْ سَوْدَةُ بِنْتُ زَمْعَةَ حِينَ أَسَنَّتْ وَفَرِقَتْ أَنْ يُفَارِقَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَا رَسُولَ اللَّهِ يَوْمِي لِعَائِشَةَ. فَقَبِلَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْهَا. قَالَتْ: نَقُولُ فِي ذَلِكَ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى وَفِي أَشْبَاهِهَا أُرَاهُ قَالَ: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾[٢].

وعن ابن عباس ﵄ قال: خشيت سودة أن يطلقها النبي ﷺ فقالت: لا تطلقني وأمسكني واجعل يومي لعائشة ففعل فنزلت ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ ، فما اصطلحا عليه من شيء فهو جائز كأنه من قول ابن عباس[٣].

ثم تعمم الفقيهة العالمة عائشة ﵂ الفهم الذي تبصرنا به هذه الآية، فتقول: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ قَالَتِ: الرَّجُلُ تَكُونُ عِنْدَهُ المَرْأَةُ لَيْسَ بِمُسْتَكْثِرٍ مِنْهَا يُرِيدُ أَنْ يُفَارِقَهَا فَتَقُولُ: أَجْعَلُكَ مِنْ شَأْنِي فِي حِلٍّ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي ذَلِكَ[٤].

---

(١) مسلم (٤ / ١٧٤) رقم ١٤٦٣ .

(٢) أبو داود (٢ / ٢٠٨).

(٣) سنن الترمذي (٥ / ٢٤٩) قال أبو عيسى هذا حديث حسن غريب، وقال الشيخ الألباني: صحيح.

(٤) البخاري – ترقيم فتح الباري (٣ / ١٧٠) رقم ٢٤٥٠ .

وفي قوله: ﴿أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ (النساء: ١٢٨) قراءتان توضحان مشهدين:

القراءة الأولى: قراءة أهل الحجاز والبصرة بفتح «الياء» وتشديد «الصاد» ﴿يصَّالحا﴾، وأصله: أن يتصالحا بينهما صلحًا، ثم أدغمت «التاء» في «الصاد»، فَصُيِّرتا «صادًا» مشددة مِنَ التَّصَالُحِ، ومَعْنَاهُ أن يَتَوَافَقَا على أمرٍ بينهما بقاء أو فراقًا.

القراءة الثانية: قراءة أهل الكوفة: ﴿أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ بضم «الياء» وتخفيف «الصاد»، مِنَ الإِصْلَاحِ، فالإِصْلَاحَ عِنْدَ التَّنَازُعِ وَالتَّشَاجُرِ مُسْتَعْمَلٌ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾ (البَقَرَةِ: ١٨٢)، وَقَالَ: ﴿أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ (النِّسَاءِ: ١١٤)، والإصلاح يعني تقويم المعوج، وإعادة غير الطبيعي إلى طبيعته السليمة.

وَانْتَصَبَ صُلْحًا فِي هَذِهِ القِرَاءَةِ عَلَى المَصْدَرِ وَكَانَ الأَصْلُ أَنْ يُقَالَ: تَصَالُحًا، وَلَكِنَّهُ وَرَدَ كَمَا فِي قَوْلِهِ ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ (نُوحٍ: ١٧) وَقَوْلِهِ ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ (المُزَّمِّلِ: ٨) وَقَوْلِ الشَّاعِرِ:

وَبَعْدَ عَطَائِكَ المِائَةَ الرِّتَاعَا[1]

فالقراءة الأولى تدل على التصالح الذي يعني التوافق، ولو لم يكن هناك تنازع إلا أن المرأة ترى بوادر وعلامات قد تؤدي إلى التنازع والشقاق، والثانية تدل على أنه قد طرأ التنازع ولا بد من الإصلاح الذي هو ضد الإفساد، وذلك يقتضي التنازل.

الفتوى الثالثة: يجب العمل على حل المشاكل الواقعة والمتوقعة، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿خَافَتۡ﴾ التي تدل على المعنيين: ظنت أو علمت.

فالنفور بين الزوجين قد يكون واقعًا، وقد يكون متوقعًا، فلا بد من تفكر الزوجة

(١) تفسير الرازي (١١/ ٢٣٦).

في الواقع، والـمستقبل حفاظًا على نفسها، وعلى أسرتها:

فإذا كان النفور واقعًا حاضرًا يكون معنى ﴿خَافَتْ﴾ علمت، وإذا كان متوقعًا بأن ظهرت بعض أماراته من الرجل، يكون معنى ﴿خَافَتْ﴾ هنا ظنت، فلا بد من تفكر الزوجة في الواقع، والمستقبل، فالخَوْفُ: يطلق على المكروه الواقع حالًا، ويطلق على تَوَقُّع مَا يُكْرَهُ برؤية المقدمات والعلامات الدالة على حدوث ما يُخاف منه، وهذا من أهم ما تشغل الزوجة به نفسها بدلًا من الاشتغال بالعبث واللهو والتسوق، ويتحقق الخوف بظُهُورِ الأَمَارَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى وُقُوعِ ما يخاف من عواقبه ومآلاته، وهذه الأمارات إما أن تكون قوية فتورث العلم الحاضر، وإما أن تكون في بداياتها فتورث الخوف من المستقبل مثل أن يُظهر الرجل الضيق من امرأته لغير سببٍ أو لأسبابٍ تُشعرها بعدم قدرتها على استيعاب زوجها إلا بالمفارقة أو الزواج من أخرى..

فتأمل كيف تدفع الآية الزوجة إلى التدبير الصحيح حماية لها، وحفظًا لأسرتها من جهة ولكرامتها من جهة أخرى.. إن الإسلام يعد المرأة لتقوم بمهمتها العظيمة، ولتعد العدة للمحافظة على بيتها، وليس العكس.

الفتوى الرابعة: وصف الزوج بالبَعْل، إشارة إلى أن من أهم الصفات الواجبة للزوجين التودد.

فالبَعْل الأرض المرتفعة، وتعني هنا: الرئيس الذي يقوم بقضاء الحوائج، ويرجع إليه في الأمور، وذلك يقتضي أن يتصف بأخلاق السيادة النبيلة، فيتودد إلى زوجته، ويتقرب منها تقرب السيد إلى قومه، وتتودد إليه وتتقرب منه، ولا تجعل نفسها بمثابة الند المراجع له في كل شيء، ولذا يقال: امرأة مستبعل، إذا كانت تحظَى عند زوجها، والرّجل يتعرّس لامرأته يطلب الحُظْوَة عندها، والمرأة تتبعّل لزوجها إذا كانت متوددة له. والبَعْلُ: أرضٌ مرتفعة لا يُصيبُها مطر إلاّ مرّةً في السّنة.

قال سلامة بن جندل:

إذا ما عَلَوْنا ظهرَ بَعْلٍ عَريضَةٍ تَخالُ علينا قَيْضَ بَيْضٍ مفلق [١]

وفيه إشارة له؛ ليتعامل معها وفق أخلاق السؤدد، وقد نقل ابن حجر عن الطيبي: هو في الأصل: الرئيس الذي يُقصَدُ في الحوائج، ويُرجَعُ إليه في الأمور [٢]، وذكر مرتضى الزبيدي من معاني السيد: الّذِي فاق غيْرَه بالعَقْل، وَالمَال، والدَّفْع والنَّفْع، المُعْطِي مالَهُ فِي حُقُوقِه، المُعِينُ بنَفْسه، وَقَالَ عِكْرِمةُ: السَّيِّد الّذِي لَا يَغْلِبُه غَضَبُه، وَقَالَ قَتَادةُ: هُوَ العابِدُ، الوَرِعُ، الحَلِيمُ [٣]، وإنما أوردت هذه المعاني حتى لا تطغى المعاني العرفية للسيد على المعاني الأصلية التي سيق هذه الكلمة لأجلها، وصاغ الله هذا المصطلح لبيان المسؤولية لا لتكوين الفرعونية السادية الرجولية التي تراها عند بعضهم. ومن أجل ذلك جَعَلَ اللهُ الطَّلَاقَ بيد الرَّجُلِ ابتداء دون أن يحتكره لِأَنَّ أخلاق السيادة تفرض عليه الحرص الزائد على الحياة الأسرية، وعدم الاستجابة للانفعال العاطفي العارض مما تجده بكثرة في الطبيعة النسوية، وفي المقابل الله جَعَلَ لِلْمَرْأَةِ حَقَّ الفَسْخِ إِذَا لَمْ يَفِ بِحُقُوقِهَا مِنَ النَّفَقَةِ وَالإِحْصَانِ [٤].

الفتوى الخامسة: الصلح خير من بقاء النزاع، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿وَٱلصُّلۡحُ

---

(١) العين (٢/ ١٤٩).

(٢) فتح الباري - ابن حجر (١١ / ٩٩).

(٣) تاج العروس (٨/ ٢٢٥)، وفي المعجم الأوسط (٧ / ١١١) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كُنْتُ قَاعِدًا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فَجَاءَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ رَجُلًا، عَلَيْهِمْ ثِيَابُ السَّفَرِ، فَسَلَّمُوا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: قَالُوا: مَنِ السَّيِّدُ مِنَ الرِّجَالِ -يَا رَسُولَ اللهِ- ؟ قَالَ: « ذَاكَ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ «، قَالُوا: مَا فِي أُمَّتِكَ سَيِّدٌ؟ قَالَ: «بَلَى، رَجُلٌ أُعْطِيَ مَالًا حَلَالًا، وَرُزِقَ سَمَاحَةً، فَأَدْنَى الفَقِيرَ، وَقَلَّتْ شِكَايَتُهُ فِي النَّاسِ»، وفي مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٨ / ١٣٤): رواه الطبراني في الأوسط، وفيه نافع أبو هرمز، وهو متروك.

(٤) تفسير المنار (٥/ ٣٦٤).

﴿خَيْرٌ﴾ (النساء:١٢٨)، وهذا يعني أن يتنازل أحد الطرفين للآخر، إما لإبقاء الحياة الزوجية مع بعض التنازلات، وإما للاتفاق على الفراق مع بعض التنازلات أيضًا؛ لئلا تحل العداوة، والبغضاء، والحرب بين الطرفين، أو تتأخر الإجراءات بغير داعٍ كما يحدث في الحضارة الغربية في هذا المجال:

مال الطبري ﷺ إلى أن المراد بالصلح هنا بقاء الرابطة الزوجية مع بعض التنازلات فقال: «والصلح بترك بعض الحقّ استدامةً للحُرْمة، وتماسكًا بعقد النكاح، خيرٌ من طلب الفرقة والطلاق» [١]، «وَالمَقْصُودُ الَأمْرُ بِأَسْبَابِ الصُّلْحِ، وَهِيَ: الِإغْضَاءُ عَنِ الهَفَوَاتِ، وَمُقَابَلَةُ الغِلْظَةِ بِاللِّينِ» [٢].

ولكنك عند التأمل ربما تميل معي إلى أن قوله تعالى جده: ﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ (النساء: ١٢٨) جاءت بصيغة تعميمٍ بعد سياقٍ خاص، فتفيد العموم للأحوال الحيوية المختلفة، فيكون الصلح شاملًا للبقاء والفراق.. ولننظر في حال السلف الذين استفادوا من هذا القانون الإلهي في الإصلاح الاجتماعي، فعن خالد بن عرعرة: أن رجلًا أتى عليًّا ﷺ يستفتيه في امرأة خافتْ من بعلها نشوزًا أو إعراضًا، فقال: قد تكون المرأة عند الرجل فتنبُو عيناه عنها من دمامتها، أو كبرها، أو سوء خلقها، أو فقرها، فتكره فراقه. فإن وضعت له من مهرها شيئًا حَلَّ له، وإن جعلت له من أيامها شيئًا فلا حرج [٣]، وقد يكون الصلح بينهما بأن تعينه على الزواج من امرأة أخرى يبتغي منها الولد، فعن ابن سيرين قال: جاء رجل إلى عمر فسأله عن آية، فكره ذلك وضربه بالدِّرّة، فسأله آخر عن هذه الآية: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾، فقال: عن مثل هذا فَسلوا! ثم قال: هذه المرأة تكون عند الرجل قد خلا من سنها، فيتزوج

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٢٦٨).

(٢) التحرير والتنوير (٥/ ٢١٥).

(٣) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٢٦٨).

المرأة الشابَّة يلتمس ولدَها، فما اصطلحا عليه من شيء فهو جائزٌ [١]، ويضرب ابن عباس صورةً أخرى، فيقول: تلك المرأة تكون عند الرجل، لا يرى منها كبير ما يحبُّ، وله امرأة غيرها أحبّ إليه منها، فيؤثرها عليها، فأمره الله إذا كان ذلك، أن يقول لها: يا هذه، إن شئت أن تقيمي على ما ترين من الأثرة، فأواسيك وأنفق عليك فأقيمي، وإن كرهت خلَّيت سبيلك! ، فإن هي رضيت أن تقيم بعد أن يخيِّرها فلا جناح عليه، وهو قوله: ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞ﴾، وهو التخيير [٢].

الفتوى السادسة: يجب أن يحذر كل إنسان من حضور الشح في تعامله مع الآخرين، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ﴾ (النساء:١٢٨).

فهذا قانونٌ نفسيٌّ تزكويٌّ تربويٌّ يكشف طبائع النفوس البشرية، حيث يصر كل صاحب حق على حقه، بل تسول له نفسه أن يمنع الخير الذي عند غيره، فهذا تعريف الشح، والإسلام هو النظام الوحيد الذي يضع الحقوق، ثم يحذر من إساءة استعمالها، ويحض على التنازل عن بعضها لأجل الآخرين:

هنا يكشف الله لنا عن حقيقة مفجعة تضمها كل نفسٍ إنسانية.. إنها حقيقة أن الشح لصيق بالنفوس لا ينفك عنها، والشح بريد الهلاك الفردي والجماعي، فليستيقظ النائمون، ولينتبه الغافلون!! أما أنه بريد الهلاك فاسمع لقول النبي ﷺ يحذر أمته منه أشد التحذير، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه من الخيلاء، وثلاث منجيات: العدل في الرضا والغضب، والقصد في الغنى والفاقة، ومخافة الله في السر والعلانية» [٣].

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٢٦٨).

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٢٦٨).

(٣) رواه الطبراني في المعجم الأوسط - (٥ / ٣٢٨) برقم ٥٤٥٢، وحسنه لغيره في صحيح الترغيب والترهيب - (٢ / ٣٥٦) برقم ٢٦٠٧.

وأما ما الشح؟

فالشح معناه المَنْعُ، ثُمَّ يَكُونُ مَنْعًا مَعَ حِرْصٍ، فهو أسوأ من البخل؛ إذ هو البخل ذاته مع الحرص، ويظهر لي أن الشح الحرص على منع الخير الشخصي، ويضم سيئة أخرى هي الحرص من منع الخير الذي في يد الغير، فيكون البخل منع نفسك من بذل الخير الذي عندك، والشح منع غيرك من بذل الخير الذي عنده، ولذا يُقَالُ تَشَاحَّ الرَّجُلَانِ عَلَى الأَمْرِ، إِذَا أَرَادَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا الفَوْزَ بِهِ وَمَنَعَهُ مِنْ صَاحِبِهِ [١]، وقد سبق الكلام عن الفرق بين الشح والبخل في الآية (٣٨) من هذه السورة.

ويدل على أن البخل ينبثق عن الشح ما جاء عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «الظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَإِيَّاكُمْ وَالفُحْشَ، فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الفُحْشَ، وَلاَ التَّفَحُّشَ، وَإِيَّاكُمْ والشُّحَّ، فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، أَمَرَهُمْ بِالقَطِيعَةِ، فَقَطَعُوا، وَأَمَرَهُمْ بِالبُخْلِ، فَبَخِلُوا، وَأَمَرَهُمْ بِالفُجُورِ، فَفَجَرُوا» قَالَ: فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَيُّ الإِسْلاَمِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «أَنْ يَسْلَمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِكَ وَيَدِكَ»، فَقَامَ ذَاكَ أَوْ آخَرُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ الهِجْرَةِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «أَنْ تَهْجُرَ مَا كَرِهَ رَبُّكَ، وَالهِجْرَةُ هِجْرَتَانِ: هِجْرَةُ الحَاضِرِ، وَالبَادِي، فَهِجْرَةُ البَادِي أَنْ يُجِيبَ إِذَا دُعِيَ، وَيُطِيعَ إِذَا أُمِرَ، وَالحَاضِرِ أَعْظَمُهُمَا بَلِيَّةً، وَأَفْضَلُهُمَا أَجْرًا» [٢].

وعكس الشح والمشاحة التسامح والمسامحة، ويدربنا النبي ﷺ على مخالفة أهواء النفوس، ومقاومة شحها الكامن، فقد قال أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَيُّ الصَّدَقَةِ أَعْظَمُ أَجْرًا؟ قَالَ: «أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ، تَخْشَى الفَقْرَ وَتَأْمُلُ الغِنَى، وَلاَ تُمْهِلُ، حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الحُلْقُومَ، قُلْتَ: لِفُلاَنٍ

(١) مقاييس اللغة (٣/ ١٧٨).

(٢) مسند أحمد (٢ / ١٥٩) برقم ٦٤٨٧، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح.

كَذَا، وَلِفُلَانٍ كَذَا، وَقَدْ كَانَ لِفُلَانٍ» [١].

فصار الشح الإفراط في الحرص على الشيء مع منع الآخرين من حقوقهم، مثل إفراط المرأة في حرصها على نصيبها من أيامها من زوجها ونفقتها أو حقوقها المعتادة، مع الحرص على منع زوجها أو أهله الآخرين من حقوقهم عند تداخل الحقوق، ويكون المعنى « وأحضرت أنفس النساء أهواءَهن، من فرط الحرص على حقوقهن من أزواجهن، والشح بذلك على ضَرائرهن» [٢].

إن هذا القانون يكشف خبايا كل الرجال وكل النساء، فالتفت سعيد بن جبير إلى الشعور بما يحويه هذا القانون فقال: نفس المرأة على نصيبها من زوجها، من نفسه وماله [٣].

يا أيها الإنسان: هل هناك أحدٌ ينجو من حضور الشح؟

كلا! فالآية واضحة: ﴿وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ﴾.. وإنك لتعجب فترى فقراء ينتمون إلى الإسلام، والشح يسيطر عليهم، وترى أغنياء ينتمون إلى العمل الديني الإسلامي، والشح سمتهم التي لا تفارقهم.. حتى إذا ما ضاع ملكهم، وتهدمت ديارهم بفعل غزو الأعـادي.. تساءلوا: أنى هذا؟ أما يذكرون الشح الذي يأكل قلوبهم، ويدمر حياتهم.

وانظر البلاغة التصويرية المدهشة في كلمة ﴿وَأُحۡضِرَتِ﴾ فإن الكلام هنا عن صلحٍ يترتب عليه تنازلٌ من الطرفين أو من أحدهما لتحقيق مصلحةٍ أعلى، والله جلَّ ذكره يخبرنا بزائرٍ ثالثٍ سيكون حاضرًا مع الطرفين.. إنه ﴿ٱلشُّحَّۚ﴾ تصوره متجسدًا يجذبك

(١) البخاري (٢ / ١٣٧) رقم ١٤١٩ .

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٢٨٢).

(٣) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٢٨٠).

عندما تنوي تقريب وجهة نظرك من الطرف الآخر إلى جهةٍ بعيدةٍ، ويجذب الطرف الآخر إلى جهة مقابلة أبعد، ولم يقل: وحضر الشحُّ الأنفسَ بل وأحضرت الأنفس الشح.. إن الأنفس تميل إليه.. فاحذروه فهو ملازم وحاضر وباق في أثناء التصالح.

فالشح حالةٌ نفسيةٌ ملازمةٌ تحضر تصرفات الإنسان فتأمره بالأعمال الردية التي تدل على أَثَرةٍ ومنعٍ أن يصل الخير إلى الغير، ويصف الله جل جلاله هذه الحالة البئيسة، فيقول: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ (النساء: ١٢٨)، وبين أن المفلحين يتقون الشح ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر: ٩)، فكأنهم يجالدونه، ويجاهدونه لئلا يقعوا في أسره، بينما وصف المنافقين بالاستجابة لداعية الشح في أنفسهم ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ (الأحزاب: ١٩) من شح بمعنى قل وعسر وانقطع، فكأنهم يقطعون أنفسهم ويقطعون غيرهم عن الخير، فالفقير قد يكون شحيحًا بينما لا يكون البخيل بخيلًا إلا بشيء يملكه كما قال الله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ (آل عمران: ١٨٠) ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ﴾ (التوبة: ٧٦)، وعَنْ بَكْرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ المُزَنِيِّ قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا مَعَ ابْنِ عَبَّاسٍ عِنْدَ الكَعْبَةِ فَأَتَاهُ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: مَا لِي أَرَى بَنِي عَمِّكُمْ يَسْقُونَ العَسَلَ وَاللَّبَنَ وَأَنْتُمْ تَسْقُونَ النَّبِيذَ أَمِنْ حَاجَةٍ بِكُمْ أَمْ مِنْ بُخْلٍ؟ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الحَمْدُ لِلَّهِ مَا بِنَا مِنْ حَاجَةٍ وَلاَ بُخْلٍ (١).

ولا يدخل في الصلح عند الطبري أن يجعل الرجل للمرأة جعلًا مقابل أن تعفيه من قسمه لها ، قال: «لأن مصالحة الرجل امرأته بإعطائه إياها من ماله جُعْلا على أن تصفح له عن القسم لها، غير جائزة، وذلك أنه غير معتاض عوضًا من جُعْله الذي بذله لها، والجُعل لا يصح إلا على عِوض: إما عين، وإما منفعة، والرجل متى جعل للمرأة

(١) صحيح مسلم (٤ / ٨٦) برقم ٣٢٤٠.

جُعْلا على أن تصفح له عن يومها وليلتها، فلم يملك عليها عينًا ولا منفعة، وإذْ كان ذلك كذلك، كان ذلك من معاني أكل المال بالباطل».. هكذا قال الطبري ﷺ، ولعل الصورة التي ذكرها لا يُستبعد أن تتم المصالحة عليها.

الفتوى السابعة: ﴿وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (النساء:١٢٨)، فمهما تنازل الرجل أو تنازلت المرأة تقوى لله، وإحسانًا إلى الطرف الآخر، فإن ذلك لا يضيع حتى لو لم يشعر الآخرون بحجم التنازل.

هذا قانون تربوي تزكوي عام كما ترى، وهو من أنفع القوانين في الحث على الأعمال الصالحة المتبادلة بين الخلق.. إنه القانون التذكيري أن الله خبيرٌ بكل فعلٍ مهما كانت الأطراف الأخرى لا تقدره، فيدخل في ذلك الخطاب: الأزواج، والزوجات.. فلينظروا الأعمال التي يقدمونها في إحسان العشرة، وليتقوا الله في الابتعاد عن السوء.

والإحسان يدل على الإتقان وتجويد العمل والتفضل، والتقوى تدل على ضبط التفضل بأن يكون طلبًا لما عند الله، وضمن شرعه، لا أن يخرج به الإنسان عن الشرع اتباعًا لأهواء نفسه أو أهواء الطرف الآخر، كما أن هذا القانون الرائع ﴿وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا﴾ بعمومه يخاطب المجتمع ليحسنوا ويتقوا في الإصلاح بين الزوجين، ووضع التشريعات المناسبة لذلك، وتهيئة الإدارات التي تشرف على المحافظة على الأسرة بما في ذلك المؤسسات التي تشرف على تعدد الزوجات تهيئة وإيجادًا وإصلاحًا.

وَحَكَى صَاحِبُ الكَشَّافِ: أَنَّ عِمْرَانَ بْنَ حِطَّانَ الخَارِجِيَّ كَانَ مِنْ أَدَمِّ بَنِي آدَمَ، وَامْرَأَتُهُ مِنْ أَجْمَلِهِمْ، فَنَظَرَتْ إِلَيْهِ يَوْمًا ثُمَّ قَالَتْ: الحَمْدُ للَّه، فَقَالَ: مالك؟ فَقَالَتْ: حَمِدْتُ اللَّه عَلَى أَنِّي وَإِيَّاكَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ لِأَنَّكَ رُزِقْتَ مِثْلِي فَشَكَرْتَ، وَرُزِقْتُ مِثْلَكَ

فَصَبَرْتُ، وَقَدْ وَعَدَ اللَّه بِالجَنَّةِ عِبَادَهُ الشاكرين والصابرين [١].

الحالة الثانية: حَالة اتِّفَاقِهِ مَعَهَا على البقاء، وفيها الفتاوى الآتية:

الفتوى الأولى: يرتفع الحرج فيما فيه حرج في الحياة الزوجية عند خروجه عن الطاقة البشرية، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ (النساء:١٢٩)، فلا يمكن العدل في المحبة القلبية، وحقيقة هذا القانون تشجيع للتعدد، وليس منعًا له على أن يراعي العدل المستطاع.

إذ ذكر الله هذا القانون ليبين أن المحبة القلبية الزائدة لإحدى الزوجات لا تدخل ضمن النشوز أو الإعراض، بل النشوز أو الإعراض من الرجل يتعلق بالأفعال الظاهرة، وبما يمكن ضبطه من العواطف الباطنة، فهذه فتوى جديدة تدخل ضمن الإجابات على استفتاءات الناس حول النساء حال الاتفاق معها، فعدم العدل بين النساء حرام كما قال تعالى شأنه: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً﴾ (النساء: ٣)، وبين النبي ﷺ عقوبة الجائر فقال: «من كان له امرأتان يميل لإحداهما على الأخرى جاء يوم القيامة أحد شقيه مائل» [٢].

ولكن هذا العدل ليس في كل شيء، فالأمور التي لا يملك المرء التحكم بها يبين الله عز وجل أن المرء لا يقدر على العدل فيها بين نسائه، والله يوضح هذه الحقيقة حتى لا يكون ذلك عائقًا أمام الرغبة في التعدد التي قد يترتب عليها سعادة أطرافٍ متعددة عند ترك الشح، فيقول: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾، فلَا يمكنكم التَّسْوِيَةَ بَيْنَهُنَّ فِي الأَقْوَالِ وَالأَفْعَالِ بنسبةٍ كاملة، ولكنكم يمكنكم التحكم في الأمور الواضحة الظاهرة، لِأَنَّ التَّفَاوُتَ فِي الحُبِّ يُوجِبُ

(١) تفسير الرازي (١١/ ٢٣٧).

(٢) سنن النسائي (٧/ ٦٣)، وصححه الألباني.

التَّفَاوُتَ فِي نَتَائِجِ الحُبِّ، لِأَنَّ الفِعْلَ بِدُونِ الدَّاعِي وَمَعَ قِيَامِ الصَّارِفِ مُحَالٌ [١]، ولكن العدل فيما يمكنكم التحكم فيه واجب، وبين ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا تفصيل ذلك فقال: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾، يعني: في الحب والجماع [٢]، وقدوة العالم ﷺ قدم لنا تقريرًا بذلك، فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كان رسول الله ﷺ يقسم فيعدل، ويقول: «اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك» [٣]. فلأجل ذلك ورد عن قتادة قال: ذكر لنا أن عمر بن الخطاب كان يقول: اللهم أمَّا قلبي فلا أملك! وأما سِوَى ذلك، فأرجو أن أعدل! [٤].

الفتوى الثانية: يجب عليكم التوازن للقيام بالقسط في كل شيء؛ فعدم استطاعة العدل التام لا يعني الترخص في الظلم الواضح، ويُبَصِّرُنا بذلك قول الله: ﴿فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ﴾ (النساء:١٢٩).

أعد النظر في هذا التفصيل المدهش لحماية الأسرة، وصيانة طرفيها من التحول إلى حالة العداوة بعد المودة، فكأن الله جل ذكره يقول: أنا أعفيتكم من أمرين، الأمر الأول: العدل في الحب القلبي؛ لأنكم لا تملكونه، وما يترتب عليه من الأفعال مما لا تملكونه أيضًا، والأمر الثاني: ما اصطلحتما عليه من غير ظلمٍ بين.

أما وقد خُفِّف عنكم من قوانين القسط حسب مقتضيات الصلح، فلا تميلوا كل الميل مع المرأة فتظلموها، وتتعسفوا في استعمال ما سبق ضدها، فعدم استطاعة العدل التام لا يعني الترخص في الظلم الواضح، أي: فلا تميلوا بأهوائكم إلى

(١) تفسير الرازي (١١/ ٢٣٧).

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٢٨٦).

(٣) سنن الدارمي (٢ / ١٩٣) قال محققه حسين سليم أسد: إسناده صحيح.

(٤) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٢٨٦).

بعضهن كلَّ الميل، فالحُبُّ الاخْتِيَارِيّ يُرَوِّضَ الزَّوْجُ نَفْسَهُ عليه من خلال العِشرة الحسنة، وتحمل ما يسوؤه، والحب الإجباري لا يكلفه، ويبذل الطرفان ما يحاولان به تعويض الحب القهري، فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الـمَيْلِ إلى مالكة القلب عن الأخريات؛ حتى يحملكم ذلك على أن تجوروا على صواحبها في ترك أداء الواجب لهن عليكم في القسم لهن، والنفقة عليهن، والعشرة بالمعروف، فتجعلوا الواحدة منهن كالـمعلقة، التي لا هي ذات زوج، ولا هي أيِّمٌ، كما قال ابن عباس [١].

فالمعلَّقة هي الزوجة التي لا يتحقق لها أهداف الزوجية، فظاهرها أنها متزوجة وحقيقتها أنها غير ذلك، فصارت في أشقى الحالين، وأتعس الأمرين، وقد جاء في حديث أم زرع: «زَوْجِيَ العَشَنَّقُ إِنْ أَنْطِقْ أُطَلَّقْ، وَإِنْ أَسْكُتْ أُعَلَّقْ»، وَقَالَتِ ابْنَةُ الحُمَارِسِ:

إِنْ هِـيَ إِلَّا حِـظَـةٌ أَوْ تَـطْـلِـيـقُ أَوْ صَـلَـفٌ أَوْ بَـيْـنَ ذَاكَ تَعْلِيقُ [٢]

فدَلَّ قَوْلُهُ: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ﴾ عَلَى أَنَّ المَحَبَّةَ أَمْرٌ قَهْرِيٌّ، وَأَنَّ لِلتَّعَلُّقِ بِالمَرْأَةِ أَسْبَابًا تُوجِبُهُ قَدْ لَا تَتَوَفَّرُ فِي بَعْضِ النِّسَاءِ، فَلَا يُكَلَّفُ الزَّوْجُ بِمَا لَيْسَ فِي وُسْعِهِ مِنَ الحُبِّ وَالِاسْتِحْسَانِ، وَلَكِنَّ مِنَ الحُبِّ حَظًّا هُوَ اخْتِيَارِيٌّ، وَهُوَ أَنْ يُرَوِّضَ الزَّوْجُ نَفْسَهُ عَلَى الإِحْسَانِ لِامْرَأَتِهِ، وَتَحَمُّلِ مَا لَا يُلَائِمُهُ مِنْ خُلُقِهَا أَوْ أَخْلَاقِهَا مَا اسْتَطَاعَ، وَحُسْنِ المُعَاشَرَةِ لَهَا، حَتَّى يُحَصِّلَ مِنَ الإِلْفِ بِهَا وَالحُنُوِّ عَلَيْهَا اخْتِيَارًا بِطُولِ التَّكَرُّرِ وَالتَّعَوُّدِ. مَا يَقُومُ مَقَامَ المَيْلِ الطَّبِيعِيِّ [٣].

كَأَنَّهُ يَقُولُ: مَهْمَا حَرَصْتُمْ عَلَى أَنْ تَجْعَلُوا المَرْأَتَيْنِ كَالغِرَارَتَيْنِ المُتَسَاوِيَتَيْنِ فِي

(١) الطبري (٩/ ٢٩٠).

(٢) التحرير والتنوير (٥/ ٢١٨).

(٣) التحرير والتنوير (٥/ ٢١٨).

الوَزْنِ، وَهُوَ حَقِيقَةُ مَعْنَى العَدْلِ، فَلَنْ تَسْتَطِيعُوا ذَلِكَ بِحِرْصِكُمْ عَلَيْهِ، وَلَوْ قَدَرْتُمْ عَلَيْهِ لَمَا قَدَرْتُمْ عَلَى إِرْضَائِهِمَا بِهِ، وَإِذَا كَانَ الأَمْرُ كَذَلِكَ فِي الوَاقِعِ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ المَيْلِ، إِلَى المَحْبُوبَةِ مِنْهُنَّ بِالطَّبْعِ، المَالِكَةِ لِمَا لَا تَمْلِكُهُ الأُخْرَى مِنَ القَلْبِ فَتُعْرِضُوا بِذَلِكَ عَنِ الأُخْرَى فَتَذَرُوهَا كَالمُعَلَّقَةِ، كَأَنَّهَا غَيْرُ مُتَزَوِّجَةٍ وَغَيْرُ مُطَلَّقَةٍ[1]، «أَيْ لاَ يُفَرِّطُ أَحَدُكُمْ بِإِظْهَارِ المَيْلِ إِلَى إِحْدَاهُنَّ أَشَدَّ المَيْلِ حَتَّى يَسُوءَ الأُخْرَى بِحَيْثُ تَصِيرُ الأُخْرَى كَالمُعَلَّقَةِ. فَظَهَرَ أَنَّ مُتَعَلِّقَ تَمِيلُوا مُقَدَّرٌ بِإِحْدَاهُنَّ، وأنّ ضمير فَتَذَرُوها المَنْصُوبَ عَائِدٌ إِلَى غَيْرِ المُتَعَلِّقِ المَحْذُوفِ بِالقَرِينَةِ، وَهُوَ إِيجَازٌ بَدِيعٌ»[2].

الفتوى الثالثة: ﴿وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (النساء:١٢٩) فمن أسباب الحصول على المغفرة والرحمة الإصلاح العام، وخاصة بين الزوجين، وتقوى الله بترك أسباب الظلم، فالإصلاح دليل على وجود إفساد سابق من أحد الجهتين أو كليهما، فأصلح معها الوضع الفاسد، ثم تعاملوا بتقوى الله في المستقبل.

فإن الله غفور، يستر الزلات السابقة السالفة من الطرفين، رحيم بجلب الخيرات التي تنمي السعادة في الأسرة، ويدخل في معاني هذه الجملة المباركة: وَإِنْ تُصْلِحُوا مَا مَضَى مِنْ مَيْلِكُمْ وَتَتَدَارَكُوهُ بِالتَّوْبَةِ، وَتَتَّقُوا فِي المُسْتَقْبَلِ عَنْ مِثْلِهِ[3]،

وترى أن الله ختم الآية السابقة بقوله: ﴿وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ مقابل الكلام عن حضور الشح ليكون ملازمًا للأنفس، وختم هذه الآية بقوله: ﴿وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ لينبه على خطورة الميل، فالميل القهري سيظل قائمًا لكنكم تستطيعون مقاومة الميل الاختياري.

---

(١) تفسير المنار (٥/ ٣٦٥).

(٢) التحرير والتنوير (٥/ ٢١٨).

(٣) تفسير الرازي (١١/ ٢٣٧).

الحالة الثالثة: حالة الفراق بين الزوجين: التفرق قد يكون الحل الأمثل للخلاف بين الزوجين، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾:

فالنساء والرجال ليسوا على قلب رجل واحد، ولا على قلب امرأة واحدة، فمن النساء من تتنازل تنازلًا عظيمًا وتصبر صبرًا جميلًا على زوجها، لتجني السعادة الأسرية مع مصاحبة منغصات لا تخلو منها الحياة، ومن الرجال من يصبر على زوجته صبرًا عظيمًا وله سعة حلم، وفي المقابل فمن الزوجين من يضيق كل منهما بالآخر، فالفراق واسع لهما.

والتفرق لا يعني نهاية الحياة، ولا ظلمة العالم، فعندها يغني الله الزوجة من سعته برزق أوسع، وزوج أصلح لها، ويغني الرجل برزق واسع، وزوجة أصلح له، أو عفة لكلٍ منهما.. لذلك تعلم جمال تذييل الآية بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾؛ فإن الوعد بالغنى صادر عنه جل جلاله، فهو واسع الفضل، والعلم، والحكمة، والرحمة، والقدرة، والكرم، حكيم يضع للبشر التشريعات المناسبة، ويقدر لهم الأقدار الحسنة، ومن أعظم أوجه حكمته أنه شرع الطلاق ليكون حلاً سليمًا للزوجين لمواصلة مشوار الحياة، ولما تمرد النصارى على هذا الحكم بظلمهم أنفسهم وقعوا في مصائب اجتماعية مدمرة، حتى ألجأتهم الظروف القاهرة إلى العودة للفطرة السليمة، فعادوا يشرعون الطلاق لكن وفق قيود قاتلة أحيانًا أدت في بعض الحالات لارتكاب جرائم من أحد الطرفين ضد الآخر... فما لهم عن شريعة ربهم ناكبون؟.

القسم السابع

أعمدة الحياة الحقوقية العالمية السعيدة

(النساء: ١٣١-١٣٦)

آيات هذا القسم:

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾.

المناسبة والاتصال:

ذكر الله تعالى جده حقوق الأصناف التي تتعرض للاضطهاد والظلم عادة في القسمين الخامس والسادس، وأهم هذه الأصناف خمسة: النساء، ويتامى النساء، والمستضعفين من الأطفال ﴿ٱلْوِلْدَٰنِ﴾، ويتامى الأطفال، والمرأة التي تخاف من زوجها نشوزًا أو إعراضًا.. لماذا ذكر هذه الأصناف الخمسة تحديدًا؟

للتذكير بهم في المحور القضائي لينالوا اهتمامًا لائقًا من الهيئات القضائية، وهذا يقتضي إيجاد المؤسسات الإدارية التي تكفل لهم عناية خاصة، لمنحهم حقوقهم دون تعسفٍ، وينتقل بنا انتقالًا منطقيًا ليختم المحور القضائي بما يبني السعادة، والحياة المطمئنة ﴿ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا﴾ التي يريدها البشر، وتسعى لها الحكومات والدول والخلائق، فهي موجودة في التشريعات التي أنزلها الله في كتبه، وهي لا تكفل ثواب الدنيا فقط، بل تكفل ثواب (سعادة) الدنيا والآخرة؛

ولذا ذكر هنا: الأعمدة الثلاثة التي تكفل تحقيق الأهداف الحقوقية الرائعة، سواء في جوانبها التربوية الذاتية، أم في جوانبها القانونية التشريعية الملزمة، وذلك حتى لا تصبح المبادئ العظيمة مجرد شعارات، يمكن التلاعب بها.

وقد ذكر الله هذه الأعمدة مفصلًا مجموعةً من الأسس التي تفصلها، وهذه الأعمدة هي:

العمود الأول: العمود القلبي، وهو: تعظيم الله الذي يولد التقوى ويبني الضمير الحي.

والعمود الثاني: العمود التطبيقي القانوني الملزم، وهو: القيام بالقسط بغض النظر عن الظالم والمظلوم قربًا وفقرًا وغنى ومكانة وهذا العمود هو المركز الذي يدور حوله القضاء.

والعمود الثالث: العمود الإيماني العقلي المؤدي إلى قيام العدل العالمي وهي: الإيمان بكل ما جاء به الأنبياء دون تفريق حتى لا يوجد العبث العنصري المجرم الذي يجعل القسط محصورًا على طبقة أو دين أو عرق.

العمود الأول

العمود القلبي عبر تعظيم الله، الذي يولد التقوى، ويبني الضمير الحي (النساء:١٣١-١٣٤)

آيات هذا الفصل:

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيّٗا حَمِيدٗا ١٣١ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ١٣٢ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأۡتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرٗا ١٣٣ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴾ (النساء:١٣١-١٣٤).

لما ذكر الله سبحانه وتعالى أنه يغني كلًّا من الزوجين من سعته ذكر سعة ملكه هنا، وأنه يعطي من هذا الملك من عظمت تقواه، ولبناء التقوى الفردية والمجتمعية فقد تكون هذا العمود من الأسس الآتية:

الأساس الأول:

العلم بأن الله له الملك العام التام للكون، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ .

فالواجب أن يعتمد الناس على التقوى والعمل لا على الأماني والجنسيات والكسل، ولذا قال الله: ﴿وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ (النساء:١٣١)، فليتق الناس أن يجدوا ما يكرهون عند لقائه، حيث سيحاسبهم على كل حقٍّ أمرهم الله أن يوصلوه إلى أهله:

وتجد للطبري ﷺ لفتاتٍ عظيمة في علم (اتصال النَظْم القرآني) تعكس

شخصيته المتفردة في علم التفسير.. إنها الشخصية التي لا أعرف لها نظيرًا بين المفسرين إلى عصرنا، فخذ أيضًا من ذلك ربطه بين قول الله: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾ (النساء: ١٣٠) وقوله بعد ذلك: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (النساء: ١٣١) حيث يقول ﷺ: «وإنما ذكر جل ثناؤه ذلك بعقب قوله: ﴿وإن يتفرَّقا يغن الله كلًا من سعته﴾، تنبيهًا منه خلقَه على موضع الرغبة عند فراق أحدهم زوجته، ليفزعوا إليه عند الجزع من الحاجة والفاقة والوَحْشة بفراق سَكنه وزوجته وتذكيرًا منه له أنه الذي له الأشياء كلها، وأن من كان له ملك جميع الأشياء، فغير متعذّر عليه أن يغنيَه وكلَّ ذي فاقة وحاجة، ويؤنس كلَّ ذي وحشة» [(١)].

ويأتي الرازي تابعًا لهذا التفكير -سواء اطلع عليه أم لم يطلع- فيقول: «وَفِي تَعَلُّقِ هَذِهِ الآيَةِ بِمَا قَبْلَهَا وَجْهَانِ: الأَوَّلُ: أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا ذَكَرَ أَنَّهُ يُغْنِي كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ، وَأَنَّهُ وَاسِعٌ أَشَارَ إِلَى مَا هُوَ كَالتَّفْسِيرِ لِكَوْنِهِ وَاسِعًا فَقَالَ: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يَعْنِي مَنْ كَانَ كَذَلِكَ فَإِنَّهُ لَا بُدَّ وَأَنْ يَكُونَ وَاسِعَ القُدْرَةِ وَالعِلْمِ وَالجُودِ وَالفَضْلِ وَالرَّحْمَةِ. الثَّانِي: أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا أَمَرَ بِالعَدْلِ وَالإِحْسَانِ إِلَى اليَتَامَى وَالمَسَاكِينِ بَيَّنَ أَنَّهُ مَا أَمَرَ بِهَذِهِ الأَشْيَاءِ لاحتياجه إلى أعمال العباد، لأن مالك السموات وَالأَرْضِ كَيْفَ يُعْقَلُ أَنْ يَكُونَ مُحْتَاجًا إِلَى عَمَلِ الإِنْسَانِ مَعَ مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الضَّعْفِ وَالقُصُورِ، بَلْ إِنَّمَا أَمَرَ بِهَا رِعَايَةً لِمَا هُوَ الأَحْسَنُ لَهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ وَأُخْرَاهُمْ [(٢)].

وإذا كان لله ما في السموات وما في الأرض، فما الواجب على الخلق الذين يعيشون في ملكه؟

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٢٩٥).

(٢) تفسير الرازي (١١/ ٢٣٨).

الواجب نحوه سبحانه أن يعتمدوا على التقوى والعمل في حياتهم لا على الأماني والجنسيات الكسل في كل القضايا، ولذا قال الله بعدها: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ (النساء: ١٣١)، فهو تأكيدٌ لما بدأته السورة؛ ولأنه كرر الحث على التقوى في هذه الجمل في سياق الشرط بقوله: ﴿وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟﴾ (النساء: ١٢٨) ﴿وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟﴾ (النساء: ١٢٩) فأخبر تعالى بعد اللطف في ذلك السياق أن وصيته بها مؤكدة، فهو يكررها من أجل أن تكون جزءًا من الثقافة العامة.. أن تكون جزءًا من وسائل الإعلام، أن تكون جزءًا من وسائل التعليم، فإذا تم بناء التقوى في الأفراد والمجتمعات وجدت الضمائر الحية التي تراقب الله تعالى في تصرفاتها وأفعالها، والتقوى تقوى باستشعار عظمة الله وملكه التام العام للسموات والأرض وشدة احتياج الخلق لتطبيق شريعته، «وَجُعِلَ الأَمْرُ بِالتَّقْوَى وَصِيَّةً؛ لِأَنَّ الوَصِيَّةَ قَوْلٌ فِيهِ أَمْرٌ بِشَيْءٍ نَافِعٍ جَامِعٍ لِخَيْرٍ كَثِيرٍ، فَلِذَلِكَ كَانَ الشَّأْنُ فِي الوَصِيَّةِ إِيجَازَ القَوْلِ لِأَنَّهَا يُقْصَدُ مِنْهَا وَعْيُ السَّامِعِ، وَاسْتِحْضَارُهُ كَلِمَةَ الوَصِيَّةِ فِي سَائِرِ أَحْوَالِهِ. وَالتَّقْوَى تَجْمَعُ الخَيْرَاتِ، لِأَنَّهَا امْتِثَالُ الأَوَامِرِ وَاجْتِنَابُ المَنَاهِي، وَلِذَلِكَ قَالُوا: مَا تَكَرَّرَ لَفْظٌ فِي القُرْآنِ مَا تَكَرَّرَ لَفْظُ التَّقْوَى، يَعْنُونَ غَيْرَ الأَعْلَامِ، كَاسْمِ الجَلَالَةِ» (١).

والوصية بالتقوى كانت مدار حديث النبي ﷺ مع أصحابه، فروى عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَمْرٍو السُّلَمِيُّ وَحُجْرُ بْنُ حُجْرٍ قَالاَ: أَتَيْنَا العِرْبَاضَ بْنَ سَارِيَةَ وَهُوَ مِمَّنْ نَزَلَ فِيهِ ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ فَسَلَّمْنَا، وَقُلْنَا أَتَيْنَاكَ زَائِرِينَ وَعَائِدِينَ وَمُقْتَبِسِينَ. فَقَالَ العِرْبَاضُ رضي الله عنه: صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا، فَوَعَظَنَا مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا العُيُونُ، وَوَجِلَتْ مِنْهَا القُلُوبُ،

(١) التحرير والتنوير (٥/ ٢٢٠).

فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! كَأَنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ، فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا؟ فَقَالَ: «أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ المَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»[1].

وقد ذكر الله أن الوصية بالتقوى لا تخص المسلمين بل تشمل أهل الكتب الإلهية، وذكر الله ذلك لتهييج المسلمين وإذكاء عزائمهم وإلهاب هممهم ليعلموا أن هناك من تم إيصاؤهم بالتقوى، فيشعل ذلك المنافسة، والاقتداء بالصالحين من قبلهم كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ (البَقَرَة: ١٨٣).

الأساس الثاني:

استمداد الغنىٰ الاقتصادي، والاجتماعي، والسياسي، والتشريعي منه، والشعور بفضله، وكرمه، رحمته، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ (النساء: ١٣١).

لماذا ذكر التقوى في الأساس الأول، وهنا ذكر الكفر مع أنهما غير متقابلين؛ إذ الكفر يقابل الشكر؟

التقوى تعني بذل الطريق الموصل إليها، وهو العبادة كما قال جل ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة: ٢١)، فإذا كانت العبادة تؤدي إلى التقوى، فإن التقوى تؤدي إلى الشكر كما أخبرك جل ذكره بذلك بقول: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ (آل عمران: ١٢٣)، وهنا تعلم لماذا ختم

(١) أبو داود (٤ / ٣٢٩) برقم٤٦٠٩، والترمذي برقم٢٦٧٦، وقال: حسن صحيح.

الآية بالخيار الثاني بدلًا من العبودية، وهو خيار الكفر فقال: ﴿وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ فإن الوصول إلى التقوى يقتضي السير على طريق العبادة، والعبادة الموصلة إلى التقوى ترفع المرء إلى مرتبة الشكر، ويقابل الشكر الكفر، كما قال تعالى شأنه: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡ﴾ (الزمر: ٧)، وقال: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ﴾ (إبراهيم: ٧).

وهنا قابل بين التقوى والكفر فقال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ (النساء: ١٣١) لأن التقوى تعتبر الوسط بين طرفين يجب تحقيقهما: العبادة التي توصل إلى التقوى، ثم إن التقوى توصل إلى الشكر، كما قال جل ذكره: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ (آل عمران: ١٢٣).

وهنا تعلم أيضًا، لماذا ذكر بعد قليلٍ الشكر في السورة ذاتها، وجعله المانع من نزول العذاب، فقال: ﴿مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡ﴾ (النساء: ١٤٧).

والآن عد إلى ختم آيتنا المجيدة لتجد الله يقول فيها: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ (النساء: ١٣١) وهنا ترى أن الله يُبَصِّرُنا فيها بأن عدم التقوى يعني عدم الشكر وعدم العبودية، وذلك يعني أن العبد اختار الكفر.. فليعلم أنه خيار الفشل والعجز والخسارة؛ لأن الله صاحب الملك التام العام والكائنات خاضعة له لا تخرج عنه سواء عبدته فاتقته وشكرته أم كفرت.

ويُبَصِّرُنا قوله جل شأنه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدٗا﴾ (النساء: ١٣١) بأنه الغني فغناه

ذاتي، ومنه يُستمد الغنى، الغني الذي يمد العابد المتقي الشاكر من فضله وجوده وعطائه، وهو الحميد، أي: المحمود على أفعاله مع الفريقين، فلم يزل يحمده الحامدون سبحانه وجل،، ولذا يجب أن نستمد الغنى الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والتشريعي منه لأنه الغني، والشعور بفضله وكرمه ورحمته.

إنه «الغني الذي لا حاجة تحلّ به إلى شيء، ولا فاقة تنزل به تضطرُّه إليكم، أيها الناس، ولا إلى غيركم «والحميدُ» الذي استوجب عليكم أيها الخلق الحمدَ بصنائعه الحميدة إليكم، وآلائه الجميلة لديكم، فاستديموا ذلك، أيها الناس، باتقائه، والمسارعة إلى طاعته فيما يأمركم به وينهاكم عنه» [1]، فقد قال موسى عليه السلام لِقَوْمِهِ: ﴿إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ (إِبْرَاهِيمَ: ٨)، وَقَالَ ﴿فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ (التَّغَابُنِ: ٦).

الأساس الثالث:

توكيل الله جل مجده في تيسير أسباب السعادة الدنيوية والأخروية، فهو صاحب الملك الكامل التام العام، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ (النساء:١٣٢).

والوكيل: فعيل بمعنى المفعول، أي: هو الموَكَّل الذي يُعتمد عليه في أمر غيره، ولا يحتاج أن يَعتمد على أحد، فهو الوكيل الكفيل بقضاء الحاجات ورد المصائب العاديات، أي: اكتف به أن يتولى أمرك، ويتوكل لك، ويسمّى: الوَكِيلُ؛ لِأَنَّهُ يُوكَلُ إِلَيْهِ الأَمْرُ، فالوُكَلَةُ، وَالوَكَلُ: الرَّجُلُ الضَّعِيفُ، وَالتَّوَكُّلُ: إِظْهَارُ العَجْزِ فِي الأَمْرِ، وَالِاعْتِمَادُ عَلَى غَيْرِكَ[2]، وهذا الاسم المبارك يقتضي الحفظ، فقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾،

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٢٩٦).

(٢) مقاييس اللغة (٦/ ١٣٦)، المفردات في غريب القرآن ت كيلاني (ص: ٥٣١).

أي: بموكل عليهم، وحافظ لهم، ومن ذلك قول القائل:

ذكـــرتُ أبـا أروى فبـت كأنني بـرد الأمـورِ الـماضيـاتِ وكيـلُ
وكـلُّ اجتـمـاعٍ مـن خـليـلٍ لـفرقةٍ وكـلُّ الـذي بـعـدَ الـفـراقِ قليلُ

فمعنى البيت: كأنني كفيل برد الأمور [١].

فكفى بالله قائمًا بكل احتياجات من وكَّله، متكفلًا بمصالحه، حافظًا له من الشرور المتربصة به، «قائمًا بالمصالح قاهرًا متفردًا بجميع الأمور، قادرًا على جميع المقدور» [٢].

«ويكثر في القرآن التعقيب على الأحكام، وعلى الأوامر والنواهي بأن لله ما في السماوات وما في الأرض أو بأن لله ملك السماوات والأرض، فالأمران متلازمان في الحقيقة، فالمالك هو صاحب السلطان في ملكه، وهو صاحب حق التشريع لمن يحتويهم هذا الملك» [٣].

وتلاحظ هنا تكرار قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ثلاث مرات لفظًا ومعنىً أصليًا، وتقدم عليها مثلها في قَوْلِهِ: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطًا﴾ (النِّسَاء: ١٢٦)، فَحَصَلَ تَكْرَارُهَا أَرْبَعَ مَرَّاتٍ فِي كَلَامٍ مُتَنَاسِقٍ [٤]، وذلك ليلفت العقول الغافلة، والقلوب اللاهية إلى معانٍ متعددة، ومدلولات مختلفة قد يختلق الشيطان خللًا بسببها في نفوسهم، ولا رد عليها أبلغ من تذكر أن لله ما في السموات وما في الأرض.

---

(١) الزاهر في معاني كلمات الناس (١/ ٨).

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٥/ ٤٢٨).

(٣) في ظلال القرآن (٢/ ٧٧١).

(٤) التحرير والتنوير (٥/ ٢٢١).

فَأَمَّا الأُولَى فَهِيَ وَاقِعَةٌ مَوْقِعَ التَّعْلِيلِ لِجُمْلَةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ (النِّسَاء: ١١٦)، وَلِقَوْلِهِ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ (النِّسَاء: ١١٦)، وَالتَّذْيِيلِ لَهُمَا، بعد أن فصل بينهما بذكر التحذير من الخلل العقلي عند اتباع الخطط الشيطانية الخبيثة التي فصلها الله تفصيلًا يخفى على الصم البكم العمي الذي لا يعقلون، وبعد فمن دعا الشيطان ونفذ خططه وأشرك بمن له ما في السموات والأرض استحق عدم الغفران، وهذه الجملة كانت لِلِاحْتِرَاسِ لِجُمْلَةِ ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ (النِّسَاء: ١٢٥)، كَمَا سبق.

وأما الثانية فَوَاقِعَةٌ مَوْقِعَ التَّعْلِيلِ لِجُمْلَةِ ﴿يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾؛ فمن خاف من الزوجين أن يفارق صاحبه بعد أن سدت آفاق الحياة في اجتماعهما فليذكر أن لله ما في السموات وما في الأرض.

وَأَمَّا الثَّالِثَةُ الَّتِي تَلِيهَا فَهِيَ عِلَّةٌ لِلْجَوَابِ المَحْذُوفِ، وَهُوَ جَوَابُ قَوْلِهِ: وَإِنْ تَكْفُرُوا فَالتَّقْدِيرُ: وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْ تَقْوَاكُمْ وَإِيمَانِكُمْ فَإِنَّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ وَلَا يَزَالُ غَنِيًّا حَمِيدًا، فمن لم يتق الله فكفر فليذكر أنه لا يمكنه الهرب منه، فلله ما في السموات وما في الأرض، «فهو تَعَالَى مُنَزَّهٌ عَنْ طَاعَاتِ المُطِيعِينَ وَعَنْ ذُنُوبِ المُذْنِبِينَ، فَلَا يَزْدَادُ جَلَالُهُ بِالطَّاعَاتِ، وَلَا يَنْقُصُ بِالمَعَاصِي وَالسَّيِّئَاتِ»[1].

وَأَمَّا الرَّابِعَةُ فَعَاطِفَةٌ عَلَى مُقَدَّرٍ مَعْطُوفٍ عَلَى جَوَابِ الشَّرْطِ تَقْدِيرُهُ: وَإِنْ تَكْفُرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ فَإِنَّه وَكِيلٌ عَنْ رَسُولِهِ في الإحاطة بكم ومعاقبتكم على سوء أفعالكم، وأيضًا من أراد البحث عن وكيلٍ يتوكل له في قضاء احتياجاته التي يستطيعها والتي لا يستطيعها، فليوكل الله؛ فإن له ما في السموات وما في الأرض، فسيتوكل له بحفظه وتدبيره.

---

(١) تفسير الرازي (١١/ ٢٣٩).

«وَإِذَا كَانَ الدَّلِيلُ الوَاحِدُ دَلِيلًا عَلَى مَدْلُولَاتٍ كَثِيرَةٍ فَإِنَّهُ يَحْسُنُ ذِكْرُ ذَلِكَ الدَّلِيلِ لِيُسْتَدَلَّ بِهِ عَلَى أَحَدِ تِلْكَ المَدْلُولَاتِ، ثُمَّ يَذْكُرُهُ مَرَّةً أُخْرَى لِيُسْتَدَلَّ بِهِ عَلَى الثَّانِي، ثُمَّ يَذْكُرُهُ ثَالِثًا لِيُسْتَدَلَّ بِهِ عَلَى المَدْلُولِ الثَّالِثِ» (١)، كما أن التكرار للدليل ذاته يوجب أن يَجْتَهِد الإِنْسَانُ فِي التَّفَكُّرِ فِيهَا وَالِاسْتِدْلَالِ بِأَحْوَالِهَا وَصِفَاتِهَا عَلَى صِفَاتِ الخَالِقِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَلَمَّا كَانَ الغَرَضُ الكُلِّيُّ مِنْ هَذَا الكِتَابِ الكَرِيمِ صَرْفَ العُقُولِ وَالأَفْهَامِ عَنِ الِاشْتِغَالِ بِغَيْرِ اللَّهِ إِلَى الِاسْتِغْرَاقِ فِي مَعْرِفَةِ اللَّهِ، وَكَانَ هَذَا التَّكْرِيرُ مِمَّا يُفِيدُ حُصُولَ هَذَا المَطْلُوبِ وَيُؤَكِّدُهُ، لَا جَرَمَ كَانَ فِي غَايَةِ الحُسْنِ وَالكَمَالِ (٢).

الأساس الرابع:

العلم بقدرته علىٰ الإفناء المستأصل، والإيجاد لمن شاء أن يخلقهم، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالىٰ: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ (النساء:١٣٣).

ويأت بآخرين من الإنس، أو يأت بآخرين من خلق مغاير للإنس، وكلمة: «آخرين» يوصف بها مغاير لموصوف سابق مقابل، والتغاير قد يكون بالجنس، وقد يكون بالصفة مع اتحاد الذات، وهذه السنة العامة لا تحابي المسلمين، فليس بأمانيهم، ولا أماني غيرهم؛ ويتكرر هذا المعنى ليحصل الرسوخ بوعيه، فنجد في سورة محمد ﷺ قوله تعالى شأنه: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ (محمد : ٣٨).

وقد أرانا الله العبر في التاريخ بإظهار هذه القدرة في صورٍ متعددة منها مثلًا ما جاء عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: لَمَّا فُتِحَتْ مَدَائِنُ قُبْرُسَ، وَقَعَ

(١) تفسير الرازي (١١/ ٢٣٩).

(٢) تفسير الرازي (١١/ ٢٣٩).

النَّاسُ يَقْتَسِمُونَ السَّبْيَ، وَيُفَرِّقُونَ بَيْنَهُمْ، وَيَبْكِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، فَتَنَحَّى أَبُو الدَّرْدَاءِ، ثُمَّ احْتَبَى بِحَمَائِلِ سَيْفِهِ، فَجَعَلَ يَبْكِي، فَأَتَاهُ جُبَيْرُ بْنُ نُفَيْرٍ، فَقَالَ: مَا يُبْكِيكَ يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ؟ أَتَبْكِي فِي يَوْمٍ أَعَزَّ اللَّهُ فِيهِ الإِسْلاَمَ وَأَهْلَهُ؟ وَأَذَلَّ فِيهِ الكُفْرَ وَأَهْلَهُ، فَضَرَبَ عَلَى مَنْكِبَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا جُبَيْرَ بْنَ نُفَيْرٍ، مَا أَهْوَنَ الخَلْقَ عَلَى اللهِ إِذَا تَرَكُوا أَمْرَهُ، بَيْنَا هِيَ أُمَّةٌ قَاهِرَةٌ ظَاهِرَةٌ عَلَى النَّاسِ، لَهُمُ المُلْكُ حَتَّى تَرَكُوا أَمْرَ اللهِ، فَصَارُوا إِلَى مَا تَرَى، وَإِنَّهُ إِذَا سُلِّطَ السِّبَاءُ عَلَى قَوْمٍ فَقَدْ خَرَجُوا مِنْ عَيْنِ اللهِ.. لَيْسَ لِلَّهِ بِهِمْ حَاجَةٌ[1].

والمقصود أن الوجود الإنساني مرهونٌ بالتمسك بقوة الله والاستغاثة بقدرته واللجوء إليه، فإذا هو أعرض عن الله ولجأ إلى توكيل الشرق أو الغرب فالنتيجة أن يُسلط عليه الشرق والغرب.. يتصرفون في أحواله وأوضاعه، ويبين الله هذه العظمة له تفصيلًا في أشرف أحاديث أهل الشام فيما رواه أَبو ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا رَوَى عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: «يَا عِبَادِي: إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلاَ تَظَالَمُوا. يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلاَّ مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ. يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلاَّ مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ. يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلاَّ مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ. يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ. يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي. يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا. يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا. يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلاَّ كَمَا يَنْقُصُ المِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ

(١) سنن سعيد بن منصور (الفرائض) ٢٢٧ - (٢ / ٢٤٨).

البَحْرَ. يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلاَ يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسَهُ». قَالَ سَعِيدٌ: كَانَ أَبُو إِدْرِيسَ الخَوْلاَنِيُّ إِذَا حَدَّثَ بِهَذَا الحَدِيثِ جَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ [١].

الأساس الخامس:

التماس نتيجة السعي الجاد منه تعالىٰ جده، فكل ساعٍ يجد نتيجة سعيه في الغالب الأعم، سواء أراد الدنيا أم أراد الآخرة، والله هو السميع البصير المحصي لكل ما يصدر من عباده من أنفاس، أو أعمال، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالىٰ ذكره: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ (النساء:١٣٤):

الثواب من ثاب الرجل يثوب ثَوْبًا وثَوَبانًا رجع بعد ذَهابه، وثاب الناس: اجتمعوا وجاءوا، فالثَّاءُ وَالوَاوُ وَالبَاءُ قِيَاسٌ صَحِيحٌ مِنْ أَصْلٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ العَوْدُ وَالرُّجُوعُ، وَالمَثَابَةُ: المَكَانُ يَثُوبُ إِلَيْهِ النَّاسُ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ (البقرة: ١٢٥). قَالَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ: مَثَابَةً: يَثُوبُونَ إِلَيْهِ لَا يَقْضُونَ مِنْهُ وَطَرًا أَبَدًا[٢]، فيطلق الثواب على النتيجة التي يجدها الرجل بناء على العمل، وبذا يكون الثواب هنا شاملًا للخير والشر، ولذا قال الراغب» «أصل الثوب رجوع الشيء إلى حالته الأولى التي كان عليها، أو إلى الحالة المقدرة المقصودة بالفكرة وهي الحالة المشار إليها بقولهم أول الفكرة آخر العمل» [٣].

ماذا يلفت نظرك في هذه الآية عند النظر إلى ما قبلها؟ يلفت النظر أن كثيرًا من الناس يغره تقلب الذين كفروا في البلاد، فيجعل هدفه الحيوي أن يجعلهم وكلاء

(١) صحيح مسلم (٨ / ١٦).

(٢) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (١/ ٩٤)، مقاييس اللغة (١/ ٣٩٣).

(٣) المفردات في غريب القرآن ت كيلاني (ص: ٨٣).

حفظاء أمناء، فعندما يقول الله له: لماذا تفعل ذلك؟ يجيب: لأني أريد ثواب الدنيا، أريد مكافأة الدنيا من أجل أن أُحفظ، فيجيبه ربه ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ﴾ فهذا رد على وسوسات الشيطان التي يوسوها في نفوس بني آدم، عندما يتجهون إلى الشرق والغرب ويتركون ربهم.. لماذا تلجأون إلى الشرق أو إلى الغرب.. لماذا تلجأون إلى الأصنام.. إلى الأحجار.. إلى البشر؟ يريدون أن يجدوا ثواب أعمالهم، أي: نتائجه، وأهم نتائجه عندهم المكافأة والحفظ والرعاية.. يجيبهم ربهم تعالى ذكره: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ﴾.

كما قرر الله هذه الحقيقة في قوله جل ذكره: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (سورة هود: ١٥-١٦).

تجد هذه الآيات جاءت بعد الكلام عن الحياة الزوجية، فهذان الزوجان اللذان تفرقا يغني الله كلًا من سعته، فيرزق الله المرأة زوجًا بدل زوجها، ويرزق الرجل زوجة بدل زوجته، وإن أراد كلٌّ منهما ثواب الدنيا فإنه سيأخذه، لكنه ينبغي أن يذكر أن الأمر لا يتعلق فقط بالدنيا بل هناك حياة دائمة هي الآخرة، وقد يكون الانفصال من أجل الآخرة، فأراد الله سبحانه وتعالى أن يبين الأمرين.

وذلك يقتضي السعي في الدنيا، فلا ينبغي أن يصد ثواب الآخرة المؤمنين عن طلب ثواب الدنيا، بل يكون عونًا عليها، وتبصر ذلك من قوله: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ (النساء:١٣٤):

فهذه الآيَةُ تحمل في ثناياها معنىً آخر، وتَعْلِيمًا لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ لَا يَصُدَّهُمُ الإِيمَانُ عَنْ طَلَبِ ثَوَابِ الدُّنْيَا، إِذِ الكُلُّ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ. وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ تَذْكِيرًا لِلْمُؤْمِنِينَ بِأَنْ لَا يُلْهِيهِمْ طَلَبُ خَيْرِ الدُّنْيَا عَنْ طَلَبِ الآخِرَةِ، إِذِ الجَمْعُ بَيْنَهُمَا أَفْضَلُ، وَكِلَاهُمَا مِنْ

عِنْدِ اللَّهِ [١]، وَعَلَى الِاحْتِمَالَاتِ كُلِّهَا فَجَوَابُ الشَّرْطِ بِ «مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا» مَحْذُوفٌ، تَدُلُّ عَلَيْهِ عِلَّتُهُ، وَالتَّقْدِيرُ: مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَلَا يُعْرِضُ عَنْ دِينِ اللَّهِ، أَوْ فَلَا يَصُدُّ عَنْ سُؤَالِهِ، أَوْ فَلَا يَقْتَصِرُ عَلَى سُؤَالِهِ، أَوْ فَلَا يُحَصِّلُهُ مِنْ وُجُوهِ لَا تُرْضِي اللَّهَ تَعَالَى: كَمَا فَعَلَ بَنُو أُبَيْرِقٍ وَأَضْرَابُهُمْ، وَلْيَتَطَلَّبْهُ مِنْ وُجُوهِ البِرِّ لِأَنَّ فَضْلَ اللَّهِ يَسَعُ الخَيْرَيْنِ، وَالكُلُّ مِنْ عِنْدِهِ. وَهَذَا كَقَوْلِ القُطَامِيِّ:

فَمَنْ تَكُنِ الحَضَارَةُ أَعْجَبَتْهُ ... فَأَيُّ رِجَالِ بَادِيَةٍ تَرَانَا

التَّقْدِيرُ: فَلَا يَغْتَرِرْ أَوْ لَا يَبْتَهِجْ بِالحَضَارَةِ، فَإِنَّ حَالَنَا دَلِيلٌ عَلَى شرف البداوة [٢].

والآية توقظك من الغفلة في تقرير المبدأ الحيوي الإلهي الذي يجيب على جميع أسئلة الشاكين والملحدين والمؤمنين ممن وقع في قلوبهم مرض، وقد ذكر الله هذا المبدأ بصور متعددة، وأفكار مكملة لبعضها مثل قوله تعالى: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ (البَقَرَة: ٢٠٠-٢٠٢)، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ (الشُّورَى: ٢٠)، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ (الإِسْرَاءِ: ١٨-٢١).

---

(١) التحرير والتنوير (٥/ ٢٢٣).

(٢) التحرير والتنوير (٥/ ٢٢٤).

وأنشد الرافعي:

الملك لله الذي عنت الوجو ه له وذلت عنده الأرباب
متفرد بالملك والسلطان قد خسر الذين تجاذبوه وخابوا
دعهم وزعم الملك يوم غرورهم فسيعلمون غدًا من الكذاب

العمود الثاني

العمود التطبيقي القانوني الملزم عبر القيام بالقسط، وهو المركز الذي يدور حوله القضاء (النساء:١٣٥)

آية هذا العمود: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (النساء:١٣٥).

المناسبة والاتصال:

هذه المواضع من أعسر المواضع في إظهار الاتصال والمناسبة المباشرة بينها، ولعله يمكننا أن نقرر أنه جل ذكره بعد أن ذكر آداب القضاء وأفتى السائلين حول عددٍ من المسائل الحقوقية، أراد أن يبين أعظم عمودٍ قانونيٍّ يكفل الحقوق لكل طرفٍ من الأطراف، وهو القسط الذي يقتضي المساواة في التعامل مع الجميع ذكورًا وإناثًا، فذلك أساس الحياة الحقوقية الكريمة.

وفي هذه الآية المباركة ينشر الله رحمته بتربية النزاهة الشخصية في جميع الجهات، ويبين ضرورة المساواة في ميزان القسط أمام التشريعات وفي الأحكام القضائية دون محاباةٍ ولو للنفس أو الأقارب، وجعل ذلك نصًا دستوريًا قانونيًا ملزمًا للسلطة التنفيذية والقضائية فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ (النساء: ١٣٥)، ومن أسباب ذلك

ما ذكر سابقًا من محاولة بعض المؤمنين نصرة ظالم مثل بشير بن أبيرق حيث غرر بهم بعض عصابته، وكذلك لأن مسائل القضاء بين الزوجين يجري فيها التعصب غالبًا من الطرفين.. هنا يقرر الله ضرورة قيام المحور القضائي على القسط لا على العاطفة، فالحياة السعيدة لا تبنى إلا على القسط، فأنزل الله هذه الآية التي تفصل القيام بالقسط في كل الأحوال سواء أتعلقت بالقضاء بين الناس في المسائل المالية أم في المسائل الاجتماعية والأسرية، ويمكنك أن تعد هذه الآية أعظمَ نصٍّ دستوريٍّ في تاريخ البشرية يفترض أن تتعلم منه المحاكم والهيئات الدولية.

والأسس المدهشة التي لـمَّتها هذه الآية تجعلها ضمن الإعجاز التشريعي، وقد رأينا أثر ذلك عند المنصفين؛ إذ تجد هذه الآية على بوابة كلية الحقوق في جامعة هارفارد باعتبارها من أعظم النصوص القضائيّة في التاريخ البشري، فذكر الله عددًا من الأسس التي تضمن العدالة المحلية والعالمية، وهي:

الأساس الأول:

الإيمان الذي يجعل المؤمنين يقدمون الأنموذج المتميز في القيام الـمبالغ فيه بالقسط كمًا ونوعًا في مجتمعاتهم وأمام العالم، ويُبَصِّرُنا به هذا النداء العظيم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾.

إنه نداء يُـحَمِّل المنادى أثقال المسؤولية العظيمة عن الطلب الذي يحويه النداء ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾، فالقَوَّامُونَ جَمْعُ قَـوَّامٍ، وَهُوَ الـمبَالِغُ فِي القِيَامِ بِالشَّيْءِ مُسْتَوِيًا تَامًّا، فهم ليسوا قائمين بل قوامين يتحركون فلا يفترون لإقامة العدالة في هذا العالم المليء بالظلم، وهذه الصفة (قوام) مشتق من القيام ضد القعود، لأن القاعد متكاسل، فهذا قائم يقوم بأداء الأمور على حقيقتها، فالقوامون بالقسط هُمُ الَّذِينَ يُقِيمُونَ العَدْلَ بِالإِتْيَانِ بِهِ عَلَى أَتَمِّ الوُجُوهِ وَأَكْمَلِهَا وَأَدْوَمِهَا، وذلك بالإِتْيَان بِهِ مُسْتَوِيًا

تَامًّا لَا نَقْصَ فِيهِ وَلَا عِوَجَ كأنه يقول:

كونوا قوامين بالقسط الذي يمنع البغي والظلم والفساد في الأرض..

كونوا قوامين بالقسط الذي يكفل إيصال الحقوق إلى أهلها، ويعطي كل ذي حق حقه في العالمين: المسلمين وغير المسلمين، بل والخلق أجمعين حتى في القيام على العدالة مع الحيوان، قال رَسُول اللَّهِ ﷺ: «لَتُؤَدُّنَّ الحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ القَرْنَاءِ» (١).

إنه نداء للذين آمنوا. نداء لهم بصفتهم الجديدة. وهي صفتهم الفريدة. صفتهم التي بها أنشئوا نشأة أخرى وولدوا ميلادًا آخر. ولدت أرواحهم، وولدت تصوراتهم، وولدت مبادئهم وأهدافهم، وولدت معهم المهمة الجديدة التي تناط بهم (٢)،

وأتى بصيغة المبالغة فقال: كونوا قوامين ولم يقل كونوا قائمين ليبالغوا في حراسة هذه الصفة من الناحية الكمية، فإنهم لا ينبغي أن يفتروا عن القيام بالقسط في كل الأحوال المختلفة حتى في العلاقات الزوجية والأبوية، وحتى في أقل ما يمكن أن يتم التبايع فيه، وكذلك من حيث الكيفية فيجب أن يكون القيام بالقسط قويًا وحاسمًا وقائمًا على القسط في التعامل والإنجاز، وَلِذَلِكَ أَمَرَ تَعَالَى بِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَإِقَامَةِ الشَّهَادَةِ وَإِقَامَةِ الوَزْنِ بِالقِسْطِ، لِتَأْكِيدِ العِنَايَةِ بِهَذِهِ الأَشْيَاءِ، وَمَنْ بَنَى جِدَارًا مَائِلًا أَوْ نَاقِصًا يُقَالُ: إِنَّهُ أَقَامَ البِنَاءَ أَوْ أَقَامَ الجِدَارَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ﴾ (الكهف: ٧٧) (٣)، وَهَذِهِ أَبْلَغُ؛ لِأَنَّهَا أَمْرٌ بِتَحْصِيلِ الصِّفَةِ لَا بِمُجَرَّدِ الإِتْيَانِ بِالقِسْطِ الَّذِي يَصْدُقُ بِمَرَّةٍ، وَتَقُولُ: أَقِيمُوا القِسْطَ وَأَبْلَغُ مِنْهُ: كُونُوا قَائِمِينَ بِالقِسْطِ،

(١) صحيح مسلم (٨ / ١٨) رقم ٢٥٨٢ .

(٢) في ظلال القرآن (٢/ ٧٧٥).

(٣) تفسير المنار (٥/ ٣٧١).

وَأَبْلَغُ مِنْ هَذَا وَذَاكَ: كُونُوا قَوَّامِينَ بِالقِسْطِ، أَيْ: لِتَكُنِ المُبَالَغَةُ وَالعِنَايَةُ بِإِقَامَةِ القِسْطِ عَلَى وَجْهِهِ صِفَةً مِنْ صِفَاتِكُمْ بِأَنْ تَتَحَرَّوْهُ بِالدِّقَّةِ التَّامَّةِ حَتَّى يَكُونَ مَلَكَةً رَاسِخَةً فِي نُفُوسِكُمْ، وصفة دائمة في الواقع المسلم، وَالقِسْطُ يَكُونُ فِي العَمَلِ كَالقِيَامِ بِمَا يَجِبُ مِنَ العَدْلِ بَيْنَ الزَّوْجَاتِ وَالأَوْلَادِ، وَيَكُونُ فِي الحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ مِمَّنْ يُوَلِّيهِ السُّلْطَانُ أَوْ يُحَكِّمُهُ النَّاسُ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَكَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ المُسْلِمُونَ بِمِثْلِ هَذِهِ الهِدَايَةِ أَعْدَلَ الأُمَمِ وَأَقْوَمَهُمْ بِالقِسْطِ، وَكَذَلِكَ كَانُوا عِنْدَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ بِالقُرْآنِ، وَصَدَقَ عَلَى سَلَفِهِمْ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ (الأعراف: ١٨١)[1].

ومن محاسن الأمور في المجتمعات الشرقية والغربية (المتحضرة) المبدأ المتعلق بالحقوق الاجتماعية حيث لا يفرضون ضرائب على أحدٍ إلا إذا كان عنده حد أدنى من الدخل المالي الحقيقي.. هذا من القيام بالقسط لكنك للأسف تفقده غالبًا في الواقع الاجتماعي للمسلم الذي يناديه الله ﷻ هذا النداء.

الأساس الثاني:

يجب إقامة الشهادة لله، لا لجنسٍ، ولا لنوعٍ، ولا لقبيلةٍ، ولا لأقرب الناس، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ (النساء:١٣٥).

لقد كرَّرَ الله جل ذكره هذا المبدأ لأغراض مختلفة مثل قوله جل ذكره: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ (الطلاق: ٢) فكلمة ﴿لِلَّهِ﴾ تدل على أنه يجب أن نكون حاضري القلب في إقامتها ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ، وذلك يقتضي التجرد والصدق في أدائها لتَكُون صَحِيحَةً عَادِلَةً حَقًّا، خَالِيَةً مِنَ التَّحْرِيفِ وَالتَّبْدِيلِ وَالكِتْمَانِ، وَجُمْلَةُ ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ حَالِيَّةٌ، وَ﴿لَوْ﴾ فِيهَا وَصْلِيَّةٌ، أي: حتى لَوْ عَادَ ضَرَرُهَا على من أداها بأن أقرَّ على نفسه بحق أو

(١) تفسير المنار (٥/ ٣٧١).

شهد على أقرب الناس إليه، كَأَنْ يَشْهَدَ عَلَى مَنْ يُتَوَقَّعُ ضَرَرُهُ مِنْ سُلْطَانٍ ظَالِمٍ [١]، أو أن يشهد على نفسه بحقٍ عليه لا له، ولنسمع إلى هذه الحادثة التي تدل على مدى عظمة إقامة الحقوق في الزمن الإسلامي البهيج، فعن جابر بن عبد الله ﷺ أنه قال: «أَفَاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خَيْبَرَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَقَرَّهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَمَا كَانُوا، وَجَعَلَهَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ، فَبَعَثَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ رَوَاحَةَ ﷺ، فَخَرَصَهَا عَلَيْهِمْ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: يَا مَعْشَرَ اليَهُودِ، أَنْتُمْ أَبْغَضُ الخَلْقِ إِلَيَّ، قَتَلْتُمْ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَكَذَبْتُمْ عَلَى اللَّهِ، وَلَيْسَ يَحْمِلُنِي بُغْضِي إِيَّاكُمْ عَلَى أَنْ أَحِيفَ عَلَيْكُمْ، قَدْ خَرَصْتُ عِشْرِينَ أَلْفَ وَسْقٍ مِنْ تَمْرٍ، فَإِنْ شِئْتُمْ فَلَكُمْ، وَإِنْ أَبَيْتُمْ فَلِي، فَقَالَوا: بِهَذَا قَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ، قَدْ أَخَذْنَا، فَاخْرُجُوا عَنَّا»[٢].

وقدم الأَمْرَ بِالقِيَامِ بِالقِسْطِ عَلَى الأَمْرِ بِالشَّهَادَةِ لأن القيام بالقسط هو المبدأ الأساسي لإقامة حياة الناس، ولأن السورة قائمة على ذلك من أولها حيث قال تعالى جده: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ (النساء: ٣)، ثم ذكر الله سبحانه وتعالى العدل والقسط في الحقوق وأنصبة الإرث إلى أن قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ (النساء: ٥٨)، فالسورة مبناها على العدل، فقدم الأمر بالقيام بالقسط على الأمر بالشهادة؛ لأن القيام بالقسط هو المبدأ الأساسي الذي تقوم عليه الحياة، والشهادة أحد أهم الأوجه المساعدة على إقامته، ولأَنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ عَادَتُهُمْ أَنَّهُمْ يَأْمُرُونَ غَيْرَهُمْ بِالمَعْرُوفِ، فَإِذَا آلَ الأَمْرُ إِلَى أَنْفُسِهِمْ تَرَكُوهُ حَتَّى أَنَّ أَقْبَحَ القَبِيحِ إِذَا صَدَرَ عَنْهُمْ كَانَ فِي مَحَلِّ المُسَامَحَةِ وَأَحْسَنِ الحُسْنِ، وَإِذَا صَدَرَ عَنْ غَيْرِهِمْ كَانَ فِي مَحَلِّ المُنَازَعَةِ فاللَّه سُبْحَانَهُ نَبَّهَ فِي هَذِهِ الآيَةِ عَلَى سُوءِ

(١) تفسير الزمخشري (١/ ٥٧٥)، تفسير الرازي (١١/ ٢٤١).

(٢) أحمد (٣/ ٣٦٧) برقم ١٤٩٥٣، وقال الأرناؤوط: إسناده قوي على شرط مسلم.

هَذِهِ الطَّرِيقَةِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ تَعَالَى أَمَرَهُمْ بِالقِيَامِ بِالقِسْطِ أَوَّلًا، ثُمَّ أَمَرَهُمْ بِالشَّهَادَةِ عَلَى الغَيْرِ ثَانِيًا، تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّ الطَّرِيقَةَ الحَسَنَةَ أَنْ تَكُونَ مُضَايَقَةُ الإِنْسَانِ مَعَ نَفْسِهِ فَوْقَ مُضَايَقَتِهِ مَعَ الغَيْرِ [١].

وانظر لجمال التربية القرآنية للنفوس البشرية، فهنا «يحاول المنهج تجنيد النفس في وجه ذاتها، وفي وجه عواطفها، تجاه ذاتها أولًا، وتجاه الوالدين والأقربين ثانيًا.. وهي محاولة شاقة.. أشق كثيرًا من نطقها باللسان، ومن إدراك معناها ومدلولها بالعقل»[٢]. ولذا قال قتادة ﵀ في هذه الآية: هذا في الشهادة. فأقم الشهادة، يا ابن آدم، ولو على نفسك، أو الوالدين، أو على ذوي قرابتك، أو شَرَفِ قومك؛ فإنما الشهادة لله وليست للناس، وإن الله رضي العدل لنفسه، والإقساط والعدل ميزانُ الله في الأرض، به يردُّ الله من الشديد على الضعيف، ومن الكاذب على الصادق، ومن المبطل على المحق. وبالعدل يصدِّق الصادقَ، ويكذِّب الكاذبَ، ويردُّ المعتدي ويُرَنِّخُه[أي: ويَذَلِّلُه]، تعالى ربنا وتبارك. وبالعدل يصلح الناس، يا ابن آدم ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾، يقول: أولى بغنيكم وفقيركم. قال: وذكر لنا أن نبيَّ الله موسى ﵇ قال: «يا ربِّ، أي شيء وضعت في الأرض أقلّ؟ » -ربما كان المعنى: أقل أن يعمل به الناس مع أنه واجب على كل البشر- قال: «العدلُ أقلُّ ما وضعت في الأرض»، فلا يمنعك غِنى غنيّ ولا فقر فقير أن تشهد عليه بما تعلم، فإن ذلك عليك من الحق [٣].

وربما تساءلت عن سر تقديم الشهادة في قوله تَعَالَى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ

(١) تفسير الرازي (١١/ ٢٤١).

(٢) في ظلال القرآن (٢/ ٧٧٦).

(٣) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٣٠٥).

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ (آل عِمْرَانَ: ١٨)؛ بخلاف الأمر هنا، فتأمل لتجد أن الكلام هناك عن أعظم العدل وهو استحقاق الله أن يوحد في طاعته وعبادته، وذلك يقتضي البحث عن الأعظم شهادة على هذه الحقيقة، والأعظم شهادة هو الله، فكيف يفترون عليه بنقض توحيده.

أما هاهنا فأمور العدل تحتاج إلى تفكر وإعادة نظر وتأكد من أن هذا ظالم وهذا مظلوم، وأما هناك فإن الشاهد الله على صفاته ليبين جل في علاه كذب الذين يفترون عليه الكذب، فيزعمون مبدأ الخطيئة الأصلية اللاحقة لبني آدم عليه السلام، فهل من العدل معاقبة البريء بذنب غيره، أو يزعمون جواز الشرك؟!

ما الفرق بين كلمة العدل والقسط؟

بعض أهل العلم يقولون: إن استخدام كلمة العدل والقسط للتفنن، وهذا من جمال فصاحة اللغة العربية، فمرة يأتي بهذا ومرة يأتي بهذا، ولعل الأليق بالعظمة القرآنية أن نقرر عدة فروق بين المصطلحين:

العدل هو المبدأ والنتيجة النهائية، والقسط هو النصيب الحق الذي يجب أن يأخذه كلُّ صاحبٍ له، ويعتدل الطرفان بأخذ كل واحدٍ حقه بالنظر إلى النتيجة النهائية، وإلا فإن كلًا منهما قد يأخذ قسطًا مختلفًا عن الثاني، إلا أن النتيجة الكلية بالنظر إلى أخذ كل منهما قسطه العدل.. لماذا؟ لأنك سترى ما أخذه من قسط في القضية الجزئية وتجمع لذلك قضايا جزئية أخرى لترى العدالة بينهما واضحة.

فإعطاء كل واحدٍ منهم قسطه هو العدل، والقسط هو النصيب المحدد، كما أن الميزان آلته، فإعطاء كل واحدٍ منهم ما يستحقه طبيعة وشريعة هو القسط ويؤدي إلى إقامة العدل الذي يعني المساواة عند المحاكمة، فالعدل هو النتيجة، والميزان هو الآلة

لهذا التوازن ولهذا قال تعالى ذكره: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ (الرحمن: ٧ – ٩).

واختلف أهل العلم في أصل هذه الكلمة هل أصلها عربي أو معرب؟ أي يرجع إلى الآرامية أو إلى اليونانية، ثم تم تعريبه؟ وتلحظ التشابه بين هذه الكلمة في اللغة العربية والانجليزية، فاللغة العربية تقول قسط، وفي اللغة الإنجليزية just أي عدالة، ومعلوم أن الإنجليزية محورة عن اللاتينية، وكذلك في اللاتينية تقول: جستزز يعني عدالة وفي العربية: قسطاس، فهناك أصل مشترك، وبناء على ذلك اختلفوا هل أصلها عربي أم معرب، وبعضهم يزعم رجوعها إلى الآرامية، ويظهر لي أن الآرامية محورة عن العربية القديمة.

الأساس الثالث:

شهادة الحق واجبة، بغض النظر عن مدى قرب المشهود عليهم من الإنسان نسبًا، ﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ أو مصلحة: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ (النساء: ١٣٥).

هنا يقيم الله الحياة للبشرية جميعًا على أحسن أوجه السعادة، ولا يكون ذلك إلا بالعدل، فالمشهود عليه سواء أكانت نفس الشاهد أم والديه أم الأقربين، وسواء أكان غنيًا أم فقيرًا فإن الله يتولى إصلاح حياته، وليست شهادة الزور هي التي تصلحه.. ما لكم أتظنون حين أمركم الله بالقسط أنه يريد غير مصلحة الغني والفقير، فقمتم تزورون الشهادة لأجل كلٍ منهما؟

فشهادة الجور تأتي بالضد للمشهود له، فالمطلوب الشهادة الخالصة لوجه الله لا التبعية للعاطفة، وذكر الله حالة الغنى والفقر لميل القلوب حسب طباعها إلى إحدى الحالتين، فمن الناس من يعظم الغني، فيميل بكلامه ثم بشهادته له، ومن الناس من

يرحم الفقير ويشعر بالتعاطف معه، فيميل بالشهادة نحوه، ولذا روى السدي أن هذه الآية نزلت في النبيّ ﷺ، واختصم إليه رجلان: غنيٌّ وفقيرٌ، وكان ضِلَعه مع الفقير، يرى أن الفقير لا يظلم الغنيَّ، فأبى الله إلا أن يقوم بالقسط في الغني والفقير فقال: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ﴾[1] الآية.

الآن تعال لترى جمال التوافق بين الوحي الخاتم، وبقايا الوحي الذي أنزل الله ﷻ من قبل، ولترى مع ذلك أيضًا العظمة اللائقة بهما من جهة، والمجد الذي يليق بالوحي الخاتم من حيث إنه وحي خاتم، ففي سفر الخروج ٢٣:

١ لاَ تَقْبَلْ خَبَرًا كَاذِبًا، وَلاَ تَضَعْ يَدَكَ مَعَ المُنَافِقِ لِتَكُونَ شَاهِدَ ظُلْمٍ. ٢ لاَ تَتْبَعِ الكَثِيرِينَ إِلَى فِعْلِ الشَّرِّ، وَلاَ تُجِبْ فِي دَعْوَى مَائِلًا وَرَاءَ الكَثِيرِينَ لِلتَّحْرِيفِ. ٣ وَلاَ تُحَابِ مَعَ المِسْكِينِ فِي دَعْوَاهُ. ٤ إِذَا صَادَفْتَ ثَوْرَ عَدُوِّكَ أَوْ حِمَارَهُ شَارِدًا، تَرُدُّهُ إِلَيْهِ. ٥ إِذَا رَأَيْتَ حِمَارَ مُبْغِضِكَ وَاقِعًا تَحْتَ حِمْلِهِ وَعَدَلْتَ عَنْ حَلِّهِ، فَلاَ بُدَّ أَنْ تَحُلَّ مَعَهُ. ٦ لاَ تُحَرِّفْ حَقَّ فَقِيرِكَ فِي دَعْوَاهُ. ٧ اِبْتَعِدْ عَنْ كَلاَمِ الكَذِبِ، وَلاَ تَقْتُلِ البَرِيءَ وَالبَارَّ، لأَنِّي لاَ أُبَرِّرُ المُذْنِبَ. ٨ وَلاَ تَأْخُذْ رَشْوَةً، لأَنَّ الرَّشْوَةَ تُعْمِي المُبْصِرِينَ، وَتُعَوِّجُ كَلاَمَ الأَبْرَارِ. ٩ وَلاَ تُضَايِقِ الغَرِيبَ فَإِنَّكُمْ عَارِفُونَ نَفْسَ الغَرِيبِ، لأَنَّكُمْ كُنْتُمْ غُرَبَاءَ فِي أَرْضِ مِصْرَ.

إنه تفصيل رائع تشعر فيه حقًا بالوحي الإلهي، لكنك ترى كيف اختزلت كل هذه المعاني وأضعاف أضعافها في ثنايا قول الله في وحيه الخاتم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ۚ وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (النساء: ١٣٥).

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٣٠٣).

الأساس الرابع:

طريق العدل قائم علىٰ الحقائق والبينات، وليس علىٰ الأهواء والمحاباة، فليحذر القوامون بالقسط الشهداء لله من الانجراف وراء الأهواء، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ﴾ (النساء:١٣٥).

فعن ابن عباس ﷺ قال: «أمر الله المؤمنين أن يقولوا الحقَّ ولو على أنفسهم أو آبائهم أو أبنائهم، ولا يحابوا غنيًّا لغناه، ولا يرحموا مسكينًا لمسكنته، وذلك قوله: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ﴾، فتذروا الحق، فتجوروا [١]. وَقَوْلُهُ: ﴿أَن تَعْدِلُواْ﴾ مَحْذُوفٌ مِنْهُ حَرْفُ الجَرِّ، كَمَا هُوَ الشَّأْنُ مَعَ أَنِ المَصْدَرِيَّةِ، فَاحْتَمَلَ أَنْ يَكُونَ المَحْذُوفُ لَامَ التَّعْلِيلِ فَيَكُونُ تَعْلِيلًا لِلنَّهْيِ، أَيْ لَا تَتَّبِعُوا الهَوَى لِتَعْدِلُوا، يَعْنِي اتْرُكُوا مُتَابَعَةَ الهَوَى لِأَجْلِ أَنْ تَعْدِلُوا، وَاحْتَمَلَ أَنْ يَكُونَ المَحْذُوفُ (عَنْ)، أَيْ فَلَا تَتَّبِعُوا الهَوَى عَنِ العَدْلِ، أَيْ مُعْرِضِينَ عَنْهُ»[٢].

والهوى صنوف شتى ذكر منها بعضها.. حب الذات هوى. وحب الأهل والأقربين هوى. والعطف على الفقير- في موطن الشهادة والحكم- هوى. ومجاملة الغني هوى. ومضارته هوى. والتعصب للعشيرة والقبيلة والأمة والدولة والوطن- في موضع الشهادة والحكم- هوى. وكراهة الأعداء ولو كانوا أعداء الدين- في موطن الشهادة والحكم- هوى [٣].

خالف هواك إذا دعاك لريبة ... فلرب خير في مخالفة الهوى

حتى متى يا صاحبي لا ترعوي ... حتى متى حتى متى وإلى متى

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٣٠٤).

(٢) تفسير الرازي (١١/ ٢٤١)، التحرير والتنوير (٥/ ٢٢٦).

(٣) في ظلال القرآن (٢/ ٧٧٦).

الأساس الخامس:

الحذر من التحايل علىٰ ميزان القسط، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (النساء:١٣٥)، فكشفت البصائر القرآنية في الآية ثلاثة أنواع للعبث الذي يمكن أن يُتحايل به الناس علىٰ ميزان القسط.

النوع الأول: التلاعب، ويُبَصِّرُنا به قوله تعالى قراءة الجمهور: ﴿وَإِنْ تَلْوُوا﴾ من لَيِّ اللسان بغير الحق، وهو لفه وفتله بغية التلاعب والخداع بالحقائق:

ويدخل في هذا اللَّيِّ اللَّجلجة، فلا تقيم الشهادة على وجهها، وذلك من قولهم: «لوى عنه الخبر»، إذا طواه، أو أخبره به على غير وجهه، بأن يفتل لسانه ويثنيه، وَمِنْهُ يُقَالُ: التَوَى هَذَا الأَمْرُ إِذَا تَعَقَّدَ وَتَعَسَّرَ تَشْبِيهًا بِالشَّيْءِ المُنْفَتِلِ، إذا طواه، أو أخبره به على غير وجهه، فهذه الكلمة تصور لك لَيَّ الشاهد شهادته لمن يشهد له، وعليه؛ فيحرف الكلم عن مواضعه بلسانه، أو كتابته، وذلك يقتضي أن يمطله حقه أو يدفعه أو يتلاعب به كما قال الأعشى:

يَلْوِينَنِي دَيْنِي النَّهارَ، وأَقْتَضِي دَيْنِي إذَا وَقَذَ النُّعَاسُ الرُّقَّدَا [1]

فيتعمد الكذب من خلال التلاعب الذي لا يظهر لمن حوله بصورةٍ جلية، ليجعل الشهادة لصالح أحد الأطراف دون النظر عن إقامة القسط كما قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (آلِ عِمْرَانَ: ٧٨)، ومنه قوله تَعَالَى: ﴿وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾ (آل عمرَان: ١٥٣) أَيْ لَا تَعْطِفُونَ عَلَى أَحَدٍ، وَقَوْله:﴿لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾ (النساء:٤٦)، «فَمَوْقِعُ فِعْلِ ﴿تَلْوُۥٓاْ﴾

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٣١١).

هُنَا مَوْقِعٌ بَلِيغٌ لِأَنَّهُ صَالِحٌ لِتَقْدِيرِ مُتَعَلِّقِهِ المَحْذُوفِ مَجْرُورًا بِحَرْفِ (عَنْ) أَوْ مَجْرُورًا بِحَرْفِ (عَلَى)، فَيَشْمَلُ مَعَانِيَ العُدُولِ عَنِ الحَقِّ فِي الحُكْمِ، وَالعُدُولِ عَنِ الصِّدْقِ فِي الشَّهَادَةِ، أَوِ التَّثَاقُلِ فِي تَمْكِينِ المُحِقِّ مِنْ حَقِّهِ وَأَدَاءِ الشَّهَادَةِ لِطَالِبِهَا، أَوِ المِيلِ فِي أَحَدِ الخَصْمَيْنِ فِي القَضَاءِ وَالشَّهَادَةِ»[1]، ويدخل في هذا النوع أن يلوي لسانه ليتلاعب بالقسط والعبث بالشهادة حتى لا يظهر المحق من المبطل.

النوع الثاني: التعسف في استخدام السلطة، ويُبَصِّرُنا به قوله تعالى: ﴿وَإِن تَلْوُۥٓاْ﴾ من الولاية حيث يتم استخدامها بغير حق، وذلك على قراءة ابْنِ عَامِرٍ، وَحَمْزَةَ بلام مَضْمُومَةٍ بَعْدَهَا وَاوٌ سَاكِنَةٌ، من الولاية، فهُوَ مُضَارِعُ وَلِيَ الأَمْرَ، أَيْ: بَاشَرَهُ، فَالمعْنَى: وَإِنْ تَلُوا القَضَاءَ بَيْنَ الخُصُومِ، أي: إن تتولوا القضاء والمسؤولية والحكم، فتتعسفوا في استخدام السلطة (الولاية).

النوع الثالث: كتمان الشهادة، ويُبَصِّرُنا به قوله تعالى: ﴿أَوْ تُعْرِضُواْ﴾ أي: عن الشهادة بكِتْمَانها وَتَرْكِهَا، فلا يصل صاحب الحق إلى حقه، كما قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ذكره: ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ (البَقَرَةِ:٢٨٣)، وقد ندب النبي ﷺ من يعرف بالوقائع أن يُبادر للشهادة ليتم كشف الحقيقة، فعن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «خير الشهداء من أدى شهادته قبل أن يسألها»[2].

ويُبَصِّرُنا قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (النساء: ١٣٥) بأن التحايل على القسط والتشريع لا يعني القدرة على التحايل على المشرع الأعظم سبحانه، فهو دائمًا خبير بما يعمل العباد، وهذا تهديد للمتحايلين على القوانين الذين يتمتعون

(١) التحرير والتنوير (٥/ ٢٢٨).

(٢) سنن الترمذي (٤ / ٥٤٥) برقم ٢٢٩٧، وقال:« هذا حديث غريب من هذا الوجه»، وقال الألباني: صحيح لغيره.

بالقدرات الذكية العالية في التلاعب بالمراقبين.

وتستعمل هذه الأنواع الثلاثة للاحتيال على إقامة القسط ويمكن للمحامي أن يفضحها، كما يستطيع الإعلامي أن يتصيد الفاعلين لها، ليبينا أن هناك تلاعبًا، وقد يكون التلاعب خفيًا جدًا لا يستطيع أحد أن يتفطن إليه بسهولة، ولذلك قال تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (النساء: ١٣٥)، فناسب هذا التذييل والختام الرائع لهذه الآية.

وإنما قال ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ ولم يقل (بما تكتمون)؛ لأن الإنسان يقول: أنا قد قلت وقد تكلمت، فهو عمل، ولكنه في أثناء الكلام يزيف الحقيقة، والناس لا يشعرون، كما أن كتمان الكاتم يعد عملًا، وهذا كثير جدًا في وقائع هذه الأيام، ووقائع التاريخ، وما أكثر ما نشهد تغييرًا للتاريخ ولحقائقه، وحتى يتبنى عقائد وأفكار وتصورات مليئة بالعفونات العنصرية لكنها تجد شرعية دولية، وعلى سبيل المثال: الدارونية الاجتماعية!! انظر هذا التعظيم الهائل لنظرية دارون، حتى جاء بعض الملحدين فزعم أن من آثار الداروينية الاجتماعية أن يشرع إبادة الأجناس الأقوى للأجناس الأضعف، ويعتبر هذا شيئًا منطقيًا ثم يسبغ عليه الشرعية.. ولا يشعر بأدنى ذنب إزاء ذلك.

العمود الثالث

العمود الإيماني العقلي المؤدي إلى قيام العدل العالمي عبر الإيمان الكامل، وليس الإيمان المبعض

ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ (النساء: ١٣٦).

فالإيمان الكامل: بالله ورسله جميعًا، والكتاب الذي أنزل الله على رسوله محمد ﷺ والكتاب الذي أنزل الله على الأنبياء من قبل.. هذا الإيمان يعني استيعاب أصحابها ضمن مجتمع واحدٍ، فنضمن عدم وجود العبث العنصري المجرم، الذي يجعل القسط محصورًا على طبقة، أو دين، أو عرق.

يجب أن يكون القسط رائد المسلم الذي يؤمن بالله ورسوله وبجميع الكتب، وذلك يعني أن يعدل حتى مع أهل الكتب الأخرى ولو لم يسلموا، كما أنك تجد هذا الكلام تمهيدًا لما سيأتي من الكلام عن المنافقين، الذين يفعلون أشياء تنافي الإيمان، فذكر الله ﷻ أربعة أسس للإيمان وهي الإيمان بالله، والإيمان بالرسول، والإيمان بالكتاب الذي نزل على رسوله ﷺ وهو القرآن، والكتاب الذي أنزل من قبل كالتوراة والإنجيل والزبور، ويقابل الله ﷻ بين هذا الإيمان وبين الكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ويبين أن من يكفر بأركان الإيمان الخمسة المذكورة في هذه الآية فقد ضل ضلالًا بعيدًا.. بماذا يذكرك ذلك؟ يذكرك بالضلال البعيد الذي يعيش فيه من أشرك بالله، حيث قال ربنا عز مجده: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ (النساء: ١١٦)، فالضلال يدل على التيه والحيرة.. تصور من ضل عن طريق في الصحراء أو في الجبال.. النتيجة بعد التيه الهلاك، وهذان الأمران يشكلان معنى الضلال لغة: التيه والهلاك.. لكن الله ﷻ يبين أن هذا الكافر بالأركان الخمسة لا يضل فقط بل يضل ضلالًا بعيدًا.. كأنه لا نجاة له ولا ملجأ يرجع إليه. والضلال البعيد يترتب عليه كثيرٌ من الإجرام في القضايا الحيوية كالنظرة إلى الوجود، وطبيعة الرجل والمرأة والأسرة والاقتصاد، والعلاقات الشخصية، والأسرية، بل ترى الضلال البعيد في معالجة القضايا العالمية المختلفة، وذلك كله يذكرك بالضلال البعيد في قوله جل ذكره: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ (النساء: ١١٦).

وهنا قد تتساءل لماذا ذكر الله ﷻ هذه القضية في سورة النساء؟

ربما يظهر الجواب من عبث المنحرفين من المسلمين وأهل الكتاب بقضايا المرأة قديمًا وحديثًا، وسبب ذلك تلاعبهم بالنصوص التي نزلت إليهم حتى أفضى ببعضهم التلاعب إلى عدم الإيمان بالنبي الخاتم ﷺ، وقد يتساءل متسائل: من المنادى في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ﴾ كيف يطلب من المؤمنين أن يؤمنوا؟

فانظر إلى جمال القرآن من خلال ذلك؛ إذ ذلك يدل على ثلاثة أمور:

أولها: ما قرره ابن كثير ﷺ من أن هذا النداء لَيْسَ مِنْ بَابِ تَحْصِيلِ الحَاصِلِ، بَلْ مِنْ بَابِ تَكْمِيلِ الكَامِلِ وَتَقْرِيرِهِ وَتَثْبِيتِهِ وَالِاسْتِمْرَارِ عَلَيْهِ، كَمَا يَقُولُ المُؤْمِنُ فِي كُلِّ صَلَاةٍ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ (الفاتحة: ٦) أَيْ: بَصِّرنا فِيهِ، وَزِدْنَا هُدَى، وَثَبِّتْنَا عَلَيْهِ[1]، مثل قَوْلِهِ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ (محمَّد: ١٩) مَعَ أَنَّهُ كَانَ عَالِمًا بِذَلِكَ.

وثانيها: ما قرره الرازي ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ على سبيل التَّقْلِيد﴿آمِنُوا﴾ على سَبِيل الِاسْتِدْلَال[2].

وثالثها: لأن الخطاب يشمل من يسمي نفسه مؤمنًا من المسلمين وأهل الكتاب، فهو نداء لهم بوجوب الإيمان الكامل، وإلا أدى ذلك إلى عدم القسط في النظر إلى أحوال الناس، وكذلك يا أيها الذين آمنوا بألسنتهم آمنوا بقلوبكم وأعمالكم، ويا أيها الذين آمنوا في مجال العبادات الشعائرية آمنوا بالعبادات المعاملاتية مع الزوجات وسائر أفراد المجتمع مسلمين وكفارًا في التجارة والأمور الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، وآمنوا بأن تكونوا قوامين بالقسط شهداء لله.

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٣٤).

(٢) تفسير الرازي (١١/ ٢٤٢).

وفي الآية قراءتان تصوران مشهدين:

القراءة الأولى: قَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَابْنُ عَامِرٍ وَأَبُو عَمْرٍو ﴿وَالكِتابِ الَّذِي نُزِّلَ عَلى رَسُولِهِ وَالكِتابِ الَّذِي أُنْزِلَ من قبل﴾ عَلَى مَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ، لتصور هذه القراءة المباركة مشهد النزول ذاته، فالمُنزِل هو الله سبحانه وتعالى، لكن الله جل مجده يجعل التركيز على المنزَل وهو الكتاب.. فالمنزِل الله بواسطة الملك الذي يصح أن يقال بأنه منزِل أيضًا، ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ (مريم: ٦٤)، فأضافت هذه القراءة إلى الإيمان بالله الإيمان بالملائكة.

القراءة الثانية: قراءة الباقين ﴿نَزَّلَ﴾ و﴿أَنزَلَ﴾ بِالفَتْحِ[1]؛ لأن المنزل هو الله جل في علاه ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ (الأنعام: ١١٤) ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ (الحجر: ٩).

وترى هنا التفنن في الاستعمال حيث جاء الفعل ﴿نَزَّلَ﴾ مقترنًا بما تم إنزاله على الرسول الخاتم ﷺ ومصدرها التنزيل بِصِيغَةِ التَّفْعِيلِ، بينما جاءت كلمة ﴿أَنزَلَ﴾ مقترنة بما نزل من قبل ومصدرها الإنزال بِصِيغَةِ الإِفْعَالِ، وتكرر هذا التفريق في بعض المواضع كما في قَوْلُهُ تَعَالى جده: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ﴾ (آلِ عِمْرَانَ: ٣، ٤).

فاختار بعض أهل العلم بأن التنزيل تدل على التفريق، فالقرآن الكريم نزل منجمًا، أما الكتب السابقة فنزلت جملة واحدة، ولكن هذا القول توقف عنده عدد من أهل العلم وأَبَوه، وقالوا: لا يوجد دليل على أن التوراة نزلت جملة واحدة، ولا يوجد دليل على الإنجيل نزل جملة واحدة، وما كتبه الله سبحانه وتعالى في الألواح ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا﴾ (الأعراف: ١٤٥)

(١) انظر: النشر في القراءات العشر(٢/ ٢٥٢، ٢٥٣).

ليس بالضرورة أن يكون كامل التوراة أو الكتاب الذي آتاه الله موسى عليه السلام، ولم يرتضِ هذا القول الطاهر بن عاشور رحمه الله بل قال: إن التفريق بين الكلمتين هنا للتفنن الكلامي[1]، وأنا لا أظن أنه للتفنن فقط فالمتكلم عندما يأتي بأكثر من طريقة في التعبير مع تمكنه من ناصية اللغة يظهر في كل تعبيرٍ قاله معنى لا يوجد في الآخر.

وترى في الآية أن الله ﷻ ذكر في جانب الإيمَان ثلاثة أركان: الإيمان باللَّه، وبِرَسُولِهِ، وبالكتب سواء الكتاب الخاتم أم المتقدم، لأن القيام بالقسط يقتضي الإيمان بالله ﷻ، وبرسوله الخاتم ﷺ، وبالكتب دون تفريق، وأما الإيمان بالملائكة فلازم من الرسول والكتب، وأما اليوم الآخر، فلازم من ذكر الله، لكنه يذكر لبيان المصير المنتظر النهائي، وهو ما حدث في ذكر الكفر بأركان الإيمان؛ إذ ترى الله ﷻ ذَكَرَ فِي الكُفْرِ أُمُورًا خَمْسَةً: فَأَوَّلُهَا الكُفْرُ باللَّه، وَثَانِيهَا الكُفْرُ بِمَلَائِكَتِهِ، وَثَالِثُهَا الكُفْرُ بِكُتُبِهِ، وَرَابِعُهَا الكُفْرُ بِرُسُلِهِ، وَخَامِسُهَا الكُفْرُ بِاليَوْمِ الآخِرِ.

وقد يدخل الاحتباك هنا، فذكر في الجملة الإيمان بالرسول الخاتم ﷺ، ولم يذكره في الثانية عند الكلام عن الكفر إذ دخل ضمن مفهوم الرسل، وذكر الملائكة واليوم الآخر عند الكلام عن الكفر في الثانية، ليدخل مفهوم الإيمان بهم في الجملة الأولى.

ولماذا ذكر الأركان الخمسة معًا عند ذكر الكفر؟ لأنك ربما وجدت من يزعم الإيمان بالله ولكنه لا يؤمن بملائكته، ويزعم الإيمان بالله وملائكته ولكنه لا يؤمن بكتبه، ويزعم الإيمان بالله وملائكته وكتبه ولكنه لا يؤمن برسله، ويزعم الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ولكنه لا يؤمن باليوم الآخر.. وعدد ممن ينتمي إلى بني إسرائيل المعاصرين ينتمون لهذا الصنف فلا يعتقدون بوجود يوم آخر.

وقد تتساءل: فأين الإيمان بالقدر وهو الركن السادس؟ الإيمان بالله ﷻ يتضمن

(١) انظر: التحرير والتنوير (٥/ ٢٣٠).

الإيمان بالقدر، فإن القدر الذي يعني قوة الله وتدبيره مع بقاء الاختيار الإنساني.. هذا القدر يعني قدرة الله ﷻ فهو سر قدرته كما قرّر علماؤنا رحمهم الله.

وهذه الآية تقدم لنا الجواب عن السؤال المتكرر: كيف تحكمون بالشريعة الخاتمة مع وجود أقليات لا تؤمن بها؟ وكيف تزعمون أن الشريعة تؤدي إلى قيام القسط في الدنيا؟

فالجواب: واضح لأننا نؤمن بالأديان السماوية كلها، ونؤمن بالكتب السماوية كلها، ونؤمن بكل ما جاء به الأنبياء دون تفريقٍ خلاف الديانتين الكبيرتين الأخريين، وبذلك نضمن عدم وجود العبث العنصري المجرم الذي يجعل القسط محصورًا على طبقة أو دين أو عرق.

فإن تساءل أحدٌ: وماذا بشأن من لا ينتمي إلى الديانات الثلاث؟

الجواب: ضمان العدل معهم قائم؛ لأنه إذا ضمن العدل مع المنافسين للإسلام، ومن يشن عليه الاعتداء على مر التاريخ فكيف بغيرهم؟ والدليل على ذلك أن معظم مواقف العالم يحاول أصحاب الديانتين تجييرها لصالحهم.



المحور السابع

التنظيم الإلهي لمعرفة الذين يتلاعبون ببث الحياة الإنسانية، ويمنعون القسط فيها، ويشيعون الظلم والغلو (التطرف) في العالم (النساء:١٣٧-١٧٣)



المناسبة والاتصال:

كما ترى فإن العنوان المختار للمحور يبين -بفضل الله ﷻ- قوة الاتصال بين هذا المحور وما قبله، ويظهر لك في العنوان لماذا عاد الكلام مجددًا عن أهل الكتاب والمنافقين بعد أن ذكرهم الله ﷻ مسبقًا في المحور الرابع ابتداء من قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾ (النساء: ٤٤)، فلقد كان الكلام في ذلك المحور عمن يشتري الضلالة من أهل الكتاب، ودورهم في محاربة الإدارة الراشدة، ولو بالتحالف مع الوثنيين أما الكلام عنهم هنا فيتعلق بمنع الإنسانية من نيل حقوقها بما في ذلك الرأي العام الكتابي.

فقد فصلت المحاور السابقة جميعًا حق الإنسانية في الانتشار، وأولت عناية خاصة بالفئات المستضعفة وبينت قوانين إقامة الأسرة المركزية التي تعتبر نواة الجنس الإنساني، وأقامت البنيان الاجتماعي الخاص والعام، وحدثتنا عن الإدارة الراشدة التي تكون السلطات التنفيذية والتشريعية، ودورها في منح الحقوق الإنسانية لأصحابها وحمايتها للأمن المجتمعي ودورها في إقامة السلام العالمي بتطبيق استراتيجية أخذ الحِذْر من الشرور المختلفة، وختم الكلام عن الحقوق الإنسانية بتفصيل آداب القضاء وإقامة المؤسسات الحقوقية والهيئات القضائية، وآن الأوان لنرى كيف ينشر الله ﷻ رحمته بتفصيل ما يتعلق بأهم الفئات التي تتلاعب بالقسط في الحقوق الإنسانية، وتشيع الظلم والغلو (التطرف) في العالم، وهي تهدف إلى أن تسرق من الإنسانية حقوقها الفكرية والمادية سواء انتسبت هذه الفئات إلى المسلمين أم إلى غيرهم، فكان هذا المحور السابع معقودًا لهذه الغاية، وختم الله ﷻ هذه السورة بذكر هذه الفئات لأنها تحاول أن تغطي هذا النور العظيم الذي يُعطي لكل ذي حقٍّ حقَّه.. إنها الفئات الخطرة التي ترهق البشرية بالتلاعب بحقوقها الفكرية والمادية..

إنها الفئات التي تمتص دماء البشرية، وتصر على صد هذا النهر المتدفق من النور، المشرق على البشر بحنانه وجمال بنيانه، إنها الفئات التي تنتمي إلى الضلال البعيد الذي ذكره في الآية السابقة، وهي الفئات التي تحاول إحلال الضلال البعيد بالبشرية، فتتلاعب بالحقائق، وتضيع الحقوق، ويبين الله ﷻ تواطؤ هذه الفئات وتآمرها على تغييب البصائر التي تضبط الحياة الحقوقية السعيدة الكريمة حيث تضيء العالم بنورها المتألق، وصنفهم الله ﷻ إلى ثلاثة أصناف، ويوقظ القرآن الوعي بهم، وبذكر السنن الحافظة للمجتمع من تدميرهم، ومكرهم.

وليؤدي هذا المحور دوره المكثف، ويحقق أهدافه ضمن السورة في التبصير بهذه الفئات، وبخطر التلاعب بالحقوق الإنسانية من قبل الجهات المتنفذة انقسم ذكر هذه الأصناف حسب التقسيم الآتي:

الصنف الأول: المفسدون من (المسلمين) وهم قوى النفاق المتذبذبة بين الكفر والإيمان، وهم الصنف الأشد خطورة في التلاعب بالحقوق الإنسانية (النساء:١٣٧-١٥٢).

وجاء الكلام عن هذا الصنف في فصلين:

الفصل الأول: أهم صفات قوى النفاق التي تمتص الحقوق الإنسانية (النساء:١٣٧-١٤٣).

الفصل الثاني: حق البشرية في معرفة العوامل التي تحفظ من كيد المنافقين، وتمنع من نزول العذاب، وفشل الدول، وتدمير الحضارة (النساء:١٤٤-١٥٢).

الصنف الثاني: المفسدون من اليهود (النساء:١٥٣-١٧٠)، وانقسم الكلام عن هذا الصنف إلى خمسة فصول:

الفصل الأول: أسوأ الانتهاكات التي اقترفوها في حق أنفسهم والعالم، مما تلاعبوا فيه بالحقوق الإنسانية (النساء١٥٣-١٥٥).

الفصل الثاني: أسوأ انتهاكاتهم ضد العالم النصراني (النساء:١٥٦-١٥٩).

الفصل الثالث: انتهاكات متطرفي اليهود في الجوانب الاجتماعية، والاقتصادية ضد أنفسهم، والعالم (النساء:١٦٠-١٦١).

الفصل الرابع: الإشادة بالفئة المؤمنة من اليهود، وجعلهم أنموذجًا للناس (النساء:١٦٢).

الفصل الخامس: حق العالم في معرفة أسس الوحي الذي نزل على جميع الأنبياء، ومنهم: أنبياء أهل الكتاب (النساء:١٦٣-١٧٠)

الصنف الثالث: المفسدون من النصارى (النساء:١٧١-١٧٣)




المحور السابع
التنظيم الإلهي لمعرفة الذين يتلاعبون ببث الحياة الإنسانية، ويمنعون القسط فيها، ويشيعون الظلم والغلو (التطرف) في العالم (النساء:١٣٧-١٧٣)
الصنف الأول
المفسدون من (المسلمين) وهم قوى النفاق المتذبذبة بين الكفر والإيمان، وهم الصنف الأشد خطورة في التلاعب بالحقوق الإنسانية [النساء:١٣٧-١٥٢]
الفصل الأول
أهم صفات قوى النفاق التي تمتص الحقوق الإنسانية [النساء:١٣٧-١٤٣]
الفصل الثاني
حق البشرية في معرفة العوامل التي تحفظ من كيد المنافقين، وتمنع من نزول العذاب، وفشل الدول، وتدمير الحضارة [النساء:١٤٤-١٥٢]



شكل (١١) صورة توضح الأصناف التي تتفرع عن المحور السابع

الصِّنف الأول

المفسدون من (المسلمين) وهم قوى النفاق المتذبذبة بين الكفر والإيمان، وهم الصنف الأشد خطورة في التلاعب بالحقوق الإنسانية (النساء:١٣٧-١٥٢)

جاء الكلام عن هذا الصِّنف في فصلين:

الفصل الأول

أهم صفات قوى النفاق التي تمتص الحقوق الإنسانية (النساء:١٣٧-١٤٣)

آيات هذا الفصل:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلَۢا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا ﴿١٣٩﴾ وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أَنۡ إِذَا سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓۚ إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ فَإِن كَانَ لَكُمۡ فَتۡحٞ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ وَإِن كَانَ لِلۡكَٰفِرِينَ نَصِيبٞ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ وَنَمۡنَعۡكُم مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ﴾ (النساء: ١٣٧-١٤٣).

المناسبة والاتصال:

بدأ هذا المحور بهم لأنهم أسوأ الفئات وأكثرها انحطاطًا، وأرذلها أعمالًا، وأقساها على الإنسانية البريئة، فإنهم يتجاوزون في قسوتهم أفظع ما يعمله غيرهم من مجرمي الإنسانية، فهذه الفئة تنتمي في الظاهر للمسلمين، لكنهم أعتى من كل طواغيت العالمين، والكلام هنا ليس عن كل المنافقين بل عن المنافقين الذين لهم صلة عمالة سياسية وتخابر خائن مع متطرفي الكافرين، ولذا تم التحذير منها على أنها من أسوأ الفرق التي تدمر الحقوق الإنسانية في الواقع البشري، وإجرامهم لا يقتصر على واقع المسلمين فحسب بل يمتد ليشمل ما يستطيعون الوصول إليه من البشرية كلها، فلما ذكر الله تعالى الإيمان بالأركان الخمسة في الآية السابقة، ووجوب القيام بالقسط في الآية التي قبلها حذرنا من أسوأ من يدعي الإيمان ثم يتلاعب بمفاهيم الإيمان عابدًا شهواته، وهذا الصنف هو الأنموذج الذي يتلاعب بقضية الحقوق المجتمعية، ومن الطبيعي أن يُذكروا في سورة النساء فهم غالبًا يجعلون النساء وسيلة للاستغلال، ودائمًا يرفعون موضوع النساء للخداع والعبث والتدمير لهن، ويدمرون البشرية من خلالهن، باعتبارهن اللبنة الأساسية في تربية المجتمع، كما تميزوا بأن لهم ارتباطًا وثيقًا بالمعتدين من أهل الكتاب دعمًا ومساندة ومسارعة في البرامج التي يضربون بها مبادئ الإيمان والعدل.

وقد تنوع هذا الأنموذج العميل المنافق بين جهاتٍ ثقافية وسياسية واجتماعية تجر المجتمعات الإسلامية نحو الكفر والدين الخرافي الذي اخترعوه وافتروه وزعموا أنهم يحسنون صنعًا في الدنيا، ولذا جاء الكلام بعد ذلك عن المنافقين المؤثرين منهم خاصة في العبث بالمجتمع الإسلامي، وليس الكلام عن الأفراد العاديين فقط، وقد ميزهم الله ﷻ ببيان أبرز صفاتهم الفكرية والعملية.. إلا أن القرآن

يتفنن في أسلوبه عند ذكر هذه الصفات، فمثلًا ما أتى بفصلٍ فقال: صفات المنافقين الصفة الأولى كذا والصفة الثانية كذا، بل تستنبط مثل ذلك من خلال الأساليب غير المعتادة الواردة في القرآن المجيد، فإلى استنباط هذه الصفات وبصائرها:

الصفة الأولى: التردد بين الإيمان والكفر في قلوبهم وحياتهم الفكرية والعقلية، وختم ذلك بأن يكونوا أعظم كفرًا من غيرهم عبادة لأهوائهم، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله جل ذكره: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا ﴾.

وانظر للتعبير القرآني عن هذا التذبذب الرهيب الذي أورث أصحابه والبشرية الشقاء: آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرًا.. لماذا هذه التحولات الرهيبة في حياتهم؟ ما معنى الإيمان والكفر في كل مرحلة من هذه المراحل؟ المعاني التي ذكرها علماؤنا هنا تدخل لنا الصور الآتية:

الصورة الأولى: آمَنُوا ابتداء عندما عرفوا الإسلام، ثُمَّ انهال عليهم الإيذاء بسبب هذا المعتقد أو جاءت شبهٌ فكَفَرُوا، ثم كانت الدائرة والانتصار للإيمان فرجعوا إلى الإيمان، ثم دارت الأيام فعلا الكفر فرجعوا إلى الكفر، ثم ازدادوا كفرًا فلم يتخذوا موقفًا حياديًا بل حاربوا الإيمان، وعملوا على إعلاء الكفر.

الصورة الثانية: أعلنوا الإيمان تقيةً على ألسنتهم من غير قناعةٍ قلبية، وبعد الإعلان عادوا إلى الكفر في قلوبهم وخفايا واقعهم، فمحى الاعتقادُ القلبي الإعلانَ اللساني، ثُمَّ آمَنُوا أمام الآخرين حتى لا يتم كشفهم، ولكنهم يعودون إلى أعمال الكفر، ثم يطبع على قلوبهم، فيصبح الكفر طموحًا يعملون في ظله.

أو آمنوا عندما وجدوا بعض المكاسب التي لا يستطيعون نيلها إلا بإعلان الإيمان، أو ربما رأوا نورًا أشرقت له قلوبهم، لكنهم يعودون فيكفرون، وبناء على هذا التذبذب، ورداءة الفكر، والشعور، فإنهم سيزدادون كفرًا، ووصفهم ابن زيد

فقال: هؤلاء المنافقون، آمنوا مرتين، وكفروا مرتين، ثم ازدادوا كفرًا بعد ذلك [١].

وعندي أن حقيقة العدد هنا ليست صريحةً، فلا ضرورة لأن يكونوا آمنوا مرتين ثم كفروا مرتين، فقد يؤمنون عشر مرات ويكفرون مائة مرة، فهم يتلاعبون بالإيمان والكفر حسب مصلحتهم العاجلة، ولذلك تجد الواحد منهم يتنقل بين المذاهب لا طلبًا للحقيقة، وإنما طلبًا للتلاعب والبحث عن الدريهمات، وقد قال النبي ﷺ: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ، وَعَبْدُ الخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلاَ انْتَقَشَ» [٢].

وهذه الصورة أشار الله ﷻ إلى نحوها في قوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة: ١٩، ٢٠) ولكنه هنا فصلها لا على سبيل التمثيل بل على سبيل التصريح.

الصورة الثالثة: «﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: بما كانوا مهيئين له من الإيمان بالفطرة الأولى، ﴿ثُمَّ كَفَرُوا۟﴾ أي: أوقعوا الكفر، فعوَّجوا ما أقامه الله ﷻ من فطرهم، ﴿ثُمَّ ءَامَنُوا۟﴾ أي: حقيقة، أو بالقوة بعد مجيء الرسول، بما هيأهم له بإظهار الأدلة، وإقامة الحجج، ﴿ثُمَّ كَفَرُوا۟﴾ أي: بذلك الرسول، أو برسول آخر بتجديد الكفر، أو التمادي فيه ﴿ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟﴾ أي بإصرارهم على الكفر إلى الموت» [٣].

واستمروا على هذا الازدياد في الكفر، كما قال مجاهد ﷺ: حتى ماتوا [٤]، فدخل

---

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٣١٦).

(٢) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٤ / ٤١) برقم ٢٨٨٧.

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٥/ ٤٣٦).

(٤) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٣١٦).

فيهم جميع المتذبذبين، سواء أكانوا ممن انتمى إلى المسلمين، أم ممن انتمى إلى أهل الكتاب.

الصورة الرابعة: يدخل في هذا الصنف المتلاعب كل من آمن ثم كفر ثم آمن ثم كفر ثم ازداد كفرًا، فأدخل قتادة وجمع من علمائنا فيهم كفرة أهل الكتاب الذين يؤمنون ببعض الأنبياء ويكفرون ببعض.

فعن قتادة رضي الله عنه قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا﴾، وهم اليهود والنصارى. آمنت اليهود بالتوراة ثم كفرت، وآمنت النصارى بالإنجيل ثم كفرت، وكفرهم به: تركهم إياه ثم ازدادوا كفرًا بالفرقان وبمحمد ﷺ. فقال الله ﷻ: ﴿لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلَۢا﴾، يقول: لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريق هدًى، وقد كفروا بكتاب الله وبرسوله محمد ﷺ، وعن أبي العالية رحمه الله قريب من ذلك[1]، ورجح الطبري رحمه الله هذا التفسير بدلالة السياق حيث قال الله تعالى مجده: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُ﴾ (النساء: ١٣٦).

ولكننا عند التأمل في ظاهر النص، ومناسبته للسورة التي في محيطها يمكننا أن نقرر باطمئنان بأن هذا التفسير إن كان من ضرب المثال فهو قريب، فالأمر أوسع من جعل الآية متعلقة بأهل الكتاب، والأصل حمل الآية على جميع صورها التي تدخل في ظاهر لفظها، والآية التي جعلها الطبري رحمه الله علامة، ترى ظاهرها تخاطب المؤمنين قبل غيرهم فكيف جعل هذه في اليهود والنصارى؟ وهناك انتقاد وجيه على هذا التفسير ذكره الطاهر بن عاشور، فَالآيَةُ بناء على ذلك التفسير تَكُونُ مِنَ الذَّمِّ المُتَوَجِّهِ إِلَى الأُمَّةِ بِاعْتِبَارِ فِعْلِ سَلَفِهَا، وَهُوَ بَعِيدٌ، لِأَنَّ الآيَةَ حُكْمٌ لَا ذَمٌّ، لِقَوْلِهِ: ﴿لَّمۡ

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٣١٥).

يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ فَإِنَّ الأَوَّلِينَ مِنَ اليَهُودِ كَفَرُوا إِذْ عَبَدُوا العِجْلَ، وَلَكِنَّهُمْ تَابُوا فَمَا اسْتَحَقُّوا عَدَمَ المَغْفِرَةِ وَعَدَمَ الهِدَايَةِ، كَيْفَ وَقَدْ قِيلَ لَهُمْ ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ (البَقَرَة: ٥٤)، وَلِأَنَّ المُتَأَخِّرِينَ مِنْهُمْ مَا عَبَدُوا العِجْلَ حَتَّى يُعَدَّ عَلَيْهِمُ الكُفْرُ الأَوَّلُ، عَلَى أَنَّ اليَهُودَ كَفَرُوا غَيْرَ مَرَّةٍ فِي تَارِيخِهِمْ فَكَفَرُوا بَعْدَ مَوْتِ سُلَيْمَانَ عليه السلام وَعَبَدُوا الأَوْثَانَ، وَكَفَرُوا فِي زَمَنِ بُخْتُنَصَّر[1].

وأدخل بعض أهل العلم في الآية المرتد المصر على ردته، فاستدل قومٌ بهذه الآية على أنه يستتاب ثلاثًا، فعن الشعبي رحمه الله، عن علي رضي الله عنه قال: إن كنتُ لمستتيبَ المرتدّ ثلاثًا. ثم قرأ هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ﴾[2].

الصورة الخامسة: من يظهر الدخول في الإيمان، ثم تجذبه شهوته، فلا يُحَكِّم الإسلام في كل شيء، فيكفر كليًا أو جزئيًا، بالامتناع عن الأمور القطعية المعلومة من الدين بالضرورة كالزكاة، أو الأخوة الإسلامية، أو الأمور التشريعية العامة المتعلقة بمجموع الأمة، كما قال تعالى شأنه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ (النساء:٦٥)، ثم يرجعون إلى الإيمان في العبادات الفردية، ثم يرجعون إلى الكفر، فيمتنعون عن تحكيم الشريعة في شهواتهم الفردية -كالخمر، والمسائل الاقتصادية- لا كسلًا وتهاونًا فقط، بل جحودًا، ثم يزدادون كفرًا بمحاربة التشريعات الإسلامية في هذه النواحي، بل يقومون بالادعاء أنها ليست منه.

وهل كفرهم هذا كفر مخرج من الملة؟ هذا يتوقف على حكم الله عز وجل فيهم، ويبين ذلك القضاء العادل، وقد ذكر النَّبِيّ صلى الله عليه وسلم ذلك، فقال: «لَيَكُونَنَّ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ يَسْتَحِلُّونَ الحِرَ، وَالحَرِيرَ، وَالخَمْرَ، وَالمَعَازِفَ وَلَيَنْزِلَنَّ أَقْوَامٌ إِلَى جَنْبِ عَلَمٍ، يَرُوحُ

(١) التحرير والتنوير (٥/ ٢٣١).

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٣١٧).

عَلَيْهِمْ بِسَارِحَةٍ لَهُمْ، يَأْتِيهِمْ -يَعْنِي الفَقِيرَ- لِحَاجَةٍ، فَيَقُولُوا: ارْجِعْ إِلَيْنَا غَدًا، فَيُبَيِّتُهُمُ اللَّهُ، وَيَضَعُ العَلَمَ، وَيَمْسَخُ آخَرِينَ قِرَدَةً وَخَنَازِيرَ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ» (١).

وهذا الكفر كثيرًا ما يذكره الله تعالى من حيث الأخذ بجزءٍ من التشريع مع جحد أجزاءٍ، وتبعيض الأحكام جحودًا للأحكام الأخرى، وهو الذي ذكر في أول القرآن حسب الترتيب المصحفي فقال: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ (البقرة: ٨٥) فهم قومٌ آمنوا بنبيهم وكتابهم ثم كفروا لما اتخذوا كتابهم عضين، ثم رجعوا يريدون إحياء إيمانهم ولكن وفق أهوائهم فكفروا ثم أصروا على السير على الخرافة التي افتروها في دينهم فازدادوا كفرًا بنشرهم لها وإصرارهم على المحاربة دونها.

وذهب الرَّازي ﷺ إلى أَنَّ الزِّيَادَةَ فِي الكفر إنما حصلت بقولهم: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ (البقرة: ١٤) وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الِاسْتِهْزَاءَ بِالدِّينِ أَعْظَمُ دَرَجَاتِ الكُفْرِ وَأَقْوَى مَرَاتِبِهِ(٢)، وذلك أيضًا من التفسير بضرب المثال.

ويظهر لي أن الازدياد من الكفر يدل على نشاطهم الحثيث في إشاعة الفسق والكفر في العالم، ولذلك انتقلوا هذه الانتقالات المخيفة، وتحولوا هذه التحولات المضطربة ﴿ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا﴾ تلاعبًا واحتيالًا ليؤثروا على تفكير الآخرين في الرسالة الخاتمة، فيظهرون الإيمان مرة والكفر مرة ليوهموا المؤمنين ألا منفعة في الإيمان بعد أن جربوه وذاقوه، وتأكيدًا لتجربتهم الفاسدة يعودون إلى الإيمان ثم يعودون إلى الكفر ثم يزدادون كفرًا، وعندما يبصر بعض العامة ذلك قد يؤثر فيهم سلبًا، ويظنون أن هؤلاء مجربون وليسوا محتالين متذبذبين، وهذه الحيلة

(١) البخاري (٧/ ١٣٨) برقم ٥٥٩٠.

(٢) تفسير الرازي (١١/ ٢٤٥).

الماكرة القذرة حكاها الله ﷻ عن بعض المحتالين من أهل الكتاب فقال تعالى شأنه: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا۟ بِالَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (آل عمران: ٧٢).

وقد تتساءل: لماذا ذكر الله ﷻ هؤلاء كأول فئةٍ مدمرةٍ للحقوق الكريمة التي وضعها الله ﷻ للإنسانية وتستند على القيام بالقسط؟

لأن هذه الآية تظهر الصنف الأخطر على الإطلاق وذلك لشدة تلاعبهم وغموضهم فهم يظهرون الإسلام ﴿ءَامَنُوا۟﴾ويظهرون الإصرار عليه ﴿ثُمَّ كَفَرُوا۟﴾ و﴿ثُمَّ﴾ تدل على التراخي الزمني، فهي مقصودة. إنهم يظهرون الإسلام وتظهر عليهم بعض أعماله حتى يحتار المرء في الحكم على تصرفاتهم ثم يعودون لممارسة أعمال الكفر، وعلى الرغم من اقترافهم للكفر إلا أنهم يعودون لإظهار الإسلام مجددًا ﴿ثُمَّ ءَامَنُوا۟﴾ إما خداعًا للناس وإما خداعًا لأنفسهم لأنهم يظنون أن أفعالهم المجرمة ليست كفرًا.. فالمنافقون فصيل منهم، وقد يكون هؤلاء أخفى من المنافقين، وستكون الحيرة سيد الموقف في حكم الاخرين عليهم، وسيكون التردد في تعامل المسلمين معهم ظاهرًا، وسيختلف الناس في حكمهم، وهذا الأمر هو في حالة أن يكونوا من العوام فكيف إذا كان لهم التأثير وصناعة القرار بأن يكونوا ضمن مجموعات مؤثرة أو ذوي مسؤوليات معتبرة.

عقوبتهم المخيفة: ﴿لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ (النساء:١٣٧):

العقوبة الأولى: ﴿لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾، فهذه عقوبة دينية، وعدم المغفرة يعني عدم الستر، فسيفضحون على الملأ، فكلمة ﴿لِيَغْفِرَ﴾ مشتقٌ من المغفر وهو الدرع الذي يحتمي به الإنسان، فيستره من أن تصيبه السهام والأسلحة والسيوف وكل سلاح يمكن أن يصل إليه، فيحتمي بهذا الدرع الذي يسمى المغفر، وهو يدل على

الستر والحماية، كما قال الطبري ﷺ: «لم يكن الله ليسترَ عليهم كفرهم وذنوبهم، بعفوه عن العقوبة لهم عليه، ولكنه يفضحهم على رؤوس الأشهاد» [١]، واللام في قَوْلِهِ ﴿لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ لِلتَّأْكِيدِ فَقَوْلُهُ ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ يُفِيدُ نَفْيَ التَّأْكِيدِ، وَهَذَا غَيْرُ لَائِقٍ بِهَذَا المَوْضِعِ إِنَّمَا اللَّائِقُ بِهِ تَأْكِيدُ النَّفْيِ، فَمَا الوَجْهُ فِيهِ؟

وَالجَوَابُ: أَنَّ نَفْيَ التَّأْكِيدِ إِذَا ذُكِرَ عَلَى سَبِيلِ التَّهَكُّمِ كَانَ المُرَادُ مِنْهُ المُبَالَغَةَ فِي تَأْكِيدِ النَّفْيِ [٢]، ولذا يسمي النحاة اللاَّم الَّتِي بَعْدَ كَانَ المَنْفِيَّةِ (لاَم الجُحُود).

وقد تتساءل: كيف نجمع بين هذه الآية ومثل حديث الرسول ﷺ: «إِنَّ عَبْدًا أَصَابَ ذَنْبًا، -وَرُبَّمَا قَالَ: أَذْنَبَ ذَنْبًا- فَقَالَ: رَبِّ! أَذْنَبْتُ، - وَرُبَّمَا قَالَ أَصَبْتُ - فَاغْفِرْ لِي، فَقَالَ رَبُّهُ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟! غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أصاب ذَنْبًا ، أَوْ وربما قال: أذنب ذَنْبًا، فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ ، أَوْ أَصَبْتُ آخَرَ، فَاغْفِرْهُ، فَقَالَ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا، وَرُبَّمَا قَالَ: أَصَابَ ذَنْبًا- فقَالَ : رَبِّ أَصَبْتُ، أَوْ أَذْنَبْتُ آخَرَ، فَاغْفِرْهُ لِي، فَقَالَ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي - ثَلاَثًا - فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ» [٣]؟ كيف نجمع.. وأنت ترى هذا العبد يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب.. فيغفر له بينما الآية تقرر أن الله لن يغفر له؟

الجمع بينها واضح، ولا تناقض فإن الحديث يخبرنا عن عبدٍ يقترف الذنب ضعفًا، لا عنادًا ولا استحلالًا، فهذه هي الذنوب التي يغفرها الله سبحانه وتعالى، ويرجع

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٣١٧).

(٢) تفسير الرازي (١١/ ٢٤٥).

(٣) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٩ / ١٧٨) برقم ٧٥٠٧.

إلى ربه رغبة ومحبة ورهبة، والله تعالى يقول عن مثله: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ (الزمر: ٥٣، ٥٤)، وقال -عزَّ جارُه-: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (الفرقان: ٦٨ - ٧٠).

أما الذي يأتي الذنوب عنادًا وإصرارًا واستهزاء، ثم يعود إلى الإيمان لا محبة للإيمان ولكن لظهور مصلحةٍ عاجلةٍ، فهؤلاء نخشى أن يدخلوا في قوله جلَّ ذكره: ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾.

وتأمل في العبارة، فقد أكد الله ﷻ على عدم مغفرته لهم تأكيدًا عظيمًا؛ إذ الأصل في العبارة (لم يغفر الله لهم)، فأكدها بإدخال كلمة يكن ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ﴾، وقوله: ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ دليل على أنهم لم يكونوا ليتوبوا، فلا يأتي من يقول: فلو تابوا، فنجيبه بأن هذا التردد بين الإيمان والكفر على سبيل اللعب والعناد والاستهزاء يسبب أن يزيغ الله قلوبهم، فيحول بينهم وبين التوبة كما حدث لأبي لهب ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (الأنفال: ٢٤).

وربما تساءلت: هل للتكرار هنا في العدد اعتبار؟ الذي يظهر لي أنه ليس للتكرار اعتبار، وإنما المقصود به التكرار، فقد يتكرر من الإنسان أن يؤمن ثلاث مرات أو أربع مرات، ولكنه بعد كل مرة يعود إلى أعمال الكفر، وليس المقصود به بالضرورة اعتقاد الكفر، كالزنى ليس من أعمال الإسلام بل من أعمال الكفر، فمن أتى الزنى ضعفًا فهو مؤمن دخل في الفسق، ومن فعلها استحلالًا فقد خرج من حيز الإيمان

أصلًا، وحتى عندما يكون في حيز الفسق فإن الإيمان يفارقه حال الفعل فليحذر، فقد قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لاَ يَزْنِي العَبْدُ حِينَ يَزْنِي وَهْوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهْوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَشْرَبُ حِينَ يَشْرَبُ وَهْوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَقْتُلُ وَهْوَ مُؤْمِنٌ» قَالَ عِكْرِمَةُ: قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: كَيْفَ يُنْزَعُ الإِيمَانُ مِنْهُ قَالَ: هَكَذَا - وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ ثُمَّ أَخْرَجَهَا - فَإِنْ تَابَ عَادَ إِلَيْهِ هَكَذَا، وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ [١].. فليحذر؛ إذ قد يخرج منه الإيمان ثم لا يعود إليه.

العقوبة الثانية: ﴿وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلًا﴾، فهذه عقوبة فكرية فيعقون في التيه والتخبط الذي يؤدي إلى الهلاك، فهم يزدادون ضلالًا في الأمور الحيوية، فيشرعون التشريعات التي تزيد البشرية بؤسًا، كما ترى في قضايا المناخ والقضايا الاجتماعية والسياسية.

ويبين الطبري المعنى فيقول: «ولم يكن ليسدِّدهم لإصابة طريق الحق فيوفقهم لها، ولكنه يخذلهم عنها، عقوبة لهم على عظيم جُرمهم، وجرأتهم على ربهم» [٢]، وقال رشيد رضا رحمه الله: «قَدْ طُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ حَتَّى فَقَدُوا الِاسْتِعْدَادَ لِفَهْمِ حَقِيقَةِ الإِيمَانِ وَحَقِيَّتِهِ وَمَزَايَاهُ»[٣] ، فلا يمكن أن يجدوا طعم السعادة الحقيقي، وكيف يجدونه وترى الواحد منهم يبني مجدًا دنيويًا قائمًا على الكذب والاستغلال ثم يموت هرمًا أبعد ما يكون عن وجود السعادة المقترنة بالحياة الاجتماعية المستقيمة التي فيها بر الأولاد، ودعاء الناس.

«فمن طال عَلَيْهِ أَمَدُ التَّقْلِيدِ، حُجِبَ عَقْلُهُ عَنْ نُورِ الدَّلِيلِ، حَتَّى لَا يَجِدَ إِلَيْهِ مِنْ سَبِيلٍ، وَمَنْ طَالَ عَلَيْهِ عَهْدُ الفُسُوقِ وَالعِصْيَانِ، حُجِبَ عَنْ أَسْبَابِ الغُفْرَانِ،

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٩ / ١٧٨) برقم ٧٥٠٧.

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٣١٧).

(٣) تفسير المنار (٥/ ٣٧٥).

وَهِيَ الَّتِي بَيَّنَهَا تَعَالَى فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ (طه: ٨٢)»[١].

ويمكننا تقريب حقيقة الكفر بجعلها مماثلة لجريمة الخيانة العظمى في حياة البشر.. تصور المسألة في واقع اليوم! إنسان ينتفع بالخيرات التي حباها الله ﷻ لوطنه، وبدلًا من أن يحفظ وطنه يصبح عميلًا لمن يسعون لتدميره، وتحكم المحاكم على هذا الخائن بجريمة الخيانة العظمى.. فيا بُعْدَ ما بين الأمرين:

فالخيرات التي وجدها في وطنه ليست إلا هبة من الله ﷻ.. المليارات من الخلايا التي يعيا أن يحصيها في جسده من ربه، فلمَ جعلها حربًا على ربه جل ذكره؟

إن لسانه من ربه، فلم جعله حربًا لربه؟ إن عينه من ربه فلم جعلها حربًا لربه؟ إن كل ذرة في جسده وهبها الله ﷻ فلم جعلها حربًا لربه؟ وهل هناك جريمة يعرفها البشر فوق جريمة الخيانة العظمى يمكن وصف الكافر بربه بها؟

والفارق بين العقوبتين: أن عقوبة الخيانة العظمى في التشريعات الوضعية فورية، بينما يمهل الله ﷻ الخائن الأكبر من البشر حتى يكون جزاؤه في الآخرة.

«إن الكفر حجاب فمتى سقط فقد اتصلت الفطرة بالخالق. واتصل الشارد بالركب. واتصلت النبتة بالنبع. وذاقت الروح تلك الحلاوة التي لا تنسى.. حلاوة الإيمان.. فالذين يرتدون بعد الإيمان مرة ومرة، إنما يفترون على الفطرة عن معرفة، ويلجون في الغواية عن عمد. ويذهبون مختارين إلى التيه الشارد والضلال البعيد»[٢].

الصفة الثانية: جعل الولاء العملي للكافرين دون المؤمنين، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ

(١) تفسير المنار (٥/ ٣٧٦).

(٢) في ظلال القرآن (٢/ ٧٧٨).

ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾(النساء: ١٣٨-١٣٩)، والكافر هنا من غطى الحقيقة الأعظم في الكون، وهي حقيقة التوحيد، والإيمان بأركانه.

وقَوْلُهُ جل ذكره: ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (النساء: ١٣٨) تبصرنا بضرورة إشاعة التحذير منهم، وبث ثقافة مصير المنافقين.

وقَوْلُهُ: ﴿ بَشِّرِ﴾ تَهَكُّمٌ بِهِمْ، فاستخدم ﴿ بَشِّرِ﴾ التي تستعمل في الخبر السار ليبلغهم بالخبر المزعج المقلق لهم، وسبب التهكم أن المنافق يفعل الجرائم مصرًا بأنه على حق فيما يفعله، ويعبث بالمبادئ مقتنعًا بأن ذلك هو الصواب، ويتهكم بأهل الحق، فاستحق أن يقابل بتهكم مماثل، ولكنه يخاف يومًا أن يظهر أهل الحق، فإذا سمع كلمة: ﴿ بَشِّرِ﴾ ظنه خبرًا سارًا، فإن قيل له بعد: أبشرك بالعذاب الأليم انعكس الخبر عليه فزاد غمه، وَالعَرَبُ تَقُولُ: تَحِيَّتُكَ الضرب، وعتابك السيف.. إنه التصعيد الكبير في إهانتهم والسخرية منهم، وذلك مثل قوله جل ذكره: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ (الكهف: ٢٩).. نعوذ بالله من هذه الإغاثة.

والأليم المؤلم الموجع للجسد والنفس، وعند تأملك في كلمة ﴿ بَشِّرِ﴾ تجد لها مدلولًا حسيًا ماديًا؛ إذ اشتقت من بشر الإنسان، فكأن كل خليةٍ ستتأثر بهذا الخبر.

وقوله: ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ بداية مباشرة يخاطبون بها من أجل التحذير والتهكم بهم، أي: كلمهم وأخبرهم فهذا تحذير لهم، وفي الوقت ذاته هو تحذير لنا منهم، ودلل على ذلك بما دلنا به على صفاتهم التي ستذكر في الآيات القادمة، فهذه الآية جمعت لنا تهكمًا بالمنافقين؛ طلبًا لتبليغهم وتحذيرهم من المصير البائس الذي ينتظرهم وهو العذاب الأليم، وجمعت لنا أيضا التحذير منهم، بأن لهم عذابًا أليمًا.

ثم إنك ترى الله ﷻ عظَّم العذاب.. فمن الذي يعذبهم؟ إنه الله ﷻ؛ فإن شدة التعذيب يكون على قدر قوة المعذِّب.. فنعوذ بالله من ذلك.

ولما قال الله: ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (النساء: ١٣٨) كأن السامعين أرادوا معرفة المنافق الذي استحق هذه البشارة المؤلمة، فبصرنا الله بتعريفهم فقال جل ذكره: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾، والمنافق سمي بذلك نسبة إلى نافقاء اليربوع، وهو حيوان صحراوي يجعل لنفسه بابًا ظاهرًا يوهم عدوه أنه لا منفذ له سواه، وباب خلفي باطن يهرب فيه عند الاحتياج، فهذا تعريفٌ عمليٌ دقيقٌ للمنافقين، فهم الذين يتخذون الكافرين أولياء، أي: أحباء ونصراء من دون المؤمنين. إنهم يستثقلون الاستقامة التي توجد في الإيمان، ولا يريدون الإعلان بأنهم كفار، فيقترفون أعمال الكفر، ويعلنون الإسلام في الوقت ذاته.

ويُبَصِّرُنا القيد في قوله جل في علاه: ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ بأن الآية تمنع الموالاة التي تكون ضد المؤمنين، فإن كانت لصالح المؤمنين أو ليست ضدهم وليس فيها إثم وعدوان جازت، **ونتج من ذلك الصور الآتية:**

الصورة الأولى: أن يوالي المسلمون المسلمين على البر والتقوى أو على الأمور المباحة، فهذا ولاء منطقي تفرضه أخوة الإسلام.

الصورة الثانية: أن يوالي المسلمون الكفار على حساب ولاء المسلمين للمسلمين ولو لم يكن ضد المسلمين، فهذا محرم، لأنه دخل في قوله: ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

الصورة الثالثة: أن يوالي المسلمون الكفار ضد المسلمين، فهذا أشد تحريمًا لأنه أسوأ من الصورة السابقة.

الصورة الرابعة: أن يوالي المسلمون الكفار ولكن ليس ضد المسلمين، فهذا جائز إن لم يكن الولاء على الإثم والعدوان؛ فإن الإثم والعدوان محرم حتى لو كان ضد الحيوان أو ضد الجماد، مثل استهلاك البيئة بما يؤدي إلى الاعتداء على حق البشرية في التمتع بخيرات الأرض.

ومن الأمثلة على موالاة الكافرين التي لا تكون من دون المؤمنين: العلاقة التي جمعت بين النبي ﷺ وعبد الله بن أريقط، وهو كافرٌ وثنيٌّ، ولكن النبي ﷺ جعله دليله في طريق الهجرة فهذا الرجل كان كافرًا، والنبي ﷺ استأجره وهذا نوع من الموالاة والتحالف، وهو أعلى من مجرد المصلحة المتبادلة أو التحالف التجاري، فقد استأمنه النبي ﷺ على مصيره في الهجرة، وعلى النجاح الذي ينبغي أن يصل إليه من خططه في الخروج من مكة؛ فقد يتلاعب عبد الله بن أريقط بخطة الرحلة، ويذهب بالنبي ﷺ عكس الوجهة التي يريدها هو، فهذا لا يعد من الموالاة الممنوعة، فالآية لا تمنع الموالاة مطلقًا.

ومن أمثلة ذلك: عندما دخلت خزاعة في حلف النبي ﷺ وبعضهم كان غير مسلم، بينما دخلت بكر في حلف المشركين.

الصفة الثالثة: ابتغاء العزة الدنيوية على حساب التمسك بالمبادئ الإيمانية، والمصالح الإنسانية الحقيقية الصادقة، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ﴾.

والآية تصور تصويرًا دقيقًا كيف يؤثر هؤلاء المنافقون ابتغاء العزة من متطرفي الكافرين على ابتغائها من الله ورسوله والمؤمنين.. تصور كيف يلهثون خلف الكافرين ليتم اعتماد مناصبهم السياسية والإدارية، فالاسْتِفْهَامُ ﴿أَيَبْتَغُونَ﴾ للتَقْرِيع وَللتَوْبِيخ، وذلك لظن المنافقين أن ملكهم لا يكون برضا المؤمنين بل يبحثون عن شرعية لملكهم عند الكافرين، والعزة حالة معنوية نفسية يصورها الله ﷻ لك على

هيئة حسية، فهي المَنَعَةُ وَالغَلَبَةُ وَرِفْعَةُ القَدْرِ، وأصلها الأرض الصلبة الشديدة التي يقال لها «عَزَاز»، ويقال: «تعزز اللحمُ»، إذا اشتد، ومنه قيل: «عزّ عليّ أن يكون كذا وكذا»، بمعنى: اشتد عليَّ، وَيُقَالُ: قَدِ اسْتَعَزَّ المَرَضُ عَلَى المَرِيضِ إِذَا اشْتَدَّ مَرَضُهُ وَكَادَ أَنْ يَهْلِكَ، وَعَزَّ الشَّيْءُ إِذَا قَلَّ حَتَّى لَا يَكَادَ يُوجَدُ لِأَنَّهُ اشْتَدَّ مَطْلَبُهُ[١].

فهذه الصفة من العلامات التي يعرفها الجميع لظهورها، وقد ذكر الله تعالى علامة اجتماعية واضحة بين المسلمين تتعلق بالصلاة، وعلامة سياسية واضحة في المواقف العامة. فلما اعتزوا بغير الله ﷻ أعرضوا عن الاعتزاز بالله ﷻ، ونسوا المصدر الحقيقي الذي تطلب منه العزة، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ (النساء:١٣٩).

وقد روى معاذ بن جبل ﷺ قال: انتسب رجلان من بنى إسرائيل على عهد موسى عليه السلام أحدهما مسلم والآخر مشرك، فانتسب المشرك، فقال: أنا فلان بن فلان حتى بلغ تسعة آباء، ثم قال لصاحبه: انتسب لا أم لك. قال: أنا فلان بن فلان وأنا بريء مما وراء ذلك، فنادى موسى ﷺ الناس فجمعهم، ثم قال: «قد قضي بينكما أما الذي انتسب إلى تسعة آباء فأنت فوقهم العاشر في النار، وأما الذي انتسب إلى أبويه فأنت امرؤ من أهل الإسلام»[٢].

والآية توقف السامع بين عبوديتين: إما عبودية لله كلها استعلاء وعزة وانطلاق. وإما عبودية لعباد الله كلها استخذاء وذلة وأغلال، ولمن شاء أن يختار[٣].

---

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٣١٩)، تفسير الرازي (١١/ ٢٤٦).

(٢) أحمد(٥/ ٢٤١) برقم٢٢١٤٢، وقال الأرناؤوط: رجاله ثقات رجال الشيخين، إلا أنه منقطع، عبد الرحمن بن أبي ليلى لم يسمع من معاذ.

(٣) في ظلال القرآن (٢/ ٧٨٠).

ولذا قال نهار بن توسعة اليشكري[١]:

دعـــي الـقـــوم ينـصـر مـدعـيـه ليلحقه بـذي الحسب الصميم
أبـي الإســـلام لا أب لـــي سـواه إذا افـتـخـروا بقـيـس أو تميم

من اعتز بغير الله ذل، ومن استعان بغيره خاب، ومن توكل على غيره افتقر، ومن أنس بسواه كان في عيشة موحشة ولو غمرته الأضواء وحفت به المواكب.

اجـعـل بـــربـك كـل عز ك يـســتـــقـر ويـثـبـــت
فـإن اعـتـــززت بـمـن يمو ت فـــإن عـــزك ميـت

الصفة الرابعة: الخوض في آيات الله تعالى، وما يتصل بها من النصوص الشرعية، أو الأتباعِ المؤمنين، وهذا الخوض قد يكون كفرًا بها، وقد يكون استهزاء بألفاظها، أو مفاهيمها، أو سخرية من المؤمنين بها، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ (النساء: ١٤٠).

فقوله: ﴿يُكْفَرُ بِهَا﴾، أي: يُستَرُ ما أظهرتْ من الحقائق، والتوجيهات، والتنظيمات، ولعل سبب التعدية بالباء أنهم من شدة مكرهم وإجرامهم جعلوها أداة لإشاعة الكفر بدلًا من أن تكون وسيلتهم ليؤمنوا ويخبتوا ﴿وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا﴾ أي: يُطلَبُ أن تكون مما يُهزأ به، فتُتَّخذ مثارًا للهزل والضحك وتبادل اللهو بدلًا من الأخذ بهداياتها.

وتندهش: لماذا جاء الفعلان مبنيين لما لم يسم فاعله ﴿يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا﴾؟

تطير بك كلمات القرآن لتشعر الصور الداخلة في معنى الآية شاملة لكل من يكفر بها ويستهزئ بها.. فقد يكون الكافر المستهزئ فقيرًا ضعيفًا لا وزن له فيظهر

(١) انظر: الكامل للمبرد (٣/ ١٣٣).

المؤمن الغضب، وقد يكون غنيًا قويًا ذا جاه فيستحي المؤمن أو يخاف أن يظهر منه الإنكار أو الخروج والازورار، وقد يكون رئيسًا وقد يكون من العامة.. إن الله يريد أن يعلق أنفسنا بالحكم وهو عدم القعود مع الكافر المستهزئ بالآيات أيًا كان.. وهنا تأتي المفاجأة! فقد يكون الكافر المستهزئ منتسبًا إلى الإيمان، لكن لجهله أو لفسقه يعرض آيات الله ﷻ للسانه المدمر، وسخريته، ويرهب خصومه إما بقوته وحرسه ومخابراته وإما بالإرهاب الإعلامي، فيصف المقاطع لأفعاله الشنيعة بأنه تكفيري!

وقبل أن نترك بصائر الآية ربما لفت نظرك أن الله قال: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾، والغالب في الجلوس هو المحادثة والمؤانسة، فلماذا ذكر الله هنا الحديث؟ لأن الفعل أشد، فإذا حرم عليك أن تجلس مع من يستهزئ بآيات الله ﷻ، فلا ينبغي لك أن تجالس مَنْ يمارس أفعالًا من بابٍ أولى، ولاحظ التعبير ودقته هنا قال ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾ لم يقل حتى يخوضوا في حديث الإيمان، بمعنى أن المنهي في مجالستهم أن تجلس معهم على كفر بآيات الله ﷻ أو استهزاء بآيات الله ﷻ، لكن ليس المطلوب أن يخوضوا في حديث الإيمان بالله ﷻ، قد تتكلم معهم عن مصالح الدنيا، حتى يخوضوا في حديث غيره غير الاستهزاء والكفر.

والخوض من خاضَ الماء[1] يَخُوضُه خَوْضًا وخِيَاضًا: دَخَلَهُ ومَشَى فِيهِ، والخوض يدل على إحاطة الماء بجزء من جسمه، ومنه خَاضَ الشَّرَابَ فِي المِجدَحِ: خَلَطَه وحَرَّكَهُ، قَالَ الحُطَيْئَةُ يَصِفُ امْرَأَةً سَمَّتْ بَعْلَها[2]:

وقَالَتْ شَرَابٌ بَارِدٌ فَاشْرَبَنَّهُ ولَمْ يَدْرِ مَا خَاضَتْ لَهُ فِي المَجَادِحِ

وخاضَ الغَمَراتِ يَخُوضُهَا خَوْضًا: اقْتَحَمها حتى أحاطت وخالطته به فلم يبال

(١) تاج العروس (١٨/ ٣٢٢).

(٢) انظر: المحكم لابن سيده (٥/ ٢٧٨).

بها ، فالخوض يدل على كثرة الكلام، وتناوش الحديث بمخالطة لما يعرف وما لا يعرف، وما يكون حقًا وما يكون باطلًا دون مبالاة.

فتأمل النتيجة المرعبة لعدم تطبيقك لهذا الحكم: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾.

فمن الاستهزاء بآيات الله القعود في مكانٍ تنتهك فيه حرمة الله، مثل أن يُشرب الخمر على مائدة، فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ، فَلاَ يَقْعُدْ عَلَى مَائِدَةٍ يُشْرَبُ عَلَيْهَا الخَمْرُ»[١].

لا تقعد معهم! لا تضعف! لا تقعد معهم مهما كان مكانهم ومنصبهم، وقل:

الملك لله الذي عنت الوجو ... ه له وذلت عنده الأرباب
متفرد بالملك والسلطان قد ... خسر الذين تجاذبوه وخابوا
دعهم وزعم الملك يوم غرورهم ... فسيعلمون غدًا من الكذاب[٢]

ينبغي للمسلمين بيان هذا الحكم بعزة وإظهار واضح.. لا توجد مداهنة أو مداراة باسم اللعبة السياسية أو التأليف للقلوب أو الجمع للقوى مما يرفعه بعض المسلمين بعيدًا عن التوجيهات القرآنية الواضحة، ونلاحظ أنه قدم الحكم على الوصف للفت النظر إلى ضرورة عدم الغفلة في تطبيق الحكم، وانظر إلى صيغة الكلام حيث يقول الله: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا﴾ فأين أنزل علينا ذلك؟

لقد تكرر ذلك في آيات كثيرة تصريحًا أو تلميحًا، منها قَوْلُهُ تَعَالَى ذكره: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ (البقرة: ١٤)، فهذه آية مدنية، وسورة النساء مدنية نزلت والمسلمون في المدينة

(١) مسند أحمد (٣/ ٣٣٩) برقم (١٤٦٥١)، وقال الأرناؤوط: حسن لغيره وبعضه صحيح وهذا إسناد ضعيف لسوء حفظ ابن لهيعة، وحسن الألباني نحوه.

(٢) الأبيات للرافعي. انظر: طبقات الشافعية الكبرى(٨/ ٢٨٨، ٢٨٩).

يجتمع معهم المنافقون والكتابيون، لكن الله قد أنزل هذا الحكم في مكة حيث كان المسلمون يجتمعون مع القوى الوثنية فقال لهم: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (الأنعام: ٦٨).

وانظر كيف جمع الله ﷻ أحوالًا مختلفة من السورتين: ففي آية الأنعام نبه إلى أن تحريم الرؤية.. تحريم رؤية الباطل الخائض في آيات الله ﷻ، وفي آية النساء أفادنا بأن السماع للخائضين في آيات الله ﷻ محرمٌ، وبذا تظاهرت السورتان على مقاطعة الوسائل الإعلامية، والمنتديات الثقافية إذا كانت تخوض في آيات الله ﷻ: ما جاء منها عن طريق الرؤية، وما جاء منها عن طريق السماع.

«ولما كانت آية الأنعام مكيةً اقتصر فيها على مجرد الإعراض وقطع المجالسة لعدم التمكن من الإنكار بغير القلب، وأما هذه الآية فمدنية فالتغيير عند إنزالها باللسان واليد ممكنٌ لكل مسلم، فالمُجالِسُ من غير نكيرٍ راض، فلهذا علل بقوله: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا﴾ أي: إذا قعدتم معهم وهم يفعلون ذلك ﴿مِّثْلُهُمْ﴾ أي: في الكفر؛ لأن مجالسة المظهر للإيمان المصرح بالكفران دالة على أن إظهاره لما أظهر نفاق، وأنه راض بما يصرح به هذا الكافر، والرضى بالكفر كفر[1]، ولذا قال أبو وائل شقيق بن سلمة الأسدي قال: إن الرجل ليتكلم بالكلمة في المجلس من الكَذب ليُضحك بها جلساءَه، فيسخط الله ﷻ عليهم. قال: فذكرت ذلك لإبراهيم النخعي، فقال: صدق أبو وائل، أو ليس ذلك في كتاب الله: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ (النساء: ١٤٠)؟[2]، وعن هشام بن عروة قال: أخذ عمر بن عبد العزيز قومًا

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٥/ ٤٣٨).

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٣٢١).

على شرابٍ فضربهم، وفيهم صائم، فقالوا: إنّ هذا صائم! فتلا ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ (النساء: ١٤٠)[1]. ونأخذ من فعل عمر بن عبد العزيز أن الخوض لا يشترط أن يكون كلامًا فقط، بل قد يكون فعلًا، وهو أشد من القول.. لا تقعد مع من يفعل القبيح؛ فإلف القبيح مفسدة للدين والعقل جميعًا، ويوشك لمن يفعل ذلك أن يتشرب النفاق في نفسه.

لماذا يذكرنا الله ﷻ بهذا الحكم المكي؟

لربما ظن المؤمنون أن الحكمة تقتضي مداراة المنافقين بما لا يكون مثله مع القوى الوثنية.. هنا يذكرنا الله ﷻ أن هذا الحكم ممتد مع القوى الوثنية والقوى المنافقة والقوى الكتابية لا فرق، وأن إظهار الاعتزاز بالإيمان لا يختلف من مكانٍ إلى مكانٍ.. فإنك إن أقمت مع من يكفر بآيات الله ويستهزئ بها لكأنك تؤثر عزته ومحابَّه ورغباته على إيمانك وقرآنك ودينك.. لا تفعل ذلك.. ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾.

فجلوس المؤمن مجلسًا يسمع فيه آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها، فيسكت ويتغاضى دليل على ضياع الإحساس، وفقد البوصلة الإيمانية، وإلف القبيح مفسدة للدين والعقل جميعًا، ويوشك لمن يفعل ذلك أن يتشرب النفاق في نفسه، لِأَنَّ لِلْأَخْلَاقِ عَدْوَى، وَفِي المَثَلِ «تُعْدِي الصِّحَاحَ مَبَارِكُ الجُرْبِ».

وقد يسمي الغافل «ذلك تسامحًا، أو يسميه دهاء، أو يسميه سعة صدر وأفق وإيمانًا بحرية الرأي!!! وهي هي الهزيمة الداخلية تدب في أوصاله وهو يموه على نفسه في أول الطريق، حياء منه أن تأخذه نفسه متلبسًا بالضعف والهوان! إن الحمية

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٣٢١).

لله، ولدين الله، ولآيات الله، هي آية الإيمان، وما تفتر هذه الحمية إلا وينهار بعدها كل سد وينزاح بعدها كل حاجز، وينجرف الحطام الواهي عند دفعة التيار، وإن الحمية لتكبت في أول الأمر عمدًا.

ثم تهمد، ثم تخمد، ثم تموت! فمن سمع الاستهزاء بدينه في مجلس، فإما أن يدفع، وإما أن يقاطع المجلس وأهله، فأما التغاضي والسكوت فهو أول مراحل الهزيمة، وهو المعبر بين الإيمان والكفر على قنطرة النفاق! وقد كان بعض المسلمين في المدينة يجلسون في مجالس كبار المنافقين- ذوي النفوذ- وكان ما يزال لهم ذلك النفوذ. وجاء المنهج القرآني ينبه في النفوس تلك الحقيقة» [١]..

ويستنبط ابن عباس ﷺ من هذه الآية ضرورة أن يكون المسلمون أمة واحدة، وأن يعملوا على تحقيق ذلك لا أن يقلبوا المسألة إلى اتهامات متبادلة فيما بينهم، فعن ابن عباس قوله: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ﴾ (النساء: ١٤٠)، وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ (الأنعام: ١٥٣)، وقوله: ﴿أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ (الشورى: ١٣)، ونحو هذا من القرآن. قال: أمر الله ﷻ المؤمنين بالجماعة، ونهاهم عن الاختلاف [٢].

وعند النظر إلى عُمُومِ لَفْظِ الآية دُونَ خُصُوصِ السَّبَبِ ترى فيها وجوب اجْتِنَابِ كُلِّ مَوْقِفٍ يَخُوضُ فِيهِ أَهْلُهُ بِمَا يُفِيدُ التَّنَقُّصَ وَالِاسْتِهْزَاءَ بالشريعة وأهلها، سواء أكان ذلك بتقديم التقليد على النصوص الظاهرة أم بعدم الاستسلام للشريعة وإظهار محاسنها [٣].

---

(١) في ظلال القرآن (٢/ ٧٨٠).

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٣٢١).

(٣) تفسير المنار (٥/ ٣٧٧).

الصفة الخامسة: رسوخ المنافقين في الإفساد، والإجرام، بصورةٍ تفوق غيرهم، ويُبَصِّرُنا بها تقديم المنافقين في قوله تعالى ذكره: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ (النساء:١٤٠)، فكيف لا يحذر منهم؟

الصفة السادسة: التربص، أي: الترقب الحذر والمُخَطِّط بطريقة غير مباشرة لوقوع الشر بالمؤمنين، والحماسة في نصرة الطغاة المجرمين، وإظهار كراهية أشد وحقد أعظم على الصالحين، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (النساء:١٤١).

التربص من رَبَصَ بفُلانٍ رَبْصًا: انْتَظَرَ بِهِ خَيْرًا أَو شَرًّا يَحُلُّ بِهِ، كما قالَ الله تَعَالى ذكره: ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ فالتَّرَبُّصُ بالشَّيْءِ: أَنْ تَنْتَظِرَ بِهِ يَوْمًا فاصلًا، فهو الانتظار المترقب لحدوث شيء ما كما قال الشّاعِرِ:

تَـرَبَّـصْ بِـهـا رَيْـبَ الـمَـنُـونِ لعَلَّهَا تُـطَـلَّـقُ يَـوْمًـا أَو يَـمُـوتُ حَلِيلُهَا

فالتربص هنا يعني الانتظار المترقب لتقلب أحوال المؤمنين حسب تعاملهم مع الأحداث الحيوية المتغيرة، فلو كانت الغلبة والقوة للمؤمنين أظهر المنافقون بأنهم مع المؤمنين، فهذه الحالة الأولى وهي الفتح من الله ﷻ للمسلمين.

وأما الثانية فقال الله عنها: ﴿وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ ﴾ أي: انتصار بصورة ما على المؤمنين، فإذا كانت الغلبة للكافرين على المؤمنين.. فما موقف المنافقين؟

يفرحون ويفاخرون بأنهم حققوا الهزيمة والدمار للمسلمين، وتربصهم بالمؤمنين يقتضي أنهم لن ينصروا أي قضية عادلة للبشرية، وبذا فلن ينصروا أي قضية عادلة للمؤمنين لأن ذلك يعني إظهار الحقوق الإنسانية وإقامة القسط، وهم يحاربون ذلك، بل تراهم يراوغون لمصلحة العدو؛ فإن رأوا انتصارًا لقضية إسلامية

زعموا أنهم كانوا مع صفوف المؤمنين، وإن كانت الأخرى فرحوا وحاولوا أن ينالوا أوسمة الرضا من المعتدين الكافرين، ولفظة التربص توجب أن يبذل الصالحون حذرًا مضاعفًا، وانتباهًا بالغًا فلا ينخدعوا بالرياح الساكنة ولا بالابتسامات والمجاملات التي تصدر من هذه الأصناف المتربصة، والتي تتحين الفرصة تلو الفرصة لنكبة المسلمين والبطش بهم.

وتندهش عندما ترى المعاني المتعددة في قولهم: ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ إذ الحوذ المعالجة بسرعة وقوة وذكاء وحذق، فهي من الخِفَّةِ وَالسُّرْعَةِ وَانْكِمَاشٍ فِي الأَمْرِ، فَالإِحْوَاذُ السَّيْرُ السَّرِيعُ، وَيُقَالُ حَاذَ الحِمَارُ أُتُنَهُ يَحُوذُهَا، إِذَا سَاقَهَا بِعُنْفٍ. قَالَ العَجَاجُ:

يَحُوذُهُنَّ وَلَهُ حُوذِيُّ

وَالأَحْوَذِيُّ: الخَفِيفُ فِي الأُمُورِ، الَّذِي حَذِقَ الأَشْيَاءَ وَأَتْقَنَهَا. وَقَالَتْ عَائِشَةُ ﵂ فِي عُمَرَ ﵁: « كَانَ وَاللَّهِ أَحْوَذِيًّا، نَسِيجَ وَحْدِهِ»[(١)]، والحوذ أن يتبع السائق حاذيي البعير أي أدبار فخذيه فيعنف في سوقه، يقال: حاذ الإبل يحوذها أي ساقها سوقًا عنيفًا[(٢)]، وحاذه، أي حاطه وحافظ عليه[(٣)]، فيكون قوله: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ﴾ غَلَبَهُم بحذقٍ وسرعةٍ وإتقانٍ واستخفافٍ وخفةٍ في الفعل من جهته، وَسَاقَهُم إِلَى مَا يُرِيدُ مِنْ غَيِّهِ مستوليا عليهم، فلها معنيان:

الأول: ألم نستحوذ عليكم بِمَعْنَى أَلَمْ يكن بمقدورنا أن نهزمكم مع المؤمنين لكننا لَمْ نَفْعَلْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ بل عالجنا الموقف بذكاء ودهاء فحميناكم مِنَ الصالحين

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط(٤/ ٣١٩) برقم ٤٣١٨، والصغير(٢/ ٢١٤) برقم ١٠٥١، قال الهيثمي:«رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الصَّغِيرِ وَالْأَوْسَطِ مِنْ طُرُقٍ، وَرِجَالُ أَحَدِهَا ثِقَاتٌ» مجمع الزوائد(٩/ ٥٠).

(٢) مقاييس اللغة (٢/ ١١٥)، المفردات في غريب القرآن ت كيلاني (ص: ١٣٤).

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٥/ ٤٤٠).

وخلخلنا صفوفهم، وجعلنا الغلبة لكم عليهم، فينبغي أن تعرفوا مودتنا وتقدروا جهودنا في حمايتكم من المسلمين، أي أننا استطعنا بذكائنا الخارق الفائق أن نحيط عليكم، ويكون التقدير: نحيط حفاظًا عليكم من المؤمنين.

الثاني: ألم نغلب على رأيكم بحذقنا وفهمنا، ومنعناكم مما هممتم به من موافقة الصالحين أو اتباعهم، فنحن أحرص عليكم من أنفسكم، فطلبنا بذلك حياطتكم والمحافظة على مودتكم حتى غلبنا على جميع أسراركم واستولينا عليها، وخالطناكم مخالطة الدم للبدن، وغَلَبْنَاكُمْ عَلَى رَأْيِكُمْ فِي التفاهم مع أهل الإِسْلَامِ وَمَنَعْنَاكُمْ مِنْهُ، وَقُلْنَا لَكُمْ بِأَنَّهُ سَيَضْعُفُ أَمْرُهُ وَيَقْوَى أَمْرُكُمْ، فَلَمَّا شَاهَدْتُمْ صِدْقَ قَوْلِنَا فَادْفَعُوا إِلَيْنَا نَصِيبًا مِمَّا وَجَدْتُمْ [1]، كأنهم يقولون: لقد أوتينا من صدق العزيمة، وقوة الإرادة، وعمق العقيدة ضد الإسلام ما ليس عندكم.. نحن حذرناكم من التراخي في التعامل مع الإسلام..

لقد أثبتت قوى النفاق نجاحها في إثبات أنها أشد كراهية للإسلام من أي جهة أخرى معادية له.. ألا تعجب من أن هذه القوى المجرمة تحذر من كثرة من يعتنق الإسلام؟ ألا تراهم يصورون المسلمين مصادر للإرهاب، ويفزعون العالم من ضحاياهم الذين يبذلون أشنع الأساليب لمنعهم من نيل حقوق الإنساني العادي؟

وما زالت قوى النفاق تذكي نيران الكراهية الموجهة ضد المسلمين، وتستعر حملاتها ضد كل بيئة فيها شيء من الحرية التي يستطيع فيها أن يعبر المسلم عن مطالبه في الحياة العادلة، وفي حديث لأحد مراكز معاداة المسلمين مع أحد القنوات الغربية يفتخر بأنه يرى ما يسميه الإرهاب يقضي على كل ما يتعلق بالكرامة الإنسانية، ولا يتعلق فقط بالاعتداء على الآخرين.

---

(١) تفسير الرازي (١١/ ٢٤٧).

هذه القوى المنافقة تخاطب مراكز الاعتداء الخارجية فتقول لهم: ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ كأنهم يفتخرون، فيقولون: لقد بذلنا من الوسائل في محاربة المسلمين شيئًا لم تؤتوها أنتم، ولا تستطيعون لأنكم في مكان آخر، أما نحن فأوتينا من الاتقان والحذق ما نستطيع به أن نعبث بعقول المؤمنين ونغلبهم على أمرهم، وكل ذلك لأجلكم، وكأنهم يمنون على أسيادهم، ويبينون لهم أهميتهم الاستراتيجية، وأنهم يمثلون مخالب السباع التي لا تصل إلى فرائسها بأفواهها.

فيمنون على الكافرين بأنهم كانوا أعظم محافظة على مصالحهم، وأبصر منهم بكيفية التعامل مع المسلمين من خلال منع الكافرين من موافقة المسلمين في كثير مما كانوا أن يلتقوا عليه.

وتشعر هنا بمدى حماسهم في نصرة الكفر والباطل والإجرام أكثر من الكفار والمجرمين الأصليين أنفسهم، إذ إن معنى ذلك أن المجرمين الأصليين كان عندهم تردد في القيام بتلك الجرائم الكبرى لكن المنافقين هم الذين يشجعونهم حتى جرأوهم على تلك الأفعال الشنيعة فكانت النتيجة انتصار المجرمين، وعندها يأتي المنافقون ليمنوا عليهم أنهم استطاعوا أن يستحوذوا على عقولهم ليقدموا على ذلك الإجرام .

«وهكذا يتلوون كالديدان والثعابين. في قلوبهم السم. وعلى ألسنتهم الدهان!» ومن الخارج الجلد الناعم الذي يظن الإنسان من خلاله أنه يستند على صوف أملس أو حرير لين، وإنما هو يستند على ثعبان سام وحية رقطاء، ولكنهم بعد ضعاف، صورتهم زرية شائهة، تعافها نفوس المؤمنين[1].

هذه القوة المنافقة الخطيرة ليست إلا استنساخًا خطيراً عن المعتدين لتكون

(١) في ظلال القرآن (٢/ ٧٨٢).

أخطر من المعتدين وأخبث فعلاً وتخطيطًا وتنفيذاً، حيث يقيمون كيانات مجرمة مفسدة لا هم لها في الحياة إلا الفخر بتقبيل روث المعتدين، وسبقهم في مظاهر الفسق والإفساد والبطش بالمسلمين، وبسائر المستضعفين في الأرض.

ولتنظر إلى التعبير عَنْ ظَفَرِ الْمُؤْمِنِينَ بِالفَتْحِ وَأَنَّهُ مِنَ اللهِ ﷻ، وَعَنْ ظَفَرِ الكَافِرِينَ بِالنَّصِيبِ.. افترق التعبيران ليفيد أَنَّ المؤمنين يتمكنون من غيرهم بسبب التوفيق الإلهي مع قلة عددهم، وضعف حيلهم، وذلك بعد بذل الأسباب البشرية المتاحة لهم، فلا يبقى لهم إلا فتح الله ﷻ وتوفيقه، كذلك أراد الله أن ينبهنا إلى أن وجود الحق مع المؤمنين ليس كافيًا في أن يتمكن المؤمنون طوال الزمان والمكان، بل قد يأتي الفتح، وقد يحل الابتلاء، أما الكافرون فلا بد أن يكون لهم نصيب في التقدم بسبب عودة سنن الدنيا وقوانينها إلى مبدأ ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ (آل عمران: ١٤٠)، ومبدأ ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ (الإسراء: ٢٠، ٢١) لم يصف نصر الكافرين على المؤمنين بالفتح، بل وصفه بأنه ﴿نَصِيبٌ﴾؛ وذلك ليبين أن النصر لا يكون محتمًا دائمًا للمؤمنين، فقد يكون للكافرين نصيب حسب قانون تداول الأيام، فقد يكون النصر لهؤلاء، وقد يكون لهؤلاء لكنه جعل نصر المؤمنين فتحًا؛ لما فيه من خير للبشرية، ووصف نصر الكافرين بأنه نصيب؛ لأن تداول الأيام سنة قدرية يبتلي الله ﷻ بها عباده.

الصفة السابعة: استمرار وجود الفئة المنافقة في العالم؛ مما يستدعي ديمومة الحذر منهم، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ (النساء: ١٤١).

فهذا يعني أن حقيقة التداول، والسجال بين الفئات الثلاثة ستبقى في الدنيا، ولا تنتهي إلى يوم القيامة، ويُبَصِّرُنا ذلك ألا نميل إلى الأحلام، ولا نظن بأنه يمكن أن

تزول المآسي بالنيات الصافية، بل سيبقى الاختلاف والتداول والسجال بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان.

الصفة الثامنة: تغلب المنافقين مع أوليائهم، يعتمد على رخاوة المؤمنين في إيمانهم، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾، فهذا نفي لتمكن أحد من أن يجد سبيلًا مهما قل لهزيمة المؤمنين، فإن وجد فذلك عائد لخلل في الإيمان الغيبي، ومقتضياته الواقعية.

فلا يمكنهم أن يستولوا على المؤمنين إن استمسك المؤمنون بإيمانهم ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ (غافر: ٥١، ٥٢)، والاستمساك بالإيمان يعني القيام بمقتضيات الإيمان سواء منها ما تعلق بالعبادات القلبية أو العبادات الشعائرية أو العبادات المعاملاتية، وشرط لذلك أن يكون المؤمنون مؤمنين صورة وحقيقة، وهذا الوصف لا يتحقق لهم إلا ببذل السبب المادي والشرعي، فالإيمان يقتضي التمسك بالشرع، ومن الإخلال بمقتضيات الإيمان مداهنة هؤلاء الخونة، وتوليتهم المناصب، وائتمانهم على تجاراتهم، ومعاملاتهم، والإيمان يقتضي الاستفادة من سنن الحياة الدنيا، وإعداد ما استطاع المسلمون من قوة، فَهُم يَسْتَطِيعُون أَنْ يقيموا المصانع الاقتصادية والعسكرية، وينشئوا الجامعات العلمية والمراكز البحثية التي تجعلهم في أعلى درجات التقدم المادي «مِنَ العُلُومِ الرِّيَاضِيَّةِ وَالطَّبِيعِيَّةِ وَالمِيكَانِيكِيَّةِ، وَهِيَ فَرْضٌ عَلَيْهِمْ بِمُقْتَضَى قَوَاعِدِ دِينِهِم؛ لِأَنَّ مَا لَا يَتِمُّ الوَاجِبُ إِلَّا بِهِ فَهُوَ وَاجِبٌ، وَقَدْ تَرَكُوا كُلَّ ذَلِكَ بَلْ صَارَ أَدْعِيَاءُ العِلْمِ فِيهِمْ يُحَرِّمُونَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ»[1].

وختام الآية بمثل هذا القانون يدل على الإحكام المتقن في القرآن، فمع هذا

(١) تفسير المنار (٥/ ٣٧٩).

المكر الهائل الجامع بين العتاة من المنافقين والكافرين يطرح السؤال نفسه: هل يمكنهم التمكن من السيطرة على المسلمين أو تدميرهم؟

فيأتي الجواب:

أولًا: نعم إذا غفل المسلمون عنهم، ولم يكن الانتباه لخطورتهم ضمن أولويات الأمن القومي، فإذا غفل المسلمون تسلط هؤلاء المجرمون، ولا يعني ذلك أن الله لن يعاقبهم لكن عقابهم يكون في الآخرة لغفلة المسلمين ولذا قال الله ﷻ: ﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ وغفلة المسلمين تتم بمداهنة هؤلاء، وتوليتهم المناصب، وائتمانهم على تجاراتهم ومعاملاتهم.

فالكافرون يكون لهم سبيل إذا دمروا معنى الإيمان وحقيقته، ومن ذلك ألا ينتبه المؤمنون إلى أن الإيمان ليس مجرد تدين شخصي بل هو أساس في عملية الأمن القومي.

ثانيًا: إذا لم يغفل المسلمون لن يستطيع هؤلاء المجرمون التسلط عليهم ولا الفوز في مكائدهم بشرط أن يثبت المؤمنون على شروط الإيمان ﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا﴾ (النساء: ١٤١) وبذلك ينصر الله ﷻ المؤمنين على هذا الصنف المجرم من المنافقين المخادعين.

وبذا يطمئن الذين آمنوا بوعد من الله ﷻ قاطع أن هذا الكيد الخفي الماكر، وهذا التآمر مع الكافرين، لن يغير ميزان الأمور ولن يجعل الغلبة والقهر للكافرين على المؤمنين: ﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا﴾.. إن الإيمان صلة بالقوة الكبرى، التي لا تضعف ولا تفنى.. وإن الكفر انقطاع عن تلك القوة وانعزال عنها.. ولن تملك قوة محدودة مقطوعة منعزلة فانية، أن تغلب قوة موصولة بمصدر القوة في هذا الكون جميعًا. غير أنه يجب أن نفرق دائمًا بين حقيقة الإيمان ومظهر الإيمان..

إن حقيقة الإيمان قوة حقيقية ثابتة ثبوت النواميس الكونية.

إن حقيقة الإيمان قوة حقيقية ثابتة ثبوت النواميس الكونية. ذات أثر في النفس وفيما يصدر عنها من الحركة والعمل. وهي حقيقة ضخمة هائلة كفيلة حين تواجه حقيقة الكفر المنعزلة المبتوتة المحدودة أن تقهرها.. ولكن حين يتحول الإيمان إلى مظهر فإن (حقيقة) الكفر تغلبه، إذا هي صدقت مع طبيعتها وعملت في مجالها.. لأن حقيقة أي شيء أقوى من (مظهر) أي شيء [1].

الصفة التاسعة: عدم تعظيم الله ﷻ حق التعظيم حتى ظن المنافقون أنهم بإجرامهم مع ادعاء الإسلام يمكنهم أن يخادعوا الله ﷻ، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾.

تأمل في الآية لترى أن الله ﷻ أعاد كلمة المنافقين في هذه الآية مرة أخرى مع أنه قد ذكرها في الآية السابقة، فإعادة إظهار ما حقه الإضمار يكون للاهتمام بشأنه إما للمخاطب المباشر الذي هو المؤمن، وإما للمخاطب الآخر وهو المنافق نفسه، فعندما قال: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ لتأكيد الكلام عن هذا الصنف، وللاهتمام بشأنه لخطورته، ولذكر صفةٍ أخرى من صفات هذا الصنف الدنس، ولأمر آخر وهو -للأسف- غائب عن الأمة الإسلامية، وهو أنه لابد من إحياء الكلام عن هذا الصنف، مثلا أن تجد أوصافًا وألقابًا نخترعها من عند أنفسنا في وصف الإجرام أو العبث، لكننا لا نقف عند المصطلح القرآني فنتكلم عنه، ولا نجعله لسان حالنا في الوسائل الثقافة والإعلامية والتربوية.

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ فهم يقيمون المؤسسات الأمنية، والعسكرية، والثقافية لمحاربة الإسلام، واضطهاد أتباعه، ويتحول خداعهم وكذبهم

(١) في ظلال القرآن (٢/ ٧٨٢).

مع الإصرار إلى منهج حياة، ويكتفون ببعض الطقوس الإسلامية للخداع، فتظاهرهم بالإسلام يجعلهم مسلمين في الواقع، فتكون لهم حقوق الإسلام، والإِخْدَاعُ: إخفاء الشَّيْء مع فساده، وبه سُمِّيَتْ الخِزانَةُ مُخْدَعًا، والخداع إنزال الغير عما هو بصدده بأمرٍ يبديه على خلاف ما يخفيه، ومنه خدع الضب، أي: استتر في جحره، فهو يعد عقربًا تلدغ من يدخل يديه في جحره حتى قيل: العقرب بواب الضب وحاجبه ولاعتقاد الخديعة فيه قيل: أخدع من ضب، وطريق خادع وخيدع مضل كأنه يخدع سالكه [١]، ومن هذه المخادعة: ما ذكره حذيفة رضي الله عنه حينما سُئِلَ: مَا المُنَافِقُ؟ قَالَ: «الَّذِي يَصِفُ الإِسْلَامَ، وَلَا يَعْمَلُ بِهِ»[٢].

فالمعنى: إن المنافقين يخادعون رسول الله فيحاولون خداع الله ﷻ، أو يخادعون المؤمنين فيحاولون خداع الله؛ إذ من خادع أولياء الله فكأنما يحاول مخادعة الله، فهل يمكن أن يكون هذا؟ ويدخل في محاولة خداع الله ما تراه منتشرًا في العهد القديم من أن بركة الله يمكن أن تؤخذ بالخداع كما في قصة سرقة يعقوب عليه السلام البركة من أخيه الكبير، وكما في هزيمة يعقوب عليه السلام لربه في مصارعة -تعالى الله عما يقول المفترون علوًا كبيرًا-، وجلَّ أنبياء الله عن هذه الترهات، وبعض من ينتسب إلى الإسلام من المنافقين أو ممن يعمل أعمالهم يفعل الأمر ذاته فيظن أنه ببعض الأعمال الصالحات يمكن أن يمحو الفظائع والجرائم الموبقات.. هكذا مطلقًا دون إقامة شروط القبول للأعمال، أو التوبة الصادقة بين يدي الرب الكبير المتعال.

﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾، جواب مزلزلٌ لهم بأسلوب المشاكلة، المربكة لتفكيرهم، كَمَا قَالَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ (الفَتْح: ١٠)، « فَإِطْلَاقُ الخِدَاعِ عَلَى اسْتِدْرَاجِ اللَّهِ إِيَّاهُمُ اسْتِعَارَةٌ تَمْثِيلِيَّةٌ، وَحَسَّنَتْهَا المُشَاكَلَةُ لِأَنَّ المُشَاكَلَةَ لَا تَعْدُو أَنْ

(١) المفردات في غريب القرآن ت كيلاني (ص: ١٤٣).

(٢) الزهد لوكيع (ص: ٧٨٦).

تَكُونَ اسْتِعَارَةَ لَفْظٍ لِغَيْرِ مَعْنَاهُ مَعَ مَزِيدِ مُنَاسَبَةٍ مَعَ لَفْظٍ آخَرَ مِثْلِ اللَّفْظِ المُسْتَعَارِ»[١]، كَقَوْلِ أَبِي الرَّقَعْمَقِ[٢].

قَالُوا: اقْتَرِحْ شَيْئًا نُجِدْ لَكَ طَبْخَهُ قُلْتُ: أَطْبِخُوا لِي جُبَّةً وَقَمِيصَا

وهو أسلوب يدل على المجازاة على الأعمال من جنسها من الناحية اللفظية، إلا أن المجازاة هنا قائمة على العدل من الناحية المعنوية، وذلك مثل قول النَّبِيّ ﷺ: «مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللَّهُ بِهِ، وَمَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللَّهُ بِهِ»[٣]، وفي رواية: «مَنْ يُسَمِّعَ النَّاسَ بِعَمَلِهِ سَمَّعَ اللَّهُ بِهِ سَامِعَ خَلْقِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ وَحَقَّرَهُ وَصَغَّرَهُ»[٤]، ويكون معنى ذلك أنه يعاملهم بمثل ما يعتقدون أنهم تفوقوا فيه، وذلك من خلال عدة صور:

الصورة الأولى: هو يعلم باطن ضمائرهم ويحيط بأفكارهم الخبيثة، ويمهلهم استدراجًا منه لهم في الدنيا، بأن يتركهم في غيهم لا يقرعهم بمصيبة كبرى تنبههم، ولا يوقظهم بنكبة عظمى تفتح عقولهم على خطأ سيرهم، فيظلون على غيهم، ويظنون أنهم على حق، ويفرحون بإجرامهم، وينشرون المآسي في جميع أنحاء العالم ثم يقولون: لماذا لا تصنعون الابتسامات على وجوه الناس؟

﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ أي: أن الله ﷻ لا يوقظهم من غيهم، بل يزدادون غيًّا وهذا مثل قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ (البقرة: ١٥).. بل تراه يملي لهم، فيزدادون ضحكًا، وقهقهة، فيظنون أنه لا يوجد إله، ولا يوجد حساب، وأنه إن وجد فهو لا ينصر أولياءه، أو أنهم أولياؤه على الحقيقة، عندها يجزيهم الجزاء الأوفى بما يليق بهم في النار؛ إذ المصائب قد تكون نذير رحمة لتنبيه المرء

(١) الدر الفريد للمستعصمي(٨/ ٢٣٣).

(٢) التحرير والتنوير (٥/ ٢٣٩).

(٣) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٨ / ١٣٠) رقم ٦٤٩٩ .

(٤) مصنف ابن أبي شيبة - (١٣ / ٥٢٦).

على خطأ في سيره كما قال الزمخشري: «وهو فاعل بهم ما يفعل الغالب في الخداع حيث تركهم معصومي الدماء والأموال في الدنيا، وأعدّ لهم الدرك الأسفل من النار في الآخرة، ولم يخلهم في العاجل من فضيحة وإحلال بأس ونقمة ورعب دائم. والخادع: اسم فاعل من خادعته فخدعته إذا غلبته وكنت أخدع منه» (١).

فَأطلق الخِدَاع عَلَى اسْتِدْرَاجِ اللَّهِ إِيَّاهُم، فكما يخفون إفسادهم العريض تحت ادعاء أنهم مسلمون، يخفي الله عقوبتهم إلى أجل، فيعاملهم بمثل ما يعتقدون أنهم تفوقوا فيه، فيملي لهم، فيزدادون ضحكًا، وقهقهة.

الصورة الثانية: يخادعون رسوله وأولياءه ونسب ذلك إلى الله تعالى ذكره؛ لأن معاملة أولياء الله مثل معاملة الله كما قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ﴾ (الفتح: ١٠)، وجعل ذلك خداعًا تفظيعًا لفعلهم وتنبيهًا على تعظيم الرسول ﷺ وتعظيم أوليائه (٢).

وربما تتساءل: هؤلاء المنافقون الموصوفون في القرآن بالصفات الظاهرة ووصفوا للنبي ﷺ، وكان أمرهم ظاهرًا للنبي ﷺ إلا أن النبي ﷺ أبقاهم على معاملة المسلمين، فلم يقم عليهم عقوبة أو حدًّا.. فما الحكمة من بقائهم في المجتمع الإسلامي؟ فلننظر! فإن النبي ﷺ تعامل معهم وفق عدة موازين:

الميزان الأول: ميزان الظاهر فتعامل معهم على أنهم مسلمون ما داموا لم يظهروا خيانة واضحة.

الميزان الثاني: ميزان القضاء، **والثالث**: ميزان تطبيق استراتيجية أخذ الحذر، فهم يلجأون إلى الخيانات الخفية، والنبي ﷺ يعلم بعضها ولا يعلم بعضها،

(١) تفسير الزمخشري (١/ ٥٧٩).

(٢) المفردات في غريب القرآن ت كيلاني (ص: ١٤٣).

كما قال تعالى ذكره: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ (الأنفال: ٦٠)، وقد قالوا: إن النبي ﷺ أسر إلى الحذيفة بن اليمان بأسماء أربعة عشر أو ستة عشر منافقًا، لكن هناك آخرين من المنافقين لا يعلمهم ﷺ بنص الآية في سورة الأنفال وبنص الآية في سورة التوبة ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ (التوبة: ١٠١). فهم لا يعاقبون بأعيانهم إلا أن يقترفوا جريمة ظاهرة، إلا أن التعبئة الإعلامية ضدهم ينبغي أن تبقى مستمرة، فتفضح صفاتهم، وتسلط الأضواء على خياناتهم، وذلك يحدث لهم رعبًا وزلزالًا، فإذا تم تطبيق استراتيجية أخذ الحذر مع إظهار صفاتهم والحديث عنهم أوجد ذلك أمانًا نسبيًا في المجتمع من أن يقع أحدٌ فيما وقعوا فيه أو أن يصبح ضحية لهم، لكن المنافق إذا أظهر الخيانة الكبرى كأن ثبت عليه مراسلة المعتدين يحال أمره إلى القضاء العادل الذي يتعلق بمصلحة الأمن المجتمعي، وحتى لا تختلط الأمور والمسائل تبقى لهم معاملتهم الظاهرة باعتبارهم مسلمين مع فضح صفاتهم لئلا يرتبك المتابعون من طريقة التعامل معهم، فعن جابر رضي الله عنه قال: غَزَوْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَقَدْ ثَابَ مَعَهُ نَاسٌ مِن المُهَاجِرِينَ حَتَّى كَثُرُوا، وَكَانَ مِنَ المُهَاجِرِينَ رَجُلٌ لَعَّابٌ فَكَسَعَ أَنْصَارِيًّا فَغَضِبَ الأَنْصَارِيُّ غَضَبًا شَدِيدًا حَتَّى تَدَاعَوْا، وَقَالَ الأَنْصَارِيُّ: يَا لَلأَنْصَارِ، وَقَالَ المُهَاجِرِيُّ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: مَا بَالُ دَعْوَى أَهْلِ الجَاهِلِيَّةِ؟ ثُمَّ قَالَ: مَا شَأْنُهُمْ؟ فَأُخْبِرَ بِكَسْعَةِ المُهَاجِرِيِّ الأَنْصَارِيَّ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: دَعُوهَا فَإِنَّهَا خَبِيثَةٌ. وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ: أَقَدْ تَدَاعَوْا عَلَيْنَا؟ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ. فَقَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: أَلاَ نَقْتُلُ يَا رَسُولَ اللهِ هَذَا الخَبِيثَ؟ لِعَبْدِ اللهِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لاَ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّهُ كَانَ يَقْتُلُ أَصْحَابَه» [1].

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٤ / ٢٢٣) برقم ٣٥١٨.

الصورة الثالثة: يجدون مغبة خداعهم يوم القيامة، فهم في الدنيا يخادعون الله بإظهارهم الحرص على مصلحة العالم، فيقتلون الأبرياء، ويخونون أماناتهم، ويحلفون أنهم مصلحون، ويظنون لتطاول عهودهم أنه لا يوجد إله، ولا حساب، حتى إذا ما ردوا إلى الله مولاهم الحق وجدوا عنده جزاء مخادعتهم، ويبين الحسن ﷺ ذلك فيقول: يُلقَى على كل مؤمن ومنافق نورٌ يمشونَ به؛ حتى إذا انتهوا إلى الصراط طَفِئ نورُ المنافقين، ومضى المؤمنون بنورهم، فينادونهم: ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ (سورة الحديد:١٣). قال الحسن ﷺ: فذلك خديعة الله إياهم[١].

ومثال ذلك في الدنيا قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ (البقرة: ١٧).

«وَلَا شَكَّ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يُخَادَعُ، فَإِنَّهُ العَالِمُ بِالسَّرَائِرِ وَالضَّمَائِرِ، وَلَكِنَّ المُنَافِقِينَ لِجَهْلِهِمْ وَقِلَّةِ عِلْمِهِمْ وَعَقْلِهِمْ، يَعْتَقِدُونَ أَنَّ أَمْرَهُمْ كَمَا رَاجَ عِنْدَ النَّاسِ وجَرَت عَلَيْهِمْ أحكامُ الشَّرِيعَةِ ظَاهِرًا، فَكَذَلِكَ يَكُونُ حُكْمُهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ عِنْدَ اللَّهِ، وَأَنَّ أَمْرَهُمْ يَرُوجُ عِنْدَهُ، كَمَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ تَعَالَى أَنَّهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ يَحْلِفُونَ لَهُ: أَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الِاسْتِقَامَةِ وَالسَّدَادِ، وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ ذَلِكَ نَافِعٌ لَهُمْ عِنْدَهُ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ (المجادلة: ١٨)»[٢].

الصورة الرابعة: يخادعون الله بإظهارهم الحرص على مصلحة الأمة والدين، ولذا لا يبالون بدماء المستضعفين، ويخونون أماناتهم، ويحلفون أنهم على الخير حريصون، فيصبح الواحد منهم كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٣٣٠).

(٢) السابق (٩/ ٣٣٠).

مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ (القلم: ١٠ - ١٥).. والله يخدعهم فيمهلهم، فيهدمون مجدهم بأيديهم، ويدمرون منجزاتهم بأفعالهم، وبعد أن يفرغ منهم العدو الخارجي يرمهم كالجلدة القذرة، «وَيَكْثُرُ هَؤُلَاءِ المُنَافِقُونَ فِي طَوْرِ ضِعْفِ الأُمَّةِ وَقُوَّةِ أَعْدَائِهَا ؛ لِأَنَّهُمْ طُلَّابُ المَنَافِعِ وَلَوْ فِيمَا يَضُرُّ أُمَّتَهُمْ وَالنَّاسَ أَجْمَعِينَ، وَإِنَّمَا تُلْتَمَسُ المَنَافِعُ مِنَ الأَقْوِيَاءِ وَإِنِ اقْتَرَنَ التِمَاسُهَا بِالعَارِ، وَالذُّلِّ وَالصَّغَارِ» (١).

ومن صور الخداع التلاعب بالأحكام الشرعية، وعند ذلك ينقلب التحايل عليها أو الاستخفاف بها إلى الضد، فعَنْ عِمْرَانَ بْنِ الحَارِثِ السُّلَمِيِّ ﷺ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ، فَقَالَ: إِنَّ عَمَّهُ طَلَّقَ ثَلاَثًا، فَنَدِمَ. فَقَالَ: عَمُّكَ عَصَى اللَّهَ فَأَنْدَمَهُ، وَأَطَاعَ الشَّيْطَانَ فَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا. قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ أَنَا تَزَوَّجْتُهَا عَنْ غَيْرِ عِلْمٍ مِنْهُ، أَتَرْجِعُ إِلَيْهِ ؟ فَقَالَ: مَنْ يُخَادِعِ اللَّهَ عزَّ وجلَّ يَخْدَعْهُ اللَّهُ (٢).

ومن الأحاديث التي يمكن الاستئناس بها: أن رجلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ! مَا النَّجَاةُ غَدًا ؟ قَالَ ﷺ: « لَا تخادع الله تعالى» قَالَ: وَكَيْفَ يُخادَع الله عزَّ وجلَّ ؟ قَالَ ﷺ: « أَنْ تَعْمَلَ بِمَا أَمَرَكَ اللَّهُ بِهِ تُرِيدُ بِهِ غَيْرَهُ، فَاتَّقُوا الرِّيَاءَ، فَإِنَّهُ الشِّرْكُ بِاللَّهِ عزَّ وجلَّ فَإِنَّ المَرَائِيَّ يُنَادَى بِهِ يَوْمَ القيامة على رؤوس الخَلَائِقِ بِأَرْبَعَةِ أسماء: يا فاجر، يَا كَافِرُ، يَا خَاسِرُ، يَا غَادِرُ، ضَلَّ عَمَلُكَ، وَبَطَلَ أجرك، فلا خلاق لَكَ اليَوْمَ عند الله تعالى فالتمس أَجْرَكَ مِمَّنْ كُنْتَ تَعْمَلُ لَهُ يَا مُخَادِعُ »، قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ: (آللَّهُ) الَّذِي لَا إِلَهَ إِلاَّ هو، أنت سَمِعْتَ هَذَا مِنْ رسول الله ﷺ ؟ فقال: والله الَّذِي لَا إِلَهَ إِلاَّ هو، لأنا سَمِعْتُ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ شَيْئًا لَمْ أَتَعَمَّدْهُ. قَالَ يَزِيدُ: وأظنه قَرَأَ

(١) تفسير المنار (٥/ ٣٨٢).

(٢) سنن سعيد بن منصور (الفرائض) ٢٢٧ - (١ / ٢٦٢) برقم ١٠٦٥.

آيَاتٍ مِنَ القُرْآنِ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾... الآية (الكهف: ١١٠)، وَ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾... الآية (النساء: ١٤٢)[١].

الصفة العاشرة: لا يقومون للصلاة، فإن قاموا لها قاموا كسالى طلبًا للمراءاة واستغفال الجمهور، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾.

الجملة الشرطية تشعر أنهم لا يقومون إليها، لكنهم إذا قاموا إليها قاموا كسالى مُتَثَاقِلِينَ مُتَبَاطِئِينَ، ولماذا يقومون، وهم لا يريدون القيام؟ لأنهم ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾، والمراءاة مُفَاعَلَةٌ مِنَ الرُّؤْيَةِ؛ وهذه المفاعلة تعني أن مرادهم أن تراهم الجماهير، وأن يروا هم الجماهير أيضًا لتحقيق مصالحهم وإبقاء إمرتهم وتجارتهم إن كانوا تجارًا أو أمراء، فلولا رؤية الناس لما قاموا، ولذا قال قتادة ﷺ: «والله لولا الناسُ ما صَلَّى المنافق، ولا يصلِّي إلا رياء وسُمْعة»[٢].

واستنبط أهل العلم من ذلك تحذير المسلمين من القيام إلى الصلاة حال الكسل.

فهذه المُرَاءاة تدل على أنهم يصلون لتحقيق مصالح آنية، ولا يشعرون بنور الصلاة، ولذا تثقل عليهم الصلوات، وأشدها ثقلًا عليهم ما يوافق وقت نومهم أو لهوهم، لذا قال النَّبِيّ ﷺ: «أَثْقَلُ الصَّلاَةِ عَلَى المُنَافِقِينَ: العِشَاءُ، وَالفَجْرُ»[٣]، وقال عن الذين لا يشهدون الصلاة: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ بِحَطَبٍ فَيُحْطَبَ ثُمَّ آمُرَ بِالصَّلاَةِ فَيُؤَذَّنَ لَهَا، ثُمَّ آمُرَ رَجُلًا فَيَؤُمَّ النَّاسَ، ثُمَّ أُخَالِفَ إِلَى رِجَالٍ فَأُحَرِّقَ عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُمْ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ يَعْلَمُ أَحَدُهُمْ أَنَّهُ يَجِدُ عَرْقًا سَمِينًا، أَوْ مِرْمَاتَيْنِ

(١) المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية (١٣ / ٤٣١) برقم ٣٢١٥، وضعفه الألباني في الضعيفة.

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٣٨).

(٣) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (١ / ١٤٧) رقم ٩٩.

حَسَنَتَيْنِ لَشَهِدَ العِشَاءَ» [١]، وروي عن النبي ﷺ: «من أحسن الصلاة حيث يراها الناس وأساءها حيث يخلو، فتلك استهانة استهان بها ربه تبارك وتعالى» [٢].

فلا يقومون إلى الصلاة بحرارة الشوق إلى لقاء اللّه، والمناجاة له، والاتصال به، والسكينة بين يديه، فإن اللقاء بمولاك وربك الذي رباك وحباك يختصره قولهم في لقاء المحبوب حبيبه:

لقاء الاثنين يبين حَدَّهْ تلهفٌ كَيْفية ومدَّهْ

فيشتاق للقاء محبوبه، ويظهر عليه التلهف الذي كان يبديه النبي ﷺ شوقًا للصلاة، فعَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الجَعْدِ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ - قَالَ مِسْعَرٌ: أُرَاهُ مِنْ خُزَاعَةَ -: لَيْتَنِي صَلَّيْتُ فَاسْتَرَحْتُ، فَكَأَنَّهُمْ عَابُوا ذَلِكَ عَلَيْهِ، فَقَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ «يَا بِلاَلُ أَقِمِ الصَّلاَةَ أَرِحْنَا بِهَا» [٣]. وتظهر كيفية المحبة عند اللقاء تحسينًا للنظر والكلام والتضام وتطويلًا لمدتها، ومثل ذاك أعمال الصلاة مع من يحب التوابين والمتطهرين والمتقين والمحسنين.. جل شأنه.

وهذه الصفة تكشف عن أحوال المنافقين، وينبغي للمؤمنين أن يحذروا منها، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «يكرَه أَنْ يَقُومَ الرجلُ إِلَى الصَّلَاةِ وَهُوَ كَسْلَانُ، وَلَكِنْ يَقُومُ إِلَيْهَا طَلْقَ الوَجْهِ، عَظِيمَ الرَّغْبَةِ، شَدِيدَ الفَرَحِ؛ فَإِنَّهُ يُنَاجِي اللَّهَ تَعَالى، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَامَهُ، يَغْفِرُ لَهُ، وَيُجِيبُهُ إِذَا دَعَاهُ»، ثُمَّ يَتْلُو ابْنُ عَبَّاسٍ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾ كما قيل:

---

(١) البخاري (١ / ١٥٥) رقم٦٤٤، والعرق، المراد بِهِ: بضعة اللحم السمين عَلَى عظمة، وفي فتح الباري (١ / ١٢٥): قال أبو عبيد وغيره: (المرماة) بكسر الميم وبفتحها أيضًا ما بين ظلفي الشاة من اللحم، فعلى هذا الميم أصلية، وقيل: هو السهم الذي يرمي به، فالميم زائدة، وهي مكسورة قولًا واحدًا.

(٢) مسند أبي يعلى (٩ / ٥٤)، قال حسين سليم أسد: إسناده ضعيف.

(٣) أبو داود (٤ / ٤٥٣) برقم ٤٩٨٧، وصححه الألباني.

لِأَشْيَاعِ الْمُنَافَقَةِ اعْتِقَادٌ يَرَوْنَ به عن الشرع انْحِلَالًا
أَبَاحُوا كُلَّ مَحْظُورٍ حَرَامٍ وَرَدُّوهُ لِأَنْفُسِهِمْ حَلَالًا
فَيَأْتُونَ الْمَنَاكِرَ فِي نَشَاطٍ وَيَأْتُونَ الصَّلَاةَ وَهُمْ كُسَالَى

الصفة الحادية عشرة: قلة ذكر الله تعالى، في مقابل كثرة ذكر شهواتهم وحلفائهم المعتدين، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (النساء:١٤٢).

فكما أنهم لا يقومون إلى الصلاة إلا كسالى لتحقيق مصالحهم في المجتمع المسلم من خلال خداعه، كذلك لا تسمع منهم ذكرًا لله، فلا تسمع من الواحد منهم تهليلة ولا تسبيحة ولا تحميدة، ولكن حديث الدنيا يستغرق به أوقاته لا يفتر عنه، وتراه ربما ذكر الله عند احتياجه لإثبات إسلامه عند الكفار، وهذا الذكر مهما كثر فهو قليل في حيز العدم كما قال قَتَادَةُ ﷺ: إِنَّمَا قِيلَ: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾، لِأَنَّ اللَّه تَعَالَى لَمْ يَقْبَلْهُ، وَمَا رَدَّهُ اللَّه تَعَالَى فَكَثِيرُهُ قَلِيلٌ، وَمَا قَبِلَهُ اللَّه فَقَلِيلُهُ كثير، وقد قال ﷺ: «تِلْكَ صَلاَةُ الْمُنَافِقِ يَجْلِسُ يَرْقُبُ الشَّمْسَ حَتَّى إِذَا كَانَتْ بَيْنَ قرني الشَّيْطَانِ، قَامَ فَنَقَرَهَا أَرْبَعًا، لاَ يَذْكُرُ اللَّهَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلًا»[1]، وما زال هذا في العصر الحاضر إلا أن كثيرًا من منافقي هذا العصر أسوأ حالًا، فهم يكتفون بإثبات إسلامهم بالشهادتين وحضور بعض المناسبات الإسلامية الصحيحة والمبتدعة.

الصفة الثانية عشرة: الخيانة بالتذبذب في الولاء بين قوى الخير، وقوى الشر، ويجعلون التذبذب سمة مساندة لصالح نصرتهم لقوى الشر، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ فيجازيهم الله بأن يبقيهم على ضلالهم، ولذا قال: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ (النساء:١٤٣).

وهذه هي العلامة السياسية الظاهرة الواضحة، فهم يقومون بجرائم قوى الشر مع أنهم يزعمون أنهم مسلمون، فأخذوا الاسم من جهة المسلمين، وأخذوا الفعل

(١) مسلم (٢/ ١١٠) برقم ٦٢٣.

من جهة المجرمين، وهم بذلك أصحاب ميوعةٍ في المواقف؛ إذ يريدون كسب الأطراف جميعها، لكنك ينبغي أن تشعر بوضوح أن تذبذبهم يجعلونه لصالح قوى الشر في المحصلة النهائية، ففي الظاهر يريدون كسب الأطراف، أما في الباطن فإنهم يسارعون في العمل على انتصار قوى الشر في العالم على كل من عنده ذرة خير مسلمًا كان أم كافرًا.

وعد بنا إلى الإشراق البياني القرآني؛ لتلمح شيئًا آخر في صفاتهم؛ فإن العَرَبَ تَأْتِي بِمِثْلِ هَذَا التَّرْكِيبِ المُشْتَمِلِ عَلَى (لَا) النَّافِيَةِ مُكَرَّرَةً فِي غَرَضَيْنِ، أَحَدُهما: تَارَةً يَقْصِدُونَ بِهِ إِضَاعَةَ الأَمْرَيْنِ، كَقَوْلِ إِحْدَى نِسَاءِ حَدِيثِ أُمِّ زَرْعٍ «لَا سَهْلٌ فَيُرْتَقَى وَلَا سَمِينٌ فَيُنْتَقَلُ» وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ (القِيَامَة: ٣١) [1]، فهم لا يريدون نصرة قوى الباطل لمحبتهم لأشخاص أهل الباطل، أو لولائهم لأهل الإجرام.. كلا! بل يحقدون على الجهتين معًا، لكنهم يعلمون أن الخصم الأكبر لهم هم أهل الحق، فيركزون جهودهم عليهم، ويتمنون إن تخلصوا منهم أن يكروا على قوى الشر والباطل ليدمروها، ثم يأكل بعضهم بعضًا حتى لا يبقى لهم منافس؛ فلا يوجد عندهم إخلاص لشيء ما عدا عبادة الذات، لكنهم يظهرون محبة قوى الشر لأن معركتهم مع قوى الخير تطول... وكيف لا تطول، وهم يريدون إطفاء نور الله.. أفيستطيعون؟

ولذا لا يتحملون التكاليف الإسلامية، ولا يقومون بها إلا تثاقلًا ومنًا، مع أن ودهم في الأخير، ونصحهم المستقر هو للكفار، والذَّبْذَبَةُ: شِدَّةُ الِاضْطِرَابِ مِنْ خَوْفٍ أَوْ خَجَلٍ، مُشْتَقَّةٌ مِنْ تَكْرِيرِ ذَبَّ إِذَا طَرَدَ، وتكريره دل على تكرر الفعل منه، مِثْلَ زَلْزَلَ وَلَمْلَمَ بِالمَكَانِ وَصَلْصَلَ وَكَبْكَبَ، وأصل (التذبذب)، التحرك والاضطراب، كما قال النابغة:

(١) التحرير والتنوير (٥/ ٢٤١).

أَلَـــم تَـــرَ أَنَّ الله أَعْـــطَـــاكَ سُـــورَةً تَـرَى كُـلَّ مَـلْـكٍ دُونَـهَـا يَـتَـذَبْـذَبُ[١]

لماذا وصفهم باسم المفعول لا باسم الفاعل ﴿مُّذَبۡذَبِينَ﴾؟

لبيان أن أنفسهم تتلاعب بهم كما يُتلاعب بالكرة تتذبذب بين أقدام اللاعبين، وهذا كقوله تعالى ذكره: ﴿فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ﴾ (المائدة: ٣٠)، ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ (يوسف: ٥٣)، ولإظهار أنهم أتباع إمعات لغيرهم، فالأقوياء من الطرفين: الصالحين والفجار، والمسلمين والكفار يضغطون على هذا الصنف الذي لا مبدأ له، فيصبحون بين الفريقين يُرمى بهم بينهم، وكلمة ﴿مُّذَبۡذَبِينَ﴾ تدل بصورةٍ معجزة على أنواع منهم:

فمنهم من هو متردد من الناحية الفكرية، فيظهر إعجابه بشيءٍ ويترك شيئًا، كإعجابه بالاقتصاد الإسلامي، لكنه يكره فكرة تحريم الربا، فمرة يميل مع المجرمين، ومرة يميل مع الصالحين، ويصور النَّبِيّ ﷺ هذا التذبذب تصويرًا محسوسًا فيقول: «مَثَلُ الْمُنَافِقِ كَمَثَلِ الشَّاةِ العَائِرَةِ بَيْنَ الغَنَمَيْنِ تَعِيرُ إِلَى هَذِهِ مَرَّةً وَإِلَى هَذِهِ مَرَّةً»[٢]، وقال قتادة ﷺ في تفسير هذه الآية: ليسوا بمؤمنين مخلصين، ولا مشركين مصرِّحين بالشرك. قال: وذُكر لنا أن نبيّ الله عليه السلام كان يضرب مَثَلًا للمؤمن والمنافق والكافر، كمثل رَهْط ثلاثة دَفعوا إلى نهر، فوقع المؤمن فقَطع، ثم وقع المنافق حتى إذا كاد يصل إلى المؤمن ناداه الكافر: أن هلم إليَّ، فإنيّ أخشى عليك! وناداه المؤمن: أن هلم إليّ، فإن عندي وعندي! يحصي له ما عنده. فما زال المنافق يتردَّد بينهما حَتَّى أَتَى عَلَيْهِ آذيٌّ- أي موج شديد- فَغَرَّقَهُ. وإن المنافق لم يزل في شك وشبهة، حتى أتى عليه الموت وهو كذلك[٣].

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٣٣٢).

(٢) صحيح مسلم (٨ / ١٢٤) برقم ٢٧٨٤ ، والعائرة: المترددة الحائرة.

(٣) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٣٣٤).

ومنهم المتذبذب بين الفعل الظاهر والباطن، وهم أخطر أصناف المنافقين لأنهم أفحش الأعداء مسارعة لنصرة المفسدين في الأرض، فوصفهم بالتذبذب ليس لحيرتهم بل لبيان فعلهم الظاهر، فتفسير الذبذبة بالحيرة لا ينطبق على أكثر المنافقين، فهم من أصلب الناس رأيًا وأثبتهم جنانًا.. بل المراد من وصفهم بالذبذبة إظهار الأمر مع المسلمين، والعمل على نصر المعتدين، وهم من أثبت الناس رأيًا في نصرة المفسدين في الأرض، وتجييش مؤسساتهم لذلك.

وسبب التذبذب أن الفعل يتوقف على الداعي، والمنافق له أحد غرضين:

الأول: القضاء على الإسلام؛ لأنه منعه شهواته وفساده، وهذا غرض ثابت عند طائفة منهم.

الثاني: البحث عن المنفعة مع عدم القناعة التامة بالإسلام، فقد تكون المنفعة عند المسلمين، وقد تكون عند المعتدين، فيكثر التذبذب لتحقيق الغرضين، وأحيانًا يكون التذبذب للحيرة لكن ذلك قليل بالنسبة للمنافقين، وهذا بخلاف الثبات والاطمئنان الذي يظلل حياة المؤمنين كما قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ (إِبْرَاهِيمَ: ٢٧) وَقَالَ ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ (الرَّعد: ٢٨) وَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ (الفجر: ٢٦).

الفصل الثاني

حق البشرية في معرفة العوامل التي تحفظ من كيد المنافقين، وتمنع من نزول العذاب، وفشل الدول، وتدمير الحضارة

(النساء:١٤٤-١٥٢)

آيات هذا الفصل:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا ١٤٤ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ١٤٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ١٤٦ مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمٗا ١٤٧ ۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ إِلَّا مَن ظُلِمَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ١٤٨ إِن تُبۡدُواْ خَيۡرًا أَوۡ تُخۡفُوهُ أَوۡ تَعۡفُواْ عَن سُوٓءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّٗا قَدِيرًا ١٤٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ١٥١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ (النساء:١٤٤-١٥٢).

المناسبة والاتصال:

في القسم السابق عرفنا الله بالمنافقين باعتبارهم أهم الأصناف الذين يمنعون البشرية من نيل حقوقها في معرفة الله، والاستقامة على تشريعاته التنظيمية التي تكفل

للبشرية الانتشار والاستقرار والازدهار، والآن ينتقل بنا إلى معرفة أهم العوامل التي تمنع قوى النفاق الشريرة من أن يكون لكيدهم أثر حقيقي في الواقع، فقبل أن يكمل الله جل مجده لنا الكلام عن الأصناف التي تتلاعب بالحقوق البشرية يُبَصِّرُنا بالعوامل التي تحفظ المجتمع من مكر المنافقين المدمر، وتحول دون أن ينزل العذاب على المجتمعات بسبب التلاؤم مع قوى النفاق، وهذه العوامل هي:

العامل الأول: تجريم الولاء للكافر إذا أفضى إلى التخلي عن المؤمن باعتبار الكفر والإيمان، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، فهذا الولاء دليلٌ على الخيانة، والعمالة، فبعد أن وصف الله المنافقين بأشد الأوصاف إثارة للاشمئزاز، التفت مخاطبًا المؤمنين؛ ليحذرهم أن يسلكوا طريق المنافقين، وقوله: ﴿مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ قيد يبين جواز مثل هذا الولاء إذا لم يفضِ إلى التخلي عن الإيمان والمؤمنين.

وانظر لهذا النداء بالهُوية المميزة للمؤمنين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: إن كنتم مؤمنين حقًا نفذوا الأمر الذي آمركم به، فإنكم إذا خالفتم هذا الأمر ناقضتم عمليًا دعواكم في الإيمان.. أنتم تناقضون عمليًا ما تزعمونه قوليًا، والنهي عن موالاة الكافرين دون المؤمنين من أكثر الأوامر المتكررة في القرآن الكريم، فقد ذكر في سورة البقرة، وذكر في سورة آل عمران، وذكر في سورة النساء، وفي سورة المائدة، وفي سورة التوبة، وفي سورة الممتحنة، وهذه السورة كلها تتكلم عن العلاقات العامة بين المسلمين وغيرهم.

والكافرون المقصودون هنا الناصرون لكفرهم سواء أكانوا من الكفار الأصليين أم من المنافقين، مقابل ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ العريقين في الإيمان، ولذا عبر عن الفريقين بالاسم لا بالفعل.

فلا يقال: فلان مؤمن إلا إذا كان راسخًا فيه، ولا يقال: فلان كافر إلا إذا كان راسخًا فيه، فهذا يمنحنا بعض الضوابط في قوانين الولاء، فالولاء للكافر الناصر لكفره بما يضاد الإيمان حرام، كما أنه يحرم عندما يكون الولاء له ضد مؤمن، فيختلف الحكم فيما لو كان ولاء للكافر لا لكفره بل لمصالح دنيوية.. يختلف الحكم باختلاف نوعية المصلحة هل هي مباحة، تعاون على البر أم مصلحة إثم وعدوان، وهذا نهيٌ شديد عن تقرب المؤمنين من المنافقين بزعم استيعاب الجميع؛ فإنه يوشك أن تؤثر المخاللة والمخالطة في عقول المؤمنين وقلوبهم، وفرقٌ بين الولاء والتعايش.

والأَوْلِيَاءُ [١] جَمْعُ وَلِيٍّ مِنَ الوِلاَيَةِ بِكَسْرِ الوَاوِ وَهِيَ النُّصْرَةُ أو المحبة، وَأَمَّا الوَلَايَةُ بِفَتْحِ الوَاوِ فَهِيَ تَوَلِّي الأَمْرِ، وكلاهما مشتقٌ من الولاء والتوالي، وسبق تحليل هذه المفردة القرآنية في الآية (٤٥)، وقررنا هناك أن الوِلاية والموالاة والولاء كلمات تدل على شدة التلاصق وعدم الانفكاك الذي يؤدي إلى العزة والشعور بالقوة، كما تدل على قوة القرب من حيث المكان، ومن حيث النسبة، ومن حيث الدين، ومن حيث الصداقة والنصرة والاعتقاد، وقوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ (المائدة: ٥١) أي: ومن يجعلهم أقرب الناس إليه أو يوافقهم إلا في أعشار من مائة، فهذا يعني أنهم مثل روحه، وذاك يعني أنهم يتصرفون فيه كما شاءوا، فهي أعلى درجات التحالف؛ إذ صارت أقرب إلى الامتزاج منها إلى التحالف، ولذا فإن قوله جل ذكره: ﴿فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ إما أن يكون حكمًا ظاهرًا حيث تراه معهم في كل شؤونهم ينصرهم فيما يذهبون إليه من القضايا الإنسانية وفق رؤيتهم المعوجة، وإما أن يكون قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ حُكْمًا ظاهرًا وباطنًا، أي: لا يكتفي بنصرهم في الظاهر بل يوافقهم في الباطن أيضاً.

(١) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٦/ ٢٥٢٨)، مقاييس اللغة (٦/ ١٤١)، المفردات في غريب القرآن ت كيلاني (ص٥٣٣).

وهنا لا بد أن تتساءل عن قوله تعالى ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هل هذا نهي عن كل صور التقارب؟

هذا ليس نهيًا عن كل صور التقارب بل هو مخصوصٌ بما قيد به حالًا أو مقالًا، فمن القيود:

القيد الأول: ألا يكون هدف الموالاة نفع الكفر أو مضادة الإيمان، فلا يجوز التحالف معهم عندما تكون لهم الولاية التي تنصر الكفر.

القيد الثاني: ألا يكون الولاء ضد مؤمنٍ من المؤمنين.

القيد الثالث: ألا يكون الولاء تقديمًا له على المؤمنين، وهذان القيدان يُبَصِّرُنا بهما قوله تعالى ذكره: ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أما اتخاذ الكافرين أولياء لا ضد المؤمنين، أو اتخاذهم أولياء مع المؤمنين فقد يجوز في بعض الأحوال بشرط عدم الإثم والعدوان مثل أن يكون ذلك قائمًا على سبيل الندية، ولا خوف من تسرب الخيانة، كالمؤمن إذا تزوج كتابية، أو مثال الشراكات التجارية، فالنبي ﷺ رهن درعه عند يهودي، فهذا نوع من التعامل، ومثل التعامل بالخلق الحسن ضمن الإطار الاجتماعي، فالنبي ﷺ عاد مريضًا يهوديًا، كما يدل على هذا التفصيل هجرة أصحاب النبي ﷺ إلى الحبشة، وهي دار عدل، ورجوع النبي ﷺ في جوار المطعم بن عدي، وحماية ابن الدَّغِنَة لأبي بكر الصديق، ومما يدل على التعايش آيتا الممتحنة.

فليس المراد من النهي عن الولاء عَدَمِ التعايش مع اليهود والنصارى، ولا المراد عدم برهم والإقساط إليهم؛ إذ آيتا الممتحنة واضحتان في ذلك إنما المراد عدم تقديم الولاء لهم على الولاء للمؤمنين كما هو واضح، والولاء للمؤمنين لا يمكن

أن يوصف بذلك ما لم يكن ولاء للإيمان بالله ورسوله ﷺ، وقد ورد عن صعصعة ابن صوحان رضي الله عنه أنه قال لابن أخيه زيد: أنا كنت أحبّ إلى أبيك منك، وأنت أحبّ إليّ من ابني، خصلتان أوصيك بهما فاحفظهما: خالص المؤمن مخالصة، وخالق الفاجر مخالقة، فإن الفاجر يرضى منك بالخلق الحسن، وإنه لحقٌّ عليك أنْ تخالص المؤمن[1].

فالتولي (التحالف) السياسي المحرم ينتج عقوبة الله العاجلة على المسلمين، سواء كانوا أفرادًا أم دولًا أم جماعات، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى ذكره: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ (النساء: ١٤٤).

والمعنى: أتريدون بموالاتهم أن تجعلوا لله عليكم حجة بإلحاقكم بما استوجبه أهلُ النفاق من الصفات الرديئة، وبذا لا يبالي الله بكم في أي الأودية تهلكون.

وهنا يظهر الجواب جليًا على السؤال: ما سرُّ خذلان الله تعالى لمن ينتمي للمجتمعات المؤمنة؟

فمن أهم أسباب ذلك أن يتولى المؤمنون الكافرين الولاية الدينية وأن يحرصوا على إرضائهم إما باسم تجميل الإسلام، وإما باسم التسامح المزيل للحدود الواضحة للإيمان.

وتعبر الآية عن ذلك تعبيرًا يقطر رحمةً بالخلق فيقول الله ﷻ: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ (النساء: ١٤٤) فما أرق هذا التحذير.. إننا عباد الله وعبيده.. وعلى الرغم من ذلك يحذرنا من إنزال العذاب بنا إن وقعنا فرائس لتقليد المنافقين في أخلاقهم ومعاملاتهم، فالحكمة، والعدل يقتضيان أن يعذب من يستحق التعذيب لما

(١) تفسير الثعلبي٣/ ٤٨، وهو في مسند إسحاق بن راهويه٣/ ١٠١٧.

يقترفه من جرائم، وربما ظن المؤمنون أنهم محميون من نزول العذاب بإيمانهم، حتى لو خالفوا أمر ربهم، وقاموا بأعمال المنافقين؛ كلا! ليس بأمانيهم ولا أماني أهل الكتاب.

والسلطان المبين الحجة الواضحة القوية التي في أن يُسلط عليكم عذابًا بسبب مخالفتكم للقوانين الإلهية التي تحميكم من خيانات المنافقين، فالسلطان من التسلط، وهو السيطرة، والمقصود به هنا الكناية عن العقوبة، أي: إذا أنتم خالفتم الأمر فلله عليكم الحجة في أن يعاقبكم، فهذا تهديدٌ شديدٌ، كما قال النبي ﷺ: «يَا مُعَاذُ، هَلْ تَدْرِي حَقَّ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَمَا حَقُّ العِبَادِ عَلَى اللهِ؟» قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «فَإِنَّ حَقَّ اللهِ عَلَى العِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ، وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَحَقَّ العِبَادِ عَلَى اللهِ أَنْ لاَ يُعَذِّبَ مَنْ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَفَلاَ أُبَشِّرُ بِهِ النَّاسَ قَالَ: «لاَ تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا» (١).

فإن وقع المؤمنون في هذا الجرم، صاروا مستحقين لعقوبته. نعوذ بالله من ذلك، وهنا يتعجب الإنسان من تودد الله ﷻ لعباده مع أنه خلقهم، كما قال الشاعر:

ما للعباد عليه حق واجبٌ كلا ولا سعي لديه ضائع
إن عذبوا فبعدله أو نعموا فبفضله وهو الكريم الواسع

العامل الثاني: الحذر من المصير المذؤوم الرهيب الذي ينتظر المنافقين، ويُبَصِّرُنا به قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ (النساء: ١٤٥):

تلاعبوا بحقوق العالم، وغطوا الحقائق العظمى في الكون، فاستحقوا أبأس مصير؛ فالمكان المناسب لتعذيبهم: أسفل جهنم، فهو أسوأ مكان، وأخفاه، وأعظمه عذابًا.

انظر لهذه الدقة في البيان الإلهي الذي يجذب مجامع الإنسان! فقد ذكر الله

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٤ / ٣٥) برقم ٢٨٥٦.

جل مجده فيما سبق عقوبة المنافقين الأخروية في عندما قال ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ (النساء: ١٤٠)، لكنه ذكرها جل جلاله في سياق الكلام عن صفات المنافقين، وللإشارة إلى خطورة إفسادهم الذي يفوق إفساد الكافرين، ولبيان تلاحمهم مع أهداف نشر الكفر في الأرض، وهنا يُفَصِّلُ عقوبةَ المنافقين ليحذر المؤمنون من أن يقعوا في أعمالهم فربما استحقوا العقوبة المؤلمة ذاتها، كأنه يقول لهم: أو لا تخافون على أنفسكم؟ ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ (النساء: ١٤٥) وأتى بحرف التأكيد في البداية، فلماذا صيغة التأكيد؟ كان يمكن أن يأتي بها في سياق الإخبار فقط، كما قال تعالى جده: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ (البقرة: ٣٩) دون أن يأتي بـ﴿إِنَّ﴾، بل إن التأكيد هنا جاء في أول الجملة، والتأكيد في البلاغة والبيان العربي إنما يقال للمنكر، وهل هناك من ينكر أن يكون للمنافقين هذه العقوبة؟

لا ينكر المؤمنون ذلك، إلا أنه التحذير الشديد لمن يتساهل في أن يعمل عمل المنافقين.. لقد أنزل الله ﷻ من يوالي الكافرين دون المؤمنين منزلة المنكِر لأن يستحق العقوبة؛ ولذا يمضي في أفعاله الرعناء دون مبالاة.. لكأنه ينكر أن تكون عقوبته في الدرك الأسفل من النار، فالله ﷻ يحذره تحذيرًا ظاهرًا اقترن بصيغة تأكيدية؛ لأنه أنزله منزلة المنكر.

فهذه الآية المنذرة ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ تبصرنا بأن المكان الطبيعي لعذاب المنافقين هو أسفل جهنم فهو أسوأ مكان، وأخفاه وأعظمه عذابًا، فالدَّرَكُ: اسْمُ جَمْعِ دَرَكَةٍ، ضِدُّ الدَّرَجِ اسْمُ جَمْعِ دَرَجَةٍ. وَالدَّرَكَةُ المَنْزِلَةُ فِي الهُبُوطِ، فَالشَّيْءُ الَّذِي يُقْصَدُ أَسْفَلُهُ تَكُونُ مُنَازِلُ التَّدَلِّي إِلَيْهِ دَرَكَاتٍ، وَالشَّيْءُ الَّذِي يُقْصَدُ

أَعْلَاهُ تَكُونُ مَنَازِلُ الرُّقِيِّ إِلَيْهِ دَرَجَاتٍ [١]، والدَّرَكُ: إدْراكُ الحاجة والطلبة، تقول: بَكِّرْ ففيه دَرَكُ، وحكى الطبري قول العرب: «أعطني دَرَكًا أصل به حبلي»، وذلك إذا سأل ما يصل به حَبْله الذي قد عجز عن بلوغ الركيَّة، والدَّرَك: أسفل قعر الشيء. والدَّرَك: واحد من أَدْراك جهنم من السبع، والنار سبع دركات، سميت بذلك لأنها متداركة متتابعة بعضها فوق بعض [٢]، وَالدَّرَكُ: اسْمُ جَمْعِ دَرَكَةٍ وهو القعر الأسفل كأنه لا بد أن يدرك صاحبه، ولا يستطيع التخلص منه، و ﴿ٱلدَّرۡكِ﴾ فيه قراءتان:

الأولى: الدَّرَكِ بفتح «الراء» قرأها نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب.

الثانية: قرأها بسكون الراء عامة قرأة الكوفة[٣].

وكأن قعر جهنم هو الذي سيجد فيه هؤلاء الخونة الأثمة المجرمون حاجتهم التي تساوي مقدار الفساد الذي سببوه للعالم، فهو أشدّ عذابًا من الكافر؛ لأنه مثله في الكفر، وضم إلى كفره الاستهزاء بأهل الحق، وتعمية العالم عن إدراك الحقيقة، وربما الاستفادة من خيرات بلاد الإسلام في تدمير كل خير في الأرض، ولذا قال البقاعي: «لأن ذلك أخفى ما في النار وأستره وأدناه وأوضعه كما أن كفرهم أخفى الكفر وأدناه، وهو أيضًا أخبث طبقات النار كما أن كفرهم أخبث أنواع الكفر» [٤]، فهو ليس كفرًا يغطي الحقيقة بل يعمل على المحاربة الدائمة للحقيقة، وتشويهها في العالم.

ولذا حكى أهل العلم لهم أوضاعًا رهيبة في ذلك المكان، فروى الطبري عن

---

(١) التحرير والتنوير (٥/ ٢٤٤).

(٢) العين (٥/ ٣٢٧).

(٣) النشر في القراءات العشر (٢/ ٢٥٣).

(٤) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٥/ ٤٤٤).

عبد الله: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾، قال: «في توابيت من حديد مُبْهَمة عليهم»[١] (مُبْهَمَةٍ) أَيْ: مُغْلَقَةٍ مُقْفَلَةٍ لاَ يُهْتَدَى لِمَكَانِ فَتْحِهَا، وهنا نورد كلام ابْن الأَنْبَارِيِّ: إِنَّهُ تَعَالَى قَالَ فِي صِفَةِ المُنَافِقِينَ إِنَّهُمْ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ، وَقَالَ فِي آلِ فِرْعَوْنَ ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ (غافر: ٤٦) فَأَيُّهُمَا أَشَدُّ عَذَابًا، المُنَافِقُونَ أَمْ آلُ فِرْعَوْنَ؟ وَأَجَابَ بِأَنَّهُ يُحْتَمَلُ أَنْ أَشَدَّ العَذَابِ إِنَّمَا يَكُونُ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ، وَقَدِ اجْتَمَعَ فِيهِ الفَرِيقَانِ[٢].

﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ (النساء: ١٤٥) دون أن يكون لهم نصير ينصرهم، ويدخل في النصير الشفيع المشفع، وإنما ذكر عدم النصير لهم في الآخرة لأنهم طالما استنصروا بأعداء الحق، واعتزوا بمجرمي الخلق، والله ﷻ يملي لهم في الدنيا لأن ذلك مقتضى الاختبار الدنيوي، فهل سيغني نصراء الدنيا عنهم عندما يكونون في الدرك الأسفل من النار؟ هل سيجرون مكالماتهم الهاتفية طلبًا لإنقاذهم من ذلك المصير؟ فلن ينصرهم أحد هنا، فهل سيستنجدون بقواتهم لتنصرهم؟ أم سيدعون حلفاءهم ليغيثوهم؟ أم سيحركون طائراتهم وصواريخهم لتدفع عنهم؟ ألا يعيدون حساباتهم الآن، وقد أمهلهم الله!!

وتبصيرنا بالمصير المذؤوم الرهيب الذي ينتظر المنافقين، وهو الدرك الأسفل من النار يوجه رسائل متعددة:

فمنها: التحذير للمؤمنين من أن ينتقلوا إلى المعسكر المجرم الذي يتلاعب بحقوق العالم، ويكفر بأن يقوم بتغطية الحقائق العظمى في الكون، ومنها الإنذار للمنافقين من هذا المصير.

---

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٣٣٨).

(٢) تفسير الرازي (١١/ ٢٥١).

ومنها: الجواب عن تساؤل المتسائلين من المؤمنين والمنافقين عن الحال إذا لم ينل المنافقين العذاب في الدنيا.. أفيظنون أن ذلك غفلة عن جرائمهم؟

العامل الثالث: دعوة المنافقين لاستغلال فرصة الإدماج في المجتمع بأربعة شروط، ويُبَصِّرُنا بها قوله جل ذكره: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ١٤٦).

الشرط الأول: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ التوب: «ترك الذنب على أجمل الوجوه وهو أبلغ وجوه الاعتذار، فإن الاعتذار على ثلاثة أوجه: إما أن يقول المعتذر: لم أفعل، أو يقول: فعلت لأجل كذا، أو فعلت وأسأت وقد أقلعت ولا رابع لذلك، وهذا الأخير هو التوبة، والتوبة في الشرع: ترك الذنب لقبحه، والندم على ما فرط منه، والعزيمة على ترك المعاودة، وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال بالإعادة، فمتى اجتمعت هذه الأربع فقد كملت شرائط التوبة... والتائب يقال لباذل التوبة ولقابل التوبة، فالعبد تائب إلى الله، والله تائب على عبده، والتواب العبد الكثير التوبة وذلك بتركه كل وقت بعض الذنوب على الترتيب حتى يصير تاركًا لجميعه، وقد يقال لله ذلك لكثرة قبوله توبة العباد حالًا بعد حال» [(١)]، فمعنى ﴿تَابُواْ﴾: تركوا الخيانة والعمالة على أجمل وجوه الترك ندمًا واعترافًا واستغفارًا، وعزموا على عدم العودة إلى ذلك الغدر.

الشرط الثاني: ﴿وَأَصۡلَحُواْ﴾ الصلاح ضد الفساد، وأصلح ضد أفسد، فيقال: صَلَحَ وَصَلُحَ صُلُوحًا وصلاحًا:

وَكَيْفَ بِأَطْرَافِي إِذَا مَا شَتَمْتَنِي وَمَا بَعْدَ شَتْمِ الوَالِدَيْنِ صُلُوحُ [(٢)]

(١) المفردات في غريب القرآن ت كيلاني (ص ٧٦).

(٢) مقاييس اللغة (٣/ ٣٠٣).

فيكرون على أعمالهم التي أفسدوا من خلالها ويُعلمون الناس بخبثها ليصلحوا ما أفسدوا، ويتبعون السيئةَ الحسنةَ في المقام ذاته الذي أوقعوا فيه جرائمهم.. وأحيانًا يعجز المذنب عن إصلاح ما أفسده لقبح جرائمه، وقسوة ذنوبه، وطول الأمد الذي ملأه بالسوأى، ونشوء أجيال يقتدون به في ذنوبه، ويزيدون عليه في التنظير لمنكراته، وتأمل كيف أبى تلاميذ الملحد (أنتوني فلو) أن يرجعوا عن غيهم بعد أن ترك نار الإلحاد، وشعر بنور الإيمان، والله المستعان.. لكن ذلك لا يعني ألا يبذل التائب جهده ليكون إصلاحه إصلاحًا متعديًّا لما أفسده، وسبب ذكر هذا أن المنافق عندما سعى للتحالف المجرم أسال الدماء وأفسد في الأرض، ودفع أموال المسلمين لقتل الأبرياء، وقطع الأرحام، وتدمير الأرض، وتهديم الدور التي يذكر فيها اسم الله كثيرًا.

الشرط الثالث: ﴿وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ وهذا الشرط يبين علم الله لطبيعة النفس الإنسانية، فإنها تشتاق إلى غيها، أو يتم الضغط عليها من قبل فرق الصد عن سبيل الله لترجع عن توبتها، فيعتصم بالله، أي: يمتنع به في مواجهة الشرور الذاتية النفسية والخارجية، فإن العِصْمَة معناها: إِمْسَاكٌ وَمَنْعٌ وَمُلَازَمَةٌ، ويَعْصِمكَ اللهُ من الشّر، أي: يدفعُ عنك، وَاسْتَعْصَمَ: التَجَأَ، واعتصمت بالله، أي: امتنعت به من الشّر. واستعصمت، أي: أبيت قَالَ النَّابِغَةُ:

يَظَلُّ مِنْ خَوْفِهِ المَلَّاحُ مُعْتَصِمًا بِالخَيْزُرَانَةِ مِنْ خَوْفٍ وَمِنْ رَعَدِ [1]

والاعتصام بالله يقتضي التمسك بحبله لتتم العصمة، وحبله هو كتابه الذي لا يضل ولا يهلك من استعصم به كما قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ﴾ (آل عمران: ١٠٣)، وَقَالَ فِي هذه السورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ (النساء: ١٧٤ - ١٧٥).

(١) العين (١/ ٣١٣)، مقاييس اللغة (٤/ ٣٣١).

الشرط الرابع: ﴿وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ فالرياء للتلاعب بالجماهير جزء من النفاق، فيقابلون ذلك بأن يخلصوا أعمالهم الصالحة لله لا خوفًا من الضغوطات أو التهديدات ولا رغبة في المطامع والمناصب، ولا تلبية للطموحات الدنيوية العاجلة.

فأخلص يدل على خلوص القلب، وخلاصه لله من كل ما عداه، فالإخلاص يكون مصدرًا للشيء الخالص، وتقول: هو خالصتي وخُلْصاني، وهؤلاء خلصاني وخلصائي، أي: أخلائي، قال:

منا النبي الذي قد عاش مؤتمنا ومات صافيةً لله خُلْصانا

وهذا الشيء خالصةٌ لك، أي: خالصٌ لك خاصة، وأخْلصتُ لله ديني: (أمحضته) ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾، المخلصون: المختارون. والمُخْلِصون: الموحدون، فالإخلاص تَنْقِيَةُ الشَّيْءِ وَتَهْذِيبُهُ [1]، ولذا قال الله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ (الزمر: ٢، ٣).

فلو حقق المنافقون هذه الشروط الأربعة تكون النتيجة ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ١٤٦) وكلمة: ﴿مَعَ﴾، تعني التشديد في مراقبتهم لأنفسهم، ومراقبة المؤمنين لهم، فلم يقل: من المؤمنين، ويُبَصِّرُنا ذلك بألا ننخدع بالمفسدين؛ لمجرد تعاطفهم مع قضية عادلة:

وكما نالوا بركة الإيمان حين تعاملوا به في الظاهر مع أنهم كانوا منافقين في الباطن، فكذلك يجدون بركة الصف المؤمن عندما يتوبون، فيكون للمؤمنين أجرٌ عظيمٌ، وهم يلحقون بهم في هذا الأجر، لكن الأصل فيه هم المؤمنون، ولذا قال

(١) العين (٤/ ١٨٦)، مقاييس اللغة (٢/ ٢٠٨).

حذيفة ﷺ: ليدخلن الجنة قوم كانوا منافقين! فقال عبد الله ﷺ: وما علمك بذلك؟ فغضب حذيفة ﷺ، ثم قام فتنحَّى. فلما تفرّقوا، مرَّ به علقمة ﷺ فدعاه فقال: أمَا إنّ صاحبك يعلم الذي قلت! ثم قرأ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾[1].

وَحَرْفُ التَّنْفِيسِ ﴿سَوْفَ﴾ دَلَّ عَلَى أَنَّ المُرَادَ مِنَ الأَجْرِ أَجْرُ الدُّنْيَا وَهُوَ النَّصْرُ وَحُسْنُ العَاقِبَةِ وَأَجْرُ الآخِرَةِ، إِذِ الكُلُّ مُسْتَقْبَلٌ، وَأَنْ لَيْسَ المُرَادُ مِنْهُ الثَّوَابَ لِأَنَّهُ حَصَلَ من قبل[2]..

هكذا رأى درة المفسرين المتأخرين الطاهر بن عاشور ﷺ.. أوَلا ترى أنه يمكن أن يبدو لك معنى ثانٍ، وربما كان أليق وأجمل، وهو أن حرف التنفيس يدل على الأجر القادم لا محالة، لكن تحققه قد يتأخر في الدنيا، وقد لا يتحقق فيها، بل يتحقق في الآخرة، فليس للمؤمنين أن يُذهبوا أنفسهم حسرات متلهفين على نصرٍ دنيوي ربما أراد الله ﷻ عدم تحققه لبعضهم.. بل ينبغي أن يثقوا أن ذلك الأجر قادم، وإن تأخر في ظنهم.

ولكن انظر! لقد قال: ﴿مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ ولم يقل من المؤمنين لعظم الجريمة التي اقترفها المنافقون، أما وقد تابوا من جرمهم فلا يعني هذا الإدماج الكامل لهم بل لا بد من مرحلةٍ انتقالية يمرون بها ليتأكد المسلمون أنهم قد أخلصوا دينهم لله، فلا يغتر المسلمون بالتائبين ولا يرخوا زمام الحذر معه، وهذه السورة من أهم أسسها تطبيق استراتيجية أخذ الحذر، فلذلك قال الله: ﴿مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، وتأمل كم في الآيات من آياتٍ تدل على جلال البيان القرآني في إصلاحه لأوضاع الناس، وتربيته المسلمين على أن يقوموا باتخاذ اللازم من أجل الأمن القومي المتعلق به.

---

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٣٤٢).

(٢) التحرير والتنوير (٥/ ٢٤٤).

وكم خدع المسلمون بالأحزاب والجهات والجماعات ذات التاريخ الإجرامي لمجرد موقفٍ ظهر فيه تعاطفهم مع قضية إسلامية، فقدموهم في شؤونهم وظنوا توبتهم فإذا بهم حيات ذات سم ناقع، وهذا كتاب الله ﷻ يوضح الأسس ويضع الشروط، فقام قوم مغترون يحكمون أهواءهم وعن كتاب ربهم يعرضون ثم يسمون حماقاتهم ومخالفاتهم سياسة شرعية! أفلا يخشون أن يقول الله ﷻ لهم كما قال لأمم سبقت من المسلمين والمشركين: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ (المؤمنون: ٦٦)؟

وأمّا تسمية من ارتكب الفسق بالمنافق فللتغليظ وتبشيع الجريمة التي اقترفها والتحذير من أن ينتهي أمره إلى ذلك الوصف كقوله ﷺ: «إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالكُفْرِ تَرْكَ الصَّلاَةِ» (١)، وقوله ﷺ: «آيَةُ المُنَافِقِ ثَلَاثٌ، وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا ائْتُمِنَ خَانَ» (٢). وقيل لحذيفة رضي الله عنه: مَن المنافق؟ فقال: الذي يصف الإسلام ولا يعمل به. وقيل لابن عمر رضي الله عنهما: ندخل على السلطان ونتكلم بكلام فإذا خرجنا تكلمنا بخلافه فقال: كنا نعدّه من النفاق. وعن الحسن رحمه الله: أتى على النفاق زمان وهو مقروع فيه، فأصبح وقد عمم وقلد وأعطى سيفًا، يعنى الحجاج (٣).

وهذا التعبير ليس مثل قوله تعالى: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ (التوبة: ٤٠) لأن المقصود في آية التوبة التشريف وبيان الحماية، والمراد هنا في سورة النساء الإلحاق والانتماء مع الحذر.

العامل الرابع: الشكر المقترن بالإيمان؛ إذ كيف يُشكَر من لا يُؤمَن به، ويُبَصِّرُنا

(١) صحيح مسلم (١ / ٦١) برقم ٢٥٦.

(٢) صحيح مسلم (١ / ٥٦) برقم ٢٢٢.

(٣) تفسير الزمخشري (١/ ٥٨١).

به قوله تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾، فآمن صار ذا أمن بالتصور الفكري الصحيح، والشكر الكشف والإظهار.

يقال: شَكَرْتُهُ وشَكَرْتُ له، وباللام أفصح، والشكر هو الشُّكُورُ أيضًا كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾، فيحتمل أن يكون مصدرًا مثل قَعَدَ قُعودًا، ويحتمل أن يكون جمعًا مثل بُرْدٍ وبُرودٍ، وكُفْرٍ وكُفورٍ، قيل: وهو مقلوب عن الكشر، أي: الكشف، ويضاده الكفر، وهو نسيان النعمة، وسترها، ويَقُولُونَ: فَرَسٌ شَكُورٌ إِذَا كَفَاهُ لِسِمَنِهِ العَلَفُ القَلِيلُ، والشَّكِرةُ من الحلوبات التي تصيب حظًا من بقلٍ أو مرعىً، فتغزر عليه بعد قلة اللبن، فإذا نزل القوم منزلًا وأصاب نعمهم شيئًا من بقل فدرت قيل: أَشْكَرَ القوم، وإنهم ليحتلبون شكْرة، وشكِرتِ الحلوبة شكَرًا[1]، **فالشكر ثلاث درجات:**

فالدرجة الأولى: ظهور أثر نعمة الله على قلب عبده عرفانًا بالإحسان وشهودًا ومحبّة، فهذه أول درجات الشكر، فهي الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع والمحبة، والشكر يقتضي الشعور بالامتلاء بالنعم مشتق من عين شكرى، أي: ممتلئة، فالعبد ممتلئ بنعم الله، فلم لا يشكر العبد ربه وهو الذي حباه بهذه النعم جميعًا؟ فانظر إلى قول ربك جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ (لقمان: ٢٠).

والدرجة الثانية: ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده تحدثًا بحمد موليه جل ثناؤه: ثناء واعترافًا، فالشكر على هذا هو الامتلاء من ذكر المنعم.

والدرجة الثالثة: ظهور أثر نعمة الله على جوارح عبده استقامة وانقيادًا وطاعة، فشكر سائر الجوارح بالعمل بما يرضي المنعم: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ (سبأ: ١٣)،

(١) العين (٥/ ٢٩٢)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٢/ ٧٠٢)، مقاييس اللغة (٣/ ٢٠٨).

فقد قيل شكرًا انتصب على التمييز، ومعناه اعملوا ما تعملونه شكرًا لله، وقيل: شكرًا مفعولٌ لقوله: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ﴾ وذكر (اعملوا) ولم يقل: (اشكروا) لينبه على التزام الأنواع الثلاثة من الشكر بالقلب واللسان وسائر الجوارح، ولا يمكن مكافأة أنعم الله، مهما حاول المرء شكرها، لكن الله يرضى باليسير مقابل الجزيل الكثير.. كما قيل[١]:

أفادتني النعماء شكرًا لفضلكم بقلبي ونطقي والجوارح مرسلا
وتوفيقكم للشكر يلزم شكره كذا كل شكرٍ بعده متسلسلا
وما ثم إلا العجز عن شكر ربنا كما ينبغي سبحانه متفضلا

والشكر يولد طاقة جديدة تكسب المخلوق قدرة على مواصلة الحياة على وجهٍ مستقيم، ولعله لذلك قالوا: الشَّكور من الدواب ما يسمن بالعلف اليسير ويكفيه.

ويردف الشكر بالاستغفار فإنه مهما شكر لم يصل إلى الحد المطلوب، لذا قال مَحْمُودٌ الوَرَّاقُ[٢]:

إِذَا كَانَ شُكْرِي نِعْمَةَ اللهِ نِعْمَة عَلَيَّ وَفِي أَمْثَالِهَا يَجِبُ الشُّكْرُ
فَكَيْفَ وُقُوعُ الشُّكْرِ إِلَّا بِفَضْلِهِ وَإِنْ طَالَتِ الأَيَّامُ وَاتَّصَلَ العُمْرُ
إِذَا مَسَّ بِالسَّرَّاءِ عَمَّ سُرُورُهَا وَإِنْ مَسَّ بِالضَّرَّاءِ أَعْقَبَهَا الأَجْرُ
وَلَا مِنْهُمَا إِلَّا لَهُ فِيهِ مِنَّةٌ تَضِيقُ بِهَا الأَوْهَامُ وَالبَرُّ وَالبَحْرُ

وقال طَلْقُ بْنِ حَبِيبٍ: «إِنَّ حُقُوقَ اللهِ أَثْقَلُ مِنْ أَنْ يَقُومَ بِهَا العِبَادُ، وَإِنَّ نِعَمَ اللهِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُحْصِيَهَا العِبَادُ، وَلَكِنْ أَصْبِحُوا تَوَّابِينَ وَأَمْسُوا تَوَّابِينَ»[٣].

فانظر لجمال التعبير، فالله جل شأنه يخاطب المؤمنين كما يخاطب المنافقين:

(١) مجالس في تفسير ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ لابن ناصر الدين (ص: ١٨٠).
(٢) المستطرف (١/ ٥٠٣).
(٣) مصنف ابن أبي شيبة (٧/ ١٨٢) برقم ٣٥١٥٨.

﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾.. ماذا يعني ذلك؟

فهذا اسْتِفْهَامٌ إِنْكَارِيٌّ على تفكيرهم أن الله يمكن أن يعذبهم دون جريرة، وإنكار على التصور الجاهلي أنه يستمتع أو يستفيد بتعذيب خلقه، وإنكار على تفكيرهم عدم وجوب الشكر والإيمان عليهم؟ فالله جل جلاله ليس له هدفٌ لتعذيبكم، كما يصور الوثنيون رغبة الآلهة اليونانية والاسكندنافية في تعذيب غيرها خوفًا منها، أو حسدًا لها، أو طلبًا للاستفادة من طاقتها، بل ينبغي لهم أن يستفيدوا من طاقاتهم في نفع أنفسهم، وهو لم يخلق أحدًا لغرض التعذيب، ورب العالمين لا يفتقر للخلق، والخلق له مفتقرون، فهم الفقراء وهو الغني الحميد، فقوله: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾.

وقدم الشكر على الإيمان؛ لأن العاقل ينظر إلى النعمة العظيمة في خلقه، فيشكر شكرًا مبهمًا مجملًا، ثم يفكر في الذي وهب له تلك النعم؛ حتى يصل إلى معرفة المنعم، وبحثه هنا اعتراف منه بالمنعِم، وبعد اعترافه وشعوره بالعرفان يؤمن به جل ذكره؛ إذ لا يتم الشعور بالعرفان إلا بالإيمان الكامل، وبعدها يشكر الله شكرًا مفصَّلًا.

ويُبَصِّرُنا قوله تعالى جده في ختام الآية: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ (النساء:١٤٧) بأنه يجب أن يدفع المنعَم عليهم عن أنفسهم العذاب بالشكر والإيمان على الحقيقة، لا بشكلٍ صوري؛ لأن الله يشكر من شكره، فهو الشاكر، ولكنه أيضًا العليم بمن يشكره حقًا، لا ادعاء، والآية تصور اللمسة الرفيقة العميقة، التي ينتفض لها القلب، ويخجل، ثم يعمل ويُقبِل.. «إنه معلوم أن الشكر من اللّه – سبحانه – معناه الرضى، ومعناه ما يلازم الرضى من الثواب.. ولكن التعبير بأن اللّه – سبحانه – شاكر.. تعبير عميق الإيحاء! وإذا كان الخالق المنشئ، المنعم المتفضل، الغني عن العالمين.. يشكر لعباده صلاحهم وإيمانهم وشكرهم وامتنانهم.. وهو غني عنهم

وعن إيمانهم وعن شكرهم وامتنانهم.. إذا كان الخالق المنشئ، المنعم المتفضل، الغني عن العالمين يشكر.. فماذا ينبغي للعباد المخلوقين المحدثين المغمورين بنعمة اللّه.. تجاه الخالق الرازق المنعم المتفضل الكريم؟! ألا إنها اللمسة الرفيقة العميقة التي ينتفض لها القلب ويخجل ويستجيب» (١).

كيف أشقى وقد أنرت سبيلي وشرحت الفؤاد بالتنزيل
كيف أشقى وأنت مني قريب تتجلى ببرّك الموصول
كيف أشقى وأنت مالك أمري أنت حسبي وراحمي ووكيلي
كيف أشقى وقد رحمت لجوئي ورميت العدو بالتخذيل
كيف أشقى ومهجتي في هناء أنت يا ربي مؤنسي وخليلي
كيف أشقى والكون حولي رحيب يتهادى بالحمد والتهليل

وشيخ مفسري الدنيا الطبري ﷺ مال إلى تخصيص السياق للمنساق، فجعل الخطاب للمنافقين فقط، والصحيح شمولها للعالمين، ولكن عبارته بعد ذلك فيها الكثير من السداد والتوفيق، والآن تعال لتكون مع الطير الصافات في محراب كلام رب الأرض والسماوات، واسمع إلى تأمل الطبري ﷺ في معنى الآية: « لا حاجة بالله أن يجعلكم في الدَّرك الأسفل من النار، إن أنتم أنبتم إلى طاعته، وراجعتم العمل بما أمركم به، وترك ما نهاكم عنه؛ لأنه لا يجتلب بعذابكم إلى نفسه نفعًا، ولا يدفع عنها ضُرًّا، وإنما عقوبته من عاقب من خلقه، جزاءٌ منه له على جرَاءته عليه، وعلى خلافه أمره ونهيه، وكفرانِه شكر نعمه عليه، فإن أنتم شكرتم له على نعمه، وأطعتموه في أمره ونهيه، فلا حاجة به إلى تعذيبكم، بل يشكر لكم ما يكون منكم من طاعةٍ له وشكر، بمجازاتكم على ذلك بما تقصر عنه أمانيكم، ولم تبلغه آمالكم»(٢)،

(١) في ظلال القرآن (٢ / ٧٨٦).

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٣٤٢).

واتبع الزمخشري منهاج الطبري ﷺ هنا فقال: «ما يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذابِكُمْ أيتشفى به من الغيظ، أم يدرك به الثأر، أم يستجلب به نفعًا، أم يستدفع به ضررًا كما يفعل الملوك بعذابهم، وهو الغنيُّ الذي لا يجوز عليه شيء من ذلك» (١).

ويحسن هنا أن نذكر بأشرف أحاديث أهل الشام الذي رواه أَبو ذَرٍّ عَنِ النَّبِيّ ﷺ فِيمَا رَوَى عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: «يَا عِبَادِي: إِنِّى حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِى وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلاَ تَظَالَمُوا. يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلاَّ مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِى أَهْدِكُمْ. يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلاَّ مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِى أُطْعِمْكُمْ. يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلاَّ مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ. يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِى أَغْفِرْ لَكُمْ. يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي. يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِى مُلْكِي شَيْئًا. يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا. يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِى صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِى فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلاَّ كَمَا يَنْقُصُ المِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ البَحْرَ. يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِىَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلاَ يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسَهُ». قَالَ سَعِيدٌ كَانَ أَبُو إِدْرِيسَ الخَوْلاَنِىُّ إِذَا حَدَّثَ بِهَذَا الحَدِيثِ جَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ (٢).

وَلنقص هنا أنموذجًا لعبد شاكر يحكي قصته: الأَمِير أَبُو نصر بن مَاكُولَا قَالَ: حضرت مجْلِس نظام الملك وَقد رمى بعض أَرْبَاب الحَوَائِج رقْعَة إِلَيْهِ فَوَقَعت على دواته وَكَانَ مدادها كثيرًا فنال المداد عمَامَته وثيابه فاسودت فَلم يقطب وَلم يتَغَيَّر وَمد

(١) تفسير الزمخشري (١/ ٥٨١).

(٢) صحيح مسلم (٨ / ١٦) برقم ٢٥٧٧.

يَده إِلَى الرقعة فَأَخذهَا وَوَقع عَلَيْهَا فتعجبت من حلمه فحكيت لأستاذ دَاره فَقَالَ: الَّذِي جرى فِي بارحتنا أعجب، كَانَ فِي نوبتنا أَرْبَعُونَ فراشًا فَهبت ريح شديده أَلْقَت التُّرَاب على بساطه الخَاص فَالتمست أحدهم ليكنسه فَلم أَجِدهُ فاسودت الدُّنْيَا فِي عَيْني وَقلت: أقل مَا يجْرِي صرفي وعقوبتهم فأظهرت الغَضَب فَقَالَ نظام الملك: لَعَلَّ أسبابا لَهُم اتّفقت منعتهم من الوُقُوف بَين أَيْدِينَا وَمَا يَخْلُو الإِنْسَان من عذر مَانع وشغل قَاطع يصده عَن تأدية الفَرْض، وَمَا هم إِلَّا بشر مثلنَا يألمون كَمَا نألم ويحتاجون إِلى مَا نحتاج إِلَيْه، وَقد فضلنَا الله عَلَيْهِم فَلَا نجْعَل شكر نعْمَته مؤاخذتهم على ذَنْب يسير[1].

لماذا الشكر؟

يشكر العبد ربه أولًا لأنه الله ﴿وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (البقرة: ١٧٢)، فإن لم يشكره جل ذكره لأنه الله، فليشكر العبد ربه لما أغدق عليه من نعمه، فهو المنعم بكل شيء، فهذا ثانيًا. وخذ هذه اللطيفة البيانية القرآنية، ففي سورة البقرة المتقدمة في الترتيب المصحفي يذكر الله عبده بأنه يشكره لأنه الله، وفي سورة النحل يُذَكِّرُك الله أن تشكره لأن كلَّ شيء فيك فهو من نعمته سبحانه، لذا تراه يقول لك: ﴿وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (النحل: ١١٤)، دعني أذكرك بما اكتشفه الإنسان حتى الآن فقط من نعم الله في موضع صغيرٍ جدًا من الجسد.. في العين.. لا بل في شبكية العين (Retina) عبارة عن جسم شفاف على الرغم من أنه يتكون من عشر طبقات، والشبكية تحوي حوالي (١٣٧) مليون خلية حساسة للضوء منها (١٣٠) مليون خلية شبكية عصوية (Retinal Rod Cells) لرؤية اللونين الأبيض والأسود، وسبعة ملايين من الخلايا الشبكية المخروطية (Retinal Cone Cells) لرؤية بقية الألوان والأشعة الساطعة..

(١) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٤/ ٣١٥).

كم ستدفع لتركيب مذهل يعمل على مدار الساعة مثل هذا؟ إذا كنت تدفع نحو مائة دولار مقابل ١٠٠ مللتر من العطر غير الضروري لك في حياتك.. كم ستدفع مقابل هذه الملايين التي تستعصي على العد فقط لشيء من شبكية العين؟

ولم لا يشكر العبد ربه ثالثًا، وهو الذي أوجده وزوده بأدوات المعرفة المختلفة، فقال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ (النحل: ٧٨)، وحتى تشعر بجمال هذه النعم فاسمع إلى يُونُسَ بْنِ عُبَيْدٍ ﷺ جاءه رجل فَشَكَى إِلَيْهِ ضِيقًا مِنْ حَالِهِ وَمَعَاشِهِ، وَاغْتِمَامًا مِنْهُ بِذَلِكَ، فَقَالَ لَهُ يُونُسُ: أَيَسُرُّكَ بِبَصَرِكَ هَذَا الَّذِي تُبْصِرُ بِهِ مِائَةُ أَلْفٍ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فَسَمْعُكَ الَّذِي تَسْمَعُ بِهِ يَسُرُّكَ بِهِ مِائَةُ أَلْفٍ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فَلِسَانُكَ الَّذِي تَنْطِقُ بِهِ مِائَةُ أَلْفٍ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فَفُؤَادُكَ الَّذِي تَعْقِلُ بِهِ مِائَةُ أَلْفٍ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فَيَدَاكَ يَسُرُّكَ بِهِمَا مِائَةُ أَلْفٍ؟ قَالَ: لَا؟ قَالَ: فَرِجْلَاكَ؟ قَالَ: فَذَكَّرَهُ نِعَمَ اللهِ عَلَيْهِ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ يُونُسُ، قَالَ: أَرَى لَكَ مِئِينَ أُلُوفًا، وَأَنْتَ تَشْكُو الحَاجَةَ[1].

وقبل أن يخلقك خلق لك الأرض ليمكنك فيها، وليجعل لك فيها معايش: ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾ (الأعراف: ١٠) فأين شكرك؟، فكأن الله جل جلاله يقول لك:

تفرد عز وجهي بالبقاء ... فما أعددت لي يوم اللقاء
عبيدي أنا مولى الموالي ... أما آن اللجوء إلى حمائي
إلى كم أنت تعرض عن جنابي ... وليس لديك من مولى سوائي
أنا أرحم بالعبد من أخيه ... ومن أبويه أجزل للعطاء
أنا الله المدبر كل أمر ... وتدبير الخلائق في هباء

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٣/ ٢٢).

أنا الله الأزلي قبل الخلق طرًّا ... وأظهرت الورى بعد اختفاء
فمن أنشاك من ماءٍ مهين ... وأنت في ظلمة الأحشاء نائي
ومن سواك في شكلٍ بديعٍ ... على كل الخلائق باستواء
أتذكر نطفة أنشئت منها ... بأطوار القذارة والقذاء
فقلت لها على التخصيص كوني ... فكانت طوع أمري بالنداء
أتذكر حين كنت ببطن أمٍ ... أما غذاك رزقي في الحشاء
وهل أحسست من حرجٍ وضيقٍ ... كما أحسست في سعة الفضاء
ومن هيا لجسمك من مضيقٍ ... ومن للأم يلطف في القضاء
ومن أجرى اللبان بها غذاءً ... ومن أولاك أنواع الغذاء
وألهمك الرضاع وأنت طفل ... وحننت الشفوقة من إباء
تزيل أذاك وهي بطيب نفسٍ ... إذا تبكي تسارع في البكاء
وإن تدنو لك الأمراض يومًا ... سمعت أنينها من ذا العناء
وتمنع أحاسن المأكول عنها ... لتأكله وترجو للشفاء
وفيك أبوك يصبح في اجتهاد ... ويمسي في همومٍ مع شقاء
ويطلب أن تصح له دوامًا ... ويرجو أن تخلد بالبقاء

إنه الشكر الذي يحاسبك الله على عدم تقديمك إياه ربك يوم القيامة، ويصف النبي ﷺ هذه المحاسبة على الشكر فيقول: «فَيَلْقَى العَبْدَ فَيَقُولُ: أَيْ فُلْ[1]! أَلَمْ أُكْرِمْكَ، وَأُسَوِّدْكَ، وَأُزَوِّجْكَ، وَأُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ، وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ؟ فَيَقُولُ: بَلَى، قَالَ: فَيَقُولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيَّ؟ فَيَقُولُ: لَا، فَيَقُولُ: فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي، ثُمَّ يَلْقَى الثَّانِيَ فَيَقُولُ: أَيْ فُل أَلَمْ أُكْرِمْكَ، وَأُسَوِّدْكَ، وَأُزَوِّجْكَ، وَأُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ، وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ، وَتَرْبَعُ، فَيَقُولُ: بَلَى، أَيْ رَبِّ فَيَقُولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ

(١) أي فُلْ: معناه يا فلان وهو ترخيم على خلاف القياس، وقيل: هي لغة بمعنى فلان.

مُلَاقِيَّ؟ فَيَقُولُ: لَا، فَيَقُولُ: فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي، ثُمَّ يَلْقَى الثَّالِثَ، فَيَقُولُ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ آمَنْتُ بِكَ، وَبِكِتَابِكَ، وَبِرُسُلِكَ، وَصَلَّيْتُ، وَصُمْتُ، وَتَصَدَّقْتُ، وَيُثْنِي بِخَيْرٍ مَا اسْتَطَاعَ، فَيَقُولُ: هَاهُنَا إِذًا، قَالَ: ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: الْآنَ نَبْعَثُ شَاهِدَنَا عَلَيْكَ، وَيَتَفَكَّرُ فِي نَفْسِهِ: مَنْ ذَا الَّذِي يَشْهَدُ عَلَيَّ؟ فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، وَيُقَالُ لِفَخِذِهِ وَلَحْمِهِ وَعِظَامِهِ: انْطِقِي، فَتَنْطِقُ فَخِذُهُ وَلَحْمُهُ وَعِظَامُهُ بِعَمَلِهِ، وَذَلِكَ لِيُعْذِرَ مِنْ نَفْسِهِ، وَذَلِكَ الْمُنَافِقُ وَذَلِكَ الَّذِي يَسْخَطُ اللهُ عَلَيْه»[١]، وفي رواية: «يَقُولُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: قَالَ: عَفَّانُ: يَوْمَ القِيَامَةِ يَا ابْنَ آدَمَ حَمَلْتُكَ عَلَى الخَيْلِ وَالإِبِلِ، وَزَوَّجْتُكَ النِّسَاءَ، وَجَعَلْتُكَ تَرْبَعُ، وَتَرْأَسُ، فَأَيْنَ شُكْرُ ذَلِكَ»[٢].

ولقد كرر النبي ﷺ وصيته لأمته بأن يسألوا الله أن يعينهم على الشكر، فقال: «أَتُحِبُّونَ أَنْ تَجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ ؟ قُولُوا: اللَّهُمَّ أَعِنَّا عَلَى شُكْرِكَ، وَذِكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»[٣]، وعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَخَذَ بِيَدِهِ يَوْمًا، ثُمَّ قَالَ: يَا مُعَاذُ إِنِّي لأُحِبُّكَ. فَقَالَ لَهُ مُعَاذٌ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللهِ وَأَنَا أُحِبُّكَ. قَالَ: أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ لاَ تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلاَةٍ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ[٤].

وأعظم فائدة للشكر ما قررته الآية: الحصول على الأمن الشخصي والأمن العام ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ (النساء: ١٤٧) وقال سبحانه مخبرًا: كيف أنجى لوطًا عليه السلام ومن آمن من آله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا

(١) صحيح مسلم (٨ / ٢١٦) برقم ٧٦٢٨.

(٢) مسند أحمد (٢ / ٤٩٢) برقم (١٠٣٧٨) ١٠٣٨٣. وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين غير حماد بن سلمة، فمن رجال مسلم.

(٣) مسند أحمد (٢ / ٢٩٩) برقم (٧٩٨٢) ٧٩٦٩.

(٤) مسند أحمد (٥ / ٢٤٤) برقم (٢٢١١٩) ٢٢٤٧٠. وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الصحيح غير عقبة بن مسلم، فقد روى له البخاري في «الأدب المفرد» وأبو داود والترمذي والنسائي، وهو ثقة.

﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ ٣٤ نِّعۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ﴾(القمر: ٣٤ - ٣٥).

العامل الخامس: عدم إشاعة الجهر بالسوء من القول إلا المظلوم فيجهر بمظلمته ضد ظالمه، خاصة إذا كان الظالم منافقًا محاربًا للمجتمع، ويُبَصِّرُنا بهذا قول الله ﷻ: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ إِلَّا مَن ظُلِمَۚ﴾، والسياق يبصر بضرورة قمع الذي يجهر بالسوء خاصة إن ارتكب أفعال النفاق لأنه يدمر المجتمع، فكيف بمن يجعل الجهر بالسوء من القول صناعة إعلامية، وإشاعة الجهر بالسوء من القول سببًا للتعذيب الإلهي الاقتصادي والاجتماعي والعام لمن يزعم استقامته على الإسلام، وإن لم يصب غيرهم.

تذوق معي طعم هذا التعبير الإصلاحي المهيب: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ إِلَّا مَن ظُلِمَۚ﴾.. سياقه بعد الكلام عن المنافقين.. تصور الآن أمامك أرتال القنوات الفضائية، وحشود وسائل التواصل الاجتماعية.. تصورها جميعًا، وهي تعمل ليل نهار على نشر السوء من القول.. فما السوء من القول؟ إنه كل كذبٍ قبيحٍ تردده الألسن.. إنه كل زورٍ يُنشَر لإشاعة الإجرام والفاحشة والغيبة المنظمة، والنميمة الفردية والنميمة الاستخباراتية المحلية والدولية.. هل تتصور كم ينشر بأموال الشعوب المستضعفة المسكينة من هذا الزور المحلي والعالمي في واقع اليوم؟ هل يمكنك أن تتخيل كم من الأموال العامة تتدفق على برامج الفن والبرامج الاستعراضية لنشر السوء من القول؟

والآية صريحة واضحة: لا يحب الله هذا الجهر من السوء بالقول.. أتظن الله لا يعذب من يفعل ما لا يحبه جل ذكره؟ أعيذك من أن تقول ما قاله سفهاء السفهاء وهم ينشرون السوء من القول.. لقد قالوا: اقترفنا السوء من القول والفعل ولم نر عذابًا.. لم تحدث لنا زلازل، ولا سقطت علينا صواعق.. كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم.. لقد قالوا: ﴿لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ﴾ وفي السنن الإلهية ترى أن الله لا ينزل

-بالضرورة- عذابه العاجل على كافر يجهر بالسوء من القول والفعل، بل يتوعده بعذاب الآخرة فيقول: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (المجادلة: ٨)، أما في دنيا الذين يزعمون الانتساب إلى الإسلام فإن الله ينزل عليهم قوارع اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية، وتأتيهم المصائب المتتابعة لكن كثيرًا من السفهاء ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ (النحل: ٢١).. أفما يكفي عقوبة عاجلة أن ترى الفقر ينتشر في بلدانٍ حباها الله بالثروات والموارد الطبيعية التي يفترض أن تكون في أعلى مؤشرات السعادة الدولية؟

الجهر بالسوء يبدأ في أول الأمر اتهامات فردية -سبًّا، وقذفًا-، وينتهي انحلالًا اجتماعيًا، وفوضى أخلاقية، تنعدم فيها الثقة بين الناس؛ فيؤدي ذلك إلى هضم الحقوق، والتقاطع، وسفك الدماء أو التطبع على إشاعة الفحشاء، ويصبح من البطولة فعل الجرائم والتآمر.

والآية تبصرنا بأن من عوامل عدم نزول العذاب: تمكن المظلوم من أن يجهر بالسوء من القول على ظالمه؛ لأن ذلك يدل على إمكانية الإصلاح ما دام المظلوم لا يهاب الجهر بالسوء من القول على ظالمه.

والمسْتَثْنَى مِنْهُ هُوَ فَاعِلُ المصْدَرِ المقَدَّرِ الوَاقِعِ فِي سِيَاقِ النَّفْيِ، المفِيدُ لِلْعُمُومِ، إِذِ التَّقْدِيرُ: لَا يُحِبُّ اللَّهُ جَهْرَ أَحَدٍ بِالسُّوءِ، أَوْ يَكُونُ المسْتَثْنَى مُضَافًا مَحْذُوفًا، أَيْ: إِلَّا جَهْرَ مَنْ ظُلِمَ [1].

كما أن السياق هنا يبصرك بأن لهذه الآية الرائعة وجهًا آخر في تنظيم حياة الناس، فالمنافق التائب ربما عيره غيره بِسَبَبِ مَا صَدَرَ عَنْهُ فِي الماضِي، فمنع الله ذلك، إِلَّا مَنْ ظَلَمَ نَفْسَهُ بأن أَقَامَ عَلَى نِفَاقِهِ أو ظلم الآخرين.

(١) التحرير والتنوير (٦/ ٦).

وإذا كان ذلك معنى الآية دخل فيها ما أشار إليه المفسرون رحمهم الله من إخبار من لم يُقْرَ أي من لم يُضيف، أو أسيء قِراه، أو نيل بظلم في نفسه أو ماله غيرَه من سائر الناس، فكيف بالظالم الذي يأخذ ثروات أمم وكنوزها، ويدمر طاقات أبنائها، وينشر الفساد في أرجائها!؟ وبذا تظهر لك الآية بوضوح أن مما يسبب نزول العذاب: عدم القيام بالجهر بظلم الظالم حسب المناسب المكافئ له -فرديًّا، أو جماعيًّا- إعلاميًا؛ فذكر الجهر لبيان أن الله ﷻ لا يحب السر بالسوء من بابٍ أولى؛ لأنه يدل على التآمر، وينبغي أن تعلم -أيدك الله- أن الصبر على الظلم أولى، إن كان خاصًّا، لا إذا كان عامًّا؛ ولذا لا بد من إشاعة مبدأ: (إِنَّ لِصَاحِبِ الحَقِّ مَقَالًا)؛ ليتعود المجتمع على نصرة المظلوم، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ يَتَقَاضَاهُ، فَأَغْلَظَ، فَهَمَّ بِهِ أَصْحَابُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «دَعُوهُ، فَإِنَّ لِصَاحِبِ الحَقِّ مَقَالًا، ثُمَّ قَالَ: «أَعْطُوهُ سِنًّا مِثْلَ سِنِّهِ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ لاَ نَجِدُ إِلاَّ أَمْثَلَ مِنْ سِنِّهِ، فَقَالَ: «أَعْطُوهُ فَإِنَّ مِنْ خَيْرِكُمْ أَحْسَنَكُمْ قَضَاءً»[1].

ومن الصور التي تدخل في الجهر بالسوء من القول:

الصورة الأولى: صورة أولئك الذين يخوضون في آيات الله، فيحرم مثل فعلهم.

الصورة الثانية: الذين يجهرون بالقبائح ويشيعون الفحشاء عبر وسائل إعلامهم، فيحرم مثل فعلهم.

الصورة الثالثة: ما ذكره ابن عباس رضي الله عنهما فقال: «لا يحب الله أن يدعوَ أحدٌ على أحد، إلا أن يكون مظلومًا، فإنه قد أرخَص له أن يدعو على من ظلمه، وذلك قوله: ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾، وإن صبر فهو خير له» ، وفصَّل الحسن ذلك فقال: « هو الرجل يظلم الرجل فلا يدْعُ عليه، ولكن ليقل: اللهم أعنِّي عليه، اللهم استخرج لي حقي، اللهم

(١) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٣ / ١٣٠) رقم ٢٣٠٦ .

حُلْ بينه وبين ما يريد»، ونحوه من الدعاء [١].

الصورة الرابعة: ذكرها مجاهد ﷺ فقال: هو الرجل ينزل بالرجل فلا يحسن ضيافته، فيخرج من عنده فيقول: أساءَ ضيافتي ولم يُحسن[٢]!

الصورة الخامسة: أن يستب الرجلان: قال عَبْدُ الكَرِيمِ بْنُ مَالِكٍ الجَزَرِيّ فِي هَذِهِ الآيَةِ: هُوَ الرَّجُلُ يَشْتُمُكَ فَتَشْتُمُهُ، وَلَكِنْ إِنِ افْتَرَى عَلَيْكَ فَلَا تَفْتَرِ عَلَيْهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ (الشُّورَى: ٤١)[٣]، وقد قال رسول الله ﷺ: «المستبان ما قالا فعلى البادي منهما ما لم يعتد المظلوم» [٤].

الصورة السادسة: يدخل في ذلك تردي الأحوال الاقتصادية العامة؛ فإن كان النبي ﷺ قد أقر للضيف حق القرى فكيف ببلاء غلاء الأسعار، وضياع الفرص الوظيفية، وغياب التنمية، فعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ ﷺ قَالَ: قُلْنَا لِلنَّبِيِّ ﷺ: إِنَّكَ تَبْعَثُنَا، فَنَنْزِلُ بِقَوْمٍ لا يَقْرُونَا، فَمَا تَرَى فِيه؟ فَقَالَ لنَا: «إِنْ نَزَلْتُمْ بِقَوْمٍ ، فَأُمِرَ لَكُمْ بِمَا يَنْبَغِي لِلضَّيْفِ فَاقْبَلُوا، فَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا، فَخُذُوا مِنْهُمْ حَقَّ الضَّيْفِ»[٥].

الصورة السابعة: ويدخل في ذلك سوء تعامل الجار، والمعاملة الاجتماعية السيئة الدائمة، فعَن أبي جحيفة ﷺ، أن رجلًا جاء إلى النَّبِيّ ﷺ فشكا إليه جاره فقال: يؤذيني فقال: ضع متاعك في الطريق، أو على ظهر الطريق فوضعه فكان كل من مر قال: ما شأنك ؟ قال: جاري يؤذيني فيدعو عليه فجاء الرجل فقال: رد متاعك

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٣٤٤).

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٣٤٥).

(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٤٣).

(٤) صحيح مسلم (٨ / ٢٠) برقم ٦٧٥٦.

(٥) البخاري (٣/ ١٧٢) برقم ٢٤٦١.

فلا أؤذيك أبدًا، أو كما قال [١].

وقال الطبري في بيان عمومها: «لا يحب الله، أيها الناس، أن يجهر أحدٌ لأحد بالسوء من القول ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾، بمعنى: إلا من ظلم فلا حرج عليه أن يخبر بما أسيء عليه.

وإذا كان ذلك معناه، دخل فيه إخبار من لم يُقْرَ، أو أسيء قراه، أو نيل بظلم في نفسه أو ماله غيرَه من سائر الناس. وكذلك دعاؤه على من ناله بظلم: أن ينصره الله عليه، لأن في دعائه عليه إعلامًا منه لمن سمع دعاءه عليه بالسوء له [٢].

فأجاز الله ﷻ للمظلوم أن يجهر بالسوء من القول على الظالم ليكون ذلك أداة لتغيير المنكر الذي صنعه الظلم، وليتم إيقاف الفساد، وتصحيح الأخطاء، وحتى تقوم الجهات المختلفة بإعانة المظلوم على ردع الظلم، ومن يقف وراءه، ولحماية المجتمع من أن يلجأ المظلومون فيه إلى التغيير باليد أو العنف في دفع الظلم الواقع عليهم، ولذا أجاز النبي ﷺ تشهير المتلاعب بأموال الناس فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَطْلُ الغَنِيِّ ظُلْمٌ فَإِذَا أُتْبِعَ أَحَدُكُمْ عَلَى مَلِيٍّ فَلْيَتْبَعْ»[٣]، وعَنْ عَمْرِو بْنِ الشَّرِيدِ عَنْ أَبِيهِ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَيُّ الوَاجِدِ يُحِلُّ عِرْضَهُ وَعُقُوبَتَهُ»[٤]، وأجاز أهل العلم الكلام عن الآخرين في ستة أحوال جمعت في قولهم:

القدح ليس بغيبة في ستةٍ متظلِّمٍ، ومعرِّفٍ، ومحذِّرِ
ومجاهر فسقًا، ومستفتٍ، ومَن طلب الإعانة في إزالة منكر

وترى الختم الرفيع المنزلة للآية بقوله جل ذكره: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ (النساء:١٤٨)؛ ليُبَصِّرُنا بأن الظلم مرصود مهما ظن الظالم أن العقوبة مصروفة عنه،

(١) مسند البزار (١٠ / ١٦١).

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٣٤٩).

(٣) البخاري (٣ / ١٢٣) برقم ٢٢٨٨ .

(٤) أبو داود (٣ / ٣٤٩) برقم٣٦٢٨، قال الأرناؤوط: إسناده حسن.

والسميع العليم لا يخفى عليه الظالم من المظلوم، مهما تلاعب البشر، فجعلوا الظالم مظلومًا، والعكس.. ألا ترى كيف تتلاعب بنا الأجهزة الإعلامية الجبارة، فتقلب الحق باطلًا، والباطل حقًّا؟ والله سميع لخفايا الكلام، وإن لم يجهر به، عليم بدقائق الوقائع؛ ومما يوضح ذلك ما رواه عِتْبَان بْنَ مَالِكٍ الأَنْصَارِيَّ، رضي الله عنه، وَكَانَ مِمَّنْ شَهِدَ بَدْرًا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ قال: كُنْتُ أُصَلِّي لِقَوْمِي بِبَنِي سَالِمٍ، وَكَانَ يَحُولُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ وَادٍ إِذَا جَاءَتِ الأَمْطَارُ فَيَشُقُّ عَلَيَّ اجْتِيَازُهُ قِبَلَ مَسْجِدِهِمْ فَجِئْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقُلْتُ لَهُ: إِنِّي أَنْكَرْتُ بَصَرِي وَإِنَّ الوَادِيَ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَ قَوْمِي يَسِيلُ إِذَا جَاءَتِ الأَمْطَارُ فَيَشُقُّ عَلَيَّ اجْتِيَازُهُ فَوَدِدْتُ أَنَّكَ تَأْتِي فَتُصَلِّي مِنْ بَيْتِي مَكَانًا أَتَّخِذُهُ مُصَلًّى، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سَأَفْعَلُ فَغَدَا عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَأَبُو بَكْرٍ، رضي الله عنه، بَعْدَ مَا اشْتَدَّ النَّهَارُ فَاسْتَأْذَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَأَذِنْتُ لَهُ فَلَمْ يَجْلِسْ حَتَّى قَالَ: أَيْنَ تُحِبُّ أَنْ أُصَلِّيَ مِنْ بَيْتِكَ فَأَشَرْتُ لَهُ إِلَى المَكَانِ الَّذِي أُحِبُّ أَنْ أُصَلِّيَ فِيهِ فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَكَبَّرَ وَصَفَفْنَا وَرَاءَهُ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ سَلَّمَ وَسَلَّمْنَا حِينَ سَلَّمَ فَحَبَسْتُهُ عَلَى خَزِيرٍ يُصْنَعُ لَهُ فَسَمِعَ أَهْلُ الدَّارِ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي بَيْتِي فَثَابَ رِجَالٌ مِنْهُمْ حَتَّى كَثُرَ الرِّجَالُ فِي البَيْتِ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ مَا فَعَلَ مَالِكٌ لاَ أَرَاهُ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ: ذَاكَ مُنَافِقٌ لاَ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: لاَ تَقُلْ ذَاكَ أَلاَ تَرَاهُ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ فَقَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ أَمَّا نَحْنُ فَوَاللَّهِ لاَ نَرَى وُدَّهُ، وَلاَ حَدِيثَهُ إِلاَّ إِلَى المُنَافِقِينَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ [1].

وهلم إلى بصيرة أخرى تثيرها لنا الآية، فالتقييد بالجهر في قوله تعالى جده: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ يرشدنا إلى أن الله ﷻ لا يحب السوء من القول سواء أكان جهرًا أم سرًا، وإنما ذكر قيد الجهر لبيان أنه سبحانه وتعالى إن لم

(١) البخاري (٢ / ٧٤) برقم ١١٨٦.

يحب الجهر، وكلام السوء فيه واضح مفضوح فأولى ألا يحب السر بالسوء.

وعد إلى الآية: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ لتراها تقيد الذي لا يحبه الله بالجهر.. فهل يعني ذلك أن السر بالسوء من القول جائز؟

كلا! اجمع الآيات لتصل إلى أعلى الغايات -أيدك الله- فوعزة ربك لتجدن حقًّا ما وعد ربك من جعل هذا الكتاب هدى ورحمة وتبيانًا لكل شيء، فقد تقدم في هذه السورة ضوابط القول في السر الذي سماه الله ﷻ نجوى في قوله: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ (النساء: ١١٤)، ولقد رأيت القرآن يجرم الأعمال الفردية والجماعية لقول السوء في السر في قوله تعالى جده: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ (النساء: ١٠٨).. ولكن السياق الآن في الكلام عن المنافقين ومن يعمل أعمالهم؛ إذ من أهم صفاتهم التي يستجلبون بها العذاب الإلهي: الجهر بالسوء من القول.. فانظر جمال السياق، والإبهار الذي يوضحه الكلام المنساق في تنظيم المجتمعات وحمايتها من هذه الفئة المجرمة.

فالسر يدل على التآمر الذي ذكره الله ﷻ في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (المجادلة: ٨، ٩)، والتقييد بالجهر مثل تقييد التبين بالضرب في الأرض في قوله: ﴿إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟﴾(النساء: ٩٤)، فالتبين مطلوب سواء أكان الإنسان ضاربًا في سبيل الله أم مستقرًّا في مكانه، فإن كان مطلوبًا حال الضرب في الأرض، أي: السفر مع ضعف إمكانات التثبت فأولى

أن يكون مطلوبًا حال الاستقرار، والجهر المراد به ما وصل إلى مسامع الآخرين، وقيده بالقول؛ لأنه أضعف أنواع الأذى فأولى أن الله لا يحب السوء من الفعل.

ولكنني ينبغي أن أذكرك بأن البصائر القرآنية تهدينا إلى أن الصبر على الظلم أولى إن كان الظلم خاصًا، أي: في الحالات الفردية لا الجماعية، فإذا كان الظلم عامًّا فالجهر بالسوء من القول أولى إن لم يتعين غيره علاجًا للموقف، ويدل على أن الصبر أولى أن تجمع بين البصائر القرآنية الثرية التي وجدتها في هذه الآية، وبين قوله جل ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ثم قال جل ذكره: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ (الشورى: ٣٩ - ٤٣)، ولقد ربَّى النبيُّ ﷺ أصحابه على ذلك، فجاء عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رجلًا شتم أبا بكر رضي الله عنه والنبي ﷺ جالسٌ، فجعل النبي ﷺ يعجب ويتبسم، فلما أكثر ردَّ عليه بعض قوله، فغضب النبيُّ ﷺ وقام، فلحقه أبو بكر، فقال: يا رسول الله كان يشتمني وأنت جالس، فلما رددت عليه بعض قوله غضبت وقمت؟ قال: «إنه كان معك ملك يرد عنك، فلما رددت عليه بعض قوله وقع الشيطان، فلم أكن لأقعد مع الشيطان» ثم قال: «يا أبا بكر ثلاث كلهن حق: ما من عبد ظلم بمظلمة فيغضي عنها لله عزَّ وجلَّ إلا أعز الله بها نصره، وما فتح رجل باب عطية يريد بها صلة إلا زاده الله بها كثرة، وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة الا زاده الله عزَّ وجلَّ بها قلة»[1].

العامل السادس: إشاعة فعل الخير في الإنسانية، ودفع الضرر عنهم، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ (النساء:١٤٩).

(١) أحمد(٢ / ٤٣٦) برقم٩٦٢٤، وقال الأرناؤوط: حسن لغيره.

ففعل الخير سواء ظهر للناس أو خفي، والعفو عن السوء يمنع من العذاب، ولذا قال الله ﷻ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ «أي: يعفو عن الجانين مع قدرته على الانتقام، فعليكم أن تقتدوا بسنة اللَّه»[١]، وإنما حصر الأخلاق التعاملية مع الناس في هذه الأمور الثلاثة: إبداء الخير أو إخفائه أو العفو عن السوء؛ لأن الأعمال الإيجابية الصالحة تنحصر فِي أَمْرَيْنِ: صِدْقٌ مَعَ الحَقِّ، وَخُلُقٌ مَعَ الخَلْقِ، وَالَّذِي يَتَعَلَّقُ بِالخَلْقِ مَحْصُورٌ فِي قِسْمَيْنِ: إِيصَالُ نَفْعٍ إِلَيْهِمْ وَدَفْعُ ضَرَرٍ عَنْهُمْ، فَقَوْلُهُ إِنْ ﴿تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ﴾ إِشَارَةٌ إِلَى إِيصَالِ النَّفْعِ إِلَيْهِمْ، وَقَوْلُهُ ﴿أَوْ تَعْفُواْ﴾ إِشَارَةٌ إِلَى دَفْعِ الضَّرَرِ عَنْهُمْ، فَدَخَلَ فِي هَاتَيْنِ الكَلِمَتَيْنِ جَمِيعُ أَنْوَاعِ الخَيْرِ وَأَعْمَالِ البِرِّ[٢].

فمعنى الآية: ﴿إِن﴾ توصلوا النفع لكم وللإنسانية فـ﴿تُبْدُواْ خَيْرًا﴾ بأن تظهروا للناس أقوالكم وأفعالكم الخيرة ليقتدوا بكم، ولتنشروا الخير بدل السوء ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ خوفًا من الرياء فلا يعلم به العالم، ﴿أَوْ﴾ تدفعوا الضرر عن العالم، فـ﴿تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ﴾ فتقدموا العفو على رد الظلم بمثله حال كون الظلم لا يسري في المجتمع، فإن فعلتم ذلك عفا الله عنكم، وأوصل الخير لكم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا﴾ لمن يستحق العفو ممن فعل الخير أو عفا عن عباده ﴿قَدِيرًا﴾ على صب العطايا عليكم عندما تطيعوا أمره، وقديرًا على تدمير من يصر على السوء، فاعفوا، عمن أساء إليكم كما تحبون أن يعفو عنكم ربكم عند وقوع الخطأ منكم، فجُمْلَةُ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ دَلِيلُ جَوَابِ الشَّرْطِ، وَهُوَ عِلَّةٌ لَهُ[٣]، وَتَقْدِيرُ الجَوَابِ: إن تبدوا خيرًا أو تخفوه أو تعفوا عن سوء يعف الله عنكم ويجزل لكم العطايا، ويدمر عدوكم الخائن الذي لا ينفع معه المعروف فإن الله كان عفوًا قديرًا، وقد رغب النبي ﷺ أصحابه في ذلك

(١) تفسير الزمخشري (١/ ٥٨٢).

(٢) تفسير الرازي (١١/ ٢٥٤).

(٣) التحرير والتنوير (٦/ ٧).

أعظم الترغيب، فعن عقبة بن عامر ﷺ قال: لقيت رسول الله ﷺ فقال لي: «يا عقبة بن عامر! صل من قطعك، وأعط من حرمك، واعف عمن ظلمك» [١]، «وهكذا يرتفع المنهج التربوي بالنفس المؤمنة والجماعة المسلمة درجة أخرى.. في أول درجة يحدثهم عن كراهة اللّه - سبحانه - للجهر بالسوء. ويرخص لمن وقع عليه الظلم أن ينتصف أو يطلب النصف، بالجهر بالسوء فيمن ظلمه، ومما وقع عليه من الظلم.. وفي الدرجة الثانية يرتفع بهم جميعًا إلى فعل الخير ويرتفع بالنفس التي ظلمت - وهي تملك أن تنتصف من الظلم بالجهر - أن تعفو وتصفح - عن مقدرة فلا عفو بغير مقدرة - فترتفع على الرغبة في الانتصاف إلى الرغبة في السماحة وهي أرفع وأصفى.. عندئذ يشيع الخير في المجتمع المسلم إذا أبدوه» [٢].

العامل السابع من عوامل الحفظ من كيد المنافقين ودفع العذاب: الإيمان بكل ما جاء من عند الله كتبًا، ورسلًا، وعدم التبعيض، ويُبَصِّرُنا بذلك أن الله ذكر حال الفئتين: المبعضين المتلاعبين بالإيمان: بأن آمنوا ببعض وكفروا ببعض، وذكر حال المؤمنين الذين آمنوا بجميع من يجب الإيمان بهم، وبجميع ما يجب الإيمان به.

الفئة الأولى: ذكر -عزَّ جارُه- من أسباب التعذيب: الإيمان المُبَعَّض، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ (النساء:١٥٠).

فيكفرون.. كيف يكفرون؟ يقومون بتغطية الإيمان الحقيقي، ويوهمون الناس أنهم مؤمنون، وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾، يُحَاوِلُونَ

(١) أحمد(٤ / ١٥٨) برقم ١٧٤٥٢، قال الأرناؤوط: حديث حسن، وهذا إسناد ضعيف من أجل ابن لهيعة، وقد توبع، وباقي رجال الإسناد ثقات رجال الصحيح..

(٢) في ظلال القرآن (٢ / ٧٩٧).

ذَلِكَ في أنفسهم، وفي الواقع العالمي؛ والإرادة هنا عزم مصمم، وتخطيط مدبر، ومحاولة لفرض ذلك في الواقع، فيدخل فيهم من يزعمون أنهم مؤمنون بالله دون الأنبياء، ومن يؤمن ببعض الأنبياء ويكفر ببعض، ومن يؤمن ببعض الكتب الإلهية ويكفر ببعض، ومن يؤمن ببعض شعب الإيمان ويكفر ببعض مع ثبوته؛ لأنهم خروا جثيًا أمام ضغوطات أهوائهم، وشهواتهم، وبعد أن فرقوا في الإيمان بين الله ورسله، أرادوا أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذلِكَ سَبِيلًا، أَيْ: يصطنعوا إيمانًا حسب أهوائهم، كمن يؤمن بتوحيد العبادة، ولا يؤمن بتوحيد الطاعة والحاكمية، ويؤمنون بالصلاة، ويكفر بمسائل قطعية أخرى، كالزكاة.

والكلام وإن كان للكافرين، فهو تهديدٌ للمؤمنين، الذين يتساهلون في الإيمان بجميع ما يجب أن يتم الإيمان به، وكشف هذا التعبير البياني الفريد أنواعًا من التلاعب بالإيمان تراها اليوم واقعًا منها:

النوع الأول: يزعمون أنهم مؤمنون لكن إيمانهم فقط بالله أما الأنبياء فلا يؤمنون بهم، فيفرقون في الإيمان بين الله ورسله.

النوع الثاني: يؤمنون ببعض الأنبياء ويكفرون ببعض، ويؤمنون ببعض الكتب الإلهية ويكفرون ببعض، فَإِنَّ اليَهُودَ آمَنُوا بِمُوسَى عليه السلام وَالتَّوْرَاةِ وَكَفَرُوا بِعِيسَى عليه السلام وَالإِنْجِيلِ، وَالنَّصَارَى آمَنُوا بِعِيسَى عليه السلام وَالإِنْجِيلِ وَكَفَرُوا بِمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم وَالقُرْآنِ.

النوع الثالث: يؤمنون ببعض ما جاء به نبيٌّ من الأنبياء، ويكفرون ببعض ما جاء به مع ثبوته ووضوحه؛ لأنه لم يوافق أمزجتهم، ولم تستغه عقولهم، ولا استمرأته أهواؤهم، أو لأنهم خروا جثيًا أمام ضغوطات الواقع، فاستحيوا أن يفتخروا بالإيمان ببعض ما ناله هجمة من المستهزئين والساخرين.

وبعد أن فرقوا في الإيمان بين الله ورسله أرادوا أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذلِكَ سَبِيلًا أَيْ بَيْنَ

الإِيمَانِ بِالكُلِّ وَبَيْنَ الكُفْرِ بِالكُلِّ سَبِيلًا أَيْ وَاسِطَةً، وَهِيَ الإِيمَانُ بِالبَعْضِ دُونَ البَعْضِ.

ثم بصرنا ربنا بنتيجة فعلهم، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ (النساء: ١٥٠) فذكر وصفًا لهم، وعاقبة يصلون إليها في الدنيا والآخرة.

فأما وصفهم فهم الكافرون حقًا، وإنما قال ذلك لأنهم تلاعبوا بالمفاهيم، فأظهروا الإيمان ببعض والكفر ببعض، فربما تردد البعض في تكفيرهم، لكن الله يقطع هذا التردد فيقول: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾ والحق هو الشيء الثابت الذي يعطي للمعنى ثباته دون تلاعب أو تذبذب، أي: الذين حق كفرهم فثبت واستقر دون مرية وريب، وهل حالهم إلا كحال إبليس عندما آمن بربه، وكفر بأمره؟ إن هذه الجملة المباركة تقذف في قلوبنا بصيرةً عظيمةً تحملنا على عدم التردد في الإيمان بكل ما ثبت مهما ظننا أن الواقع لا يقبله، كما أنها تحذرنا من التردد في قبول ما ثبت في الكتاب والسنة خوفًا من الوقوع في مزلق المبعضين، ويناسب هذا الوصف ما تردد في السورة من شرك التشريع الذي قال الله ﷻ عن أصحابه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ (النساء: ٦٠) كما أن هذه الآية تناسب الذين يترددون في معرفة السنة العلمية والعملية للرسول ﷺ ممن ذكرهم الله ﷻ في قوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ (النساء: ٦٥).

وأما عاقبة هؤلاء المبعضين فقال الله ﷻ عنها: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ (النساء: ١٠). أي: هيأنا وأعددنا للكافرين المبعضين وغيرهم عذابًا مهينًا مذلًا مخزيًا لهم، وقد يتحقق ذلك في الدنيا، وقد يؤجل إلى الآخرة، فالكفر من أسباب حلول العذاب، والإيمان بالكل دون تبعيض من أسباب عدم نزول العذاب،

وما زلنا نكرر أن الكفر في القرآن قد يراد به الكفر غير المخرج من الملة، وهنا نفهم لماذا ينزل العذاب على المؤمنين أحيانًا؟ لأنهم قد يقترفون الإيمان المبعض دون أن يشعروا كأن يؤمنوا ببعض الشريعة دون بعض، فيؤمنوا بتوحيد العبادة، ولا يؤمنوا بتوحيد الطاعة والحاكمية، ويؤمنوا بالصلاة، ولا يؤمنوا بأخوة الإسلام مثلًا.

لماذا كان المبعضون كافرين حقًّا؟

لأن الكفر تغطية الحق القائم، وستر الحقيقة الواضحة، فقد أنكروا أوضح الحقائق، فالإيمان بالله حقيقة فطرية لا يستطيعون إنكارها إلا بالتغطية والتعمية لها؛ إذ كل مصنوع لا بد له من صانع، وأعظم المصنوعات الخلق الإنساني.. أفيؤمن المرء بضرورة وجود صانعٍ حكيمٍ مدبر للهاتف أو للكومبيوتر أو للسيارة ثم يجحد هذه الحقيقة بالنسبة للإنسان؟

فإذا آمن بوجود صانع قويٍّ حكيمٍ خبيرٍ مدبرٍ للإنسان وجب أن يكون من حكمة هذا الصانع ألا يخلق مصنوعاته عبثًا، ولا يتركهم سدى؛ فإن كانوا لا يتمكنون من الكلام معه ورؤيته مباشرة لفرق القوة بينه وبينهم وجب أن يرسل إليهم رسلًا يبلغونهم عنه ما أراد بهم، وهؤلاء الرسل لا بد أن يكونوا من جنسهم ليستطيعوا التواصل معهم، ولأجل ذلك أرسل الله ملائكة يوحون إلى بشرٍ مخصوصين هيأهم الله لترتقي قوتهم بقدر إمكانية تواصلهم مع ملائكة الوحي، ولما كان هؤلاء الرسل مرسلين من إلهٍ واحدٍ وجب أن يؤمنوا ببعضهم، وأن يؤمن أتباعهم بهم جميعًا، واقتضت الحكمة أن يتوقف هؤلاء الرسل عندما تصل البشرية إلى الاكتفاء برسولٍ خاتم نظرًا لتطور التواصل فيما بينها.. وهكذا فإن الكفر ستر لأعظم الحقائق فهو إما ستر لحقيقة الإله الذي خلق الكون، وإما ستر لتدبيره بإرسال الملائكة بالكتب إلى رسله لوضع التشريعات التي تنظم حياة البشر.. فقوم يكفرون بالخالق، وقوم يكفرون بتدبير الخالق، والله له الخلق

والأمر، وبذا نعلم أن الكفر بالرسل كفر بالله، والكفر ببعض الرسل كفر بالرسل وكفر بتدبير الله جل جلاله، وذلك يعني أن الكافر اتخذ نفسه إلهًا، فهو يزعم أن الله إلهه، لكنه يسلب من الله أن يدبر حياته حينما أنكر رسله أو بعض رسله، وبذا نعلم سر هذا التعبير المدهش: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾.

الفئة الثانية: المؤمنون غير المبعضين: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (النساء:١٥٢).

ثم ذكر الله ﷻ ثانيًا: حال المؤمنين غير المبعضين فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (النساء: ١٥٢).

فعبر عنهم بصيغة الماضي التي تدل على الثبوت لا على الانقضاء فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾، وبين أنهم لا يبعضون إيمانهم، فقال: ﴿وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ فيؤمنون بجميع الأنبياء، وبجميع العبادات دون تفريق ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ فمآلهم إلى أن يؤتيهم الله أجورهم، ولم يحدد نوعها ليلقى في ذهن السامع أنها عظيمة تليق بعظمة معطيها سبحانه، وفي الآية قراءتان توضحان مشهدين:

الأولى: قَرَأَ عَاصِمٌ فِي رِوَايَةِ حَفْصٍ ﴿يُؤْتِيهِمْ﴾ بِالْيَاءِ وَالضَّمِيرُ رَاجِعٌ إِلَى اسْمِ اللَّهِ، فالله هو الذين سيؤتيهم أجورهم دون غيره، فلينتظروا ثوابه وعطاياه، وذلك يعني أنهم قد لا يجدون خيرًا من أهل الدنيا، فحسبهم أن الله كافيهم.

الثانية: وَالْبَاقُونَ بِالنُّونِ ﴿سنؤتيهم﴾[1] فأتى بالنون الدالة على التعظيم ليبين

(١) النشر في القراءات العشر (٢/ ٢٥٣).

فخامة عطاياه، فكما أنه بعظمته قال عن الكافرين: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ فقد قال عن المؤمنين: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، ولمَ لا والله كان ولا يزال هو الغفور، أي: الستار لذنوب العباد وخطاياهم إن صدقوا في الإقبال عليه، الرحيم، أي: الذي يسبغ العطايا الوافرة، والخيرات المتكاثرة، فكان هنا من باب الحقيقية وليس من باب المضي، وأتى بحرف التنفيس ﴿سَوْفَ﴾ لبيان تحقق الأجر مهما تأخر.

الصنف الثاني

المفسدون من (اليهود) (النساء:١٥٣-١٧٠)

المناسبة والاتصال:

يذكر الله جل ذكره في هذا المحور أبرز المغتصبين لحقوق العالم من الأساتذة في نشر الجريمة العالمية، مع التلبيس، والخداع، فبدأ بذكر فئة المتلاعبين المتذبذبين بين الكفر والإيمان تلاعبًا وهم المنافقون الذين ينتمون اسمًا لأمة النبي ﷺ لكنهم يتولون المعتدين، ويجهرون بالسوء من القول في العالمين، ومنهم من يبعض إيمانه، وقدَّمهم لأنهم أشد العالم حربًا للراشدين الذين ينشرون الإيمان والشكر، وهنا يذكر الله ﷻ متطرفي اليهود وهم الذين تتحمس القوى المنافقة لتكون عميلة لهم تتآمر معهم ضد الإنسانية حتى لا تنال حقوقها في الانتشار العادل، والمعرفة الحقة، والتمتع بإشاعة القسط في الأرض، هنا ترى البهاء القرآني في الدفاع عن البشرية المكلومة بسلب حقوقها العظمى في معرفة الله، وإقامة مبادئ القسط في الأرض، وانقسم الكلام عن اليهود إلى الفصول الآتية:

الفصل الأول

أسوأ الانتهاكات التي اقترفوها في حق أنفسهم والعالم، مما تلاعبوا فيه بالحقوق الإنسانية (النساء١٥٣-١٥٥)

آيات هذا الفصل:

﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ

فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلۡمِهِمۡۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَعَفَوۡنَا عَن ذَٰلِكَۚ وَءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمۡ وَقُلۡنَا لَهُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُلۡنَا لَهُمۡ لَا تَعۡدُواْ فِي ٱلسَّبۡتِ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ وَكُفۡرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتۡلِهِمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَقَوۡلِهِمۡ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ (النساء١٥٣-١٥٥).

الانتهاك الأول: الاستغلال البشع للمكانة التشريفية التكليفية التي تميزوا بها في العالم حيث تميزوا بحمل الكتاب، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، فهذه الجملة فيها تلطف معهم: بتذكيرهم بمكانتهم العالمية، وما تفرض عليهم من واجبات، وفيها بيان بشاعة خيانتهم لهذه المسؤولية.

كيف استغلوها في إضلال العالم بدلًا من مساعدته على رؤية الصواب؟ لقد وجهوا العالم لنصرة الخرافات العقدية التي حرفوها عن دينهم الأصلي، وينشئون التحالفات بين المؤسسات الدولية والمحلية لصالح ذلك، ولا بد من بيان ذلك للرأي العام الكتابي، والعالمي؛ ليحذر المتطرفين المحرفين.

وذكر الله جل ذكره هذه الانتهاكات ليبين لنا لمحة منهجية لا بد منها في المنهج القرآني، وهي أنه يجب بيان هذه الجرائم أمام العالم؛ ليعرف العالم حقيقة نفسيات المنحرفين منهم نظرًا لأثرهم العالمي الكبير، ولأنهم يغطون على هذه الجرائم بمحاولة افتعال عدوٍ آخر، وغالبًا ما يجعلون الجانب الصحيح عدوًا للعالم يشغلون العالم بذكره والتحذير منه ليواروا سواءاتهم الفكرية والعملية القبيحة، ولأنهم يسخرون العالم حول الخرافات العقدية التي حرفوها عن دينهم الأصلي، وينشئون التحالفات بين المؤسسات الدولية والمحلية لصالح ذلك، وقد ذكر الله ﷻ عددًا من جوانب التلاعب التي يشيعونها لتضييع حقوق العالم في معرفة الحقائق الإيمانية

الكبرى: كماهية الكون، والمنهاج الحق الذي يؤدي إلى السعادة، وبيان هذه الحق العظيم يجب أن يكون رسالة لجهتين من شعوب الأرض:

الجهة الأولى: محرفو اليهود الذين يحشدون الجميع حول خرافاتهم وشهواتهم وهم يظنون أنهم يحسنون صنعًا.

الجهة الثانية: بقية العالم ليعلموا أن هؤلاء المجرمين لا يحشدون العالم إلا حول مصالحهم وخرافاتهم.

الانتهاك الثاني: التشويش على الحق أمام العالم، فأوهموا الرأي العام العالمي أنه لا يجب أن يتم الإيمان بالرسول؛ حتى ينزل كتابًا من السماء جملة واحدة، وعلى أناس مخصوصين ممن يحددونهم، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: لاحظ أنهم طلبوا من النبي ﷺ لتصديقه أن ينزل كتابًا من السماء عليهم وليس عليه، وكلمة ﴿كِتَٰبًا﴾ أجملت عددًا من الصور التي فصلت عبثهم؛ فمنهم من طلب ألواحًا مثل ألواح موسى عليه السلام، ومنهم من طلب أن يأتي كتاب من الله إلى بعض كبرائهم بعينه ليخبره أن محمدًا ﷺ رسول.

ويبين ذلك محمد بن كعب القرظي الذي كان يهوديًا فيقول: جاء أناس من اليهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا: إن موسى جاء بالألواحِ من عند الله، فأتنا بالألواح من عند الله حتى نصدّقك! فأنزل الله: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، إلى قوله: ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾[1]، ويذكر ابن جريج أن اليهود والنصارى أتوا النبي ﷺ فقالوا: «لن نتابعك على ما تدعونا إليه، حتى تأتينا بكتاب من عند الله إلى فلان أنك رسول الله، وإلى فلان بكتاب أنك رسول الله»! قال الله جل ثناؤه: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٣٥٦).

مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةً﴾[1]، وأَهْل الكِتَابِ هُنَا اليَهُود، ويشمل هذا المصطلح النصارى لكن اليهود هم الذين كانوا يعيشون في المدينة، والأفعال التي ذُكرت تتعلق بهم، ولعل تسميتهم بأهل الكتاب دلالة على تأصلهم وقوتهم، وكون النصارى يتبعونهم في كثير من أمورهم، كما أن ذلك لا ينفي أن يكون نصارى نجران أو غيرهم سألوا النبي ﷺ مثل ذلك. فهذه جريمةٌ أرادوا بها التشويش على رسالة الرسول، وأدى ذلك إلى التلاعب بحق العالم في معرفة الدين الحق حتى أنهم صدوا غيرهم من الدخول فيه، فصار دينهم دينًا عنصريًا خاصًا بهم.

وَمَجِيءُ المُضَارِعِ ﴿يَسۡـَٔلُكَ﴾ هُنَا: إِمَّا لِقَصْدِ اسْتِحْضَارِ حَالَتِهِمُ العَجِيبَةِ فِي هَذَا السُّؤَالِ حَتَّى كَأَنَّ السَّامِعَ يَرَاهُمْ كَقَوْلِهِ: ﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ﴾ (هود: ٣٨)، وَقَوْلِهِ: ﴿بَلۡ عَجِبۡتَ وَيَسۡخَرُونَ﴾ (الصافات: ١٢)، وَقَوْلِهِ: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا﴾ (فاطر: ٩)، وَإِمَّا لِلدَّلَالَةِ عَلَى تَكْرَارِ السُّؤَالِ وَتَجَدُّدِهِ المَرَّةَ بَعْدَ الأُخْرَى بِأَنْ يَكُونُوا أَلَحُّوا فِي هَذَا السُّؤَالِ لِقَصْدِ الإِعْنَاتِ، كَقَوْلِ طَرِيفِ بْنِ تَمِيمٍ العَنْبَرِيِّ:

بَعَثُوا إِلَيَّ عَرِيفَهُمْ يَتَوَسَّمُ

أَيْ يُكَرِّرُ التَّوَسُّمَ[2].

الانتهاك الثالث: الكبر الذي جعلهم يطلبون ما لا حق لهم فيه من نبي الله موسى عليه السلام، وهو رؤية الله في الدنيا، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى في الرد عليهم تعالى: ﴿فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةً فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلۡمِهِمۡ﴾:

الفَاءُ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ﴾ فَاءُ الفَصِيحَةِ.. تفصح عن كلام محذوف، وتقديره: فلا تعجب منهم، ولا يَعْظُمَنَّ عليك سؤالهم وعنادهم، فهذه نفسياتهم

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٣٥٦).

(٢) التحرير والتنوير (٦/ ١٣).

المعاندة المريضة؛ لقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة، أي: عِيانًا ضد الخفية، وطلبهم لا للمحبة والشوق، وإنما للتنقل في التلاعب، ويجوز أن يكون المعنى ما ورد عن ابن عباس ﷺ: أي: قالوا جهرة جرأة منهم على الله: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ﴾ قال: هو مقدّم ومؤخر[١]، فألِّف بين المعنيين معًا ليصبح القول: يسألك المعاندون المرضى المعهودون من أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابًا من السماء، فلا يهولنك ذلك فقد سألوا أعظم أنبيائهم موسى عليه السلام جهرة دون حياء أو استخفاء: أرنا الله جهرة أي رؤية لا نشك في أنه أصابنا سحر أو شيء. «فإنهم من جهلهم بالله وجراءَتهم عليه واغترارهم بحلمه، لو أنزلت عليهم الكتاب الذي سألوك أن تنزله عليهم، لخالفوا أمر الله كما خالفوه بعد إحياء الله أوائلهم من صعقتهم، فعبدوا العجل واتخذوه إلهًا يعبدونه من دون خالقهم وبارئهم الذي أرَاهم من قدرته وعظيم سلطانه ما أراهم، لأنهم لن يعدُوا أن يكونوا كأوائلهم وأسلافهم»[٢]، فسؤال الرؤية لو كان للمحبة والشوق لما أنكر عليهم موسى عليه السلام كما لم ينكر الله عليه في قول الله عنه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ (الأَعْرَافِ:١٤٣).

وهي نفسية مريضة تتخلل دماء المعاندين دون أن يقمعوها، فقد سَأَلَ كفارُ مكة مثل ذلك، وحكى الله ﷻ عنهم ذلك قائلًا: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا﴾ (الإِسْرَاء: ٩٠).

وإنزال التوراة جملة لعله «مِمَّا كَانَ يَغُشُّ بِهِ اليَهُودُ المُسْلِمِينَ، فَالمَعْرُوفُ فِي التَّوْرَاةِ الَّتِي عِنْدَهُمْ، أَنَّ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى مِنْ عِنْدِ اللهِ تَعَالَى جُمْلَةً وَاحِدَةً هُوَ الوَصَايَا العَشْرُ مَنْقُوشَةً فِي لَوْحَيْنِ، جَاءَ بِهِمَا فِي المَرَّةِ الأُولَى، فَلَمَّا رَآهُمْ قَدْ عَبَدُوا

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٣٥٩).

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٣٥٨).

العِجْلَ المَصْنُوعَ مِنَ الحُلِيِّ، فِي غَيْبَتِهِ غَضِبَ، وَأَلْقَى اللَّوْحَيْنِ، فَكَسَرَهُمَا، ثُمَّ أَمَرَهُ اللهُ تَعَالَى بِأَنْ يَنْحِتَ لَوْحَيْنِ آخَرَيْنِ مِنَ الحَجَرِ، وَكَتَبَ لَهُ فِيهِمَا تِلْكَ الوَصَايَا، وَأَمَّا سَائِرُ الأَحْكَامِ فَقَدْ كَانَتْ تُوحَى إِلَى مُوسَى عليه السلام فِي أَوْقَاتٍ مُتَعَاقِبَةٍ، وَلَمْ تَنْزِلْ عَلَيْهِ مَكْتُوبَةً جُمْلَةً وَاحِدَةً (١).

فلا تهولنك نفسيتهم المريضة، فقد سألوا موسى عليه السلام أكبر من ذلك، وليست وظيفة النبي أن يأتي بالآيات والعجائب بل أن يعيد للفطرة صفاءها، ويربطها بربها، **وفي تثنية الاشتراع١٣** ما يدل على هذا المعنى:

١ إِذَا قَامَ فِي وَسَطِكَ نَبِيٌّ أَوْ حَالِمٌ حُلْمًا، وَأَعْطَاكَ آيَةً أَوْ أُعْجُوبَةً.

٢ وَلَوْ حَدَثَتِ الآيَةُ أَوِ الأُعْجُوبَةُ الَّتِي كَلَّمَكَ عَنْهَا قَائِلًا: لِنَذْهَبْ وَرَاءَ آلِهَةٍ أُخْرَى لَمْ تَعْرِفْهَا وَنَعْبُدْهَا.

٣ فَلاَ تَسْمَعْ لِكَلاَمِ ذلِكَ النَّبِيِّ أَوِ الحَالِمِ ذلِكَ الحُلْمَ، لأَنَّ الرَّبَّ إِلهَكُمْ يَمْتَحِنُكُمْ لِكَيْ يَعْلَمَ هَلْ تُحِبُّونَ الرَّبَّ إِلهَكُمْ مِنْ كُلِّ قُلُوبِكُمْ وَمِنْ كُلِّ أَنْفُسِكُمْ.

٤ وَرَاءَ الرَّبِّ إِلهِكُمْ تَسِيرُونَ، وَإِيَّاهُ تَتَّقُونَ، وَوَصَايَاهُ تَحْفَظُونَ، وَصَوْتَهُ تَسْمَعُونَ، وَإِيَّاهُ تَعْبُدُونَ، وَبِهِ تَلْتَصِقُونَ.

٥ وَذلِكَ النَّبِيُّ أَوِ الحَالِمُ ذلِكَ الحُلْمَ يُقْتَلُ، لأَنَّهُ تَكَلَّمَ بِالزَّيْغِ مِنْ وَرَاءِ الرَّبِّ إِلهِكُمُ الَّذِي أَخْرَجَكُمْ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ، وَفَدَاكُمْ مِنْ بَيْتِ العُبُودِيَّةِ، لِكَيْ يُطَوِّحَكُمْ عَنِ الطَّرِيقِ الَّتِي أَمَرَكُمُ الرَّبُّ إِلهُكُمْ أَنْ تَسْلُكُوا فِيهَا. فَتَنْزِعُونَ الشَّرَّ مِنْ بَيْنِكُمْ.

٦ وَإِذَا أَغْوَاكَ سِرًّا أَخُوكَ ابْنُ أُمِّكَ، أَوِ ابْنُكَ أَوِ ابْنَتُكَ أَوِ امْرَأَةُ حِضْنِكَ، أَوْ صَاحِبُكَ الَّذِي مِثْلُ نَفْسِكَ قَائِلًا: نَذْهَبُ وَنَعْبُدُ آلِهَةً أُخْرَى لَمْ تَعْرِفْهَا أَنْتَ وَلاَ آبَاؤُكَ.

---

(١) تفسير المنار (٦/ ١١).

٧ مِنْ آلِهَةِ الشُّعُوبِ الَّذِينَ حَوْلَكَ، القَرِيبِينَ مِنْكَ أَوِ البَعِيدِينَ عَنْكَ، مِنْ أَقْصَاءِ الأَرْضِ إِلَى أَقْصَائِهَا.

٨ فَلاَ تَرْضَ مِنْهُ وَلاَ تَسْمَعْ لَهُ وَلاَ تُشْفِقْ عَيْنُكَ عَلَيْهِ، وَلاَ تَرِقَّ لَهُ وَلاَ تَسْتُرْهُ،

٩ بَلْ قَتْلًا تَقْتُلُهُ. يَدُكَ تَكُونُ عَلَيْهِ أَوَّلًا لِقَتْلِهِ، ثُمَّ أَيْدِي جَمِيعِ الشَّعْبِ أَخِيرًا.

١٠ تَرْجُمُهُ بِالحِجَارَةِ حَتَّى يَمُوتَ، لأَنَّهُ التَمَسَ أَنْ يُطَوِّحَكَ عَنِ الرَّبِّ إِلهِكَ الَّذِي أَخْرَجَكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ مِنْ بَيْتِ العُبُودِيَّةِ.

١١ فَيَسْمَعُ جَمِيعُ إِسْرَائِيلَ وَيَخَافُونَ، وَلاَ يَعُودُونَ يَعْمَلُونَ مِثْلَ هذَا الأَمْرِ الشِّرِّيرِ فِي وَسَطِكَ.

وكذلك الأمر في العهد الجديد، ففي إنجيل متى (١٢: ٣٨ - ٤٠): «حينئذ أجاب قوم من الكتبة والفريسيين قائلين: يا معلم نريد أن نرى منك آية؟ فأجاب وقال لهم: جيل شرير وفاسق يطلب آية ولا تُعطى له آية إلا آية يونان النبي؛ فهم عندما يطلبون آية أو علامة فمن باب التلاعب لا من باب الرغبة في معرفة الحلق كَمَا قَالَ - تَعَالَى -: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ (الأنعام: ٧). «وَفِي هَذَا الكَلَامِ تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِي ﷺ وَدَلَالَةٌ عَلَى جَرَاءَتِهِمْ، وَإِظْهَارُ أَنَّ الرُّسُلَ لَا تَجِيءُ بِإِجَابَةِ مُقْتَرَحَاتِ الأُمَمِ فِي طَلَبِ المُعْجِزَاتِ بَلْ تَأْتِي المُعْجِزَاتُ بِإِرَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى عِنْدَ تَحَدِّي الأَنْبِيَاءِ، وَلَوْ أَجَابَ اللَّهُ المُقْتَرِحِينَ إِلَى مَا يَقْتَرِحُونَ مِنَ المُعْجِزَاتِ لَجَعَلَ رُسُلَهُ بِمَنْزِلَةِ المُشَعْوِذِينَ وَأَصْحَابِ الخَنْقَطَرَاتِ وَالسِّيمِيَاءِ، إِذْ يَتَلَقَّوْنَ مُقْتَرَحَاتِ النَّاسِ فِي المَحَافِلِ وَالمَجَامِعِ العَامَّةِ وَالخَاصَّةِ، وَهَذَا مِمَّا يَحُطُّ مِنْ مِقْدَارِ الرِّسَالَةِ»[1].

(١) التحرير والتنوير (٦/ ١٤).

وإذا طلب المؤمنون آية أو معجزة فقد يجيبهم الله لزيادة إيمانهم كما قال الله جل ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ (البقرة: ٢٦٠)، وقال تعالى جده: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (المَائِدَة: ١١٢- ١١٥).

وذكر الله تعالى موسى عليه الصلاة والسلام ليبين أن تلبيسهم ليس فقط على رسالة النبي ﷺ بل حتى على أعظم أنبيائهم، وليعلمنا أن الهجوم على معتقداتهم الباطلة ومواقفهم المنحرفة أولى في بعض المواقف ليستبين للناس أنهم يدمرون عبرها حق العالم في معرفة الدين الحق. وأَسْنَدَ السُّؤَالَ إِلَيْهِمْ وَإِنْ وُجِدَ مِنْ آبَائِهِمْ فِي أَيَّامِ مُوسَى عليه السلام وَهُمُ النُّقَبَاءُ؛ السَّبْعُونَ لِأَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى مَذْهَبِهِمْ وَرَاضِينَ بِسُؤَالِهِمْ وَمُشَاكِلِينَ لَهُمْ فِي التَّعَنُّتِ، فطَلَبَ هَؤُلَاءِ لِنُزُولِ الكِتَابِ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ لَيْسَ لِأَجْلِ الِاسْتِرْشَادِ بَلْ لِمَحْضِ العِنَادِ[1]. ولعله ظهر الجواب على سؤال: لماذا أخبر الله ﷻ بصيغة الجمع عن سؤالهم مع أن السائل بعضهم فقط؟ لماذا قال الله: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ مع أن الذين سألوا وشوشوا إنما هم فئة منهم؟

الجواب: نعم السائل بعضهم، و(ال) عهدية، أي: الذين عُهِدَ منهم هذا السؤال، لكن هذا البعض للأسف لم يجد من ينكر عليه جهرًا، فكأنهم يفعلون الفعل ذاته، فلم يوجد في الأغلبية الصامتة من ينكر هذا السؤال على الأقلية المشوشة، وهذا الذي

(١) تفسير الرازي (١١/ ٢٥٦).

جعلنا نقول: يخاطب الله ﷻ الأحفاد بما فعله الأجداد عندما قال: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ هؤلاء الذين كانوا في عهد النبي ﷺ ﴿فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ فهؤلاء الذين كانوا في عهد موسى عليه السلام، فلماذا خاطب الله ﷻ الأحفاد بما فعله الأجداد؟ لأنهم رضوا بما فعله أجدادهم ولم ينكروه.

وقد حدثنا الله جل ذكره في سورة الأعراف بتفاصيل دقيقة عن موضوع سؤالهم أن يروا الله، منها أن موسى عليه السلام بعد أن أنكر عليهم عبادة العجل أخذ منهم سبعين مختارًا منهم لميقات الله تعالى جده، لكنهم قالوا له: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة.. لا يكفينا أن نراك وأنت تكلم ربك بل لابد أن نرى الله جهرة، ووصف الله ﷻ ما جرى لهم فقال: ﴿فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ (الأعراف: ١٥٥)، والرجفة هي الزلزلة التي تكون من تحتهم، وهنا قال: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾، ما الصاعقة؟ وما الرجفة؟ الصاعقة إما أن تطلق على الكهرباء النازلة من السماء ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ (الرعد: ١٣)، وإما تطلق على ما يحصل للإنسان من صعقة أي موت مفاجئ يأتيه بغتة، كما قال تعالى جده: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ (الزمر: ٦٨)، وكما قال تعالى: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ (الأعراف: ١٤٣) فقد تكون الصاعقة التي أحلت بهم موتًا أخذهم بسبب زلزال وقع تحت أرجلهم فلم يحتملوا ذلك، فأصابتهم صاعقة لشدة الهول.. كان البداية رجفة وانتهى الأمر بأن تصعق أجسادهم لعدم التحمل كما حصل مع موسى عليه السلام فإنه دك الجبل فلما اندك الجبل خر موسى صعقًا.

الانتهاك الرابع: الشرك، واختراع ألاعيب؛ لصرف النظر عن أعظم الحقائق، وهي حقيقة التوحيد، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ

﴿ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ فاتخذوا العجل إلهًا على الرغم من كل البينات العجيبة التي جاءتهم.

الانتهاك الخامس: مقابلة الكرامات، والتكليفات الإلهية بالازدراء، والنقض للميثاق، فعدد الله بعضًا من العطاء الإلهي المتميز الخاص بهم فقال: ﴿فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ (النساء: ١٥٣، ١٥٤).

فقوله: ﴿فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ﴾ أي: عن اتخاذهم العجل إلهًا. وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ (النساء: ١٥٣) آتيناه قوةً عظيمةً، وحجةً كبيرة أمام أتباعه وأعدى أعدائهم، فلم تقوموا بتعظيمه ولا فعل اللائق أمامه «لَكِنَّا نَصَرْنَاهُ وَقَوَّيْنَاهُ فَعَظُمَ أَمْرُهُ وَضَعُفَ خَصْمُهُ، وَفِيهِ بِشَارَةٌ لِلرَّسُولِ ﷺ عَلَى سَبِيلِ التَّنْبِيهِ، وَالرَّمْزُ بِأَنَّ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارَ وَإِنْ كَانُوا يُعَانِدُونَهُ فَإِنَّهُ بِالْآخِرَةِ يَسْتَوْلِي عَلَيْهِمْ وَيَقْهَرُهُمْ»[1]. وقوله: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ﴾ لبيان حقيقة الرسالة وعظيم العقوبة على تركها، فأخذ الميثاق على عدد من الأوامر الإلهية المتقدم ذكرها في سورة البقرة، وقوله: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ﴾ ما المقصود بميثاقهم؟ الباء هنا للإلصاق، أي: ورفعنا فوقهم الطور حال كون ذلك ملتصقًا بميثاقهم، أي: عندما أخذنا الميثاق رفعنا الطور، ورفع الطور من أجل تغليظ الميثاق حتى يسمعوا ولا يخالفوا كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَٰقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (الأعراف: ١٧١). وقوله: ﴿وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ شكرًا على نعمة الفتح فلم يفعلوا، أَيِ ادْخُلُوا بَابَ القَرْيَةِ خَاضِعِينَ لِلَّهِ، أَوْ مُطَامِنِي الرُّءُوسِ، مَائِلِي الأَعْنَاقِ ذِلَّةً وَانْكِسَارًا لِعَظْمَةِ اللهِ، كَمَا يُقَالُ سَجَدَ البَعِيرُ: إِذَا طَامَنَ رَأْسَهُ لِرَاكِبِهِ، وَتَقُولُ العَرَبُ: شَجَرَةٌ سَاجِدَةٌ لِلرِّيَاحِ: إِذَا كَانَتْ مَائِلَةً، وَالسَّفِينَةُ تَسْجُدُ لِلرِّيَاحِ أَيْ تُطِيعُهَا[2]. وقوله:

(١) تفسير الرازي (١١/ ٢٥٧».

(٢) تفسير المنار (٦/ ١٣).

﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ﴾ لطلب إظهار حقيقة تدينهم، ونهيهم عن أن يعدوا[1]

(١) وفي هذه الكلمة عدة قراءات، ولأنها لغوية لا يترتب عليها اختلاف في المعاني بصورة واضحة، فقد آثرت جعل الإشارة إليها في الهامش، فذكر ابن الجزري ﷺ القراءات الواردة هنا في قوله:
تعدوا فحرّك (ج) د وقالون اختلس... بالخلف واشدد داله (ث) مّ (أ) نس
القراءة الأولى لجميع القراء عدا أهل المدينة: ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ﴾ (النساء: ١٥٤) بإسكان العين وتخفيف الدال، فهو مضارع عدا عدوانًا: تجاوز حده، وأصله: تعدو، فحذفت ضمة الواو؛ استثقالا، كَقَوْلِهِ: ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ (الأَعْرَافِ: ١٦٣).
القراءة الثانية: لأبي جعفر بإسكان العين مع تشديد الدال ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعَدُّوا﴾ فجمع بين ساكنين، بمعنى: تعتدوا، ثم تدغم (التاء) في (الدال) فتصير (دالًا) مشددة مضمومة، كما قرأ ﴿أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ﴾ (سورة يونس: ٣٥)، بتسكين (الهاء).
القراءة الثالثة: لورش من طريقيه بتشديد الدال، و(بتحريك) العين وإشباعها.
القراءة الرابعة: قراءة قالون بتشديد الدال واختلف عنه في(اختلاس) حركة العين وإسكانها، فروى عنه العراقيون من طريقيه: إسكان العين مع التشديد كأبي جعفر، وروى المغاربة عنه الاختلاس، ويعبر عنه بنصهم: الإخفاء، وفرارًا من الجمع بين ساكنين، وروى الوجهين عنه الداني. ووجه التشديد: أنه مضارع (اعتدى) (افتعل): بالغ في مجاوزة الحد، وأصله (تعتديوا)، استثقلت فتحة التاء (فنقلت) للعين، وأدغمت التاء في الدال؛ لاشتراك مخرجيهما، والدال أقوى، ونقلت ضمة الياء للدال، ثم حذفت للساكنين، فأصلها ﴿لَا تَعْتَدُوا﴾ إذ قد قال الله ﷻ فيما سبق: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ (البَقَرَة: ٦٥)، فَجَاءَ فِي هَذِهِ القِصَّةِ بِعَيْنِهَا افْتَعَلُوا، ثُمَّ أَدْغَمَ التَّاءَ فِي الدَّالِ لِتَقَارُبِهِمَا وَلِأَنَّ الدَّالَ تَزِيدُ عَلَى التَّاءِ فِي الجَهْرِ، فَلَمَّا كَانَتِ التَّاءُ قَرِيبَةً مِنْ مَخْرَجِ الدَّالِ وَوَقَعَتْ مُتَحَرِّكَةً وَقَبْلَهَا سَاكِنٌ، تَهَيَّأَ إِدْغَامُهَا، فَنُقِلَتْ حَرَكَتُهَا إِلَى العَيْنِ السَّاكِنَةِ قَبْلَهَا، وَأُدْغِمَتْ فِي الدَّالِ إِدْغَامًا لِقَصْدِ التَّخْفِيفِ، وَلِذَلِكَ جَازَ فِي كَلَامِ العَرَبِ إِظْهَارُهَا فَقَالُوا: تَعْتَدُوا وَتَعَدُّوا، لِأَنَّهَا وَقَعَتْ قَبْلَ الدَّالِ، فَكَانَتْ غَيْرَ مَجْذُوبَةٍ إِلَى مَخْرَجِهِ، وَلَوْ وَقَعَتْ بَعْدَ الدَّالِ لَوَجَبَ إِدْغَامُهَا فِي نَحْوِ: (أَدَّان).

ووجه فتح العين: حركة النقل، ووجه الاختلاس: التنبيه على أن أصلها السكون، إذ لا نقل، وأما الإسكان: فعلى حذف حركة التاء وإبقاء العين على سكونها. وَكَثِيرٌ مِنَ النَّحْوِيِّينَ يُنْكِرُونَ الجَمْعَ بَيْنَ السَّاكِنَيْنِ إِذَا كَانَ الثَّانِي منهما مدغمًا ولم يكن الأول حرف لِينٍ نَحْوَ دَابَّةٍ وَشَابَّةٍ، وإنكارهم ليس بحجة أمام قراءة متناقلة إذ غاية ما يستندون إليه تقعيد بناء على أمر أغلبي، والأمر الأغلبي في سماع كلام العرب لا ينافي وجود وجوه أخرى ليست أغلبية، واللغة بناؤها على السمع لا على التقعيد، ولذا قَالَ أَبُو عَلِيٍّ، فِي (الحُجَّة): وَكَثِيرٌ مِنَ النَّحْوِيِّينَ يُنْكِرُونَ الجَمْعَ بَين الساكنين إِذْ كَانَ الثَّانِي مِنْهُمَا مُدْغَمًا وَلَمْ يَكُنِ الأَوَّلُ مِنْهُمَا حَرْفَ لِينٍ، نَحْوَ دَابَّةٍ، يَقُولُونَ: المَدُّ يَصِيرُ عِوَضًا عَنِ الحَرَكَةِ، قَالَ: وَإِذَا جَازَ نَحْوُ دُوَيْبَّةٍ مَعَ نُقْصَانِ المَدِّ الَّذِي فِيهِ لَمْ يُمْتَنَعْ أَنْ يُجْمَعَ بَيْنَ السَّاكِنَيْنِ فِي نَحْوِ: تَعْدُوا. لِأَنَّ مَا بَيْنَ حَرْفِ اللِّينِ وَغَيْرِهِ يَسِيرٌ، أَيْ مَعَ عَدَمِ تَعَذُّرِ النُّطْقِ بِهِ. ينظر: طيبة النشر(ص:٧١)، النشر(٢/ ٢٥٣) (التحرير والتنوير:٦/ ١٦، ١٧).

في السبت من قول القائل: «عدوت في الأمر»، إذا تجاوزت الحق فيه، «أعدو وعَدْوًا وعُدُوًّا وعدوانًا وعَدَاءً».

فهو كما قال الخليل: التعدي: تجاوز ما ينبغي أن يقتصر عليه، والعدوان: الظلم الصراح، وقال أبو نخيلة:

ما زال يعدو طوره العبد الردي ويعتدي ويعتدي ويعتدي [1]

أي: لا تتجاوزوا ما أمركم الله ﷻ بأن تقتصروا عليه يوم السبت فتقعوا في الظلم والعدوان .

وتجد عندهم ما يدل على تعظيم السبت وانتهاكهم له في مواضع متعددة، في سفر **الخروج ٢٠**:

٨ اُذْكُرْ يَوْمَ السَّبْتِ لِتُقَدِّسَهُ.

٩ سِتَّةَ أَيَّامٍ تَعْمَلُ وَتَصْنَعُ جَمِيعَ عَمَلِكَ،

١٠ وَأَمَّا اليَوْمُ السَّابِعُ فَفِيهِ سَبْتٌ لِلرَّبِّ إِلهِكَ. لاَ تَصْنَعْ عَمَلًا مَا أَنْتَ وَابْنُكَ وَابْنَتُكَ وَعَبْدُكَ وَأَمَتُكَ وَبَهِيمَتُكَ وَنَزِيلُكَ الَّذِي دَاخِلَ أَبْوَابِكَ.

١١ لأَنْ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ صَنَعَ الرَّبُّ السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَالبَحْرَ وَكُلَّ مَا فِيهَا، وَاسْتَرَاحَ فِي اليَوْمِ السَّابِعِ. لِذلِكَ بَارَكَ الرَّبُّ يَوْمَ السَّبْتِ وَقَدَّسَهُ.

وفي سفر التثنية ٥:

١٢ اِحْفَظْ يَوْمَ السَّبْتِ لِتُقَدِّسَهُ كَمَا أَوْصَاكَ الرَّبُّ إِلهُكَ.

١٣ سِتَّةَ أَيَّامٍ تَشْتَغِلُ وَتَعْمَلُ جَمِيعَ أَعْمَالِكَ.

---

(١) العين ٣/ ٢١٣، مقاييس اللغة (٤/ ٢٤٩).

١٤ وَأَمَّا اليَوْمُ السَّابِعُ فَسَبْتٌ لِلرَّبِّ إِلهِكَ، لاَ تَعْمَلْ فِيهِ عَمَلًا مَّا أَنْتَ وَابْنُكَ وَابْنَتُكَ وَعَبْدُكَ وَأَمَتُكَ وَثَوْرُكَ وَحِمَارُكَ وَكُلُّ بَهَائِمِكَ، وَنَزِيلُكَ الَّذِي فِي أَبْوَابِكَ لِكَيْ يَسْتَرِيحَ، عَبْدُكَ وَأَمَتُكَ مِثْلَكَ.

١٥ وَاذْكُرْ أَنَّكَ كُنْتَ عَبْدًا فِي أَرْضِ مِصْرَ، فَأَخْرَجَكَ الرَّبُّ إِلهُكَ مِنْ هُنَاكَ بِيَدٍ شَدِيدَةٍ وَذِرَاعٍ مَمْدُودَةٍ. لأَجْلِ ذلِكَ أَوْصَاكَ الرَّبُّ إِلهُكَ أَنْ تَحْفَظَ يَوْمَ السَّبْتِ.

وفي سفر الخروج ٢٣:

٩ وَلاَ تُضَايِقِ الغَرِيبَ فَإِنَّكُمْ عَارِفُونَ نَفْسَ الغَرِيبِ، لأَنَّكُمْ كُنْتُمْ غُرَبَاءَ فِي أَرْضِ مِصْرَ.

١٠ وَسِتَّ سِنِينَ تَزْرَعُ أَرْضَكَ وَتَجْمَعُ غَلَّتَهَا،

١١ وَأَمَّا فِي السَّابِعَةِ فَتُرِيحُهَا وَتَتْرُكُهَا لِيَأْكُلَ فُقَرَاءُ شَعْبِكَ. وَفَضْلَتُهُمْ تَأْكُلُهَا وُحُوشُ البَرِّيَّةِ. كَذلِكَ تَفْعَلُ بِكَرْمِكَ وَزَيْتُونِكَ.

١٢ سِتَّةَ أَيَّامٍ تَعْمَلُ عَمَلَكَ. وَأَمَّا اليَوْمُ السَّابِعُ فَفِيهِ تَسْتَرِيحُ، لِكَيْ يَسْتَرِيحَ ثَوْرُكَ وَحِمَارُكَ، وَيَتَنَفَّسَ ابْنُ أَمَتِكَ وَالغَرِيبُ.

١٣ وَكُلُّ مَا قُلْتُ لَكُمُ احْتَفِظُوا بِهِ، وَلاَ تَذْكُرُوا اسْمَ آلِهَةٍ أُخْرَى، وَلاَ يُسْمَعْ مِنْ فَمِكَ.

لكنهم عدوا واعتدوا فيه على القراءتين، ومن صور عدوهم واعتدائهم العمل فيه كاقْتِنَاصِ السَّمَكِ مما وقعت فيه تلك القرية الظالم أهلها، فعَدَا فيه تجاوز الحد فيه كقَوْله: ﴿فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا﴾ (الأَنْعَام: ١٠٨).

و﴿وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ (النساء: ١٥٤)، والغلظ ضد الرقة، وأصله أن يستعمل في الأجسام لكن قد يستعار للمعاني كالكبير والكثير.

فَاسْتُعِيرَ لِقُوَّةِ المَعْنَى وَكَنَّى بِهِ عَنْ تَوَثُّقِ العَهْدِ لِأَنَّ الغِلَظَ يَسْتَلْزِمُ القُوَّةَ، قال: ﴿وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ (التوبة: ١٢٣) أي: خشونة وقال: ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ (لقمان: ٢٤)، ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ (التوبة: ٧٣) (التحريم: ٩) [١]، فالغِلَظ تصوير محسوس لعظمة الميثاق وقوته في مضامينه وما احتف به إلا أنهم لم يبالوه بالة.

وقد عظم الله ﷻ عهده المأخوذ على بني إسرائيل، وتناقلوه هم فمن ذلك:

ما جاء في سفر التثنية أصحاح ٢٩:

٢ وَدَعَا مُوسَى جَمِيعَ إِسْرَائِيلَ وَقَالَ لَهُمْ: أَنْتُمْ شَاهَدْتُمْ مَا فَعَلَ الرَّبُّ أَمَامَ أَعْيُنِكُمْ فِي أَرْضِ مِصْرَ بِفِرْعَوْنَ وَبِجَمِيعِ عَبِيدِهِ وَبِكُلِّ أَرْضِهِ.

٣ التَّجَارِبُ العَظِيمَةُ الَّتِي أَبْصَرَتْهَا عَيْنَاكَ، وَتِلْكَ الآيَاتِ وَالعَجَائِبَ العَظِيمَةُ.

٤ وَلكِنْ لَمْ يُعْطِكُمُ الرَّبُّ قَلْبًا لِتَفْهَمُوا، وَأَعْيُنًا لِتُبْصِرُوا، وَآذَانًا لِتَسْمَعُوا إِلَى هذَا اليَوْمِ.

٥ فَقَدْ سِرْتُ بِكُمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً فِي البَرِّيَّةِ، لَمْ تَبْلَ ثِيَابُكُمْ عَلَيْكُمْ، وَنَعْلُكَ لَمْ تَبْلَ عَلَى رِجْلِكَ.

٦ لَمْ تَأْكُلُوا خُبْزًا وَلَمْ تَشْرَبُوا خَمْرًا وَلاَ مُسْكِرًا لِكَيْ تَعْلَمُوا أَنِّي أَنَا الرَّبُّ إِلهُكُمْ.

٧ وَلَمَّا جِئْتُمْ إِلَى هذَا المَكَانِ خَرَجَ سِيحُونُ مَلِكُ حَشْبُونَ وَعُوجُ مَلِكُ بَاشَانَ لِلِقَائِنَا لِلْحَرْبِ فَكَسَّرْنَاهُمَا،

٨ وَأَخَذْنَا أَرْضَهُمَا وَأَعْطَيْنَاهَا نَصِيبًا لِرَأُوبَيْنَ وَجَادَ وَنِصْفِ سِبْطِ مَنَسَّى.

٩ فَاحْفَظُوا كَلِمَاتِ هذَا العَهْدِ وَاعْمَلُوا بِهَا لِكَيْ تَفْلِحُوا فِي كُلِّ مَا تَفْعَلُونَ.

---

(١) المفردات في غريب القرآن (ص: ٣٦٤)، التحرير والتنوير (٦/ ١٦).

١٠ أَنْتُمْ وَاقِفُونَ اليَوْمَ جَمِيعُكُمْ أَمَامَ الرَّبِّ إِلهِكُمْ: رُؤَسَاؤُكُمْ، أَسْبَاطُكُمْ، شُيُوخُكُمْ وَعُرَفَاؤُكُمْ وَكُلُّ رِجَالِ إِسْرَائِيلَ.

١١ وَأَطْفَالُكُمْ وَنِسَاؤُكُمْ، وَغَرِيبُكُمُ الَّذِي فِي وَسَطِ مَحَلَّتِكُمْ مِمَّنْ يَحْتَطِبُ حَطَبَكُمْ إِلَى مَنْ يَسْتَقِي مَاءَكُمْ.

١٢ لِكَيْ تَدْخُلَ فِي عَهْدِ الرَّبِّ إِلهِكَ وَقَسَمِهِ الَّذِي يَقْطَعُهُ الرَّبُّ إِلهُكَ مَعَكَ اليَوْمَ،

١٣ لِكَيْ يُقِيمَكَ اليَوْمَ لِنَفْسِهِ شَعْبًا، وَهُوَ يَكُونُ لَكَ إِلهًا كَمَا قَالَ لَكَ، وَكَمَا حَلَفَ لآبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ.

١٤ وَلَيْسَ مَعَكُمْ وَحْدَكُمْ أَقْطَعُ أَنَا هذَا العَهْدَ وَهذَا القَسَمَ.

١٥ بَلْ مَعَ الَّذِي هُوَ هُنَا مَعَنَا وَاقِفًا اليَوْمَ أَمَامَ الرَّبِّ إِلهِنَا، وَمَعَ الَّذِي لَيْسَ هُنَا مَعَنَا اليَوْمَ.

١٦ لأَنَّكُمْ قَدْ عَرَفْتُمْ كَيْفَ أَقَمْنَا فِي أَرْضِ مِصْرَ، وَكَيْفَ اجْتَزْنَا فِي وَسَطِ الأُمَمِ الَّذِينَ مَرَرْتُمْ بِهِمْ.

١٧ وَرَأَيْتُمْ أَرْجَاسَهُمْ وَأَصْنَامَهُمُ الَّتِي عِنْدَهُمْ مِنْ خَشَبٍ وَحَجَرٍ وَفِضَّةٍ وَذَهَبٍ.

ومن الميثاق الذي ذكره موسى عليه السلام من تفاصيله الذي ذكره لهم في سفر التثنية٣٣:

١ وَهذِهِ هِيَ البَرَكَةُ الَّتِي بَارَكَ بِهَا مُوسَى، رَجُلُ اللهِ، بَنِي إِسْرَائِيلَ قَبْلَ مَوْتِهِ،

٢ فَقَالَ: جَاءَ الرَّبُّ مِنْ سِينَاءَ، وَأَشْرَقَ لَهُمْ مِنْ سَعِيرَ، وَتَلأْلأَ مِنْ جَبَلِ فَارَانَ، وَأَتَى مِنْ رِبْوَاتِ القُدْسِ، وَعَنْ يَمِينِهِ نَارُ شَرِيعَةٍ لَهُمْ.

وفي هذا النص الذي جرت عليه غشاوات من التأويل إشارة واضحة لبعثة النبي

ﷺ، فإن المراد بفاران أَبُو قُبَيْسٍ الَّذِي نَزَلَ فِيهِ الوَحْيُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءَ.

الانتهاك السادس: نقض الميثاق، ويُبَصِّرُنا به قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾.

الفاء للتَّفْرِيعِ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ (النِّسَاء:١٥٤)، وَالبَاءُ لِلسَّبِيبَةِ، وَ(مَا) مَزِيدَةٌ لِلتَوْكِيدِ، أي: فبنقضهم المؤكد للميثاق، ماذا حدث لهم؟ حذف المتعلق لِتَذْهَبَ النَفْسُ مذهبًا تهويليًّا في تصوره، وَتَقْدِيرُهُ: فَعَلْنَا بِهِمْ مَا فَعَلْنَا، وقد ورد في الكتاب المقدس ما يدل على هذا النقض الرهيب للميثاق.

ففي سفر التثنية٣١-٣٢:

٢٥ أَمَرَ مُوسَى اللاَّوِيِّينَ حَامِلِي تَابُوتِ عَهْدِ الرَّبِّ قَائِلًا:

٢٦ خُذُوا كِتَابَ التَّوْرَاةِ هذَا وَضَعُوهُ بِجَانِبِ تَابُوتِ عَهْدِ الرَّبِّ إِلهِكُمْ، لِيَكُونَ هُنَاكَ شَاهِدًا عَلَيْكُمْ.

٢٧ لأَنِّي أَنَا عَارِفٌ تَمَرُّدَكُمْ وَرِقَابَكُمُ الصُّلْبَةَ. هُوَذَا وَأَنَا بَعْدُ حَيٌّ مَعَكُمُ اليَوْمَ، قَدْ صِرْتُمْ تُقَاوِمُونَ الرَّبَّ، فَكَمْ بِالحَرِيِّ بَعْدَ مَوْتِي!

٢٨ اِجْمَعُوا إِلَيَّ كُلَّ شُيُوخِ أَسْبَاطِكُمْ وَعُرَفَاءَكُمْ لأَنْطِقَ فِي مَسَامِعِهِمْ بِهذِهِ الكَلِمَاتِ، وَأُشْهِدَ عَلَيْهِمِ السَّمَاءَ وَالأَرْضَ.

٢٩ لأَنِّي عَارِفٌ أَنَّكُمْ بَعْدَ مَوْتِي تَفْسِدُونَ وَتَزِيغُونَ عَنِ الطَّرِيقِ الَّذِي أَوْصَيْتُكُمْ بِهِ، وَيُصِيبُكُمُ الشَّرُّ فِي آخِرِ الأَيَّامِ لأَنَّكُمْ تَعْمَلُونَ الشَّرَّ أَمَامَ الرَّبِّ حَتَّى تُغِيظُوهُ بِأَعْمَالِ أَيْدِيكُمْ.

٣٠ فَنَطَقَ مُوسَى فِي مَسَامِعِ كُلِّ جَمَاعَةِ إِسْرَائِيلَ بِكَلِمَاتِ هذَا النَّشِيدِ إِلَى تَمَامِهِ:

١ «اِنْصِتِي أَيَّتُهَا السَّمَاوَاتُ فَأَتَكَلَّمَ، وَلْتَسْمَعِ الأَرْضُ أَقْوَالَ فَمِي.

٢ يَهْطِلُ كَالمَطَرِ تَعْلِيمِي، وَيَقْطُرُ كَالنَّدَى كَلاَمِي. كَالطَّلِّ عَلَى الكَلاَءِ، وَكَالوَابِلِ عَلَى العُشْبِ.

٣ إِنِّي بِاسْمِ الرَّبِّ أُنَادِي. أَعْطُوا عَظَمَةً لإِلهِنَا.

٤ هُوَ الصَّخْرُ الكَامِلُ صَنِيعُهُ. إِنَّ جَمِيعَ سُبُلِهِ عَدْلٌ. إِلهُ أَمَانَةٍ لاَ جَوْرَ فِيهِ. صِدِّيقٌ وَعَادِلٌ هُوَ.

٦ أَلْرَّبَّ تُكَافِئُونَ بِهذَا يَا شَعْبًا غَبِيًّا غَيْرَ حَكِيمٍ؟ أَلَيْسَ هُوَ أَبَاكَ وَمُقْتَنِيَكَ، هُوَ عَمِلَكَ وَأَنْشَأَكَ؟

٧ اُذْكُرْ أَيَّامَ القِدَمِ، وَتَأَمَّلُوا سِنِي دَوْرٍ فَدَوْرٍ. اِسْأَلْ أَبَاكَ فَيُخْبِرَكَ، وَشُيُوخَكَ فَيَقُولُوا لَكَ.

٨ حِينَ قَسَمَ العَلِيُّ لِلأُمَمِ، حِينَ فَرَّقَ بَنِي آدَمَ، نَصَبَ تُخُومًا لِشُعُوبٍ حَسَبَ عَدَدِ بَنِي إِسْرَائِيلَ.

٩ إِنَّ قِسْمَ الرَّبِّ هُوَ شَعْبُهُ. يَعْقُوبُ حَبْلُ نَصِيبِهِ.

١٠ وَجَدَهُ فِي أَرْضِ قَفْرٍ، وَفِي خَلاَءٍ مُسْتَوْحِشٍ خَرِبٍ. أَحَاطَ بِهِ وَلاَحَظَهُ وَصَانَهُ كَحَدَقَةِ عَيْنِهِ.

١١ كَمَا يُحَرِّكُ النَّسْرُ عُشَّهُ وَعَلَى فِرَاخِهِ يَرِفُّ، وَيَبْسُطُ جَنَاحَيْهِ وَيَأْخُذُهَا وَيَحْمِلُهَا عَلَى مَنَاكِبِهِ.

١٢ هكَذَا الرَّبُّ وَحْدَهُ اقْتَادَهُ وَلَيْسَ مَعَهُ إِلهٌ أَجْنَبِيٌّ.

١٣ أَرْكَبَهُ عَلَى مُرْتَفَعَاتِ الأَرْضِ فَأَكَلَ ثِمَارَ الصَّحْرَاءِ، وَأَرْضَعَهُ عَسَلًا مِنْ حَجَرٍ،

وَزَيْتًا مِنْ صَوَّانِ الصَّخْرِ.

١٤ وَزُبْدَةَ بَقَرٍ وَلَبَنَ غَنَمٍ، مَعَ شَحْمِ خِرَافٍ وَكِبَاشٍ أَوْلاَدِ بَاشَانَ، وَتُيُوسٍ مَعَ دَسَمِ لُبِّ الحِنْطَةِ، وَدَمَ العِنَبِ شَرِبْتَهُ خَمْرًا.

١٥ فَسَمِنَ يَشُورُونَ وَرَفَسَ. سَمِنْتَ وَغَلُظْتَ وَاكْتَسَيْتَ شَحْمًا! فَرَفَضَ الإِلهَ الَّذِي عَمِلَهُ، وَغَبِيَ عَنْ صَخْرَةِ خَلاَصِهِ.

١٦ أَغَارُوهُ بِالأَجَانِبِ، وَأَغَاظُوهُ بِالأَرْجَاسِ.

١٧ ذَبَحُوا لأَوْثَانٍ لَيْسَتِ اللهَ. لآلِهَةٍ لَمْ يَعْرِفُوهَا، أَحْدَاثٍ قَدْ جَاءَتْ مِنْ قَرِيبٍ لَمْ يَرْهَبْهَا آبَاؤُكُمْ.

١٨ الصَّخْرُ الَّذِي وَلَدَكَ تَرَكْتَهُ، وَنَسِيتَ اللهَ الَّذِي أَبْدَأَكَ.

١٩ فَرَأَى الرَّبُّ وَرَذَلَ مِنَ الغَيْظِ بَنِيهِ وَبَنَاتِهِ.

٢٠ وَقَالَ: أَحْجُبُ وَجْهِي عَنْهُمْ، وَأَنْظُرُ مَاذَا تَكُونُ آخِرَتُهُمْ. إِنَّهُمْ جِيلٌ مُتَقَلِّبٌ، أَوْلاَدٌ لاَ أَمَانَةَ فِيهِمْ.

٢١ هُمْ أَغَارُونِي بِمَا لَيْسَ إِلهًا، أَغَاظُونِي بِأَبَاطِيلِهِمْ. فَأَنَا أُغِيرُهُمْ بِمَا لَيْسَ شَعْبًا، بِأُمَّةٍ غَبِيَّةٍ أُغِيظُهُمْ.

٢٢ إِنَّهُ قَدِ اشْتَعَلَتْ نَارٌ بِغَضَبِي فَتَتَّقِدُ إِلَى الهَاوِيَةِ السُّفْلَى، وَتَأْكُلُ الأَرْضَ وَغَلَّتَهَا، وَتُحْرِقُ أُسُسَ الجِبَالِ.

٢٣ أَجْمَعُ عَلَيْهِمْ شُرُورًا، وَأُنْفِدُ سِهَامِي فِيهِمْ.

٢٤ إِذْ هُمْ خَاوُونَ مِنْ جُوعٍ، وَمَنْهُوكُونَ مِنْ حُمَّى وَدَاءٍ سَامٍّ، أُرْسِلُ فِيهِمْ أَنْيَابَ الوُحُوشِ مَعَ حُمَةِ زَوَاحِفِ الأَرْضِ.

الانتهاك السابع: غطوا آيات الله ﷻ باستخدام آياته ذاتها، فأنكروا الإيمان به، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى: ﴿وَكُفْرِهِم بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾.

وفي سفر التثنية بعد أن بارك الله ﷻ جميع الأسباط:

٣٣: ٢٩ طوباك يا إسرائيل! من مثلك يا شعبًا منصورًا، بالرب ترس عونك، وسيف عظمتك، فيتذلل لك أعداؤك، وأنت تطأ مرتفعاتهم.

ولكنك مثلًا تجد في سفر أشعياء٦٥:

١ أَصْغَيْتُ إِلَى الذِينَ لَمْ يَسْأَلُوا. وُجِدْتُ مِنَ الذِينَ لَمْ يَطْلُبُونِي. قُلتُ: هأَنَذَا، هأَنَذَا. لأُمَّةٍ لَمْ تُسَمَّ بِاسْمِي.

٢ بَسَطْت يَدَيَّ طُولَ النَّهَارِ إِلَى شَعْبٍ مُتَمَرِّدٍ، سَائِرٍ فِي طَرِيق غَيْرِ صَالِحٍ وَرَاءَ أَفْكَارِهِ.

٣ شَعْبٍ يُغِيظُنِي بِوَجْهِي. دَائِمًا يَذْبَحُ فِي الجَنَّاتِ، وَيُبَخِّرُ عَلَى الآجُرِّ.

٤ يَجْلِسُ فِي القُبُورِ، وَيَبِيتُ فِي المدَافِنِ. يَأْكُلُ لَحْمَ الخِنْزِيرِ، وَفِي آنِيَتِهِ مَرَقُ لُحُومٍ نَجِسَةٍ...).

وفي سفر أرميا ٣٢: ٢٨-٢٩: «لِذَلِكَ هَكَذَا قَالَ الرَّبُّ. هَأَنَذَا أَدْفَعُ هَذِهِ المدِينَةَ لِيَدِ الكِلْدَانِيِّينَ، وَلِيَدِ نَبُوخَذ نَصَّرَ مَلِكِ بَابِلَ، فَيَأْخُذُهَا. فَيَأْتِي الكِلْدَانِيُّونَ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ هَذِهِ المدِينَةَ، فَيُشْعِلُونَ هَذِهِ المدِينَةَ بِالنَّارِ، وَيُحْرِقُونَهَا وَالبُيُوتَ الَّتِي بَخَّرُوا عَلَى سُطُوحِهَا لِلْبَعْلِ، وَسَكَبُوا سَكَائِبَ لِآلِهَةٍ أُخْرَى؛ لِيُغِيظُونِي».

وفي سفر الملوك الثاني:

٢١: ١٣ وأمد على أورشليم خيط السامرة، ومطمار بيت أخاب، وأمسح أورشليم كما يمسح واحد الصحن، يمسحه، ويقلبه على وجهه.

٢١: ١٤ وأرفض بقية ميراثي، وأدفعهم إلى أيدي أعدائهم، فيكونون غنيمة، ونهبًا لجميع أعدائهم.

٢١: ١٥ لأنهم عملوا الشر في عيني، وصاروا يغيظونني من اليوم الذي فيه خرج آباؤهم من مصر إلى هذا اليوم.

الانتهاك الثامن: قتلوا الأنبياء بدلًا من تعظيمهم ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى: ﴿وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾.

يذكر الله تعالى مدى الإجرام الذي وصل له هؤلاء القوم، فلم يكتفوا بالكفر بآيات الله حتى تعدوا ذلك إلى قتل الأنبياء بغير حق.. يقتلون من؟ يقتلون أعظم قيادات البشرية إلى الخير والهدى وإعمار الحياتين، وإذا تجرأوا على قتل الأنبياء فإن دماء البشرية عندهم لا تساوي شيئًا، فكيف يؤتمنون على المؤسسات الدولية؟ وما يقتل نبي بحق أبدًا، ولكن الله ذكر هذا القيد ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ قيد توضيحي لبيان الواقع وتبشيعه أي: يمكن أن يكون القتل بحق ولكن المقتول عندما يكون نبيًا يكون قتله بغير حق أصلًا، فهي حال لتقرير الواقع المؤلم الفاسد..

وهنا تجد البقاعي ﷺ يقارن بين قوله تعالى جده: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ (آل عمران: ٢١)، وقوله: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ (آل عمران: ١١٢)، ﴿وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ (آل عمران: ١٨١)، (النساء: ١٥٥) فيرى أن التعبير في الموضعين الأخيرين أبلغ مع جمع الكثرة وتنكير الحق، والتعبير بالمصدر المفهم أبلغ؛ لأن الاجتراء على القتل صار لهم خلقًا وصفة راسخة، بخلاف التعبير بالمضارع الذي ربما دل على العروض[1]، ولكنه ذهل عندما رأى أن هذا التعبير خاص بسورة النساء فقد تقدم مثله في آل عمران كما رأيت.

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٥/ ٤٦٢).

وتجد الأنبياء يذكرون لعتاة بني إسرائيل هذه الفظائع التي اقترفوها، ففي سفر إرميا ٧:

١ اَلْكَلِمَةُ الَّتِي صَارَتْ إِلَى إِرْمِيَا مِنْ قِبَلِ الرَّبِّ قَائِلًا:

٢ «قِفْ فِي بَابِ بَيْتِ الرَّبِّ وَنَادِ هُنَاكَ بِهذِهِ الكَلِمَةِ وَقُلْ: اِسْمَعُوا كَلِمَةَ الرَّبِّ يَا جَمِيعَ يَهُوذَا الدَّاخِلِينَ فِي هذِهِ الأَبْوَابِ لِتَسْجُدُوا لِلرَّبِّ.

٣ هكَذَا قَالَ رَبُّ الجُنُودِ إِلهُ إِسْرَائِيلَ: أَصْلِحُوا طُرُقَكُمْ وَأَعْمَالَكُمْ فَأُسْكِنَكُمْ فِي هذَا المَوْضِعِ.

٤ لاَ تَتَّكِلُوا عَلَى كَلاَمِ الكَذِبِ قَائِلِينَ: هَيْكَلُ الرَّبِّ، هَيْكَلُ الرَّبِّ، هَيْكَلُ الرَّبِّ هُوَ!

٥ لأَنَّكُمْ إِنْ أَصْلَحْتُمْ إِصْلاَحًا طُرُقَكُمْ وَأَعْمَالَكُمْ، إِنْ أَجْرَيْتُمْ عَدْلًا بَيْنَ الإِنْسَانِ وَصَاحِبِهِ.

٦ إِنْ لَمْ تَظْلِمُوا الغَرِيبَ وَاليَتِيمَ وَالأَرْمَلَةَ، وَلَمْ تَسْفِكُوا دَمًا زَكِيًّا فِي هذَا المَوْضِعِ، وَلَمْ تَسِيرُوا وَرَاءَ آلِهَةٍ أُخْرَى لأَذَائِكُمْ.

٧ فَإِنِّي أُسْكِنُكُمْ فِي هذَا المَوْضِعِ، فِي الأَرْضِ الَّتِي أَعْطَيْتُ لآبَائِكُمْ مِنَ الأَزَلِ وَإِلَى الأَبَدِ.

٨ «هَا إِنَّكُمْ مُتَّكِلُونَ عَلَى كَلاَمِ الكَذِبِ الَّذِي لاَ يَنْفَعُ.

٩ أَتَسْرِقُونَ وَتَقْتُلُونَ وَتَزْنُونَ وَتَحْلِفُونَ كَذِبًا وَتُبَخِّرُونَ لِلْبَعْلِ، وَتَسِيرُونَ وَرَاءَ آلِهَةٍ أُخْرَى لَمْ تَعْرِفُوهَا.

١٠ ثُمَّ تَأْتُونَ وَتَقِفُونَ أَمَامِي فِي هذَا البَيْتِ الَّذِي دُعِيَ بِاسْمِي عَلَيْهِ وَتَقُولُونَ: قَدْ أُنْقِذْنَا. حَتَّى تَعْمَلُوا كُلَّ هذِهِ الرَّجَاسَاتِ؟

١١ هَلْ صَارَ هذَا البَيْتُ الَّذِي دُعِيَ بِاسْمِي عَلَيْهِ مَغَارَةَ لُصُوصٍ فِي أَعْيُنِكُمْ؟ هأَنَذَا أَيْضًا قَدْ رَأَيْتُ، يَقُولُ الرَّبُّ.

الانتهاك التاسع: يزعمون أنهم مستغنون عن الوحي الإلهي من جهة لأن قلوبهم أغلفة للعلم، ويسندون جرائمهم إلى الله من جهة أخرى؛ لأن قلوبهم مغلفة خلقًا فلا يصل الهدى إليها، ويُبَصِّرُنا بهذين المعنيين معًا بصورة مبهرة قوله تعالى ذكره: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾.

وهذه الجريمة أعظم من كل جرائمهم السابقة لأنها تصور جرائمهم السابقة والنفسيات المريضة التي لهم من جهتين نستفيدهما من خلال المعنيين اللذين يظهران في كلمة ﴿غُلْفٌ﴾، فهذه الكلمة تبين بصورةٍ معجزة لافتة حقيقتين صارختين تنطوي نفوس هؤلاء القوم عليها:

الحقيقة الأولى: استغناؤهم عن الوحي الإلهي بالعلم الذي عندهم، والأفكار التي ينتجونها لأنفسهم، ويعبر عن هذا المَعْنَى أَنَّهُمْ قَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ، فكلمة ﴿غُلْفٌ﴾ جَمْعُ غِلَافٍ وَالأَصْلُ غُلُفٌ بِتَحْرِيكِ اللَّامِ فَخُفِّفَ بِالتَّسْكِينِ، كَمَا قِيلَ كُتْبٌ وَرُسْلٌ بِتَسْكِينِ التَّاءِ وَالسِّينِ، وَالمَعْنَى أَنَّهَا أَوْعِيَةٌ وأغلفة لِلْعُلُومِ وَالمَعَارِفِ، لَا حَاجَةَ بِنَا إِلَى عِلْمٍ سِوَى مَا عِنْدَنَا تَسْتَفِيدُهُ مِنَ الرَّسُولِ، أَوْ مِنْ غَيْرِهِ، فَكَذَّبُوا الأَنْبِيَاءَ بِهَذَا القَوْلِ، بل تجرأوا على قتلهم، وكما يعكس هذا القول حالة العناد والإجرام والاستكبار والإباء الإبليسي فهو يعكس كذلك مقدار الذكاء والحركة التي يتحركون بها ليضعوا تعليماتٍ وأنظمة تقابل كل ما وجد في الوحي الإلهي.

وهذا يشبه ما قاله بعض الملحدين المتأخرين:

ولو أن ما عندي من العلم والفضل يـوزع في الآفـاق أغنـى عـن الرسل

تعالى الله عن ما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

الحقيقة الثانية: إسنادهم فعل هذه الجرائم إلى الله تعالى، فقالوا: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ أي: لا ذنب لنا؛ لأن قلوبنا خلقت بعيدةً عن فهم ما يقول الأنبياء، لكونها في أغشية، فهي شديدة الصلابة، فكأنهم يعللون إجرامهم وقتلهم الأنبياء بذلك، فكلمة﴿غُلْفٌ﴾ جَمْعُ أَغْلَفَ وَهُوَ المحاط بِالغِلَافِ الذي يمنعه من وصول شيء خارجي إليه، فيزعمون أن قلوبهم لا يمكن لها أن تعي الهدى أو تتبعه كما قالت القوى الوثنية في مكة من قبل: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ (فُصِّلَتْ: ٥).

والجمع بين المعنيين يصور لك هؤلاء القوم المستكبرين، وهم يزعمون عدم قدرتهم على استيعاب الوحي الإلهي بأنه لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، وأن الذي عندهم من الذكاء كافٍ في اختراع علومٍ ومعارفَ تغني عن العلم الإلهي؛ ولعله لذلك نجد عندهم الجرأة على الله واتهامه بالأوصاف غير اللائقة عند متطرفيهم، وأنهم على الرغم من ذلك يظلون شعب الله المختار.

والصحيح أنهم عملوا على إضعاف الإيمان والمؤمنين؛ فزدات قلوبهم ظلمة؛ إذ الازدياد في ممارسة الشر يؤدي إلى أن يعاقبهم الله بالطبع على قلوبهم، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ (النساء:١٥٥):

فهم قد كذبوا لأنهم ولدوا على الفطرة كسائر الأطفال الأبرياء، فلم تكن قلوبهم في الأصل غلفًا، فما الذي حدث؟

لما بلغوا مرحلة التمييز ورأوا أن لهم حرية الاختيار اختاروا الجانب المظلم، فنقضوا العهد وارتكبوا الانتهاك بعد الانتهاك ولم يبالوا بعنادهم، فعاقبهم الله بأن طبع على قلوبهم، ويكون المعنى: «﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ وَكُفۡرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتۡلِهِمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَقَوۡلِهِمۡ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢ﴾ لم نفتح قلوبهم للإيمان ﴿بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ﴾ أي: الذي

له معاقد العز ومجامع العظمة ﴿عَلَيْهَا﴾ طبعًا عارضًا ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ بل إنه خلقها أولًا على الفطرة متمكنةً من اختيار الخير والشر، فلما أعرضوا بما هيأ قلوبهم له من قبول النقض عن الخير، واختاروا الشر باتباع شهواتهم الناشئة من نفوسهم، وترك ما تدعو إليه عقولهم، طبع سبحانه وتعالى عليها»[١]، فجعلها قاسية محجوبة عن رحمته.

والطبع أن تصور الشيء بصورةٍ ما كطبع السكة وطبع الدراهم، وهو أعم من الختم، وأخص من النقش، والطابَع والخاتَم ما يطبع به ويختم، والطابع فاعل ذلك، وقيل للطابع طابع، وذلك كتسمية الفعل إلى الآلة نحو سيف قاطع[٢]، فتحويل الشيء إلى صورة مطابقة للواقع الذي عليه يعني أن هؤلاء طبعت قلوبهم، فصورت لتناسب شرورهم، ولذا سُمِّيتْ سجية الإنسان الطبع والطبيعة؛ فالطَبْعُ: السجيّةُ التي جُبِلَ عليها الإنسان[٣]، فإن ذلك هو نقش النفس بصورة ما إما من حيث الخلقة وإما من حيث العادة، ولهذا قيل:

وتأبى الطباع على الناقل

وطبع الله على قلب المجرم إِحْكَامُ الغَلْقِ على باب المَغْلُوقِ بِحَيْثُ لَا يَنْفُذُ إِلَيْهِ مُسْتَخْرِجُ، كأنه ختم عليه حتى لا يصل إليه هدى ولا نور، فلا يوفق لخير[٤].

والمعنى: صورنا قلوبهم مطبوعة على محبة الشر لما أصروا على الرغبة في

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٥/ ٤٦٣).

(٢) المفردات في غريب القرآن (ص: ٣٠١).

(٣) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٣/ ١٢٥٢).

(٤) مقاييس اللغة (٣/ ٤٣٨)، وفي النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ١١٢): والطَّبْع بالتَّحريك: الدَّنَسُ. وأصلُه مِنَ الوَسَخ والدنَس يَغْشَيان السَّيف. يُقَالُ طَبِعَ السيفُ يَطْبَعُ طَبَعًا. ثُمَّ استُعمِل فِيمَا يُشْبِه ذَلِكَ مِنَ الأوزَارِ والآثامِ وَغَيْرِهِمَا مِنَ المَقَابِحِ، وَمِنْهُ الحَدِيثُ «أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ طَمَع يَهْدي إِلَى طَبَعٍ» أَيْ يُؤَدِّي إِلَى شَيْن وعَيْب.

ذلك، وأحبوا إلا أن يركبوا ظهور الجانب المظلم جانب الفجور في حياتهم، ولذا يقال: هذا طبع الإنسان وسجيته، والورقة التي تضع طابعًا عليها بختمك تصبح محفوظة بمعنى أنه لا يمكن الزيادة فيها أو النقصان.. كذلك قلوبهم لايمكن أن ينفذ إليها خير ولا يمكن أن يخرج منها شر، أي: أغلق عليها وطبع كأنها مختومة، ولذا عملوا على إضعاف الإيمان.

وقوله: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ كلماتٌ مدهشة تصور معلمين في حياتهم:

فيجوز أن يكون استثناء من الناس، أي: فلا يؤمن إلا قليل منهم فالمؤمنون منهم قليل مقارنة بالمعاندين واللاهين والمجرمين، ويجوز أن يكون استثناء من الوحي الإلهي الذي يجب أن يؤمنوا به، أي: فلا يؤمنون إلا بقليل مما يجب أن يؤمنوا به، فكثيرٌ ممن يؤمن إنما يؤمن بالقليل من إرثهم الديني، فيخضعونه لمشيئتهم وأهوائهم.

ولا بد من البحث عن مُتَعَلِّقِ البَاءِ فِي قَوْلِهِ ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم﴾:

فذكر بعضهم أن المتعلق محذوف تقديره: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ وجرائمهم الأخرى استحقوا أسوأ العقوبات الإلهية مما يمكن أن يخطر في بال الإنسان، وَالحَذْفُ أَفْخَمُ لِأَنَّ عِنْدَ الحَذْفِ يَذْهَبُ الوَهْمُ كُلَّ مَذْهَبٍ، وَدَلِيلُ المَحْذُوفِ أَنَّ هَذِهِ الأَشْيَاءَ المَذْكُورَةَ مِنْ صِفَاتِ الذَّمِّ[1].

وتُصَوِّرُ الآيات اشتراك عدة أجيال في هذه الانتهاكات، فالذين أخذتهم الصاعقة كانوا على عهد موسى، والذين قتلوا الأنبياء، والذين رموا مريم بالبهتان العظيم، كانوا بعده، ونجد اعترافهم بذلك.

(١) تفسير الرازي (١١/ ٢٥٨).

ففي سفر نحميا ٩:

٣٢ وَالآنَ يَا إِلهَنَا، الإِلهَ العَظِيمَ الجَبَّارَ المخُوفَ، حَافِظَ العَهْدِ وَالرَّحْمَةِ، لاَ تَصْغُرْ لَدَيْكَ كُلُّ المشَقَّاتِ التِي أَصَابَتْنَا -نَحْنُ، وَمُلُوكَنَا، وَرُؤَسَاءَنَا، وَكَهَنَتَنَا، وَأَنْبِيَاءَنَا، وَآبَاءَنَا، وَكُل شَعْبِكَ-، مِنْ أَيَّامِ مُلُوكِ أَشُّورَ إِلَى هذَا اليَوْمِ.

٣٣وَأَنْتَ بَارٌّ فِي كُلِّ مَا أَتَى عَلَيْنَا؛ لأَنَّكَ عَمِلتَ بِالحَقِّ، وَنَحْنُ أَذْنَبْنَا.

٣٤وَمُلُوكُنَا، وَرُؤَسَاؤُنَا، وَكَهَنَتُنَا، وَآبَاؤُنَا، لَمْ يَعْمَلُوا شَرِيعَتَكَ، وَلاَ أَصْغَوْا إِلَى وَصَايَاكَ، وَشَهَادَاتِكَ، التِي أَشْهَدْتَهَا عَلَيْهِمْ.

الفصل الثاني

أسوأ انتهاكاتهم ضد العالم النصراني

(النساء:١٥٦-١٥٩)

آيات هذا الفصل:

﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ (النساء:١٥٦-١٥٩).

المناسبة والاتصال:

بعد أن ذكر الله انتهاكات متطرفي اليهود في حق أنفسهم والعالم، خص انتهاكاتهم ضد العالم النصراني بالذكر؛ كأن ذلك لإظهار حقيقة تعظيم الإسلام للمسيح عليه السلام، ولتصحيح النظرة المشوشة لدى الرأي العام النصراني حول ذلك، ولعلم الله بمدى الاستغلال البشع الذي سيتعرض له العالم النصراني من قبل التيار المتطرف من اليهود حيث سيستخدمونه مطية لإيقاع الإفساد في الأرض، وسيتعاون المتطرفون في الفريقين في العبث بالتصورات، والأفكار، فذكر الله عددًا من الحقائق يجب أن يعرفها العالم النصراني ليدركوا مقدار تلاعب المتطرفين بهم:

الحقيقة الأولىٰ: كفرهم برسالة المسيح عليه السلام، واتهام أمه الطاهرة بالتهمة الفظيعة، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله جل ذكره: ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴾ (النساء:١٥٦).

ذكر الله هنا كفرهم مجددًا ليبين نفسيتهم الدائمة في تغطية الحقائق، ومن أهم أمور تغطيتهم المدهشة للحقائق الناصعة كفرهم برسالة عيسى عليه السلام، حيث قاموا بتغطية كرامة مريم عليها السلام، وأصروا على عدم نشر المعجزة المتفردة لها حين ولدت عيسى عليه السلام، وليغطوا على هذه المعجزة قالوا على مريم بهتانًا عظيمًا في سبيل كفرهم، ومع إصرارهم على هذا البهتان العظيم وتكريره على أسماع الناس نسي العالم الكرامات التي صاحبت ولادة عيسى عليه السلام، وهنا يأتي الجواب لمساكين الرأي العام النصراني الذين يقولون: كيف ولد عيسى من غير أب بصورة معجزة مما يذكر في القرآن بينما نحن المسيحيون لا نعرف ذلك؟

الجواب: لأن الأصل أن مريم بين قومها اليهود من بني إسرائيل، وهم قد قاموا بتغطية حقائق عظيمة في سبيل القيام بتزوير ديانتهم، ومنحهم المبرر للكفر بعيسى، فلجأوا إلى الحيلة التي زعموا فيها أن مريم أتت الفاحشة، فقالوا على مريم بهتانًا عظيمًا، وَقد وصف الله هذه الجريمة بالبُهْتَان لأنها كَذِبٌ يَبْهَتُ المقول عنه والمقول له أَيْ يُدْهِشُهُ، وَيُحَيِّرُهُ لِبُعْدِهِ عَنْهُ، وَغَرَابَتِهِ عِنْدَهُ، وعدم توقعه، ومدح الله مريم مدحًا عظيمًا لا يستطيع الإنسان أن يصفه بلسانه لولا أن الله أنزله وعلمه إياه فقال جل ذكره: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ (التحريم: ١٢). انظر إلى هذا المدح! أي: جعلت حصنًا عظيمًا منيعًا يحول بينها وبين أن تقع في أي جريمة فكيف يمكن أن تُتَّهَم؟

ولبيان قوة هذه الحقيقة ترى الله جل في علاه عطفَ كلمة ﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾ مَرَّةً ثَانِيَةً عَلَى قَوْلِهِ: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم﴾ (النِّسَاء: ١٥٥) وَلَمْ يَسْتَغْنِ عَنْهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ (النِّسَاء: ١٥٥) وَأُعِيدَ مَعَ ذَلِكَ حَرْفُ الجَرِّ الَّذِي يُغْنِي عَنْهُ حَرْفُ العَطْفِ، وكل هذه الإعادة بيانٌ لكفر جديد، ولمزيد التأكيد على إصرارهم على صنع دين خاص بهم، والكفر بآيات الله مع وضوحها، وهل هناك أوضح من أن يتكلم طفلٌ

في المهد بما يبين براءة أمه، والمعجزة في إرساله.. إلا أنهم يصرون على هذا الكفر، ويتواطأون على إخفاء هذه المعجزة الواضحة، وَنَظِيرُ هَذَا التَّكْرِيرِ قَوْلُ لَبِيدٍ:

فَتَنَازَعَا سَبِطًا يَطِيرُ ظِلَالُهُ كَدُخَانِ مُشْعَلَةٍ يَشِبُّ ضِرَامُهَا
مَشْمُولَةٍ غُلِثَتْ بِنَابِتِ عَرْفَجٍ كَدُخَانِ نَارٍ سَاطِعٍ أَسْنَامُهَا

فَأَعَادَ التَّشْبِيهَ بِقَوْلِهِ: (كَدُخَانِ نَارٍ) [١]، وليحقق معنى ثانيًا غير التأكيد، وهو التنويع في الكفر، فقد «تَكَرَّرَ الكُفْرُ مِنْهُمْ لِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِمُوسَى ثُمَّ بِعِيسَى ثُمَّ بِمُحَمَّدٍ- صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ- فَعُطِفَ بَعْضُ كُفْرِهِمْ عَلَى بَعْضٍ» كما يقول الزمخشري، وَنَظِيرُهُ قَوْلُ عُوَيْفٍ القَوَافِيِّ:

اللؤم أَكْرَمُ مِنْ وَبْرٍ وَوَالِدِهِ وَاللُّؤْمُ أَكْرَمُ مِنْ وَبْرٍ وَمَا وَلَدَا [٢]

وانظر في هذه المسالة؛ فإن البهتان العظيم تكرر مرتين ليبين جريمتين متشابهتين، فذكر هنا في معرض الإجرام في حق مريم عليها السلام، وَكَذَلِكَ وَصَفَ

(١) التحرير والتنوير (٦/ ١٨)، وفي شرح المعلقات السبع للزوزني (ص: ١٨٤): السَّبْط: الممتد الطويل، كدخان مشعلة أي نار مشعلة، والضرام: دقائق الحطب، واحدها ضَرَم وواحد الضرم ضَرَمة، أي تجاذب العير، والأتان في عدوهما نحو الماء غبارًا ممتدًا طويلًا كدخان نار موقدة تشعل النار في دقاق حطبها، وتلخيص المعنى: أنه جعل الغبار الساطع بينهما بعدوهما كثوب يتجاذبانه، ثم شبهه في كثافته وظلمته بدخان نار موقدة.

ومشمولة: هبت عليها ريح الشمال، وقد شمل الشيء أصابته ريح الشمال. الغلت، والعلث: الخلط، والفعل غلث يغلث، بالغين والعين جميعًا. النابت: الغض، والعرفج: ضرب من الشجر، ويروى: عُلِيت بنابت، أي: وضع فوقها. الأسنام: جمع سنام، ويروى: بثابت أسنامها، وهو الارتفاع والرفع جميعًا.

يقول: هذه النار قد أصابتها الشّمال وقد خلطت بالحطب اليابس والرطب الغض كدخان نار قد ارتفع أعاليها، وسنام الشيء أعلاه، شبه الغبار الساطع من قوائم العير والأتان بنار أوقدت بحطب يابس تسرع فيه النار وحطب غض، وجعلها كذلك ليكون دخانها أكثف فيشبه الغبار الكثيف، ثم جعل هذا الدخان الذي شبه الغبار به كدخان نار قد سطع أعاليها في الاضطرام والالتهاب ليكون دخانه أكثر.

(٢) التحرير والتنوير (٦/ ١٨).

طَعْنَ الْمُنَافِقِينَ فِي عَائِشَةَ بِأَنَّهُ بُهْتَانٌ عَظِيمٌ حَيْثُ قَالَ: ﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ (النُّورِ: ١٦) فهل ذلك إلا لأن الَّذِينَ يَطْعَنُونَ فِي عَائِشَةَ بِمَنْزِلَةِ اليَهُودِ الذين يطعنون في مريم عليهما السلام [١].

مهلًا: أتريد دليلًا قويًا على وقوع معجزة واضحة في خلق عيسى عليه السلام: إن كان عصاة بني إسرائيل زعموا أن مريم عليها السلام فعلت تلك الجريمة، فما الذي منعهم من أن يطبقوا حكم التوراة فيرجموها؟

ففي سفر التثنية٢٢:

٢٣ إِذَا كَانَتْ فَتَاةٌ عَذْرَاءُ مَخْطُوبَةً لِرَجُل، فَوَجَدَهَا رَجُلٌ فِي المَدِينَةِ وَاضْطَجَعَ مَعَهَا.

٢٤ فَأَخْرِجُوهُمَا كِلَيْهِمَا إِلَى بَابِ تِلْكَ المَدِينَةِ وَارْجُمُوهُمَا بِالحِجَارَةِ حَتَّى يَمُوتَا. الفَتَاةُ مِنْ أَجْلِ أَنَّهَا لَمْ تَصْرُخْ فِي المَدِينَةِ، وَالرَّجُلُ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ أَذَلَّ امْرَأَةَ صَاحِبِهِ. فَتَنْزِعُ الشَّرَّ مِنْ وَسَطِكَ.

الحكم واضحٌ في حق مريم التي يزعمون أن يوسف النجار قد خطبها وهو فوق التسعين عامًا!.. الحكم حسب التوراة هو الرجم.. فما الذي منع بني إسرائيل أن يقيموا عقوبة التوراة على مريم عليها السلام مع كره عُصاتهم لها؟

لا يوجد أمرٌ مقبول يفسر ذلك إلا أن تكون معجزة حالت بينهم وبين تنفيذ الحكم، والمعجزة معروفة عندنا: إنها كلام المسيح عليه السلام في المهد لكن المسيحيين المؤمنين إيمانًا نيقاويًا يأبون ذكر هذه المعجزة؛ لأنهم لو اعترفوا بهذه المعجزة لاعترفوا بالكلام الذي قاله عيسى عليه السلام في المهد، وهو يهدم خرافاتهم..

---

(١) تفسير الرازي (١١/ ٢٥٩).

لقد قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ الْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ (مريم: ٣٠) لقد أخبر بأنه عبد الله وليس ابن الله ولا هو الله.. حمى الله بهذه المعجزة مريم عليها السلام من أن تُقام عليها العقوبة التوراتية الشديدة مع شدة تغيظ عصاة بني إسرائيل منها.

الحقيقة الثانية: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ﴾ (النساء:١٥٧)، تبصرنا الآية بأن الجريمة التي اقترفها عصاة بني إسرائيل ليست قتل عيسىٰ عليه السلام؛ إذ لم يستطيعوا ذلك، بل الجريمة زعم القتل، وترويج هذا البهتان علىٰ العالم؛ حيث صنع منه المنحرفون عقيدة فاسدة، وانظر كيف يؤكد القرآن علىٰ أن الذي زعم أنه قتل المسيح عليه السلام هم عصاة اليهود ليلفت نظر النصارىٰ إلىٰ أن مصدرهم في هذه العقيدة كذاب، فكيف يصدقون كذابًا؟.

لاحظ التعبير القرآني الذي يحمل الحنو التعليمي للنصارى: ﴿وَقَوْلِهِمْ﴾ لقد بين الله جل جلاله أن الذي زعم أنه قتل المسيح هم متطرفو اليهود.. كيف يصدقهم النصارى إذن؟ كيف يأتمن النصارى كذابي اليهود على أهم عقيدة يتكلم عنها النصارى، وهي عقيدة قتل المسيح وصلبه؟ ربما قالوا لك: هذا مكتوب في الكتاب المقدس.. فمن كتبه.. فليخبرونا؟

حسب العهد الجديد فإن أتباع المسيح عليه السلام لم يشاهدوا تلك الأحداث، فهم قد هربوا حسب الإنجيل الموجود الآن .

أما قوله في إنجيل يوحنا١٩:

٢٥ وَكَانَتْ وَاقِفَاتٍ عِنْدَ صَلِيبِ يَسُوعَ، أُمُّهُ، وَأُخْتُ أُمِّهِ مَرْيَمُ زَوْجَةُ كِلُوبَا، وَمَرْيَمُ المَجْدَلِيَّةُ.

٢٦ فَلَمَّا رَأَى يَسُوعُ أُمَّهُ، وَالتِّلْمِيذَ الَّذِي كَانَ يُحِبُّهُ وَاقِفًا، قَالَ لأُمِّهِ: «يَا امْرَأَةُ، هُوَذَا ابْنُكِ.

٢٧ ثُمَّ قَالَ لِلتِّلْمِيذِ: «هُوَذَا أُمُّكَ». وَمِنْ تِلْكَ السَّاعَةِ أَخَذَهَا التِّلْمِيذُ إِلَى خَاصَّتِهِ.

فإنك أولًا تعجب من أسلوب المسيح في خطاب أمه.. وثانيًا: إن كانت أمه فعلت فعلًا عظيمًا حسب عقيدة اليهود لماذا لم يطالبوا برجمها كما طالبوا بقتل عيسى كما جاء في يوحنا ١٩:

٦ فَلَمَّا رَآهُ رُؤَسَاءُ الكَهَنَةِ وَالخُدَّامُ صَرَخُوا قَائِلِينَ: «اصْلِبْهُ! اصْلِبْهُ!». قَالَ لَهُمْ بِيلاَطُسُ: «خُذُوهُ أَنْتُمْ وَاصْلِبُوهُ، لأَنِّي لَسْتُ أَجِدُ فِيهِ عِلَّةً»

٧ أَجَابَهُ اليَهُودُ: «لَنَا نَامُوسٌ، وَحَسَبَ نَامُوسِنَا يَجِبُ أَنْ يَمُوتَ، لأَنَّهُ جَعَلَ نَفْسَهُ ابْنَ اللهِ».

ومن أين علم يوحنا أن التلميذ والثلاث النساء كانوا هناك مع أن إنجيل يوحنا كتب بعد نحو قرنٍ من الزمان؟ فأين الشهود، فمن الشهود الذين يمكن الاعتماد على شهاداتهم، **حتى يقول يوحنا١٩:**

٣٥ وَالَّذِي عَايَنَ شَهِدَ، وَشَهَادَتُهُ حَقٌّ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ يَقُولُ الحَقَّ لِتُؤْمِنُوا أَنْتُمْ.

ومن هؤلاء الثلاث جاءت مريم المجدلية لترى قبره بعد ثم لما قام لم تعرفهن فكيف تقبل شهادتها إذن.. اسمع إلى يوحنا٢٠:

١٤ وَلَمَّا قَالَتْ هذَا التَفَتَتْ إِلَى الوَرَاءِ، فَنَظَرَتْ يَسُوعَ وَاقِفًا، وَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّهُ يَسُوعُ.

١٥ قَالَ لَهَا يَسُوعُ: «يَا امْرَأَةُ، لِمَاذَا تَبْكِينَ؟ مَنْ تَطْلُبِينَ؟» فَظَنَّتْ تِلْكَ أَنَّهُ البُسْتَانِيُّ، فَقَالَتْ لَهُ: «يَا سَيِّدُ، إِنْ كُنْتَ أَنْتَ قَدْ حَمَلْتَهُ فَقُلْ لِي أَيْنَ وَضَعْتَهُ، وَأَنَا آخُذُهُ».

وأما تلاميذ المسيح ﷺ فقد فروا وأنكروه، ففي إنجيل مرقس١٤:

٤٨ فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُمْ: «كَأَنَّهُ عَلَى لِصٍّ خَرَجْتُمْ بِسُيُوفٍ وَعِصِيٍّ لِتَأْخُذُونِي!

٤٩ كُلَّ يَوْمٍ كُنْتُ مَعَكُمْ فِي الهَيْكَلِ أُعَلِّمُ وَلَمْ تُمْسِكُونِي! وَلكِنْ لِكَيْ تُكْمَلَ الكُتُبُ».

٥٠ فَتَرَكَهُ الجَمِيعُ وَهَرَبُوا.

٥١ وَتَبِعَهُ شَابٌّ لاَبِسًا إِزَارًا عَلَى عُرْيِهِ، فَأَمْسَكَهُ الشُّبَّانُ.

٥٢ فَتَرَكَ الإِزَارَ وَهَرَبَ مِنْهُمْ عُرْيَانًا.

وبعد هذا التحليل المدهش لا تجد من أثبت قتل المسيح عليه السلام إلا أعداؤه من متطرفي اليهود، فكيف يمكن لنا وللنصارى تصديق روايتهم، وهنا تدرك سر هذا التعبير المعجز في بيان هذه الحقيقة: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾.

وقوله: ﴿رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ تصور لنا مجموعة من الصور الصحيحة من خلال معانيها التي تكتنزها:

الصورة الأولى: القائلون هم فرقة من اليهود المعادين للمسيح عليه السلام قَالُوا ذلك عَلَى وَجْهِ الِاسْتِهْزَاءِ، وهم لا يؤمنون برسالته، وذلك كَقَوْلِ فِرْعَوْنَ: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ (الشُّعَرَاءِ: ٢٧)، وَكَقَوْلِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ (الحِجْرِ: ٦)، وَقَوْلِ أَهْلِ مَدْيَنَ لِشُعَيْبٍ: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ (هود: ٨٧).

الصورة الثانية: القائلون فرقةٌ أخرى من فرق اليهود المعادين للمسيح قالوا ذلك على سبيل الإقرار برسالته، وعلى الرغم من إقرارهم برسالته إلا إنهم يباهون بأنهم قتلوه على طريقة المستكبرين من مجرمي بني آدم الذي يعارضون أمر ربهم إن لم

يَرُقْ لهم، كما حدث من إبليس عندما عارض أمر ربه، وهذه الفرقة موجودة، وقد قتلت عددًا من الأنبياء.

الصورة الثالثة: القائل هو الله جل ذكره حيث وضع الذِّكْرَ الحَسَنَ مَكَانَ ذِكْرِهِمُ القَبِيحَ فِي الحِكَايَةِ عَنْهُمْ رَفْعًا لِعِيسَى عليه السلام عَمَّا كَانُوا يَذْكُرُونَهُ بِهِ، فنصب ﴿رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ عَلَى المَدْحِ، أَوْ الِاخْتِصَاصِ لِلْإِشَارَةِ إِلَى فَظَاعَةِ عَمَلِهِمْ، وَدَرَجَةِ جَهْلِهِمْ، وَشَنَاعَةِ زَعْمِهِمْ [1]، وتضمن ذلك إفشاء حقيقة يصر بعض متعصبي النصارى أن يغمضوا أعينهم عنها، وهي أن عيسى إنما ادعى الرسالة لا الألوهية، بمعنى أنهم لما قالوا: قتلنا المسيح عيسى بن مريم لم يقولوا رسول الله، وإنما ذموه فوضع الله سبحانه وتعالى المدح مكان الذم، وفيه أيضا رد على أتباع عيسى الذين يعتبرون أنفسهم أتباعًا له وهم يرفعونه فوق مكانته، وفي إِنْجِيلِ يُوحَنَّا (٣:١٧ وَهَـذِهِ هِيَ الحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ: أَنْ يَعْرِفُوكَ أَنْتَ الإِلَهُ الحَقِيقِيُّ وَحْدَكَ، وَيَسُوعَ المَسِيحَ الَّذِي أَرْسَلْتَهُ).

الصورة الرابعة: أشار إليه بعضهم وهو أن رسول الله المخاطب بها هو النبي صلى الله عليه وآله وسلم، أي: كأن الله يحكي لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم جرائمهم فيقول إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم يا رسول الله.

وقوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾ أي والحال أنهم ما قتلوه، ولم يؤكد هذه الحقيقة بمؤكدات لفظية لظهورها وبيانها عند المؤمنين بعيسى في وقته، والمؤمنين به على الحقيقة بعد وقته.

ما سبب ذكر هاتين الجريمتين؟ لأنه يترتب على عدم معرفتهما صنع دين جديد للنصارى لا يشعرون بأنه يغير معالم دينهم الأصلي؛ فإن بعض النصارى اخترع لنفسه دينًا جديدًا ألَّه فيه عيسى عليه السلام، ولذلك قال الله: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ

(١) تفسير الرازي (١١/ ٢٦٠)، تفسير المنار (٦/ ١٦).

رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ (النساء: ١٥٧)، ثم إن الله تعالى ردَّ هذا الافتراء، وهو زعم أنهم قتلوا المسيح، وذكر عددًا من الحقائق في الرد على متطرفي اليهود ومتعصبيهم في نشر الأفكار التي ساعدت على تحريف النصرانية.

الحقيقة الثالثة: ﴿وَمَا صَلَبُوهُ﴾.

وهنا نجد بيانًا عامًا للعالم النصراني ولبقية العالم عنوانه: إليكم حقيقة ما حدث للمسيح عليه السلام، وبيان هذه الحقائق من أهم ما يجب على المسلمين، وهو حق من أعظم حقوق العالم النصراني علينا؛ حتى يدركوا مقدار تلاعب محرفي اليهود بدينهم، ومقدار تواطؤ قياداتهم الدينية على إبقاء هذا التلاعب، ومن تلاعب بدينه سهل عليه أن يقيم الأكاذيب في التعامل مع العالم.

أي: أن الصلب لم يقع، ونفاه الله أيضًا لأمرين: أنه دون القتل، فقد يقال: لم يقتل لكنه صلب، فنفى الله ذلك، وفي أكثر التاريخ النصراني يصرون على أن أعداءه صلبوه، وبعضهم قالوا: قتلوه، ثم زعموا أنه دفن ثم قام، وعقيدة الصلب هي التي أقيم عليها البناء المتطاول لكثير من الفرق التي حرفت النصرانية بعد ذلك.

ونفى الله الصلب.. فكيف أقامت جماعةٌ كبيرةٌ في العالم عقيدتها على أمرٍ وهمي، فجعلت الصليب رمزًا مقدسًا عندها، مع أنك تجد أن الصليب رمزٌ مقدسٌ عند عدد من الديانات الوثنية قبل المسيحية المعاصرة، والمسيحية التي مجدت الصليب على الحقيقة أسسها مجمع نيقيا سنة ٣٢٥م، ولذلك ينسب إليه الإيمان النيقاوي، أما قبل ذلك فكان الصراع بين الموحدين الذي يقولون: إن عيسى رسول الله وليس بإله وبين غيرهم الذين حاولوا أن يؤلهوا عيسى عليه السلام، وظل الصراع قائمًا حتى حسمه قسطنطين الوثني في عام ٣٢٥ ميلادية عندما جمع رؤوس النصارى وأراد أن يستقر ملكه، وقيل: إنه لم يدخل النصرانية بعد، وقيل: قد دخل قبلها بهنيهة، وإلا

فالأصل أنه كان وثنيًّا، فأراد أن تستقر مملكته وألا تحدث الصراعات بين الوثنيين الرومان الذي ينتسبون إلى مملكته من جهة وبين المسيحيين الذين ينتسبون لمملكته، وكذلك ألا تستمر النزاعات بين النصارى أنفسهم، فانتصر للفرقة التي قررت صلب عيسى وتأليهه، وإلى ذلك الوقت لم يكن هؤلاء الذين انتصروا وغلبوا على أمرهم في مجمع نيقية يعبدون إلا اثنين (الأب والابن)، حتى جاء مجمع القسطنطينية في عام ٣٨١ وأضاف الأقنوم الثالث الذي يسمى روح القدس ليكتمل الثلاثي المسيحي يتبعون فيه التثليث الهندوسي والفرعوني.

وترى الوضوح القرآني في نفي عقيدة الصلب، لماذا؟ لأن النصارى بصورةٍ غريبةٍ مدهشة جعلوا الصلب هو أساس العقائد، بدلًا من أن يجعلوا التوحيد أساس العقائد، ثم أقاموا له أساسًا مع أنه لا يوجد له سند حتى في (الكتاب المقدس)، فماذا صنعوا ليجدوا له أساسًا؟

فزعموا أن آدَمَ لَمَّا عَصَى اللهَ -تَعَالَى- بِالأَكْلِ مِنَ الشَّجَرَةِ استحوذت عليه وذريته الخطيئة الأصلية فصاروا مُسْتَحِقِّينَ لِلْعِقَابِ، فإن كان آدم أذنب، فما ذنب ذريته؟ وما ذنب عيسى ليُضحى به؟ هنا أنشأوا هذه العقيدة الخطيرة: عقيدة الخطيئة الأصلية، وزعموا فيها أن خطيئة آدم انتقلت منه إلى ذريته، مع أنك لا تجد إشارة لمثل هذه الهرطقة في العهد القديم، وبذا زعموا أن كل مولود يولد حاملًا لخطيئة آدم عليه السلام، ولعل من أوائل من قرر ذلك القديس أوغسطينوس في القرن الرابع الميلادي فقال: «لقد ولدت لكي تتحمل الضربات لأن ولادتك من آدم الذي حقت له الضربات» ثم بحثوا له عن أدلة في الكتاب المقدس، فلم يجدوا إلا أدلة غير صريحة يطرقها التأويل مثل ما جاء في (رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية ٥: ١٢): مِنْ أَجْلِ ذلِكَ كَأَنَّمَا بِإِنْسَانٍ وَاحِدٍ دَخَلَتِ الخَطِيَّةُ إِلَى العَالَمِ، وَبِالخَطِيَّةِ المَوْتُ، وَهكَذَا اجْتَازَ المَوْتُ إِلَى

جَمِيعِ النَّاسِ، إِذْ أَخْطَأَ الجَمِيعُ.

حسبك أن هذا زعموه من الكتاب المقدس، وهو باتفاقهم بعد ذهاب عيسى عليه الصلاة والسلام، كما استدلوا على ذلك.

وفي سفر المزامير ٥١: ٥: هأَنَذَا بِالإِثْمِ صُوِّرْتُ، وَبِالخَطِيَّةِ حَبِلَتْ بِي أُمِّي.

وفيه **٥٨:٣**: زاغ الأشرار من الرحم ضلّوا من البطن متكلمين كذبًا

هكذا استدلوا على هذه العقيدة الغريبة التي لا تجدها عند غيرهم من الأديان.

قارن هذا الاعوجاج المدهش في الفهم مع المبدأ القرآني للمسؤولية الفردية، الذي ذكره الله في هذه السورة المباركة: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (النساء:١٢٣-١٢٤)، فبين أن الإنسان مسؤول عن عمله الصالح أو السيء، وفتح باب التوبة للمذنبين غير المتلاعبين، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ...﴾ (النساء:١٧).

ومن أعجب الظن، ونبذ العلم: أن يلفقوا التلفيق الثاني بعد عقيدة الخطيئة الأصلية.. إنها عقيدة الفداء.. وهي عقيدة قامت على التلفيق المتعلق بقصة الصلب من أجل الافتداء لتحقيق الخلاص من الخطيئة الأصلية.. غرهم في دينهم ما كانوا يفترون، مع أن الأناجيل الموجودة الآن تبين أن عيسى رغب إلى ربه -الذي يزعم بعضهم أنه هو نفسه-.. رغب إلى ربه أن يعفيه من الصلب، والقتل، وخاف من الموت.

فَفِي مَتَّى ٢٦: ٣٧ ثُمَّ أَخَذَ مَعَهُ بُطْرُسَ، وَابْنَي زَبْدَى، وَابْتَدَأَ يَحْزَنُ، وَيَكْتَئِبُ (٣٨)

فَقَالَ لَهُمْ: نَفْسِي حَزِينَةٌ جِدًّا؛ حَتَّى الـمَوْتِ، امْكُثُوا هُنَا، وَاسْهَرُوا مَعِي (٣٩) ثُمَّ تَقَدَّمَ قَلِيلًا، وَخَرَّ عَلَى وَجْهِهِ، وَكَانَ يُصَلِّي قَائِلًا: يَا أَبَتَاهُ، إِنْ أَمْكَنَ، فَلْتَعْبُرْ عَنِّي هَذِهِ الكَأْسَ، وَلَكِنْ لَيْسَ كَمَا أُرِيدُ أَنَا، بَلْ كَمَا تُرِيدُ أَنْتَ، فَمَضَى أَيْضًا ثَانِيَةً، وَصَلَّى قَائِلًا: يَا أَبَتَاهُ، إِنْ لَمْ يُمْكِنْ أَنْ تَعْبُرَ عَنِّي هَذِهِ الكَأْسَ، إِلَّا أَنْ أَشْرَبَهَا، فَلْتَكُنْ مَشِيئَتُكَ.

وفي بقايا الوحي الموجود في الإنجيل، تجد المبدأ ذاته، **ففي إنجيل متى** الحث على الاستعداد، والعمل، وليس الاتكال على التضحية الـمزعومة لعيسى عن البشر٢٥:

١ حينئذ يشبه ملكوت السماوات عشر عذارى، أخذن مصابيحهن، وخرجن للقاء العريس٢ وكان خمس منهن حكيمات، وخمس جاهلات ٣ أما الجاهلات: فأخذن مصابيحهن، ولم يأخذن معهن زيتًا ٤ وأما الحكيمات: فأخذن زيتًا في آنيتهن مع مصابيحهن. ٥ وفيما أبطا العريس، نعسن جميعهن، ونمن. ٦ ففي نصف الليل صار صراخ: هو ذا العريس مقبل، فاخرجن للقائه. ٧ فقامت جميع أولئك العذارى، وأصلحن مصابيحهن ٨ فقالت الجاهلات للحكيمات: أعطيننا من زيتكن، فإن مصابيحنا تنطفئ. ٩ فأجابت الحكيمات قائلات: لعله لا يكفي لنا، ولكن بل اذهبن إلى الباعة، وابتعن لكن. ١٠ وفيما هن ذاهبات ليبتعن، جاء العريس، والـمستعدات دخلن معه إلى العرس، وأغلق الباب ١١ أخيرًا جاءت بقية العذارى أيضا قائلات: يا سيد، يا سيد، افتح لنا. ١٢ فأجاب وقال: الحق أقول لكن: إني ما أعرفكن.

وفي إنجيل متى:

٢٢: ٢ يشبه ملكوت السماوات إنسانًا ملكًا صنع عرسًا لابنه.

٢٢: ٣ وأرسل عبيده ليدعوا الـمدعوين إلى العرس، فلم يريدوا أن يأتوا.

٢٢: ٤ فأرسل أيضا عبيدًا آخرين قائلًا: قولوا للمدعوين: هو ذا غذائي أعددته، ثيراني، ومسمناتي قد ذُبِحت، وكل شيء معد، تعالوا إلى العرس.

٢٢: ٥ ولكنهم تهاونوا، ومضوا: واحد إلى حقله، وآخر إلى تجارته.

٢٢: ٦ والباقون أمسكوا عبيده، وشتموهم، وقتلوهم.

٢٢: ٧ فلما سمع الملك غضب، وأرسل جنوده، وأهلك أولئك القاتلين، وأحرق مدينتهم.

٢٢: ٨ ثم قال لعبيده: أما العرس فمستعد، وأما المدعوون فلم يكونوا مستحقين.

٢٢: ٩ فاذهبوا إلى مفارق الطرق، وكل من وجدتموه، فادعوه إلى العرس.

٢٢: ١٠ فخرج أولئك العبيد إلى الطرق، وجمعوا كل الذين وجدوهم -أشرارًا وصالحين-، فامتلأ العرس من المتكئين.

٢٢: ١١ فلما دخل الملك لينظر المتكئين، رأى هناك إنسانًا، لم يكن لابسًا لباس العرس.

٢٢: ١٢ فقال له: يا صاحب، كيف دخلت إلى هنا وليس عليك لباس العرس، فسكت.

٢٢: ١٣ حينئذ قال الملك للخدام: اربطوا رجليه ويديه، وخذوه، واطرحوه في الظلمة الخارجية، هناك يكون البكاء، وصرير الأسنان.

الحقيقة الرابعة: ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾.

أي: وقع التشبيه للعامة في حال عيسى عليه السلام؛ فلم يستطع أعداؤه قتله ولا صلبه، ولم يتمكنوا من القبض عليه، فأحضروا للعامة من شبهوه به ليزعموا أنهم قتلوه

وصلبوه، ثم شبه متأخرو أتباعه القصة على العامة، ونسجوا منها خرافاتهم العقدية:

هذه الجملة تحكي بدقة ما حدث في اللحظات الأخيرة لرفع عيسى عليه السلام، وتراني لخصت المعنى الواضح منها.

فقوله: ﴿شُبِّهَ لَهُمْ﴾ يحتمل أن عيسى هو الذي شُبِّهَ، ويحتمل أن الحادث ذاته هو الذي شُبِّه لهم.. والذي شَبَّه لهم عيسى عليه السلام وشبه لهم حادث القتل والصلب وأنه وقع على عيسى عليه السلام هم المتآمرون المشتركون من عصاة بني إسرائيل والجنود الرومان خشية أن يعلم الناس أنهم لم يستطيعوا الإمساك بعيسى فتزداد معجزاته.. هذا الذي أميل إليه في معناها البين، وحادثة القتل والصلب يحتمل أنها وقعت وهو الأغلب ولكن على شخصٍ آخر غير عيسى عليه السلام، ويحتمل أن هذا الحادث أُذيع خبرٌ عنه ليصدقه العامة، ولتشتبه عليهم الحقائق، وعلى الاحتمالين فإن عيسى عليه السلام لم يُقتل ولم يُصلب، بل رُفِع، ويغلب على ظني أن هناك من رآه رُفِع، كما يغلب على ظني أنه أخبرهم بعدم قدرتهم على قتله، لكنه لما رُفِع خشي المتآمرون عليه من اليهود والرومان أن يزداد الناس به فتنة، فرتبوا لأمرٍ يظهرون به أنهم أمسكوه وقتلوه وصلبوه، وعندها تصف الآية بدقةٍ مدهشةٍ كيف اختلف العالم الذي كان حاضرًا في موضوع صلبه وقتله ورفعه، ثم من جاء بعدهم فدرجوا على الاختلاف ذاته، وهذه هي الحقيقة الخامسة:

الحقيقة الخامسة: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾ (النساء:١٥٧).

فهذه الحقيقة تدل على أن حادثة الصلب والقتل لم تكونا متيقنتين، وأن هناك من عرف الحقيقة، إلا أن جهاتٍ عملت على إخفاء حقيقة رفع عيسى عليه السلام، كما عملت على إخفاء تكلمه في المهد، فذكر الله هنا شكًا، وظنًا، وغلبة ظن، وكلها

خِلَافُ اليَقِينِ، إذ لم تقم دولة في عهد عيسى عليه السلام ولا كانت لأتباعه صولة وتشتت أتباعه، وضاعت حقيقة ما حدث في وسط الأقوال المختلفة التي يقر النصارى ذاتهم بوجودها، والآن انظر إلى التعبير القرآني في هذا الموضع يصور لك عددًا من الأفكار حول الواقع النصراني واليهودي في معرفة حقيقة ما حدث لعيسى عليه الصلاة والسلام، فيبين الله -تعالى ذكره- أن الذين اختلفوا فيه من أعداء عيسى عليه السلام، ومن أتباعه المتأخرين تفرقوا شيعًا في حقيقة ما حدث له في عهده وبعد عهده عليه السلام بين: شاكٍّ في قتله وصلبه، وظانٍّ، وهي درجة أعلى من الشك، ومن غلب على ظنه وقوع ذلك لكنه لم يصل إلى درجة اليقين.. اسمع إلى الآية: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾، فهذه على فِرَقٍ:

فالفرقة الأولى: غرقت في دائرة الشك مما حدث له كما قال الله تعالى شأنه: ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾، ومعنى ذلك أن من العامة والخاصة مَنْ شَكَّ في وقوع ذلك الحادث بناءً على مقتضياتٍ واضحةٍ تجعلهم يشكون، فيرجحون عدم وقوع القتل والصلب، فالشك يَدُلُّ عَلَى التَّدَاخُلِ في الأجسام والحقائق والمعاني، فلا تتمايز، فالشك مقابل الظن واليقين:

ومِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ شَكَكْتُهُ بِالرُّمْحِ، وَذَلِكَ إِذَا طَعَنْتَهُ فَدَاخَلَ السِّنَانُ جِسْمَهُ، كما قَالَ عنترة:

فَشَكَكْتُ بِالرُّمْحِ الأَصَمِّ ثِيَابَهُ لَيْسَ الكَرِيمُ عَلَى القَنَا بِمُحَرَّمِ

وَيَكُونُ هَذَا مِنَ النَّظْمِ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ إِذَا شُكَّا، وَمِنْ هَذَا البَابِ الشَّكُّ، الَّذِي هُوَ خِلَافُ اليَقِينِ، إِنَّمَا سُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّ الشَّاكَّ كَأَنَّهُ شُكَّ لَهُ الأَمْرَانِ فِي مَشَكٍّ وَاحِدٍ، وَهُوَ لَا يَتَيَقَّنُ وَاحِدًا مِنْهُمَا، فالشَّكُّ: نقيض اليَقِين، وَمِنَ البَابِ الشِّكَّةُ، وَهُوَ مَا يَلْبَسُهُ الإِنْسَانُ مِنَ السِّلَاحِ، يُقَالُ هُوَ شَاكٌّ فِي السِّلَاحِ. وَإِنَّمَا سُمِّيَ السِّلَاحُ شِكَّةً لِأَنَّهُ يُشَكُّ

بِهِ، أَوْ لِأَنَّهُ كَأَنَّهُ شُكَّ بَعْضُهُ فِي بَعْضٍ، أي: حدث له التداخل [١]، والشك اعتدال النقيضين عند الإنسان وتساويهما، وذلك قد يكون لوجود أمارتين متساويتين عند النقيضين، أو لعدم الأمارة فيهما، والشك ربما كان في الشيء هل هو موجودٌ أو غير موجود وربما كان في جنسه، وربما كان في بعض صفاته وربما كان في الغرض الذي لأجله أوجد، والشك ضرب من الجهل وهو أخص منه لأن الجهل قد يكون عدم العلم بالنقيضين رأسًا فكل شك جهل وليس كل جهل شكًّا[٢]، فَهُوَ نَحْوٌ مِنْ مَعْنَى الجَهْلِ، وَعَدَمِ اسْتِبَانَةِ مَا يَجُولُ فِي الذِّهْنِ مِنَ الأَمْرِ، قَالَ الرَّكَّاضُ الدَّبِيرِيُّ:

يَشُكُّ عَلَيْكَ الأَمْرُ مَا دَامَ مُقْبِلًا وَتَعْرِفُ مَا فِيهِ إِذَا هُوَ أَدْبَرَا

فَجَعَلَ المَعْرِفَةَ فِي مُقَابَلَةِ الشَّكِّ. وَقَالَ ابْنُ الأَحْمَرِ:

وَأَشْيَاءٌ مِمَّا يَعْطِفُ المَرْءَ ذَا النُّهَى تَشُكُّ عَلَى قَلْبِي فَمَا أَسْتَبِينُهَا[٣]

ويظهر لي أن الشك يدل على انتظام رأيين متداخلين إما متساويين وإما أحدهما أضعف من الآخر كشك الثياب في حبل مشترك، أو شك الرمح في الجسد، وبذا يكون الشك دالًا على ضعف الرأي في جانب مقابل قوته في الجانب الآخر.

ومعنى ذلك أن هناك فئة مقابلة تيقنت أنه لم يحدث له القتل ولا الصلب، وهناك فئة غلب على ظنها أنه لم يحدث له ذلك، فانظر كيف جمعت الآية ذلك كله في أوجز كلام.

والفرقة الثانية: انتابها الظن بأنه قد حدث له القتل والصلب، حيث قال الله جل ثناؤه: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ فهذه مرتبة الظن وهي أعلى من الشك، فهؤلاء

(١) تهذيب اللغة (٩/ ٣١٦)، مقاييس اللغة (٣/ ١٧٣)، المفردات في غريب القرآن (ص: ٢٦٥).

(٢) المفردات في غريب القرآن ت كيلاني (ص: ٢٦٥).

(٣) تفسير المنار (٦/ ١٦).

فئة أخرى من العامة والخاصة ظهرت لهم ملابسات تجعلهم يظنون أن حادث القتل والصلب وقع كأن يؤتى بشخص يشبه عيسى ويجري إخفاء ملامحه ثم يصلب ثم يُسرَع في إنزاله ودفنه في مكانٍ غير معلوم، وهذا الظن مذموم لأنه ليس ظنًّا قائمًا على مقدماتٍ علمية حقيقية بل على عدم علمٍ وتصديقٍ لمن لا يستحق التصديق:

والظن يطلق على العلم، كما قال دريد بن الصمَّة:

فقلت لهم ظُنُّوا بألفَيْ مُدَجَّجٍ سَراتُهُم في الفارسيِّ المُسَرَّدِ

أي: استيقِنوا. وإنَّما يخوِّف عدوَّه باليقين لا بالشك[١]، ويطلق الظن على الشك، وعلى ما هو أعلى من الشك مما لا يدل على علم مع القدرة على تحصيل العلم، وهو النوع المذموم من وسائل المعرفة، وفيه قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الحَدِيثِ»[٢] لكن أغلب إطلاقاته يكون فيما يقابل العلم، وهو المراد هنا لأنه قد ذكر الشك قبله، ولكنه ظَنٌّ مذمومٌ؛ لأن أصحابه لم يبذلوا الجهد للوصول إلى العلم الصحيح مع إمكانية ذلك.

الفرقة الثالثة: غلب على ظنها وقوع حادثة الصلب لكنها لم تتيقن ولا قتلت المسألة بحثًا لتصل إلى اليقين، ويُبَصِّرُنا الله بها في قوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ (النساء: ١٥٧).

فقوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ يُبَصِّرُنا بفرقة بحثت فغلب على ظنها وقوع الحادثة لكنها لم تبلغ مرتبة اليقين بل وصلوا إلى غلبة الظن، فلم يقتلوه بحثًا، وهذه المرتبة تتعلق بالقسس والباحثين النصارى الذين كانوا في عهده ولم يعرفوا الحقيقة إلا ما تم الترويج له عند الرأي العام، كما تجري هذه المرتبة على من جاء بعد من القسس

(١) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٦/ ٢١٦٠).

(٢) البخاري – ترقيم فتح الباري (٤ / ٥) رقم ٥١٤٣ .

والباحثين فإنهم لم يقتلوا الأمر بحثًا ليجدوا الحقيقة اليقينية بل إنهم يعتزون بالتقليد الأعمى وكفى.

فاليَقِينُ اسْمُ مَصْدَرٍ، وَالمَصْدَرُ اليَقَنُ بِالتَّحْرِيكِ، يُقَالُ: يَقِنَ كَفَرِحَ يَيْقَنُ يَقَنًا، وَهُوَ مَصْدَرٌ قَلِيلُ الِاسْتِعْمَالِ، وَيُقَالُ: أَيْقَنَ يُوقِنُ إِيقَانًا، وَهُوَ الشَّائِعُ [1]، واليقين هو العِلْمُ الجَازِمُ الَّذِي لَا يَحْتَمِلُ الشَّكَّ، فلا يتداخل فيه أمران أو أكثر لصلابة وضوح الحقيقية فيه، فهي متميزة بوضوح لدرجة عدم دخول غيرها فيها، ولقوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ ثلاثة معانٍ:

المعنى الأول والثاني: بجعل كلمة الضمير في ﴿قَتَلُوهُ﴾ عائدًا إلى عيسى عليه السلام، والمعنى: وما قتله الذين زعموا أنهم قتلوه متيقنين قتله، بل هم قطعًا لم يقتلوه وعلموا ذلك، ولكنهم أوهموا الناس بأنهم قتلوه، وكان معهم آخرون من رؤسائهم وغيرهم سمعوا بوقوع قتلٍ دون أن يتيقنوا من المقتول لعدم تمكنهم من رؤيتهم له، ويصلح هذا المعنى في أنهم لما رأوا رفع عيسى عليه السلام أسرعوا فهيأوا غيره لإيهام من حولهم، فهؤلاء تيقنوا من عدم قتله، فهم لم يقتلوه جزمًا، ومثلهم المؤمنون الذين رأوا ارتفاعه من بين أيديهم، وأما البقية من سادات القتلة وبقية الرأي العام فما تيقنوا من قتله لأن المنفذين أخبروهم بخبرٍ لم يتحققوا منه، ولا بد أنه بقي من المؤمنين من تيقن بارتفاعه، وتكلموا عن ذلك.

المعنى الثالث: بجعل الضمير في ﴿قَتَلُوهُ﴾ عائدًا إلى العلم، فيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ القَتْلُ مُسْتَعْمَلًا مَجَازًا فِي التَّمَكُّنِ مِنَ الشَّيْءِ وَالتَّغَلُّبِ عَلَيْهِ كَقَوْلِهِمْ: قَتَلَ الخَمْرَ إِذَا مَزَجَهَا حَتَّى أَزَالَ قُوَّتَهَا، وَقَوْلِهِمْ: قَتَلَ أَرْضًا عَالِمُهَا، وَمِنْ شِعْرِ «الحَمَاسَةِ» فِي بَابِ الهِجَاءِ:

يَرُوعُكَ مِنْ سَعِدِ بْنِ عَمْرٍو جُسُومُهَا وَتَــزْهَـدُ فِيـهَا حِـينَ تَقْتُلُهَا خُبْرَا

(١) التحرير والتنوير (٦/ ٢٢).

وَقَول الشَّاعِر:

كَذَلِك تُخْبِرُ عَنْهَا العَالِمَاتُ بِهَا وَقَدْ قَتَلْتُ بِعِلْمِي ذَلِكُمْ يَقَنًا

وَقَوْلِ الآخَرِ:

قَتَلَتْنِيَ الأَيَّامُ حِينَ قَتَلْتُهَا خُبْرًا فَأُبْصِرُ قَاتِلًا مَقْتُولًا

وهذا كقول الرجل للرجل:«ما قتلت هذا الأمر علمًا، وما قتلته يقينًا»، إذا تكلَّم فيه بالظن على غير يقين علم. فـ«الهاء» في قوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾، عائدة على «الظن»[1].

أي لم يقتلوا المسألة بحثًا ليحققوا ويصلوا إلى اليقين فيعلموا هل قتل عيسى أم رفع.

فهذه مرتبة تخبر عنهم أنهم لم يقوموا بالبحث الدقيق حول حادثة مقتله وصلبه، ومن بحث لم يبلغ مرتبة اليقين بل وصل عندهم إلى غلبة الظن، فلم يقتلوه بحثًا ليتأكدوا فيصلوا إلى مرتبة اليقين، وهذه المرتبة تتعلق بالقسس والباحثين النصارى الذين كانوا في عهده ولم يعرفوا الحقيقة إلا ما تم الترويج له عند الرأي العام، كما تجري هذه المرتبة على من جاء بعد من القسس والباحثين فإنهم لم يقتلوا الأمر بحثًا ليجدوا الحقيقة اليقينية بل إنهم يعتزون بالتقليد الأعمى وكفى.

وبذا ترى أن قوله جل ذكره: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾ يدل على أن الذين اختلفوا في عيسى في شك من عيسى فالضميران عائدان إلى عيسى عليه السلام، ويمكن أن يقال: إن الذين اختلفوا في حادث القتل والصلب في شك منه.

فهم طوائف اختلفوا فيه: فمنهم من زعم أنه إله، وهم في شك من ذلك، ومنهم

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٣٧٧)، تفسير الرازي (١١/ ٢٦٢)، التحرير والتنوير (٦/ ٢٣)

من زعم أنه ابن الإله، وهم في شك من ذلك، ومن اليهود من كذبه، وهم في شك من تكذيبه، فالشك عائد إلى اعتقادهم فيه، ومنهم من هو في شكٍّ من قتله وصلبه، فظنهم أن ذلك لم يقع، ومنهم من ظن أن القتل والصلب وقع، ولكن لا يوجد عندهم أدلة يقينية، وظنهم هذا جاء دون أن يبحثوا المسألة ويقتلوها بحثًا ليتأكدوا من اليقين.

كما تصور هذه الآية أن بعض تلاميذه شك في حقيقة المأخوذ هل هو عيسى أم غيره فكيف غيرهم، وهذا الكلام ثابت في إنجيل متى، وإنجيل مرقس، ولنأخذ ذلك من إنجيل مرقس:

١٤: ٢٧ وقال لهم يسوع: إن كلكم تشكون فيَّ في هذه الليلة؛ لأنه مكتوبٌ أني أضرب الراعي، فتتبدد الخراف.

١٤: ٢٨ ولكن بعد قيامي، أسبقكم إلى الجليل.

١٤: ٢٩ فقال له بطرس: وإن شك الجميع، فأنا لا أشك.

١٤: ٣٠ فقال له يسوع: الحق أقول لك: إنك اليوم في هذه الليلة قبل أن يصيح الديك مرتين، تنكرني ثلاث مرات،

وتحقق ما قاله لهم، فقد أنكره بطرس ثلاث مرات، كما في إنجيلي متى، ومرقس.

وكلهم ما لهم به من علم إلا اتباع الظن، فَإِذَا كَانَتْ أَنَاجِيلُهُمْ لَا تَزَالُ نَاطِقَةً بِأَنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّ تَلَامِيذَهُ وَأَعْرَفَ النَّاسِ بِهِ يَشُكُّونَ فِيهِ فِي ذَلِكَ الوَقْتِ، وَخَبَرُهُ صَادِقٌ قَطْعًا، فَهَلْ يُسْتَغْرَبُ اشْتِبَاهُ غَيْرِهِمْ وَشَكُّ مَنْ دُونَهُمْ فِي أَمْرِهِ، وَقَدْ صَارَتْ قِصَّتُهُ رِوَايَةً تَارِيخِيَّةً مُنْقَطِعَةَ الإِسْنَادِ؟![1].

وبناء على هذا الشك افترق النصارى أنفسهم إلى فرق متعددة، مثل: النُّسْطُورِيَّةُ،

(١) تفسير المنار (٦/ ١٧).

وَالمَلْكَانِيَّةُ، وَاليَعْقُوبِيَّةُ.

فبعضهم زعم أَنَّ المَسِيحَ صُلِبَ مِنْ جِهَةِ نَاسُوتِهِ لا من جهة لاهوته، وبعضهم زعم أن القَتْل وَالصَّلْب وَصَلَا إِلَى اللَّاهُوتِ بِالإِحْسَاسِ وَالشُّعُورِ لَا بِالمُبَاشَرَةِ.. ونحو ذلك من الفلسفات التي كانوا يجتمعون عليها ثم يتنازعون فيها، ثم يضمر بعضهم لبعض العداوة والبغضاء، ويكفر بعضهم بعضًا من أجلها.

ومما يدلك على ما قررتُه من أن الله أبقى من المؤمنين من رأوا أن المسيح لم يُصلب، أن المنكرين للصلب من النصارى فرقٌ معروفة، فقد أَنْكَرَ الصَّلْبَ مِنْهُمْ فِرْقَةُ السِّيرِنثِيِّينَ، وَالتَّاتْيَانُوسِيِّينَ أَتْبَاعُ تَاتْيَانُوسَ تِلْمِيذِ يُوسْتِينُوسَ الشَّهِيدِ، وَقَالَ فُوتْيُوسُ: إِنَّهُ قَرَأَ كِتَابًا يُسَمَّى: «رِحْلَةُ الرُّسُلِ» فِيهِ أَخْبَارُ بُطْرُسَ، وَيُوحَنَّا، وَأَنْدَرَاوِسْ، وَتُومَا، وَبُولُسْ، وَمِمَّا قَرَأَهُ فِيهِ: «أَنَّ المَسِيحَ لَمْ يُصْلَبْ، وَلَكِنْ صُلِبَ غَيْرُهُ، وَقَدْ ضَحِكَ بِذَلِكَ مِنْ صَالِبِيهِ.. أَلَّفَ سَلْسُوسُ مِنْ عُلَمَاءِ الوَثَنِيِّينَ فِي القَرْنِ الثَّانِي لِلْمِيلَادِ كِتَابًا فِي إِبْطَالِ الدِّيَانَةِ النَّصْرَانِيَّةِ قَالَ فِيهِ كَمَا نَقَلَ عَنْهُ أَكْهَارِنْ مِنْ عُلَمَاءِ أَلْمَانْيَةَ مَا تَرْجَمَتُهُ: « بَدَّلَ النَّصَارَى أَنَاجِيلَهُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، أَوْ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ، بَلْ أَكْثَرَ مِنْ هَذَا تَبْدِيلًا، كَأَنَّ مَضَامِينَهَا بُدِّلَتْ»[1].

ويدلك على ضياع الحقيقة واتباع الظن تحريم المجامع المسكونية الأولى لقراءة ما عدا الأناجيل الأربعة، فلو كان هناك يقين فلم يحرمون ذلك؟ وقارن هذا مع الروايات التي عندنا التي تذكر أن هناك من حاول أن يكتب الوحي القرآني على غير ما هو، فإنك تجد روايات تدل على ذلك، ولا ترى معها إلا قرآنًا واحدًا.

وَفِي كُتُبِهِمْ أَنَّ الفِرْقَةَ الأَبْيُونِيَّةَ مِنْ فِرَقِ النَّصَارَى فِي القَرْنِ الأَوَّلِ لِلْمِيلَادِ كَانَتْ تُصَدِّقُ إِنْجِيلَ مَتَّى وَحْدَهُ وَتُنْكِرُ مَا عَدَاهُ، وَلَكِنْ كَانَ ذَلِكَ الإِنْجِيلُ مُخَالِفًا لِإِنْجِيلِ

(١) تفسير المنار (٦/ ٢٩).

مَتَّى الَّذِي ظَهَرَ بَعْدَ ظُهُورِ قُسْطَنْطِينَ، وَأَنَّ الفِرْقَةَ المَارَسْيُونِيَّةَ مِنْ فِرَقِ النَّصَارَى القَدِيمَةِ كَانَتْ تَأْخُذُ بِإِنْجِيلِ لُوقَا، وَكَانَتِ النُّسْخَةُ الَّتِي تُؤْمِنُ بِهَا مُخَالِفَةً لِلْمَوْجُودَةِ الآنَ، وَكَانَتْ تُنْكِرُ سَائِرَ الأَنَاجِيلِ، وَهِيَ عِنْدَهُمْ مِنَ المُبْتَدَعَةِ، وَفِي رِسَالَةِ بُولِسْ إِلَى أَهْلِ غِلَاطْيَةَ مَا نَصُّهُ (١: ٦ إِنِّي أَتَعَجَّبُ أَنَّكُمْ تَنْتَقِلُونَ هَكَذَا سَرِيعًا عَنِ الَّذِي دَعَاكُمْ بِنِعْمَةِ المَسِيحِ إِلَى إِنْجِيلٍ آخَرَ لَيْسَ هُوَ آخَرَ، غَيْرَ أَنَّهُ يُوجَدُ قَوْمٌ يُزْعِجُونَكُمْ، وَيُرِيدُونَ أَنْ يُحَوِّلُوا إِنْجِيلَ المَسِيحِ) هَكَذَا فِي تَرْجَمَةِ البُرُوتِسْتَانْتِ الأَخِيرَةِ (يُحَوِّلُوا) وَفِي التَّرْجَمَةِ القَدِيمَةِ الَّتِي نَقَلَ عَنْهَا كَثِيرُونَ « يُحَرِّفُوا » وَفِي تَرْجَمَةِ الجِزْوِيتْ « يَقْلِبُوا » وَالمَعَانِي مُتَقَارِبَةٌ تَدُلُّ كُلُّهَا عَلَى أَنَّهُ كَانَ فِي عَهْدِ بُولِسْ قَوْمٌ يَدْعُونَ النَّاسَ إِلَى إِنْجِيلٍ غَيْرِ الَّذِي يَدْعُو هُوَ إِلَيْهِ، وَمَعْنَى كَوْنِهِ غَيْرَهُ أَنَّهُمْ حَرَّفُوهُ، أَوْ قَلَبُوهُ حَتَّى صَارَ كَأَنَّهُ إِنْجِيلٌ آخَرُ، وَكَمَا اعْتَرَفَ بُولِسْ بِهَذَا اعْتَرَفَ بِأَنَّهُ كَانَ يُوجَدُ فِي عَصْرِهِ رُسُلٌ كَذَّابُونَ غَدَّارُونَ فِي رِسَالَتِهِ الثَّانِيَةِ إِلَى أَهْلِ كُورِنْثِيُوسَ فَقَالَ: (١١:١٣) لِأَنَّ مِثْلَ هَؤُلَاءِ رُسُلٌ كَذَبَةٌ فَعَلَةٌ مَاكِرُونَ مُغَيِّرُونَ شَكْلَهُمْ إِلَى رُسُلِ المَسِيحِ (١٤) وَلَا عَجَبَ لِأَنَّ الشَّيْطَانَ يُغَيِّرُ شَكْلَهُ إِلَى مَلَاكِ نُورٍ (١٥) فَلَيْسَ عَظِيمًا إِذَا كَانَ خُدَّامُهُ أَيْضًا يُغَيِّرُونَ شَكْلَهُمْ كَخُدَّامٍ لِلْبِرِّ)، وَبِرْنَابَا يَقُولُ فِي أَوَّلِ إِنْجِيلِهِ: إِنَّ بُولِسْ نَفْسَهُ كَانَ مِنَ الَّذِينَ بَشَّرُوا بِتَعْلِيمٍ جَدِيدٍ غَيْرِ تَعْلِيمِ المَسِيحِ [1].

وأؤكد هنا على أن رفع عيسى عليه السلام شوهد من قبل بعضهم، وتم نقله فيما يظهر لي كما نُقل حديثه في المهد، وكان ذلك سببًا في بداية اختلافهم في طبيعة المسيح عليه السلام، ثم جاءت الروايات المزيفة لتخبر عن قتله وصلبه وقبره وقيامته، ولتحاول إسدال الستار عن تكلمه في المهد.

وينقل الرازي رحمه الله مثل هذا المعنى لجملة ﴿شُبِّهَ لَهُمْ﴾ إذ تدل على أن المشبه

(١) تفسير المنار (٦/ ٣٠).

لهم هم العامة قام بالتشبيه عليهم متطرفو بني إسرائيل (ولعل معهم الرومان) لئلا يظهر عيسى بمظهر المنتصر عليهم، حيث قرر أصحاب هذا الرأي بأنَّهم لَمَّا قَصَدُوا قَتْلَهُ رَفَعَهُ اللَّه تَعَالَى إِلَى السَّمَاءِ، فَخَافَ رُؤَسَاءُ اليَهُودِ مِنْ وُقُوعِ الفِتْنَةِ مِنْ عَوَامِّهِمْ، فَأَخَذُوا إِنْسَانًا وَقَتَلُوهُ وَصَلَبُوهُ وَلَبَّسُوا عَلَى النَّاسِ أَنَّهُ المَسِيحُ، فشبهوا ذلك على العوام ثم أخفوا الجثة، وأخفوا معالم دفنه ليشبهوه لهم؛ ليشوهوا القصة على العامة[1]، ولئلا تظهر للعامة معجزة جديدة من معجزات عيسى عليه الصلاة والسلام، وهذا المعنى يظل محتملًا، ويشبه ما قرره الطاهر حيث قال: «وَلَيْسَ ثَمَّةَ شَبِيهٌ بِعِيسَى وَلَكِنَّ الكَذِبَ فِي خَبَرِهِ شَبِيهٌ بِالصِّدْقِ، وَاللَّامُ عَلَى هَذَا لَامُ الأَجَل: أَي لَيْسَ الخَبَرُ كَذِبُهُ بِالصِّدْقِ لِأَجْلِهِمْ، أَيْ لِتَضْلِيلِهِمْ، أَيْ أَنَّ كُبَرَاءَهُمُ اخْتَلَقُوهُ لَهُمْ لِيُبَرِّدُوا غَلِيلَهُمْ مِنَ الحَنَقِ عَلَى عِيسَى إِذْ جَاءَ بِإِبْطَالِ ضَلَالَاتِهِمْ. أَوْ تَكُونُ اللَّامُ بِمَعْنَى - عَلَى - لِلِاسْتِعْلَاءِ المَجَازِيِّ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ (الإسْرَاء: ٧). وَنُكْتَةُ العُدُولِ عَنْ حَرْفِ - عَلَى - تَضْمِينِ فِعْلِ شُبِّهَ مَعْنَى صُنِعَ، أَيْ صَنَعَ الأَحْبَارُ هَذَا الخَبَرَ لِأَجْلِ إِدْخَالِ الشُّبْهَةِ عَلَى عَامَّتِهِمْ»[2].

ولعل الإخفاء للجثة زاد التشبيه على العامة، وجرأ بعضهم على القول بأن عيسى إله، ولعل رفعه كان مشاهدًا ممن نقل شيئًا من ذلك، وكانت تلك بداية تجرؤ الجهلة والغلاة ليفتروا على عيسى الكذب، ويجعلوا من عيسى إلهًا.

ولكن المفسرين ﷺ حاولوا البحث عن الكيفية التفصيلية للتشبيه، فأوردوا فيها معانيَ تحتمل التشبيه ونقلوا قصصًا متناقضة متهافتة المعنى، ليس لهم فيها مصدر إلا نقل أهل الكتاب المشوش أصلًا في هذه القضية، فلنشر إلى أبرزها:

(١) تفسير الرازي (١١/ ٢٦٠).

(٢) التحرير والتنوير (٦/ ٢١).

المعنى الأول: شبه لهم عيسى عليه السلام بغيره فافتداه غيره، أي: لم يقتلوه ولم يصلبوه، ولكن القتل والصلب وقع على من ضحى بنفسه لأجل عيسى عليه السلام فاشتبه عليهم الحادث، وعلى من بعدهم، وأرى هذا الخبر مدخولًا، ولا ينبغي الركون إليه، وإنما ذكرته لبيان الأقوال في الأمر:

فقال وهب بن منبه: أُتِي عيسى ومعه سبعة عشر من الحواريين في بيت، وأحاطوا بهم. فلما دخلوا عليهم صوَّرهم الله كلهم على صورة عيسى، فقالوا لهم: سحرتمونا! لتبرزنّ لنا عيسى أو لنقتلنكم جميعًا! فقال عيسى لأصحابه: من يشتري نفسه منكم اليوم بالجنة؟ فقال رجل منهم: أنا! فخرج إليهم، فقال: أنا عيسى وقد صوّره الله على صورة عيسى، فأخذوه فقتلوه وصلبوه. فمن ثَمَّ شُبِّه لهم، وظنوا أنهم قد قتلوا عيسى، وظنت النصارى مثل ذلك أنه عيسى، ورفع الله عيسى من يومه ذلك [(١)]، فإلقاء الشبه هنا مدحٌ لمن شُبِّه به عيسى عليه السلام، ومثل ذلك ورد عن قتادة قال: ألقي شبهه على رجل من الحواريين فقتل. وكان عيسى بن مريم عرض ذلك عليهم، فقال: أيكم ألقي شبهي عليه، وله الجنة؟ فقال رجل: عليَّ [(٢)].

ورجَّح هذا المعنى إمام الدنيا الطبري رحمه الله، وأنا -وعزة ربي- لا أرى صحته.. وكيف أرى ذلك، وخلاصته أن الله ألقى الشبه على واحدٍ من تلاميذ عيسى عليه السلام لحمايته، فإن كان الأمر كذلك فكيف يمكن أن يكلف الناس بما لا يعرفون؟ كيف يكلفون بإنكار قتله، وصلبه، وهم يرون صورته أمامهم؟ وتبين بقية الآية أنهم ما كانوا متأكدين من كون المصلوب عيسى، بل بعضهم: شك، وبعضهم ظن، وبعض غير واثق ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا﴾ (النساء: ١٥٧).

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٣٦٨).

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٣٧٠).

المعنى الثاني: الذي وقع عليه الشبه ليس المضحي بل الواشي:

وذلك في رواية لوهب ناقضت السابقة، فبين أن رجلًا من أصحابه وشى به حيث قال وهبٌ: إن عيسى ابن مريم عليه السلام لما أعلمه الله أنه خارج من الدنيا، جزع من الموت وشقَّ عليه، فدعا الحواريِّين فصنع لهم طعامًا، فقال: احضروني الليلة، فإن لي إليكم حاجة. فلما اجتمعوا إليه من الليل، عشَّاهم وقام يخدمهم. فلما فرغوا من الطعام أخذ يغسل أيديهم ويوضِّئهم بيده، ويمسح أيديهم بثيابه، فتعاظموا ذلك وتكارهوه، فقال: ألا مَن ردَّ علي شيئًا الليلة مما أصنع، فليس مني ولا أنا منه! فأقرُّوه، حتى إذا فرغ من ذلك قال: أمَّا ما صنعت بكم الليلة، مما خدمتكم على الطعام وغسلت أيديكم بيدي، فليكن لكم بي أسوة، فإنكم ترون أنّي خيركم، فلا يتعظَّم بعضكم على بعض، وليبذل بعضكم لبعض نفسه، كما بذلت نفسي لكم. وأما حاجتي التي استعنتكم عليها، فتدعون لي الله وتجتهدون في الدعاء: أن يؤخِّر أجلي. فلما نَصَبوا أنفسهم للدعاء وأرادوا أن يجتهدوا، أخذهم النوم حتى لم يستطيعوا دعاءً. فجعل يوقظهم ويقول: سبحان الله! ما تصبرون لي ليلة واحدة تعينوني فيها! قالوا: والله ما ندري ما لنا! لقد كنا نسمر فنكثر السَّمَر، وما نطيق الليلة سمرًا، وما نريد دعاء إلا حيل بيننا وبينه! فقال: يُذْهَب بالراعي وتتفرق الغنم! وجعل يأتي بكلام نحو هذا ينعَى به نفسه. ثم قال: الحقَّ، ليكفرنَّ بي أحدكم قبل أن يصيح الديك ثلاث مرات، وليبيعنِّي أحدكم بدراهم يسيرة، وليأكلن ثمني! فخرجوا فتفرقوا، وكانت اليهود تطلبه، فأخذوا شمعون أحد الحواريين، فقالوا: هذا من أصحابه! فجحد وقال: ما أنا بصاحبه! فتركوه، ثم أخذه آخرون فجحد كذلك. ثم سمع صوت ديك فبكى وأحزنه، فلما أصبح أتى أحدُ الحواريين إلى اليهود فقال: ما تجعلون لي إن دللتكم على المسيح؟ فجعلوا له ثلاثين درهمًا، فأخذها ودلَّهم عليه. وكان شبَّه عليهم قبل

ذلك، فأخذوه فاستوثقوا منه، وربطوه بالحبل، فجعلوا يقودونه ويقولون له: أنت كنت تحيي الموتى، وتنتهر الشيطان، وتبرئ المجنون، أفلا تنجّي نفسك من هذا الحبل؟! ويبصقون عليه، ويلقون عليه الشوك، حتى أتوا به الخشبة التي أرادوا أن يصلبوه عليها، فرفعه الله إليه، وصلبوا ما شبِّه لهم، فمكث سبعًا. ثم إنّ أمَّه والمرأة التي كان يداويها عيسى فأبرأها الله من الجنون، جاءتا تبكيان حيث المصلوب، فجاءهما عيسى فقال: علام تبكيان؟ قالتا: عليك! فقال: إني قد رفعني الله إليه، ولم يصبني إلا خير، وإن هذا شيء شبِّه لهم، فأَمَرَا الحواريين أن يلقوني إلى مكان كذا وكذا. فلقوه إلى ذلك المكان أحد عشر. وفقَد الذي كان باعه ودلَّ عليه اليهود، فسأل عنه أصحابه، فقالوا: إنه ندم على ما صنع، فاختنق وقتل نفسه. فقال: لو تابَ لتابَ الله عليه! ثم سألهم عن غلام يتبعهم يقال له: يُوحَنَّا. فقال: هو معكم، فانطلقوا، فإنه سيصبح كلّ إنسان منكم يحدِّث بلغة قوم، فلينذِرْهم وَلْيدعهم [1].

فالتشبيه لهم أي للجنود ومتعصبة اليهود الذين حاولوا أخذ عيسى عليه السلام.

وهذه القصة فيها من عدم الإقناع ما في الأولى، وإنما ذكرتها لاستكمال الأقوال لا غير.

والذي أُلقيَ الشبه عليه هو يهوذا الذي خانه على رواية برنابا، حيث أمر الله جبريل، وميخائيل، ورفائيل، وأوريل سفراءه، أن يأخذوا يسوع من العالم، فحملوه، ووضعوه في السماء الثالثة، في صحبة الملائكة، والأناجيل الأربعة المعتمدة اشتهر في علم النقد النصوصي أنها كتبت بعد المسيح بمدة، والتناقضات تملؤها، ولكنك عندما تأتي إلى إنجيل برنابا الذي لا تعترف به الكنيسة تجده يروي آخر ما حدث

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٣٦٨).

لعيسى على الأرض بصورةٍ مختلفة فهو يقول:

الفصل الخامس عشر بعد المئتين:

ولما دنت الجنود مع يهوذا من المحل الذي كان فيه يسوع سمع يسوع دنو جم غفير، فلذلك انسحب الى البيت خائفًا، وكان الأحد عشر نيامًا، فلما رأى الله الخطر على عبده أمر جبريل وميخائيل ورفائيل وأوريل سفراءه أن يأخذوا يسوع من العالم، فجاء الملائكة الأطهار وأخذوا يسوع من النافذة المشرفة على الجنوب، فحملوه ووضعوه في السماء الثالثة في صحبة الملائكة التي تسبح الله إلى الأبد.

الفصل السادس عشر بعد المئتين:

ودخل يهوذا بعنف إلى الغرفة التي أصعد منها يسوع، وكان التلاميذ كلهم نيامًا، فأتى الله العجيب (لعله يعني العظيم) بأمر عجيب، فتغير يهوذا في النطق وفي الوجه فصار شبهًا بيسوع حتى أننا اعتقدنا أنه يسوع، أما هو فبعد أن أيقظنا أخذ يفتش لينظر أين كان المعلم، لذلك تعجبنا وأجبنا: أنت يا سيد هو معلمنا، أنسيتنا الآن؟ أما هو فقال متبسمًا: هل أنتم أغبياء حتى لا تعرفوا يهوذا الاسخريوطي، وبينما كان يقول هذا: دخلت الجنود وألقوا أيديهم على يهوذا لأنه كان شبيهًا بيسوع من كل وجه، أما نحن فلما سمعنا قول يهوذا ورأينا جمهور الجنود هربنا كالمجانين، ويوحنا الذي كان ملتفًا بملحفة من الكتان استيقظ وهرب، ولما أمسكه جندي بملحفه الكتان ترك ملحفة الكتان وهرب عريانًا؛ لأن الله سمع دعاء يسوع وخلص الأحد عشر من الشر.

ويبين ابن عباس ﷺ أنه منذ ذلك التاريخ بدأ الخلاف في تحديد طبيعة عيسى عليه السلام، وذكر قصة تشبه قصة وهب الأولى التي ذكر فيها تضحية بعض تلاميذه بإلقاء الشبه عليه ثم قال: فَأُلْقِيَ عَلَيْهِ شَبَه عِيسَى وَرُفِعَ عِيسَى مِنْ رَوْزَنَة فِي البَيْتِ إِلَى السَّمَاءِ. قَالَ: وَجَاءَ الطَّلَبُ مِنَ اليَهُودِ فَأَخَذُوا الشَّبَهَ فَقَتَلُوهُ، ثُمَّ صَلَبُوهُ وَكَفَرَ بِهِ

بَعْضُهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ مَرَّةً، بَعْدَ أَنْ آمَنَ بِهِ، وَافْتَرَقُوا ثَلَاثَ فِرَقٍ، فَقَالَتْ طَائِفَةٌ: كَانَ اللَّهُ فِينَا مَا شَاءَ ثُمَّ صَعِدَ إِلَى السَّمَاءِ. وَهَؤُلَاءِ اليَعْقُوبِيَّةُ، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: كَانَ فِينَا ابْنُ اللَّهِ مَا شَاءَ، ثُمَّ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ. وَهَؤُلَاءِ النُّسْطُورِيَّةُ، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: كَانَ فِينَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ مَا شَاءَ، ثُمَّ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ. وَهَؤُلَاءِ المُسْلِمُونَ، فَتَظَاهَرَتِ الكَافِرَتَانِ عَلَى المُسْلِمَةِ، فَقَتَلُوهَا، فَلَمْ يَزَلِ الإِسْلَامُ طَامِسًا حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ (١).

وعندي نظر في تفاصيل هذه الرواية، وفي تقسيم الفرق النصرانية، والشأن في صحتها أيضًا، وحال صحتها؛ فقد تكون خبرًا منقولًا عن أهل الكتاب، فلا يقبل إلا بشروط، كما أن ظاهره يخالف قول الله جل جلاله: ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ (الصف: ١٤).

ولكن التشبيه الوارد في آية النساء دال على أن الاختلاف بينهم في طبيعة عيسى عليه السلام، وما حدث له وقع مبكرًا.

وعندما تراجع الأناجيل الموضوعة ترى أن بعضها يشير إلى واقعة التشبيه ففي إنجيل يوحنا ترى أن مريم المجدلية التي تعرف عيسى جيدًا اشتبه عليها بعد حادثة الصلب المزعومة حتى ظنته البستاني، فاسمع لذلك:

١١ أَمَّا مَرْيَمُ فَكَانَتْ وَاقِفَةً عِنْدَ القَبْرِ خَارِجًا تَبْكِي. وَفِيمَا هِيَ تَبْكِي انْحَنَتْ إِلَى القَبْرِ.

١٢ فَنَظَرَتْ مَلاَكَيْنِ بِثِيَابٍ بِيضٍ جَالِسَيْنِ وَاحِدًا عِنْدَ الرَّأْسِ وَالآخَرَ عِنْدَ الرِّجْلَيْنِ، حَيْثُ كَانَ جَسَدُ يَسُوعَ مَوْضُوعًا.

١٣ فَقَالاَ لَهَا: «يَا امْرَأَةُ، لِمَاذَا تَبْكِينَ؟» قَالَتْ لَهُمَا: «إِنَّهُمْ أَخَذُوا سَيِّدِي، وَلَسْتُ

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٤٩)، وقال ابن كثير: وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ.

أَعْلَمُ أَيْنَ وَضَعُوهُ».

١٤ وَلَمَّا قَالَتْ هذَا التَفَتَتْ إِلَى الوَرَاءِ، فَنَظَرَتْ يَسُوعَ وَاقِفًا، وَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّهُ يَسُوعُ.

١٥ قَالَ لَهَا يَسُوعُ: «يَا امْرَأَةُ، لِمَاذَا تَبْكِينَ؟ مَنْ تَطْلُبِينَ؟» فَظَنَّتْ تِلْكَ أَنَّهُ البُسْتَانِيُّ، فَقَالَتْ لَهُ: «يَا سَيِّدُ، إِنْ كُنْتَ أَنْتَ قَدْ حَمَلْتَهُ فَقُلْ لِي أَيْنَ وَضَعْتَهُ، وَأَنَا آخُذُهُ».

لاحظ الراوية تريك أنها لم تعرف من كانت تنظر إليه صباح مساء.

١٦ قَالَ لَهَا يَسُوعُ: «يَا مَرْيَمُ» فَالتَفَتَتْ تِلْكَ وَقَالَتْ لَهُ: «رَبُّونِي!» الَّذِي تَفْسِيرُهُ: يَا مُعَلِّمُ.

والعجيب أنك تجد في الأناجيل أن الله نجى المسيح مرات عديدة من تآمرهم، فلم لا يكون الأمر كذلك في اللحظات الأخيرة لبقائه في الأرض.. هذا والأناجيل الموجودة تذكر رغبته بأن ينجو وألا يتعرض لمحنة القتل.. فكيف جعلوا تعرضه لهذه المحنة عقيدة ينجو باعتقادها البشر؟

ففي إنجيل لوقا:

٤: ٢٩ فقاموا وأخرجوه خارج المدينة وجاءوا به إلى حافة الجبل الذي كانت مدينتهم مبنيةً عليه حتى يطرحوه إلى أسفل.

٤: ٣٠ أما هو فجاز في وسطهم ومضى.

وفي إنجيل يوحنا: ٨: ٥٩ فرفعوا حجارة ليرجموه أما يسوع فاختفى وخرج من الهيكل مجتازًا في وسطهم ومضى هكذا.

وهنا ترى الوضوح القرآني في نفي عقيدة الصلب. لماذا؟ لأن النصارى بصورةٍ غريبةٍ مدهشة جعلوا الصلب أساس العقائد بدلًا من التوحيد والرسالة، ثم أقاموا له

أساسًا لا يوجد له سند حتى في كتابهم المقدس، وهو أن آدَمَ لَمَّا عَصَى اللهَ - تَعَالَى - بِالأَكْلِ مِنَ الشَّجَرَةِ صَارَ هُوَ وَجَمِيعُ أَفْرَادِ ذُرِّيَّتِهِ خُطَاةً مُسْتَحِقِّينَ لِلْعِقَابِ فِي الآخِرَةِ بِالهَلَاكِ الأَبَدِيِّ.. فإن كان آدم أذنب فما ذنب ذريته؟

ثم زادوا هذه الفلسفة الغريبة فقالوا: فلما كَانَ اللهُ - تَعَالَى - مُتَّصِفًا بِالعَدْلِ وَالرَّحْمَةِ جَمِيعًا، كان لا بد أن يحل هذه المشكلة الطارئة، فإن عاقب آدم وذريته كان ذلك منافيًا لرحمته، وإن لم يعاقبهم كان منافيًا لعدله فلم يجد حلًا لذلك إلا بِأَنْ يَحُلَّ ابْنُهُ - تَعَالَى الله عن قولهم- الَّذِي هُوَ نَفْسُهُ فِي بَطْنِ امْرَأَةٍ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ، ثم يولد إِنْسَانًا كَامِلًا ثم يضحي بابنه الوحيد الذي لا ذنب له والذي هو نفسه ليكفر خطيئة بني آدم؟ ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (الصافات:١٨٠)، ما الذي تسمعه؟ وهل ما يقولونه يقبله عقل؟ ولذا قال الرازي: اعلم أن مذهب النصارى مجهول جدًا، ويعلق محمد رشيد رضا على ذلك فيقول: «لَا يُمْكِنُ أَنْ يَقْبَلَ هَذِهِ القِصَّةَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالدَّلِيلِ العَقْلِيِّ أَنَّ خَالِقَ العَالَمِ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا، وَفِي كُلِّ صُنْعِهِ حَكِيمًا» [١].

وهنا ينقل السيد محمد رشيد رضا [٢] الأصول الوثنية الهندية والبوذية لعقيدة الصلب عن مجموعة من العلماء الغربيين منهم Thomas W. Doane:

BIBLE MYTHS AND THEIR PARALLELS IN OTHER RELIGIONS « خُرَافَاتُ التَّوْرَاةِ وَمَا يُقَابِلُهَا مِنَ الدِّيَانَاتِ الأُخْرَى « (ص ١٨١، ١٨٢) مَا تَرْجَمَتُهُ بِالتَّلْخِيصِ:

« إِنَّ تَصَوُّرَ الخَلَاصِ بِوَاسِطَةِ تَقْدِيمِ أَحَدِ الآلِهَةِ ذَبِيحَةَ فَدَاءٍ عَنِ الخَطِيئَةِ، قَدِيمُ

(١) تفسير المنار (٦/ ٢٢».

(٢) تفسير المنار (٦/ ٢٧).

العَهْدِ جِدًّا عِنْدَ الهُنُودِ الوَثَنِيِّينَ، وَغَيْرِهِمْ « وَذَكَرَ الشَّوَاهِدَ عَلَى ذَلِكَ مِنْهَا قَوْلُهُ:

يَعْتَقِدُ الهُنُودُ أَنَّ كَرَشْنَا المَوْلُودَ البِكْرَ، الَّذِي هُوَ نَفْسُ الإِلَهِ فِشْنُو الَّذِي لَا ابْتِدَاءَ لَهُ وَلَا انْتِهَاءَ - عَلَى رَأْيِهِمْ - تَحَرَّكَ حُنُوًّا كَيْ يُخَلِّصَ الأَرْضَ مِنْ ثِقَلِ حِمْلِهَا، فَأَتَاهَا وَخَلَّصَ الإِنْسَانَ بِتَقْدِيمِ نَفْسِهِ ذَبِيحَةً عَنْهُ».

وَذَكَرَ أَنَّ (مِسْتَرْ مُورْ) قَدْ صَوَّرَ كَرَشْنَا مَصْلُوبًا، كَمَا هُوَ مُصَوَّرٌ فِي كُتُبِ الهُنُودِ، مَثْقُوبَ اليَدَيْنِ وَالرِّجْلَيْنِ، وَعَلَى قَمِيصِهِ صُورَةُ قَلْبِ الإِنْسَانِ مُعَلَّقًا. وَوَجَدْتُ لَهُ صُورَةً مَصْلُوبًا وَعَلَى رَأْسِهِ إِكْلِيلٌ مِنَ الذَّهَبِ، وَالنَّصَارَى تَقُولُ: إِنَّ يَسُوعَ صُلِبَ وَعَلَى رَأْسِهِ إِكْلِيلٌ مِنَ الشَّوْكِ.

ومن أعجب الظن ونبذ العلم قصة الصلب من أجل الافتداء والخلاص التي اخترعتها الكنيسة مع أن الأناجيل الموجودة الآن تبين أن عيسى رغب إلى ربه -الذي يزعم بعضهم أنه هو نفسه-.. رغب إلى ربه أن يعفيه من الصلب والقتل وخاف من الموت فَفِي مَتَّى: (٢٦:٣٧) ثُمَّ أَخَذَ مَعَهُ بُطْرُسَ، وَابْنَيْ زَبْدَى، وَابْتَدَأَ يَحْزَنُ وَيَكْتَئِبُ (٣٨) فَقَالَ لَهُمْ نَفْسِي حَزِينَةٌ جِدًّا حَتَّى المَوْتِ. امْكُثُوا هُنَا، وَاسْهَرُوا مَعِي (٣٩) ثُمَّ تَقَدَّمَ قَلِيلًا وَخَرَّ عَلَى وَجْهِهِ، وَكَانَ يُصَلِّي قَائِلًا: يَا أَبَتَاهُ، إِنْ أَمْكَنَ فَلْتَعْبُرْ عَنِّي هَذِهِ الكَأْسَ، وَلَكِنْ لَيْسَ كَمَا أُرِيدُ أَنَا. بَلْ كَمَا تُرِيدُ أَنْتَ. فَمَضَى أَيْضًا ثَانِيَةً، وَصَلَّى قَائِلًا: يَا أَبَتَاهُ، إِنْ لَمْ يُمْكِنْ أَنْ تَعْبُرَ عَنِّي هَذِهِ الكَأْسَ، إِلَّا أَنْ أَشْرَبَهَا، فَلْتَكُنْ مَشِيئَتُكَ.

تصور ذلك: يطلب المسيح عليه السلام أن يبطل ربه الطريقة التي بها خلاص الإنسانية حسب زعم المحرفين المخرفين؟ وما أكثر الظن المنافي للعلم الذي يظهر في تعارضات الكتاب المقدس هنا.

وترى عيسى هنا يدعو ربه أن يخلصه من هذه الكأس، أفلا يستجيب له.. لقد قضى ليلته يدعو، ويسأل، ويصلي صلاة المسلمين حسب ظاهر النص حيث كان

يسجد.. وكل ذلك ليخلصه الله من أعدائه، واسمع إلى ذلك في إنجيل متى ٢٦:

٣٦ حِينَئِذٍ جَاءَ مَعَهُمْ يَسُوعُ إِلَى ضَيْعَةٍ يُقَالُ لَهَا جَثْسَيْمَانِي، فَقَالَ لِلتَّلاَمِيذِ: «اجْلِسُوا هٰهُنَا حَتَّى أَمْضِيَ وَأُصَلِّيَ هُنَاكَ»

٣٧ ثُمَّ أَخَذَ مَعَهُ بُطْرُسَ وَابْنَيْ زَبْدِي، وَابْتَدَأَ يَحْزَنُ وَيَكْتَئِبُ.

٣٨ فَقَالَ لَهُمْ: «نَفْسِي حَزِينَةٌ جِدًّا حَتَّى المَوْتِ. اُمْكُثُوا هٰهُنَا وَاسْهَرُوا مَعِي»

٣٩ ثُمَّ تَقَدَّمَ قَلِيلًا وَخَرَّ عَلَى وَجْهِهِ، وَكَانَ يُصَلِّي قَائِلًا: «يَا أَبَتَاهُ، إِنْ أَمْكَنَ فَلْتَعْبُرْ عَنِّي هٰذِهِ الكَأْسُ، وَلٰكِنْ لَيْسَ كَمَا أُرِيدُ أَنَا بَلْ كَمَا تُرِيدُ أَنْتَ»

٤٠ ثُمَّ جَاءَ إِلَى التَّلاَمِيذِ فَوَجَدَهُمْ نِيَامًا، فَقَالَ لِبُطْرُسَ: «أَهٰكَذَا مَا قَدَرْتُمْ أَنْ تَسْهَرُوا مَعِي سَاعَةً وَاحِدَةً؟

٤١ اِسْهَرُوا وَصَلُّوا لِئَلاَّ تَدْخُلُوا فِي تَجْرِبَةٍ. أَمَّا الرُّوحُ فَنَشِيطٌ وَأَمَّا الجَسَدُ فَضَعِيفٌ».

٤٢ فَمَضَى أَيْضًا ثَانِيَةً وَصَلَّى قَائِلًا: «يَا أَبَتَاهُ، إِنْ لَمْ يُمْكِنْ أَنْ تَعْبُرَ عَنِّي هٰذِهِ الكَأْسُ إِلاَّ أَنْ أَشْرَبَهَا، فَلْتَكُنْ مَشِيئَتُكَ».

٤٣ ثُمَّ جَاءَ فَوَجَدَهُمْ أَيْضًا نِيَامًا، إِذْ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ ثَقِيلَةً.

٤٤ فَتَرَكَهُمْ وَمَضَى أَيْضًا وَصَلَّى ثَالِثَةً قَائِلًا ذٰلِكَ الكَلاَمَ بِعَيْنِهِ.

٤٥ ثُمَّ جَاءَ إِلَى تَلاَمِيذِهِ وَقَالَ لَهُمْ: «نَامُوا الآنَ وَاسْتَرِيحُوا! هُوَذَا السَّاعَةُ قَدِ اقْتَرَبَتْ، وَابْنُ الإِنْسَانِ يُسَلَّمُ إِلَى أَيْدِي الخُطَاةِ.

٤٦ قُومُوا نَنْطَلِقْ! هُوَذَا الَّذِي يُسَلِّمُنِي قَدِ اقْتَرَبَ!»

٤٧ وَفِيمَا هُوَ يَتَكَلَّمُ، إِذَا يَهُوذَا أَحَدُ الاثْنَيْ عَشَرَ قَدْ جَاءَ وَمَعَهُ جَمْعٌ كَثِيرٌ بِسُيُوفٍ

وَعِصِيٍّ مِنْ عِنْدِ رُؤَسَاءِ الكَهَنَةِ وَشُيُوخِ الشَّعْبِ.

٤٨ وَالَّذِي أَسْلَمَهُ أَعْطَاهُمْ عَلاَمَةً قَائِلًا: «الَّذِي أُقَبِّلُهُ هُوَ هُوَ. أَمْسِكُوهُ»

٤٩ فَلِلْوَقْتِ تَقَدَّمَ إِلَى يَسُوعَ وَقَالَ: «السَّلاَمُ يَا سَيِّدِي!» وَقَبَّلَهُ.

٥٠ فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: «يَا صَاحِبُ، لِمَاذَا جِئْتَ؟» حِينَئِذٍ تَقَدَّمُوا وَأَلْقَوْا الأَيَادِيَ عَلَى يَسُوعَ وَأَمْسَكُوهُ.

ولاحظ هنا اتباع الظن، فلم يعرفه إلا يهوذا الذي قبله.. كيف ذلك، وهو يمشي بينهم صباح مساء، بل في إنجيل يوحنا لم يعرفه حتى يهوذا.. فاسمع إلى اتباع الظن في إنجيل يوحنا في الأصحاح السابع عشر:

٢٥ أَيُّهَا الآبُ البَارُّ، إِنَّ العَالَمَ لَمْ يَعْرِفْكَ، أَمَّا أَنَا فَعَرَفْتُكَ، وَهؤُلاَءِ عَرَفُوا أَنَّكَ أَنْتَ أَرْسَلْتَنِي.

٢٦ وَعَرَّفْتُهُمُ اسْمَكَ وَسَأُعَرِّفُهُمْ، لِيَكُونَ فِيهِمُ الحُبُّ الَّذِي أَحْبَبْتَنِي بِهِ، وَأَكُونَ أَنَا فِيهِمْ».

وفي يوحنا ١٨:

١ قَالَ يَسُوعُ هذَا وَخَرَجَ مَعَ تَلاَمِيذِهِ إِلَى عَبْرِ وَادِي قَدْرُونَ، حَيْثُ كَانَ بُسْتَانٌ دَخَلَهُ هُوَ وَتَلاَمِيذُهُ.

٢ وَكَانَ يَهُوذَا مُسَلِّمُهُ يَعْرِفُ المَوْضِعَ، لأَنَّ يَسُوعَ اجْتَمَعَ هُنَاكَ كَثِيرًا مَعَ تَلاَمِيذِهِ.

٣ فَأَخَذَ يَهُوذَا الجُنْدَ وَخُدَّامًا مِنْ عِنْدِ رُؤَسَاءِ الكَهَنَةِ وَالفَرِّيسِيِّينَ، وَجَاءَ إِلَى هُنَاكَ بِمَشَاعِلَ وَمَصَابِيحَ وَسِلاَحٍ.

٤ فَخَرَجَ يَسُوعُ وَهُوَ عَالِمٌ بِكُلِّ مَا يَأْتِي عَلَيْهِ، وَقَالَ لَهُمْ: «مَنْ تَطْلُبُونَ؟»

٥ أَجَابُوهُ: «يَسُوعَ النَّاصِرِيَّ». قَالَ لَهُمْ: «أَنَا هُوَ». وَكَانَ يَهُوذَا مُسَلِّمُهُ أَيْضًا وَاقِفًا مَعَهُمْ.

٦ فَلَمَّا قَالَ لَهُمْ: «إِنِّي أَنَا هُوَ»، رَجَعُوا إِلَى الوَرَاءِ وَسَقَطُوا عَلَى الأَرْضِ.

٧ فَسَأَلَهُمْ أَيْضًا: «مَنْ تَطْلُبُونَ؟» فَقَالُوا: «يَسُوعَ النَّاصِرِيَّ».

٨ أَجَابَ يَسُوع: «قَدْ قُلْتُ لَكُمْ: إِنِّي أَنَا هُوَ. فَإِنْ كُنْتُمْ تَطْلُبُونَنِي فَدَعُوا هؤُلاَءِ يَذْهَبُونَ».

٩ لِيَتِمَّ القَوْلُ الَّذِي قَالَهُ: «إِنَّ الَّذِينَ أَعْطَيْتَنِي لَمْ أُهْلِكْ مِنْهُمْ أَحَدًا».

وكيف يمسكون به، ولا يستجيب الله دعاءه، وهو يقول لتلاميذه كما في إنجيل يوحنا:

١٦: ٣٣ قد كلمتكم بهذا ليكون لكم في سلام في العالم سيكون لكم ضيق ولكن ثقوا أنا قد غلبت العالم.

وفي عِبَارَة المَزْمُورِ (١٠٩) الَّتِي يَقُولُونَ: إِنَّ المُرَادَ بِهَا المَسِيحُ ما يدل على تخليصه من حصار أعدائه حيث تجد فيها: « ٢٦ أَعِنِّي يَا رَبِّ، إِلَهِي، خَلِّصْنِي حَسَبَ رَحْمَتِكَ ٢٧، وَلِيَعْلَمُوا أَنَّ هَذِهِ يَدُكَ، أَنْتَ يَا رَبُّ فَعَلْتَ هَذَا ٢٨، أَمَّا هُمْ فَيُلْعَنُونَ وَأَمَّا أَنْتَ فَتُبَارِكُ، قَامُوا وَخُزُوا، أَمَّا عَبْدُكَ فَيَفْرَحُ ٢٩ لِيَلْبَسَ خُصَمَائِي خَجَلًا، وَلْيَتَعَطَّفُوا بِخِزْيِهِمْ كَالرِّدَاءِ. أَحْمَدُ الرَّبَّ جِدًّا بِفَمِي وَفِي وَسَطِ كَثِيرِينَ أُسَبِّحُهُ ٣١ لِأَنَّهُ يَقُومُ عَنْ يَمِينِ المِسْكِينِ لِيُخَلِّصَهُ مِنَ القَاضِينَ عَلَى نَفْسِهِ «.

وقد اضطربت الأناجيل الرسمية في رواية ما حدث بعد زعم القتل والصلب، إلا أن مما ذكرته أن مريم المجدلية التي أخبرت عن قيامته من قبره لم تعرفه، وهي المرأة التي يذكرون أنها كانت عصبية المزاج، وأخرج منها عيسى مجموعة من الشياطين،

وفي هذه الرواية يبين عيسى بوضوح أن كلمة أب لا تعني النسب، ففي يوحنا ٢٠:

١١ أَمَّا مَرْيَمُ فَكَانَتْ وَاقِفَةً عِنْدَ القَبْرِ خَارِجًا تَبْكِي. وَفِيمَا هِيَ تَبْكِي انْحَنَتْ إِلَى القَبْرِ.

١٢ فَنَظَرَتْ مَلاَكَيْنِ بِثِيَابٍ بِيضٍ جَالِسَيْنِ وَاحِدًا عِنْدَ الرَّأْسِ وَالآخَرَ عِنْدَ الرِّجْلَيْنِ، حَيْثُ كَانَ جَسَدُ يَسُوعَ مَوْضُوعًا.

١٣ فَقَالاَ لَهَا: «يَا امْرَأَةُ، لِمَاذَا تَبْكِينَ؟» قَالَتْ لَهُمَا: «إِنَّهُمْ أَخَذُوا سَيِّدِي، وَلَسْتُ أَعْلَمُ أَيْنَ وَضَعُوهُ!».

١٤ وَلَمَّا قَالَتْ هذَا التَفَتَتْ إِلَى الوَرَاءِ، فَنَظَرَتْ يَسُوعَ وَاقِفًا، وَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّهُ يَسُوعُ.

١٥ قَالَ لَهَا يَسُوعُ: «يَا امْرَأَةُ، لِمَاذَا تَبْكِينَ؟ مَنْ تَطْلُبِينَ؟» فَظَنَّتْ تِلْكَ أَنَّهُ البُسْتَانِيُّ، فَقَالَتْ لَهُ: «يَا سَيِّدُ، إِنْ كُنْتَ أَنْتَ قَدْ حَمَلْتَهُ فَقُلْ لِي أَيْنَ وَضَعْتَهُ، وَأَنَا آخُذُهُ».

١٦ قَالَ لَهَا يَسُوعُ: «يَا مَرْيَمُ» فَالتَفَتَتْ تِلْكَ وَقَالَتْ لَهُ: «رَبُّونِي!» الَّذِي تَفْسِيرُهُ: يَا مُعَلِّمُ.

١٧ قَالَ لَهَا يَسُوعُ: «لاَ تَلْمِسِينِي لأَنِّي لَمْ أَصْعَدْ بَعْدُ إِلَى أَبِي. وَلكِنِ اذْهَبِي إِلَى إِخْوَتِي وَقُولِي لَهُمْ: إِنِّي أَصْعَدُ إِلَى أَبِي وَأَبِيكُمْ وَإِلهِي.

١٨ فَجَاءَتْ مَرْيَمُ المَجْدَلِيَّةُ وَأَخْبَرَتِ التَّلاَمِيذَ أَنَّهَا رَأَتِ الرَّبَّ، وَأَنَّهُ قَالَ لَهَا هذَا.

لقد امتلأت العقيدة النصرانية التي يسمونها المسيحية بالخرافات المختلفة في هذا الموضع، وينقل رشيد رضا عن جوستاف لوبون الفَرَنْسِيُّ بَيَانًا عِلْمِيًّا فِي الفَصْلِ الثَّانِي مِنْ كِتَابِهِ (رُوحُ الِاجْتِمَاعِ) وَمِمَّا قَالَهُ فِي بَيَانِ قَابِلِيَّةِ الجَمَاعَاتِ لِلتَّأَثُّرِ وَالتَّصْدِيقِ وَانْخِدَاعِ الفِكْرِ مَا يَأْتِي مُلَخَّصًا:

« إِنَّ سُرْعَةَ تَصْدِيقِ الجَمَاعَةِ لَيْسَ هُوَ السَّبَبَ الوَحِيدَ فِي اخْتِرَاعِ الأَقَاصِيصِ الَّتِي تَنْتَشِرُ بَيْنَ النَّاسِ بِسُرْعَةٍ. بَلْ لِذَلِكَ سَبَبٌ آخَرُ، وَهُوَ التَّشْوِيهُ الَّذِي يَعْتَوِرُ الحَوَادِثَ فِي مُخَيِّلَةِ المُجْتَمِعِينَ ؛ إِذْ تَكُونُ الوَاقِعَةُ بَسِيطَةً لِلْغَايَةِ فَتَنْقَلِبُ صُورَتُهَا فِي خَيَالِ الجَمَاعَةِ بِلَا إِبْطَاءٍ، لِأَنَّ الجَمَاعَةَ تُفَكِّرُ بِوَاسِطَةِ التَّخَيُّلَاتِ، وَكُلُّ تَخَيُّلٍ يَجُرُّ إِلَى تَخَيُّلَاتٍ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَدْنَى عَلَاقَةٍ مَعْقُولَةٍ »[1].

الحقيقة السادسة: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (النساء:١٥٨):

لم يُقتل المسيح ولم يصلب بل رفعه الله إليه من بين أعدائه من متطرفي اليهود، وأيدي الجنود الرومان، ولا يُظنُّ أن يحدث له ذلك دون أن يراه أحد من أتباعه أيضًا كما سبق تقريره.

ولبيان قدرة الله وحكمته في رفعه ومنع قتله وصلبه قال الله جل ذكره: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ فعزته تعني أنه يَقْهَرُ وَلَا يُقْهَرُ، وَيَغْلِبُ وَلَا يُغْلَبُ، وهذه العزة التي تمسك بها عيسى أَنْقَذَته مِنَ اليَهُودِ المَاكِرِينَ وَالرُّومِ الحَاكِمِينَ، فعزة الله تعز أولياءه، وهي ليست عزة قائمة على عبث، بل قائمة على الحكمة، وحكمته سبحانه تقتضي ذلك ليكون محل ابتلاء للعالم حول حقيقته بين الغلاة والجفاة، ففعل الله به ما يحميه من الأذى والسخرية والاستهزاء والإيلام.. ورفعه إليه يدل على حماية الله العزيز الحكيم له، بخلاف الرواية الإنجيلية الشائعة من أن الله خذله وتركه:

ففي إنجيل (متى٢٧:٤٦) يزعمون أن المسيح قال وهو على الصليب: «إلهي إلهي لماذا تركتني؟!»: (Eli, Eli Lama Sabachthani إيلي إيلي لما شبقتني؟) .

وهذه العبارة التي أوردوها من أكثر العبارات التي سببت لهم إشكالًا، فهي ترد

(١) تفسير المنار (٦/ ٤١).

بظاهرها على مبدأ الأقانيم؛ إذ تظهره منفصلًا عن ربه حسب ظاهر العبارة، وتحطم مبدأ اللاهوت والناسوت المخترع المبتدع، وتبين عبثية معاقبة عيسى عليه السلام على ذنبٍ لم يرتكبه، فكيف سيتحمل الخطايا عن البشر.. ثم كيف يخاطب ربه -عزَّ جارُه- بهذه الصورة؟ ومن هو ربه عند زعم الزاعمين بأنه هو الله؟

وفي الإنجيل ما يدل على حماية الله لعيسى لا على تركه له في مواقف مختلفة سابقة، فلماذا أسلمه هذه المرة؟ **ففي لوقا** ٤: ٢٩-٣٠: (فقاموا وأخرجوه خارج المدينة وجاءوا به إلى حافة الجبل الذي كانت مدينتهم مبنية عليه حتى يطرحوه أسفل. أما هو فجاز في وسطهم ومضى) **وفي (متى ٤: ٦)، و (لوقا ٤: ١٠ -١١):** (مكتوب أنه يوصي ملائكته بك فعلى أيادِيهم يحملونك) .

وفي إنجيل يوحنا١٢:

٣٢ وَأَنَا إِنِ ارْتَفَعْتُ عَنِ الأَرْضِ أَجْذِبُ إِلَيَّ الجَمِيعَ».

٣٣ قَالَ هذَا مُشِيرًا إِلَى أَيَّةِ مِيتَةٍ كَانَ مُزْمِعًا أَنْ يَمُوتَ.

٣٤ فَأَجَابَهُ الجَمْعُ: «نَحْنُ سَمِعْنَا مِنَ النَّامُوسِ أَنَّ المَسِيحَ يَبْقَى إِلَى الأَبَدِ، فَكَيْفَ تَقُولُ أَنْتَ إِنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَرْتَفِعَ ابْنُ الإِنْسَانِ؟ مَنْ هُوَ هذَا ابْنُ الإِنْسَانِ؟»

٣٥ فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: النُّورُ مَعَكُمْ زَمَانًا قَلِيلًا بَعْدُ، فَسِيرُوا مَا دَامَ لَكُمُ النُّورُ لِئَلاَّ يُدْرِكَكُمُ الظَّلاَمُ. وَالَّذِي يَسِيرُ فِي الظَّلاَمِ لاَ يَعْلَمُ إِلَى أَيْنَ يَذْهَبُ.

٣٦ مَا دَامَ لَكُمُ النُّورُ آمِنُوا بِالنُّورِ لِتَصِيرُوا أَبْنَاءَ النُّورِ». تَكَلَّمَ يَسُوعُ بِهذَا ثُمَّ مَضَى وَاخْتَفَى عَنْهُمْ.

٣٧ وَمَعَ أَنَّهُ كَانَ قَدْ صَنَعَ أَمَامَهُمْ آيَاتٍ هذَا عَدَدُهَا، لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ،

٣٨ لِيَتِمَّ قَوْلُ إِشَعْيَاءَ النَّبِيِّ الَّذِي قَالَهُ: «يَا رَبُّ، مَنْ صَدَّقَ خَبَرَنَا؟ وَلِمَنِ اسْتُعْلِنَتْ

ذِرَاعُ الرَّبِّ؟»

٣٩ لِهذَا لَمْ يَقْدِرُوا أَنْ يُؤْمِنُوا. لأَنَّ إِشَعْيَاءَ قَالَ أَيْضًا:

٤٠ قَدْ أَعْمَى عُيُونَهُمْ، وَأَغْلَظَ قُلُوبَهُمْ، لِئَلاَّ يُبْصِرُوا بِعُيُونِهِمْ، وَيَشْعُرُوا بِقُلُوبِهِمْ، وَيَرْجِعُوا فَأَشْفِيَهُمْ.

والعزة والحكمة التي رفع بهما عيسى عليه السلام يقتضيان أن يحاسب كل إنسان على عمله، وهذا يعني عدم الاتكال على خرافة أن عيسى صلب من أجل أن يكفر عن خطايا البشر.. فقد أحدثت قضية الفداء المزعومة أثرها المجرم في تلاعب أسوأ الأفكار بالبشرية لمجرد انتسابهم إلى دينٍ يزعم فيه أن نبيه ضحى بنفسه مقابل خطايا الخاطئين.. وأثر الأثر العنصريَ البغيضَ لهذا المبدأ الخطير في تجمع الفيتو المعاصر الذي استباح الأرض كما يشاء لأن أربعة من أعضائه ينتسبون إلى آيديلوجية تقرر هذا المبدأ، فتسول لهم أنفسهم أن يفعلوا بالبشرية ما شاءوا، ويجعلوا ميزان العدالة خاضعًا لأهوائهم؛ لأنهم سيجدون من القسس من يقدس أعمالهم، ويغفر خطاياهم، ولكنك تجد الأمر المنتشر في الكتاب المقدس يخالف هذا المبدأ.

ففي إنجيل متى الحث على الاستعداد والعمل، وليس الاتكال والكسل على التضحية المزعومة لعيسى عن البشر:

١ حِينَئِذٍ يُشْبِهُ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ عَشْرَ عَذَارَى، أَخَذْنَ مَصَابِيحَهُنَّ وَخَرَجْنَ لِلِقَاءِ العَرِيسِ.

٢ وَكَانَ خَمْسٌ مِنْهُنَّ حَكِيمَاتٍ، وَخَمْسٌ جَاهِلاَتٍ.

٣ أَمَّا الجَاهِلاَتُ فَأَخَذْنَ مَصَابِيحَهُنَّ وَلَمْ يَأْخُذْنَ مَعَهُنَّ زَيْتًا.

٤ وَأَمَّا الحَكِيمَاتُ فَأَخَذْنَ زَيْتًا فِي آنِيَتِهِنَّ مَعَ مَصَابِيحِهِنَّ.

٥ وَفِيمَا أَبْطَأَ العَرِيسُ نَعَسْنَ جَمِيعُهُنَّ وَنِمْنَ.

٦ فَفِي نِصْفِ اللَّيْلِ صَارَ صُرَاخٌ: هُوَذَا العَرِيسُ مُقْبِلٌ، فَاخْرُجْنَ لِلِقَائِهِ!

٧ فَقَامَتْ جَمِيعُ أُولئِكَ العَذَارَى وَأَصْلَحْنَ مَصَابِيحَهُنَّ.

٨ فَقَالَتِ الجَاهِلاَتُ لِلْحَكِيمَاتِ: أَعْطِينَنَا مِنْ زَيْتِكُنَّ فَإِنَّ مَصَابِيحَنَا تَنْطَفِئُ.

٩ فَأَجَابَتِ الحَكِيمَاتُ قَائِلاتٍ: لَعَلَّهُ لاَ يَكْفِي لَنَا وَلَكُنَّ، بَلِ اذْهَبْنَ إِلَى البَاعَةِ وَابْتَعْنَ لَكُنَّ.

١٠ وَفِيمَا هُنَّ ذَاهِبَاتٌ لِيَبْتَعْنَ جَاءَ العَرِيسُ، وَالمُسْتَعِدَّاتُ دَخَلْنَ مَعَهُ إِلَى العُرْسِ، وَأُغْلِقَ البَابُ.

١١ أَخِيرًا جَاءَتْ بَقِيَّةُ العَذَارَى أَيْضًا قَائِلاَتٍ: يَا سَيِّدُ، يَا سَيِّدُ، افْتَحْ لَنَا!

١٢ فَأَجَابَ وَقَالَ: الحَقَّ أَقُولُ لَكُنَّ: إِنِّي مَا أَعْرِفُكُنَّ.

١٣ فَاسْهَرُوا إِذًا لأَنَّكُمْ لاَ تَعْرِفُونَ اليَوْمَ وَلاَ السَّاعَةَ الَّتِي يَأْتِي فِيهَا ابْنُ الإِنْسَانِ.

وفي إنجيل متى ٢٢:

١ وَجَعَلَ يَسُوعُ يُكَلِّمُهُمْ أَيْضًا بِأَمْثَال قَائِلًا:

٢ «يُشْبِهُ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ إِنْسَانًا مَلِكًا صَنَعَ عُرْسًا لابْنِهِ،

٣ وَأَرْسَلَ عَبِيدَهُ لِيَدْعُوا المَدْعُوِّينَ إِلَى العُرْسِ، فَلَمْ يُرِيدُوا أَنْ يَأْتُوا.

٤ فَأَرْسَلَ أَيْضًا عَبِيدًا آخَرِينَ قَائِلًا: قُولُوا لِلْمَدْعُوِّينَ: هُوَذَا غَدَائِي أَعْدَدْتُهُ. ثِيرَانِي وَمُسَمَّنَاتِي قَدْ ذُبِحَتْ، وَكُلُّ شَيْءٍ مُعَدٌّ. تَعَالَوْا إِلَى العُرْسِ!

٥ وَلكِنَّهُمْ تَهَاوَنُوا وَمَضَوْا، وَاحِدٌ إِلَى حَقْلِهِ، وَآخَرُ إِلَى تِجَارَتِهِ،

٦ وَالبَاقُونَ أَمْسَكُوا عَبِيدَهُ وَشَتَمُوهُمْ وَقَتَلُوهُمْ.

٧ فَلَمَّا سَمِعَ المَلِكُ غَضِبَ، وَأَرْسَلَ جُنُودَهُ وَأَهْلَكَ أُولئِكَ القَاتِلِينَ وَأَحْرَقَ مَدِينَتَهُمْ.

٨ ثُمَّ قَالَ لِعَبِيدِهِ: أَمَّا العُرْسُ فَمُسْتَعَدٌّ، وَأَمَّا المَدْعُوُّونَ فَلَمْ يَكُونُوا مُسْتَحِقِّينَ.

٩ فَاذْهَبُوا إِلَى مَفَارِقِ الطُّرُقِ، وَكُلُّ مَنْ وَجَدْتُمُوهُ فَادْعُوهُ إِلَى العُرْسِ.

١٠ فَخَرَجَ أُولئِكَ العَبِيدُ إِلَى الطُّرُقِ، وَجَمَعُوا كُلَّ الَّذِينَ وَجَدُوهُمْ أَشْرَارًا وَصَالِحِينَ. فَامْتَلأَ العُرْسُ مِنَ المُتَّكِئِينَ.

١١ فَلَمَّا دَخَلَ المَلِكُ لِيَنْظُرَ المُتَّكِئِينَ، رَأَى هُنَاكَ إِنْسَانًا لَمْ يَكُنْ لاَبِسًا لِبَاسَ العُرْسِ.

١٢ فَقَالَ لَهُ: يَا صَاحِبُ، كَيْفَ دَخَلْتَ إِلَى هُنَا وَلَيْسَ عَلَيْكَ لِبَاسُ العُرْسِ؟ فَسَكَتَ.

١٣ حِينَئِذٍ قَالَ المَلِكُ لِلْخُدَّامِ: ارْبُطُوا رِجْلَيْهِ وَيَدَيْهِ، وَخُذُوهُ وَاطْرَحُوهُ فِي الظُّلْمَةِ الخَارِجِيَّةِ. هُنَاكَ يَكُونُ البُكَاءُ وَصَرِيرُ الأَسْنَانِ.

وفي الإنجيل يبين أنه بعد ارتفاعه يرسل الله الفارقليط الآخر الذين تلاعبت ترجمات الإنجيل بنقله فسموه معزيًا:

ففي إنجيل يوحنا١٤:

١٥ «إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَنِي فَاحْفَظُوا وَصَايَايَ.

١٦ وَأَنَا أَطْلُبُ مِنَ الآبِ فَيُعْطِيكُمْ مُعَزِّيًا آخَرَ لِيَمْكُثَ مَعَكُمْ إِلَى الأَبَدِ.

١٧ رُوحُ الحَقِّ الَّذِي لاَ يَسْتَطِيعُ العَالَمُ أَنْ يَقْبَلَهُ، لأَنَّهُ لاَ يَرَاهُ وَلاَ يَعْرِفُهُ، وَأَمَّا أَنْتُمْ

فَتَعْرِفُونَهُ لأَنَّهُ مَاكِثٌ مَعَكُمْ وَيَكُونُ فِيكُمْ.

١٨ لاَ أَتْرُكُكُمْ يَتَامَى. إِنِّي آتِي إِلَيْكُمْ.

١٩ بَعْدَ قَلِيل لاَ يَرَانِي العَالَمُ أَيْضًا، وَأَمَّا أَنْتُمْ فَتَرَوْنَنِي. إِنِّي أَنَا حَيٌّ فَأَنْتُمْ سَتَحْيَوْنَ.

٢٠ فِي ذلِكَ اليَوْمِ تَعْلَمُونَ أَنِّي أَنَا فِي أَبِي، وَأَنْتُمْ فِيَّ، وَأَنَا فِيكُمْ.

وفي إنجيل يوحنا ١٦ يبين أعظم وصية تزيل أي لبس في موضوع توحيد الله، وأن عيسى رسوله وليس إلهًا، إذ يقول:

٣٢ هُوَذَا تَأْتِي سَاعَةٌ، وَقَدْ أَتَتِ الآنَ، تَتَفَرَّقُونَ فِيهَا كُلُّ وَاحِدٍ إِلَى خَاصَّتِهِ، وَتَتْرُكُونَنِي وَحْدِي. وَأَنَا لَسْتُ وَحْدِي لأَنَّ الآبَ مَعِي.

٣٣ قَدْ كَلَّمْتُكُمْ بِهذَا لِيَكُونَ لَكُمْ فِي سَلاَمٌ. فِي العَالَمِ سَيَكُونُ لَكُمْ ضِيقٌ، وَلكِنْ ثِقُوا: أَنَا قَدْ غَلَبْتُ العَالَمَ».

ثم في يوحنا١٧:

١ تَكَلَّمَ يَسُوعُ بِهذَا وَرَفَعَ عَيْنَيْهِ نَحْوَ السَّمَاءِ وَقَالَ: «أَيُّهَا الآبُ، قَدْ أَتَتِ السَّاعَةُ. مَجِّدِ ابْنَكَ لِيُمَجِّدَكَ ابْنُكَ أَيْضًا،

٢ إِذْ أَعْطَيْتَهُ سُلْطَانًا عَلَى كُلِّ جَسَدٍ لِيُعْطِيَ حَيَاةً أَبَدِيَّةً لِكُلِّ مَنْ أَعْطَيْتَهُ.

٣ وَهذِهِ هِيَ الحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ: أَنْ يَعْرِفُوكَ أَنْتَ الإِلهَ الحَقِيقِيَّ وَحْدَكَ وَيَسُوعَ المَسِيحَ الَّذِي أَرْسَلْتَهُ.

٤ أَنَا مَجَّدْتُكَ عَلَى الأَرْضِ. العَمَلَ الَّذِي أَعْطَيْتَنِي لأَعْمَلَ قَدْ أَكْمَلْتُهُ.

٥ وَالآنَ مَجِّدْنِي أَنْتَ أَيُّهَا الآبُ عِنْدَ ذَاتِكَ بِالمَجْدِ الَّذِي كَانَ لِي عِنْدَكَ قَبْلَ كَوْنِ العَالَمِ.

٦ «أَنَا أَظْهَرْتُ اسْمَكَ لِلنَّاسِ الَّذِينَ أَعْطَيْتَنِي مِنَ العَالَمِ. كَانُوا لَكَ وَأَعْطَيْتَهُمْ لِي، وَقَدْ حَفِظُوا كَلاَمَكَ.

٧ وَالآنَ عَلِمُوا أَنَّ كُلَّ مَا أَعْطَيْتَنِي هُوَ مِنْ عِنْدِكَ.

٨ لأَنَّ الكَلاَمَ الَّذِي أَعْطَيْتَنِي قَدْ أَعْطَيْتُهُمْ، وَهُمْ قَبِلُوا وَعَلِمُوا يَقِينًا أَنِّي خَرَجْتُ مِنْ عِنْدِكَ، وَآمَنُوا أَنَّكَ أَنْتَ أَرْسَلْتَنِي.

الحقيقة السابعة: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ **فأهل الكتاب سيؤمنون بعيسى قبل موتهم عندما يرون ملك الموت، وسيؤمنون بعيسى قبل موته عندما ينزل حكمًا عدلًا لإنقاذ العالم من الدجال وعقيدة الصلب.**

فانظر لجمال هذا الأسلوب الذي جمع عددًا من الضمائر لتعبر لك عن وقائع متعددة:

المعنى الأول: الضمائر ترجع إلى مراجع متعددة على طريقة انتشار الضمائر، و﴿إِن﴾ نَافِيَةٌ بمعنى ما، أي: وما من أهل الكتاب أحدٌ إلا وسيؤمن بعيسى قبل موت ذلك الكتابي، فقد قال ابن عباس: لا يموت يهوديٌّ حتى يؤمن بعيسى [(١)]، وقال: هي في قراءة أبيّ: ﴿قبل موتهمْ﴾، ليس يهودي يموت أبدًا حتى يؤمن بعيسى. قيل لابن عباس: أرأيت إن خرّ من فوق بيت؟ قال: يتكلم به في الهُوِيِّ. فقيل: أرأيت إن ضربَ عنق أحد منهم؟ قال: يُلجلج بها لسانُهُ [(٢)].

«وَلَكِنْ لَا يَكُونُ ذَلِكَ إِيمَانًا نَافِعًا لَهُ، إِذَا كَانَ قَدْ شَاهَدَ المَلَكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي أَوَّلِ هَذِهِ السُّورَةِ: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ الآيَةَ (النِّسَاءِ:

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٣٨٢).

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٣٨٣).

١٨)، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ الآيَتَيْنِ (غَافِرٍ: ٨٤، ٨٥)»[١].

وهذا المعنى يشهد له أن الناس يرون الحقائق واضحة قبل الموت، فعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ» قَالَتْ عَائِشَةُ أَوْ بَعْضُ أَزْوَاجِهِ: إِنَّا لَنَكْرَهُ المَوْتَ؟ قَالَ: «لَيْسَ ذَاكَ وَلَكِنَّ المُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَهُ المَوْتُ بُشِّرَ بِرِضْوَانِ اللهِ وَكَرَامَتِهِ فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ فَأَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ، وَأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَإِنَّ الكَافِرَ إِذَا حُضِرَ بُشِّرَ بِعَذَابِ اللهِ وَعُقُوبَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ، كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ وَكَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ»[٢]، وَرَوَى ابْنُ مَرْدَوَيْهِ وَابْنُ مَنْدَهْ، بِسَنَدٍ ضَعِيفٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: «مَا مِنْ نَفْسٍ تُفَارِقُ الدُّنْيَا حَتَّى تَرَى مَقْعَدَهَا مِنَ الجَنَّةِ أَوِ النَّارِ».

وقد نقل الرازي عَنْ شَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ بيانًا تفصيليًا قال فيه: إِنَّ اليَهُودِيَّ إِذَا حَضَرَهُ المَوْتُ ضَرَبَتِ المَلَائِكَةُ وَجْهَهُ وَدُبُرَهُ، وَقَالُوا: يَا عَدُوَّ اللَّه أَتَاكَ عِيسَى نَبِيًّا فَكَذَّبْتَ بِهِ، فَيَقُولُ: آمَنْتُ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّه، وَتَقُولُ لِلنَّصْرَانِيِّ: أَتَاكَ عِيسَى نَبِيًّا فَزَعَمْتَ أَنَّهُ هُوَ اللَّه وَابْنُ اللَّه، فَيَقُولُ: آمَنْتُ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّه فَأَهْلُ الكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِهِ، وَلَكِنْ حَيْثُ لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ الإِيمَانُ، فَاسْتَوَى الحَجَّاجُ جَالِسًا وَقَالَ: عَمَّنْ نَقَلْتَ هَذَا؟ فَقُلْتُ: حَدَّثَنِي بِهِ محمد بن علي بن الحَنَفِيَّةِ فَأَخَذَ يَنْكُتُ فِي الأَرْضِ بِقَضِيبٍ ثُمَّ قَالَ: لَقَدْ أَخَذْتَهَا مِنْ عَيْنٍ صَافِيَةٍ[٣].

المعنى الثاني: يؤمن به قبل موت عيسى، أي: عندما ينزل في آخر الزمان؛ فعن أبي هريرة ﷺ أن نبيَّ الله ﷺ قال: «الأنبياء إخوة لعَلاتٍ، أمهاتهم شتى

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٥٥).

(٢) البخاري - ترقيم فتح الباري (٨ / ١٣٢) رقم ٦٥٠٧ .

(٣) تفسير الرازي (١١/ ٢٦٣).

ودينهم واحدٌ. وإنيّ أولى الناس بعيسى بن مريم، لأنه لم يكن بيني وبينه نبيٌّ. وإنه نازلٌ، فإذا رأيتموه فاعرفوه، فإنه رجل مربُوع الخَلق، إلى الحمرة والبياض، سَبْط الشعر، كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بَلل، بين ممصَّرتين، فيدُقّ الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال، ويقاتل الناس على الإسلام حتى يهلك الله في زمانه الملل كلَّها غير الإسلام، ويهلك الله في زمانه مسيحَ الضلالة الكذابَ الدجال، وتقع الأمَنَة في الأرض في زمانه، حتى ترتع الأسود مع الإبل، والنمور مع البقر، والذئاب مع الغنم، وتلعب الغِلمان أو: الصبيان بالحيات، لا يضرُّ بعضهم بعضًا. ثم يلبث في الأرض ما شاء الله وربما قال: أربعين سنة ثم يتوفَّى ويصلي عليه المسلمون ويدفنونه» (١).

وعن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمُ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلًا فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلَ الخِنْزِيرَ، وَيَضَعَ الجِزْيَةَ، وَيَفِيضَ المَالُ حَتَّى لاَ يَقْبَلَهُ أَحَدٌ حَتَّى تَكُونَ السَّجْدَةُ الوَاحِدَةُ خَيْرًا مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَاقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ (٢).

وفي رواية: «ينزل عيسى بن مريم فيقتل الخنزير، ويمحو الصليب، وتُجْمَعُ له الصلاة، ويُعطى المال حتى لا يُقبَل، ويضع الخراج، وينزل الروحاء، فيحج منها أو يعتمر أو يجمعهما» قال وتلا أبو هريرة: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾، فزعم حنظلة أن أبا هريرة قال: يؤمن به قبل موته:

(١) أحمد٢/ ٤٠٦ برقم٩٢٥٩، وصححه الأرناؤوط، تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٣٨٨).

(٢) البخاري - ترقيم فتح الباري (٤ / ٢٠٥) رقم ٣٤٤٨ .

عيسى فلا أدري هذا كله حديث النبي ﷺ أو شيء قاله أبو هريرة [١]، وبين النبي ﷺ ترتيب الأحداث التي تفضي إلى نزوله، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَنْزِلَ الرُّومُ بِالأَعْمَاقِ أَوْ بِدَابِقَ فَيَخْرُجُ إِلَيْهِمْ جَيْشٌ مِنَ المَدِينَةِ مِنْ خِيَارِ أَهْلِ الأَرْضِ يَوْمَئِذٍ فَإِذَا تَصَافُّوا قَالَتِ الرُّومُ: خَلُّوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الَّذِينَ سَبَوْا مِنَّا نُقَاتِلْهُمْ. فَيَقُولُ المُسْلِمُونَ: لاَ وَاللَّهِ لاَ نُخَلِّي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ إِخْوَانِنَا. فَيُقَاتِلُونَهُمْ، فَيَنْهَزِمُ ثُلُثٌ لاَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَبَدًا، وَيُقْتَلُ ثُلُثُهُمْ أَفْضَلُ الشُّهَدَاءِ عِنْدَ اللَّهِ، وَيَفْتَتِحُ الثُّلُثُ لاَ يُفْتَنُونَ أَبَدًا فَيَفْتَتِحُونَ قُسْطُنْطِينِيَّةَ فَبَيْنَمَا هُمْ يَقْتَسِمُونَ الغَنَائِمَ قَدْ عَلَّقُوا سُيُوفَهُمْ بِالزَّيْتُونِ إِذْ صَاحَ فِيهِمُ الشَّيْطَانُ إِنَّ المَسِيحَ قَدْ خَلَفَكُمْ فِي أَهْلِيكُمْ. فَيَخْرُجُونَ وَذَلِكَ بَاطِلٌ فَإِذَا جَاءُوا الشَّأْمَ خَرَجَ فَبَيْنَمَا هُمْ يُعِدُّونَ لِلْقِتَالِ يُسَوُّونَ الصُّفُوفَ إِذْ أُقِيمَتِ الصَّلاَةُ فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ فَأَمَّهُمْ فَإِذَا رَآهُ عَدُوُّ اللَّهِ ذَابَ كَمَا يَذُوبُ المِلْحُ فِي المَاءِ فَلَوْ تَرَكَهُ لاَنْذَابَ حَتَّى يَهْلِكَ وَلَكِنْ يَقْتُلُهُ اللَّهُ بِيَدِهِ فَيُرِيهِمْ دَمَهُ فِي حَرْبَتِهِ» [٢]، وفي رواية: فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللَّهُ المَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ فَيَنْزِلُ عِنْدَ المَنَارَةِ البَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ وَاضِعًا كَفَّيْهِ عَلَى أَجْنِحَةِ مَلَكَيْنِ، إِذَا طَأْطَأَ رَأَسَهُ قَطَرَ، وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جُمَانٌ كَاللُّؤْلُؤِ، فَلاَ يَحِلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفَسِهِ إِلاَّ مَاتَ وَنَفَسُهُ يَنْتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي طَرْفُهُ [٣]، وعن جَابِرِ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ النَّبِيّ ﷺ يَقُولُ: «لَا

(١) أحمد(٢ / ٢٩٠)، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٢) صحيح مسلم (٨ / ١٧٥) رقم ٢٨٩٧.

(٣) صحيح مسلم (٨ / ١٩٧)، رقم ٢٩٣٧ وفي تحفة الأحوذي (٦ / ٢٥) ذكر أن كلمة (مَهْرُودَتَين) رَوَى بِالدَّالِ المُهْمَلَةِ وَالذَّالِ المُعْجَمَةِ وَالمُهْمَلَةُ أَكْثَرُ، وَالوَجْهَانِ مَشْهُورَانِ لِلْمُتَقَدِّمِينَ وَالمُتَأَخِّرِينَ مِنْ أَهْلِ اللُّغَةِ وَالغَرِيبِ وَغَيْرِهِمْ، وَأَكْثَرُ مَا يَقَعُ فِي النُّسَخِ بِالمُهْمَلَةِ كَمَا هُوَ المَشْهُورُ، وَمَعْنَاهُ لَابِسٌ مَهْرُودَتَيْنِ: أَيْ ثَوْبَيْنِ مَصْبُوغَيْنِ بِوَرْسٍ، ثُمَّ بِزَعْفَرَانٍ. وَقِيلَ هُمَا شُقَّتَانِ، وَالشُّقَّةُ نِصْفُ المِلَاءَةِ... وَالمُمَصَّرَةُ مِنْ الثِّيَابِ الَّتِي فِيهَا صُفْرَةٌ خَفِيفَةٌ، وَقِيلَ المَهْرُودُ الثَّوْبُ الَّذِي يُصْبَغُ بِالعُرُوقِ، وَالعُرُوقُ يُقَالُ لَهَا الهَرْدُ. اهـ

تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ - قَالَ - فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﷺ فَيَقُولُ: أَمِيرُهُمْ تَعَالَ صَلِّ لَنَا. فَيَقُولُ لاَ. إِنَّ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ أُمَرَاءُ. تَكْرِمَةَ اللَّهِ هَذِهِ الأُمَّةَ» (١).

وذكر تواتر نزول المسيح عليه السلام في آخر الزمان: الإمام أحمد بن حنبل، وأبو الحسن الإشعري، والطبري، وابن كثير، والسفياني، والشوكاني في «التوضيح في ما جاء في المنتظر والدجال والمسيح»، وفصل ذلك الإمام محمد أنور شاه الكشميري الهندي في كتابه: «التصريح بما تواتر في نزول المسيح».

ولكن المعنى الثاني فيه إشكالٌ؛ إذ رَدَّ بعضهم هذا المعنى الظاهر، واحتج على رأيه بأن قوله: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يُبْطِلُ هَذَا التَّفْسِيرَ: لِأَنَّ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِهِ- عَلَى حَسَبِ هَذَا التَّأْوِيلِ- هُمُ الَّذِينَ سَيُوجَدُونَ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَا جَمِيعُهُمْ.. هكذا ذكروا، وعندي يمكن الجواب على ذلك بجواب أتهيبه لأني لم أر من قال به في حدود اطلاعي القصير القاصر، وذلك بأن يقال: ﴿إِن﴾ مخففة من الثقيلة، والتقدير: وإنَّ من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته، وتؤدي هنا دورًا مخالفًا لاعتبارها نافيةً؛ إذ تكون ﴿مِّنْ﴾ معها تبعيضية، وكانت مع النافية صلة لبيان قوة العموم، وبذا يكون المعنى أن هناك فئة من أهل الكتاب تؤمن به قبل موت عيسى عليه السلام، وهو المعنى الثاني، وبذا يمكن الجمع بين المعنيين، وإقرار الحالتين.

وذهب الطاهر إلى أَنَّ ضَمِيرَ ﴿بِهِۦ﴾ رَاجِعٌ إِلَى الرَّفْعِ المَأْخُوذِ مِنْ فِعْلِ ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ (النِّسَاء:١٥٨)، وَيَعُمُّ قَوْلُهُ أَهْلِ الكِتَابِ اليَهُودَ، وَالنَّصَارَى، حَيْثُ اسْتَوَوْا مَعَ اليَهُودِ فِي اعْتِقَادِ وُقُوعِ الصَّلْبِ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ اللَّهَ يَقْذِفُ فِي نُفُوسِ أَهْلِ الكِتَابَيْنِ الشَّكَّ فِي صِحَّةِ الصَّلْبِ، فَلَا يَزَالُ الشَّكُّ يُخَالِجُ قُلُوبَهُمْ وَيَقْوَى حَتَّى يَبْلُغَ مَبْلَغَ العِلْمِ

(١) صحيح مسلم (١ / ٩٥) رقم ١٥٦ .

بِعَدَمِ صِحَّةِ الصَّلْبِ فِي آخِرِ أَعْمَارِهِمْ تَصْدِيقًا لِمَا جَاءَ بِهِ النَّبِيءُ ﷺ حَيْثُ كَذَّبَ أَخْبَارَهُمْ فَنَفَى الصَّلْبَ عَنْ عِيسَى عليه السلام [١].

الحقيقة الثامنة: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ (النساء:١٥٩).

ويوضح ذلك قتادة فيقول: يكون عليهم شهيدًا يوم القيامة على أنه قد بلغ رسالة ربه، وأقرّ بالعبوديّة على نفسه [٢]، فيشهد على بني إسرائيل ممن لم يؤمن به بتبليغه الرسالة، ويشهد على من آمن به وغلا فيه أنه خالف قوله كما بين الله ذلك في سورة المائدة في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (المائدة: ١١٦، ١١٧).

أفلا يخاف أهل الكتاب من هذه الشهادة العظيمة عليهم أن تكون مؤلمة ترد على كل منهم ما كان يفعله في حياته؟



(١) التحرير والتنوير (٦/ ٢٤)، وذكر ابن كثير ت سلامة (٢/ ٤٥٤) قولًا بعيدًا في المعنى حيث قال: قَالَ آخَرُونَ: مَعْنَى ذلك: وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بِمُحَمَّدٍ ﷺ قَبْلَ مَوْتِ الكِتَابِيِّ.

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٣٩٠).

الفصل الثالث

انتهاكات متطرفي اليهود في الجوانب الاجتماعية والاقتصادية ضد أنفسهم، والعالم (النساء: ١٦٠-١٦١)

آيات هذا الفصل:

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (النساء: ١٦٠-١٦١).

المناسبة والاتصال:

بعد أن ذكر الله انتهاكات متطرفي اليهود في حق أنفسهم والعالم، وخص انتهاكاتهم ضد العالم النصراني بالذكر؛ يذكر الله انتهاكاتهم في المجالات الاجتماعية والاقتصادية ضد أنفسهم والعالم، وذلك لخطورة الدور التأثيري الذي لهم في الواقع، وأهم هذه الانتهاكات:

الانتهاك الأول: الظلم الذاتي، والمتعدي، ويُبَصِّرُنا به قوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ (النساء: ١٦٠).

فهذه الجملة تكمل بيان الجرائم التي وقع فيها ظَلَمة اليهود، فيكون قَوْلُهُ: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ (النساء: ١٦٠) بَدَلًا مُطَابِقًا مِنْ جُمْلَةِ ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ (النِّسَاء: ١٥٥) بِإِعَادَةِ العَامِلِ فِي البَدَلِ مِنْهُ لِطُولِ الفَصْلِ، وقال: ﴿فَبِظُلْمٍ﴾ ليشمل ما ذُكِر من ظلمهم المذكور فيما مضى، فسؤالهم موسى رؤية الله، واتخاذهم العجل، ونَقْضهم المِيثَاق، وَكفرهم بآيات الله، وَقَتْلهم الأَنْبِيَاء بغير حق، وَقَوْلهمْ

قُلُوبُنَا غُلْفٌ، وَقَوْلَهُمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا، وَقَوْلَهُمْ: قَتَلْنَا المسيح عِيسَى بن مريم.. كُلُّ ذَلِكَ ظُلْمٌ، ويضاف إليه أنواعٌ من الظلم أخرى يكتنزها هذا التنكير ﴿فَبِظُلْمٍ﴾ أي فبظلمٍ عظيمٍ اقترفوه وتفننوا فيه، فنكَّر الظلم في قوله: ﴿فَبِظُلْمٍ﴾ لتعظيم ظلمهم، وليتم التفكير في نوعه أي: فبظلمٍ ما من الذين هادوا.. أي: فبظلمٍ عظيم جدًا راسخ ثابت [١]، وَتَقْدِيمُ فَبِظُلْمٍ عَلَى حَرَّمْنَا يُفِيدُ الحَصْرَ، أَيْ حَرَّمَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ بِسَبَبِ الظُّلْمِ لَا بِسَبَبٍ آخَرَ [٢].

وبين الله أن هذا الظلم الذي يشتمل على جرائمهم البشعة سبب لهم عقوبة تشريعية فقال: ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ (النساء: ١٦٠) «وَهَذَا التَّحْرِيمُ قَدْ يَكُونُ قَدَرِيًّا، بِمَعْنَى: أَنَّهُ تَعَالَى قَيَّضَهُمْ لِأَنْ تَأَوَّلُوا فِي كِتَابِهِمْ، وحرَّفوا وَبَدَّلُوا أَشْيَاءَ كَانَتْ حَلَالًا لَهُمْ، فَحَرَّمُوهَا عَلَى أَنْفُسِهِمْ تَشْدِيدًا مِنْهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَتَضْيِيقًا وَتَنَطُّعًا.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ التحريم شَرْعِيًّا بِمَعْنَى أَنَّهُ تَعَالَى حَرّم عَلَيْهِمْ فِي التَّوْرَاةِ أَشْيَاءَ كَانَتْ حَلَالًا لَهُمْ قَبْلَ ذَلِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ (الأَنْعَام: ١٤٦)، وقال: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ (آلِ عِمْرَانَ: ٩٣) [٣].

فالظلم قد يؤدي إلى عدم التنعم باللذات على المدى البعيد، ويؤدي إلى خراب الأمم وفساد حياتها، فلماذا تنعمت بنو إسرائيل بهذه الهيبة الدولية المدهشة

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٥/ ٤٩٩».

(٢) تفسير المنار (٦/ ٥٠).

(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٦٧).

في واقعنا المعاصر؟ ستجد بني إسرائيل في مثل هذه الأيام من أكثر الأمم إشاعة للعدل البيني فيما بينهم، وقد ينازع أحدهم ويقول: إن العنصريةَ فاشيةٌ عندهم، وهذا صحيح لكنك مهما وجدت من مظاهر هذا الظلم البيني لا تجده يساوي شيئًا أمام مصانع إهانة الكرامة الإنسانية، والعنصرية المستشرية في بلاد المسلمين، والعقوبة هنا ليست خاصة ببني إسرائيل بل بكل أمة يفشو فيها الظلم وهنا يكون الجواب على سؤال يتكرر: لماذا لبني إسرائيل الكلمة العليا الآن؟

والظلم سبب لضعف الأمم، واستيلاء أمة على الأمة الظالمة كما هو مشاهد الآن، وسنن الله لا تتبدل، فإذا اشتركت عدد من الأمم في الظلم فإن الله تعالى يذل أسوأها ظلما ويجعلها نهبًا لأقلها ظلمًا، والكلام هنا عن الظلم المتعدي وليس عن ظلم الشرك، لأن الله جعل عقوبة الكفر المحض أخرويةً غالبًا، كما قال تعالى جده: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ (الكهف: ٢٩)، أما بالنسبة للظلم الدنيوي فإن الله تعالى ذكره يخبر عن عقوبة ماحقة قريبة فيقول: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ (الكهف: ٥٩).

والأصل أن تكون العقوبة خاصة بالمجرم لأن هذا مقتضى العدل، ولكن الله جعل هذه العقوبة ساريةً على كل الأجيال لأمرين: أنها عقوبة تكليفية تنظيمية فمن التزمها أُجِر، وليست عقوبة مادية مهلكة، فعلم الله أن (غلاظ الرقبة) من بني إسرائيل تناسبهم مثل هذه العقوبة لسريان الطباع ذاتها في أجيالهم، فلعل هذه المحرمات تذكرهم طباعهم الرديئة، وعندها عسى أن يقاوموها، وينشروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لإيقاف شرورها الجارفة، وهنا يقول الله تعالى مشيرًا إلى تعدي العقوبة أصحابها من المجرمين ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ (الأنفال:

٢٥)، ويَقول النَّبي ﷺ: «لاَ تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا إِلاَّ كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا لأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ القَتْلَ» (١)، وقد خفف الله عن بني إسرائيل هذه العقوبة التكليفية بمجيء عيسى عليه السلام لكن أكثرهم بغوا عليه فلم يقبلوه، ثم خفف عنهم أكثر بمجيء النبي الخاتم ﷺ لكن كثيرًا أبوا إلا عتُوًّا واستكبارًا.

الانتهاك الثاني: ﴿وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ (النساء:١٦٠) صدًّا لأنفسهم ولغيرهم عن الطريق الصحيح، فمن لم يستطيعوا أن يظلموه صدوه عن إدراك الصواب في الحياة.

إنه سبيل الله الذي يدعون أنهم شعبه المختار يمنعون العالم من اتباعه وسلوكه فما خطب عقولهم وقلوبهم وأفكارهم الغليظة الرقبة كما يعبر الكتاب المقدس، وتبين هذه الجملة نوعية الصد وحجم تأثيره، فهم يصدون عن سبيل الله صدًا كثيرًا، فالصد مصدر من صَدَّ القاصر الذي مفعوله يصد بكسر الصاد، بمعنى يضجون فلا يقبلون، وكلمة ﴿كَثِيرًا﴾ صفة لمصدر محذوف أي صدًا كثيرًا، فقد جعلوا صدَّ العالم عن سبيل الله مهمتهم العظمى، وهم يصدون كثيرًا من العالم عن سبيل الله، كما أن كلمة ﴿صد﴾ من الفعل المتعدي الذي مضارعه يصد بضم الصاد، وكلمة ﴿كَثِيرًا﴾ مفعول به، أي: وصدهم كثيرًا من العالم عن طريق السعادة الحقيقي.. إنه سبيل الله الواضح الذي لا يكون فيه أحد أكرم من أحد بالجنس أو النسب بل بالعمل والتقوى.

فاجتمعت صفتان ها هنا هما: الصفة الأولى: يصدون في أنفسهم أي: يبتعدون عن اتباع ما يأمرهم الله به بصورةٍ كبيرة، فيتركون كثيرًا من الأوامر، وكذلك يصدون غيرهم من العالمين.. وانظر كيف وصف الصد.. لقد أخبر تعالى جده بأنه صدٌّ كثيرٌ عن أن يتبعوا سبيل الله الواضح الذي لا يوجد فيه كرامة للجنس، وإنما الكرامة فيه

(١) البخاري - ترقيم فتح الباري (٤ / ١٦٢) رقم ٣٣٣٥ .

بالتقوى، وهذا ملاحظ فإن بني إسرائيل لو اتبعوا الحق المبين لتبعهم على ذلك كثير من أمم الأرض، ولكنهم للأسف الشديد يصرون على هذا الصد الكبير.

وهم يقترفون تلك الجرائم ويقولون: سيغفر لنا.. ينطوون على نفسيات مريضة قال الله عن أصحابها: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾ (الأعراف: ١٦٩).

الانتهاك الثالث: إصرارهم على أكل الربا، وإشاعته في العالم، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿وَأَخۡذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدۡ نُهُواْ عَنۡهُ﴾، ويمثل أبشع صور الاستعباد الاقتصادي المنتشر في العالم.

الانتهاك الرابع: التفنن في اختراع الوسائل المختلفة ليأكلوا الثروات الاقتصادية للعالم بالباطل، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله جل ذكره: ﴿وَأَكۡلِهِمۡ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾.

لخطورتهم في التلاعب بالمال العالمي ذكر الله أخطر أساليبهم في ذلك فحصر جرائمهم المالية في هاتين الجريمتين، وتتعجب من فساق بني إسرائيل.. كيف آتاهم الله الذكاء المدهش فسخروه لأكل أموال الناس بالباطل أولًا عن طريق الربا، وثانيًا بابتكار كل الوسائل التي تضمن لهم أكل أموال الناس بالباطل، فالجريمة الثانية لتعميم أساليبهم الخطيرة المختلفة المتنفننة في فعل ذلك؛ إذ تراهم يتفننون في أكل أموال الناس بالباطل.. اضرب لهم مثلًا: باختراع الحروب العالمية، والطائفية ليكونوا هم المستفيدين سياسيًا واقتصاديًا، واضرب لهم مثلًا بالعبث المائي، والتلاعب في ثروات النفظ والغاز والذهب، واضرب لهم مثلًا بأندية القمار، وصفقات الفساد التي تمر عبر الرشوات، وحانات البغاء، والعبث الذي يتم عبر أفلام الإثارة المنحلة، وما يتم عبر الابتزاز السياسي، وصنع القيادات الفاسدة التي تجعل ثروات شعوبها نهبًا

لمصاصي الدماء، ونهي الله لهم من هاتين الجريمتين منتشر في الكتاب المقدس، ففي سفر الخروج ٢٢: (٢١«وَلاَ تَضْطَهِدِ الغَرِيبَ وَلاَ تُضَايِقْهُ، لأَنَّكُمْ كُنْتُمْ غُرَبَاءَ فِي أَرْضِ مِصْرَ. ٢٢لاَ تُسِيءِ إِلَى أَرْمَلَةٍ مَا وَلاَ يَتِيمٍ. ٢٣إِنْ أَسَأْتَ إِلَيْهِ فَإِنِّي إِنْ صَرَخَ إِلَيَّ أَسْمَعُ صُرَاخَهُ، ٢٤فَيَحْمَى غَضَبِي وَأَقْتُلُكُمْ بِالسَّيْفِ، فَتَصِيرُ نِسَاؤُكُمْ أَرَامِلَ، وَأَوْلاَدُكُمْ يَتَامَى. ٢٥إِنْ أَقْرَضْتَ فِضَّةً لِشَعْبِي الفَقِيرِ الذِي عِنْدَكَ فَلاَ تَكُنْ لَهُ كَالمُرَابِي. لاَ تَضَعُوا عَلَيْهِ رِبًا. ٢٦إِنِ ارْتَهَنْتَ ثَوْبَ صَاحِبِكَ فَإِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ تَرُدُّهُ لَهُ، ٢٧لأَنَّهُ وَحْدَهُ غِطَاؤُهُ، هُوَ ثَوْبُهُ لِجِلدِهِ، فِي مَاذَا يَنَامُ؟ فَيَكُونُ إِذَا صَرَخَ إِلَيَّ أَنِّي أَسْمَعُ، لأَنِّي رَؤُوفٌ).

وفي سفر الخروج:

٢٣: ١ لا تقبل خبرًا كاذبًا، ولا تضع يدك مع المنافق؛ لتكون شاهد ظلم. ٢ لا تتبع الكثيرين إلى فعل الشر، ولا تُجِب في دعوى مائلًا وراء الكثيرين للتحريف. ٣ ولا تحاب مع المسكين في دعواه. ٤ إذا صادفت ثور عدوك، أو حماره شاردًا، ترده إليه. ٨ ولا تأخذ رشوة؛ لأن الرشوة تعمي المبصرين، وتعوج كلام الأبرار. ٩ ولا تضايق الغريب، فإنكم عارفون نفس الغريب؛ لأنكم كنتم غرباء في أرض مصر.

وفي سفر اللاويين:

١٩: ٣٤ كالوطني منكم يكون لكم الغريب النازل عندكم، وتحبه كنفسك لأنكم كنتم غرباء في أرض مصر. أنا الرب إلهكم.٢٥: ٣٥ وَإِذَا افْتَقَرَ أَخُوكَ وَقَصُرَتْ يَدُهُ عِنْدَكَ، فَاعْضُدْهُ غَرِيبًا أَوْ مُسْتَوْطِنًا فَيَعِيشَ مَعَكَ.٣٦ لاَ تَأْخُذْ مِنْهُ رِبًا وَلاَ مُرَابَحَةً، بَلِ اخْشَ إِلهَكَ، فَيَعِيشَ أَخُوكَ مَعَكَ. ٣٧ فِضَّتَكَ لاَ تُعْطِهِ بِالرِّبَا، وَطَعَامَكَ لاَ تُعْطِ بِالمُرَابَحَةِ. ٣٨ أَنَا الرَّبُّ إِلهُكُمُ الَّذِي أَخْرَجَكُمْ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ لِيُعْطِيَكُمْ أَرْضَ كَنْعَانَ، فَيَكُونَ لَكُمْ إِلهًا.

وبعد هذه الفقرة تجد أنواعًا من العنصرية في الكلام عن التمتع باستعباد

الأمم الأخرى.. فهل التناقض هنا يمثل صورةً صارخة للتحريف والعبث بالكتاب المقدس؟

ففي سفر التثنية٢٣: ١٨ لاَ تُدْخِلْ أُجْرَةَ زَانِيَةٍ وَلاَ ثَمَنَ كَلْبٍ إِلَى بَيْتِ الرَّبِّ إِلهِكَ عَنْ نَذْرٍ مَّا، لأَنَّهُمَا كِلَيْهِمَا رِجْسٌ لَدَى الرَّبِّ إِلهِكَ. ١٩ «لاَ تُقْرِضْ أَخَاكَ بِرِبًا، رِبَا فِضَّةٍ، أَوْ رِبَا طَعَامٍ، أَوْ رِبَا شَيْءٍ مَّا مِمَّا يُقْرَضُ بِرِبًا، ٢٠ لِلأَجْنَبِيِّ تُقْرِضُ بِرِبًا، وَلكِنْ لأَخِيكَ لاَ تُقْرِضْ بِرِبًا، لِيُبَارِكَكَ الرَّبُّ إِلهُكَ فِي كُلِّ مَا تَمْتَدُّ إِلَيْهِ يَدُكَ فِي الأَرْضِ الَّتِي أَنْتَ دَاخِلٌ إِلَيْهَا لِتَمْتَلِكَهَا.

ولكن هذا المبدأ الذي يقرر للإسرائيليين جواز أن يستحلوا غيرهم يتناقض مع فقرات أخرى تظهر حماية غير الإسرائيليين في أموالهم وأنفسهم مما هو موجود في بقايا الكتاب المقدس، **فمن ذلك:**

ما جاء في سفر الخروج٢٢:

٢٢ لاَ تُسِيءْ إِلَى أَرْمَلَةٍ مَا وَلاَ يَتِيمٍ. ٢٣ إِنْ أَسَأْتَ إِلَيْهِ فَإِنِّي إِنْ صَرَخَ إِلَيَّ أَسْمَعُ صُرَاخَهُ ٢٤ فَيَحْمَى غَضَبِي وَأَقْتُلُكُمْ بِالسَّيْفِ، فَتَصِيرُ نِسَاؤُكُمْ أَرَامِلَ، وَأَوْلاَدُكُمْ يَتَامَى. ٢٥ إِنْ أَقْرَضْتَ فِضَّةً لِشَعْبِي الفَقِيرِ الَّذِي عِنْدَكَ فَلاَ تَكُنْ لَهُ كَالمُرَابِي. لاَ تَضَعُوا عَلَيْهِ رِبًا. ٢٦ إِنِ ارْتَهَنْتَ ثَوْبَ صَاحِبِكَ فَإِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ تَرُدُّهُ لَهُ ٢٧ لأَنَّهُ وَحْدَهُ غِطَاؤُهُ، هُوَ ثَوْبُهُ لِجِلْدِهِ، فِي مَاذَا يَنَامُ؟ فَيَكُونُ إِذَا صَرَخَ إِلَيَّ أَنِّي أَسْمَعُ، لأَنِّي رَؤُوفٌ. ٢٨ «لاَ تَسُبَّ اللهَ، وَلاَ تَلْعَنْ رَئِيسًا فِي شَعْبِكَ. ٢٩ لاَ تُؤَخِّرْ مِلْءَ بَيْدَرِكَ، وَقَطْرَ مِعْصَرَتِكَ، وَأَبْكَارَ بَنِيكَ تُعْطِينِي. ٣٠ كَذلِكَ تَفْعَلُ بِبَقَرِكَ وَغَنَمِكَ. سَبْعَةَ أَيَّامٍ يَكُونُ مَعَ أُمِّهِ، وَفِي اليَوْمِ الثَّامِنِ تُعْطِينِي إِيَّاهُ. ٣١ وَتَكُونُونَ لِي أُنَاسًا مُقَدَّسِينَ. وَلَحْمَ فَرِيسَةٍ فِي الصَّحْرَاءِ لاَ تَأْكُلُوا. لِلْكِلاَبِ تَطْرَحُونَهُ.

وفي سفر التثنية:

١٠: ١٧ لأن الرب إلهكم هو إله الآلهة ورب الأربـاب الإله العظيم الجبار المهيب الذي لا يأخذ بالوجوه ولا يقبل رشوة ١٨ الصانع حق اليتيم والأرملة والمحب الغريب ليعطيه طعامًا ولباسًا ١٩ فأحبوا الغريب لأنكم كنتم غرباء في أرض مصر ٢٠ الرب إلهك تتقي إياه تعبد وبه تلتصق وباسمه تحلف ٢١ هو فخرك وهو إلهك الذي صنع معك تلك العظائم والمخاوف التي أبصرتها عيناك

ومن النصوص التي تدل على ضرورة تعميم الصدق في التعامل مع كل أهل الأرض: **ما في المزامير**١٥: ١ يَا رَبُّ، مَنْ يَنْزِلُ فِي مَسْكَنِكَ؟ مَنْ يَسْكُنُ فِي جَبَلِ قُدْسِكَ؟ ٢ السَّالِكُ بِالكَمَالِ، وَالعَامِلُ الحَقَّ، وَالمُتَكَلِّمُ بِالصِّدْقِ فِي قَلْبِهِ. ٣ الَّذِي لاَ يَشِي بِلِسَانِهِ، وَلاَ يَصْنَعُ شَرًّا بِصَاحِبِهِ، وَلاَ يَحْمِلُ تَعْيِيرًا عَلَى قَرِيبِهِ. ٤ وَالرَّذِيلُ مُحْتَقَرٌ فِي عَيْنَيْهِ، وَيُكْرِمُ خَائِفِي الرَّبِّ. يَحْلِفُ لِلضَّرَرِ وَلاَ يُغَيِّرُ. ٥ فِضَّتُهُ لاَ يُعْطِيهَا بِالرِّبَا، وَلاَ يَأْخُذُ الرِّشْوَةَ عَلَى البَرِيءِ. الَّذِي يَصْنَعُ هذَا لاَ يَتَزَعْزَعُ إِلَى الدَّهْرِ.

ما أجرأ فساق بني إسرائيل على مخالفة كلام الكتاب المقدس! لقد ساقوا نصوصًا وضعوها تبيح لهم أكل أموال الآخرين بالربا وبغيره من ألاعيب الباطل المالية.. ثم ما لبثوا حتى استباحوا الربا على بعضهم، وهنا استحقوا أن يحرم الله عليهم طيبات أحلت لهم، وفي الكتاب المقدس ما يشير إلى مقدار ما اقترفوه من الجرائم.

ففي سفر أشعياء:

(١٩إِنْ شِئْتُمْ وَسَمِعْتُمْ تَأْكُلُونَ خَيْرَ الأَرْضِ. ٢٠وَإِنْ أَبَيْتُمْ وَتَمَرَّدْتُمْ تُؤْكَلُونَ بِالسَّيْفِ». لأَنَّ فَمَ الرَّبِّ تَكَلمَ. ٢١كَيْفَ صَارَتِ القَرْيَةُ الأَمِينَةُ زَانِيَةً! مَلآنَةً حَقًّا. كَانَ العَدْلُ يَبِيتُ فِيهَا، وَأَمَّا الآنَ فَالقَاتِلُونَ. ٢٢صَارَتْ فِضَّتُكِ زَغَلًا وَخَمْرُكِ مَغْشُوشَةً بِمَاءٍ. ٢٣رُؤَسَاؤُكِ مُتَمَرِّدُونَ وَلُغَفَاءُ اللُّصُوصِ. كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يُحِبُّ الرَّشْوَةَ وَيَتْبَعُ

العَطَايَا. لاَ يَقْضُونَ لِلْيَتِيمِ، وَدَعْوَى الأَرْمَلَةِ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِمْ ٢٤ لِذلِكَ يَقُولُ السَّيِّدُ رَبُّ الجُنُودِ عَزِيزُ إِسْرَائِيلَ: «آهِ! إِنِّي أَسْتَرِيحُ مِنْ خُصَمَائِي وَأَنْتَقِمُ مِنْ أَعْدَائِي).

وفي سفر أشعياء:

٥: ١١ وَيْلٌ لِلْمُبَكِّرِينَ صَبَاحًا يَتْبَعُونَ المُسْكِرَ، لِلْمُتَأَخِّرِينَ فِي العَتَمَةِ تُلْهِبُهُمُ الخَمْرُ. ٢٠ وَيْلٌ لِلْقَائِلِينَ لِلشَّرِّ خَيْرًا وَلِلْخَيْرِ شَرًّا، الجَاعِلِينَ الظَّلاَمَ نُورًا وَالنُّورَ ظَلاَمًا، الجَاعِلِينَ المُرَّ حُلْوًا وَالحُلْوَ مُرًّا. ٢١ وَيْلٌ لِلْحُكَمَاءِ فِي أَعْيُنِ أَنْفُسِهِمْ، وَالفُهَمَاءِ عِنْدَ ذَوَاتِهِمْ. ٢٢ وَيْلٌ لِلأَبْطَالِ عَلَى شُرْبِ الخَمْرِ، وَلِذَوِي القُدْرَةِ عَلَى مَزْجِ المُسْكِرِ. ٢٣ الَّذِينَ يُبَرِّرُونَ الشِّرِّيرَ مِنْ أَجْلِ الرُّشْوَةِ، وَأَمَّا حَقُّ الصِّدِّيقِينَ فَيَنْزِعُونَهُ مِنْهُمْ. ٢٤ لِذلِكَ كَمَا يَأْكُلُ لَهِيبُ النَّارِ القَشَّ، وَيَهْبِطُ الحَشِيشُ المُلْتَهِبُ، يَكُونُ أَصْلُهُمْ كَالعُفُونَةِ، وَيَصْعَدُ زَهْرُهُمْ كَالغُبَارِ، لأَنَّهُمْ رَذَلُوا شَرِيعَةَ رَبِّ الجُنُودِ، وَاسْتَهَانُوا بِكَلاَمِ قُدُّوسِ إِسْرَائِيلَ. ٢٥ مِنْ أَجْلِ ذلِكَ حَمِيَ غَضَبُ الرَّبِّ عَلَى شَعْبِهِ، وَمَدَّ يَدَهُ عَلَيْهِ وَضَرَبَهُ، حَتَّى ارْتَعَدَتِ الجِبَالُ وَصَارَتْ جُثَثُهُمْ كَالزِّبْلِ فِي الأَزِقَّةِ. مَعَ كُلِّ هذَا لَمْ يَرْتَدَّ غَضَبُهُ، بَلْ يَدُهُ مَمْدُودَةٌ بَعْدُ. ٢٦ فَيَرْفَعُ رَايَةً لِلأُمَمِ مِنْ بَعِيدٍ، وَيَصْفِرُ لَهُمْ مِنْ أَقْصَى الأَرْضِ، فَإِذَا هُمْ بِالعَجَلَةِ يَأْتُونَ سَرِيعًا. ٢٨ الَّذِينَ سِهَامُهُمْ مَسْنُونَةٌ، وَجَمِيعُ قِسِيِّهِمْ مَمْدُودَةٌ. حَوَافِرُ خَيْلِهِمْ تُحْسَبُ كَالصَّوَّانِ، وَبَكَرَاتُهُمْ كَالزَّوْبَعَةِ. ٢٩ لَهُمْ زَمْجَرَةٌ كَاللَّبْوَةِ، وَيُزَمْجِرُونَ كَالشِّبْلِ، وَيَهِرُّونَ وَيُمْسِكُونَ الفَرِيسَةَ وَيَسْتَخْلِصُونَهَا وَلاَ مُنْقِذَ. ٣٠ يَهِرُّونَ عَلَيْهِمْ فِي ذلِكَ اليَوْمِ كَهَدِيرِ البَحْرِ. فَإِنْ نُظِرَ إِلَى الأَرْضِ فَهُوَذَا ظَلاَمُ الضِّيقِ، وَالنُّورُ قَدْ أَظْلَمَ بِسُحُبِهَا.

لقد كانت العقوبة الدنيوية التي حلت أن حرم الله عليهم طيبات أحلت لهم من قبل عسى أن يتذكروا فيكفوا عن جرائمهم، لكن كثيرًا منهم لم يفعل، فما زالوا سدنة للظلم في العالم، وما زالوا يصدون عن سبيل الله، واعجب إذ جعلوا معرفة الدين الذين يدينون به، والإيمان الذي يزعمون أنهم اتبعوه.. لقد جعلوه خاصًا بعنصرهم،

فصدوا بذلك عن سبيل الله كثيرًا، ثم أكلوا الربا وأموال العالم بالباطل... ما زالوا يأكلون، ويفتخرون بذلك.. فهل يعني ذلك أن العقوبة الجسدية لن تحل بهم؟

كلا! إن تأخر العقوبة لا يعني عدم وجودها: ربما سألوا عن العقوبة ووجودها فيأتي الجواب ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (النساء: ١٦١)، وإنما استحقوا العذاب الأليم لأن جرائمهم عمت أصول الذنوب جميعًا، إذ الذنوب محصورة فِي نَوْعَيْنِ:

النوع الأول: الظُّلْم لِلْخَلْقِ وأشار إليه بقوله: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ (النساء: ١٦٠)، ثم فصل بعضها كأخذ الربا وأكل أموال الناس بالباطل.

والنوع الثاني: الإِعْرَاضِ عَنِ الحَقّ، وأشار إليه بقوله ﴿وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾.

والعذاب المؤلم موجعٌ يوجع أجسادهم، فإذا جمعته مع العذاب المهين علمت أن الله سيجمع لهم العذاب الجسدي والنفسي جزاء وفاقًا على جرائمهم.. وكذلك من فعل فعلهم.

الفصل الرابع

الإشادة بالفئة المؤمنة من اليهود، وجعلهم أنموذجًا للناس (النساء:١٦٢)

آية هذا الفصل: يُعَرِّف القرآن العالم بالفئة المشرقة من اليهود، مقارنة بالفئة الظالمة ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء:١٦٢).

المناسبة والاتصال:

هنا ترى التربية القرآنية القائمة على العدل؛ فبعد ذكر جرائم متطرفي اليهود لا بد أن يُشاد بصالحيهم، ومن حقِّ العالم أن يعرفوا الفئة المشرقة من اليهود مقارنة بالطائفة التي يقودها الظالمون المحرفون، وإذا عرفنا الطائفة الصالحة تعاونا معهم على إيصال الحقوق إلى أهلها، ونشر الخير في العالم، فهم المستمسكون بمحبة الله كما **قال في المزمور١١٩:**

١٥٣ اُنْظُرْ إِلَى ذُلِّي وَأَنْقِذْنِي، لأَنِّي لَمْ أَنْسَ شَرِيعَتَكَ. ١٥٤ أَحْسِنْ دَعْوَايَ وَفُكَّنِي. حَسَبَ كَلِمَتِكَ أَحْيِنِي. ١٥٥ الخَلاَصُ بَعِيدٌ عَنِ الأَشْرَارِ، لأَنَّهُمْ لَمْ يَلتَمِسُوا فَرَائِضَكَ. ١٥٦ كَثِيرَةٌ هِيَ مَرَاحِمُكَ يَا رَبُّ. حَسَبَ أَحْكَامِكَ أَحْيِنِي. ١٥٧ كَثِيرُونَ مُضْطَهِدِيَّ وَمُضَايِقِيَّ. أَمَّا شَهَادَاتُكَ فَلَمْ أَمِلْ عَنْهَا. ١٥٨ رَأَيْتُ الغَادِرِينَ وَمَقَتُّ، لأَنَّهُمْ لَمْ يَحْفَظُوا كَلِمَتَكَ. ١٥٩ انْظُرْ أَنِّي أَحْبَبْتُ وَصَايَاكَ. يَا رَبُّ، حَسَبَ رَحْمَتِكَ أَحْيِنِي. ١٦٠ رَأْسُ كَلاَمِكَ حَقٌّ، وَإِلَى الدَّهْرِ كُلُّ أَحْكَامِ عَدْلِكَ، فذكر الله أن هذه الفئة الصالحة في اليهود صنفان:

الصنف الأول: النخبة القيادية الراسخة في العلم، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾، والراسخ: الثابت ثباتًا عاليًا عظيمًا أمام عواصف الدنيا العاتية، والرسوخ يراد به العلم والعمل، ويقابلهم السطحيون إما في العلم وإما في العمل وإما في كليهما.

فهم المتقنون الذين استفادوا من العلم حقيقته، فأثَّر فيهم العلم، وأثمر العمل، وضد الرسوخ العلم السطحي الذي يحول بين القلب وبين المعرفة الصحيحة؛ كالذين لا يعرفون من دين موسى عليه السلام إلا الاحتفال بالأعياد، وبعض الخرافات حول الشعب المختار.

والراسخون الثابتون الأقوياء من الرسوخ وهو الثبات شدة الاستقرار، فهم النخبة التي جمعت بين العلم والعمل، فعَن ابْن الأَعرَابِي: هُمُ الحُفَّاظُ والمُذاكِرُونَ [١].

ومثل لهم ابن عباس بعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ، وَثَعْلَبَةَ بْنِ سَعْيَةَ. وَأَسَدِ وَزَيْدِ بْنِ سَعْيَةَ وَأَسَدِ بْنِ عُبَيْدٍ، الَّذِينَ دَخَلُوا فِي الإِسْلَامِ، وَصَدَّقُوا بِمَا أَرْسَلَ اللَّهُ بِهِ مُحَمَّدًا صلى الله عليه وآله وسلم [٢].

وضد الرسوخ السطحية التي تدل على المحدودية في العلم أو في العمل أو فيهما معًا، والعلم السطحي يحول بين القلب وبين المعرفة الصحيحة؛ فالراسخون «يجدون أنفسهم أمام دلائل الإيمان الكونية أو على الأقل أمام علامات استفهام كونية كثيرة، لا يجيب عليها إلا الاعتقاد بأن لهذا الكون إلهًا واحدًا مسيطرًا مدبرًا متصرفًا، وذا إرادة واحدة، وضعت ذلك الناموس الواحد.. وكذلك الذين تتشوق قلوبهم للهدى - المؤمنون - يفتح اللّه عليهم، وتتصل أرواحهم بالهدى.. أما الذين يتناوشون المعلومات ويحسبون أنفسهم علماء، فهم الذين تحول قشور العلم بينهم

(١) العين (٤/ ١٩٦)، تهذيب اللغة (٧/ ٧٧).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٦٨).

وبين إدراك دلائل الإيمان، أو لا تبرز لهم - بسبب علمهم الناقص السطحي - علامات الاستفهام. وشأنهم شأن من لا تهفو قلوبهم للهدى ولا تشتاق.. وكلاهما هو الذي لا يجد في نفسه حاجة للبحث عن طمأنينة الإيمان، أو يجعل التدين عصبية جاهلية فيفرق بين الأديان الصحيحة التي جاءت من عند ديان واحد، على أيدي موكب واحد متصل من الرسل، صلوات اللّه عليهم أجمعين» (١).

الصنف الثاني: عامة المؤمنين، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، وهم عامة المتقين من اليهود، الذين لم يستجيبوا للقيادات الدينية، والسياسية الفاسدة، ومثلهم مؤمنو سائر الأمم.

فبين صفاتهم الأساسية:

الصفة الأولى: الإيمان بكل ما نزل من عند الله مهما كان النبي الذي جاء به، ويُبَصِّرُنا بها قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾، فهم لا يفرقون بين أحد من رسله، ويعلمون أنه من مشكاة واحدة.

لا يفرقون بين أحدٍ من رسل الله: فـ«هم يؤمنون بالقرآن الذي أنزل الله إليك، يا محمد، وبالكتب التي أنزلها على من قبلك من الأنبياء والرسل، ولا يسألونك كما سألك هؤلاء الجهلة منهم: أن تنزل عليهم كتابًا من السماء، لأنهم قد علموا بما قرأوا من كتب الله وأتتهم به أنبياؤهم أنك لله رسول، واجبٌ عليهم اتباعك، لا يَسعهم غير ذلك، فلا حاجة بهم إلى أن يسألوك آية معجزة ولا دلالة غير الذي قد علموا من أمرك بالعلم الراسخ في قلوبهم من إخبار أنبيائهم إياهم» (٢)،

وقال قتادة مبينًا معنى الآية: استثنى الله أُثْبِيَّةً من أهل الكتاب -أي جماعة أو

(١) في ظلال القرآن (٢ / ٨٠٤).

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٣٩٣).

قطعة أو قومًا- وكان منهم من يؤمن بالله وما أنزل عليهم، وما أنزل على نبي الله، يؤمنون به ويصدّقون، ويعلمون أنه الحق من ربهم.

الصفة الثانية: ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

نصبها لبيان أنها ليست معطوفةً على ﴿ٱلرَّٰسِخُونَ﴾، ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، وإنما هي بيانٌ لصفة لهم، ونصبها على طريقة (كسر الإعراب) أي تغيير الإعراب من موضعٍ لآخر لبيان أهميتها وقيمتها، ولعل من أهم أسباب كسر الإعراب هنا أن يبين لهم وللعالم أن من الأحبار من تواطأ على تغيير هيئة الصلاة، ولذا خصها بتغيير الإعراب كأنه قال: وأخص المقيمين الصلاة، وهذا التميز الإعرابي لبيان المزية المعنوية يوافق قوله تعالى ذكره: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ (البقرة: ١٧٧).

«وَهُوَ قَوْلُ البَصْرِيِّينَ: إِنَّهُ نُصِبَ عَلَى المَدْحِ لِبَيَانِ فَضْلِ الصَّلَاةِ، قَالُوا إِذَا قُلْتَ: مَرَرْتُ بِزَيْدٍ الكَرِيمِ، فَلَكَ أَنْ تَجُرَّ الكَرِيمَ لِكَوْنِهِ صِفَةً لِزَيْدٍ، وَلَكَ أَنْ تَنْصِبَهُ عَلَى تَقْدِيرِ أَعْنِي، وَإِنْ شِئْتَ رَفَعْتَ عَلَى تَقْدِيرِ هُوَ الكَرِيمُ، وَعَلَى هَذَا يُقَالُ: جَاءَنِي قَوْمُكَ المُطْعِمِينَ فِي المَحَلِّ وَالمُغِيثُونَ فِي الشَّدَائِدِ، وَالتَّقْدِيرُ جَاءَنِي قَوْمُكَ أَعْنِي المَطْعِمِينَ فِي المَحَلِّ وَهُمُ المُغِيثُونَ فِي الشَّدَائِدِ فَكَذَا هاهنا تَقْدِيرُ الآيَةِ: أَعْنِي المُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَهُمُ المُؤْتُونَ الزَّكَاةَ» (١).

وقد عقد شيخ النحاة سيبويه له بابًا فقال: «باب ما ينتصب على التعظيم والمدح، وإن شئت جعلته صفة فجرى على الأول، وإن شئت قطعتَه فابتدأتَه (٢) ثم نقل شواهد تفصيلية لذلك، فهذا العطف بالنصب يبين لنا قانونًا لغويًا عربيًا كما قال الطاهر:

(١) تفسير الرازي (١١/ ٢٦٤).

(٢) الكتاب لسيبويه (٢/ ٦٢).

«وَعَطْفُ الْمُقِيمِينَ بِالنَّصْبِ ثَبَتَ فِي الْمُصْحَفِ الإِمَامِ، وَقَرَأَهُ الْمُسْلِمُونَ فِي الأقطار دون نكير فَعَلِمْنَا أَنَّهُ طَرِيقَةٌ عَرَبِيَّةٌ فِي عَطْفِ الأَسْمَاءِ الدَّالَّةِ عَلَى صِفَاتٍ مَحَامِدَ، عَلَى أَمْثَالِهَا، فَيَجُوزُ فِي بَعْضِ الْمَعْطُوفَاتِ النَّصْبُ عَلَى التَّخْصِيصِ بِالْمَدْحِ، وَالرَّفْعُ عَلَى الِاسْتِئْنَافِ لِلِاهْتِمَامِ، كَمَا فَعَلُوا ذَلِكَ فِي النُّعُوتِ الْمُتَتَابِعَةِ» (١).

ومن الشواهد التي نقلها سيبويه قول الخرنق بنت هفان القيسمية، وهي أخت طرفة ابن العبد المالكي لأمه، من شعر رثت به زوجها بشر بن عمرو، ومن قتل معه من بنيه وقومه:

لاَ يَبْعَدَنْ قَوْمِي الَّذِينَ هُمُ سُمُّ الْعُدَاةِ وآفَةُ الْجُزْرِ
النَّازِلِينَ بِكُلِ مُعْتَرَكٍ والطَّيِّبُونَ مَعَاقِدَ الْأَزرِ (٢)

وهذا الوجه الذي اختاره البصريون وجه وجيه جدًا خلافًا لما فهمه الطبري من أن اختيار هذا الوجه يدل على أنه أدنى درجة في الفصاحة، واختار ﷺ أن تكون كلمة «المقيمين» في موضع خفض، نسَقًا على «ما»، التي في قوله: ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ الملائكة، وإقامتهم الصلاة، تسبيحهم ربَّهم، واستغفارهم لمن في الأرض. فيكون تأويل الكلام: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾، يا محمد، من الكتاب «وبما أنزل من قبلك»، من كتبي، وبالملائكة الذين يقيمون الصلاة. ثم يرجع إلى صفة «الراسخين في العلم»، فيقول: لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون بالكتب

(١) التحرير والتنوير (٦/ ٢٩).

(٢) انظر: الحلل في شرح أبيات الجمل لابن السيد البطليوسي، و(الجمل) كتاب لأبي القاسم الزجاجي، وفيه قال: يقال: بعد الرجل يبعد، على مثال: علم يعلم، إذا هلك، قال الله تعالى: « ألا بعدًا لمدين كما بعدت ثمود «. فإذا أردت البعد الذي هو ضد القرب قلت: بعد يبعد، على مثال: ظرف يظرف.
والمصدر الذي يراد به الهلاك: بعدًا بفتح الباء والعين، والمصدر الذي يراد به ضد القرب: بعدًا، على مثال ضده، الذي هو قرب، وربما استعملوا البعد في الهلاك، لتداخل معنييهما.

والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر [١].

وهنا يذكر بعض المفسرين حديث هشام بن عروة، عن أبيه أنه سأل عائشة ﵂ عن قوله: «والمقيمين الصلاة»، وعن قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ (المائدة: ٦٩)، وعن قوله: ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ (طه: ٦٣)، فقالت: يا ابن أختي، هذا عمل الكاتب، أخطأوا في الكتاب [٢]، فحديث ضعيف متناقض يضاد ما ورد عن كبار الصحابة في موضوع نسخ المصاحف، كما قال الرازي: «وَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا بَعِيدٌ لِأَنَّ هَذَا الْمُصْحَفَ مَنْقُولٌ بِالنَّقْلِ الْمُتَوَاتِرِ عَنْ رَسُولِ اللَّه ﷺ فَكَيْفَ يُمْكِنُ ثُبُوتُ اللَّحْنِ فِيهِ» [٣].

ويلفت الطبري النظر إلى اتفاق المصاحف -ونضيف والقراء أيضًا- على كتابة هذه الكلمة كما هي، ويضيف بعدًا آخر لتفنيد إلقاء هذه الشبهة الشيطانية، فيقول: «مع أن ذلك لو كان خطأ من جهة الخطِّ، لم يكن الذين أخذ عنهم القرآن من أصحاب رسول الله ﷺ يُعلِّمون من علَّموا ذلك من المسلمين على وجه اللحن، ولأصلحوه بألسنتهم، ولقَّنوه الأمة تعليمًا على وجه الصواب، وفي نقل المسلمين جميعًا ذلك قراءةً، على ما هو به في الخط مرسومًا، أدلُّ الدليل على صحة ذلك وصوابه، وأن لا صنع في ذلك للكاتب» [٤].

ويرد الزمخشري بعارضته البيانية مبينًا أن من يظنه لحنًا فهو ضعيف في معرفة لغة العرب، فيقول: «ولا يلتفت إلى ما زعموا من وقوعه لحنا في خط المصحف. وربما

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٣٩٦) وقيل المراد بالمقيمين الصلاة: الأنبياء، ونقله الرازي اختيارًا للكسائي.

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٣٩٥).

(٣) تفسير الرازي (١١/ ٢٦٤).

(٤) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٣٩٨).

التفت إليه من لم ينظر في الكتاب ولم يعرف مذاهب العرب وما لهم في النصب على الاختصاص من الافتنان، وغبي عليه أنّ السابقين الأوّلين الذين مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كانوا أبعد همة في الغيرة على الإسلام وذبّ المطاعن عنه، من أن يتركوا في كتاب اللَّه ثلمة ليسدّها من بعدهم وخرقا يرفوه من يلحق بهم [١].

الصفة الثالثة: ﴿وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، فـ(ال) هنا موصولة تقديرها: والذين يؤتون الزكاة.

الصفة الرابعة: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾، و(ال) هنا موصولة وتقديرها: والذين يؤمنون بالله واليوم.

وعلى هذا التفسير يكون التقدير: لكن الراسخون في العلم من اليهود، وعامة المؤمنين يتصفون بالصفات الآتية: يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك، وأخص بالمدح منهم الذين يقيمون الصلاة، وهم الذين يؤتون الزكاة، وهم الذين يؤمنون بالله واليوم والآخر.

وهذه الآية المباركة من الآيات التي يحتاج المتدبر لها إلى إعمال ذهنٍ في فهمها ليتضح نظمها، فهناك عدة احتمالات لمعناها:

الاحتمال الأول: ﴿لَّـٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾، فعطف صنفين متغايرين هما: الراسخون والمؤمنون كأنه يقول: لكن علماؤهم وعامتهم من المؤمنين، ثم عطف بعض الصفات التي لا بد من وجودها في هذين الصنفين، وهي إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والإيمان بالله واليوم الآخر، وأخبرهم عنهم أنهم يؤمنون بالمنزل من الله جميعًا، ليبين ضلالة الذين كفروا من

(١) تفسير الزمخشري (١/ ٥٩٠)، ومعنى (يرفوه) أي يصلحوه من رَفا الثَّوْبَ: أَصْلَحَهُ بِضَمِّ بَعْضِهِ إلى بَعْضٍ بِالخِياطَةِ.

أحبار اليهود، فالراسخون، والمؤمنون عمومًا، والمقيمون الصلاة، والمؤتون الزكاة، والمؤمنون إيمانًا خاصًا بالله واليوم الآخر عطف الخاص على العام للاهتمام بهذه الخصوصية، لا يمكن أن يتحقق ما يدعونه من صفاتهم إلا أن يؤمنوا بالله واليوم الآخر، وحينها سيؤتون أجرًا عظيمًا.. فهذا احتمال في التفسير، ولم أعثر على قائل بهذا التفسير، والإشكال بشأنه واضح، حيث عطف متغايرين أولًا، ثم عطف عليهما بعض صفاتهما مع تخصيص الصلاة بمزيد اهتمام.

الاحتمال الثاني: لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ مِنْ الذين هادوا وَالمُؤْمِنُونَ منهم ومن سائر الأمم يتصفون بأنهم يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ، وَيتصفون بأنهم من المُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَبأنهم من المُؤْتينَ الزَّكَاةَ وَيتصفون بأنهم من المُؤْمِنينَ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ، فذكر لهم أربع صفات، ويكون قوله: ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وما بعدها عطفًا على ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ التي هي بداية صفاتهم، وخص الإيمان بالله واليوم الآخر بالذكر في الإيمان مجددًا بعد دخولهما في قوله: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ لأهميتهما، ولاقترانهما، وردًا على من يؤمن بالله دون اليوم الآخر مما شاع عند اليهود.

الاحتمال الثالث: أن تكون ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ حالية لوصفهم، والخبر: أولئك سنؤتيهم أجرًا عظيمًا، أي: لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ مِنْ الذين هادوا، وَالمؤْمِنُونَ منهم، ومن سائر الأمم، يتصفون بأنهم يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ، وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ، وَيتصفون بأنهم من المقِيمِينَ الصَّلَاةَ، وَبأنهم من المؤْتينَ الزَّكَاةَ، وَيتصفون بأنهم من المؤْمِنينَ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ، وخص الإيمان بالله واليوم الآخر، بالذكر لأهميتهما، ولاقترانهما، وردًا على من يؤمن بالله دون اليوم الآخر مما يعتقده بعض اليهود، وضعف أبو حيان هذا الاحتمال، وهو مثل الاحتمال الثاني في موضوع العطف، وإنما اختلف في البحث عن الخبر.

الاحتمال الرابع: قول أبي حيان: ارْتَفَعَ الرَّاسِخُونَ عَلَى الِابْتِدَاءِ، وَالخَبَرُ ﴿يُؤْمِنُونَ﴾، لِأَنَّ المَدْحَ لَا يَكُونُ إِلَّا بَعْدَ تَمَامِ الجُمْلَةِ، وَانْتَصَبَ المُقِيمِينَ عَلَى المَدْحِ، وَارْتَفَعَ وَالمُؤْتُونَ أَيْضًا عَلَى إِضْمَارٍ وَهُمْ عَلَى سَبِيلِ القَطْعِ إِلَى الرَّفْعِ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُعْطَفَ عَلَى المَرْفُوعِ قَبْلَهُ، لِأَنَّ النَّعْتَ إِذَا انْقَطَعَ فِي شَيْءٍ مِنْهُ لَمْ يَعُدْ مَا بَعْدَهُ إِلَى إِعْرَابِ المَنْعُوتِ، وَهَذَا القَطْعُ لِبَيَانِ فَضْلِ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ، فَكَثُرَ الوَصْفُ بِأَنْ جُعِلَ فِي جُمَلٍ.. فذَكَرَ أَوَّلًا ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ليتَضَمَّنَ الإيمَانَ بِمَا يَجِبُ أَنْ يُؤْمَنَ بِهِ، ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْهُمْ وَعَنِ الرَّاسِخِينَ أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِالقُرْآنِ وَبِالكُتُبِ المُنَزَّلَةِ، ثُمَّ وَصَفَهُمْ بِصِفَاتِ المَدْحِ مِنَ امْتِثَالِ أَشْرَفِ أَوْصَافِ الإِيمَانِ الفِعْلِيَّةِ البَدَنِيَّةِ وَهِيَ: الصَّلَاةُ، وَالمَالِيَّةِ وَهِيَ الزَّكَاةُ، ثُمَّ ارْتَقَى فِي المَدْحِ إِلَى أَشْرَفِ الأَوْصَافِ القَلْبِيَّةِ الِاعْتِقَادِيَّةِ وَهِيَ الإيمان بالموجد الَّذِي أَنْزَلَ الكُتُبَ وَشَرَعَ فِيهَا الصَّلَاةَ وَالزَّكَاةَ، وَبِاليَوْمِ الآخِرِ وَهُوَ البَعْثُ وَالمَعَادُ الَّذِي يَظْهَرُ فِيهِ ثَمَرَةُ الإِيمَانِ وَامْتِثَالِ تَكَالِيفِ الشَّرْعِ مِنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَغَيْرِهِمَا. ثُمَّ إِنَّهُ لَمَّا اسْتَوْفَى ذَلِكَ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ سَيُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا وَهُوَ مَا رَتَّبَ تَعَالَى عَلَى هَذِهِ الأَوْصَافِ الجَلِيلَةِ الَّتِي وَصَفَهُمْ بِهَا، وَأَشَارَ إِلَيْهِمْ بِأُولَئِكَ، لِيَدُلَّ عَلَى مَجْمُوعِ تِلْكَ الأَوْصَافِ [1].

وحقيقة هذا القول يرجع إلى الثاني والثالث.

ويشير البقاعي إلى ملمحٍ هامٍّ في ترتيب هذه الصفات فيقول: «ويظهر أن (ال) في هذه الصفات موصولة كأنه قال: وأخص منهم الذين يقيمون الصلاة، والذين يؤتون الزكاة، والذين يؤمنون بالله واليوم الآخر، وإنما جعل هذه الأركان على غير الترتيب المعروف كالترتيب الوارد في أول سورة البقرة للإشارة إلى أهم ما تركوه كليًا مقارنة بما تركوه جزئيًا: فهم تركوا الإيمان بالرسل كلهم، وأصروا على زعم

(١) المحيط في التفسير (٤/ ١٣٤).

الاكتفاء بموسى ومن معه عليهم السلام دون عيسى ومحمد صلى الله عليه وعلى أنبياء الله أجمعين وسلم، وتركوا إقامة الصلاة كما أمر الله تعالى، وتركوا إيتاء الزكاة حسب التفصيل الذي أُمروا به، وأما الإيمان بالله واليوم الآخر فهم يؤمنون وإن كانوا يجدفون في بعض الصفات الإلهية» (١).

وتبصرك الآية بشيء رائع هنا؛ إذ قدم الله في الذكر هنا ما يقتضيه السياق في هذه السورة، فمِنْ سُنَّةِ القُرْآنِ أَنْ يَذْكُرَ الإِيمَانَ بِاللهِ قَبْلَ العَمَلِ الصَّالِحِ، سَوَاءٌ ذَكَرَ الإِيمَانَ غُفْلًا مُطْلَقًا، أَوْ ذُكِرَتْ أَرْكَانُهُ كُلُّهَا أَوْ بَعْضُهَا كَقَوْلِهِ، تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ (الكهف: ١٠٧)، وَكَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ (البقرة: ٦٢) لكنه هنا قدم: الرسوخ في العلم، والإيمان بما أنزل الله إلى الأنبياء جميعًا، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، ثم ذكر الإيمان بالله واليوم الآخر، وذلك لأَن القانون الأساسي فِي التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ أَنْ يُقَدَّمَ الأَهَمُّ الَّذِي يَقْتَضِيهِ السِّيَاقُ لَا الأَهَمُّ فِي ذَاتِهِ.

وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى فِي سِيَاقِ تَخْطِئَةِ المُفَاخِرِينَ بِدِينِهِمْ بِالأَمَانِيِّ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾(النساء: ١٢٤)، فَالسِّيَاقُ لِبَيَانِ أَنَّ العِبْرَةَ بِالعَمَلِ بِالدِّينِ، لَا بِالِانْتِمَاءِ إِلَيْهِ وَإِلَى الرَّسُولِ الَّذِي جَاءَ بِهِ وَالفَخْرِ بِذَلِكَ، فَقَدَّمَ ذِكْرَ العَمَلِ عَلَى الإِيمَانِ، وَالسِّيَاقُ الَّذِي نَحْنُ فِيهِ هُوَ بَيَانُ أَحْوَالِ أَهْلِ الكِتَابِ فِي عَصْرِ نَبِيِّنَا (٢) ﷺ.

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٥/ ٥٠٤).

(٢) تفسير المنار (٦/ ٥٤).

فصار نظم الآية كالآتي: بَصَّرنا الله بوجود قيادات دينية مؤمنة منهم جمعت بين العلم والعمل، فقال: ﴿الراسخون﴾، والإشارة إلى وجود رأي عامٍّ مؤمن فيهم فقال: ﴿والمؤمنون﴾، ثم وصفهم بأهم ما يدل على الإيمان الحق: هو الإيمان بالوحي السابق واللاحق، وعدم التبعيض في الإيمان؛ لأن التبعيض اعتراض على الله جل ذكره، ثم كسر الإعراب لبيان أهمية ما سيذكر بعد أيضًا، فوصفهم بأهم العبادات العملية البدنية، وهي الصلاة، وكثير من قومهم قد تلاعبوا بها وقتًا وكيفا، وكما، ثم وصفهم بأهم العبادات المالية المتعدية المبينة للعلاقة مع الخلق، وهي الزكاة، ثم وصفهم بالإيمان بالمعاد المقترن بالإيمان بوصف الله بالكمال، ولذا أعاد ذكر الإيمان بالله فقال: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾.

ثم يُبَصِّرُنا الله الثواب المترتب على هذه الصفات الخمس، فيقول: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ١٦٢)

فَبَيَّنَ أَوَّلًا: كَوْنَهُمْ عَالِمِينَ بِأَحْكَامِ اللَّه تَعَالَى وَعَامِلِينَ بِتِلْكَ الأَحْكَامِ، فَأَمَّا عِلْمُهُمْ بِأَحْكَامِ اللَّه فَهُوَ المُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ وَالمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَأَمَّا عَمَلُهُمْ بِتِلْكَ الأَحْكَامِ فَهُوَ المُرَادُ بِقَوْلِهِ ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ لأنهما يدلان على غيرهما من العبادات؛ فالصَّلَاة أَشْرَفُ الطَّاعَاتِ البَدَنِيَّةِ الذاتية، وَالزَّكَاة أَشْرَفُ الطَّاعَاتِ المَالِيَّةِ الاجتماعية المتعدية، وَلَمَّا شَرَحَ كَوْنَهُمْ عَالِمِينَ بِأَحْكَامِ اللَّه وَعَامِلِينَ بِهَا شَرَحَ بَعْدَ ذَلِكَ كَوْنَهُمْ عَالِمِينَ باللَّه، وَأَشْرَفُ المَعَارِفِ العِلْمُ بِالمَبْدَأِ وَالمَعَادِ، فَالعِلْمُ بِالمَبْدَأِ هُوَ المُرَادُ بِقَوْلِهِ وَالمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالعِلْمُ بِالمَعَادِ هُوَ المُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ، وَلَمَّا شَرَحَ هَذِهِ الأَقْسَامَ ظَهَرَ كَوْنُ هَؤُلَاءِ المَذْكُورِينَ عَالِمِينَ بِأَحْكَامِ اللَّه تَعَالَى وَعَامِلِينَ بِهَا وَظَهَرَ كَوْنُهُمْ عَالِمِينَ باللَّه وَبِأَحْوَالِ المَعَادِ، وَإِذَا حَصَلَتْ هَذِهِ العُلُومُ وَالمَعَارِفُ ظَهَرَ كَوْنُهُمْ رَاسِخِينَ فِي

العِلْمِ لِأَنَّ الإِنْسَانَ لَا يُمْكِنُهُ أَنْ يَتَجَاوَزَ هَذَا المَقَامَ فِي الكَمَالِ وَعُلُوِّ الدَّرَجَةِ، ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[١]، ونبه على فخامة أمرهم وعلو شأنهم بأداة البعد فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي العالو الرتبة والهمم[٢].

(١) تفسير الرازي (١١/ ٢٦٥).

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٥/ ٥٠٤).

الفصل الخامس

حق العالم في معرفة أسس الوحي الذي نزل على جميع الأنبياء، ومنهم: أنبياء أهل الكتاب (النساء:١٦٣-١٧٠)

آيات هذا الفصل:

﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدۡ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴿١٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ (النساء:١٦٣-١٧٠).

المناسبة والاتصال:

كان القسم السابق مكثفًا في الكلام عن تلاعب متطرفي الذين هادوا بحق العالم في معرفة الرسالة الخاتمة حيث قال الله كاشفًا عبثهم بالرأي العام العالمي: ﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ (النساء: ١٥٣)، وكأنهم بهذا السؤال يظهرون المنطقية الواضحة.. كأنهم يقولون: إن كنت يا محمد الرسول الخاتم فأنزل

علينا كتابًا من السماء، وعلى الرغم من وضوح الكتاب بين أيديهم إلا أن الله تعالى وجه المسلمين لنقل محل المناظرة والنقاش إلى موطنٍ آخر هو انطلاقهم في هذا السؤال من الرغبة في التلاعب بالعالم، ولذا أخبر الله عن الانتهاكات الضخمة التي اقترفوها في حق أنبيائهم، وفي حق أنفسهم، وفي حق عيسى وأمه عليهما السلام وفي حق النصارى، ثم في حق العالم بأكل الربا والصد عن سبيل الله.. وذلك لبيان عدم القصد الحسن في أسئلتهم، ثم بين موقف الصالحين منهم، وهنا يبين الله حق العالم في معرفة أسس الوحي الذي نزل على جميع الأنبياء، ومنهم: أنبياء أهل الكتاب ليكون جوابًا مباشرًا عن السؤال المعاند الذي ألقاه المتطرفون، حيث تظهر الأسس المنطقية التي قامت عليها الرسالة الخاتمة مما ينبغي تعريف العالم به، وهذه الأسس هي:

الأساس الأول:

المصدرية الإلهية الواحدة للوحي، والتماثل في وقوعه مع جميع الأنبياء، ومنهم أنبياء بني إسرائيل، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالىٰ جده: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ (النساء:١٦٣).

فرد بهذا على تعصب متطرفي الذين هادوا ضد المسيح، وضد نبينا محمد صلى الله عليهما وسلم، ويبين لنا ملابسات نزول هذه الآية ابن عباس، فيقول: قال سُكَين، وعدي بن زيد: يا محمد، ما نعلم الله أنزل على بشر من شيء بعد موسى! فأنزل الله في ذلك من قولهما: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ (النساء:١٦٣)[1]، فهذه فئةٌ من أحبار اليهود جحدوا نزول وحي بعد موسى عليه السلام، وفئةٌ أخرى جحدوا إنزال الوحي أصلًا، يحدث عنهم محمد بن كعب القرظي، فيقول: أنزل الله: ﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ﴾ إلى قوله: ﴿وَقَوۡلِهِمۡ

(١) الطبري (٩/ ٤٠٠).

﴿عَلَىٰ مَرۡيَمَ بُهۡتَٰنًا عَظِيمًا﴾، فلما تلاها عليهم -يعني: على اليهود- وأخبرهم بأعمالهم الخبيثة، جحدوا كل ما أنزل الله، وقالوا: ما أنزل الله على بشر من شيء، ولا على موسى، ولا على عيسى!! وما أنزل الله على نبي من شيء! قال: فحلَّ حُبْوَته، وقال: ولا على أحد!! فأنزل الله جل ثناؤه: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖ﴾ (سورة الأنعام:٩١) [١]، وأنت خبيرٌ -أيدك الله- بأن قوله: فأنزل الله ثم ذكر آية الأنعام إنما عنى بها تأكيدًا للنزول الأول أو إنزالًا آخر على قول من أجاز نزول الآية أكثر من مرة، وذلك لأن آية الأنعام مكية، وحاول بعضهم أن يزعم أن هذا الموضع من آية الأنعام تأخر نزوله حتى نزل في مكة، وذلك ذهولٌ شديد عن السياق، والارتباط بين ما قبل هذه الآية وما بعدها مما يحتم عدم تأخر نزولها.

والمعنى الإجمالي للآية أنه أوحى إلى النبي كما أوحى إلى نوحٍ أول الرسل والنبيين من بعده صلى الله عليهم وسلم، فهم موكب نوراني واحد، ويدعي أهل الكتاب أنهم يؤمنون بهم، أو ببعضهم، وهذه المماثلة في الإيحاء تشمل: كيفية الوحي، وأسس الموحى به، وإنزال الكتب.. فما الذي يحاول المعاندون الكتابيون أن يثبتوه عندما طالبوا أن ينزل عليهم النبي ﷺ كتابًا من السماء؟، وقد فهم ورقة بن نوفل رضي الله عنه ذلك من النبي ﷺ لما سمع قصته مع جبريل في غار حراء، فقال: «هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى» [٢].

«فهو إذن موكب واحد يتراءى على طريق التاريخ البشري الموصول، ورسالة واحدة بهدى واحد للإنذار والتبشير.. موكب واحد يضم هذه الصفوة المختارة من بين البشر: نوح، وإبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط، وعيسى،

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٤٠١).

(٢) البخاري - ترقيم فتح الباري (١ / ٤) برقم ٤.

وأيـوب. ويونس. وهـارون. وسليمان. وداود. وموسى...وغيرهم ممن قصهم اللّه على نبيه ﷺ في القرآن، وممن لم يقصصهم عليه.. موكب من شتى الأقوام والأجناس، وشتى البقاع والأرضين. في شتى الآونة والأزمان. لا يفرقهم نسب ولا جنس، ولا أرض ولا وطن. ولا زمن ولا بيئة. كلهم آت من ذلك المصدر الكريم. وكلهم يحمل ذلك النور الهادي. وكلهم يؤدي الإنذار والتبشير [١]

كأن الله يقول له ولهم: «إِنَّ أَمْرَ نُبُوَّتِكَ وَرِسَالَتِكَ أَوْضَحُ دَلِيلًا، وَأَقْوَمُ قِيلًا مِمَّا يَدَّعُونَ الإِيمَانَ بِمِثْلِهِ مِمَّنْ قَبْلَكَ، وَلِهَذَا نَاسَبَ أَنْ يَخْتِمَ الكَلَامَ فِي مُحَاجَّةِ اليَهُودِ، وَيُمَهِّدَ لِلْكَلَامِ فِي مُحَاجَّةِ النَّصَارَى بِبَيَانِ أَنَّ الوَحْيَ جِنْسٌ وَاحِدٌ، وَأَنَّهُ لَوْ كَانَ إِيمَانُهُمْ بِمَنْ يَدَّعُونَ الإِيمَانَ بِهِمْ مِنَ الرُّسُلِ السَّابِقِينَ صَحِيحًا مَبْنِيًّا عَلَى الفَهْمِ وَالبَصِيرَةِ لَمَا كَفَرُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ فَقَالَ عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾[٢].

وانظر كيف ابتدأ جل ذكره بذكر نوح عليه السلام لأنه أول نبي مرسل بعد آدم عليه الصلاة والسلام، ولا يعلم لنوح كتاب منزل فلم يطالب المعاندون بكتاب منزل لإثبات نبوة النبي؟.

والوحي مشتق من وَحَى يَحِي وَحْيًا، وهو إِلْقَاء عِلْمٍ إلى غيرك في سرعة وخفاء، وربما كان واضحًا، فيطلق على:

الكتابة كما قال العجاج:

لقَدَرٍ كان وَحاهُ الواحي

(١) في ظلال القرآن (٢ / ٨٠٥).

(٢) تفسير المنار (٦/ ٥٥).

وقال:

في سُورة من ربّنا مَوْحَيَّه

والإلهام كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ ﴾ .

والأمر الكوني كما قال العجاج: وَحَى لها القرار فاستقرّتِ

والإشارة كما قال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ (مريم: ١١) أي: أشار إليهم، وقال الشاعر: فأَوْحَتْ إليها والأنامِلُ رُسْلُها

وَعَلَى الإِعْلَامِ فِي الخَفَاءِ، وَهُوَ أَنْ تُعْلِمَ إِنْسَانًا بِأَمْرٍ تُخْفِيهِ عَنْ غَيْرِهِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ، تَعَالَى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ (الأنعام: ١١٢)، وَقَالَ دَاوُود بْنُ جَرِيرٍ:

يَرْمُونَ بِالخُطَبِ الطِّوَالِ وَتَارَةً وَحْيُ اللَّوَاحِظِ خِيفَةَ الرُّقَبَاءِ

والوحى: السرعة، يمد ويقصر. ويقال: الوَحى الوَحى: يعني البِدارَ البِدارَ [١].

وأما الوحي في التعريف الشرعي: إيقاع الكلام ذو المعنى في النفس في خفاء وسرعة، ويلخص النبي ﷺ هيئة مجيء الملك به في قوله: «أَحْيَانًا يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ الجَرَسِ، وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ، فَيُفْصَمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ، وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِيَ المَلَكُ رَجُلًا فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِي مَا يَقُولُ». قَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الوَحْيُ فِي اليَوْمِ الشَّدِيدِ البَرْدِ، فَيَفْصِمُ عَنْهُ وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا [٢].

ومن البصائر المدهشة التي يمدك بها هذا التعبير المجيد ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ

(١) العين٣/ ٣٢٠، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٦/ ٢٥٢٠)، مقاييس اللغة (٦/ ٩٣)، التحرير والتنوير (٦/ ٣١).

(٢) البخاري – ترقيم فتح الباري (١ / ٢) رقم ٢ .

أَوْحَيْنَآ﴾ الشعور بالله الواحد القهار بِمَا لَه مِنَ العَظَمَةِ والجلال، وَالإِرَادَةِ والكمال، والقوة والقدرة المُطْلَقَةِ اللَّائِقَةِ بِمَقَامِ الأُلُوهِيَّةِ، وَالرَّحْمَةِ الوَاسِعَةِ الَّتِي هِيَ شَأْنُ الرُّبُوبِيَّةِ، فعندما يتكلم الله عن جلال الفعل الدال على تعدد الصفات يأتي بـ(نا) الدالة على التعظيم، وعندما ينبئ عن وحدانية الذات يأتي بضمير الفردانية:

لماذا هذا التعبير المدهش: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ...كَمَآ أَوْحَيْنَآ﴾؟ لماذا لم يكن التعبير بما يدل على الوحدانية: إني أوحيت؟

هنا يدهشك الأسلوب القرآني عندما تراه يتربع على عرش البلاغة الذي لا يمكن الوصول إليه، فإن استقراءك الآيات الواردة في كلام الله جل شأنه عن نفسه ينبئك بأنها تأتي على نحوين:

الأول: صيغة التوحيد التي تعبر عن الوحدانية الذاتية لله جل في علاه، فلا شِرْك معه، ولا إله غيره، ولا معبود سواه ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ (طه:١٤)، ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: ٩٢)، ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ (المؤمنون: ٥٢)؛ ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ (الأنعام: ٩٥)، ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾ (الأنعام: ١٠٢)، ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (يونس: ٣) ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ (فاطر: ١٣) ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ (الزمر: ٦) ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (غافر: ٦٤)، ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (الشورى: ١٠).

إن لهذا التعبير دلالته العظيمة في نفي فكرة الأقانيم المسيحية التي تقدح في

التوحيد، ونفي مبدأ الشرك الذي يناقض الألوهية، ودمغ الإلحاد الذي ينفي أعظم الحقائق الوجودية: حقيقة وجود خالق لهذا الكون، ويريد تخريب النظام الذي تقوم عليه السماء والأرض، هنا تعلم لماذا احتلت آية الكرسي مكانتها العظيمة في التعريف بالذات الإلهية، وجاءت سورة الإخلاص لتعدل ثلث القرآن للسبب ذاته.

ولتحقيق هذا المبدأ ترى أن الله يعلمنا أن الصالحين إنما يدعون ربًا واحدًا يمجدونه، ويعظمونه، ويوحدونه في دعائهم، فيقولون: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ (البقرة: ٢٠١)، ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ (الأعراف: ٨٩)، ومثله: مقام التوبة: ﴿أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (البقرة: ١٦٠).

الثاني: صيغة التعظيم والعدل، وذلك لثلاثة أسباب:

إما لتعظيم ذاته تعالى جده عندما يُعطي أو يُخاف كما في قوله جل ذكره: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ﴾ (الأنبياء: ٩٠)، وكقوله: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾، وانظر كيف عقَّب في الموضع ذاته بقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ (الكوثر: ١-٢)، ولم يقل: (صلِّ لنا).

وإما لتعدد الصفات في ذاته الواحدة.. هذه الصفات المتعددة تعمل عملها في إقامة المعنى الذي تم الكلام عنه، وذلك مثل قوله جل ذكره: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ ولأن الوحيَ كلامٌ إلهيٌّ يصل بطريقةٍ خفية إلى مخلوقٍ فإن الذي يوصله بطريقة خفية هو الملك، كما أن الوحي يعكس صفات الرحمة بالإنسانية وسائر المخلوقات، ويعكس صفة العلم، ويعكس صفة الخبرة، ويعكس صفة اللطف.. وهكذا، وهذه الصفات ليست أشخاصًا متعددين أو أقانيم مختلفة بل هي صفاتٌ لموصوفٍ واحدٌ هو الله جل ثناؤه.

وإما لبيان إقدار الله للمخلوق ليشارك الخالق في بعض العمل مثل قوله تعالى ذكره: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾، فإن الله جل ذكره أمر جبريل عليه السلام فنزل بالقرآن، وقد أعقبها بقوله: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ (الإنسان: ٢٣-٢٤)، ومثل ذلك قوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ (القيامة: ١٧، ١٨)، وقوله: ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ (الفرقان: ٣٢) فإن جبريل عليه السلام كان الأداة الواقعية للقراءة القرآنية والترتيل على النبي ﷺ، وذلك مثل قوله جل ذكره: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ (الحجر:٩)، فإن الملائكة والبشر يشاركون في حفظه باعتبارهم الأداة الواقعية لحقيقة الحفظ الإلهية، ومثل ذلك قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ (الأنبياء: ٣٠)، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ (الأعراف: ١١)، ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ (يس:١٢)، فذلك كله يشير إلى المدبرات أمرًا من الملائكة.

وجمع الله بين الوحدانية والتعظيم في قوله جل ذكره: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ (الطور: ٤٨)؛ ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا ...﴾ (القمر:٩-١٢)، فجمع بين العظمة فيما قرأته والتوحيد في مثل قوله: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ﴾، وقال: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾.

ولكنك تجد التوحيد واضحًا في كلام العباد عن ربهم، أو دعائهم له مثل قوله تعالى: ﴿إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ (الكهف: ١٤)، ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ (الكهف:٣٨).

والمشاركة المحدودة التي أقدر الله عليها المخلوقين تراها واضحة في استنبات الثمرات غالبًا، ولذا تجد الله يصف ذلك بـ(نا) مثل قوله تعالى جده: ﴿أَلَمْ

﴿تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا﴾ (فاطر: ٢٧)، فالذي أنزل واحد هو الله جل ثناؤه، والذي أخرج هو تعالى جده لا يشاركه في إنزال المطر أحد، ولكن أقدر المخلوق على أن يستنبت الأشجار والزرع الذي يخرج ثمراتٍ مختلفًا ألوانها،

فالأسلوب القرآني ترى فيه الكلام عن الله بقوله: «إني» ليشير إلى وحدة الذات، وترى فيه الكلام عن الله بـ(نا) ليشير إلى تجمع صفات الكمال؛ أو إلى إشراك خلقه في بعض الفعال، وأشار إلى ذلك بعض العارفين الذي لمحوا جلال الله في ذاته وجماله في صفاته فقال:

فسبحان ربي فوق كلِّ مظنةٍ تعالى جلالًا أن يُحاط بذاته
إذا قال: «إني» ذاك وحدة قدسه وإن قال: «إنَّا» ذاك حشد صفاته [1]

الأساس الثاني:

الإيمان بجميع الأنبياء الذين اختارهم الله ليبلغوا البشرية بأسرار الوجود التي يعلمها خالقها، فتجد عند ذلك مصالحها الحقيقية، وفي مقدمتهم أنبياء التوراة والإنجيل، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾ **(النساء:١٦٣).**

إن الآية تدعونا للجهر بصورة واسعة أمام الرأي العام الكتابي وغيرهم بأننا نؤمن بوحي الله إلى الأنبياء أجمعين، وفي مقدمتهم أنبياء التوراة والإنجيل، كنوحٍ أول رسول أرسل إلى الأرض بعد آدم عليهما السلام، ثم خص من بين النبيين الأنبياء الأكثر شهرة في التوراة، وانظر ترتيبهم:

(١) سبح الشعراوي ﷺ في تأملاته هنا سبحًا طويلًا فجزاه الله خيرًا.

بدأ فذكر إبراهيم أبا الأنبياء عليهم السلام، ثم ذكر إسماعيل وقدمه لأنه ابنه البكر الأكبر، ولعظم مكانته وهضم المتأخرين من أهل الكتاب لذكره، ثم ذكر إسحاق، وهو الابن الثاني لإبراهيم، ثم ذكر يعقوب، وهو ابن إسحاق وعنه انبثق النسب الإسرائيلي، ثم ذكر الأسباط، وهم جَمْعُ سِبْطٍ، وَيُطْلَقُ عَلَى وَلَدِ الوَلَدِ، فهُمْ أَسْبَاطُ إِسْحَاقَ، أَيْ أَحْفَادُهُ، وَهم اثْنَا عَشَرَ سِبْطًا هم أَوْلَادِ يَعْقُوبَ العَشْرَةِ، وَوَلَدا ابْنِهِ يُوسُفَ وَهُمَا (إِفْرَايِمْ وَمَنْسَى)، فالأَسْبَاطَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ كَالقَبَائِلِ فِي وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وأَبْنَاءُ يَعْقُوبَ العَشْرَةُ آبَاءُ الأَسْبَاطِ هُمْ:

١- رُؤْبِينُ (بِالهَمْزَةِ، وَيُخَفَّفُ فَيُقَالُ رُوبِينُ) وَتَصَرَّفَ فِيهِ بَعْضُ العَرَبِ فَقَالُوا رُوبِيلُ ٢- شَمْعُونُ ٣- يَهُوذَا ٤- يَسَاكِرُ ٥- زَبُولُونُ ٦- بِنْيَامِينَ ٧- دَانَ ٨- نَفْتَالِي ٩- جَادُ ١٠- أَشِيرُ.

فَسُلَالَةُ هَؤُلَاءِ مَعَ سُلَالَةِ ابْنَي يُوسُفَ هُمُ اثْنَا عَشَرَ سِبْطًا.

وَأَمَّا سُلَالَةُ (لَاوِي) الِابْنِ الثَّالِثِ لِيَعْقُوبَ فَلَمْ تُجْعَلْ سِبْطًا مُسْتَقِلًّا، بَلْ نِيطَ بِهِمْ خِدْمَةٌ دِينِيَّةٌ خَاصَّةٌ وَلَهُمْ أَحْكَامٌ خَاصَّةٌ بِهِمْ، وَالمُرَادُ بِالوَحْيِ إِلَى الأَسْبَاطِ: الوَحْيُ إِلَى الأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ بُعِثُوا فِيهِمْ [1].

ثم ذكر الله من أنبياء الأسباط: عِيسَى فبدأ به لمحاربة يهود له، ثم ذكر أَيُّوبَ، ولعل ذلك لما اشتهر به من الصبر على بلواه، وفي ذلك تأنيس للنبي ﷺ، ثم ذكر يُونُسَ، وهو مقابل أيوب في عدم استعجال بعض الأحداث، فذكره لمدحه، وإنما فعلته استعجال اجتباه ربه من بعده كما اجتباه من قبله، ثم ذكر هَارُونَ لما اشتهر به من التلطف في معالجة الصعوبة العظيمة التي يجدها في نفسيات الإسرائيليين، ثم ذكر سُلَيْمَانَ لما جمع الله له بين الملك والنبوة، وختم الآية بذكر أنه آتى دَاوُودَ

(١) تفسير المنار (٦/ ٥٧).

زَبُورًا لجمال التعبد والتأله الذي يجده قارئ الزبور، ولبيان مشابهة الزبور للقرآن في الإيحاء به، «ولما كان المقام للتعظيم بالوحي، وكان داود عليه الصلاة والسلام من أهل الكتاب قال الله: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ أي: وهم يدَّعون الإيمان به مع اعترافهم بأنه لم ينزل جملة ولا مكتوبًا من السماء»[1].

ولعله لذلك وردت فيه قراءتان:

﴿زَبُورًا﴾ قرأه الجمهور بفتح الزاي بِمَعْنَى المَزْبُورِ، كَالرُّكُوبِ بِمَعْنَى المَرْكُوبِ، من قولهم: «زَبَرت الكتاب أَزْبُره زَبْرًا» و«ذَبَرته أَذْبُره ذَبْرًا»، إذا كتبته.

وَقَرَأَهُ حَمْزَةُ وَخَلَفٌ بِضَمِّ الزَّايِ، جمع «زَبْرٍ» أو جمع «زَبور»، وذلك لأن الزبور مجموع من عدة فصول مرتلة مكتوبة كقصار السور، ولعل قراءة حمزة تشير إلى عدم إنزاله جملةً واحدةً، فيكون المعنى: وآتينا داود كتبًا وصحفًا مَزْبورة جمعت كلها في كتاب سمى (الزبور) إشادة به كأنه أعلى الزُّبُر شأنًا.

وخص داود بذكر إنزال الزبور على داود دون ذكر بقية الكتب للابتهالات التعظيمية الجليلة التي تضمنها الزبور، وهي محتفى بها عند أهل الكتاب، فتضمن الزبور تألهًا وتنسكًا ومناجاة وبيانًا لعظمة صفات الله سبحانه بخلاف تجديق أهل الكتاب وتحريفهم في بقية الأسفار، وتكوينهم لرؤية ضبابية غير صافية عن الله تعالى، وعباده الصالحين، فكأنه يذكرهم بما به يترنمون وبما به يرددون، فمما جاء فيه:

١ : ١ طوبى للرجل الذي لم يسلك في مشورة الأشرار، وفي طريق الخطاة لم يقف، وفي مجلس المستهزئين لم يجلس.

١ : ٢ لكن في ناموس الرب مسرته، وفي ناموسه يلهج نهارًا وليلًا.

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٥/ ٥٠٦).

١ : ٣ فيكون كشجرةٍ مغروسةٍ عند مجاري المياه، التي تعطي ثمرها في أوانه، وورقها لا يذبل، وكل ما يصنعه ينجح.

الأساس الثالث:

اقتصاص أثر الرسل في تفاعلات الحياة المختلفة، ويُبَصِّرُنا بذلك أن الله جل ذكره عقَّب علىٰ ذكر أعظم أنبياء الشرائع الثلاث بما يدل علىٰ عالمية الرسالة الإلهية الخاتمة، بقوله: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ (النساء:١٦٤)، فيسير المرء علىٰ هدي الرسل، وينظم حياته وفق ذلك، فانظر كيف يجمع الإسلام التعظيم للرسل أجمعين.

فالقصص من قصِّ الأثر أي تتبعه، أي: ورسلًا ذكرنا قصتهم صادقة حقة لا زيف فيها ولا تزوير كما يذكرها الباحث العلمي الذي يتحقق من صدق الواقعة، فيجد الآثار التي لا تكذب متتبعها كما قال تعالى ذكره عن أم موسى عليهما السلام: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ (القصص: ١١) أي: تتبعي أثره، وقفي على خبره، ويتميز القصص القرآني بأنه قصص حق لم يدخله الرمز أو الاختلاق ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ (آل عمران: ٦٢)

والاقتصاص يعني البحث الدقيق عن المعلومات الصحيحة حول الرسل، وهل أحد أعلم من الله ليخبرنا أحوالهم، كما يعني متابعة آثارهم المباركة، والاهتداء بهديهم.

وهنا ذكر الله الرسل بينما تجده ذكر الأنبياء فيما سبق فقال: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ (النساء: ١٦٣)، وقد تتساءل عن الفرق بين الأنبياء والرسل؟

وأول ما ينبغي أن تقرره هنا أن الله جلَّ مجدُه بعث كلًا من الرسول والنبي ليبلغ رسالته إلى أقوامهم؛ فإن الله جل ثناؤه قال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ﴾ (الحج: ٥٢) لكن الرسول يأتي بشريعة تعدل الشريعة السابقة لتناسب التطور البشري، فتضع للناس ما يصلحهم، بينما يكون النبي قدوة شامخة تثبتهم على الشريعة السابقة.

وترى أن الله ينبئك عن قصصٍ لرسلٍ من قبل هذه الآية ممن ورد ذكرهم في القرآن المكي غير الرسل الذين ذكرهم في الآيات السابقة مثل: هود، وصالح، وشعيب، وكذلك فثم رسل آخرون لم يقصهم الله على نبيه ﷺ، كالرسل الذين بعثهم الله إلى أمم بعيدة عن أم القرى، مثل: أمم الصين، واليابان، والهند، وشعوب أفريقيا البعيدة، والشعوب الأصلية لأميركا، وأستراليا، والشعوب السلافية في شمال أوروبا، وقد ورد عن أبي ذر، وأبي أمامة بأسانيد ضعيفة أن النبي ﷺ ذكر أن الأنبياء (مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا)، وأن الرسل منهم: (ثلاثمائة وثلاثة عشر، أو خمسة عشر جمًّا غَفِيرًا).

وختم الله ذكر هذا الركب المهيب للمفلحين، بأنه كلم موسى تكليمًا، ذاكرًا هذه المزية العظيمة التي كانت لموسى حيث كلمه على هيئة خاصة، ولعل من أهم أسباب ذكر التكليم الإلهي لموسى عليه السلام أن يرد على الذين سألوا النبي ﷺ أن ينزل عليهم كتابًا من السماء يصل لفلان منهم أنه رسول الله.. فهل كان الأمر كذلك لموسى؟ لقد كلمه الله تكليمًا، وذلك يشير أيضًا إلى أن الكتاب الذي نزل على موسى، نزل منجمًا على حسب الوقائع، ولم يكتب منه جملة إلا الألواح التي وضعت في تابوت الشهادة.

ويستدل البقاعي على التدرج في نزول الكتاب على موسى عليه السلام بأن تحريم العمل في السبت كان عقب إخراجهم من البحر عند إنزال المن -كما بين في السفر الثاني-

ولم يبين كيف يفعل بالعاصي فيه إلا بعد ذلك بدهر، بدليل ما في السفر الرابع منها في قصة التيه: ومكث بنو إسرائيل في البرية ووجدوا رجلًا يحتطب حطبًا يوم السبت، فقدمه الذين وجدوه يحتطب إلى موسى وهارون وإلى الجماعة كلها، وحبسوه في السجن، لأنه لم يكن أوحي إلى موسى كيف يصنع به؟ فقال الرب لموسى: يقتل هذا الرجل، يرجم بالحجارة خارجًا من العسكر، ورجمه الجماعة كلها بالحجارة ومات -كما أمر الرب موسى؛ ومنها أنه أمرهم- كما بين في السفر الثاني -بنصب قبة الزمان التي كانوا يصلون إليها، ويسمع موسى الكلام منها، ثم بعد ذلك بمدة أمرهم - كما بين في السفر الرابع - بالزيادة فيها؛ ومنها أنه كتب له الألواح في الطور: اللوحين اللذين كسرهما غضبًا من اتخاذهم العجل، ثم لوحين عوضًا عنهما، ثم لما نصبت قبة الزمان صار سبحانه وتعالى يكلمه منها، وغالب أحكامهم إنما شرعت بالكلام الذي كان في قبة الزمان - كما هو في غاية الوضوح في التوراة؛ ومنها ما قال في أواخر السفر الخامس وهو آخرها: فلما أكمل موسى كتاب آيات هذه التوراة في السفر وفرغ منها، أمر موسى الأحبار الذين يحملون تابوت عهد الرب وقال لهم: خذوا سفر هذه السنن واجعلوه في جوف تابوت عهد الله ربكم في جانب من جوانبه، ليكون هناك شاهدًا، لأني قد عرفت جفاءكم وقساوة قلوبكم وما تصيرون إليه، وكيف لا يكون ذلك وقد أغضبتم الرب وأنا حي معكم؟ فمن بعد موتي أحرى أن تفعلوا ذلك، فليجتمع إليّ أشياخ أسباطكم وكتّابكم فأتلو عليهم هذه الأقوال، ولأشهد عليهم السماء والأرض، لأنكم مفسدون من بعد وفاتي، تحيدون عن الطريق الذي آمركم به، شر شديد في آخر الأيام إذا عملتم السيئات بين يدي الرب، وأغضبتموه بأعمال أيديكم، وقال موسى بين يدي جماعة بني إسرائيل: انصتي أيتها السماء فأتكلم، ولتسمع الأرض النطق من فيّ ثم قال: يقول الله: أسخطوني مع الغرباء بأوثانهم، وأغضبوني حين ذبحوا للشياطين - ومضى يتكلم من كلام الله

الذي هو من أحسن التوراة إلى أن قال: فلما أكمل موسى هذه الآيات كلها لبني إسرائيل قال لهم: أقبلوا بقلوبكم إلى هذه الأقوال؛ ثم قال: وكلم الرب موسى ذلك اليوم وقال: اصعد إلى جبل العبرانيين، هذا جبل نابو الذي في أرض مواب حيال إيريحا، وانظر إلى أرض كنعان التي أعطى بني إسرائيل ميراثًا - وذكر بعد ذلك كلامًا طويلًا فيها كلها لمن يتأملها كثير مما هو ظاهر في ذلك، بل صريح [١]،

ولعل ذكر موسى عليه الصلاة والسلام يتضمن أيضًا إشارة إلى إجرام بعض أتباعه الذين يقتلون باسمه بقية أهل الأرض، ويستبيحون أموالهم، ويحاولون طمس أعظم حقائق العالم لإضلال البشر والخلق أجمعين، وتضييع أهم حقوقهم في معرفة الدين الحق.

ولكن المعتدين من أهل الكتاب أصروا على التفريق بين الرسل، فيؤمن اليهود فقط بموسى دون عيسى ومحمد، ويؤمن النصارى فقط بموسى وعيسى دون محمد عليهم الصلاة والسلام أجمعين مع أن الرسل يصدرون عن مشكاة واحدة أوحاها الله إليهم جميعًا، ثم زاد الأصوليون المعتدون من أهل الكتاب على ذلك فاعتدوا على المسلمين وجعلوا كل تركيزهم في مؤسساتهم المحلية والدولية في محاربة المسلمين واحتلال أراضيهم والتعامل معهم على أبشع درجات الاستغلال، ولأن إيمانهم بالله فيه خلل في تصور جلاله وكماله وعظمته فهم يزينون لأنفسهم سوء عملهم بإظهار المسلمين بمظهر الإجرام والإرهاب.

وختم الله الآية ببيان المزية العظيمة التي أوتيها موسى ﷺ في الوحي حيث قال: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾..

وأنت تعلم أن كلام الله مع البشر لا يخرج عن ثلاث حالاتٍ حددتها سورة

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٥/ ٥٠٧)،

الشورى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ (الشورى: ٥١).

الأساس الرابع:

التسليم بالحجة التي أقامها الله جلَّ ذكره علىٰ الخلق أجمعين، حيث أرسل لهم الرسل التي تبشرهم وتنذرهم حول ما ينفعهم وما يضرهم، وفصَّل لهم المصالح التي يمكن أن تجنيها البشرية من خلال الاستفادة من وجودها، واستخلافها في الأرض، ويُبَصِّرُنا بها قوله تعالىٰ: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ (النساء:١٦٥).

فقد خلق الله البشرية، فربما احتجوا على ربهم بأنهم لم يعرفوا طبيعة وجودهم، فلا حجة عليهم إن ضلوا وتاهوا.. لقد فعل ذلك بعضهم، فحكى الله أن الكافرين يقولون: ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ (سورة طه: ١٣٤)، أو يقولون: ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (القَصَص: ٤٧)، ولذا وصف الله في هذه الآية طبيعة وظيفة الرسل التي تصلح أحوال البشرية وتسعدهم فقال: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾، وبين الغاية من وظيفة التبشير والإنذار: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (النساء: ١٦٥)، والتَّبْشِيرُ وَالإِنْذَارُ يظهران المآلات المستقبلية للأعمال الحاضرة، فقد قامت حجة الله على الخلق بأنه أنبأهم بماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم برسلٍ جاءوا من عنده.

فـ «لَيْسَ مِنْ شَأْنِ اللهِ تَعَالَى وَلَا مَنْ سُنَّتِهِ أَنْ يُعَذِّبَ الأُمَمَ التَّعْذِيبَ السَّمَاوِيَّ العَامَّ الَّذِي عَبَّرَ عَنْهُ بِقَوْلِهِ: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ

﴿ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ (العنكبوت:٤٠) إِلَّا إِذَا أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ رَسُولًا فَكَذَّبُوهُ، وَسُنَّتُهُ فِي هَذَا النَّوْعِ مِنَ التَّعْذِيبِ مُبَيَّنَةٌ فِي مَوَاضِعَ مِنَ الكِتَابِ العَزِيزِ، فَهُوَ لَا يَأْخُذُ بِهِ كُلَّ قَوْمٍ كَذَّبُوا رَسُولَهُمْ، بَلْ مَنْ أَنْذَرَهُمُ العَذَابَ فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ، وَتَمَادَوْا فِي عِنَادِ الرُّسُلِ»[1].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ فهو القوي الذي لا يُغلب، وذلك يعني قدرته على خلقهم وقدرته على حسابهم والإحاطة بهم علمًا وقوة، وهو الحكيم الذي يضع الشيء في مواضعه ويعطي الحقوق ويحاسب عليها، وذلك يقتضي أنه يحكم بالقسط، ويقضي بالعدل.

والآية تقرر بوضوح أن إقامة الحجة على البشر تقترن بإرسال الرسل مبشرين ومنذرين، وأن العقل لا يكون وحده حجة على صاحبه إلا بعد أن يسمع كلام الرسل، وهنا تتضح العلاقة بين العقل والرسالة، فالرسالة تخاطب العقل.. فيدرك العقل البعيد عن العناد والاستكبار والغرور صحتها، ثم إنها بعد ذلك توقظه، وتوجهه، وتقيم له منهج النظر الصحيح، فبعد الإقناع الأولي بها يجب أن يسلم العقل قياده لها، ومتى ثبت النص كان هو الحكم، وكان على العقل البشري أن يقبله ويطيعه وينفذه سواء كان مدلوله مألوفًا له أو غريبًا عنه، وعند هذه النقطة الدقيقة يقع خلط كثير.. سواء ممن يريدون تأليه العقل البشري فيجعلونه هو الحكم في صحة أو بطلان المقررات الدينية الصحيحة.. أو ممن يريدون إلغاء العقل، ونفي دوره في الإيمان والهدى.. والطريق الوسط الصحيح هو الذي بيناه هنا.. من أن الرسالة تخاطب العقل ليدرك مقرراتها وترسم له المنهج الصحيح للنظر في هذه المقررات، وفي شؤون الحياة كلها. فإذا أدرك مقرراتها - أي: إذا فهم ماذا يعني النص - لم يعد أمامه إلا التصديق

(١) تفسير المنار (٦/ ٦١).

والطاعة والتنفيذ.. فهي لا تكلف الإنسان العمل بها سواء فهمها أم لم يفهمها.

وهي كذلك لا تبيح له مناقشة مقرراتها متى أدرك هذه المقررات، وفق مفهوم نصوصها.. مناقشتها ليقبلها أو يرفضها. ليحكم بصحتها أو خطئها.. وقد علم أنها جاءته من عند اللّه. الذي لا يقص إلا الحق، ولا يأمر إلا بالخير.

وليس هنالك من هيئة، ولا سلطة، ولا شخص، يملك الحجر على العقول، في إدراك المقصود بالنص الصحيح وأوجه تطبيقه - متى كان قابلًا لأوجه الرأي المتعددة، ومتى كان النظر في حدود الضوابط الصحيحة والمنهج الصحيح، المأخوذ من مقررات الدين - وهذا كذلك معنى أن هذه الرسالة تخاطب العقل..

فإذا قرر اللّه - سبحانه - حقيقة في أمر الكون، أو أمر الإنسان، أو أمر الخلائق الأخرى. أو إذا قرر أمرًا في الفرائض، أو في النواهي.. فهذا الذي قرره اللّه واجب القبول والطاعة ممن يبلغ إليه. متى أدرك المدلول المراد منه..

إذا قال اللّه سبحانه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ﴾.. ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّ﴾.. ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖ﴾..

﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ﴾، ﴿وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ﴾.. إلى آخر ما قال - سبحانه - عن طبيعة الكون والكائنات والأحياء والأشياء.. فالحق هو ما قال. وليس للعقل أن يقول - بعد أن يفهم مدلول النصوص والمقررات التي تنشئها - إنني لا أجد هذا في مقرراتي، أو في علمي، أو في تجاربي.. فكل ما يبلغه العقل في هذا معرض للخطأ والصواب. وما قرره اللّه - سبحانه - لا يحتمل إلا الحق والصواب.

وإذا قال اللّه سبحانه: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾.. ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ...﴾، ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ ..﴾.. إلى آخر ما قال في شأن منهج الحياة البشرية فالحق هو ما قال – سبحانه – وليس للعقل أن يقول: ولكنني أرى المصلحة في كذا وكذا مما يخالف عن أمر اللّه، أو فيما لم يأذن به اللّه ولم يشرعه للناس.. فما يراه العقل مصلحة يحتمل الخطأ والصواب، وتدفع إليه الشهوات والنزوات.. وما يقرره اللّه – سبحانه – لا يحتمل إلا الصحة والصلاح.. وما قرره اللّه سبحانه من العقائد والتصورات، أو من منهج الحياة ونظامها، سواء في موقف العقل إزاءه [1].

الأساس الخامس:

الاعتزاز باللّه في إثبات المصدرية الإلهية للوحي القرآني، واليقين بأنه يحتوي علىٰ علمه، فيؤدي إلىٰ الثبات علىٰ الحق، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالىٰ: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ **(النساء:١٦٦).**

فإن أصر المتطرفون على إنكار المصدرية الإلهية للوحي القرآني، فيكفي شهادة الله بذلك، ماذا يعني ذلك؟

يعني أن مخالفة متطرفي أهل الكتاب وكفرهم بالقرآن وتشويشهم على النبي ﷺ لايقدح في إنزال القرآن بعلم الله تعالى جده، وهذا كالجواب على سؤالهم كتابًا من السماء، فكأنهم لما سمعوا القرآن عاندوا وكابروا فطلبوا كتابًا من السماء

(١) في ظلال القرآن (٢ / ٨٠٦).

وكأنهم يغمزون القرآن بأنه ليس كذلك، وفضح الله موقفهم فقال: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ (النِّسَاء: ١٥٣)، وبين الانتهاكات المختلفة التي اقترفوها، ثم بين أن الله أنزل القرآن بعلمه.

فإن أبى متطرفو أهل الكتاب الشَّهَادَةَ بِصِدْقِ الرَّسُولِ ﷺ فحسبه أن يشهد له ربه بأن الذي أنزله إليه إنما هو وحي أنزله بعلمه جل ذكره، ويبين ابن عباس ﷺ ملابسات نزول هذه الآية فيقول: دخل على رسول الله ﷺ جماعة من يهود، فقال لهم: إني والله أعلم إنكم لتعلمون أنيّ رسول الله! فقالوا: ما نعلم ذلك! فأنزل الله: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ (١).

والشهادة خبر قاطع تصديقًا لخبر ما أو تكذيبًا له، وتقتضي العلم بالمشهود بمشاهدته إما بالبصر أو بالبصيرة، فمعنى الآية: لكن الله يقطع بصحة ما أنزله إليك، وَعُطِفَ شَهَادَةُ المَلَائِكَةِ عَلَى شَهَادَةِ اللَّهِ: لِزِيَادَةِ تَقْرِيرِ هَذِهِ الشَّهَادَةِ بِتَعَدُّدِ الشُّهُودِ(٢)، وَإِظْهَارُ فِعْلِ يَشْهَدُونَ مَعَ وُجُودِ حَرْفِ العَطْفِ لِلتَّأْكِيدِ ولبيان اختلاف نوعي الشهادة.

وشهادة اللَّه بما أنزل إليه تعني أمرين:

الأمر الأول: إخباره لك مباشرة كما في يوم المعراج.

الأمر الثاني: إثباته لصحته بإظهار المعجزات، كما تثبت الدعاوى بالبينات (٣)، وبعث من يقتنع به، ويؤمن بصحته من المنكرين أنفسهم.

وشهادة الملائكة تصديقهم على ذلك، فأنت تراهم، وتسمعهم، وتعدد الشهود ينفي عنك التوهم والتخيل الذي ربما نسبه إليك المشككون، وأكثروا فيه إكثارًا ربما يجعله يشك في نفسه.

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٤٠٩).

(٢) التحرير والتنوير (٦/ ٤٤).

(٣) تفسير الزمخشري (١/ ٥٩٢).

ولهذه الجملة العظيمة الرائعة ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦ﴾ عدة معانٍ:

المعنى الأول: أَيْ مُتَلَبِّسًا بِعِلْمِهِ الخاص الذي لا يعلمه غيره، أَيْ بَالِغًا الغَايَةَ فِي بَابِ الكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ، شَأْنُ مَا يَكُونُ بِعِلْمٍ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ علم الله الذي أودعه فيما أنزل إليك يشهد لك بصحته لَفْظًا وَمَعْنًى، فلفظه يشهد بفخامة مصدره؛ إذ جاء على أسلوبٍ لم يسبق إليه، ومعانيه تشتمل على البيان المعجز في الإخبار عن الكون ماضيًا وحاضرًا ومستقبلًا، والتقعيد لمصالح البشرية التي لا يمكن أن يدركها الناس بأنفسهم، وقد حوى ثمرات الكتب السابقة، ويوسع المعنى ابن كثير فيقول: «أَيْ: فِيهِ عِلْمُهُ الَّذِي أَرَادَ أَنْ يُطْلِعَ العِبَادَ عَلَيْهِ، مِنَ البَيِّنَاتِ وَالهُدَى وَالفُرْقَانِ وَمَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ، وَمَا يَكْرَهُهُ وَيَأْبَاهُ، وَمَا فِيهِ مِنَ العِلْمِ بِالغُيُوبِ مِنَ المَاضِي وَالمُسْتَقْبَلِ، وَمَا فِيهِ مِنْ ذِكْرِ صِفَاتِهِ تَعَالَى المُقَدَّسَةِ، الَّتِي لَا يَعْلَمُهَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ وَلَا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، إِلَّا أَنْ يُعْلِمَه اللَّهُ بِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ (البَقَرَة: ٢٥٥)، وَقَالَ ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾ (طَهَ: ١١٠)»[1].

المعنى الثاني: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦ﴾ يذهب رشيد رضا إلى أن معناه: «مُتَلَبِّسًا بِعِلْمِهِ الخَاصِّ الَّذِي لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُهُ أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ إِنْزَالِهِ إِلَيْكَ ﴿تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَا﴾ (هود: ٤٩) ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَا﴾ (الشورى: ٥٢) ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٨) فَهُوَ بِمَا فِيهِ مِنَ العُلُومِ الإِلَهِيَّةِ وَالأَدَبِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ وَالقَضَائِيَّةِ وَالِاجْتِمَاعِيَّةِ، وَمِنْ عُلُومِ الأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ وَالأُمَمِ وَغَيْرِ ذَلِكَ[2].

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٧٦).

(٢) تفسير المنار (٦/ ٦٢).

المعنى الثالث: أنزله بعلمه وفق أسلوب يعلم أنه الأسلوب الأنموذجي لمخاطبة البشر، ومعالجة قضاياهم، ومن هذا الأسلوب أنه مثاني يمَزْج العُلُوم المودعة فيه بَعْضِهَا بِبَعْضٍ مَزْجًا دَقِيقًا يُؤَلِّفُ بَيْنَ مَا كَانَ مَوْضُوعُهُ مِنْهَا أَعْلَى المَوْضُوعَاتِ، كَالمَسَائِلِ الإِلَهِيَّةِ، وَمَا كَانَ مِنْهَا أَدْنَى كَشُئُونِ الكُفَّارِ وَالمُجْرِمِينَ، بِحَيْثُ يَكُونُ القَلِيلُ مِنْ آيَاتِهِ كَالكَثِيرِ مِنْهَا مُؤَثِّرًا فِي جَذْبِ القُلُوبِ إِلَى الإِيمَانِ، وَتَغْذِيَتِهَا بِالحَقِّ وَالخَيْرِ، وَبِمَا لَهُ مِنَ السُّلْطَانِ عَلَى الأَرْوَاحِ بِهِدَايَتِهِ وَبَلَاغَتِهِ، وَبِمَا فِيهِ مِنْ أَنْبَاءِ الغَيْبِ عَنِ المَاضِي وَالحَاضِرِ وَالمُسْتَقْبَلِ، وَبِمَا فِيهِ مِنَ التَّنَاسُقِ وَالتَّصَادُقِ، وَالسَّلَامَةِ مِنَ الخِلَافِ وَالتَّعَارُضِ، عَلَى كَثْرَةِ عُلُومِهِ وَتَشَعُّبِ فُنُونِهِ، هُوَ بِمِثْلِ هَذِهِ الخَصَائِصِ وَالمَزَايَا البَارِزَةِ فِي أَعْلَى حَالِ الفَصَاحَةِ وَالبَلَاغَةِ، مُثْبِتٌ لِشَهَادَةِ اللهِ - تَعَالَى - بِهِ وَبِأَنَّهُ وَحْيٌ مِنْ عِنْدِهِ ؛ لِأَنَّ تِلْكَ الخَصَائِصَ وَالمَزَايَا لَا يَقْدِرُ عَلَى الإِتْيَانِ بِهَا أَفْرَادُ العُلَمَاءِ الوَاسِعِي الِاطِّلَاعِ، فَضْلًا عَنْ أُمِّيٍّ نَشَأَ بَيْنَ الأُمِّيِّينَ، وَوَصَلَ إِلَى سِنِّ الكُهُولَةِ، وَلَمْ يَظْهَرْ مِنْهُ شَيْءٌ مِنْ مِثْلِ ذَلِكَ، وَلَا مِمَّا دُونَهُ مِنْ مَظَاهِرِ فَصَاحَةِ قَوْمِهِ ؛ كَالشِّعْرِ وَالخَطَابَةِ وَالمُفَاخَرَةِ، فَكَأَنَّهُ - تَعَالَى - يَقُولُ لِنَبِيِّهِ: مَاذَا يَضُرُّكَ جُحُودُ اليَهُودِ وَعَدَمُ شَهَادَتِهِمْ لَكَ، وَاللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَهُ إِلَيْكَ، وَأَنْتَ عَلَى يَقِينٍ مِنْ ذَلِكَ بِالوَحْيِ [١].

وَالبَاءُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ زَائِدَةٌ لِلتَّأْكِيدِ، وَأَصْلُهُ: كَفَى اللَّهُ شَهِيدًا كَقَوْلِهِ: كَفَى الشَّيْبُ وَالإِسْلَامُ لِلْمَرْءِ نَاهِيًا أَوْ يُضَمَّنُ ﴿كَفَىٰ﴾ مَعْنَى اقْتَنِعُوا، فَتَكُونُ البَاء للتعدية [٢]، أي كفى الله شهيدًا فاقتنعوا به.

ويشعر بذلك المربون من علماء الإقراء فيقول عَطَاءُ بْنُ السَّائِبِ: أَقْرَأَنِي أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السَّلمي القرآنَ، وَكَانَ إِذَا قَرَأَ عَلَيْهِ أَحَدُنَا القُرْآنَ قَالَ: قَدْ أخذتَ عِلْمَ اللَّهِ،

(١) تفسير المنار (٦/ ٦٢).

(٢) التحرير والتنوير (٦/ ٤٥).

فَلَيْسَ أحدٌ اليَوْمَ أفضلَ مِنْكَ إِلَّا بِعَمَلٍ، ثُمَّ يَقْرَأُ: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ (١).

الأساس السادس:

الحذر من الوقوع في الكفر، والحذر من الكفار الظالمين المتطرفين الذين يمنعون البشرية من سلوك سبيل سعادتهم الحقيقي الذي يمثله موكب الأنبياء جميعًا، وختمه الرسول الخاتم الذي أيده الله بوحي أنزله الله بعلمه فهذا الصنف من الكفار يقترفون عملين خطيرين يدمرون بهما العالم.

العمل الأول: الصد عن سبيل الله، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ (النساء:١٦٧).

فهم كفروا، ونذروا حياتهم للصد عن سبيل الله، وبين الله جل شأنه أنهم سيجلبون على العالم نتيجتين سيئتين: الأولى الضلال بمعنى التيه والتخبط في اتخاذ القرارات المصيرية في العالم، والثانية: الهلاك والشقاء والبؤس.. وكلا النتيجتين نفهمهما من قوله: ﴿قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾، ولبيان رداءة هاتين النتيجتين وصف الله الضلال بأنه بعيد ليصور لنا مدى الشقاء الذين يسببه للعالم الكفار الصادون عن سبيل الله تعالى، ولماذا يجلبون الشقاء للعالم؟ لأن معنى صدهم عن سبيل الله: حرمان البشرية التي يصدونها عن إدراك أفضل طريق للعيش في هذا العالم، فيتسببون في شقاء العالم في الدنيا قبل الآخرة، وضلالهم البعيد يمنعهم من الاختيارات الصائبة، وذلك لأنهم يضعون الحلول للمشكلات ليزيدوا الناس إشكالًا، فهل يهتدي الضلال في أنفسهم؟ فكيف يهدون غيرهم إلى الصواب؟

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٧٦).

ومن صدهم عن سبيل الله: منعهم الناس من أن يفهموا المعنى الحقيقي لهذه الحياة، ومن صدهم عن سبيل الله منعهم البشرية من أن تعرف رسل ربها وأبرزهم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، ومن صدهم عن سبيل الله منعهم البشرية من أن تعرف خاتم الرسل محمد ﷺ كما قال بعض الذين يعرفونه كما يعرفون أبناءهم: «ما نجد صفة محمد في كتابنا!»، وادعى بعضهم أنهم عُهِد إليهم أن النبوّة لا تكون إلا في ولد هارون ومن ذرية داود، وما أشبه ذلك من الأمور التي كانوا يثبِّطون الناس بها عن اتباع رسول الله محمد ﷺ والتصديق به وبما جاء به من عند الله [١] كما يقول الطبري.

وَانظر كيف وَصَفَ الله الضَّلَالِ بِالبَعِيدِ مَعَ أَنَّ البُعْدَ مِنْ صِفَاتِ المَسَافَاتِ ليصور مقدار قبح ضلالهم وشدته وَكَمَاله فِي نَوْعِهِ، بِحَيْثُ لَا يُدْرَكُ مِقْدَارُهُ، ولا يعلم مدى بعده، وَهُوَ تَشْبِيهٌ شَائِعٌ فِي كَلَامِهِمْ: أَنْ يُشَبِّهُوا بُلُوغَ الكَمَالِ بِمَا يَدُلُّ عَلَى المَسَافَاتِ وَالنِّهَايَاتِ كَقَوْلِهِمْ: بَعِيدُ الغَوْرِ، وَبَعِيدُ القَعْرِ، وَلَا نِهَايَةَ لَهُ، وَلَا غَايَةَ لَهُ، وَرَجُلٌ بَعِيدُ الهِمَّةِ، وَبَعِيدُ المَرْمَى، وَلَا مُنْتَهَى لِكِبَارِهَا، وَبَحْرٌ لَا سَاحِلَ لَهُ.. وَمِنْ بَدِيعِ مُنَاسَبَتِهِ هُنَا أَنَّ الضَّلَالَ الحَقِيقِيَّ يَكُونُ فِي الفَيَافِي وَالمَوَامِي، فَإِذَا اشْتَدَّ التِّيهُ وَالضَّلَالُ بَعُدَ صَاحِبُهُ عَنِ المَعْمُورِ، فَكَانَ فِي وَصْفِهِ بِالبَعِيدِ تَعَاهُدٌ لِلْحَقِيقَةِ، وَإِيمَاءٌ إِلَى أَنَّ فِي إِطْلَاقِهِ عَلَى الكُفْرِ وَالجَهْلِ نقلًا عرفيًا[٢]. والضلال يؤدي إلى التيه والهلاك.. تخيل الأمر! كيف يقود هؤلاء الضالون العالم لشقائه.

العمل الثاني: إشاعة الظلم الذي يسبب ضياع حقوق البشرية، وجلب الآلام للناس، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٤١٠).

(٢) التحرير والتنوير (٦/ ٤٦).

وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ (النساء:١٦٨-١٦٩).

وأما غير هؤلاء الكفار فإن الله تعالى لم يذكرهم وإن ظلموا بشركهم وكفرهم؛ لأن الكلام في بيان الظلم المتعدي الذي يسلب حقوق الآخرين، وتسبب هذين الصنفين في ضياع الحقوق بصدهم عن سبيل الله وظلمهم.

فذكر الله عقوبتين: دنيوية، وأخروية، وفصَّل الأخروية؛ لأنها هي العقوبة الحقيقية، ولأن العقوبة الدنيوية ليست متحتمة، فقد يظلون في دنياهم فرحين بما آتاهم الله متقلبين في البلاد، وما يغني عنهم تقلبهم إذا أصابتهم هذه العقوبة الخطيرة التي ذكرها الله في قوله: ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾.

فأما الدنيوية فأشار الله إليها بقوله: ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴾ فلا يغفر لهم ذنوبهم في الدنيا.. ستقول: ما معنى ذلك؟ المغفرة تعني الستر، وتقتضي العفو، ولكن الله لا يغفر لهم، لماذا؟ ذلك يعني أنهم يجاهرون بالذنوب، ويفاخرون، فانظر إليهم كيف يشجعون الزنا، ويفاخرون بالمتاجرة بالربا.. أليس هذا من عدم المغفرة؟ عائذًا بالله!، وعدم المغفرة تقتضي أنهم يزدادون من الذنوب، والذنب يصنع اسودادًا في القلب، وبسبب عدم المغفرة تزاد منطقة الاسوداد في القلب حتى تغطيه، وهذه مرحلة خطيرة رهيبة يبينها حديث حُذَيْفَة قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «تُعْرَضُ الفِتَنُ عَلَى القُلُوبِ كَالحَصِيرِ عُودًا عُودًا فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا، فَلاَ تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ، وَالآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا

كَالكُوزِ مُجَخِّيًا، لاَ يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلاَ يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلاَّ مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ» (١)، وإذا وصل القلب إلى هذه المرحلة الخطيرة الرهيبة مرحلة السواد المرباد يصير مجرمًا لا يهمه شقاء العالم، ولا دماره بقدر ما يهمه مغامراته وملكه ومناصبه وأمواله ويتلذذ بإجرامه.. وكل ذلك نتج عن عدم مغفرة الله له، وعدم هدايته أي طريق حقيقي يأخذ بناصيته إلى الخير.

وهنا تأتي العقوبة الأخروية الرهيبة، فلا يغفر الله له يوم القيامة، أي: تنشر فضائحه على الملأ نعوذ بجلال الله وعظمته، ويهديه يوم القيامة طريق جهنم حيث يجتمع الخلائق يوم القيامة في حالٍ شديدة، وتعبٍ يجعل الولدان شيبًا، ويصف النبي ﷺ ذلك اليوم فيقول: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة في الرشح إلى أنصاف آذانهم (٢).

وعند ذلك يطلبون سبيلًا ليرتاحوا من ذلك المكان، ويحكي النبي ﷺ عن حالهم فيقول: «فَيَقُولُونَ: لَوِ اسْتَشْفَعْنَا إِلَى رَبِّنَا فَيُرِيحُنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ لَهُ: أَنْتَ آدَمُ أَبُو البَشَرِ خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ ،وَأَسْجَدَ لَكَ المَلاَئِكَةَ، وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّنَا حَتَّى يُرِيحَنَا..» (٣). وتكون الخاتمة أن يهديهم الله ولكن إلى أين.. إلى أين؟ قال الله: ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾.

فقوله تعالى جده: ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ (النساء: ١٦٩)، فالجُمْلَةُ «بَيَانٌ لِجُمْلَةِ ﴿قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ (النِّسَاء: ١٦٧)، لِأَنَّ السَّامِعَ يَتَرَقَّبُ مَعْرِفَةَ جَزَاءِ هَذَا الضلال فبيّنته هَذِهِ الجُمْلَةُ» (٤).

---

(١) مسلم (١ / ٨٩)، ومعنى (مربادًا): متغيرًا سواده بكُدْرَة، والمجخى: المائل عن الاستقامة والاعتدال.

(٢) أحمد(٢ / ١١٢)، وصححه الأرناؤوط.

(٣) البخاري – ترقيم فتح الباري (٩ / ١٨٢) رقم ٤٤٧٦ .

(٤) التحرير والتنوير (٦/ ٤٧).

ثم إنه يفزعهم ويرعبهم؛ إذ يصف لهم دخولهم جهنم وصفًا رهيبًا، فيخبرهم أنهم سيكونون فيها خالدين، وكلمة ﴿خَٰلِدِينَ﴾ يرهبها المرء إن كانت خلود سوء، ويرغب فيها إن كانت خلود هناء، فالخلود[1] يدل على الثبات والملازمة، فَيُقَالُ: خَلَدَ: أَقَامَ، وَأَخْلَدَ أَيْضًا، وَمِنْهُ جَنَّةُ الخُلْدِ ومثلها الخُلُود لبقائها وبقاء أهلها.

قَالَ ابْنُ أَحْمَرَ:

خَلَدَ الحَبِيبُ وَبَادَ حَاضِرُهُ ... إِلَّا مَنَازِلَ كُلُّهَا قَفْرُ

وَقَالَ زُهَيْرٌ:

لِمَنِ الدِّيَارُ غَشَيْتُهَا بِالغَرْقَدِ ... كَالوَحْيِ فِي حَجَرِ المَسِيلِ المُخْلَدِ

ومن ذلك قول امرئ القيس -ولم أرَهم ذكروه أو احتفوا به رحمهم الله-:

ألا عِمْ صَبَاحًا أيّهَا الطّلَلُ البَالي ... وَهل يَعِمنْ مَن كان في العُصُرِ الخالي

وَهَل يَعِمَنْ إلا سَعِيدٌ مُخَلَّد ... قليل الهموم ما يَبيتُ بأوجالِ

وَهَل يَعِمَنْ مَن كان أحدثُ عَهدِه ... ثَلاثِينَ شهرًا في ثَلاثَةِ أحوَالِ

فالخلود «تبرى الشيء من اعتراض الفساد وبقاؤه على الحالة التي هو عليها، وكل ما يتباطأ عنه التغيير والفساد تصفه العرب بالخلود كقولهم للأثافي خوالد، وذلك لطول مكثها لا لدوام بقائها، والخلد اسم للجزء الذي يبقى من الإنسان على حالته فلا يستحيل ما دام الإنسان حيًا استحالة سائر أجزائه، وَيَقُولُونَ: رَجُلٌ مُخْلَدٌ وَمُخْلِدٌ، إِذَا أَبْطَأَ عَنْهُ المَشِيبُ، لِأَنَّ الشَّبَابَ قَدْ لَازَمَهُ وَلَازَمَ هُوَ الشَّبَابَ، وَيُقَال للرّجل إذا بَقِيَ سَوادُ رأْسِه ولِحْيتِه، على الكِبَرِ، إنه لمُخْلِدٌ. وَيُقَال للرّجل، إذا لم تَسقُط أَسنانُه من الهرَمِ: إنه لمُخْلِدٌ، وَيُقَالُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ إِذَا لَصِقَ بِهَا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ (الأعراف: ١٧٦)، وَقوله تَعَالَى: ﴿يَحۡسَبُ أَنَّ

(١) مقاييس اللغة (٢/ ٢٠٧)، المفردات في غريب القرآن (ص ١٥٤)، تاج العروس (٨/ ٦١).

﴿مَالَهُۥٓ أَخۡلَدَهُۥ﴾ (الهمزة: ٣) أَي يَعْمَلُ عَمَلَ مَن لَا يَظُنُّ مَعَ يَسارِه أَنه يَمُوت، وَالخَلَدُ: البَالُ، وَسُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ مُسْتَقِرٌّ فِي القَلْبِ ثَابِتٌ.

وكلمة (أَبَدَ) [١] تدل عَلَى طُولِ المُدَّةِ؛ ويظهر لي أن هذا التعبير قاصر، وينبغي أن يقال: على طول المدة واستمرارها من غير انقطاع، ولذا قَالُوا: الأَبَدُ: الدَّهْرُ، قلت: وكأنهم عنوا به الدهر من غير إحصاء، وقد رأيت ما يؤيد ذلك في نقل مرتضى الزبيدي[٢] حيث قال: هُوَ الدَّهرُ الطَّويلُ الّذي لَيْسَ بمحدودٍ، وَجَمْعُهُ آبَادٌ، وكذلك رأيت الرَّاغب عرفه بقوله: الأَبَدُ، بِالتَّحْرِيكِ، عبارةٌ عَن مدّة الزّمانِ الممتَدّ الّذي لَا يَتجزّأُ كَمَا يتجزَّأُ الزَّمَان[٣].

ولعل قولهم (آبدة) من أوابده تدل على الشيء العظيم غير المعتاد مثل الخلود الدائم غير معتاد في حياة البشر، فقوله: جاء فلان بأبده، أي: بكلمة أو فعلة عظيمة تدل على دهائه، فهي داهِيَة يَبقَى ذِكْرُهَا على الأَبَد، وَجَمعهَا الأَوابِد، وَهِي الدَّوَاهِي، والأَوابِد أَيضًا القَوَافِي الشُّرَّدُ التي لا نظير لها كما قَالَ الفرزدق:

لـن تُـدرِكُـوا كَـرَمِـي بـلُـؤْمِ أَبيكـمُ وأَوابـــدِي بتَـنـحُّـلِ الأَشـعـار[٤]

ومن هنا نفهم قول النبي ﷺ: «إِنَّ لِهَذِهِ البَهَائِمِ أَوَابِدَ كَأَوَابِدِ الوَحْشِ» [٥] أي حركة مستوحشة غير معتادة منها، وَتَأَبَّدَ المَنْزِلُ خَلَا. قَالَ لَبِيدٌ:

عَـفَـتِ الـدِّيَـارُ مَـحَـلُّـهَـا فَـمُـقَـامُـهَـا بِـمِـنًـى تَـأَبَّـدَ غَـوْلُـهَـا فَـرِجَـامُـهَـا[٦]

(١) مقاييس اللغة (١/ ٣٤)، المفردات في غريب القرآن (ص: ٥٩)، تاج العروس (٧/ ٣٧١).

(٢) تاج العروس (٧/ ٣٧١).

(٣) المفردات للراغب الأصفهاني ط. المعرفة (ص: ٨).

(٤) ديوان الفرزدق (١١٠ هـ) (ص: ٣١٠).

(٥) البخاري - ترقيم فتح الباري (٣/ ١٨١) برقم ٢٤٨٨.

(٦) شرح المعلقات السبع للزوزني (ص: ١٧١).

وَقَالُوا فِي المثَل: (طَالَ الأَبَدُ على لُبَد) يُضْرَبُ لكلّ مَا قَدُمَ، فيكون المعنى: خالدين أي ماكثين مكثًا طويلًا ملازمًا لا يطرأ عليهم تغيير في تلقي العذاب، وهم في ذلك متأبدين لا يطرأ عليهم في بقائهم على تلك الحالة انقطاع.

الأساس السابع:

اللجوء إلىٰ الخير غير الإجباري، الذي يكتنزه الإيمان بالرسول الخاتم ﷺ، فقد جاء بإكمال مسيرة موكب النبيين المبلغين عن رب العالمين جل جلاله، وهذا الإيمان يُثَبِّتُ البشرية علىٰ الحق، ويجلب لها الخير، ويُبَصِّرُنا بذلك الإعلان الإلهي للبشرية في قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ (النساء:١٧٠).

فبعد أن ذكر الله تماثل الوحي النازل إلى الأنبياء جميعًا، وأخبر بعظمة الوحي الذي اختص به النبي الخاتم ﷺ، وحذّر ممن يكفر، وضمنَ ذلك التحذيرُ من الكفار المتطرفين الذين يقطعون طرق الخير، فيصدون البشرية عن سبيل الله، ويظلمون أنفسهم، ويظلمون غيرهم، وهنا يطلق نداء عالميًا للبشرية أجمعين يخبرهم أن الرسول الخاتم جاء بالحق الثابت الذي تقوم عليه السماء والأرض، ويأمرهم بالإيمان فهو خيرٌ لهم في الدنيا والآخرة، ويتضمن ذلك التهديد بأن الخير سينأى عنهم إن لم يفعلوا، وذكر الرسول الخاتم معرفًا؛ لأنه أولى الرسل أن يُعْرَف ولأنه الرسول الذي ينتظرونه ليكون خلاص العالم، وخاطب البشرية جميعًا في سياق الكلام مع أهل الكتاب؛ لأن عدم إيمان كثير من القيادات الدينية والسياسية من أهل الكتب الثلاثة بالحق ليس مبررًا لبقية البشرية أن يتركوا البحث عن الحق، فالإيمان بالله، وبرسوله الخاتم يعني الإيمان بجميع الرسل.. وذلك هو الذي يحقق الخير للبشرية، التي أضناها الألم، وعبثت بها الكوارث، ودمرتها النفسيات الأنانية الجشعة، وحطمها

البخلاء والحسدة، وأهلكها الجهلاء بسر الحياة؛ ويلخص ذلك النجاشي ﵁ لما سمع ملخصًا عن رسالة النبي ﷺ من جعفر بن أبي طالب، ويحكي تلك القصة الرائعة عبد الله بن مسعود ﵁ فيقول: «بعثنا رسول الله ﷺ إلى النجاشي ونحن ثمانون رجلًا ومعنا جعفر بن أبي طالب، وعثمان بن مظعون، وبعثت قريش عمارة وعمرو بن العاص وبعثوا معهما هدية إلى النجاشي فلما دخلا عليه سجدا له ودفعا إليه الهدية، وقالا: إن ناسًا من قومنا رغبوا عن ديننا وقد نزلوا أرضك قال: فأين هم ؟ قالوا: هم في أرضك، فبعث إليهم النجاشي. فقال جعفر: أنا خطيبكم اليوم. فاتبعوه حتى دخلوا على النجاشي فلم يسجدوا له فقال: مالكم لا تسجدون للملك ؟ فقال: إن الله عزَّ وجلَّ بعث إلينا نبيه ﷺ فأمرنا أن لا نسجد إلا لله، فقال النجاشي: وما ذاك؟ فأخبر، فقال عمرو بن العاص: إنهم يخالفونك في عيسى قال: فما تقولون في عيسى وأمه؟ قال: نقول كما قال الله عزَّ وجلَّ: هو روح الله وكلمته ألقاها إلى العذراء البتول التي لم يمسسها بشر ولم يفرضها ولد، فتناول النجاشي عودًا فقال: يا معشر القسيسين والرهبان ما تزيدون على ما يقول هؤلاء ما يزن هذه، فمرحبا بكم وبمن جئتم من عنده فأنا أشهد له أنه نبي، ولوددت أني عنده فأحمل نعليه أو قال: أخدمه، فانزلوا حيث شئتم من أرضي» (١)

ما الحق الذي جاء به النبي ﷺ ؟

إنه الأمر الثابت الذي تقوم عليه السموات والأرض، وبه تظهر المخلوقات إلى الوجود، وبه يستقيم الوجود على النظام الذي يحميه ويحرسه من الفساد، فيعطي بهذا الحق لكل شيء حقه من الذرة إلى المجرة.. فإيمانكم بالرسول إيمان بالحق الذي تقوم عليه أنظمة الكون!

(١) مسند الطيالسي، ط. دار هجر (١ / ٢٧٠).

وهل هذا يعني أنه يجب أن نكرهكم على الإيمان بالرسول ﷺ؟ كلا!

فيُبَصِّرُنا قوله: ﴿وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ بأن الله جل ذكره جعل للبشرية الاختيار التام في الدنيا بين الإيمان وعدمه، ولكنهم ينبغي أن يحذروا من تبعات عدم الإيمان، فإن تكفروا فهو غني عن إيمانكم؛ إذ له ما في السماوات وما في الأرض، والله عليم بفكر كل واحدٍ، وسلوكه، حكيم في تشريعه النظم الصالحة للبشرية، والعقوبات الرادعة عن الشرور... أفتظنونه بحاجة إلى إيمانكم!؟.

ولاحظ! يخاطب الله الملك الحق الناسَ جميعًا المؤمنين والكفار.. يقول لهم: ﴿وَإِن تَكْفُرُوا۟﴾، وذلك ليخبر المؤمن أنه إن كفر كليًا أو جزئيًا فلا يظنن أنه أدخل مضرة على ربه أو على الحق الذي كان عليه.. وليخبر الكافر بأنه إن بقي على كفره فلا يظنن أن ربه بحاجة إلى إيمانه.. إنما يدعوهم ليكونوا جزءًا من منظومة الحق التي يسير عليها الكون.. وكفرهم يؤدي إلى إحداث خلل في وجود الحق في حياتهم.. فلماذا يفسدون حياتهم بأنفسهم؟

الصنف الثالث

المفسدون من (النصارى) (النساء:١٧١-١٧٣)

آيات هذا القسم:

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَانَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ١٧١ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ١٧٢ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾ (النساء:١٧١-١٧٣).

المناسبة والاتصال:

بين الله في القسم الأول أن المنافقين هم الصنف الأول الذي يمنع العالم من حقوقه في الحياة: الحقوق التي بها يعرف الناس ربهم، ويعلمون سر هذه الحياة، ويجدون التكريم اللائق بهم، ومن خلالها يتم للبشرية الانتشار في الأرض، ثم فصل جل ذكره في القسم الثاني حق البشرية في معرفة العوامل التي تحفظ من كيد المنافقين، وتمنع من نزول العذاب، وفشل الدول، وتدمير الحضارة، ثم انتقل في القسم الثالث فذكر أن متطرفي اليهود هم الصنف الثاني الذين يمنعون البشرية

من حقوقها، ولذا يشوشون على الرسالة الخاتمة التي جاءت بالحق جالبةً الخير للإنسانية تحررهم من رق الربا، وأغلال أكل أموال الناس بالباطل، ولأجل خطورة التأثير الذي يسببه متطرفو اليهود بالتعاون مع متطرفي النصارى جاء القسم الرابع ليبين حق العالم في معرفة أسس الوحي الذي نزل على جميع الأنبياء، ومنهم: أنبياء أهل الكتاب، وأوضح فيه كيف أنزل الله الكتاب الخاتم بعلمه حيث جعل فيه الخيرية التي تدير أهل الأرض على منهاج الحق، والآن آن الأوان للكلام عن الصنف الثالث من أصناف الذين يمنعون الناس حقوقهم، وهم متطرفو النصارى، فبين هنا حقائق تصلح الخرافات التي وضعها متطرفو النصارى:

الحقيقة الأولىٰ:

ضرورة مخاطبة أهل الكتاب، وخاصة النصارىٰ؛ سواء من خلال النداء العام أم من خلال عقد الحوارات الدائمة معهم، فهذا هو السبيل الأقوم لإيصال الحقائق لمن يتم التحاور معهم، أو للرأي العام المتأثر بهم، ويُبَصِّرُنا بذلك النداء في قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾.

فالنداء يدل على التواصل والحوارات الودية المباشرة، أو المكاتبات، أو المخاطبات، ووصفهم بأهل الكتاب: لإشعارهم بالقرب، ووصفهم بما يمكن أن يفاخروا به العالم، ولاستثارتهم؛ لفعل مقتضيات الكتاب الذي يزعمون الانتساب إليه.

وخاطبهم بوصفهم التشريفي التفخيمي: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ ليوقظ في نفوسهم محبة الرجوع الحقيقي إلى الكتاب، وتحكيمه في حياتهم، ولينبههم على خطأ الزعم بأنهم أهل كتاب ثم لا يلتفتون إليه ولا يطبقونه في حياتهم.

وينبغي تركيز التواصل مع النصارى حتى لا يصبحوا جزءًا من تحالف محاربة الحق؛ فقد دعا الله البشرية إلى الحق في الآية السابقة حيث قال الله تعالى جده:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ ﴾ (النساء: ١٧٠)،

ولقرب الرأي العام النصرانى في الغالب من الحق، ولأنهم ضحية لفساد القيادات الدينية والسياسية السيئة، ولذلك ترى أن الله لم يخبر عنهم إخبار الغائب كما فعل مع اليهود في قوله ﴿ يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ (النساء: ١٥٣) بل وجه لهم الخطاب مباشرة، وهو خطاب ترى فيه المحبة العظيمة ليتفكروا في الحق الذي يدعوهم إليه.

الحقيقة الثانية:

التطرف في الدين طبعٌ أصيل عند بعض أهل الكتاب، خاصة بعض القيادات الدينية، والسياسية، بخلاف الشائع عالميًّا، ويُبَصِّرُنا الله بذلك في قوله: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ ﴾.

والغلو يحمل أعلى مدلولات التطرف؛ إذ هو مجاوزة الحد، وهذه مفاجأة مدهشة لمن لم يقدم الأوليات القرآنية الإسلامية؛ إذ قلبوا الطاولة، وزعموا أننا أصحاب الغلو:

والغلو عند أهل الكتب الثلاثة سبب الإجرام العالمي، والتشويه للحقائق، والاستكبار الذي به تدار المؤسسات الدولية، ويسبب عدم رؤية الرأي العام للحقيقة؛ فعندما يقتل ستيفن بادوك في لاس فيغاس تسعة وخمسين شخصًا، ويصيب أكثر من خمسمائة شخص، لا يسمون ذلك جريمة إرهاب، وعندما تدمر بلدان بأكملها لا يتم تصنيف الفاعلين وفقًا لقوانين العدل، وعندما يرفع البشر إلى منزلة الرسول، والرسول إلى منزلة إلهية لا يسمى ذلك غلوًا.. فكيف يمكن معرفة الحقيقة إذا كان الغلاة يديرون المشهد؟ فأمرنا الله أن نطلب منهم أمرين.. ولا يعزبن عنك أن هذا الطلب منهم طلب منا معشر المسلمين معهم في الوقت ذاته:

الأول: عدم الغلو في دينهم، وهذا يعني أن يستقيموا على دينهم، ولكن يجب ألا يغلو فيه؛ لأن «الغلو» مجاوزة حده المألوف المعروف في المُعْتَقَدَاتِ، وَالأَفْعَالِ، فأهل الكتاب صاروا ثلاث فرق: فرقة غالية حرفت الدين، وملأته بالخرافات، وفرقة رغبت عنه وتركته، ففسقت عن أمر ربها، وفرقة بينهما قائمة بالحق لكن صوتها هو الأضعف.

ولكن ما الغلو؟

إنها -يا مُدارسَ الذكر ممارسَ التفكير والفكر- كلمة مشتقة من غلا [١]، وتدل عَلَى ارْتِفَاعٍ وَمُجَاوَزَةِ قَدْرٍ، فيُقَالُ: غَلَا السِّعْرُ يَغْلُو غَلَاءً، فَهُوَ غالٍ وغَلِيٌّ كغَنِيَ ارتفع وزاد عن حده المعتاد، قالَ الشاعرُ:

وَلَـــو أَنَّـــا نُـبـاعُ كَـــلامَ سَـلْـمـى لأَعْـطَـيْـنـا بِـــهِ ثَـمَـنًـا غَـلِـيًّـا[٢]

وَكذلك غَلَا الرَّجُلُ فِي الأَمْرِ غُلُوًّا، إِذَا جَاوَزَ حَدَّهُ المعتاد، ووصفه بما لا يليق به، ولعل من ذلك غَلَا بِسَهْمِهِ غَلْوًا، إِذَا رَمَى بِهِ سَهْمًا أَقْصَى غَايَتِهِ؛ إذ أخرجه عن حده، وَكُلُّ مَرْمَاةٍ عِنْدَ ذَلِكَ غَلْوَةٌ، وَغَلَتِ القِدْرُ تَغْلِي غَلَيَانًا. وَالغُلَوَاءُ: أَنْ يَمُرَّ عَلَى وَجْهِهِ جَامِحًا. قَالَ:

لَـــمْ تَـلْـتَـفِـتْ لِـلِـدَاتِـهَـا وَمَـضَـتْ عَلَى غُـلَـوَائِـهَـا[٣]

وَأَمَّا الغَالِيَةُ مِنَ الطِّيبِ فَمُمْكِنٌ أَنَّ يَكُونَ مِنْ هَذَا، أَيْ هِيَ غَالِيَةُ القِيمَةِ. يَقُولُونَ: تَغَلَّلْتُ وَتَغَلَّيْتُ مِنَ الغَالِيَةِ، كذا قال ابن فارس، وله وجهٌ بيد أن الذي يظهر لي أن الغالية سميت بذلك لزيادة تطييها على الوجه المعتاد عند مثيلاتها من العطور.

---

(١) مقاييس اللغة (٤/ ٣٨٧)، المفردات في غريب القرآن (ص: ٦١٣)، تاج العروس (٣٩/ ١٨٢).

(٢) البيت من الوافر، وهو بلا نسبة في لسان العرب ١٥/ ١٣٢ (غلا)؛ وتاج العروس (غلا)

(٣) البيت من مجزوء الكامل، وهو لعبيد الله بن قيس الرقيات في ديوانه ص ١٧٦؛ وجمهرة اللغة (٣) ص ١٢٣٣؛ ولسان العرب ١٥/ ١٣٣ (علو).

وبذا يكون معنى غَلاَ فِي الدِّيْن غُلُوًّا تَشَدَّدَ وتَصَلَّبَ حَتَّى جَاوَزَ حد الدين الذي هو حده على الحقيقة، فأخرجه عن الدين الذي ارتضاه الله إلى هوى نفس، والغالِي: اللَّحمُ السمينُ، والغَلْوَاءُ: تجاوز الحدّ في الجماح، وبه شبّه غَلْوَاءُ الشّباب، و«غَلا بالجارية عظمها ولحمها»، إذا أسرعت الشباب فجاوزت لِدَاتها «يغلو بها غُلُوًّا، وغَلاءً»، ومن ذلك قول الحارث بن خالد المخزومي:

إِذْ وُدُّهَا صَافٍ، وَرُؤْيَتُهَا أُمْنِيَّةٌ، وَكَلامُهَا غُنْمُ
لَفَّاءُ مَمْلُوءُ مُخَلْخَلُهَا عَجْزاءُ لَيْسَ لِعَظْمِهَا حَجْمُ
خُمْصَانَةٌ قَلِقٌ مُوَشَّحُهَا رُؤْدُ الشَّبَابِ غَلا بِهَا عَظْمُ
وَكَأَنَّ غَالِيَةً تُبَاشِرُهَا تَحْتَ الثِّيَابِ، إِذَا صَغَا النَّجْمُ [1]

والغلو عند أهل الأديان واضحٌ، فغلاة اليهود غلوا في العهد الإلهي الذي أخبر الله جلَّ ذكره عنه، حتى جعلوه حتمًا لهم.. لجنسهم لا لأعمالهم ووفائهم بعهد الاستخلاف، ثم انطلقوا يفسدون في الأرض معتمدين على العهد الإلهي الذي شوهوا معالمه، وغلاة النصارى غلوا في المسيح عليه السلام مقابل فسق متطرفي اليهود معه حتى رفعوه من مرتبة النبوة إلى مرتبة الإلهية، وغلاة المسلمين غلوا في معالم الإسلام حتى أخرجوها من حد الله لها إلى حدودٍ وضعوها من عند

(١) تفسير الطبري = جامع البيان – ت شاكر (٩/ ٤١٦)، قال محمود شاكر ﷺ: وهو شعر جيد، وصفة حسنة للمرأة.«لفاء»، ملتفة الفخذين، مكتنز لحمها، وهو حسن في النساء، قبيح في الرجال.«مملوء مخلخلها»، موضع خلخالها، خفيت عظامها تحت اللحم، وهو صفة حسنة، لم تظهر عظامها كأنها دقت بالمسامير.«عجزاء»: حسنة العجيزة.«خمصانة» (بفتح الخاء وضمها): ضامرة البطن.«قلق موشحها»، قد استوى خلقها، فالوشاح يجول عليها من ضمورها، لم يمتلئ لحمًا يجعلها لحمة واحدة!! «رؤد الشباب»: شابة حسنة تهتز من النعمة وإشراق اللون. و«الغالية»: ضرب من الطيب.«صغا النجم»: مال للمغيب، وذلك في مطلع الفجر، حين تتغير أفواه البشر وأبدانهم، وتظهر لها رائحة لا تستحب. وقل في الناس من يكون بهذه الصفة!!.

أنفسهم، وهذا الغلو عند أهل الكتب الثلاثة جعلهم فرقًا شتى يستبيحون ما حرم الله عليهم في الحياة من محرمات الشهوات، ومحرمات الدماء البشرية، وانظر للفساد العريض الذي يخلفه تكاتف هؤلاء الغلاة وتعاضدهم سواء أكان ذلك التعاضد متعمدًا أم غير متعمد.

وعندي أن الغلو وإن كان يدل على مجاوزة الحد، فإنه يشير في الوقت ذاته إلى الجفاء والفسق، فغلو المتدين بالتشدد في دينه حتى يستبيح من يرفضه، ويقابله غلو الفاسق في فسقه حتى يزيل المعالم الفاصلة لدينه ويتلاعب بمبدأ ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾.

ويفهم الربيع ذلك فيقول: صاروا فريقين: فريق غلَوا في الدين، فكان غلوهم فيه الشك فيه والرغبة عنه، وفريق منهم قصَّروا عنه، ففسقوا عن أمر ربهم [١]، كما فهم الزمخشري أن الغلو يمكن إطلاقه على طرفي الأمر فقال ممثلًا: «غلت اليهود في حط المسيح عن منزلته، حيث جعلته مولودًا لغير رشدة، وغلت النصارى في رفعه عن مقداره حيث جعلوه إلهًا وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الحَقَّ وهو تنزيهه عن الشريك والولد» [٢].

والغلو يشمل المسلمين، الذين قال عنهم النَّبِيَّ ﷺ: «لاَ تُطْرُونِي، كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ، وَرَسُولُه» [٣]، وعن أنس بن مالك أن رجلًا قال: يا محمد يا سيدنا وابن سيدنا، وخيرنا وابن خيرنا (وفي رواية: أنت ولينا، وأنت سيدنا، وأنت أطول علينا طولًا، وأنت أفضل علينا فضلًا، وأنت

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٤١٧).

(٢) تفسير الزمخشري (١/ ٥٩٣).

(٣) البخاري (٤ / ٢٠٤) رقم ٣٤٤٥ .

الجفنة الغراء)، فقال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس عليكم بتقواكم ولا يستهوينكم الشيطان. أنا محمد بن عبد الله، عبد الله ورسوله. والله ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عزَّ وجلَّ (أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ)» (١).

وكان ﷺ يحارب بوادر الغلو ويسد ذرائعه فيظهر التواضع، ويرد على من يرفعه فوق بعض البشر، فكيف بمن يغلو فيه فوق ذلك، فعَن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا خَيْرَ البَرِيَّةِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «ذَاكَ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام» (٢).

وجمع الله بين نهيهم عن الغلو وبين أمرهم ألا يقولوا على الله إلا الحق، فلا يصفونه بصفات النقص التي عند المخلوقين، ولا ينسبون بشرًا إليه، كنظرية شعب الله المختار، وابن الله المخلص، أي: لا تخترعوا خرافات، تقيمون عليها سياساتكم في العالم، مثل خرافة هرمجدون التي يبني عليها كثيرٌ من متعصبيهم قرارتِهم، ويتبعهم فيها عبيدهم من فساق المسلمين.

الحقيقة الثالثة:

إعلام الرأي العام النصراني والعالمي بالطبيعة الحقيقية المجيدة للمسيح عيسى بن مريم عليهما الصلاة والسلام، بعيدًا عن افتراءات متعصبي اليهود، وغلو متطرفي النصارى.

فالله يُبَصِّرُنا بأن المسيح يتصف بأربع صفات أساسية:

الصفة الأولى: لقبه معروف وهو المسيح، واسمه معروف وأصله معروف فهو

(١) أحمد(٣ / ١٥٣)، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم رجاله ثقات رجال الشيخين غير حماد بن سلمة فمن رجال مسلم.

(٢) صحيح مسلم (٧ / ٩٧) برقم ٦٢٨٧.

عيسى بن مريم، وذلك يدل على أنه بشر كما يدل على أنه يرجع إلى أمه الطاهرة بولادة معجزة، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾:

سبق ذكر سبب تسميته مسيحًا في سورة آل عمران، وهلم فلنعد ما ذكرناه هناك لأهميته فإن الله لما أخبر عن المسيح هنا بأنه عيسى بن مريم إنما رد بذلك على الروايات المزيفة التي افتراها متطرفو اليهود بنسبته إلى الزنا، وعلى القصص المختلقة حول ادعاء أنه إله، أو ابن الله، فهو بوضوح المسيح عيسى بن مريم، ولَقَّبه الله مسيحًا لخصائص اجتمعت من الأقوال الواردة في سبب تسميته بذلك، وهي:

الخاصية الأولى: لِأَنَّهُ مَا كان يمسح بيده ذا عاهة، إلا برىء مِنْ مَرَضِهِ.

الخاصية الثانية: لِأَنَّهُ كَانَ يَمْسَحُ الأَرْضَ أَيْ يَقْطَعُهَا، وَمِنْهُ مِسَاحَةُ أَقْسَامِ الأَرْضِ، وعلى هذين القولين فمسيح فَعِيلٌ بِمَعْنَى: فَاعِلٍ ماسح، كَرَحِيمٍ بِمَعْنَى: رَاحِمٍ.

والخاصية الثالثة: لأنه مُسِحَ مِنَ الأَوْزَارِ وَالآثَامِ، فمُسِحت عنه القوة الذميمة من الذنوب، والأدناس، كما أن الدجال مسحت عنه القوة المحمودة من العلم، والعقل؛ ولذا قال مجاهد: «المسيح» الصدّيق، وهذه الأقوال الثلاثة تعني أنه مبارك، فلعل لقب المسيح يعني المبارك، وقد قال عن نفسه ذلك: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ (مريم: ٣١).

والقول الرابع: لِأَنَّهُ كَانَ مَمْسُوحًا بِدُهْنٍ طَاهِرٍ مُبَارَكٍ يُمْسَحُ بِهِ الأَنْبِيَاءُ، وَلَا يُمْسَحُ بِهِ غَيْرُهُمْ، وعلى هذين القولين فمسيح فعيل بمعنى مفعول، وزعموا أنه مأخوذ من اللفظ العبري أو السرياني (مَشِيح) «مشيحا» أي: الممسوح بالدهن، وتلك علامة على جعل الإسرائيلي كاهنًا، أي: صديقًا، ورجلًا مباركًا، فقيل: خرج من بطن أمه ممسوحًا بالدهن المبارك، وذلك يصيره مباركًا عند بني إسرائيل. وعيسى عليه السلام لم يكن يفارقه ذلك، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِهِ: «وَرَأَيْتُ عِيسَى فَإِذَا هُوَ رَجُلٌ رَبْعَةٌ أَحْمَرُ كَأَنَّمَا خَرَجَ مِنْ دِيمَاسٍ- أي

من الحمام- (يسكب رأسه أو يقطر) [١].

وقد تكررت تسمية المسيح في القرآن بلقبه دون اسمه ثمان مرات، وكلها تدل على أن المبارك لا بد من أن يوجد من يباركه، والمسيح لا بد أن يوجد من يمسحه، وذلك أعظم الرد على من زعم أنه من جوهر الله، فإذا كان من جوهر الله فهو لا يحتاج إلى هذه المسحة أو إلى هذه البركة من الله بالذات ناهيك عن أن يحتاج إليها من غيره أو أن يسعى إليها عند يحيى بن زكريا ليعمده كما يقول الشيخ رؤوف أبو سعدة في (العلم الأعجمي).

وأما تسميته بـ﴿عِيسَى﴾ فقد سماه الله هذا الاسم كما سمى يحيى بذلك، وكما ألهم عبد المطلب ليسمي محمدًا ﷺ بذلك، وسبق لي محاولة البحث عن أنوار هذه التسمية في سورة البقرة، فهلم لننقل ما ذكرناه فيها؛ إذ ينقل الرازي أنه بمعنى: أيشوع، ولعل الأمر كذلك؛ فالشيخ رؤوف أبو سعدة [٢] يشير بأنه في أصول الأناجيل اليونانية يجيء على Iesou (يسو)، تضاف إليه السين في حال الرفع، والنون في حال النصب، فأصبح Iesous، وفي العبرية (يِشوع) يرجع إلى المادة العبرية (يشع) تكافئ (وسع) العربية، وقد سبقه بهذا الاسم عدد من بني إسرائيل من أشهرهم يشوع بن نون تلميذ موسى عليه السلام المعرب عندنا باسم (يوشع)، وأصله عندهم: يِهُوشُوَع، ثم خفف إلى يشوع إما أنه اشتق من يسع ويقابله الأصل العربي وسع من السعة، وإما معناه الله يخلص وكأن المعنى الله خلاص ونجاء أي الله مخلصه ومنجيه أو لعله مخلِّصٌ أرسل من الله، فيخلصهم برسالته، لا أن يخلصهم من خطاياهم بتضحيته بنفسه كما يزعم أصحاب الصلب، فإن موسى عليه السلام سمى تلميذه بالاسم ذاته بعد أن حوله عن اسمه الأول وهو

(١) البخاري - ترقيم فتح الباري (٤ / ١٨٦) برقم ٣٣٩٤.

(٢) ارجع في هذه التفاصيل إلى كتاب العلم الأعجمي ٢/ ٢٦٦، فقد ذكر كلامًا ممتعًا جزاه الله خيرا، وقد خرجت عن بعض ما قال.

هوشِيَع، وفي إنجيل متى١ ما يدل على أن الله يؤيده فهو معه وذلك في تفسير اسمه حيث جاء فيه أن الملك خاطب خطيب مريم يوسف النجار:

٢١ فَسَتَلِدُ ابْنًا وَتَدْعُو اسْمَهُ يَسُوعَ. لأَنَّهُ يُخَلِّصُ شَعْبَهُ مِنْ خَطَايَاهُمْ». ٢٢ وَهذَا كُلُّهُ كَانَ لِكَيْ يَتِمَّ مَا قِيلَ مِنَ الرَّبِّ بِالنَّبِيِّ القَائِلِ: ٢٣ «هُوَذَا العَذْرَاءُ تَحْبَلُ وَتَلِدُ ابْنًا، وَيَدْعُونَ اسْمَهُ عِمَّانُوئِيلَ» الَّذِي تَفْسِيرُهُ: اَللهُ مَعَنَا.

أخبرني الآن: إذا كان اسم (عمانوئيل) يعني: الله معنا، فكيف جعلوا معنى يشوع (يخلص شعبه من خطاياهم) فقط بل الأقرب للمعنى: الله يؤيده ويخلصه هو، ويجعله سببًا في خلاص الناس كسائر الأنبياء.

ولا يوجد ما يدل عندنا على أن أحدًا خطب مريم عليها السلام، ولا ما ينفيه.

فإن صح أن أصل عيسى يسوع فإن القرآن نقلها معربة، وحاد بها عن الأصل لأنه لو نقلها كما نقلها نصارى العرب (يسوع) لكانت من ساع يسوع، سوعًا يعني ضاع وهلك، وما هلك عليه السلام، فما قتلوه وما صلبوه على أنه يظهر لي أن اللفظة اليونانية تجعل الاسم قريبًا جدًا من العربية كما رأيت.

وينقل الشيخ سعدة رحمه الله أن المحرفين جعلوا اسمه يسوع، وأخفوا أي كفروا بأوله الذي يدل على اسم الله في العبرية والآرامية وهو يهوشوع التي تعني الله مخلصه ومنجيه، ليجعلوه هو الخلاص في ذاته، وإن صح ما نقله الشيخ سعدة عن أصل الاسم العبري لعيسى فيكون المعنى: الله مخلصك أي مطهرك من الذين كفروا.. أليس ذلك هو معنى ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ (آل عمران: ٥٥) أي مستخلصك منهم، وهي ذاتها معنى: يِهوشوع، ولكن نصارى العرب تلاعبوا بذلك فسموه: يسوع، ليجعلوا الياء مختصرًا لـ(يهي-يهي) أي هو يكون، ليصير معنى الاسم: هو يكون الخلاص أي هو المخلِّص المنَجِّي لا المخلَّص الناجي -كما يحلل الأمر الشيخ

رؤوف سعدة جزاه الله خيرًا، ورأى الطاهر ﷺ أنه معناه بالعبرانية: السيد أو المبارك تصرفت فيه العربية لتخفف ثقل لفظه العبراني.

وإن كان أصله عربيًا فلعله من عاس يعيست فيقال: بعير أعيس وناقة عيساء وجمعها عيس، فالعَيَسُ، والعِيسَةُ: لونٌ أبيضُ مشرب صفاءً في ظُلْمة خفيّة، وهي إبل بيض يعتري بياضها شقرة، وتعيست الإبل منه، أو من عاس يعوس إذا طاف بالليل، وعاس على عياله كدَّ وكدح لأجلهم، فهل هذا لقيام عيسى على الناس يما يصلحهم، ولأنه أبيض؛ إذ وصفه النبي ﷺ بأنه أحمر، وذلك دالٌّ على شدة البياض تغشاه حمرة لرواء بياضه، فقال النبي ﷺ: «وَرَأَيْتُ عِيسَى، فَإِذَا هُوَ رَجُلٌ رَبْعَةٌ، أَحْمَرُ، كَأَنَّمَا خَرَجَ مِنْ دِيمَاسٍ، يقطر رأسه ماء، وإن لم يصبه بلل، وَأَنَا أَشْبَهُ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ ﷺ بِهِ» (١)، وقوله: ربعة: ليس بطويل، ولا قصير، وقوله: (من ديماس)، يعني: الحمام، والمراد: صفاء اللون، ونضارة الجسم، وكثرة ماء الوجه.

وقد ذكروا أن مريم ولدت عيسى عليه السلام قيل: وهي ابنة اثني عشر عامًا، وقيل: ثلاث عشرة سنة.

الصفة الثانية: ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ ردًا على افتراء من جعله ابن الله تعالى، فهو رسول من الله، وليس ابنه، ولا هو نفسه.

وعلى الرغم من التحريف الذي أصاب الإنجيل إلا أنك تجد بعض المعالم الكبرى ما زالت باقية غضة تشهد على الحقائق التي يثبتها القرآن المجيد، فحقيقة أن عيسى عليه الصلاة والسلام رسول وليس إلهًا تتكرر، ففي إنجيل يوحنا (٨) الذي ترى فيه قول عيسى عليه السلام: ٤٠ ولكنكم الآن تطلبون أن تقتلوني وأنا إنسان قد

(١) صحيح مسلم (١ / ٤٢) رقم ٣٣٩٤.

كلمكم بالحق الذي سمعه من الله، هذا لم يعمله إبراهيم ٤١ أنتم تعملون أعمال أبيكم، فقالوا له: إننا لم نولد من زنا. لنا أب واحدٌ وهو الله ٤٢ فقال لهم يسوع: لو كان الله أباكم لكنتم تحبونني لأني خرجت من قبل الله، وأتيت لأني لم آت من نفسي بل ذاك أرسلني.

وفي إنجيل يوحنا ١٧ : ٣ وهذه هي الحياة الأبدية: أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلته.

الصفة الثالثة: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ﴾، بيانًا لكيفية ولادته على غير المعتاد:

فمعنى ﴿أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ﴾ أعلمها بها وأخبرها وأوصلها، كما يقال: «ألقيت إليك كلمة حسنة» بمعنى: أخبرتك بها وكلّمتك بها»[1]، ووصفه بأنه (كلمة الله) فتقدير الإضافة: كلمة من الله؛ لأنه وجد بكلمة الله التي أوصلها الله إلى مريم ولم يولد على وفق المعتاد في التكاثر البشري كما قال جل ذكره: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ (آل عمران: ٥٩)، وهذه الكلمة هي كَلِمَةُ التَّكْوِينِ التي قال عنها الملك المرسل إلى مريم عليها السلام: ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ (آل عمران٣: ٤٧)، وَالإِلْقَاءُ هو طرح الشيء على موضعٍ ثانٍ طرحًا فيه نوع سرعة، فيُسْتَعْمَلُ فِي المعنويات كما يستعمل في المحسوسات كما قَالَ تَعَالَى ذكره: ﴿فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ ٨٦ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوۡمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ﴾ (النحل١٦: ٨٦- ٨٧).

فأعلم الله مريم بالكلمة عن طريق جبريل، ثم بأمره تعالى نفخ جبريل عليه

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٤١٩)، وقال محمود شاكر ﷺ عن هذا المعنى اللغوي الطبري: قال شاكر: هذا معنى يقيد في كتب اللغة، فإنك قلما تصيبه فيها، وهو بيان واضح جدًا..

السلام فيها، فتكون عيسى عليه السلام.

فأبطل قول المحرفين؟ إن الكلمة هو ذاته، مثل ما جاء في إنجيل يوحنا١:

١ : ١ في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله، وكان الكلمة الله.

وأما قول الإنجيل بعد ذلك:

١ : ٣ كل شيء به كان، وبغيره لم يكن شيء مما كان.

فمعناه صحيحٌ إن كان الضمير يعود إلى الله، أي: كل شيء بالله كان، وهذا معنى الحي القيوم؛ ولذا قال قتادة: ليس الكلمة صارت عيسى، ولكن بالكلمة صار عيسى.. وعند تتبع كلام يوحنا تجد أن المتشابه الذي يحاول إظهاره متطرفو التثليث والتأليه للمسيح يظهر معناه، فمثلًا تجد بعد تلك الكلمات **يوحنا١**:

٤ فِيهِ كَانَتِ الحَيَاةُ، وَالحَيَاةُ كَانَتْ نُورَ النَّاسِ، ٥ وَالنُّورُ يُضِيءُ فِي الظُّلْمَةِ، وَالظُّلْمَةُ لَمْ تُدْرِكْهُ. ٦ كَانَ إِنْسَانٌ مُرْسَلٌ مِنَ اللهِ اسْمُهُ يُوحَنَّا. ٧ هذَا جَاءَ لِلشَّهَادَةِ لِيَشْهَدَ لِلنُّورِ، لِكَيْ يُؤْمِنَ الكُلُّ بِوَاسِطَتِهِ. ٨ لَمْ يَكُنْ هُوَ النُّورَ، بَلْ لِيَشْهَدَ لِلنُّورِ.

٩ كَانَ النُّورُ الحَقِيقِيُّ الَّذِي يُنِيرُ كُلَّ إِنْسَانٍ آتِيًا إِلَى العَالَمِ. ١٠ كَانَ فِي العَالَمِ، وَكُوِّنَ العَالَمُ بِهِ، وَلَمْ يَعْرِفْهُ العَالَمُ.

١١ إِلَى خَاصَّتِهِ جَاءَ، وَخَاصَّتُهُ لَمْ تَقْبَلْهُ. ١٢ وَأَمَّا كُلُّ الَّذِينَ قَبِلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ سُلْطَانًا أَنْ يَصِيرُوا أَوْلاَدَ اللهِ، أَيِ المُؤْمِنُونَ بِاسْمِهِ. ١٣ اَلَّذِينَ وُلِدُوا لَيْسَ مِنْ دَمٍ، وَلاَ مِنْ مَشِيئَةِ جَسَدٍ، وَلاَ مِنْ مَشِيئَةِ رَجُل، بَلْ مِنَ اللهِ.

فادعاء أن الله له ابن يثبتها يوحنا هنا لجميع المؤمنين بالمسيح، بل يبين أن كونهم أولادًا لله الذين ولدوا ليس من دم، ولا من مشيئة جسد، ولا من مشيئة رجل بل من الله.. فصارت كلمة (ابن) لا تعني إلا المعنى المجازي، فترادف هذه الكلمة معنى (عبد) أو معنى (تقي)..

فهذا معنى قول يوحنا بعد مشيرًا إلى عيسى عليه السلام:

٣٤ وَأَنَا قَدْ رَأَيْتُ وَشَهِدْتُ أَنَّ هذَا هُوَ ابْنُ اللهِ.

الصفة الرابعة: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾، بيانًا لتميز خلقه، كما تميز خلق آدم -عليه الصلاة والسلام-أي ونفخة منه؛ لأنه عليه السلام حدث عن نفخة الروح جبريل عليه السلام في دِرْع مريم بأمر الله إياه بذلك، فوجد الجسد بكلمة ﴿كُن﴾ مع النفخ، والروح تعني وجود الحياة في صاحبها، وبعث الروح في أنفس الضالين، وكل ذلك عن رحمة الله جل جلاله، فجمعنا بين أربعة أقوال تفسيرية وردت في معنى كلمة ﴿رُوحُ﴾، وبذا اجتمع في خلق عيسى عليه السلام الروح والكلمة:

فهو عليه السلام خُلِقَ بِنَفْخٍ مِنْ رُوحِ اللهِ، وَهُوَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَيُوَضِّحُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى ذكره فِي أُمِّهِ: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ (الأنبياء٢١: ٩١)، وَقَالَ تَعَالَى جده: ﴿فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا﴾ (مريم١٩: ١٧) كَمَا قَالَ فِي خَلْقِ الإِنْسَانِ بَعْدَ ذِكْرِ بَدْئِهِ مِنْ طِينٍ: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾ (السجدة٣٢: ٨- ٩)[1].

وكذلك نسب إلى أنه «روح من الله»، لأنه بأمره كان. قال: وإنما سمي النفخ «روحًا»، لأنها ريح تخرج من الرُّوح، واستشهدوا على ذلك بقول ذي الرمة في صفة نار نعتها:

فَلَمَّا بَـدَتْ كَفَّنْتُها، وَهْـيَ طِفْلَةٌ بِطَلْسَاءَ لَمْ تَكْمُلْ ذِرَاعًا وَلا شِبْرَا
وَقُلْـتُ لَهُ: ارْفَعْهَا إِلَيْكَ، وَأَحْيِهَا بِرُوحِـكَ، وَاقْتَتْهُ لَهَا قِيتَةً قَدْرَا

(١) تفسير المنار (٦/ ٦٨).

وَظَاهِرْ لَهَا مِنْ يَابِسِ الشَّخْتِ، وَاسْتَعِنْ عَلَيْهَا الصَّبَا، وَاجْعَلْ يَدَيْكَ لَهَا سِتْرَا
وَلَمَّا تَنَمَّتْ تَأْكُلُ الرِّمَّ لَمْ تَدَعْ ذَوَابِلَ مِمَّا يَجْمَعُونَ ولا خُضْرَا
فَلَمَّا جَرَتْ فِي الجَزْلِ جَرْيًا كَأَنَّهُ سَنَا البَرْقِ، أَحْدَثْنَا لِخَالِقِهَا شُكْرَا

وقالوا: يعني بقوله: «أحيها بروحك»، أي: أحيها بنفخك [1].

وهذا المعنى يقتضي وجود الحياة فيمن نفخت فيه الروح، وهو المعنى الثاني:

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٤١٩)، قال شاكر ﷺ في شرح الأبيات: «فقوله: «فلما بدت»، أي بدا سقط النار من الزند الأعلى عند القدح، «كفنها» ضمنها خرقة وسخة، لم تبلغ ذراعًا ولا شبرًا، وهي التي سماها «طلساء»، لسوادها من وسخها. وكانت «طفلة» لأنها سقطت من أمها لوقتها فتلقاها في الخرقة التي جعلها لها كفنًا. وإنما جعلها «كفنًا»: لها، لأن السقط يسقط من الزند يزهر ويضيء حيًا، فإذا وقع في قلب القطنة، لم تر له ضوءًا، فكأن السقط قد مات. ولكنه عاد يتابع السقط حتى يحييه مرة أخرى فقال لصاحبه: «ارفعها إليك»، أي خذها بيدك، وارفعها إلى فمك، ثم «أحيها بروحك»، أي انفخ لها نفخًا يسيرًا، «واقتته لها قيتة قدرًا»، يأمره بالرفق والنفح القليل شيئًا فشيئًا، كأنه جعل النفخ قوتًا لهذا الوليد، يقدر له تقديرًا، شيئًا بعد شيء حتى يكتمل.
ثم لما فرغ من ذلك، ونمت النار بعض النمو، قال له: «ظاهر لها من يابس الشخت»، أي: اجعل دقيق الحطب اليابس بعضه على بعض، وأطعم هذا الوليد - و«الشخت»: الدقيق من كل شيء، - وذلك لتكون النار فيه أسرع. ثم يقول له: استقبل بها ريح الصبا ليكون ذلك لها نماء، «واجعل يديك لها سترًا»، أي: ليسترها من النواحي الأخرى حتى تضربها الصبا، فلا تموت مرة أخرى.
ثم عاد فوصف نموها يقول: «ولما تنمت» وارتفعت، «تأكل الرم»، تأكل ما يبس من أعواد الشجر، لم تدع بعد ذلك يابسًا ولا أخضر مما ظلوا يجمعونه لها، وذلك حين استوت وبلغت أشدها. فلما رأوا النار تجري بعد ذلك في «الجزل» - وهو ما غلظ من الحطب ويبس - كأن ضوءها سنا البرق، رفعوا أيديهم شكرًا للذي خلقهم وخلق النار.
وهذا شعر جيد مستقيم على النهج.
ومما يقيد هنا، ما رواه السيوطي في المزهر، عن أبي عبيد في الغريب المصنف أن الأصمعي قال:
أخبرني عيسى بن عمر، قال: أنشدني ذو الرمة: وَظَاهِرْ لَهَا من يَابِسِ الشَّخْتِ
ثم أنشد بعد هذا: مِنْ بَائِسِ الشَّخْتِ
قال أبو عبيد: فقلت له: إنك أنشدتني «من يابس الشخت»؟ فقال: اليبس من البؤس. قال السيوطي: وذلك إسناد متصل صحيح، فإن أبا عبيد سمعه من الأصمعي».

وحياة منه، فالجسد وجد بكلمة كن، ثم أحيا الله الجسد بروح منه كما قال الله في آدم عليه السلام: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ (الحجر: ٢٩)، ويقتضي كلاهما المعنى الثالث، وهو: ورحمة منه، فعيسى رحمة مهداة من الله على العالم، وكذلك فإن عيسى عليه السلام مُؤَيَّدٌ بِرُوحٍ مِنْهُ تَعَالَى ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ (البقرة٢: ٢٥٣)، وستقول: فقد أيد الله الصالحين من أوليائه بروح منه كما قال جل ثناؤه: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ (سورة المجادلة: ٢٢)، فما وجه تميز عيسى عليه السلام؟

والجواب: تأييده بروح القدس بصورة دائمة يدل على امتيازٍ خاصٍّ به عليه السلام، فقد أيده الله بروح القدس في مراحل حياته كلها، وامتن الله عليه بذلك فقال: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ (المائدة: ١١٠).

ويضاف إلى هذه الأقوال التي أشار إليها الطبري رحمه الله ما قرره الرازي رحمه الله من أنه جرت عادة الناس أنهم إذا وصفوا شيئا بغاية الطهارة والنظافة قالوا: إنه روح، فلما كان عيسى لم يتكون من نطفة الأب وإنما تكون من نفخة جبريل عليه السلام لا جرم وصف بأنه روح، والمراد من قوله منه التشريف والتفضيل كما يقال: هذه نعمة من الله، والمراد كون تلك النعمة كاملة شريفة [1].

وَالرُّوحُ الَّذِي يَحْيَا بِهِ الإِنْسَانُ مَأْخُوذٌ مِنِ اسْمِ الرِّيحِ، وَأَصْلُ الرِّيحِ رِوْحٌ بِالكَسْرِ، فَقُلِبَتِ الوَاوُ يَاءً لِتُنَاسِبَ الكَسْرَةَ، وَجَمْعُهُ أَرْوَاحٌ، وَأَصْلُ هَذَا رِوَاحٌ بِالكَسْرِ، كَمَا أَنَّ اسْمَ النَّفْسِ بِسُكُونِ الفَاءِ مِنَ النَّفَسِ بِفَتْحِهَا[2].

وأما قول بعض أهل العلم: كان عيسى عليه السلام سببًا لحياة الخلق في أديانهم، ومن

(١) تفسير الرازي (١١/ ٢٧١).

(٢) تفسير المنار (٦/ ٦٨).

كان كذلك وصف بأنه روح كما قال تعالى في صفة القرآن: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَا﴾ (الشورى: ٥٢) ففيه ضعف، وذلك لأن عيسى من بين الأنبياء وصف بأنه روح من الله كما وصف آدم عليه السلام، فدل ذلك على ترجيح المعاني الثلاثة السابقة، ومن الأقوال الواردة في معنى «الروح» ههنا، جبريل عليه السلام، ومعنى الكلام: وكلمته ألقاها إلى مريم، وألقاها أيضًا إليها روح من الله، فـ«الروح» معطوف به على ما في قوله: «ألقاها» من ذكر الله، بمعنى: أنّ إلقاء الكلمة إلى مريم كان من الله، ثم من جبريل عليه السلام [١]، ورجح ابن كثير أنه مخلوق من روح مخلوقة، وأضيفت الروح إلى الله على وجه التشريف، كما أضيفت الناقة والبيت إلى الله، في قوله: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ (هود: ٦٤). وفي قوله: ﴿وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ (الحج: ٢٦)، وذلك شبيه بقوله تعالى ذكره: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُ﴾ [٢].

وسمى **إنجيل يوحنا** النبي الخاتم روح الحق في قوله:

١٥: ٢٦ ومتى جاء الفارقليط (المعزي)، الذي سأرسله أنا إليكم من الأب روح الحق الذي من عند الأب ينبثق، فهو يشهد لي.

وأصل الأمر أن عيسى عليه السلام قد بشَّر بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم باسمه: «أحمد»، فجاء المترجمون لهذا الاسم العَلَم، فحوَّلوه إلى صفة، وأطلقوا عليها اسم: (بيريكليتوس) «PERIQLYTOS» أو «PARACLYTOS»، والتي تعني القائم بالحمد الكثير، فعربوها إلى كلمة: «فارقليط»، ثم ترجموا هذه الكلمة بالعربية إلى «المعزي»، أو «المحامي» هربًا من إثبات الاسم.. فأين يذهبون؟

وَزَعَمَ بَعْضُ النَّصَارَى أَنَّ (مَنْ) لِلتَّبْعِيضِ، وَأَنَّ عِيسَى جُزْءٌ مِنَ اللهِ، بِمَعْنَى أَنَّهُ

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٤١٩).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٧٨).

ابْنُهُ، وَنَقَلَ المُفَسِّرُونَ أَنَّ طَبِيبًا نَصْرَانِيًّا لِلرَّشِيدِ نَاظَرَ عَلِيَّ بْنَ حُسَيْنٍ الوَاقِدِيَّ المَرْوَزِيَّ ذَاتَ يَوْمٍ فَقَالَ لَهُ: إِنَّ فِي كِتَابِكُمْ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ عِيسَى عليه السلام، جُزْءٌ مِنْهُ تَعَالَى، وَتَلَا هَذِهِ الآيَةَ، فَقَرَأَ لَهُ الوَاقِدِيُّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُ﴾ (الجاثية٤٥: ١٣) وَقَالَ: يَلْزَمُ إِذًا أَنْ تَكُونَ جَمِيعُ هَذِهِ الأَشْيَاءِ أَجْزَاءً مِنْهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فَانْقَطَعَ النَّصْرَانِيُّ وَأَسْلَمَ، فَفَرِحَ الرَّشِيدُ بِإِسْلَامِهِ، وَوَصَلَ الوَاقِدِيَّ بِصِلَةٍ فَاخِرَةٍ[1].

الآن هلم بنا إلى الآية مجددًا: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُ﴾ (النساء: ١٧١) لترى أن الأسلوب القرآني المميز يستعمل العبارات القوية في بيان المعنى.. هنا جاءت كلمة ﴿إِنَّمَا﴾ لتبين قصرًا إِضَافِيًّا ينبئك بأن عيسى عليه السلام غاية القول فيه أن يكون مَقْصُورًا عَلَى صِفَةِ: الرِّسَالَةِ، وَالكَلِمَةِ، وَالرُّوحِ، ولا يتعدى ذلك إلى أن يقال فيه زورًا: ابن الله.

ومن أهم الأسئلة هنا: لماذا وصف الله عيسى بأنه كلمته، وروح منه، مع أن هذين الوصفين كانا سببًا في إضلال بعض النصارى؛ نظرًا لتأول بعضهم لهما بصورةٍ خاطئة؟ لماذا لم يوصف المسيح بِمِثْلِ مَا وُصِفَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ (الكَهْف: ١١٠)؛ ليكون أصرح وأوضح فِي بَيَانِ العُبُودِيَّةِ، وَأَنْفَى لِلضَّلَالِ؟

هنا يبرز الإعجاز القرآني في إيضاح التحريف الذي طرأ على (كلمة الله)، وكيف تحول ذلك من التوحيد إلى التثليث في الأمم، وأجاب الطاهر رحمه الله بجوابٍ مُوَفَّق[2] ندرجه ضمن الجواب الذي تبصرنا به الآيات:

فالحِكْمَةُ فِي ذَلِكَ أَنَّ هَذَيْنِ الوَصْفَيْنِ وَقَعَا فِي كَلَامِ الإِنْجِيلِ، كما سبق، أَوْ فِي

(١) تفسير المنار (٦/ ٦٩).

(٢) التحرير والتنوير (٦/ ٥٣).

كَلَامِ الحَوَارِيِّينَ وَصْفًا لِعِيسَى عليه السلام وَكَانَا مَفْهُومَيْنِ فِي لُغَةِ المُخَاطَبِينَ يَوْمَئِذٍ، فَلَمَّا تَغَيَّرَتْ أَسَالِيبُ اللُّغَاتِ، وَسَاءَ الفَهْمُ فِي إِدْرَاكِ الحَقِيقَةِ وَالمَجَازِ، تَسَرَّبَ الضَّلَالُ إِلَى النَّصَارَى فِي سُوءِ وَضْعِهِمَا، فَأُرِيدَ التَّنْبِيهُ عَلَى ذَلِكَ الخَطَأِ فِي التَّأْوِيلِ، أَيْ: أَنَّ قُصَارَى مَا وَقَعَ لَدَيْكُمْ مِنْ كَلَامِ الأَنَاجِيلِ هُوَ وَصْفُ المَسِيحِ بِكَلِمَةِ اللَّهِ، وَبِرَوْحِ اللَّهِ، وَلَيْسَ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ مَا يُؤَدِّي إِلَى اعْتِقَادِ أَنَّهُ ابْنُ اللَّهِ، وَأَنَّهُ إِلَهٌ، وعندما يتيقن العبد من هذه الصفات، ويرددها في إسلامه، تكون سببًا في بلوغه جنة ربه، فعَنْ عُبَادَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ، لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ، وَرُوحٌ مِنْهُ، وَالجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ الجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ العَمَلِ» (١).

وهذه الصفات جزء من الشهادة التي يدخل بها المرء الإسلام، ويظهر فيها للعالم أنه مسلم، فعن عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم «مَنْ قَالَ أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَابْنُ أَمَتِهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَأَنَّ الجَنَّةَ حَقٌّ، وَأَنَّ النَّارَ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ شَاءَ» (٢).

الحقيقة الرابعة: الواجب عليكم بعد معرفة حقيقة المسيح عليه السلام: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ جميعًا؛ لأنهم أدوا الرسالة، فكيف تفرقون بينهم، فتؤمنون ببعض وتكفرون ببعض، فالتفريق يجعل الأتباع يتوهمون النبي الآخر عدوًا لهم.

هذه الوصية القرآنية الجامعة تجد قريبًا منها في إنجيل متى ٢٢:

٣٤ أما الفريسيون فلما سمعوا انه أبكم الصدوقيين اجتمعوا معًا ٣٥ وسأله واحد

(١) البخاري (٤ / ٢٠١) رقم ٣٤٣٥.

(٢) مسلم (١ / ٤٢) رقم ٢٨.

منهم، وهو ناموسي ليجربه قائلًا ٣٦ يا معلم! أية وصية هي العظمى في الناموس ٣٧ فقال له يسوع: تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ٣٨ هذه هي الوصية الأولى والعظمى ٣٩ والثانية مثلها تحب قريبك كنفسك ٤٠ بهاتين الوصيتين يتعلق الناموس كله والأنبياء.

ومثل ذلك في إنجيل لوقا١٠: ٢٦ فقال له: ما هو مكتوب في الناموس كيف تقرأ. ٢٧ فأجاب، وقال: تحب الرب إلهك من كل قلبك، ومن كل نفسك، ومن كل قدرتك، ومن كل فكرك، وقريبك مثل نفسك. ٢٨ فقال له: بالصواب أجبت، افعل هذا، فتحيا.

وفي إنجيل يوحنا:

١٧: ٣ وهذه هي الحياة الأبدية: أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلته.

الحقيقة الخامسة:

التوقف عن التثليث، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ﴾.

انتهوا خيرًا لكم في الدنيا والآخرة، فأنتم تقولون: «وننتظر قيامة الأموات والحياة في الدهر الآتي»، أما تخافون من حسابٍ شديدٍ بين يدي الله إن كنتم افتريتم عليه الكذب؟.

ومعنى الكلام: ولا تقولوا هم ثلاثة، أو الإله ثلاثة، وهذه الجملة تختصر كل الفرق المثلثة، على اختلاف مذاهبها:

فكثير منهم يجعلهم: الآب، والابن، والروح القدس، وكلهم ثلاثة أقانيم، لكنهم واحد! والأقانيم جمع أُقْنُومٌ، قيل: معناها: الأَصْل، ورجح الطاهر بن عاشور رحمه الله أنها مُعَرَّبَة بمعنى: (الكَلِمَة)، ونقل زعم بعضهم أن الأُقْنُوم الأَوَّل: أُقْنُومُ الذَّاتِ، أَو الوُجُودِ القَدِيمِ، وَهُوَ الأَبُ، وَهُوَ أَصْلُ المَوْجُودَاتِ، وَالأُقْنُوم الثَّانِي: أُقْنُومُ العِلْمِ، وَهُوَ الِابْنُ،

وَمِنْهُ كَانَ تَدْبِيرُ جَمِيعِ القُوَى العَقْلِيَّةِ، وَالأُقْنُوم الثَّالِثُ: أُقْنُومُ الرُّوحِ القُدُسِ، وَهُوَ صِفَةُ الحَيَاةِ، وَهِيَ دُونُ أُقْنُومِ العِلْمِ، وَمِنْهَا كَانَ إِيجَادُ عَالَمِ المَحْسُوسَاتِ[1].

ولا أظن النصارى أنفسهم يقدرون على فهم التثليث أو الاتفاق على معناه!

وكانت النصرانية موحِّدة، ولم تظهر البدع، والهرطقات إلا بعد رفع المسيح عليه السلام، فقد كتب أكليمندوس الروماني رسالة إلى كنيسة كورنثوس حوالي سنة ٩٦م:

«أليس عندنا إله واحد، ومسيح واحد، وروح نعمة واحد الذي انسكب علينا؟»، وهكذا لا ترى التثليث تصريحًا في الكتاب المقدس، وهو ينافي بصورةٍ مدهشة الطبيعة، والعهد القديم.

ثم بدأت هذه البدع تزداد، وينحسر التوحيد؛ حتى جاءت سنة ٣٢٥م حيث عقد المجمع المسكوني الأول في نيقية، وفرض قانون الإيمان النيقاوي بفرض التثنية، والحكم على الموحدين بالهرطقة، وتلقيبهم بالأريوسيين.

ثم انعقد مجمع ٣٨١م لإدخال تأليه الروح القدس، فزعموا أن الكنيسة كملت قانون الإيمان، فأعلنوا الإيمان بالروح القدس الرب، المحيي المميت، المنبثق عن الآب، نسجد له، ونمجده -كما يقولون-.

ثم مجمع أفسس ٤٣١م للرد على نسطور، ووضعوا مقدمة قانون الإيمان بدعة جديدة فقالوا: نعظمك -يا أم النور الحقيقي-، ونمجدك -أيتها العذراء القديسة مريم-، وزعموا أنها والدة الإله.

ثم انعقد المجمع المسكوني الرابع، وهو مجمع أفسس الثاني حسب الكنائس الشرقيّة، وعرفوا باسم miaphysites أو «غير خلقيدونيون»، بينما تعد الكنيسة

(١) التحرير والتنوير (٦/ ٥٥).

الرومية المجمع الرابع مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١م.

وهنا انقسمت الكنائس إلى: الكنيسة الأرثوذكسية (السريانية، والقبطية، والأرمنية...)، وهم أصحاب عقيدة، لخصها بابا الإسكندرية -كيرلّس- بقوله: «طبيعة واحدة للإله الكلمة المتجسد» (اللاخلقيدونيين). والكنائس الغربية الخلقيدونيين: منهم: لاون أسقف روما، دعا مجمع أفسس الثاني المنعقد عام ٤٤٩م بالمجمع اللصوصي، أوجدوا الصيغة الخلقيدونيّة (طبيعتان).

وفي عام ١٠٥٤م زاد بطرك روما في قانون الإيمان عن الروح القدس عبارة: منبثق من الآب، والابن.

١٥٣١م اعترض مارتن لوثر على الكاثوليكية، فألغى الكهنوت، ونشأت البروتستانتية، وهم يحبون أن يسموا: الإنجيليين.

١٥٣٨م انشق هنري الثامن عن البروتستانت، وأنشأ الأسقفية الأنجليكانية، وأعاد بعض الأسرار.

وكثرت مذاهبهم في موضوع طبيعة المسيح كثرة مربكة؛ حتى قال الرازي: «واعلم أن مذهب النصارى مجهول جدًّا، والذي يتحصل منه أنهم أثبتوا ذاتًا موصوفة بصفات ثلاثة، إلا أنهم وإن سموها صفات، فهي في الحقيقة ذوات [١].

وقال ابن كثير: « ولقد أحسن بعض المتكلمين حيث قال: لو اجتمع عشرة من النصارى؛ لافترقوا على أحد عشر قولا» [٢].

وعند استعراض التاريخ النصراني تجد أن عقيدة التثليث، وكذلك عقيدة بنوة المسيح للّه تعالى ذكره، وعقيدة ألوهية أمه مريم، ودخولها في التثليثات المتعددة

(١) تفسير الرازي (١١/ ٢٧١).

(٢) تفسير ابن كثير ت: سلامة (٢/ ٤٧٩).

الأشكال.. كلها لم تصاحب النصرانية الأولى، وإنما دخلت إليها على فترات متفاوتة التاريخ، مع الوثنيين الذين دخلوا في النصرانية، وهم لم يبرأوا بعد من التصورات الوثنية والآلهة المتعددة.. والتثليث بالذات يغلب أن يكون مقتبسًا من الديانات المصرية القديمة، كتثليث «أوزوريس وإيزيس، وحوريس» والتثليثات المتعددة في هذه الديانة، وما تزال فكرة «التثليث» تصدم عقول المثقفين من النصارى، فيحاول رجال الكنيسة أن يجعلوها مقبولة لهم بشتى الطرق، ومن بينها الإحالة إلى مجهولات لا ينكشف سرها للبشر إلا يوم ينكشف الحجاب عن كل ما في السماوات وما في الأرض! يقول القس بوطر صاحب رسالة: «الأصول والفروع» أحد شراح العقيدة النصرانية في هذه القضية: «قد فهمنا ذلك على قدر طاقة عقولنا. ونرجو أن نفهمه فهما أكثر جلاء في المستقبل، حين ينكشف لنا الحجاب عن كل ما في السماوات والأرض»[١].

وأفاض الشيخ محمد رشيد رضا ﷺ في النقل عن الديانات الوثنية قولها بالتثليث[٢]، فذكر التَّثْلِيث عِنْدَ البَرَاهِمَةِ نقلًا عن مُورِيسْ فِي كتابه (الآثَارُ الهِنْدِيَّةُ القَدِيمَةُ) وعن دُوَانْ (فِي كِتَابِهِ: خُرَافَاتُ التَّوْرَاةِ وَمَا يُمَاثِلُهَا فِي الأَدْيَانِ الأُخْرَى)؛ إذ يسمي الهنود التثليث عندهم: «تري مورتي» وَهِيَ عِبَارَةٌ مُرَكَّبَةٌ مِنْ كَلِمَتَيْنِ بِلُغَتِهِمُ السِّنْسِكْرِيتِيَّةِ: (تري) وَمَعْنَاهَا ثَلَاثَةٌ، وَ(مورتي) وَمَعْنَاهَا هَيْئَاتٌ أَوْ أَقَانِيمُ، وَهِيَ بِرَهْمَا، وَفِشْنُو وَسِيفَا، ثَلَاثَةُ أَقَانِيمَ مُتَّحِدَةٍ لَا تَنْفَكُّ عَنِ الوَحْدَةِ ؛ فَهِيَ إِلَهٌ وَاحِدٌ (بِزَعْمِهِمْ): بِرَهْمَا المُمَثِّلُ لِمَبَادِئِ التَّكْوِينِ وَالخَلْقِ، وَلَا يَزَالُ خَلَّاقًا إِلَهِيًّا، وَهُوَ (الآبُ) وَفِشْنُو يُمَثِّلُ حِفْظَ الأَشْيَاءِ المُكَوَّنَةِ (أَيْ مِنَ الزَّوَالِ وَالفَسَادِ) وَهُوَ الِابْنُ المُنْبَثِقُ وَالمُتَحَوِّلُ عَنِ اللَّاهُوتِيَّةِ، وَسِيفَا هُوَ المُهْلِكُ وَالمُبِيدُ وَالمُبْدِئُ وَالمُعِيدُ (أَيِ الَّذِي لَهُ التَّصَرُّفُ

(١) في ظلال القرآن (٢ / ٨١٥).

(٢) تفسير المنار (٦/ ٧٣).

وَالتَّحْوِيلُ فِي الكَوْنِ) وَهُوَ (رُوحُ القُدُسِ) وَيَدْعُونَهُ (كِرِشْنَا) الرَّبُّ المُخَلِّصُ وَالرُّوحُ العَظِيمُ الَّذِي وُلِدَ مِنْهُ (فِشْنُو) الإِلَهُ الَّذِي ظَهَرَ بِالنَّاسُوتِ عَلَى الأَرْضِ لِيُخَلِّصَ النَّاسَ، فَهُوَ أَحَدُ الأَقَانِيمِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي هِيَ الإِلَهُ الوَاحِدُ، وَلِلْهُنُودِ تَمَاثِيلُ لِلْوَحْدَةِ وَالتَّثْلِيثِ، مِنْهَا تِمْثَالٌ وَاحِدٌ لَهُ ثَلَاثَةُ وُجُوهٍ.

وكذلك التَّثْلِيثُ عِنْدَ البُوذِيِّينَ، فهم يَعْبُدُونَ إِلَهًا مُثَلَّثَ الأَقَانِيمِ، وَأَسَاسُ فَلْسَفَتِهِ اللَّاهُوتِيَّةِ أَنَّ «تَاوُو» وَهُوَ العَقْلُ الأَوَّلُ الأَزَلِيُّ انْبَثَقَ مِنْهُ وَاحِدٌ، وَمِنَ الثَّانِي انْبَثَقَ ثَالِثٌ، وَعَنْ هَذَا الثَّالِثِ انْبَثَقَ كُلُّ شَيْءٍ.

وأما التَّثْلِيثُ عِنْدَ قُدَمَاءِ المِصْرِيِّينَ فكَانَ قِسِّيسُو هَيْكَلِ مَنْفِيسَ بِمِصْرَ يُعَبِّرُونَ عَنِ الثَّالُوثِ المُقَدَّسِ لِلْمُبْتَدِئِينَ بِتَعَلُّمِ الدِّينِ، بِقَوْلِهِمْ: إِنَّ الأَوَّلَ خَلَقَ الثَّانِيَ، وَهُمَا خَلَقَا الثَّالِثَ، وَسَأَلَ تُولِيسُو مَلِكُ مِصْرَ الكَاهِنَ تِنِيشُوكِي أَنْ يُخْبِرَهُ: هَلْ كَانَ قَبْلَهُ أَحَدٌ أَعْظَمُ مِنْهُ، وَهَلْ يَكُونُ بَعْدَهُ أَحَدٌ أَعْظَمُ مِنْهُ؟ فَأَجَابَهُ الكَاهِنُ: نَعَمْ، يُوجَدُ مَنْ هُوَ أَعْظَمُ وَهُوَ اللهُ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، ثُمَّ الكَلِمَةُ، وَمَعَهُمَا رُوحُ القُدُسِ؛ وَلِهَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةِ طَبِيعَةٌ وَاحِدَةٌ وَهُمْ وَاحِدٌ بِالذَّاتِ، وَعَنْهُمْ صَدَرَتِ القُوَّةُ الأَبَدِيَّةُ، فَاذْهَبْ يَا فَانِي، يَا صَاحِبَ الحَيَاةِ القَصِيرَةِ. فتَسْمِيَة الأُقْنُومِ الثَّانِي مِنَ الثَّالُوثِ المُقَدَّسِ « كَلِمَةً » هُوَ مِنْ أَصْلٍ وَثَنِيٍّ مِصْرِيٍّ دَخَلَ فِي غَيْرِهِ مِنَ الدِّيَانَاتِ كَالمَسِيحِيَّةِ.

ويكمل رشيد رضا ﷺ بأن التَّثْلِيث وجد عِنْدَ أَهْلِ أُورُبَّـةَ: اليُونَانِ وَالرُّومَانِ وَغَيْرِهِمْ، فَنَقَلَ دُوَانْ عَنْ أُورْفِيُوسْ أَحَدِ كُتَّابِ اليُونَانِ وَشُعَرَائِهِمْ قَبْلَ المَسِيحِ بِعِدَّةِ قُرُونٍ أَنَّهُ قَالَ: « كُلُّ الأَشْيَاءِ صَنَعَهَا الإِلَهُ الوَاحِدُ مُثَلَّثُ الأَسْمَاءِ وَالأَقَانِيمِ »[1].

لقد خلص عدد من باحثي النصارى إلى هذه الحقيقة المرعبة التي عبرت عنها ماري وايلدز: «يمكننا القول بان حضارة نصرانية حقيقية لم تقم إلا أن الحضارة

(١) تفسير المنار (٦/ ٧٦).

الغربية القائمة والتي تعرف بالحضارة النصرانية إنما هي في الحقيقة تطور للحضارة الإغريقية الرومانية القديمة» [١].

الحقيقة السادسة:

ينبغي إعلان الوحدانية الحقيقية في الألوهية لله دون سواه، فهي السبيل الوحيد لتفسير الكون، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالىٰ:﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾، وبغير ذلك يتم تدمير العقل الإنساني.

فالتثليث ينافي الوجود، وينافي العقل ولم يكن في النصرانية الأولى، بل إن إسحاق نيوتن كتب رسالته: (وصف تاريخي لتحريفين مهمين للكتاب المقدس)، وبالإنكليزية An Historical Account of Two Notable Corruptions of Scripture)، وطبعت بعد موته ب ٢٧ سنة، وأهم التحريفين المذكورين هو التحريف الذي أريد منه تثبيت بدعة التثليث الكفرية، حيث وجد في نسخة الملك جيمس في يوحنا ٥ : ٧ «فإنَّ هنالك ثلاثة شهودٍ في السَّماء، الآب، والكلمة، والرُّوح القدس، وهؤلاء الثَّلاثة هم واحدٌ»، فكشف نيوتن هذا التحريف الخبيث بالرجوع إلى المخطوطات اليونانية، واللاتينية الأصلية، حيث لم توجد هذه الفقرة.

وإنك لتعجب من غلاة النصرانية كيف يعرضون عن نصوص التوحيد الواضحة في الكتاب المقدس إلى نصوص متشابهة يزعمون أنها تدل على التثليث، فأما التوحيد في العهد القديم فلا يحتاج إلى أن تدلل عليه، وأما في العهد الجديد، فخذ بعض هذه النصوص:

في إنجيل متى١٩: ١٦ وَإِذَا وَاحِدٌ تَقَدَّمَ وَقَالَ لَهُ: «أَيُّهَا المُعَلِّمُ الصَّالِحُ، أَيَّ صَلاَحٍ أَعْمَلُ لِتَكُونَ لِيَ الحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ؟» ١٧ فَقَالَ لَهُ: «لِمَاذَا تَدْعُونِي صَالِحًا؟ لَيْسَ

(١) ماري ويلدز في كتابها رحلتي من الكنيسة إلى الإسلام ص٢١.

أَحَدٌ صَالِحًا إِلاَّ وَاحِدٌ وَهُوَ اللهُ. وَلكِنْ إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَدْخُلَ الحَيَاةَ فَاحْفَظِ الوَصَايَا» ١٨ قَالَ لَهُ: «أَيَّةَ الوَصَايَا؟» فَقَالَ يَسُوعُ: «لاَ تَقْتُلْ. لاَ تَزْنِ. لاَ تَسْرِقْ. لاَ تَشْهَدْ بِالزُّورِ. ١٩ أَكْرِمْ أَبَاكَ وَأُمَّكَ، وَأَحِبَّ قَرِيبَكَ كَنَفْسِكَ» ٢٠ قَالَ لَهُ الشَّابُّ: «هذِهِ كُلُّهَا حَفِظْتُهَا مُنْذُ حَدَاثَتِي. فَمَاذَا يُعْوِزُنِي بَعْدُ؟» ٢١ قَالَ لَهُ يَسُوعُ: «إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَكُونَ كَامِلًا فَاذْهَبْ وَبِعْ أَمْلاَكَكَ وَأَعْطِ الفُقَرَاءَ، فَيَكُونَ لَكَ كَنْزٌ فِي السَّمَاءِ، وَتَعَالَ اتْبَعْنِي».

وفي لوقا١٠:

٢٥ وَإِذَا نَامُوسِيٌّ قَامَ يُجَرِّبُهُ قَائِلًا: «يَا مُعَلِّمُ، مَاذَا أَعْمَلُ لأَرِثَ الحَيَاةَ الأَبَدِيَّةَ؟» ٢٦ فَقَالَ لَهُ: «مَا هُوَ مَكْتُوبٌ فِي النَّامُوسِ. كَيْفَ تَقْرَأُ؟» ٢٧ فَأَجَابَ وَقَالَ: «تُحِبُّ الرَّبَّ إِلهَكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ، وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ، وَمِنْ كُلِّ قُدْرَتِكَ، وَمِنْ كُلِّ فِكْرِكَ، وَقَرِيبَكَ مِثْلَ نَفْسِكَ» ٢٨ فَقَالَ لَهُ: «بِالصَّوَابِ أَجَبْتَ. اِفْعَلْ هذَا فَتَحْيَا».

وفي يوحنا ١٧ :

٣ وَهذِهِ هِيَ الحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ: أَنْ يَعْرِفُوكَ أَنْتَ الإِلهَ الحَقِيقِيَّ وَحْدَكَ وَيَسُوعَ المَسِيحَ الَّذِي أَرْسَلْتَهُ.

الحقيقة السابعة:

التوقف عن جريمة ادعاء الولد لله تعالىٰ، فهو يناقض مبدأ الألوهية الحقيقية، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالىٰ: ﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

ننزه الله، ونعظمه أن يكون له ولد، فوجود الولد دليل الحاجة، فكيف يحتاج وهو ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، فمن كان مالكًا للسموات والأرض وما فيهن.. كيف يحتاج ولدًا أو صاحبة؟ جل وعزَّ ربنا عن هذا الاتهام الفظيع، فالولادة امتداد لمن

يفنى، واحتياج لمن يضعف.. فكيف يوصف بذلك الحي القيوم جل في علاه؟

واختار لَفْظ: الوَلَدِ، فِي الرَّدِّ عَلَيْهِمْ، دون لَفْظِ الِابْنِ، الَّذِي يُعَبِّرُونَ بِهِ؛ ليبين أَنَّهُمْ يصرون على المعنى الحقيقي للولادة، وذلك منتهى الشناعة.

وقد بصرتنا هذه الكلمات القرآنية المعجزة بكيفية ولادة المسيح عليه السلام، تعال فلننظر كيف كانت هذه الولادة من خلال **رواية إنجيل لوقا** (١) كمثال على ما ذكرته الأناجيل:

٢٦ وَفِي الشَّهْرِ السَّادِسِ أُرْسِلَ جِبْرَائِيلُ المَلاَكُ مِنَ اللهِ إِلَى مَدِينَةٍ مِنَ الجَلِيلِ اسْمُهَا نَاصِرَةُ، ٢٧ إِلَى عَذْرَاءَ مَخْطُوبَةٍ لِرَجُل مِنْ بَيْتِ دَاوُدَ اسْمُهُ يُوسُفُ. وَاسْمُ العَذْرَاءِ مَرْيَمُ ٢٨ فَدَخَلَ إِلَيْهَا المَلاَكُ وَقَالَ: «سَلاَمٌ لَكِ أَيَّتُهَا المُنْعَمُ عَلَيْهَا! اَلرَّبُّ مَعَكِ. مُبَارَكَةٌ أَنْتِ فِي النِّسَاءِ ٢٩ فَلَمَّا رَأَتْهُ اضْطَرَبَتْ مِنْ كَلاَمِهِ، وَفَكَّرَتْ: «مَا عَسَى أَنْ تَكُونَ هذِهِ التَّحِيَّةُ!

٣٠ فَقَالَ لَهَا المَلاَكُ: «لاَ تَخَافِي يَا مَرْيَمُ، لأَنَّكِ قَدْ وَجَدْتِ نِعْمَةً عِنْدَ اللهِ. ٣١ وَهَا أَنْتِ سَتَحْبَلِينَ وَتَلِدِينَ ابْنًا وَتُسَمِّينَهُ يَسُوعَ. ٣٢ هذَا يَكُونُ عَظِيمًا، وَابْنَ العَلِيِّ يُدْعَى، وَيُعْطِيهِ الرَّبُّ الإِلهُ كُرْسِيَّ دَاوُدَ أَبِيهِ،٣٣ وَيَمْلِكُ عَلَى بَيْتِ يَعْقُوبَ إِلَى الأَبَدِ، وَلاَ يَكُونُ لِمُلْكِهِ نِهَايَةٌ». ٣٤ فَقَالَتْ مَرْيَمُ لِلْمَلاَكِ: «كَيْفَ يَكُونُ هذَا وَأَنَا لَسْتُ أَعْرِفُ رَجُلاً؟»

٣٥ فَأَجَابَ المَلاَكُ وَقَالَ لَهَا: «اَلرُّوحُ القُدُسُ يَحِلُّ عَلَيْكِ، وَقُوَّةُ العَلِيِّ تُظَلِّلُكِ، فَلِذلِكَ أَيْضًا القُدُّوسُ المَوْلُودُ مِنْكِ يُدْعَى ابْنَ اللهِ.

وهذا كلامٌ فيه جمالٌ يقارب كلمات الله في القرآن المجيد إلا أنك تجد فيه بعض المتشابه الذي دخل فيه اللبس على بعض النصارى، فقد دعا فيه (عيسى) ابن (الله)، وهذا لا يدل على ولادة النسب ولا الجنس تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا،

فما أكثر ما تجد في الكتاب المقدس أن يدعى الصالحون بأنهم أبناء الله مثل:

ففي سفر التكوين: ٦: ٢ إن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا.

وفي المزامير: ٢٩: ١ قدموا للرب يا أبناء الله قدموا للرب مجدا وعزًّا.

وفي سفر المزامير: ٨٩: ٥ والسماوات تحمد عجائبك يا رب وحقك أيضا في جماعة القديسين ٨٩: ٦ لأنه من في السماء يعادل الرب من يشبه الرب بين أبناء الله.

وفي سفر هوشع: ١: ١٠ لكن يكون عدد بني إسرائيل كرمل البحر الذي لا يكال ولا يعد ويكون عوضًا عن أن يقال لهم: لستم شعبي يقال لهم: أبناء الله الحي .

وفي إنجيل متى الإصحاح ٥: ٩ طوبى لصانعي السلام لأنهم أبناء الله يدعون.

وفي رسالة بولس إلى أهل رومية ٨: ١٤ لأن كل الذين ينقادون بروح الله فأولئك هم أبناء الله ١٥ إذ لم تأخذوا روح العبودية أيضًا للخوف بل أخذتم روح التبني الذي به نصرخ يا أبا الأب ١٦ الروح نفسه أيضًا يشهد لأرواحنا أننا أولاد الله ١٧ فإن كنا أولادًا فإننا ورثة أيضًا ورثة الله ووارثون مع المسيح إن كنا نتألم معه لكي نتمجد أيضا معه، وأما ما ذكره من أن مريم كانت مخطوبة، فلم يرد لهذا ذكر عندنا ولا ندري مدى صحته.

ويبين عيسى عليه السلام أنه إنسان أُمِر بالتبليغ، وكثيرًا ما يكرر أنه ابن إنسان، **ففي إنجيل يوحنا٨** يخاطب الذين عارضوا الإيمان به فيقول: ٤٠ ولكنكم الآن تطلبون أن تقتلوني وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذي سمعه من الله. هذا لم يعمله إبراهيم ٤١ أنتم تعملون أعمال أبيكم. فقالوا له: إننا لم نولد من زنا. لنا أب واحدٌ وهو الله ٤٢ فقال لهم يسوع: لو كان الله أباكم لكنتم تحبونني لأني

خرجت من قبل الله، وأتيت لأني لم آت من نفسي بل ذاك أرسلني ٤٣ لماذا لا تفهمون كلامي؟ لأنكم لا تقدرون أن تسمعوا قولي.

وكلمة أب هنا تعني الرب، وهي منتشرة بهذه الهيئة في كامل الكتاب المقدس، ولذا يقولها من أظهر أنه تقي وعبد لله كما ترى، ويغلب على ظني أنها محرفة عن الرب.

يا من تنتسبون لدعوة المسيح عليه السلام.. ارجعوا إلى الحق فإن الحق يحرركم من عبوديتكم للخرافات الباطلة.. حرروا أنفسكم من خطيئة الافتراء الكبير على المسيح عليه السلام، فإنكم الآن عبيدٌ لهذه الخطيئة الشنيعة، فقد قال المسيح لمن عارضه من اليهود، كما في إنجيل يوحنا (٨): ٣٢ وتعرفون الحق والحق يحرركم ٣٣ أجابوه: إننا ذرية إبراهيم ولم نستعبد لأحدٍ قطُّ. كيف تقول أنت: إنكم تصيرون أحرارًا؟ ٣٤ أجابهم يسوع: الحق الحق أقول لكم: إن كل من يعمل الخطية هو عبدٌ للخطية ٣٨ والعبد لا يبقى في البيت إلى الأبد أما الابن فيبقى إلى الأبد.

إن لم يرجع الغلاة من أهل الكتاب عن تفسيرهم العبثي بمبدأ الإيمان بالله وحده دون تثنية أو تثليث يُدَمَّر العقل الإنساني، ويلجأ إلى إنكار أوضح البدهيات، ويعتنق الخرافة (عُقدة راسل: هذا الفيلسوف الرياضي الكبير برتراند راسل يصف نفسه بأنه لا أدري «حين يتحدث إلى جمهور فلسفي بحت»، ولكنه ملحد «حين يتكلم إلى الرجل العادي في الشارع»، ويرى بأنه لا يستطيع دحض الإله المسيحي على غرار الطريقة التي لا يستطيع بها دحض الآلهة الأولمبية، ويقال: بأنه حافظ على وجهة نظره بأن الدين هو أكثر قليلًا من الخرافات، وعلى الرغم من أي آثارٍ إيجابية قد يقدمها الدين، فهو ضار إلى حد كبير على الناس.. هكذا ينقل الواصفون لفكر راسل وحياته، وكل ذلك ليس إلا من آثار التصور الغالي المنحرف لغلاة أهل الكتاب.. لو كان راسل متجرداً حقًا، وعرف التصور الإسلامي الصافي النقي.. أما كان يرجع عن

غيه، ويرى النور في حيرته (اللاأدرية)؟

الحقيقة الثامنة:

الله وكيل لعباده في القيام علىٰ احتياجاتهم، فكيف يحتاج للولد ليتوكل عن عباده في الدفاع عن خطاياهم، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ (النساء:١٧١).

بل إن أعظم الخلق مكانة عنده يتعزز بإظهار عبوديته لربه، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾.

ولذا فأجل الخلق مقامًا يتشرف بعبادة الله، الذي يكفينا أن يكون وكيلًا عنا؛ لذا أتبع الله حقيقة الكفاية بوكالته قوله: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾، يستنكف من نكفت الدمع، إذا نحيته عن خدك بأصبعك، أي: لن يأنف، لن يطلب النكف بأن يرمي بعبوديته جانبًا، بل يفتخر ولن يتعالى، بل يتلذذ، ولن يمتنع تعززًا بل يتلهف لإظهار العبودية اعتزازًا طالبًا لعزة يمنحه الله إياها؛ فهو يعلم أن عزته في إظهار عبوديته لله، وكذلك الملائكة المقربون، أي: ولا من هو مثله، أو أعلى قدرًا، وأعظم مكانة.

وصدور المعجزات على يد عيسى عليه السلام، يجعله أكثر عبودية لله، الذي أوجد على يديه المعجزات؛ فإن الملائكة المقربين، أعلى حالًا منه في العلم بالمغيبات؛ لأنهم مطلعون على اللوح المحفوظ، وأعلى حالًا منه في القدرة؛ لأن ثمانية منهم حملوا العرش على عظمته، وكذلك أن يخلق عيسى من غير أب معجزة، لا تعني أن يستنكف عن عبادة الله، فالملائكة مخلوقون من غير أبوين.

وكلمة ﴿ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ يحتمل أن يكون وصفًا كاشفًا، فالملائكة كلهم مقربون،

ويحتمل أن يكون وصفًا تأسيسيًا، فالمراد بهم خواص الملائكة كجبرئيل وميكائيل وإسرافيل.

وقد ورد ما يدل على اعتزاز عيسى عليه السلام بعبادة الله في الأناجيل:

ففي إنجيل متى٤: ٨ ثم أخذه أيضًا إبليس إلى جبلٍ عالٍ جدًا، وأراه جميع ممالك العالم، ومجدها. ٩ وقال له: أعطيك هذه جميعها، إن خررت، وسجدت لي ١٠ حينئذ قال له يسوع: اذهب -يا شيطان- لأنه مكتوب: للرب إلهك تسجد، وإياه وحده تعبد.

وفي سفر التثنية ٦: ٤ اسمع -يا إسرائيل- الرب إلهنا رب واحد. ٥ فتحب الرب إلهك من كل قلبك، ومن كل نفسك، ومن كل قوتك. ٦ ولتكن هذه الكلمات التي أنا أوصيك بها اليوم على قلبك.

وينقل مرقس ١٢هذه الوصية، فيقول: ٢٨ فجاء واحد من الكتبة، وسمعهم يتحاورون، فلما رأى أنه أجابهم حسنا: سأله: أية وصية هي أول الكل؟ ٢٩ فأجابه يسوع: إن أول كل الوصايا هي: اسمع -يا إسرائيل- الرب إلهنا رب واحد. ٣٠ وتحب الرب إلهك من كل قلبك، ومن كل نفسك، ومن كل فكرك، ومن كل قدرتك، هذه هي الوصية الأولى.

وفي إنجيل برنابا الذي تنكره الكنائس المعاصرة:

ثم قال يسوع: اذا كان إلهنا لم يرد أن يظهر نفسه لموسى عبده، ولا لإيليا الذي أحبه كثيرًا، ولا لنبي ما، أتظنون أن الله يظهر نفسه لهذا الجيل الفاقد الإيمان؟ بل ألا تعلمون أن الله قد خلق بكلمة واحدة كل شيء من العدم، وأن منشأ البشر جميعهم من كتلة

طين؟ فكيف إذا يكون الله شبيها بالإنسان؟، ويل للذين يدَعون الشيطان يخدعهم [١].

وفيه أيضًا: حينئذ رفع يسوع يديه، وقال: أيها الرب إلهنا، هذا هو إيماني، الذي آتي به إلى دينونتك، شاهدًا على كل من يؤمن بخلاف ذلك، ثم التفت إلى الشعب، وقال: توبوا؛ لأنكم تعرفون خطيئتكم من كل ما قال الكاهن. إنه مكتوب في سفر موسى عهد الله إلى الأبد، فإني بشر منظور، وكتلة من طين تمشي على الأرض، وفان كسائر البشر، وإنه كان لي بداية، وسيكون لي نهاية، وإني لا أقدر أن أبتدع خلق ذبابة، حينئذ رفع الشعب أصواتهم باكين، وقالوا: لقد أخطأنا اليك -أيها الرب إلهنا- فارحمنا، وتضرع كل منهم إلى يسوع؛ ليصلي لأجل أمن المدينة المقدسة؛ لكيلا يدفعها الله في غضبه؛ لتدوسها الأمم [٢].

الحقيقة التاسعة:

أن يعلموا أن المحاسبة علىٰ العقائد أخروية، وليست دنيوية، ولا بد من تذكير الغلاة المتطرفين من أهل الكتب الثلاثة، وغيرهم بالعاقبة الأخروية لمن يتبع الحق، أو يستنكف عنه: ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾.

فلم يرتب على الاختيار الديني عقوبة دنيوية، بل ذكر العقوبة الأخروية، ثم يفَصِّل جلَّ ذكره مصير من يتبع الحق ممن ينقلب على عقبيه مستكبرًا، فيقول: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

---

(١) إنجيل برنابا (ص: ٨٨).

(٢) إنجيل برنابا (ص: ١١٦).

وهذا يدل على أمرين:

الأمر الأول: يجب التعايش بين أصحاب هذه الملل؛ إذ الحساب بناء على هذه العقائد أخروي، وليس دنيويًّا.

الأمر الثاني: التذكير بخطورة الانحراف عن الصراط المستقيم في مجال الرسالة، والألوهية؛ لأن العقوبة الأخروية للمستكبرين، تعني ضياع المستقبل الحقيقي، فكيف يؤثر بعض البشر المناصب، والمغانم الدنيوية، مع إخفاء الحق عن الرأي العام؟

وأما المؤمنون العاملون للصالحات في العالم، ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾: الحسنة بعشر أمثالها، ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾، بصورة غير محدودة من الأجور، لا يعلمها إلا معطيها العظيم.




الخَاتِمَة

خاتمة السُّورة

حق العالم في التعرف إلى الكتاب الحق الذي يبث الحياة الإنسانية، ويحل مشاكلها، فيجمع بين العقل والعاطفة، ويحمي الإنسانية من الضلالة والجهالة، والتأكيد على استكمال حقوق الأسرة المتوسطة

[النساء:١٧٤-١٧٦]






خاتمة سورة النساء تكونت من ثلاث آيات في آخر السورة، ولكنك عندما تنظر إليها باعتبار أنها خاتمة تندهش؛ إذ تراها جاءت بصورةٍ غير معتادة لتكون خاتمة لموضوع أو لسورة، فقد انقسمت إلى قسمين: أولهما خاتمة واضحة تتضمن نداء عالميًا، والثاني: استئناف الحديث عن حكمٍ تشريعي فقهي تمثل آيته الآية الثالثة من آيات المواريث،

فلننظر في القسم الأول:



شكل (١٢) صورة توضح القسمين اللذين يكونان خاتمة سورة النساء

القسم الأول

الإعلان العالمي للدستور الإلهي الخاتم الذي يجمع بين المعجزة والمنهج ويُقَدِّم الحلول الحقيقية للبشرية

(النساء:١٧٤-١٧٥)

آيات هذا القسم:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ١٧٤ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمًا﴾ (النساء:١٧٤-١٧٥).

المناسبة والاتصال:

أقام الله في هذه السورة نظامًا متكاملًا لتمكين الإنسانية من الاستقرار والانتشار في الأرض، ولذا أسَّسَ للحقوق الإنسانية التي تسعد البشرية بها، فابتدأ بحقوق الطفل فهو نتيجة التقاء النفس الواحدة التي خلقها الله وزوجها، وذكر نحو ستة عشر حقًّا من حقوق اليتامى، ثم ذكر حقوق النساء في الزواج، وأكد على ذمتهن المالية المستقلة، وبنى منظومة لامتلاك الثروة من خلال الإرث بصورة عادلة تستفيد منها الأجيال القادمة أكثر من الحاضرة لأنها تمثل الامتداد الإنساني، وأقام النظام الأسري للأسرة المركزية والأسرة المتوسطة (ذوي الأرحام) والأسرة البشرية الكبيرة وبذا أنشأ النظام الاجتماعي، ثم نقلنا نقلة مدهشة إلى تأسيس مبادئ الإدارة الراشدة التي تعمل على منح الحقوق إلى أهلها (أداء الأمانات إلى أهلها) والحكم بين الناس بالعدل، وقد تم ذلك في المحاور الأربعة الأولى، فإن قام ذلك البناء الأسري والاجتماعي والإداري

المشيد احتاج إلى حماية النظم الأمنية والعسكرية التي تنشر الأمن الداخلي، وتقيم مبادئ السلام العالمي، وذلك ما وجدته في المحور الخامس،ولم يقف عند ذلك حتى قرر في المحور السادس أهم القوانين القضائية التي تنصر المظلومين بغض النظر عن دينهم وجنسهم، ثم جاء المحور السابع ليبين الحقائق التاريخية، والفكرية حول الأصناف الذين يعملون على سلب البشرية حقوقها المعرفية والمادية، ويعملون على الحيلولة بين الناس وبين إدراك أهم حقوقهم المعرفية، وهو معرفة الوحي الذي جاء إلى النبيين، وختمه الله بمحمد الأمين ﷺ.

أما وقد أقام الله لهذه البشرية النظم المدهشة التي تسعدها في الدنيا والآخرة، وتكفل لها تقديم حقوقها، فقد ختم السورة بتوجيه النداء العالمي للبشرية جميعًا لينبئهم بالثروة المعرفية الضخمة التي حواها القرآن المجيد فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ ...﴾ (النساء: ١٧٤-١٧٥)، **ويقدم لنا هذا النداء البصائر الآتية:**

البصيرة الأولى: لا بد من الإعلان العام العالمي عن حقيقة الكتاب الحق، الذي يحل مشاكل البشرية، ويُبَصِّرُنا بذلك النداء في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ فهو نداء لأمم العالم المتحدة أو المتفرقة لتستفيد من الثروة التشريعية الضخمة التي يكتنزها القرآن المجيد.

هذه الآية جاءت بعد سلسلة تشريعية ضخمة حتى عدها بعض المفسرين أضخم سورة من حيث كم الأحكام التشريعية، ويقاربها في ذلك سورة البقرة؛ إذ تجد تفصيل الأحكام التشريعية فيها بدأت من الآية ١٧٢ حيث قال تعالى ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ (البقرة: ١٧٢) أما سورة النساء فالكلام عن الأحكام التشريعية يبدأ من أول آية فيها هي قوله جل ذكره: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ۝١ وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾ (النساء: ١، ٢).

حقًا لقد احتوت هذه السورة على منظومةٍ ضخمةٍ من الأحكام التشريعية، وبعد هذه المنظومات التشريعية الضخمة أراد الله أن يوقظ البشرية الغافلة عن أهم الدساتير التي توفر لها الأمان المعيشي والتشريعات القانونية الصادقة لتتذكر القيمة الحقيقية التي يمثلها كتابه المجيد وبيانه الخاتم، فانتبهوا أيها العالم، فمهما ذهبتم إلى الشرق أو إلى الغرب وبحثتم في الفلسفات القديمة أو الديانات الخرافية أو الأفكار الوثنية أو مختلف أنواع المذاهب والمناهج فلن تجدوا كتابًا يقدم لكم الحلول مثل هذا الكتاب.

وهذا النداء العالمي ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ يدخل فيه المسلمون، فربهم جل ذكره يريد أن يبين لهم ويهديهم ويرفعهم ويخفف عنهم أثقال الحياة والآمها، وذلك لا يتم إلا بأن يزدادوا تمسكًا بالكتاب، ويُعلموا العالم بقيمته وعظمته، ويصل هذا النداء إلى بقية العالم ليعلموا حقيقة كثرة الخير الذي يفيض به البيان الإلهي الخاتم.. إنه يقدم التفصيلات اللازمة لحياةٍ بشريةٍ كاملة سعيدة ويبين الحلول لكل القضايا النازلة المستجدة.

البصيرة الثانية: القرآن المجيد يجمع بين أهم قضيتين تحتاجهما البشرية في الكتاب الذي يهدي العالم، ويدل على أنه كلام الله جل ذكره.

القضية الأولى: يحتوي على البرهنة العقلية المقنعة، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، فالبرهان هو الحجة القاطعة البينة الفاصلة.

إذ هو مصدر بَرِهَ يَبْرَهُ: إذا ابيضّ؛ وبعضهم قال: البرهان مصدر برهن، ولأن البرهان من الابيضاض أو من البرهنة وهي الاحتجاج ذهب الراغب إلى تعريف مناسب لهذه الكلمة فقال: «فالبُرْهَان أوكد الأدلّة، وهو الذي يقتضي الصدق أبدًا لا محالة»[1]، أي فالقرآن الدليل المؤكد الأبيض الذي لا يخالطه لون آخر، فلا يستطيع العقل غير المعاند

(١) المفردات في غريب القرآن (ص: ١٢١).

أن يشك في مصدريته الإلهية، ونفعه للناس، وحسبك هذه المنظومة التشريعية الضخمة التي تنظم حياة البشرية على أرشد وجهٍ وأعدله، والقرآن دستور العقل، ومنهاج الفكر، الذي يدل بذاته على ذاته؛ فهو برهان على أنه من عند الله بنظمه، وتشريعاته، وبيانه، وقضاياه منطقية برهانية، تخاطب العقل، وتنمي الفكر، وتدل على أنه معجزة في جميع الأمور، ومنها: الأمور التشريعية، التي تصلح العالم، ولا يوجد كتاب فيما نعلم حث على إعمال العقل كما في القرآن الكريم، ولذا ذهب بعض منصفي المستشرقين إلى أن القرآن الكريم يعد الكفر مرضًا عقليًا، ويدل على أنه معجزة في جميع الأمور ومنها الأمور التشريعية التي تصلح العالم.

القضية الثانية: يحتوي على الإشباع العاطفي، فهو يعالج النفوس الإنسانية الحائرة والشاردة والبائسة والحزينة الخاوية القلب، كما يرشدك إلى المواضع الصحيحة للحركة السلوكية في الحياة، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ (النساء:١٧٤)، فالنور: ليضيء حركة الإنسان السلوكية، وليشبع العاطفة الإنسانية حيث ترى القرآن المجيد يملأ القلوب المظلمة، ويحرك العواطف، ويهز المشاعر لفظًا ومعنى.

وجعل الله جل ذكره البرهان مقترنًا بالمجيء، بينما جعل النور مقترنًا بالإنزال؛ فذهب بعض المفسرين أن ذلك لبيان أن البرهان هو النبي ﷺ، والنور هو القرآن الكريم، ويظهر لي أن ذلك لأن أوضح البراهين ما رآه الناس، وأحسوا به، وعاينوا مجيئه، فكأن القرآن قد بلغ هذه المنزلة، وأما النور فهو ما يسطع من الأعلى؛ ليشرق به القلب، فالنور عبارة عن الشيء الذي يزيل ظلمات الصدر التي يصحبها الخواء، والهموم والغموم والأحزان.. يأتي النور ليأنس القلب به، وتشرق جنباته بسُبُحاته، ألا ترى أن الإنسان إذا ضاق نظر إلى السماء وقلب الطرف في النجوم، وكان النبي ﷺ كثيرًا ما ينظر إلى السماء.

وحسبك في البرهان القرآني، والنور الذي يشع منه أنه سبى قلوب العلماء المنصفين كأمثال عبد الله بن سلام والفيلسوف روجيه جارودي، والكاتب العبقري محمد أسد، والرياضي جفري لانج، والطبيب الفرنسي موريس بوكاي وهو طبيب قد كان بلغ عمرًا كبيرًا عندما تعرف للقرآن الكريم، من أجله اضطر أن يدرس اللغة العربية حتى لا يأت من يغشه في القرآن الكريم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾ (النساء: ١٧٤)

«حيث تجد النفس من هذا النور ما ينير جوانبها أو لا، فترى كل شيء فيها ومن حولها واضحًا.. حيث يتلاشى الغبش وينكشف، وحيث تبدو الحقيقة بسيطة كالبديهية، وحيث يعجب الإنسان من نفسه كيف كان لا يرى هذا الحق وهو بهذا الوضوح وبهذه البساطة؟! وحين يعيش الإنسان بروحه في الجو القرآني فترة ويتلقى منه تصوراته وقيمه وموازينه، يحس يسرًا وبساطة ووضوحًا في رؤية الأمور، ويشعر أن مقررات كثيرة كانت قلقة في حسه قد راحت تأخذ أماكنها في هدوء وتلتزم حقائقها في يسر وتنفي ما علق بها من الزيادات المتطفلة لتبدو في براءتها الفطرية، ونصاعتها كما خرجت من يد اللّه..ومهما قلت في هذا التعبير: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾.. فإنني لن أصور بألفاظي حقيقته، لمن لم يذق طعمه ولم يجده في نفسه! ولا بد من المكابدة في مثل هذه المعاني! ولا بد من التذوق الذاتي! ولا بد من التجربة المباشرة» [1].

أين ما يدعى ظلامًا يا رفيق الليل أين ... إن نور الله في قلبي وهذا ما أراه
قد مشينا في ضياء الوحي حبًا واهتدينا ... ورسول الله قاد الركب تحدوه خطاه
قدشربنامن كؤوس المجدحقًاوارتوينا ... وكتبنا بدماء العز تمجيد الإله

(١) في ظلال القرآن (٢ / ٨٢٢).

فما للناس يؤمون بيوت الشرق والغرب يطلبون الحلول لحياتهم، ويتركون النبع صافيًا أمامهم؟

كيف يقصدون القنوات الكدرة المتعفنة والمستنقعات المليئة بالسموم، ولا يلتفتون إلى الأنهار الجارية العذبة أمامهم؟

زمـــــزم فـيـــنـا ولـكـــن أيـــن مـن يـخـبـر الـدنـيـا بـجـدوى زمـزم

ويتألم القلب للمساحة الضيقة التي يأخذها القرآن الكريم في حياة كثير من المسلمين، عندما يقارن عدد الساعات التي يختلي فيها بالهاتف، وعندما ينظر الإنسان إلى كبار المثقفين والدبلوماسيين، والسياسيين ويرى تعدد اللقاءات والمؤتمرات التي يمكن أن يعقدوها هنا وهناك ولكنه لا يجد منهم أدنى ثقافة قرآنية، ولا يشعر بأدنى توجيهاتٍ قرآنية تبصرهم كيفية التعامل مع هذه الحياة، فأنى لهم أن يبنوا مجدًا، أو يشيدوا حضارة؟

البصيرة الثالثة: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمًا﴾ **(النساء:١٧٥). وتبصرنا هذه الآية بأنه بناء على احتواء القرآن على البرهان والنور تكون الإنسانية بين أربعة مسارات اختيارية، فالفاء في قوله:** ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ **تدل على التفصيل والتفريع.**

المسار الأول: الإيمان بالله حيث يجد الإنسان الأمن الحقيقي، والاعتصام به وبكتابه لتتحق له الحياة الإنسانية المكرمة، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله جل ذكره ﴿فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمًا﴾ (النساء:١٧٥).

فالِاعْتِصَامُ: التَّمَسُّكُ بِمَا يَعْصِمُ، وَيَحْفَظُ، مَأْخُوذٌ مِنَ العِصَامِ، وَهُوَ: الحَبْلُ الَّذِي تُشَدُّ بِهِ القِرْبَةُ، وَالإِدَاوَةُ لِتُحْمَلَ بِهِ، والأعصم الوعل يعتصم في شعاف الجبال وقننها من أن يُصطاد، فالاعتصام يحرس المرء من أن يفقد، أو تتسرب طاقته في

غير نفعٍ وصاحبها لا يشعر، ويوفر الاعتصام الحماية للإنسان من أن يزل أو أن يقع في الهاوية أو أن يفشل في حياته، ويفخم الله منزلة أصحاب هذا المسار، ويظهر مكافأتهم، فيقول: ﴿فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمًا﴾ (النساء:١٧٥).

وأعظم مظاهر الاعتصام بالله: الاعتصام بكتابه، فقد قال ابن جريج: آمنوا بالله واعتصموا بالقرآن، فجعل الضمير في الاعتصام عائدًا إلى القرآن المذكور سابقًا وهو رأي وجيه، ومكافأة المؤمن المعتصم: الدخول في الرحمة الإلهية الخاصة، والفضل الذي يمثل زيادة على الرحمة الخاصة، والهداية إلى الصراط المستقيم في إقامة التشريعات الدستورية والقانونية الحيوية الشخصية والجماعية، والهداية في الصراط المستقيم في الآخرة عبورًا إلى جنة الله جل ذكره، فذكر الله لهم ثلاث ثمارٍ دنيوية وأخروية:

الثمرة الأولى: ﴿فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ﴾ فمن رحمته بهم نصرته لهم في الدنيا، وإدخالهم جنته في الآخرة، وعدم إهانتهم يوم القيامة، ولذلك بعض الصالحين كان يقول: (اللهم اجعلني عند الفزع الأكبر من الآمنين المطمئنين، وفي ذلك المقام من أعظم المكرمين).

وقد يقال: أين الرحمة من أناسٍ يموتون وهم يشهدون ألا إله إلا الله ولكنهم يموتون غرقى أو حرقى أو قتلى، يعذبون في السجون لا يجدون من ينصرهم، فإذا قلت: لا يوجد من ينصرهم فما معنى ذلك؟

ولعلك تجد الجواب في أن من أعظم الرحمة أن يثبتوا على المبادئ على الرغم من إغراء الباطل وإرجافه، وحسبهم ما يجدون من الأجور التي أبهمها الله لعظمتها وقال عنها في بيانٍ مجملٍ منيرٍ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ (الزمر: ١٠)، ويشوقك

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إلى هذا الأجر فيقول: «يَوَدُّ أَهْلُ العَافِيَةِ يَوْمَ القِيَامَةِ حِينَ يُعْطَى أَهْلُ البَلاَءِ الثَّوَابَ لَوْ أَنَّ جُلُودَهُمْ كَانَتْ قُرِضَتْ فِي الدُّنْيَا بِالمَقَارِيضِ»، وفي رواية «مما يرون من ثواب أهل البلاء» (١).

وفي رواية: «يُؤْتَى بِالشَّهِيدِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيُنْصَبُ لِلْحِسَابِ، وَيُؤْتَى بِالمُتَصَدِّقِ فَيُنْصَبُ لِلْحِسَابِ، ثُمَّ يُؤْتَى بِأَهْلِ البَلاءِ وَلا يُنْصَبُ لَهُمْ مِيزَانٌ، وَلا يُنْشَرُ لَهُمْ دِيوَانٌ، فَيُصَبُّ عَلَيْهِمُ الأَجْرُ صَبًّا، حَتَّى إِنَّ أَهْلَ العَافِيَةِ لَيَتَمَنَّوْنَ فِي المَوْقِفِ أَنَّ أَجْسَادَهُمْ قُرِضَتْ بِالمَقَارِيضِ مِنْ حُسْنِ ثَوَابِ اللَّهِ لَهُمْ» (٢).

ولقد كان الصحابي الممجد يشعر بأنه حقق أعظم الفوز عندما يبتلى في سبيل الله، فعن أَنَس بْن مَالِكٍ، رضي الله عنه، يَقُولُ: لَمَّا طُعِنَ حَرَامُ بْنُ مِلْحَانَ - وَكَانَ خَالَهُ - يَوْمَ بِئْرِ مَعُونَةَ قَالَ بِالدَّمِ هَكَذَا فَنَضَحَهُ عَلَى وَجْهِهِ وَرَأْسِهِ ثُمَّ قَالَ: فُزْتُ وَرَبِّ الكَعْبَةِ (٣).

فلم يجعل هذا نوعًا من الخسارة، بل هو الفوز الحقيقي، وقد قيل: بأن هذا كان سببًا في إسلام من طعنه.

الثمرة الثانية: ﴿وَفَضْلٍ﴾ والفضل هو الزيادة على الرحمة الخاصة، فهناك رحمة وهناك زيادة على الرحمة.

الثمرة الثالثة: ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ (النساء: ١٧٥) هذه الثمرة تدل على التوفيق في القرارات الدنيوية، وعلى الفوز في عبور صراط جهنم، لأن كلمة يهديهم تعني: يرشدهم ويبين لهم ويدلهم ويوفقهم فلها أربعة معان، ﴿صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ ما الصراط المستقيم؟ هل هو صراط الدنيا؟ ما المقصود بصراط الدنيا؟

---

(١) الترمذى - ط. المكنز (٩ / ٢٤٠) برقم ٢٥٨٢، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٥ / ٢٠٥) برقم ٢٢٠٦.

(٢) المعجم الكبير للطبراني (١٠ / ٣٢٥) برقم ١٢٦٥٨.

(٣) البخاري - ترقيم فتح الباري (٥ / ١٣٥) برقم ٤٠٩٢.

الإنسان في الدنيا تهجم عليه مجموعة من الاختيارات في القضية الواحدة، فالحياة كلها قرارت كالزواج والوظائف وغيرها من أمور الحياة، وهذه القرارت يحتاج الإنسان فيها إلى هداية، والهداية إلى الصراط المستقيم تتم بأن يتخذ الإنسان القرار الصواب في جميع الاختيارات التي يجدها في حياته، وكذلك الصراط المستقيم تتم الهداية إليه، بأن يعبر على الصراط المقام على نار جهنم، قد يقال: بأن الآية لا تساعد على ذلك، لأن الله سبحانه وتعالى لم يقل ويعبر بهم الصراط المستقيم.. وهذا صحيح فليس هذا المعنى معنى مباشرًا، بل إنه إذا اتخذ القرارات الصائبة في التعامل مع ربه ومع نفسه ومع الناس فإنه سيُهدى ليمشي على جسر جهنم موفقًا فائزًا.

وبذا يمكن القول بأن الرحمة والفضل يتحققان على الحقيقة في الآخرة، وإنما حال الرحمة والفضل في الدنيا مثل المجاز بالنسبة للرحمة التي أسبغها الله في الآخرة، فهناك ٩٩ رحمة مدخرة في الآخرة، بينما توجد رحمة واحدة في الدنيا، وإذا كانت رحمة الدنيا هيأت لنا الأرض التي نسكن عليها أعطتنا هذا النفس والجمال والخلق والطريقة والحياة، فكيف ستكون رحمة الآخرة؟

المسار الثاني: ترك الإيمان بالله، وترك الاعتصام بالقرآن.

المسار الثالث: الإيمان بالله دون الاعتصام بالقرآن.

فهو يؤمن بالله ولكنه يعتصم بالقوانين المخترعة مما يوافق هواه أو أهواء غيره، والأفكار المضادة للقرآن الكريم، أو يعتصم بهواه، وما أكثر من يعبد هواه.

المسار الرابع: أن يعتصم بالقرآن ولا يؤمن بالله كأن يعجبه التشريعات الاقتصادية القرآنية لكن دون أن يؤمن بمنزل القرآن.

ففي الفاتيكان مثلًا طالبوا في عام ٢٠٠٩ للميلاد بالاستفادة من التشريع القرآني في المجال الاقتصادي والبنكي والمصرفي، فهذا نوع من الاستفادة من القرآن الكريم في مجالات دنيوية محضة دون الإيمان بالله وفق المنهج القرآني فقد يأتي أحدهم ويقول: أنا معجب بالتشريعات القرآنية الاقتصادية والحقوقية، لكن دون أن أؤمن بأنه كتاب منزل، ودون أن أؤمن بالله.

فأصحاب هذه المسارات الثلاثة لن يجدوا الرحمة الإلهية الخاصة، ولا الفضل، ولن يهدوا إلى الله صراطًا مستقيمًا.

والرحمة الإلهية تعم الجميع ولكن رحمته الخاصة يُعنى به الرعاية الخاصة بالعبد حتى يكون مآله الجنة.. جعلنا الله من أصحابها.

فترك الله تفصيل الكوارث التي يقع فيها ويسببها من يختار المسارات الثلاثة؛ لتهويلها، وتضخيمها، وظهورها من الضد لما ذكره عن أصحاب المسار الأول.. فما أعظم الشقاء الذي يجلبونه على العالم، وما أشد الألم الذي يسببونه للبشرية، ويوضح النبي ﷺ ذلك، فعَنْ أَبِي شُرَيْحٍ الخُزَاعِيِّ، قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «أَبْشِرُوا وَأَبْشِرُوا، أَلَيْسَ تَشْهَدُونَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؟» قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «فَإِنَّ هَذَا القُرْآنَ سَبَبٌ طَرَفُهُ بِيَدِ اللَّهِ، وَطَرَفُهُ بِأَيْدِيكُمْ، فَتَمَسَّكُوا بِهِ، فَإِنَّكُمْ لَنْ تَضِلُّوا، وَلَنْ تَهْلِكُوا بَعْدَهُ أَبَدًا»[1].



(١) صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان (١ / ٣٢٩) برقم ١٢٢، وابن حبان بتحقيق الأرناؤوط (١/ ٣٢٩) قال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن على شرط مسلم.

القسم الثاني

الختم ببيان مسألة الكلالة وهي مثال بارز على حماية الشريعة للانتشار البشري، والرعاية للأسرة الإنسانية، والتفصيل الحيوي التشريعي المدهش للكتاب الذي جمع بين البرهان المؤيد والنور المبين (النساء:١٧٦)

آية هذا القسم:

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ (النساء:١٧٦).

البصيرة الأولى: خاتمة سورة النساء خاتمة ليست كأي خاتمة.

اتسمت سورة النساء بأن خاتمتها تشريع ولكنه ليس كأي تشريع.. إنه تشريع مباشر، فهو كلام عن الكلالة، والكلالة تظهر عندما يكون إرثٌ ولا يوجد للميت أصل ولا فرع:

ويسألونك عن الكلالة هي انقطاع النسل لا محالة
لا والد يبقى ولا مولود انقطع الأحفاد والجدود

فمن يرثه؟ إخوته، فإن كانوا أخوة لأم، فهذا ما سبق في الآية الثانية عشرة عند قوله تعالى ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ﴾ (النساء: ١٢)، وإن كانوا أخوة أشقاء أو لأب، فذكر ما يتعلق بهم هاهنا، هنا يُطرح السؤال الذي يتجلجل على لسانك:

لماذا كان تتمة بيان الكلالة في آخر آية من السورة؟ لماذا ذكر في الآية ١٢ ما يتعلق بالأخوة لأم وهنا ذكر ما يتعلق بالأخوة الأشقاء أو لأب؟ ألا يُعد هذا فصلًا بين المتماثلات؟ أليس هذا اضطرابًا في الترتيب الموضوعي؟

يطرح هنا التساؤل الملح دون هوادة: لماذا أخَّر الله تعالى جده ذكرَ الجانب الثاني من الكلالة إلى هذا الموضع، وختم به السورة؟

كلا! لا تعجل.. بل تدبر معي لترى أمورًا تعلم منها أن هذا هو كلام الحكيم الخبير:

فأما أولًا: فإنك تجد في ذلك الإعجاز البياني النفسي التربوي المدهش في كسر العادة لإظهار الأهمية القصوى لبيان الحقوق البشرية.. لإظهار الأهمية القصوى لبيان أن القرآن المجيد هو الذي يعلم البشرية قبل أن يأكلها البخلاء الحسدة، والذين يتبعون الشهوات فيمتصون دماءها بتشريعاتهم المعوجة وشرعية القوة الظالمة الظلامية التي يخبئون خلفها وحشيتهم.

وأما ثانيًا: فصل الله بين المتماثلات في المسائل؛ ليبين أن تحقيق الحياة السعيدة، لا يتم إلا بتطبيق الأحكام الشرعية جميعًا؛ وبذا ينال كل فردٍ في البشرية حقوقه، وتتكامل الجوانب المختلفة على تحقيق كرامة النساء، والمستضعفين في الأرض؛ فإذا ما أخذ المرء جزءًا من الشريعة، وترك أجزاء، لم تظهر الحياة الطيبة، التي وعد الله بها.

وأما ثالثًا: فقدم الله في الآية الثانية عشرة ما كان غير معروف من توريث أبناء الأم، حيث كان تستبعدهم الجاهلية الأولى، كما تستبعدهم الجاهلية الأخرى بتفاصيل مختلفة، فقدمهم، وأخر الأقرب من الميت في عرفهم وهم الأخوة الأشقاء، أو لأب؛ لبيان ضرورة إنشاء الأسرة المتكاملة: المركزية (زوجان وأبناؤهما وآباؤهما)

والمتوسطة (ذوو الأرحام)، وقد بينا هناك أنه قدمهم في الذكر لأن النظام الجاهلي كان يهملهم، فلا يمنحهم شيئًا من الإرث، فأنصفهم بتقديم ذكرهم.

وأما رابعًا: فلما ختم الله السورة بأن بين أن القرآن برهان من الله، ونور مبين، أظهر ذلك من خلال تفاصيل جزئية تتعلق بالكلالة، وهي تفاصيل لا تكاد تجد إشارة إليها في كل النظم التشريعية وقت نزول القرآن، ولا بعد نزوله إلى يومنا.. أما يكفي ذلك ليظهر لنا أنه برهان على مدى استيعابه لقضايا الحياة؟ أما يكفي ذلك ليظهر لنا أنه نور للأسر المتقاطعة، والبشرية المتعادية؟

وأما خامسًا: فجَعْلُ هذا الحكم آخرَ آية، يتسق مع ضرورة التنبيه على التطبيق؛ لئلا يغفل الإنسان عنه.

وأما سادسًا: فلعل من أهم أسباب هذا الختم غير المعتاد التحذير من شرك التشريع والحاكمية، تأكيداً على ما سبق تقريره في قوانين هذه السورة، وتوطئة لما سيأتي في السورة التالية.. إنها سورة (المائدة) حيث يقول الله فيها: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ (المائدة: ٤٤).

فإنك لا تجد سورةً ختمت بتشريع تفصيلي واضح كما في هذه السورة؛ إذ كانت آخر آية فيها: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ إلا ما تراه في آخر سورة الممتحنة، وآخر سورة محمد ﷺ، وقد أنبأتك ببعض الفوائد المشرقة التي تبين لماذا هذا الختم غير المعتاد.. والقرآن كتاب جاء على غير المتوقع في نظمه ولفظه لكنه لم يخرج عن الطاقة البشرية في تلقيه وفهمه.

ودعنا نمضي أكثر في هذا السبب السادس: فلعل من أهم أسبابه أن يثبتك الله على مبدأ قبول النور القرآني والبرهان الفرقاني في جميع مجالات الحياة دون أن تتخذ القرآن عضين، فتجعله حاكمًا لحياتك في شيء، وتترك تحكيمه في أشياء..

إن الله ينبئك أن شرك التشريع يماثل شرك العبادة؛ فإن أبيت إلا أن تحكم أهواءك ورغباتك ونزواتك في التشريعات الحيوية تكون قد عملت بضد ما قرره الله لك في قوله جل ذكره: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ (النساء: ٦١)، ربما تهرب من شرك العبادة خوفًا من قوله -تعالى مجدُه- في هذه السورة: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ (النساء: ٤٨).

ولكنك قد تقع في المقابل في شرك الحاكمية الذي حذرك الله منه في قوله تعالى جده في هذه السورة أيضًا: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ (النساء: ٦٥).

فكان من أهم أفياء الختم بهذه الآية أن يبين لك ضرورة تحكيم كتاب الله في كل مناحي الحياة، فهو السبيل الأقوم لبث الحياة الإنسانية على الوجه الأكمل والأعظم.

البصيرة الثانية: يُبَصِّرُنا الفعلُ المضارعُ في قوله تعالى جده: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ بمدى الحركة الراشدة في عقول الصحابة ﷺ، فكانوا يرجعون إلى الشريعة رجوعًا مخبتًا في كل جزئيات الحياة؛ ليبنوا المجد الحقيقي فكلمة ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ أي: يطلبون الفتوى، والفعل مضارع يدل على التجدد الدائم حالًا واستقبالًا.

إنهم لا يتحركون في الحياة إلا من خلال التعاليم المنيرة التي يستهدون بها من النبي ﷺ، فيطلبون العلم ليبنوا واقعهم، ويعمروا أرضهم في مسألة لم يعرفوا وجه الصواب فيها سواء ما يتعلق بأمورهم الاجتماعية أو العبادية أو السياسية أو الاقتصادية.. إن الفعل المضارع في قوله: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ ينبئك بأن مجتمع الصحابة ﷺ كان يموج بالحركة الراشدة التي تسأل عن أمور دينها في الصغيرة والكبيرة، فكانوا يرجعون إلى النبي ﷺ في كل جزئية من جزئيات الحياة ويعبر الفعل المضارع عن تكرر ذلك منهم.

البصيرة الثالثة: يُبَصِّرُنا قوله تعالى: ﴿قُلِ﴾ بوجوب التبليغ، والتعليم، والإعلام، فأين تطبيق أمة النبي ﷺ لمثل ذلك؟ وقوله: ﴿يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ يبصرنا بأهمية المسائل الحيوية المتعلقة بتكوين الثروة في استقرار الحقوق الإنسانية، ولذا نسب الفتوى له جل ذكره.

وذهب بعض المحققين إلى أن من آداب الفتوى أن يقول: رأيي فيها، ولا يقول: حكم الله؛ لأنه لا يستطيع الجزم بأن ذلك حكم الله إلا ما تم الجزم فيه، فمثلًا: حَكَم الله بوجوب خمس صلوات، فهذا بدون تردد، وليس هذا بفتوى، ولكن الفتوى أن يقول: هذا رأيي، فقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ أي: أن الله سيعطيكم التفصيل الذي لن تختلفوا فيه، وقد تختلفون في تطبيق بعض جزئياته، ونسبه الله سبحانه وتعالى إليه لترسيخ عدة مفاهيم منها: بيان أهميته؛ إذ يتعلق بتفتيت الثروة بين الإنسانية حتى لا تكون دولة بين الأغنياء، ولإظهار أن النظام الجاهلي يضاد النظام الإلهي العادل، فالنظام الجاهلي كان ظالمًا، ومازال، فالابن الكبير في بعض الدول يأخذ أغلب المال، أو يأخذه فقط من تمت الوصية له، لذا قال الله جل جلاله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ حتى تستقيموا عليها، فالمسألة ليست مسألة رأي محضٍ من عند النبي ﷺ.

البصيرة الرابعة: عَرَّف الله لنا الكلالة، فقال: ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾.

هلك يعني: مات، فالهلاك الموت كما قال تعالى ذكره: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ (القصص: ٨٨)، وقال مؤمن آل فرعون عن يوسف عليه السلام: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ (غافر: ٣٤)، والهلاك يقال في الأحياء والماديات كقوله تعالى جده: ﴿هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ﴾ (الحاقة: ٢٩).

فقال الله عن الكلالة: ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ فكل فريضة إرث ليس فيها ولد ولا والد فهي كلالة بالاتفاق، أما الفريضة التي ليس فيها ولد وفيها والد، فالجمهور أنها ليست بكلالة، وقال بعض المتقدمين هي كلالة استدلالا بهذه الآية لأنه لم يذكر الوالد، ورد الجمهور بأن الله لم يقل: (ولا والد)؛ لبيان الحالة الغالبة في الناس، وهي أن الميت عندما يموت فإن الجيل الباقي بعده هو الجيل الذي يليه أي أولاده، أما والداه فيغلب على الواقع البشري وفاتهما قبله، ولذا لم يذكرهما في تفصيل الإرث، والكلالة: من كَلَّ وَأَعْيَا عَنْ أَنْ يَصِلَ إِلَى المَيِّتِ المَوْرُوثِ بِنَفْسِهِ، فَهُوَ يَصِلُ إِلَيْهِ بِوَاسِطَةٍ، أو من تكلل الورثة حوله لعدم وجود أصلٍ أو فرعٍ له، فالكلالة اسمٌ يقع على الوارث، فهو من سوى الوالد، والولد، وعلى الموروث، فهو الذي مات ولا يرثه أصل، ولا فرع، وعن قتادة: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾، فسألوا عنها نبيَّ الله، فأنزل الله في ذلك القرآن: ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾، فقرأ حتى بلغ: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾، قال: وذكر لنا أنّ أبا بكر الصديق ﷺ قال في خطبته: ألا إنّ الآية التي أنزل الله في أول «سورة النساء» في شأن الفرائض، أنزلها الله في الولد، والوالد، والآية الثانية أنزلها في الزوج، والزوجة، والإخوة من الأم، والآية التي ختم بها «سورة النساء»، أنزلها في الإخوة والأخوات من الأب والأم، والآية التي ختم بها «سورة الأنفال»، أنزلها في أولي الأرحام، بعضهم أولى ببعض في كتاب الله، مما جرَّت الرحِم من العَصَبة [1].

البصيرة الخامسة: ذكر الله أربع حالات لهذا النوع من الكلالة، هي أصول كلية، تعطي الحقوق التفصيلية لمن يستحقها بعد موت الميت.

الحالة الأولى: أن يكون الميت ذكرًا فقال الله ﷻ: ﴿وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ

(١) الطبري (٩/ ٤٣١).

﴿مَا تَرَكَ﴾، وبالجمع بين هذه الآية وآيتي الإرث الأوليين في السورة، **تظهر لنا ثلاثة شروط لهذه الجملة:**

الأول: أن لا يكون للميت ابن، فإن كان له بنت، فإن الأخت تأخذ النصف، فهي معها عصبة، فعَنِ الأَسْوَدِ قَالَ: قَضَى فِينَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ ﷺ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ النِّصْفُ لِلاِبْنَةِ، وَالنِّصْفُ لِلأُخْتِ، ثُمَّ قَالَ سُلَيْمَانُ: قَضَى فِينَا وَلَمْ يَذْكُرْ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ(١).

ويفصل الطبري ذلك ببيانٍ جميل يجيب فيه على التساؤل الذي يخطر عند الجمع بين الآيات: كيف يكون لها النصف إن لم يكن له ولد، ويكون لها النصف أيضًا إذا كان له ولد أنثى واحدة؟

فيقول: «فإن قال قائل: فما وجه قوله جل ثناؤه: ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌاْ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾، ولقد علمت اتفاق جميع أهل القبلة - ما خلا ابن عباس وابن الزبير ﷺ - على أن الميت لو ترك ابنةً وأختًا، أن لابنته النصف، وما بقي فلأختِه، إذا كانت أخته لأبيه وأمه، أو لأبيه؟ وأين ذلك من قوله: ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌاْ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾، وقد ورَّثوها النصف مع الولد؟

قيل: إنّ الأمر في ذلك بخلاف ما ذهبتَ إليه. إنما جعل الله جل ثناؤه بقوله: ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌاْ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾، إذا لم يكن للميت ولد ذكر ولا أنثى، وكان موروثًا كلالة، النصفَ من تركته فريضةً لها مسمَّاة. فأما إذا كان للميت ولد أنثى، فهي معها عصبة، يصير لها ما كان يصير للعصبة غيرها، لو لم تكن. وذلك غير محدود بحدٍّ، ولا مفروض لها فرضَ سهام أهل الميراث بميراثهم عن ميِّتهم. ولم يقل الله في كتابه: فإن كان له ولد فلا شيء لأخته معه، فيكون لما روي عن ابن

(١) البخاري (٨ / ١٨٩) رقم ٦٤٧١ .

عباس وابن الزبير ﷺ في ذلك وجهٌ يوجَّه إليه. وإنما بيَّن جل ثناؤه، مبلغ حقِّها إذا وُرث الميت كلالةً، وترك بيان ما لها من حق إذا لم يورث كلالةً في كتابه، وبيَّنه بوحيه على لسان رسوله ﷺ»[١].

الثاني: أن لا يكون للميت والد، فالأخت لا ترث مع الوالد بالإجماع، فعَنِ الهُزَيْلِ بْنِ شُرَحْبِيلَ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ، وَسَلْمَانَ بْنِ رَبِيعَةَ البَاهِلِيِّ، فَسَأَلَهُمَا عَنِ ابْنَةٍ، وَابْنَةِ ابْنٍ، وَأُخْتٍ لأَبٍ وَأُمٍّ، فَقَالاَ: لِلاِبْنَةِ النِّصْفُ، وَمَا بَقِيَ فَلِلأُخْتِ، وَائْتِ ابْنَ مَسْعُودٍ، فَسَيُتَابِعُنَا، فَأَتَى الرَّجُلُ ابْنَ مَسْعُودٍ، فَسَأَلَهُ، وَأَخْبَرَهُ بِمَا قَالاَ، فَقَالَ عَبْدُ اللهِ: قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ المُهْتَدِينَ، وَلَكِنِّي سَأَقْضِي بِمَا قَضَى بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، لِلاِبْنَةِ النِّصْفُ، وَلاِبْنَةِ الاِبْنِ السُّدُسُ، تَكْمِلَةَ الثُّلُثَيْنِ، وَمَا بَقِيَ فَلِلأُخْتِ[٢].

الثالث: أن قوله ﴿وَلَهُۥٓ أُخْتٌ﴾ المراد منه الأخت من الأب والأم، أو من الأب؛ لأن الأخت من الأم، والأخ من الأم، قد بين الله حكمه في أول السورة.

الحالة الثانية: أن يكون الميت أنثى، ولا يوجد بعدها إلا أخ، فيرث كامل إرث أخته في مسألة الكلالة، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ﴾ أي: ولا والد، والتفاوت في مقدار الإرث بين الذكر والأنثى هنا هو العدل الحقيقي؛ لأن الرجل الذي له أخت، يجب عليه أن ينفق عليها، ويقوم على احتياجاتها، بخلاف نفقتها هي عليه.

الحالة الثالثة: إذا كانت أكثر من أخت، فيقول الله عن هذه الحالة: ﴿فَإِن كَانَتَا

(١) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٤٤٣).

(٢) الترمذي (٤ / ٤١٥)، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن، وأبو قيس الأودي اسمه: عبد الرحمن بن ثروان الكوفي، وقد رواه شعبة عن أبي قيس. قال الشيخ الألباني: صحيح.

﴿ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾، وكذلك ما هو أكثر من الثنتين إجماعًا، ولأن الله قال عما هو أكثر من الثنتين في البنات: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ (النساء: ١١)، فلا يعقل أن تأخذ الأخوات أكثر من البنات، وهذا من الاحتباك البياني، وقد مر في أول السورة.

الحالة الرابعة: ﴿وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةٗ رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ فَلِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾.

فعن جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: مَرِضْتُ (وفي رواية الطبري: اشتكيت، وعندي تسع أخوات لي، أو: سبْع)، فَأَتَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَأَبُو بَكْرٍ يَعُودَانِي مَاشِيَيْنِ، فَأُغْمِي عَلَيّ، فَتَوَضَّأَ، ثُمَّ صَبَّ عَلَيّ مِنْ وَضُوئِهِ، فَأَفَقْتُ، وفي رواية: فَعَقَلْتُ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، (إِنَّمَا يَرِثُنِي كَلاَلَةٌ)، كَيْفَ أَقْضِي فِي مَالِي، فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيّ شَيْئًا (وفي رواية الطبري: ثم خرج وتركني، ثم رجع إليّ، فقال: يا جابر، إنِّي لا أُرَاك ميتًا من وجعك هذا، وإن الله قد أنزل في الذي لأخواتك، فجعل لهن الثلثين) حَتَّى نَزَلَتْ آيَةُ المِيرَاثِ: ﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِ﴾ (١).

البصيرة السادسة: هذه الآية من أواخر الآيات نزولًا، كما قال البَرَاء ﷺ: آخِرُ سُورَةٍ نَزَلَتْ كَامِلَةً بَرَاءَةٌ، وَآخِرُ سُورَةٍ نَزَلَتْ خَاتِمَةُ سُورَةِ النِّسَاءِ: ﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِ﴾ (٢).

ولها قصةٌ طريفة أيضًا عن عمر، تبين شدة ورع الصحابة في التبليغ، والتحاكم إلى الشرع، وتحري المراد الإلهي،

فعن ابن سيرين، قال: نزلت: «يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة»، والنبيّ في

(١) مسلم (٥ / ٦٠) رقم ١٦١٦، الطبري (٩/ ٤٣١)

(٢) البخاري (٥ / ٢١٢) رقم ٤٣٦٤ .

مسير له، وإلى جنبه: حذيفة بن اليمان، فبلَّغها النبي ﷺ حُذيفة، وبلّغها حذيفة عمر بن الخطاب، وهو يسير خلفه، فلما استُخلف عمر، سأل عنها حذيفة، ورجا أن يكون عنده تفسيرها، فقال له حذيفة: والله، إنك لعاجز إن ظننت أن إمارتك تحملني أن أحدِّثك فيها بما لم أحدِّثك يومئذ! فقال عمر: لم أرِد هذا، رحمك الله! (١).

«وَمَا وَرَدَ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي السَّفَرِ غَلَطٌ، سَبَبُهُ أَنَّ حُذَيْفَةَ لَمَّا تَلَقَّاهَا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ ظَنَّ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي ذَلِكَ الوَقْتِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ سَمِعَهَا مِنْ قَبْلُ، وَبِهَذَا يُجْمَعُ بَيْنَ الرِّوَايَتَيْنِ، وَكَثِيرًا مَا كَانَ يَظُنُّ الصَّحَابِيُّ عِنْدَ سَمَاعِهِ الآيَةَ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ، أَوْ عِنْدَ حُدُوثِ حَادِثَةٍ، أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي ذَلِكَ الوَقْتِ أَوْ عِنْدَ حُدُوثِ تِلْكَ الحَادِثَةِ، وَتَكُونُ قَدْ نَزَلَتْ قَبْلَ ذَلِكَ، وَمَنْ عَلِمَ هَذَا سَهُلَ عَلَيْهِ الجَمْعُ بَيْنَ كَثِيرٍ مِنَ الرِّوَايَاتِ المُتَعَارِضَةِ فِي أَسْبَابِ النُّزُولِ، وَهِيَ كَثِيرَةٌ جِدًّا، وَمِنَ الغَلَطِ عَلَى الغَلَطِ، قَوْلُ بَعْضِهِمْ: إِنَّ السَّفَرَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ هُوَ سَفَرُ حُجَّةِ الوَدَاعِ، وَإِنَّمَا كَانَتْ حُجَّةُ الوَدَاعِ فِي الشِّتَاءِ، وَقَدْ صَرَّحَ فِي الرِّوَايَاتِ الصَّحِيحَةِ أَنَّ هَذِهِ هِيَ آيَةُ الصَّيْفِ، وَرِوَايَةُ نُزُولِهَا بِسَبَبِ سُؤَالِ عُمَرَ لَا تَصِحُّ» (٢).

وليس في الرواية نزولها في سفر بل أثناء السير، وكلمة (سير) ليست صريحة في السفر.

ولعل الإشكالات التطبيقية جعلت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يهتم بمسألة الكلالة اهتماما كبيرًا، من ذلك اجتماع الأخوة لأم مع الأخوة الأشقاء، أو لأب، وهو يتحرى ما قال الله، فسَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَيْفَ نُوَرِّثُ الكلالة؟ فقال ﷺ: أو ليس قَدْ بيّن الله تعالى ذَلِكَ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً﴾ إلى آخرها، فكأن عمر رضي الله عنه لَمْ يَفْهَمْ، فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ إِلَى آخِرِ

(١) الطبري (٩/ ٤٣٥).

(٢) تفسير المنار (٦/ ٨٧).

الآيَةِ، فكأن عمر ﷺ لَمْ يَفْهَمْ، فقال لحفصة ﷺ: إذا رأيت من رَسُولَ اللَّهِ ﷺ طيبَ نَفْسٍ، فَاسْأَلِيهِ عَنْهَا، فَرَأَتْ مِنْهُ طِيبَ نَفْسٍ، فَسَأَلَتْهُ عَنْهَا، فَقَالَ ﷺ: أَبُوكِ كَتَبَ لَكَ هَذَا، مَا أَرَى أَبَاكِ يَعْلَمُهَا أَبَدًا، فكان عمر ﷺ يَقُولُ: مَا أُرَانِي أَعْلَمُهَا أَبَدًا، وَقَدْ قَالَ ﷺ مَا قَالَ [١].

ولكني أميل إلى أن عمر بن الخطاب لتحريه في تقسيم الحقوق على أهلها في التطبيق الواقعي أراد مزيد تفصيل، ولذا قال قرب موته ﷺ: ثُمَّ إِنِّي لاَ أَدَعُ بَعْدِي شَيْئًا أَهَمَّ عِنْدِي مِنَ الكَلاَلَةِ مَا رَاجَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِى شَىْءٍ مَا رَاجَعْتُهُ فِى الكَلاَلَةِ وَمَا أَغْلَظَ لِى فِي شَىْءٍ مَا أَغْلَظَ لِي فِيهِ حَتَّى طَعَنَ بِإِصْبَعِهِ فِى صَدْرِي فَقَالَ «يَا عُمَرُ أَلاَ تَكْفِيكَ آيَةُ الصَّيْفِ الَّتِى فِى آخِرِ سُورَةِ النِّسَاءِ». وَإِنِّى إِنْ أَعِشْ أَقْضِ فِيهَا بِقَضِيَّةٍ يَقْضِى بِهَا مَنْ يَقْرَأُ القُرْآنَ وَمَنْ لاَ يَقْرَأُ القُرْآنَ [٢]، وعن طارق بن شهاب قال: أخذ عمر كتِفًا وجمع أصحاب محمد ﷺ، ثم قال: لأقضين في الكلالة قضاءً تحدَّثُ به النساء في خدورهن! فخرجت حينئذ حيَّة من البيت، فتفرَّقوا، فقال: لو أراد الله أن يتم هذا الأمر لأتمَّه [٣].

أي: لو أراد أن يفصله أكثر من ذلك لفصله.. أو لم يقل بعدُ: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾ (النساء:١٧٦).

البصيرة السابعة: الهدف العام من هذا البيان التفصيلي المعجز المعطي للحقوق: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾ (النساء:١٧٦)، عليم بالمواريث وبالحياة الإنسانية التي قسم المواريث عليها ليقوم القسط فيها، وعليم بغير المواريث

(١) هو في المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية (٨ / ١٧) من مسند إسحاق بن راهويه.

(٢) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٤٣٩).

(٣) تفسير الطبري ت شاكر (٩/ ٤٣٩).

من مشاعركم وعواطفكم وتصرفاتكم السابقة واللاحقة، أي: يبين الله لكم؛ كراهة أن تضلوا، فالمضاف ها هنا محذوف، أو المعنى: لئلا تضلوا، وأسقطت «لا» لدلالة الكلام عليها.

كما قال القطامي في صفة ناقة:

رَأَيْنَا مَا يَرَى الْبُصَرَاءُ فِيهَا ... فَآلَيْنَا عَلَيْهَا أَنْ تُبَاعَا

بمعنى: أن لا تباع.

وكما قال عَمْرِو بْن كُلْثُومٍ:

نَزَلْتُمْ مَنْزِلَ الأَضْيَافِ مِنَّا ... فَعَجَّلْنَا الْقِرَى أَنْ تَشْتُمُونَا

أَيْ أَنْ لَا تَشْتُمُونَا بِالبُخْلِ.

فكأن الله يقول لنا:

أقبلوا على النور الساطع، والبرهان الحقيقي في هذه التشريعات التي تنظم حياتكم فإن الله بكل شيء عليم.. أقبلوا على البيان الذي لا يمكن أن تجدوه عند إنسان فإن الله بكل شيء عليم.. أقبلوا على ما يهديكم الله به سنن الحضارات والمجتمعات والكتب التي سبقتكم فإن الله بكل شيء عليم.. أقبلوا على ما به يخفف الله عنكم فإن الله بكل شيء عليم.. أقبلوا على ما يحميكم من البخلاء والحسدة.. أقبلوا على ما يحفظكم من الذين يتبعون الشهوات ويشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل فإن الله بكل شيء عليم.. أقبلوا على ما يحميكم من الذين يضلون أنفسهم ويتآمرون على إضلالكم فإن الله بكل شيء عليم.. أقبلوا على الحق النقي الذي لم يشبه زيف ولا وهم ولا خداع ممن يراؤون الناس فإن الله بكل شيء عليم.

ويلفت الرازي ﵀ نظرنا إلى المناسبة بين أول السورة وآخرها، حيث يقول

الله في أولها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ (النساء:١)، وهذا دال على سعة القدرة، وآخرها مشتمل على بيان كمال العلم، وهو قوله: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾، وهذان الوصفان هما اللذان بهما تثبت الربوبية، والإلهية، والجلالة، والعزة، وبهما يجب على العبد أن يكون مطيعا للأوامر والنواهي، منقادًا لكل التكاليف[1].

وفي ذلك رد على من يعبد من لم يخلق البشر ابتداء، ومن لم يعرف ماذا يمكن أن يفعل به البشر، أو الجنود.. فالذي يستحق العبادة هو الذي بكل شيء عليم.. إنها صيغة جامعة شاملة لكل شيء من الميراث، وغير الميراث.

ولقد وقعت هذه الجملة ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ موقعها العظيم لتكون ختامًا لهذه المنظومة التشريعية الهائلة التي تضمنتها سورة النساء، كما ناسب أن تكون ختامًا لآية من أواخر الآيات نزولًا؛ إذ بدأ الله كتابه ببيان تعليمه للعالم فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق: ١ – ٥) وختمه بالإشارة إلى اعتزازك بأن تنهل العلم ممن هو بكل شيء عليم جلَّ جلاله.

بين الافتتاح والاختتام:

املأ نفسك بالإعجاب لنظم السورة البديع، وانتظام مقاطعها ومباديها وخاتمتها؛ واضرب لذلك مثلًا بأول آية حيث ربك جل ذكره يقول:

في بدايتها موجهًا إعلانًا عالميًا للبشر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ (النساء: ١) ، فأمر بالتقوى وبين كيف

(١) تفسير الرازي (١١/ ٢٧٥).

من على البشرية بحق الحياة والانتشار، ثم أعاد النداء العالمي مجددًا في وسط السورة فقال: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ (النساء: ١٣٣)، فأنبأهم أنه الخالق الملك المالك القادر، فليتقوا ربهم، وليحذروا شرور أنفسهم؛ فإنه امتن عليهم بحق الحياة والانتشار، ولو شاء سلبه منهم.

ثم أعاد النداء آخر السورة مرتين فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ﴾ (النساء: ١٧٠) فأمرهم بالإيمان ليستطيعوا تحقيق الخيرية في وجودهم الحيوي.

ثم أعاد النداء مجددًا بعد ذلك بآيتين فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ (النساء: ١٧٤) فناسب ذلك بصورةٍ مدهشة جميع النداءات السابقة؛ فإنه في أول السورة امتن عليهم بالوجود الحيوي والانتشار، وهنا أخبرهم بأن القرآن المجيد هو نورهم في تنظيم هذا الوجود، وهو برهانهم على صدق هذا التنظيم.

وناسب موقع هذين أن يفصل بين الإعلانين الأخيرين للبشرية بالكلام عن غلاة النصارى لما تراه من تأثير عالمي واقعي مدهش للعالم النصراني في أحداث العالم، فبعد أن بين لهم حقائق دينهم الذي اعتراه التحريف، فقال: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ ۚ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ (النساء: ١٧١) خاطب الرأي العالمي، ومنهم الرأي العام النصراني فقال لهم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ (النساء: ١٧٤). يا رب هذا كتابك دستور العالم، ومنظم حركة العدل فيه.. اللهم قيض له من عبادك المخلصين من يظهره نوره في المشارق والمغارب، ويجعله المعين الأول للمآكل والمشارب.. ربَّنا:

لك في البرية حكمةٌ ومشيئةٌ أعيت مذاهبها أُولي الألبابِ
إن شئت أجريت الصحاري أنهرًا أو شئت فالأنهارُ موجُ سرابِ
ماذا دهى الإسلامَ في أبنائه حتى انطووا في محنةٍ وعذابِ ؟
فثراؤهم فقرٌ ودولة مجدهم في الأرض نهبُ ثعالبٍ وذئابِ
عاقَبْتنا عدلًا فهب لعدونا عن ذنبه في الدهر يوم عقاب
عاشوا بثروتنا وعشنا دونهم للموت بين الذل والإملاق
الدين يحيا في سعادة أهله والكأس لا تَبقى بغير الساقي
أين الذين بنار حبك أرسلوا الأنوار بين محافل العشاق
سكبوا الليالي في أنين دموعهم وتوضؤوا بمدامع الأشواق
والشمس كانت من ضياء وجوههم تُهدي الصباح طلائع الإشراق[1]

اللهم لك الحمد كله. اللهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لما أضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرب لما باعدت، ولا مباعد لما قربت، اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك. اللهم إني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول، اللهم إني أسألك النعيم يوم العيلة، والأمن يوم الخوف. اللهم إني عائذٌ بك من شر ما أعطيتنا، وشر ما منعتنا. اللهم حبب إلينا الإيمان، وزَيِّنه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين. اللهم توفنا مسلمين، وأحينا مسلمين، وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين.

ربنا اكتب لنا الدرس والتدريس والتذكر والتذكير والتعلم والتعليم..

(١) ديوان محمد إقبال (١/ ٩٧) .

انفعنا بما علمتنا، وعلمنا ما ينفعنا، وزدنا علمًا، واجعلنا للمتقين إمامًا، وآتنا من فضلك ورحمتك بفضلك ورحمتك أفضل ما تؤتي عبادك الصالحين، واجعلنا من عبادك المصطفين الأخيار، وارحم أمة عبدك محمد ﷺ أجمعين.

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الحَمْدَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ المَنَّانُ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَا ذَا الجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ يَا حَيُّ يَا قَيُّوم.

أَسْأَلُكَ يَا اللَّهُ الأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِى لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ أن تيسر لي إتمام تفسير كتابك على أحسن وجهٍ وأجمله وأكمله وأحبه إليك، وأرضاه عندك، وأكثره تأثيرًا في نفوس الخلق، وأعظمه بيانًا لإعجاز آياتك، وأن تلقي له القبول في العالمين يا أرحم الراحمين، واجعلني بذلك من المخلصين الشاكرين.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

والحمد لله رب العالمين.

عبد السلام مقبل المجيدي

٢١جمادى الأولى١٤٤٠هـ

الموافق٢٧يناير٢٠١٩م



أهم المصادر والمراجع

١- **إبراز المعاني من حرز الأماني**، لأبي القاسم شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي، المعروف بأبي شامة (ت ٦٦٥هـ)، دار الكتب العلمية.

٢- **أحكام القرآن**، لأبي بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص الحنفي (ت ٣٧٠هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ = ١٩٩٤م.

٣- **إحياء علوم الدين**، لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت ٥٠٥هـ)، دار المعرفة ، بيروت.

٤- **إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل**، لأبي عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (ت ١٤٢٠هـ)، إشراف: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي ، بيروت، ط٢، ١٤٠٥ هـ = ١٩٨٥م.

٥- **أساس البلاغة**، لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٩ هـ = ١٩٩٨م.

٦- **الإسلام والمسلمون بين أحقاد التبشير وضلال المستشرقين**. عبدالرحمن عميرة، دار الجيل، ١٩٩٩م.

٧- **الإشارات الإلهية إلىٰ المباحث الأصولية، نجم الدين أبو الربيع سليمان بن عبد القوي الطوفي الصرصري الحنبلي (ت٧١٦ هـ)، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١ ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.**

٨- **الأصمعيات (اختيار الأصمعي)**، لأبي سعيد عبد الملك بن قريب بن علي بن أصمع الأصمعي (ت ٢١٦هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر - عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، مصر، ط٧، ١٩٩٣م.

٩- **أصول السرخسي**، لأبي بكر محمد بن أحمد بن أبي سهل، شمس الأئمة السرخسي (ت ٤٩٠هـ)، تحقيق: أبو الوفاء الأفغاني، لجنة إحياء المعارف النعمانية، حيدر آباد، الهند.

١٠- **الأمالي**، لأبي علي إسماعيل بن القاسم بن عيذون القالي(ت ٣٥٦هـ)، عني بوضعها وترتيبها: محمد عبد الجواد الأصمعي، دار الكتب المصرية، ط٢، ١٣٤٤ هـ = ١٩٢٦م.

١١- **إنجيل برنابا**، نقل خليل سعادة، بتقديم محمد رشيد رضا ، القاهرة، مطبعة المنار، ط١، ١٩٠٠م.

١٢- **إنسانية الإسلام**، مارسيل بوزار، ترجمة، تحقيق: عفيف دمشقية، منشور ات دار الآداب بيروت ، ط١ ، ١٩٨٣م .

١٣- **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، لأبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد البيضاوي(ت ٦٨٥هـ)، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١، ١٤١٨ هـ.

١٤- **إيثار الحق علىٰ الخلق في رد الخلافات إلىٰ المذهب الحق من أصول التوحيد**، لابن الوزير، أبي عبد الله محمد بن إبراهيم بن علي بن المرتضىٰ بن المفضل الحسني القاسمي اليمني (ت ٨٤٠هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٩٨٧م.

١٥- **الاستذكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار وعلماء الأقطار فيما تضمنه الموطأ من معاني الرأي والآثار**، لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري القرطبي (ت ٤٦٣هـ)، تحقيق: عبد المعطي أمين قلعجي، دار قتيبة - دمشق، دار الوعي - حلب، **ط١**، ١٤١٤هـ =١٩٩٣م.

١٦- **البحر الزخار المعروف بمسند البزار**، لأبي بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق العتكي، المعروف بالبزار (ت ٢٩٢هـ)، تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله، وآخرين، مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة، ط١، ١٤٠٩هـ= ١٩٨٨م.

١٧- **البدء والتاريخ**، المطهر بن طاهر المقدسي (ت نحو ٣٥٥هـ)، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد.

١٨- **تاج العروس من جواهر القاموس**، لأبي الفيض محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، الملقّب بمرتضىٰ، الزَّبيدي (ت ١٢٠٥هـ)، تحقيق: مجموعة من المحققين، وزارة الإعلام بالكويت، ط٢، ١٤٠٧هـ=١٩٨٧.

١٩- **التاريخ الكبير**، لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري (ت ٢٥٦هـ)، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد ، الدكن، طبع تحت مراقبة: محمد عبد المعيد خان

٢٠- **التحرير والتنوير (تحرير المعنىٰ السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)**، لمحمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت ١٣٩٣هـ)، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤هـ.

٢١- **تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي**، لأبي العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري (ت ١٣٥٣هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٢- **تخريج أحاديث إحياء علوم الدين**، للعِراقي (٧٢٥ - ٨٠٦ هـ)، ابن السبكيٰ (٧٢٧ - ٧٧١ هـ)، الزبيدي (١١٤٥ - ١٢٠٥ هـ)، استِخرَاج: أبي عبد اللَّه مَحمُود بِن مُحَمّد الحَدّاد (١٣٧٤ هـ -؟)، ط١، دار العاصمة للنشر، الرياض، ١٤٠٨ هـ = ١٩٨٧م.

٢٣- **التعريفات**، لعلي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (ت ٨١٦هـ)، ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ =١٩٨٣م.

٢٤- **تعظيم قدر الصلاة**، لأبي عبد الله محمد بن نصر بن الحجاج المَرْوَزِي (ت ٢٩٤هـ)، تحقيق : د. عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي، مكتبة الدار، المدينة المنورة، ط١، ١٤٠٦هـ.

٢٥- **التعليقات الحسان علىٰ صحيح ابن حبان وتمييز سقيمه من صحيحه، وشاذه من محفوظه**، لأبي عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (ت ١٤٢٠هـ)، دار با وزير للنشر والتوزيع، جدة، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

٢٦- **تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلىٰ مزايا الكتاب الكريم)**، لأبي السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفىٰ (ت ٩٨٢هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٢٧- **تفسير الرازي (مفاتيح الغيب = التفسير الكبير)**، لأبي عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي، الملقب بفخر الدين (ت ٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ.

٢٨- **تفسير الطبري (جامع البيان في تأويل القرآن)**، لأبي جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري (ت ٣١٠هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ومحمود محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ= ٢٠٠٠م.

٢٩- **تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان**، لنظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري (ت ٨٥٠هـ)، تحقيق: الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ.

٣٠- **تفسير القاسمي (محاسن التأويل)**، لمحمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (ت ١٣٣٢هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ.

٣١- **تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم**، : لأبي محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (ت ٣٢٧هـ) تحقيق: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفىٰ الباز، المملكة العربية السعودية، ط٣، ١٤١٩هـ.

٣٢- **تفسير القرآن العظيم (ابن كثير)**، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت ٧٧٤هـ)، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ.

٣٣- **تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)**، لمحمد رشيد بن علي رضا القلموني الحسيني (ت ١٣٥٤هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.

٣٤- **تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)**، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي القرطبي (ت ٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢، ١٣٨٤هـ =١٩٦٤م.

٣٥- **تهذيب الأسماء واللغات**، لأبي زكريا محيي الدين يحيىٰ بن شرف النووي (ت ٦٧٦هـ)، عنيت بنشره وتصحيحه والتعليق عليه ومقابلة أصوله: شركة العلماء بمساعدة إدارة الطباعة المنيرية، دار الكتب العلمية، بيروت.

٣٦- **تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله ﷺ من الأخبار**: مسند علي بن أبي طالب رضي الله عنه، لأبي جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري (ت ٣١٠هـ)، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني ، القاهرة.

٣٧- **التنصير، تعريفه أهدافه وسائله حسرات المنصرين**، لعبد الرحمن بن عبد الله الصالح، دار الكتاب والسنة، ط١، ١٤٢٠هـ =١٩٩٩م.

٣٨- **تهذيب اللغة**، لأبي منصور محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي (ت٣٧٠هـ)، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي ، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

٣٩- **التوبيخ والتنبيه**، لأبي محمد عبد الله بن محمد بن جعفر الأنصاري، المعروف بأبِي الشيخ الأصبهاني (ت ٣٦٩هـ)، مجدي السيد إبراهيم، مكتبة الفرقان ، القاهرة.

٤٠- **الثقات**، للإمام الحافظ محمد بن حبان بن أحمد، أبي حاتم التميمي البستي (ت ٣٥٤هـ)، دائرة المعارف العُثْمَانِيّة بحيدر آباد الدكن الهند، ط١، ١٣٩٣ هـ= ١٩٧٣م.

٤١- **الجرح والتعديل**، لأبي محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس الرازي(ت٣٢٧هـ)، تحقيق: عبد الرحمن بن يحيىٰ المعلمي اليماني، دار إحياء التراث العربي - بيروت، مصوراً من الطبعة الهندية، ط١، ١٩٥٢م.

٤٢- **جمهرة أشعار العرب**، لأبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي (ت ١٧٠هـ)، حققه وضبطه وزاد في شرحه: علي محمد البجادي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.

٤٣- **الحجة في القراءات السبع**، لأبي عبد الله الحسين بن أحمد بن خالويه (ت ٣٧٠هـ)، تحقيق: د. عبد العال سالم مكرم، دار الشروق - بيروت، ط٤، ١٤٠١هـ.

٤٤- **الحلل في شرح أبيات الجمل**، لأبي محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي (ت ٥٢١هـ)، منشور علىٰ النت.

٤٥- **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، لأبي نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسىٰ بن مهران الأصبهاني (ت ٤٣٠هـ)، مكتبة الخانجي، القاهرة، دار الفكر، بيروت، ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م.

٤٦- **الحماسة للبحتري**، لأبي عُبَادة الوَليد بن عُبَيد البُحتري (ت ٢٨٤ هـ)، تحقيق د. محمَّد إبراهيم حُوَّر - أحمد محمد عبيد، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي، ١٤٢٨ هـ =٢٠٠٧م.

٤٧- **درر السلوك في سياسة الملوك**، لأبي الحسن علي بن محمد بن محمد البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (ت٤٥٠هـ)، تحقيق: فؤاد عبد المنعم أحمد، دار الوطن، الرياض.

٤٨- **دلائل الإعجاز في علم المعاني**، لأبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الجرجاني (ت٤٧١هـ)، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة - دار المدني بجدة، ط٣، ١٤١٣هـ =١٩٩٢م.

٤٩- **دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة**، لأبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي (ت ٤٥٨هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ.

٥٠- **دولة الإسلام في الأندلس**، لمحمد عبد الله عنان المؤرخ المصري (ت١٤٠٦هـ)، مكتبة الخانجي، القاهرة، جـ ١، ٢، ط٤، ١٤١٧ هـ =١٩٩٧م، جـ٣، ٤، ط٢، ١٤١١ هـ = ١٩٩٠م.

٥١- **ديوان امرِئ القيس**، لامْرئ القَيْس بن حجر بن الحارث الكندي(ت ٥٤٥ م)، اعتنىٰ به: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، ط٢، ١٤٢٥ هـ =٢٠٠٤م.

٥٢- **ديوان حسان بن ثابت**، شرحه وكتب حواشيه عبد أ مهنا ، بيروت - دار الكتب العلمية، ط٢ ، ١٤١٤هـ = ١٩٩٤م .

٥٣- **ديوان عمرو بن كلثوم**، جمع وتحقيق إيميل يعقوب، دار الكتاب العربي، ط٢، ١٤١٦هـ-= ١٩٩٦م.

٥٤- **الدين والدولة في تركيا**، كمال السعيد حبيب، مكتبة الإيمان ، جزيرة الورد بالقاهرة ، ٢٠١٠م.

٥٥- **رؤية إسلامية للاستشراق**، أحمد غراب، كتاب البيان ، ط٢ المنتدىٰ الإسلامي - لندن ١٩٩٠م.

٥٦- **الروضة الندية شرح الدرر البهية**، لأبي الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري القِنَّوجي (ت ١٣٠٧هـ)، دار المعرفة.

٥٧- **الزاهر في معاني كلمات الناس**، لأبي بكر محمد بن القاسم بن محمد بن بشار الأنباري (ت ٣٢٨هـ)، تحقيق: د. حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة ، بيروت، ط١، ١٤١٢ هـ =١٩٩٢م.

٥٨- **الزبد في الفقه الشافعي**، لأبي العباس أحمد بن حسين بن حسن بن علي ابن رسلان الشافعي (ت ٨٤٤هـ)، دار المعرفة، بيروت.

٥٩- **الزهد**، لأبي سفيان وكيع بن الجراح الرؤاسي (ت ١٩٧هـ)، حققه وقدم له وخرج أحاديثه وآثاره: عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي، مكتبة الدار، المدينة المنورة، ط١، ١٤٠٤ هـ = ١٩٨٤م.

٦٠- **سراج الملوك**، لأبي بكر محمد بن محمد ابن الوليد الفهري الطرطوشي المالكي (ت٥٢٠هـ)، من أوائل المطبوعات العربية، مصر، ١٢٨٩هـ = ١٨٧٢م.

٦١- **سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها**، لأبي عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (ت ١٤٢٠هـ)، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع،

الرياض، ط١، نشر (ج ١ / ٤) ١٤١٥ هـ =١٩٩٥م، ونشر(ج ٦) ١٤١٦ هـ = ١٩٩٦م، ونشر(ج٧) ١٤٢٢ هـ =٢٠٠٢ م.

٦٢- **سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة**، لأبي عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (ت ١٤٢٠هـ)، دار المعارف، الرياض، السعودية، ط١، ١٤١٢هـ = ١٩٩٢م.

٦٣- **شرح المعلقات السبع**، لأبي عبد الله حسين بن أحمد بن حسين الزَّوْزَني (ت٤٨٦هـ)، دار احياء التراث العربي، ط١، ١٤٢٣هـ =٢٠٠٢م.

٦٤- كتاب السُّنة لأبي بكر بن أبي عاصم وهو أحمد بن عمرو بن الضحاك بن مخلد الشيباني (ت ٢٨٧هـ)، (**ومعه ظلال الجنة في تخريج السنة لمحمد ناصر الدين الألباني**)، المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤٠٠هـ= ١٩٨٠م.

٦٥- **سُنَن أبي داود**، لأَبي دَاوُدَ سُلَيْمَان بن الأَشْعَثِ السِّجِسْتَانِيِّ (ت ٢٧٥هـ)، كتب الحواشي والتعليقات: محمود خليل.

٦٦- **سنن الترمذي**، لأبي عيسىٰ محمد بن عيسىٰ بن سَوْرة الترمذي (ت ٢٧٩هـ)، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر (جـ ١، ٢)، ومحمد فؤاد عبد الباقي (جـ ٣)، وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (جـ ٤، ٥)، شركة مكتبة ومطبعة مصطفىٰ البابي الحلبي، مصر، ط٢، ١٣٩٥هـ = ١٩٧٥م.

٦٧- **سنن الدارقطني**، لأبي الحسن علي بن عمر بن أحمد الدارقطني (ت ٣٨٥هـ)، تحقيق: شعيب الارنؤوط، حسن عبد المنعم شلبي، عبد اللطيف حرز الله، أحمد برهوم، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ-= ٢٠٠٤م.

٦٨- **سنن سعيد بن منصور**، لأبي عثمان سعيد بن منصور بن شعبة الخراساني الجوزجاني (ت ٢٢٧هـ)، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، الدار السلفية، الهند، ط١، ١٤٠٣هـ =١٩٨٢م.

٦٩- **السنن الكبرىٰ**، لأبي بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسىٰ الخُسْرَوْجِردي الخراساني البيهقي (ت ٤٥٨هـ)، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ١٤٢٤هـ- =٢٠٠٣م.

٧٠- **السنن الكبرىٰ وفي ذيله الجوهر النقي**، لأبي بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسىٰ الخُسْرَوْجِردي الخراساني البيهقي (ت ٤٥٨هـ)، مجلس دائرة المعارف، حيدر أباد، ط، ١٣٤٤هـ.

٧١- **سنن ابن ماجه**، لأبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني، وماجة اسم أبيه يزيد (ت ٢٧٣هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، فيصل عيسىٰ البابي الحلبي.

٧٢- **سنن النسائي بشرح السيوطي وحاشية السندي**، لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي (ت ٣٠٣هـ)، تحقيق: مكتب تحقيق التراث، دار المعرفة، بيروت، ط٥، ١٤٢٠هـ.

٧٣- **سنن النسائي الكبرىٰ**، لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي (ت ٣٠٣هـ)، تحقيق: د.عبد الغفار سليمان البنداري، سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط١ ، ١٤١١هـ = ١٩٩١م.

٧٤- **سير أعلام النبلاء**، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز، شمس الدين الذهبي (ت ٧٤٨هـ)، تحقيق، مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م.

٧٥- **شرح كتاب الحماسة للفارسي (مطبوع مع: شروح حماسة أبي تمام دراسة موازنة في مناهجها وتطبيقها)**، لأبي القاسم زيد بن علي الفارسيّ (ت ٤٦٧ هـ)، تحقيق: د. محمد عثمان علي، دار الأوزاعي، بيروت، **ط١**.

٧٦- **شرح صحيح البخاري لابن بطال**، أبي الحسن علي بن خلف بن عبد الملك، ابن بطال (ت ٤٤٩هـ)، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد، السعودية، الرياض، ط٢، ١٤٢٣هـ = ٢٠٠٣م.

٧٧- **شرح طيبة النشر في القراءات العشر**، لأبي القاسم محمد بن محمد بن محمد النُّوَيْري(ت ٨٥٧هـ)، تقديم وتحقيق: الدكتور مجدي محمد سرور سعد باسلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ = ٢٠٠٣م.

٧٨- **شرح نقائض جرير والفرزدق**، لأبي عبيدة معمر بن المثنىٰ (برواية اليزيدي عن السكري عن ابن حبيب عنه)، تحقيق: محمد إبراهيم حور – وليد محمود خالص، المجمع الثقافي، أبو ظبي، الإمارات، ط٢، ١٩٩٨م.

٧٩- **شعب الإيمان**، لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية بيروت، ط١، ١٤١٠هـ.

٨٠- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (ت ٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين ، بيروت، ط٤، ١٤٠٧ هـ- ١٩٨٧م.

٨١- **صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري**، لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري (ت ٢٥٦هـ)، حقق أحاديثه وعلق عليه: محمد ناصر الدين الألباني، دار الصديق للنشر والتوزيع، ط٤، ١٤١٨هـ = ١٩٩٧م.

٨٢- **صحيح البخاري (الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله وسننه وأيامه)**، لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي (ت ٢٥٦هـ)، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، ط١، ١٤٢٢هـ. وكذا طبعة دار الشعب ، القاهرة، ط١، ١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م.

٨٣- **صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان**، لأبي حاتم محمد بن حبان بن أحمد بن التميمي الدارمي البُستي (ت ٣٥٤هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة ، بيروت، ط٢، ١٤١٤هـ =١٩٩٣م.

٨٤- **صحيح ابن خزيمة**، لأبي بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة السلمي النيسابوري (ت ٣١١هـ)، تحقيق : د. محمد مصطفىٰ الأعظمي، المكتب الإسلامي - بيروت

٨٥- **صَحِيحُ التَّرْغِيب وَالتَّرْهِيب**، لأبي عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (ت ١٤٢٠هـ)، مكتَبَة المَعارف لِلنَشْرِ والتوزيْع، الرياض، ط١، ١٤٢١ هـ = ٢٠٠٠م.

٨٦- **صحيح الجامع الصغير وزياداته**، لأبي عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (ت ١٤٢٠هـ)، المكتب الإسلامي.

٨٧- **صحيح سنن أبي داود**، لأبي عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (ت ١٤٢٠هـ)، مؤسسة غراس للنشر والتوزيع، الكويت، ط١، ١٤٢٣هـ =٢٠٠٢م.

٨٨- **صحيح مسلم (المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلىٰ رسول الله)**، لأبي الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت ٢٦١هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي ، بيروت.

٨٩- **صحيح مسلم بشرح النووي**، لأبي زكريا محيي الدين يحيىٰ بن شرف النووي (ت ٦٧٦هـ)، المطبعة المصرية بالأزهر، ط١، ١٣٤٧هـ=١٩٢٩م.

٩٠- **الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين**، لأبي عبد الرحمن مقبل بن هادي الوادعي (ت ١٤٢٢ هـ)، دار الآثار – صنعاء، اليمن، ط٤، ١٤٢٨ هـ = ٢٠٠٧م.

٩١- **صحيح السيرة النبوية**، لأبي عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (ت ١٤٢٠هـ)، المكتبة الإسلامية، عمان – الأردن، ط١.

٩٢- **ضعيف الجامع الصغير وزيادته**، لأبي عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (ت ١٤٢٠هـ)، أشرف علىٰ طبعه: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي.

٩٣- **طبقات فحول الشعراء**، لأبي عبد الله محمد بن سلّام بن عبيد الله الجمحي (ت ٢٣٢هـ)، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة.

٩٤- **عِشرةُ النِّساءِ**، لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي (ت ٣٠٣هـ)، تحقيق: علي بن نايف الشحود، ط٣، ١٤٣٠هـ- = ٢٠٠٩م.

٩٥- **عُقُودُ الجُمَانْ في عِلْمِ الْمَعَانِي وَالْبَيَانْ**، وهو نظم لكتاب «تلخيص المفتاح» للخطيب القزويني (٧٣٩هـ)، لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، تحقيق وضبط: عبد الحميد ضحا، دار الإمام مسلم للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ١٤٣٣ هـ= ٢٠١٢ م.

٩٦- **العلم في منظوره الجديد، روبرت أغروس، وجورج ستانسيو**، ترجمة د.كمال خلايلي، الكويت، عالم المعرفة عدد١٣٤، ١٩٨٩م.

٩٧- **عمدة القاري شرح صحيح البخاري**، لأبي محمد محمود بن أحمد بن موسىٰ بن أحمد الغيتابىٰ الحنفىٰ، بدر الدين العينىٰ (ت ٨٥٥هـ)، دار إحياء التراث العربي ، بيروت.

٩٨- **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، لأبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي(٨٥٢هـ)، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف علىٰ طبعه: محب الدين الخطيب، عليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، دار المعرفة ، بيروت، ١٣٧٩هـ.

٩٩- **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**، لمحمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (ت١٢٥٠هـ)، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق- بيروت.

١٠٠- **فضائل القرآن وما أنزل من القرآن بمكة وما أنزل بالمدينة**، لأبي عبد الله محمد بن أيوب بن يحيىٰ بن الضريس (ت ٢٩٤هـ)، تحقيق: غزوة بدير، دار الفكر، دمشق – سورية.

١٠١- **فيض القدير شرح الجامع الصغير**، لزين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري (ت ١٠٣١هـ)، المكتبة التجارية الكبرىٰ، مصر، ط١، ١٣٥٦هـ.

١٠٢- **في ظلال القرآن**، لسيد قطب (ت ١٣٨٥هـ)، دار الشروق، بيروت – القاهرة، ط١٧، ١٤١٢هـ.

١٠٣- **فيلسوف الإسلام، وشاعر الإنسانية الهندي الباكستاني**: محمد إقبال.

١٠٤- **القاموس المحيط**، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادىٰ (ت ٨١٧هـ)، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي، ط٨، ١٤٢٦ هـ = ٢٠٠٥م.

١٠٥- **قذائف الحق**، لمحمد الغزالي السقا (ت ١٤١٦هـ)، دار القلم، دمشق، ط١، ١٤١١ هـ= ١٩٩١م.

١٠٦- **كتاب العين**، لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (ت ١٧٠هـ)، تحقيق: مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.

١٠٧- **الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار**، لأبي بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم العبسي (ت ٢٣٥هـ)، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد – الرياض، ط١، ١٤٠٩هـ.

١٠٨- **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**، لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ.

١٠٩- **الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية**، لأبي البقاء أيوب بن موسىٰ الحسيني القريمي الكفوي الحنفي (ت ١٠٩٤هـ)، تحقيق: عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة - بيروت.

١١٠- **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، لعلاء الدين علي بن حسام الدين القادري الشاذلي الهندي، الشهير بالمتقي الهندي (ت ٩٧٥هـ)، تحقيق: بكري حياني - صفوة السقا، مؤسسة الرسالة، ط٥، ١٤٠١هـ=١٩٨١م.

١١١- **رحلتي من الكنيسة إلىٰ المسجد لماذا؟** تقديم محمد عزت الطهطاوي، **مكتبة النور ، ط١، ١٤١٠هـ = ١٩٩٠م.**

١١٢- **المجالسة وجواهر العلم**، لأبي بكر أحمد بن مروان الدينوري المالكي (ت ٣٣٣هـ) ، تحقيق: أبي عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، جمعية التربية الإسلامية (البحرين - أم الحصم) ، دار ابن حزم (بيروت - لبنان)، ١٤١٩هـ.

١١٣- **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، لأبي الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (ت ٨٠٧هـ)، تحقيق: حسام الدين القدسي، الناشر: مكتبة القدسي، القاهرة، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م.

١١٤- **مجموع الفتاوىٰ**، لتقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (ت ٧٢٨هـ)، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، السعودية، ١٤١٦هـ=١٩٩٥م.

١١٥- **المحتضرين**، لأبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد البغدادي الأموي القرشي، المعروف بابن أبي الدنيا (ت ٢٨١هـ)، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ=١٩٩٧م.

١١٦- **محض الصواب في فضائل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب**، يوسف بن حسن بن أحمد الصالحي(ت ٩٠٩هـ)، تحقيق: عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة النبوية، السعودية، **ط١**، ١٤٢٠هـ=٢٠٠٠م.

١١٧- **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي (ت ٥٤٢هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ.

١١٨- مجموع **فتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية**. تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (المتوفىٰ: ٧٢٨هـ)، جمع وتحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

١١٩- **المرأة الجديدة**، قاسم أمين، مصر، مؤسسة هنداوي، ط١، ٢٠١٠م.

١٢٠- **المرأة في التصور الإسلامي**، عبد المتعال الجبري، القاهرة: مكتبة وهبة، ط١٠ ، ١٤١٤= ١٩٩٤م .

١٢١- **مساوئ الأخلاق ومذمومها**، لأبي بكر محمد بن جعفر بن محمد بن سهل بن شاكر الخرائطي السامري (ت ٣٢٧هـ)، تحقيق: مصطفىٰ بن أبو النصر الشلبي، مكتبة السوادي للتوزيع، جدة، ط١، ١٤١٣هـ = ١٩٩٣م.

١٢٢- **المستدرك علىٰ الصحيحين**، لأبي عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد النيسابوري، المعروف بابن البيع (ت ٤٠٥هـ)، تحقيق: مصطفىٰ عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية ، بيروت.

١٢٣- **المسلمون والحضارة الغربية**، د. سفر الحوالي، ٦مج ، ط١، نشر دارة – بيروت ٢٠٢٠م.

١٢٤- **مسند أبي داود الطيالسي**، لأبي داود سليمان بن داود بن الجارود الطيالسي البصرىٰ (ت ٢٠٤هـ)، تحقيق: الدكتور محمد بن عبد المحسن التركي، دار هجر، مصر، ط١، ١٤١٩ هـ = ١٩٩٩م.

١٢٥- **مسند أبي يعلىٰ**، لأبي يعلىٰ أحمد بن علي بن المثنىٰ الموصلي (ت ٣٠٧ هـ)، تحقيق: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، جدة، ط٢، ١٤١٠هـ- = ١٩٨٩م.

١٢٦- **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، لأحمد بن حنبل الشيباني (ت٢٤١هـ)، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٢٠هـ = ١٩٩٩م، وكذا طبعة عالم الكتب، بيروت، بتحقيق: السيد أبو المعاطي النوري، ط١، **١٤١٩هـ = ١٩٩٨م**.

١٢٧- **مسند الإمام الشافعي**، لأبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي القرشي المكي (ت ٢٠٤هـ)، : دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٠هـ.

١٢٨- **مسند الدارمي المعروف بـ(سنن الدارمي)**، لأبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل الدارمي، التميمي (ت ٢٥٥هـ)، تحقيق: حسين سليم أسد الداراني، دار المغني للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤١٢ هـ = ٢٠٠٠م.

١٢٩- **مسند الشاميين**، لأبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي الطبراني (ت ٣٦٠هـ)، تحقيق : حمدي بن عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة ، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ =١٩٨٤م.

١٣٠- **مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه**، لأبي العباس شهاب الدين أحمد بن أبي بكر البوصيري الكناني الشافعي (ت ٨٤٠هـ)، تحقيق: محمد المنتقىٰ الكشناوي، دار العربية ، بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ.

١٣١- **المصنف**، لأبي بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني (ت ٢١١هـ)، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المجلس العلمي- الهند، ط٢، ١٤٠٣هـ.

١٣٢- **المطَالبُ العَاليَةُ بِزَوَائِدِ المسَانيد الثّمَانِيَةِ**، لأبي الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، تحقيق مجموعة من الباحثين في ١٧ رسالة جامعية، تنسيق: د. سعد بن ناصر بن عبد العزيز الشَّثري، دار العاصمة للنشر والتوزيع - دار الغيث للنشر والتوزيع، ط١، من المجلد ١ - ١١: ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م، ومن المجلد ١٢ - ١٨: ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠م.

١٣٣- **المعجم الصغير**، لأبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي الطبراني (ت ٣٦٠هـ)، ويليه رسالة غنيد الألمعي لمؤلفها العلامة الحافظ أبي الطيب شمس الحق العظيم آبادي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.

١٣٤- **المعجم الأوسط**، لأبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي الطبراني (ت ٣٦٠هـ)، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة.

١٣٥- **المعجم الكبير**، لأبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي الطبراني (ت ٣٦٠هـ)، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، دار النشر: مكتبة ابن تيمية ، القاهرة، ط٢.

١٣٦- **معجم مقاييس اللغة**، لأبي الحسين أحمد بن فارِس بن زكَرِيّا، تحقيق: عبد السَّلام محمد هَارُون، اتحاد الكتاب العرب، ١٤٢٣هـ = ٢٠٠٢م، وكذا نسخة دار الفكر ١٣٩٩هـ =١٩٧٩م.

١٣٧- **معرفة الصحابة**، لأبي نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصبهاني (ت ٤٣٠هـ)، تحقيق: عادل بن يوسف العزازي، دار الوطن للنشر، الرياض، ط١، ١٤١٩ هـ =١٩٩٨م.

١٣٨- **المعرفة والتاريخ**، لأبي يوسف يعقوب بن سفيان بن جوان الفارسي الفسوي (ت ٢٧٧هـ)، تحقيق: أكرم ضياء العمري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤٠١هـ=١٩٨١م.

١٣٩- **المعلقات العشر وأخبار شعرائها**، لأحمد الأمين الشنقيطيٰ، دار النصر.

١٤٠- المغني عن حمل الأسفار، لأبي الفضل زين الدين عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن العراقي (ت ٨٠٦هـ)، تحقيق: أشرف عبد المقصود، مكتبة طبرية، الرياض ، ١٤١٥هـ = ١٩٩٥م.

١٤١- **مفردات القرآن - نظرات جديدة في تفسير ألفاظ قرآنية**، عبد الحميد الفراهي الهندي (ت: ١٣٤٩هـ)، المحقق: د/ محمد أجمل أيوب الإصلاحي، الناشر: دار الغرب الإسلامي، ط١، ٢٠٠٢م.

١٤٢- **المفردات في غريب القرآن**، لأبي القاسم الحسين بن محمد، المعروف بالراغب الأصفهانيٰ (ت ٥٠٢هـ)، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية، دمشق - بيروت، ط١، ١٤١٢هـ.

١٤٣- **مقدمة ابن خلدون**، وهي الكتاب الأول من تاريخه المسمىٰ: ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر: لأبي زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون الحضرمي الإشبيلي (ت ٨٠٨هـ)، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٤٠١ هـ = ١٩٨١م.

١٤٤- **المنتخب من مسند عبد بن حميد**، لأبي محمد عبد الحميد بن حميد بن نصر الكَسّي (ت ٢٤٩هـ)، تحقيق: الشيخ مصطفىٰ العدوي، دار بلنسية للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢٣هـ = ٢٠٠٢م.

١٤٥- **موسوعة الرد علىٰ المذاهب الفكرية المعاصرة**، جمع وإعداد : علي بن نايف الشحود، مستودع المكتبة الشاملة.

١٤٦- موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، للدكتور عبد الوهاب المسيري، مستودع المكتبة الشاملة.

١٤٧- **الْمُوَطَّأ (رواية يَحيىٰ بن يَحيىٰ اللَّيثيِّ الأَنْدَلُسِيِّ)**، لإمام دار الهجرة، لمالك بْنِ أَنَسٍ الأَصْبَحِيِّ (ت ١٧٩هـ)، تحقيق: الدكتور بشار معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

١٤٨- **الوجل والتوثق بالعمل**، لأبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد الأموي القرشي، المعروف بابن أبي الدنيا (ت ٢٨١هـ)، تحقيق: مشهور حسن آل سلمان، دار الوطن، الرياض، ط١، ١٤١٨ = ١٩٩٧م.

١٤٩- **الوسيط في تفسير القرآن المجيد**، لأبي الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (ت ٤٦٨هـ)، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥ هـ=١٩٩٤م.

١٥٠- **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، لأبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي (ت ٨٨٥هـ)، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

151- net.Static.arabi21 موقع (عربي ٢١) على الانترنت ١٠فبراير ٢٠١٩م .

محتويات الجزء الثالث

المحور السادس: التنظيم الإلهي للسلطة القضائية لحماية القسط في الحقوق الإنسانية (النساء:١٠٥-١٣٦) ١١١٧

القسم الأول: أهم القوانين القضائية التي تضمن حق المظلومين (النساء:١٠٥-١١٣) ١١٢٣

القسم الثاني: (بث الحياة الإنسانية) يقتضي إقامة الجهود الفردية والمؤسسية التي تهتم بالمجتمعات، وتعزز وظيفة القضاء في القيام بالقسط، والتحذير من التنظيمات المضادة التي تشاق الحياة القويمة (النساء:١١٤-١١٥) ١١٥٩

القسم الثالث: حق العالم في معرفة أخطر الأهداف الشيطانية التي تحرف الإنسانية عن وجود مرجعية دستورية قضائية نقية، وتجعلها عرضة للافتراس الشيطاني (النساء:١١٦-١٢٢) ١١٨٠

القسم الرابع: العمل أساس القسط في الحقوق الحيوية، والفصل القضائي، وأسس النجاة من الخطة الشيطانية، والفوز بنعيم الاصطفاء الإلهي (النساء:١٢٣-١٢٦) ١٢١٥

القسم الخامس: من أهم أسس القسط في الواقع الإنساني: تطبيق فتاوى الانتصار الحقوقي، والقضائي للنساء والأطفال (النساء:١٢٧) ١٢٤٦

القسم السادس: النساء بين الاستغلال الشيطاني، والانتصار القضائي(النساء:١٢٨-١٣٠) ١٢٦٠

القسم السابع: أعمدة الحياة الحقوقية العالمية السعيدة (النساء:١٣١-١٣٦) ١٢٧٩

المحور السابع: التنظيم الإلهي لمعرفة الذين يتلاعبون ببث الحياة الإنسانية، ويمنعون القسط فيها، ويشيعون الظلم والغلو (التطرف) في العالم (النساء:١٣٧-١٧٣) ١٣١٣

الصنف الأول: المفسدين من (المسلمين) وهم قوىٰ النفاق المتذبذبة بين الكفر والإيمان، وهم الصنف الأشد خطورة في التلاعب بالحقوق الإنسانية (النساء:١٣٧-١٥٢) .. ١٣٢٠

الفصل الأول: أهم صفات قوىٰ النفاق التي تمتص الحقوق الإنسانية (النساء:١٣٧-١٤٣) ١٣٢٠

الفصل الثاني: حق البشرية في معرفة العوامل التي تحفظ من كيد المنافقين، وتمنع من نزول العذاب، وفشل الدول، وتدمير الحضارة (النساء:١٤٤-١٥٢) ١٣٦٢

الصنف الثاني: المفسدين من اليهود (النساء:١٥٣-١٧٠) ١٤٠٠

الفصل الأول: أسوأ الانتهاكات التي اقترفوها في حق أنفسهم والعالم، مما تلاعبوا فيه بالحقوق الإنسانية (النساء١٥٣-١٥٥) ١٤٠٠

الفصل الثاني: أسوأ انتهاكاتهم ضد العالم النصراني (النساء:١٥٦-١٥٩) ١٤٢٦

الفصل الثالث: انتهاكات المفسدين من اليهود في الجوانب الاجتماعية، والاقتصادية ضد أنفسهم، والعالم (النساء:١٦٠-١٦١) ١٤٧٣

الفصل الرابع: الإشادة بالفئة المؤمنة من اليهود، وجعلهم أنموذجًا للناس (النساء:١٦٢) ١٤٨٣

الفصل الخامس: حق العالم في معرفة أسس الوحي الذي نزل علىٰ جميع الأنبياء، ومنهم: أنبياء أهل الكتاب (النساء:١٦٣-١٧٠) ١٤٩٥

الصنف الثالث: المفسدون من النصارىٰ (النساء:١٧١-١٧٣) ١٥٢٦

الحقيقة الأولىٰ: ضرورة مخاطبة أهل الكتاب، وخاصة النصارىٰ؛ سواء من خلال النداء العام أم من خلال عقد الحوارات الدائمة معهم ١٥٢٧

الحقيقة الثانية: التطرف في الدين طبعٌ أصيل عند بعض أهل الكتاب، خاصة بعض القيادات الدينية، والسياسية، بخلاف الشائع عالميًّا ١٥٢٨

الحقيقة الثالثة: إعلام الرأي العام النصراني والعالمي بالطبيعة الحقيقية المجيدة للمسيح عيسىٰ بن مريم عليهما الصلاة والسلام ١٥٣٢

الحقيقة الرابعة: الواجب عليكم بعد معرفة حقيقة المسيح عليه السلام: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ جميعًا ١٥٤٤

الحقيقة الخامسة: التوقف عن التثليث ١٥٤٥

الحقيقة السادسة: ينبغي إعلان الوحدانية الحقيقية في الألوهية لله دون سواه، فهي السبيل الوحيد لتفسير الكون ١٥٥٠

الحقيقة السابعة: التوقف عن جريمة ادعاء الولد لله تعالىٰ، فهو يناقض مبدأ الألوهية الحقيقية ١٥٥١

الحقيقة الثامنة: الله وكيل لعباده في القيام علىٰ احتياجاتهم، فكيف يحتاج للولد ليتوكل عن عباده في الدفاع عن خطاياهم ١٥٥٥

الحقيقة التاسعة: أن يعلموا أن المحاسبة علىٰ العقائد أخروية، وليست دنيوية، (النساء:١٧٣) ١٥٥٧

خاتمة السورة: حق العالم في التعرف إلىٰ الكتاب الحق الذي يبث الحياة الإنسانية، ويحل مشاكلها، فيجمع بين العقل والعاطفة، ويحمي الإنسانية من الضلالة والجهالة، والتأكيد علىٰ استكمال حقوق الأسرة المتوسطة (النساء:١٧٤-١٧٦). **١٥٥٩**

القسم الأول: الإعلان العالمي للدستور الإلهي الخاتم الذي يجمع بين المعجزة والمنهج ويُقَدِّم الحلول الحقيقية للبشرية (النساء:١٧٤-١٧٥) ١٥٦٢

القسم الثاني: الختم ببيان مسألة الكلالة (النساء:١٧٦) ١٥٧٢

محتويات الجزء الثالث ١٦٠٥



تم الكتاب بحمد الله



قرآن يتلىٰ لإنسانية ترقىٰ

هذا الكتاب

هو (التفسير المفصل) لـ (بصائر المعرفة القرآنية في سورة النساء-التفسير الكلي) أقدّمه لك: لترى وجهًا مذهلًا من أوجه البينة القرآنية المتجددة. سترى بصائر هذه السورة جاءت (برهانًا) على أنها الوحي الحق النازل للخلق، و(نورًا مبينًا) يهدي الإنسانية لتنظيم حياتها، وحل مشاكلها المزمنة المستعصية... وبعد تأمل شارف ست سنوات، وتدبر لدقائق البصائر التي أضاءت بها هذهً السورة على علمائنا وصلتُ إلى أن موضوعها الكلي وعمودها الذي تتمحور حوله: بث الحياة الإنسانية: وتنظيمها الإلهي الحقوقي، وحماية المستضعفين وخاصة النساء والأطفال...

تقدم السورة انتصارًا مبكرًا، وتقنينًا ربانيًا لبث الحياة الإنسانية، فبصائرها تقسم الحقوق بين البشر بالقسط، وتنقذ المستضعفين خاصة الأطفال والنساء من الظلم الهائل الذي مسهم ويمسهم من الجاهليات القديمة، والمعاصرة.

تزعم المنظمات الدولية، ومؤتمرات المناخ والسكان والتنمية تبني هذه المعاني، لكنها ما زالت تائهة متلاعبة لا تستطيع الوصول إليها بسبب (الشح)، و(البخل) و(أكل الأموال بالباطل) و(عدم أداء الأمانات إلى أهلها)، وضعف الإمكانات العقلية والنفسية البشرية عن تسطير (التشريعات المقسطة) للإنسانية...

بصائر هذه السورة تقدم العلاج الحقيقي لذلك كله..

تكونت السورة من مقدمة، وسبعة محاور، وخاتمة. كل كلمة فيها تجذبك نحو الأخرى في اتصال متتابع، عسى أن يجد القارئ في هذه البصائر بردًا وسلامًا لنفسه الظامئة إلى الحقيقة، وأن يلمس فيها أنوارًا صافية ذات بهجة تحمي من الذين يتبعون الشهوات، وتحرس من الذي يميلون بالعالم ميلًا عظيمًا.

9 789927 154119